

صَلَاةُ الْمُتَّقِينَ

مُحَاضِرَاتُ فِي آدَابِ الصَّلَاةِ وَأَسْرَارِهَا

صَلَاةُ الْمُتَّقِينَ

مُحَاضِرَاتٌ فِي آدَابِ الصَّلَاةِ وَأَسْرَارِهَا

الشَّيْخُ عَبْدُ اللطيفِ عَلِي الشَّيْبِ

تحرير وصياغة

علي علي آل موسى

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ

الإهداء

إلى من تتضح الإنسانية ألقاً من جميع نواحيه..
إلى من توحد فيه الملاك والفقيه والفيلسوف..
إلى من أبتتنا في مروج أخلاقه الفيحاء..
وسقانا زلال العلم من ينابيع يديه..
إلى من تطلّعت أعناقنا إليه فقيهاً،
وتحطّمت سفينة آمالنا بوفاة شاباً..
إلى أستاذنا الفذّ الشيخ عبد اللطيف الشبيب
نهدي بعض ثمرات دوحه الوافر..

المقدمة

من يتأمل في مختارات سماحة الشيخ عبد اللطيف الشيب قُدِّسَتْ لدروسه غير الحوزوية، يدرك اهتمامه العميق ببناء الإنسان، وهو الذي كان يردد دائماً على مسامعنا: (الإنسان قبل البنيان).

كان محور اهتمامه بناء الإنسان المتدين المتفقه المثقف الواعي، وهو ما اشتغل عليه بجدّ طيلة عمره الشريف، متسلحاً برؤية واضحة وبصيرة ثابتة.

نظرة سريعة في عناوين ما تركه سماحته من تراث غير حوزوي تؤكد لنا هذا الاستنتاج: (محاضرات أخلاقية في صفات المتقين من نهج البلاغة، محاضرات في شرح بعض قصار كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، كتاب الموت: بصائر وأحكام، كيف نستقبل شهر رمضان؟، الصوم آدابه وأحكامه، المثقف وأمانة الكلمة، العولمة الثقافية، قبسات من حياة الزهراء، وهذا الكتاب الذي بين يديك).

هذا الكتاب هو مجموعة محاضرات ألقاها في (آداب الصلاة وأسرارها)، ثمّ قام بعد رحيله تلميذه النجيب الشيخ علي علي آل موسى بتحقيقها وصياغتها، فأجاد وأتقن، وضرب لنا مثلاً في الوفاء للأستاذ الذي كان هو بذاته أيقونة لهذا الخلق العظيم. حين تبدأ بقراءة هذا الكتاب ستشعر أنّك تعرّج بروحك في رحلة عرفانية تحلّق بك في سماء الصلاة المستفتحة لأبواب الرحمة، المستمطرة سحائب النور، وستشتم

الروائح الزكية المنبعثة من قوارير عطر الكلمات النقية الصادرة من قلب صاحبها إلى قلب المتلقي مباشرة دون وسيط. فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ يحرص على أن يشطب المسافات بينه وبين من يريد إيصال رسالته إليه، وكان مفتاحه في ذلك: صدقه، ونقاء سريره، وتمثله بمضمون الرسالة قبل غيره. كانت مقولة الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ حاضرة عنده بقوة: «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ».



يتمتع الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذِكَايَةِ الْوَقَادِ، وَإِحَاطَتِهِ بِالْمَطَالِبِ، وَهُوَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُ بَحْثُهُ الْإِسْتِدْلَالِي فِي كِتَابِ النِّكَاحِ، وَالَّذِي لَمْ يَرَ النُّورَ بَعْدَ، يَتَمَتَّعُ بِقُدْرَةِ بَيَانِيَةِ سَاحِرَةِ تَقَرُّبِ الْبَعِيدِ، وَتَسَهُّلِ الْعَسِيرِ، وَتَكْشُو النَّصُوصِ حُلُلًا أُنِيقَةً بِدِيعَةٍ؛ لِتَكُونَ بَلِيغَةً الْمَعْنَى وَالْمَبْنَى.

وربما أجد من المناسب - هنا - أن أنقل بعضًا من نصّ أهدانيه عام ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م بعد أن أهديته قصيدة كتبها في ذلك الوقت. يقول في نصّه الأدبي ذي المسحة العرفانية:

«اجمع حقائب السفر..، تطلّع إلى الزمن القادم في عمق التيه..، إنّه الموعد..، ها قد ذرّفت على الأربعين، ترى هل تكون أربعين التيه ومحنة عبّاد العجل هي الحاكمة في زمن الجفوة؟!، لست أدري!!، ولكن اجمع حقائب السفر، فهذا التيه لا يترك وجدًا لعاشق...

أيّها العاشق المترجّل عن جواد العشق، امتطّهِ دون أدنى وجل!!!، آه.. لا يزال المعشوق بعيد المنال، وها أنت تحمل عشق السنين ووجد الزمان. تطوف بكلّ حناياك.. دونما أشرعة.. دونما بوصلة..، حدّق جيّدًا أيّها الواله، لا تحدّث بسرّك حتى لنفسك، لا تأتمنها على بقايا الوجد خشية أن ينفلت الزمام، فتمسي وحيدًا فوق هذه الوحدة التي أسأمتك طوال سنين الغرام...

مهلاً... لا تفكر في البقاء، سافر دونما أشربة، ودونما بوصلة إلى جنة المعشوق،
تتبه بسيرك، ولا تتبه هذا البقاء...

اعقد العزم، والكل باقٍ، لكنهم لا يمتلكون هذا العشق المضطرم في وجد
نفسك..

أيها الحائر، اقفز فوق جدار الصمت، وحطم هذي الأغلال، فالمعشوق قد
شرع أبواب الحب دونما شرط سوى (المعرفة)....».

ملمح آخر يظهره بيانه، وتجليه سيرته، هو عشقه لأهل البيت عليه السلام، فكان
جلياً في كل دروسه وخطاباته ومحاضراته، فكانوا هم بوصلته في خطوات مسيرته
التكاملية، وكانوا وسيلته في العروج نحو ربه. والنص التالي من هذا الكتاب يضيء لنا
بعض جوانب ذلك العشق المحمود.

يقول رحمته الله:

«ونحن لا نطمع أن ندخل الجنة بأعمالنا، وليس هناك أحد يرجو أن يدخل
الجنة بعمله، ولكن نرجو أن نكون (ممن يأخذ بحُجزتهم، ويمكث في ظلهم) يوم
القيامة، ولا أظن أنهم سيخذلوننا، أظن أحد فيكم أنهم سيخذلوننا؟!

أنا شخصياً قلبي مفعم قناعة بأن أهل البيت عليه السلام أصحاب كرم واسع لا يُحد،
وفضل عميم لا يوصف، ولا أظن أنهم سيخذلوننا بعد هذا العمر الذي قضيناه في
ظل عقيدتهم الصافية، وفي ظل الاستمداد من تشريعاتهم الأصيلة، والاستنان بسنتهم
المباركة وهدْيهم الكريم، وفي ظل الفرح والاستبشار لأفراحهم، والحزن والبكاء
واللطم والعزاء لمصابهم، وبعد مكابدة مصائب الزمان وتجرع مرارة الدنيا بسبب
موالاتهم، وكبير عليهم أن يخذلونا ويتركونا في ذلك اليوم وقد ذقنا المرارة هنا
لأجلهم، نسأل الله شفاعتهم.

وقناعتي هذه ليست مسألة وجدانية اعتباطية، فنحن لا نمنّ عليهم باتباعنا لهم، وإنما هي قناعة مؤسّسة على رواياتهم الشريفة).

هذا النصّ الموجز يقول الكثير، ويغنينا عن قول الكثير؛ لذا أترككم في رحلة ممتعة مع الكتاب الذي يبحث (خير موضوع).

بدر شبيب الشبيب

١٤٣٧ / ٣ / ٣٠ هـ

٢٠١٦ / ١ / ١٠ م

أمّ الحمام / القطيف

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيب رحمته الله —

الملاك والفقيه والفيلسوف

سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيب رحمته الله

لسان صدق في الآخرين:

مذ وطأت رجلاي ثرى حوزة الإمام القائم المباركة في طهران نهاية ١٤٠٧ هـ/
١٩٨٧ م، وذهني تتقاطر عليه معزوفات قيثار عذبة عن طود شامخ اسمه الشيخ أبو
علي الشيب، يتفجر العلم من حناياه، وتفيض العبادة من محياه، وتنضح الأخلاق من
جميع جوانبه.

لم يسبق لعدسة عيني أن التقطت صورته، ولا ليراعة ذاكرتي أن سطرت شيئاً
عنه!!

ومضت الساعات تنحت جسم الزمن، وقطار الدراسة يهرول قاطعاً المسافات
الأولى لطالب مبتدئ، وصاحب الاسم يكبر كأمواج البحر، ويستطيل كشعاع الشمس،
ويتضوع كعبق الزهور.

* * * * *

الناي الفجيع:

مضى الفصل الأول من العام الدراسي الأول ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، وأذن الفصل الثاني بالأفول، ولم أرَ صاحب المجد الباذخ، الشيخ أبا علي، وأظلت الكون بهجة مولد الإمام الحجة المنتظر (١٥ شعبان)، وأشادت الحوزة حفلها الكبير الراجع، وهب الطلاب للحفل كالحل إلى الزهرة، ووقفوا إجلالاً وإكباراً للنشيد الأممية (لمستضعف الأرض قلنا: نعم)، تترنم به حناجرهم الشابة، وبعد آيات من الذكر الحكيم أعلن المقدم: (وأما الآن فمع كلمة الحفل وسماحة الشيخ أبي علي)!!

قام شخص متوسط الطول، معتدل القوام، طبعت شمس الخليج بصمتها على وجهه، تتوجّه عمامة بيضاء وقور، شكله وطريقة حديثه ونظراته وإشاراته تحكي صفاء البلور، وزلال العلم، ونبل العرفان، وجلال الأخلاق، وتثير - كالناي - لواعج القلب.

بدأ حديثه بأبيات من عينية السيّد حيدر الحلّي:

الله، يا حامي الشريعة أتقرّ وهي كذا مروعة؟!
ماتَ التصبُّرُ بانتظارِكَ أيّها المحيي الشريعة^(١)
وكم غصّ باللحن الشجيّ، وسعرت قلبه نارُ البُعد والفراق؛ راح يكرّر كلمة (الله.. الله)، تفصل بينهما آهة حسرى، وأنفاسه تتحرّق، وصوته يتهدّج!!

إنّها أغنية الهيام!!

إنّها خمرة العشق!!

إنّها نيران الشوق لمحجوب بهيّ!!

إنّها سَكينة الأُنس بمحضر الحبيب!!

كانت تلك هي الرشفة الأولى التي جرعتها من هذه الخمرة الصبوح الزلال، علّمتنا

(١) السيّد حيدر الحلّي، ديوان السيّد حيدر الحلّي، تحقيق: علي الخاقاني ١/ ٨٨-٨٩.

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيب رحمته —

أَنَّ حبَّ الله أكبر ملذة في الحياة، وأعظم نعمة في طريق السلوك إليه، حتى تذوب القطرة في النهر، وتزول ملوحتها في حريق زلاله، وأنَّ كلَّ مريض يودُّ أن يشفى إلا مريض الحبّ..، فأكثر ما يقلقه شفاؤه، وأنَّ عذاب (نار الفراق) أشدَّ ضراوة وألمًا من عذاب (نار جهنم) و(نار السعير)، ولذعات ثعابينها الفارعة كالنخيل السحوق، ولسعات عقاربها المكتنزة كالبغال السَّمان، وبذلك نصفَّ أرجلنا خلف أمير المؤمنين عليه السلام لندد معه: «إلهي..، هبني صبرتُ على عذابك، فكيف أصبر على فراقك، وهبني صبرتُ على حرِّ نارك، فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك»^(١)، «وإنَّ أدخلتني النَّار أعلمتُ أهلها أنَّي أحبُّك!!»^(٢).

ومع أنَّي حضرتُ مئات الاحتفالات عن العترة الطاهرة، وعن الإمام الحجة المنتظر - عجلَّ الله فرجه الشريف -، إلا أنَّني اليوم أشعر بهيام حارقٍ لحبيبٍ آسر، أبعدتنا عنه سطوة الذنوب، وصروف الزمن العاتي، ونزوات الجائرين، ويتملكني نحوه شعورٌ فاجعٌ بالفقد، تكسوه رغبة عارمة في البكاء والعويل!!

بعد الحفل هلَّت أسئلتنا اللجوج عمَّن يكون هذا الخطيب المذهل الذي لم نعرف عنه إلا أنَّه (الشيخ أبو علي)!!؛ فقليل لنا: هو الشيخ أبو علي الشيب (من أمِّ الحمام، بالقطيف).

يا لها من مفاجأة صاعقة، ها نحن - إذًا، ودون مقدّمات - أمام الطود الأشم!!
ومع أنَّنا سمعنا عنه كثيرًا، لكنّه - بحقّ - فوق كلِّ ذلك..
كان هذا لقاءنا الأول..

* * * * *

(١) الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، مصباح المتهجّد / ٨٤٧ (دعاء آخر، وهو دعاء الخضر عليه السلام)، والشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان / ٦٥ (دعاء كميل بن زياد).
(٢) ابن طاووس، إقبال الأعمال / ٢٩٧، الفصل ١٠، (فيما نذكره من الدعاء في شعبان، مروي عن ابن خالويه)، (المناجاة الشعبانية)، والشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار ٩١ / ٩٨، (مناجاة مولانا علي عليه السلام، والأئمة عليهم السلام في شهر شعبان).

الملاك الواله:

لملم شهر شعبان وشاحه ورحل، وأقبل شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، ومن عادة الحوزة المباركة إقامة مجالس الذكر والعبادة جماعية في المسجد، فهكذا يتلو الجميع جزءاً من كتاب الله يومياً، وهكذا تبكي المجالس الحسينية في الليل، وهكذا تزهو بالعبادة ليالي القدر.

كنّا نحبي أعمال ليلة القدر، وقبل أن نسدل عليها ستار الانتهاء كان هناك شخص ينهكه المرض، لكنّ الهمة العالية هي التي تحدو بخطاه، كان يطوي عباءته جانباً، وبينما نصلّي صلاة القدر المكوّنة من ركعتين فقط، يصلّي صلاتها المكوّنة من خمسين ركعة!!

كنتُ أذهل - وأنا ابن الثامنة عشر - والفتوة ملء إهابي: ما بال هذا الذي طعنه المرض، روحه فتية كالطير، ألا يشعر بالتعب؟!، هل تسكره خمرة العشق هكذا؛ حتى يتشبّث بنخب العبادة وسلافتها؟!!

إذا.. هذا الفتون بالله، وبآناء الوصال، ولحظات السكر، هو ما جعل لحنك في الحفل يتّقد بالجمر، وينفث حشاشة البركان.

* * * * *

عقد الجمان:

مع نهاية العام الدراسي الأول في حوزة الإمام القائم عليه السلام، وكان ذا ثلاثة فصول.. أنهينا (خلاصة الأصول)، للشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي، وقسطاً من كتاب (الأصول في ثوبه الجديد)، للشيخ محمد جواد مغنية.

— الملاك والفقهاء والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيبب رحمته —

ومع افتتاح العام الدراسي الثاني ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م قررت الحوزة المباركة أن
نلج ساحة (أصول المظفر)، وسيكون مدرسنا فيه الشيخ أبا علي الشيبب.

لقد غمرتنا حلل سمعتك، وأسكرتنا تنهدات حبك لله، وعلى نار أحر من الجمر
نترقب درسك!!

وجاء يوم السبت، ودخل الأستاذ الفصل، وكانت له مهابة الملوك، فوقفنا له
إجلالاً، وصدحنا بنشيد الأُمّية، وحين كنّا نسترق النظرات إليه كان يلوح لنا وجه لا
ينتشي للأبهة، ولا تحتفي نفسه بالمظاهر.

أقلع الدرس، وطافت الأشضاء، وتراصف عقد الجمان، ومع أنّ عادة درس
الأصول أن يكتسي صلابة الألماس، إلا أنّ درس الشيبب كان مغموساً بندى الفجر
وغصون البان، ومتوشحاً بعباءة زاهية فريدة: فمن الربط بالله، وغرس أشجار الحبّ
الواله للحبيب الأوحد والمحبوب الأكبر، إلى المنهجية والتنسيق وكأنّه خريطة نسجت
مخملها ريشة مهندس قدير، ومن سعة السماء وشمول البحر، إلى عمق المناجم
والمحيطات، ومن التوليد المذهل للأفكار، إلى سلاسة الميسسي ووضوح الشمس،
ومن العلمية والموضوعية وأمانة النقل، إلى مناقبية الاختلاف والأدب الجَمّ مع الآخر
المختلف، ومن إشراك الطالب في خضمّ تعلّم تفاعلي يقظ، إلى تعلّم ذاتي يستحثّ
الطالب على المشاركة الفعّالة والإسهام النشط، ومن إصغاء نبيه رفيق إلى الطالب،
إلى إعادة فنية ذكية رائقة لسؤاله الباهت.. تبديه وكأنّه الفقيه الأكبر الذي دارت حول
فلك سؤاله المنطقي الفذّ مدارات أجوبة الشيخ الطوسي، والمحقّق الحلّي، والعلامة
الحلّي، وصاحب الحقائق، وصاحب الجواهر، والشيخ الأنصاري، والسيد الخوئي،
وباقى الركب المبارك!!؛ يجعل الطالب منغمساً في رحيق من التقدير والغبطة!!

وكّل هذه الحديقة الغنّاء للدرس النموذجي الفريد مسوّرة بتواضع الغصون

المثمرة، وابتسامة المعلم المحب لطلابه، وروح الأستاذ الودود الحاني، المصبر على أن يشدّ طلابه بحبل علمي وثيق ومعرفي متين إلى القمة الشّماء؛ ليصنع منهم أفذاذاً نابهين، ومجتهدين محلّقين تكتحل بهم عين الزمن ومقلة العلم.

لله درّك، أيّها الرّبّان القدير، ولله درّ بحرك العميق، وهنيئاً لمن جاد عليه الله
بركوب سفيتك الباذخة!!

كان الشيخ الشبيب حينها قد أوقد خمساً وعشرين شمعة من سني حياته فقط، ولم يكن يكبرني بأكثر من خمس سنين، وهو المولود في ١٣ / ٥ / ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م)، وكنت وقتها قد استنشقت ٢٠ ربيعاً (حيث ولدتُ في ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م)، وفي دورتنا (السبطين)، وبين زملاء الدراسة من يكبر الشيخ الشبيب في العمر، لكنّ الشبيب ارتوى قبلنا من حياض العلم المترعة، وعبّ كؤوسها وهو لدن العود، غصّ الإهاب، وكالنجلة بين الزهور، ومنذ ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م راح يتنقل بين حوزات الكويت وإيران وهو ابن ١٥ عاماً، فضلاً عن كونه شخصاً استثنائياً بمقاييس الزمن والنبوغ والعظمة، وعمره العقلي يحلّق عالياً فوق هامة عمره الزمني.

* * * * *

الطلاسم والنقوش:

وذاث يوم - وهو يفتّق لنا أكمّام زهور كتاب (أصول المظفر) جلب معه كتاب (الفوائد المدنية)، للشيخ محمد أمين الاسترابادي، ومضى يستشهد بفقرات منه، وبينما كانت عيناه مسمرتين في السطور علت الفصل ضحكة مدوية جعلته يتوقف عن القراءة، وينصب رأسه، وسأل - والعجب يخيم عليه، وبطريقته في الجمل الموجزة الدالة -:

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيبب رحمته الله —

- علام؟!

فقال له أحد الطلاب: «شيخنا، هل تفهم هذا الكلام الغريب الذي قرأته؟!، إنه أشبه بالطلاسم والنقوش الهيرغليفية!!»، فقال: «هو سهل كشرية ماء»، وراح يشرحه ويذلّل صعاب خيله الجموح.

* * * * *

نهر الأصفهاني:

وفي كتاب (أصول المظفر) كانت تلوح - أحياناً - مباحث مستعارة من منزل الفلسفة، أو مصبوغة بطلائها، مثل: (هل تدلّ صيغة الأمر على الفور أو التراخي؟، وهل تدلّ على المرة أو التكرار؟، وهل ينصبّ الأمر على الطبيعة والماهية أم على المصاديق والأفراد؟)^(١)، و(اعتبارات الماهية، واعتبارات الماهية عند الحكم عليها)^(٢)، (وكيف تجب مقدّمة الواجب قبل وجوب ذبيها، والمعلول لا يتقدّم على علته؟!)^(٣)، (وما حكاية الشرط المتأخّر، المشروط في صحة الأمر المتقدّم، والعلة لا تتأخّر عن معلولها؟)^(٤)، فضلاً عن مبحث (المشتقّ)^(٥)!!

كان حالنا وقتها حال مَنْ وضع للتورجله في النهر الطويل، ولم يدرِ - بعدُ - ما منابعه؟، وما مساقطه؟، وما منحنياته؟، وما أسرارته؟، و....، وكان الشيخ جبلاً سامقاً صاحب اطلاع فلسفي واسع، وقدرة عالية على التبسيط والصياغة وإعادة الإنتاج، وموهبة فذة في تذليل الفكرة، وربطها بالمبحث الأصولي والفقهية: تاريخاً ومنشأً، ومضموناً ودلالة، وشكلاً وأسلوباً، حتى لا تغدو وكأنّها مجرد (فاصل إعلاني)!!

(١) الشيخ محمد رضا المظفر، أصول الفقه ١ / ٦٨ - ٧١.

(٢) أصول الفقه ١ / ١٥٣ - ١٥٧.

(٣) أصول الفقه ١ / ٢٣٥.

(٤) أصول الفقه ١ / ٢٣٩ - ٢٤١.

(٥) أصول الفقه ١ / ٤٣ - ٤٩.

كان ينضد حَبّات الفلسفة في سلك واحد: من لدن سقراط وأفلاطون وأرسطو، ومرورًا بأفلوطين والفارابي وابن سينا والكندي، والسهروردي ومحيي الدين بن عربي وملا صدرا، وانتهاء بكانت وديكارت، وهيغل وماركس وإنجلز، وديفيد هيوم وجون لوك، وكارل بوبر وجون هيك وعبد الكريم سروش، وكان يعتنق فكرة ضرورة الإلمام بالفلسفة قبل نقدها، ويمقت نقد الجاهل!!

وكان يرصف لُبْن العرفان متوالية من سكة الحسن البصري، ورابعة العدوية، والجنيد، والحلاج، وابن عربي، والجيلاني، والرفاعي، مرورًا بسعدي الشيرازي، وحافظ الشيرازي، وجلال الدين الرومي، وانتهاء بالسيد علي القاضي، والشاه أبادي، والإمام الخميني، والسيد الطباطبائي، وجوادي آملّي، وحسن زاده آملّي. ويحفظ كثيرًا من نصوصهم: النثرية والشعرية.

وكان إمامه الواسع بالفارسية، وبندي من الإنجليزية، إلى جانب تضلّعه في لغته الأم (العربية)، واحدًا مما مهّد له أن يعتصر عناقيد العرفان والفلسفة من الفارسية، ويحتلب فلسفات الغرب القديم والحديث، ويضعها جميعًا في طبق واحد، مع ما طبخته العربية!!

بيد أنّه كان واضح التأثير بمدرسة الميرزا محمد مهدي الأصفهاني (مدرسة التفكيك/ المدرسة التفكيكية). وعلى خلاف (مدرسة الحكمة المتعالية) لملا صدرا، التي تمزج وتوحد بين المدارس الثلاث: (الدينية، والإشراقية، والمشيائية)، وعلومها: (الشريعة، والعرفان، والفلسفة)، وأدواتها: (الوحي، والقلب، والعقل)، ونتائجها: (الإيمان، والكشف، والبرهان)؛ يتبنّى الشيخ الشيب في كلّ ذلك (منهج التفكيك)، فلا المدارس الثلاث متطابقة أو متآخية، ولا علومها ومعارفها واحدة أو متكاملة، ولا أدواتها ومناهجها متسقة ومتناغمة، ولا نتائجها ومعطياتها منسجمة ومتشابهة؛ فالدين وحي سماوي له أدواته الخاصة ونتائجها الخاصة، التي قد تفرّق عن علوم البشر وفلسفاتهم، وأدواتها ومناهجها، ونتائجها؛ فلا بدّ أن نفرّق بين (الإلهي والبشري)، (السماوي والأرضي)، (اليقيني والظني)، (الثابت والمتحوّل)، (الأبدي والزمني)!!

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيب رحمته —

ومن ثمّ فالمدارس الفلسفية القديمة التي تتحرّك وتتصارع في حلبة أرض الإسلام ليست ثلاثاً - كما يُشاع - : الإشرافية، والمشائية، والمتعالية، وإنّما هي أربع، بإضافة تفكيكية الأصفهاني، الغائبة والمغيّبة، التي جنى عليها أهلها قبل مناوئتها، والتي هي أقرب لروح الدين، وأبعد عن قيود الفرض القسري عليه!!

كان الشيخ الشيب لا يخفي تتلمذه على يدَيّ السيّد محمد كاظم المدرسي (والد السيّد محمد تقي المدرسي)، الذي يمثل رافداً ممتداً لنهر الأصفهاني.

وكان الشيخ الشيب يقول: إنّ أحكام الدين اعتبارية، فوضعها ورفعها ونظمها بيد المعتبر، وهو الشارع المقدّس، وليس من العلوم التي تسمّى بـ (الواقعية) و(الحقيقية)، حتى نتساءل:

- لماذا وجبت (مقدّمة الواجب) قبل وجوب ذبيها؟!

- ولماذا توقفت صحة العبادة المنقضية على (الشرط المتأخّر)؟!

وأما مبحث (المشتقّ)، فهو قارب مضطرب، لا يعرف كيف يحسم أمره لصالح اللغة أو الفلسفة، ويتيه بين (الذات - والتلبّس - وآثاره الباقية أو الزائلة - والحكم الشرعي التكليفي والوضعي لتلك الآثار)، ولا فائدة عملية منه سوى إثقال ذهن الطالب. بذرائع ومسميات لفوائد وهمية مثل: (شحذ الذهن) و(المِران العلمي)!!

وما عرضه الشيخ الشيب مختصراً في (أصول المظفر)؛ فصّل ثيابه بعناية فائقة ودقة بالغة في درسيّ (فرائد الأصول = الرسائل) و(كفاية الأصول = الكفاية)، عند تناول الشيخين: مرتضى الأنصاري، والآخوند الخراساني لتلك المباحث.

«في (كفاية الأصول) ركض الشيخ الآخوند الخراساني خلف قافلة تبعات مبحث (اتحاد الطلب والإرادة)، ومتوالياته، ومنها: كون السعادة والشقاوة في السعيد والشقي ذاتية، (والذاتي لا يعلّل)، وأنّ الله لم يخلق السعيد والشقي كذلك، وإنّما أوجدهما الله بصفاتهما الذاتية؛ حتى أسلمه ذاك الركض إلى صحراء مقفرة وأرض يباب، وجعله يقول: (قلم أينجا رسيد سر بشكست)، أي (لما وصل القلم إلى هنا

انكسر رأسه^(١).

إنّ مبحث (اتحاد الطلب والإرادة)، مستلّ من علم الكلام، وتحديدًا من ملفات المدرسة الجبرية والفكر القدري، وخلط تائه لأوراق الإرادة بأوراق العلم، وأوراق الإرادة التشريعية بأوراق الإرادة التكوينية، ومقحم على علم الأصول!!

هكذا قال الشيخ الشيب يومًا، وهو يشرح مبحث (اتحاد الطلب والإرادة) في كتاب (كفاية الأصول).

* * * * *

مصرع الكابوس:

وسرت قاطرة الدراسة تقطع المراحل، وحين ودّعت محطة السنة الثانية، وآذنت باستقبال محطة السنة الثالثة، كنّا - في حقل الدراسة الفقهية - قد أنهينا الرسالة العملية، وفقه الإمام الصادق عليه السلام، للشيخ محمد جواد مغنية، وأزمعت إدارة (دورة السبطين) أن نمخر بحر (اللمعة الدمشقية)، وعلى الأصحّ (الروضة البهية في شرح

(١) الشيخ الآخوند محمد كاظم الخراساني، كفاية الأصول / ٦٨.

وقد أعاد الشيخ الآخوند هذه الفكرة ثانية في كتابه (فوائد الأصول)، فقال: «إن قلت: نعم...، لكن - مع هذا - كيف حال العقاب على الكفر والعصيان المتهيين إلى ما لا باختيار الإنسان؟

قلتُ: الثواب والعقاب إنّما هما من تبعه الأفعال التي هي تكون من تبعه الذوات المختلفة بالسعادة والشقاوة بالذات؛ إذ (السعيد سعيد في بطن أمه، والشقيّ شقيّ في بطن أمه)، (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة)، كما في الخبر في السعادة والشقاوة، الموجبتان لصدور الإطاعة والعصيان، يكونان في الآخرة ذاتيين، و(الذاتي لا يُعلّل)؛ فانقطع سؤال: (أنّه لم يُجعل السعيد سعيدًا، والشقيّ شقيًّا؟).

وقد انتهى الكلام في المقام إلى ما لا تناله أيدي أفكار الأعلام، إلا ما شملته العناية من الوهّاب العلام، وفي مراجعة الآيات والروايات غنّى وكفاية لأهل الذوق والدراية، والله تعالى وليّ الرشد والهداية» [الشيخ الآخوند الخراساني، فوائد الأصول، تحقيق وتعليق: السيّد مهدي شمس الدين / ٢٨].

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيبب رحمته الله —

اللمعة الدمشقية^(١)، على أن نشرع الدراسة بالجزء التاسع؛ لسهولة، وسيحمل مهمة تدريسه لنا عاتق الشيخ أبي علي الشيبب.

علتنا سماء غبطة عارمة وسعادة بهيجة لا تُحدّ.

ولكن.. سرعان ما توالى السحب!!

وأول سحابة أظلمت علينا سماء الغبطة بهذا الخبر السارّ أن جلس معنا أحد العلماء الموقرين في الحوزة، وأخبرنا بأن الطلبة مستويات، ومنهم من مستواه (فقه الإمام الصادق)، ولا تستطيع طائفة مدرّساته أن ترتقي أوج (اللمعة) السامق!!

انتهى الاجتماع، وهممتُ كالبرق الخاطف لكتاب (الروضة البهية) الذي اقتنيته؛ تملّكني رغبة وقادة لجوج للتحضير لدرس الغد الشائق، وسبر أغوار المرحلة الجديدة، وتقييم الذات!!، وغرستُ عيني في الكتاب، وبكلّ هدوء وتؤدة ورفق قرأتُ سطوراً من بدايته، فلم أفهم شيئاً!!، عاودتُ الكرة ثانية وثالثة، دون أن تتفتح أمام ناظري أيّ من الآفاق!!

قلتُ في نفسي: لعلّ السطور الأولى فيها كلمات ساقطة أو خلل كتابي أو غير ذلك؛ نفث في عقلي دخان الإبهام، فلأقرأ سطوراً أخرى من هنا وهناك موزعة على الكتاب، فبالأكيد ستُفتح لي الأبواب، وفعلتُ، فذابت جبال الأمان، وتبخرت الآمال كالسراب!!

لقد كانت طريقة سبك العبارة في (الروضة البهية) صادمة، ولأول مرة في حياتي يخيم عليّ شعور قاتم كئيب بأنّي أقرأ كلاماً عربياً أجيد آلياً قراءته، ولكنني لا أفهمه،

(١) جرت العادة في تسمية هذا الدرس الحوزوي باسم الكتاب الأصل / المتن (اللمعة الدمشقية)، مع أنّ العبارة في هذا الكتاب سهلة سلسلة، والصعوبة إنّما هي في الكتاب الشارح (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية)، والدراسة في الحوزة منصّبة على هذا الشرح، لا خصوص الأصل.

وكأنّي أدندن بطلسم!!، فما عساي أن أعني: «وفي تحقّق الجمع بذلك مطلقاً نظر؛ لأنّ النصوص دلّت على قتله بالسيف، والرجم يغيره، إلا أن يُقال: إنّ الرجم أعظم عقوبة، والفعل هنا في الثلاثة أفحش»^(١)!!

وأظّلّني سحابة حالكة أخرى!!

وتعانقت السحابتان في سماء قلبي، ونسجتا عليه سُجُف ظلام دامس، وفي لحظة ضعف إنساني وخور للعزيمة وسوست لي نفسي: أنّ مستوى عقلي، وقدرته التحصيلية لا يتجاوز (فقه الإمام الصادق)، كما قال العالم الموقر، وهما هو الدليل الدامغ القوي والبرهان البين الجلي يتبدّى أمامي كالشمس في رائعة النهار، فها أنا ذا لا أستطيع سبر أسطر قلائل من أغوار (اللمعة الدمشقية)، كما شرحته (الروضة البهية)، و(كلّ من يدّعي بما ليس فيه / كذّبه شواهد الامتحان)^(٢)!!

وراحت جملة: «وفي تحقّق الجمع بذلك مطلقاً نظر» التي اقتنصتها شباك ذهني من (الروضة البهية)؛ تلوّع قلبي بسياطها القاسية، وتحمل سيفاً صارماً عتيداً يلوح في وجه طموحي العلمي كلّما عنّ طيفها في خيالي، وترفع أمام ناظري لافتة سوداء نُقش عليها بالفحم: «عليك أن تعي أنّ مستواك لا يتجاوز (فقه الإمام الصادق)»!!

يا إلهي!!

- أيّ (جمع) هذا الذي تحقّق؟!

- وما (ذلك) الشيء الذي (تحقّق) به (الجمع)؟!

- وما معنى (مطلقاً)؟!

- وما وجه (النظر) هنا؟!

(١) زين الدين الجبجي العاملي، الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية ٩ / ٧١.

(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق: الدكتور عمر الطّبّاع ١ / ٦٣، ولم ينسب البيت لأحد.

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيب رحمته الله —

وفي تلكم الليلة الحالكة لم يذق جفني طعم النوم إلا لماماً، وفي كلّ حزمة من عيدان اللمام تلك.. صالت وجالت واصطخبت وزمجرت أحلام مرعبة كثيرة، تصبّ جميعاً في معنى واحد، هو: وجود صخرة صماء صلدة تغتال طريق المسير، وتجهز على رحلة الوثوب!!

تصرّم الليل القاسي، وتواري كابوسه في حجرات ذهني، ينتظر الصباح ليهجم بسيفه الصارم كرّة ثانية، ويفري ودج بقية آمالي المتشبهة بأذيال الحياة، وحضرتُ الدرس الأول في (اللمعة)، وكما قاد الربّان الحاذق سفينة الأصول بجدارة فائقة، طوّح بسفينة (اللمعة) في البحار والمحيطات واللجج الغامرة والأمواج العاتية بمهارة مذهلة، وإذا بالضمائر تبتهج، والعبارات تبتسم، والأقوال تتمايح، والأدلة تزهو، وفي حفل بديع يمتزج الفقه بالأصول، وتتواشج أيدي اللغة بأيدي علم الرجال والدراية..، ويغني الجميع غناء ندياً طرياً كلحن الهزار، وشيئاً فشيئاً تهشم السحب، وتتحطّم السدود، وتتقلّم مخالب الكابوس، فيذوي ويزدوب، ثمّ يشهق ويموت!!

لقد أحسنتَ - يا أستاذي البحر - إذ صرعتَ التنين، وحملتنا في سفيتك العملاقة العتيدة التي كسرت أمواج (الروضة) العالية كالجبال!!

* * * * *

المنعطف:

أمضيتُ في إيران ثلاثة أعوام ونيف (١٤٠٧-١٤١٠هـ)، (١٩٨٧-١٩٩٠م) كانت زاهية كالنسيم، مثقلة بالجنى الوفير كسني يوسف الخصبة، ثمّ عصفت رياح جسام حوّلت مسار دراستي، ونقلت الحوزة كاملة إلى سوريا، حيث نعمة الاستظلال بدوحة السيّدة الصديقة زينب الكبرى عليها السلام.

ومنذ مطلع ١٤١١هـ / ١٩٩١م حطّ سفينتي مرساتها في حوزة الإمام الصادق عليه السلام، ثم حوزة الإمام القائم الجديدة.

كان الفارق بين الحوزات التي ضمّتنا بين حناياها في إيران وسوريا شاسعًا وكاسرًا:

- فحوزة الإمام القائم - عجل الله فرجه الشريف - في إيران قطعة من جنة الفردوس، تنبسط على مساحة خضراء تنوف على الكيلومتر الكامل، يزهو طرفها الشرقي بأنواع الورود والخضروات والطماطم، وترقص في طرفها الغربي أشجار التين والرمان والعنب والكمثرى والتوت، يسورها جميعًا حزام عتيد من أشجار الصنوبر العملاقة المعمّرة، وتتفتّق في أرضها الينابيع، وتجري الجداول بالمياه الرقراقة الزلال، وفي قلبها يستقرّ مبنى شاسع مكوّن من قرابة ١٢٠ غرفة، موزعة على ثلاثة طوابق، وفيها مسجد كبير، ومكتبة فريدة، ورابطة أثيرة لتوزيع الكتب مجانًا في طول الأرض وعرضها، ومسرح باذخ، وملعب نضر، ومطبخ ضخم، ومسبح بهي، وطلبة من قرابة العشرين دولة من دول العالم الفسيح، متنوعو الأعراق والألوان واللغات، في رسم فسيفسائي بديع.

- أما حوزة الإمام الصادق عليه السلام في سوريا، فعند مقارنتها بحوزة الإمام القائم عليه السلام في إيران، تبدو صغيرة كعلبة الكبريت، وإن تكوّنت - هي الأخرى - من ثلاثة طوابق: طابقها الأول يحوي حسينية يديرها إخوة عراقيون، وطابقها الثاني والثالث للطلبة، وتطلّ مباشرة على الشارع، وكنا في غمرة الدرس تخترق آذاننا أصوات الأغاني من سيارات الطريق وأصحاب المحلات، ويفزعنا نداء باعة الماء المتجولين: (فيجا، فيجا)، وعندما نقلت الحوزة أرجلها من إيران إلى سوريا، ودّعت أو ودّعته أغلب الجاليات الأخرى: العربية وغيرها، وأمسى وجودها نزرًا.

- حاولت إدارة الحوزة تدارك الوضع، واستيعاب الطلاب القدامى في حوزة الإمام الصادق، والجدد القادمين من حوزة القائم في طهران، في مبنى واحد، أوسع

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيبب رحمته —

نسيباً من حوزة الإمام الصادق، وقريباً من منطقة المياه والزروع على أطراف منطقة السيّدة زينب عليها السلام، وكذلك كان.. ولكنّ لم تعد روح طهران، فلا الزمان الزمان، ولا الظروف الظروف، فقد قُصم ظهر هذا المبنى الجديد بنزول أغلب طلابه إلى السعودية، وبعضهم شدّ رحاله إلى قم المقدّسة؛ لمواصلة دراسته هناك، فضلاً عمّن لم يُركبهم القطار - أو لم يركبوا - منذ البدء حين غادر مروج طهران.

* * * * *

حتى لا نكون قطاع طريق!!

ومنذ السنة الأولى لنزولنا إلى سوريا عزم أستاذنا الشيخ الشيبب على غرس أشجار درس الأخلاق في حديقة الحوزة، إلى جانب الدروس العلمية، يليقه مساء يوم الاثنين / ليلة الثلاثاء، ويحضره جميع الطلاب.

وهنا راح أستاذنا الشيخ يسكب رشحات إفاضات قلبه الزكي في مسامعنا:

«فنحن طلبة علم، وقد يضحى العلم لنا (الحجاب الأكبر)، بما يله من عجب وغرور وتكبر وفخر وحبّ للذات والجدال والمراء والمظاهر الزائفة، وقد تفتح الدنيا لنا الأبواب مستقبلاً، فتتهافت على المنصب تهافت الفراش على النار، ونخون الأمانة، ونستغلّ المكانة وثقة الناس بنا في اقتراف الآثام، - وربّما - وصولاً إلى الخوض في غمرة الأعراض والحُرّمات، ونتحوّل إلى (قطاع طريق)!!»

سنكون حينها أشدّ وبألاً من اللصوص والقراصنة، فهم قطاع الطريق بين بلد وبلد، ويسرقون المال والمتاع، أما نحن فسنكون قطاع (الطريق إلى الله)، وسنسرق الأرواح والقلوب!!

ومن ثمّ فنحن جميعاً بحاجة ماسّة إلى الأخلاق العامة والأخلاق الخاصة:

الأخلاق العامة في علاقتنا مع الناس والطبيعة.

والأخلاق الخاصة في علاقتنا مع أنفسنا ومع الله.

نحتاج إلى (تخلية) النفس من الرذائل، ثم (تحليتها) بالفضائل، وحينها (ستتجلى) في مرآتها سُبُحات الأنوار، وسنقول: (أطفِ السراج؛ فقد طلع الصُّبح) ^(١).

سنمرّ - إذاً - بمراحل ثلاث: تخلية، وتحلية، وتجلية.

تمامًا كما يفعل المزارع المخلص.. نحتاج إلى اقتلاع أعشاب الشرّ وأشجاره، ثمّ زراعة أشجار الخير ودوحاته، وعندها ستتجلى شمس الجمال زاهية في ربوع البستان».

وألقى لنا سلسلة بديعة من الدروس الأخلاقية، لا تهدف فتل العضلات المعرفية، ولا العرض النظري، ولا حشد البراهين والأدلة، ولا خوض زوبعة المفاهيم ومعترك الجدل، بمقدار ما تجهد نفسها أن تلج بحبوحة القلب، وتصبغ النفس، وتقوّم السلوك.



طوافٌ يحلم بالارتواء:

ومن حوزة الإمام الصادق، وحوزة الإمام القائم الجديدة، إلى حوزة أمير المؤمنين عليه السلام، والحوزة الزينية، ومن الحوزات معًا إلى دروس خاصة أقمناها في بيوت المتزوجين منّا، وركض حثيث حول أشربة الكاسيت..، رحّت أطوف وأعبّ وأكرع؛ بحثًا عن الريّ والانتشاء من فيض التدبر في كتاب الله المجيد، واللمعة الدمشقية، وقطر الندى، وشرح ابن عقيل، ومغني اللبيب، والبلاغة الواضحة، وجواهر البلاغة، وعلم الرجال والدراية، وشرح التجريد، ومنظومة السبزواري، ودرس الاقتصاد، ودرس الكتابة، و.... وما بين ١٠ إلى ١٢ درسًا يوميًا، غير مباحثة الدروس في الليل، ومباحثة كتاب (اقتصادنا) بعد صلاة الفجر، ودرّسنا الشيخ الشبيب أجزاء

(١) السيّد حبيب الله الهاشمي الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق: السيّد إبراهيم الميانجي ١٩ / ٢٤٧، (رسالة منفردة في لقاء الله تعالى للفاضل الشارح).

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيب رحمته —

أخرى من (اللمعة الدمشقية)، إلى جانب أجزاء أخرى درّسها أجلاء آخرون.

وخلع الزمن خلفه ستين دراستين آخرين..

* * * * *

بداية الشحوب:

ومطلع ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م آن الأوان لنلج بستان السطوح العالية، ونتفياً ظلال كتابي الشيخ الأنصاري في الأصول والفقه: (فرائد الأصول) و(المكاسب)، وأذن الله أن نرتشف المزيد من النмир الذي أدمنا شربه، والسكر بخمره، فكلاهما سيدرّسه الشيخ أبو علي الشيب، لكن.. هذه المرّة مع شحوب واضح يداهم الأستاذ أحياناً، ويحاول الأستاذ جاهداً مغالبة وحشه الضاري، وإخفاء جراح الصراع المرير معه، ومع غياب فجائي قليل متقطّع عن روضة الدرس، كلّ ذلك بما أمسى يصول ويجول ويضجّ ويصطخب في بدن الشيخ الأستاذ من مرض القلب، ونوباته الفتاكة التي لا تستأذن!!

صحيح أنّ بدن الشيخ الشيب عرّت شجرته رياح الضنى والتعب والمرض مذ عرفناه في إيران، ولكنّ ذلك لا يقاس بفتك وحش المرض في سوريا، فتلك الرياح التي عرّت شجرته في إيران لم تستطع أن تغيبه عن الدرس يوماً واحداً، أمّا وحش المرض في سوريا فيغيّبه أياماً متقطّعة، ومن دون سابق إنذار، مع أنّه يؤمن بأنّ حضور الدرس واجب كوجوب الصلاة، والغياب عنه حرام كحرمة الخمر، بل.. هو أشدّ الكبائر، وثامن الموبقات!!

كان يقصّ علينا في دروسه الأخلاقية تُحف علماء أفذاذ كانوا يسألون أساتذتهم وهم على فراش الاحتضار، وكان أحدهم يعالج غصص النزع وسكرات الموت، فلما رفعت مخالبتها عنه؛ هبّ مسرعاً لدرسه، واعتذر لطلابه على تأخره بضع دقائق!!

تلك مثل أخلاقية عليا كانت تشدّ الحياة العملية للشيخ الشيب إلى أوج علو

المناقبية، وكان يتمثلها في سلوكه العملي تمثل إيمان صلب ومبدأ راسخ وحركة حياة، لا مجرد ادعاء أجوف، أو إدراك نظري، أو قيم هلامية مسلية.

في إيران صرَّع الشيخ مرضه في كل الجولات، وفي سوريا كان المرض - في بعض الجولات - يلکم الشيخ ويرنحه، أو يقصفه بالضربة القاضية ويصرعه، ويقيده في فراشه!!

وفي كل حين يغيب الشيخ عن الدرس ترتدي قلوبنا حلة سوداء من الهلع، ونخاف أن يرحل عنا مسرعاً نحو العالم الآخر والدار الباقية!!

أحياناً بعد غيابه عن الدرس نعوده في منزله في سوريا، ونرى الجهد ممسكاً بتلابيبه، يركنه في مكان لا يستطيع أن يتزحزح عنه، إلى الحد الذي يلزمه - وهو درّة الأخلاق وجوهرة التربية - أن يطلب من بعضنا - وغالباً ما يكون تلميذه الوفي الشيخ سعيد منصور الحرز - أن يصب الشاي؛ لعدم قدرته هو حتى على هذا العمل السهل كشربة الماء!!

أستاذنا الغالي وشيخنا الوقور وملهمنا الفذّ ومربينا الحاني، ها قد أنشب المرض مخالفه العتيدة في حشاشتك، وألفينا كل تميمة لا تنفع، فنحن نعلم - كما تعلم أنت - أن مرض القلب ليس كأى مرض آخر، إنه يحتوش الصنوبرة الهادرة التي إن صمتت.. صمتت جميع الأعضاء، لكن الفرق بين علمينا: أننا نعلمه علم حصول، وتعلمه أنت علم حضور، «وما أبعد الفجوة بين العلم الحسولي والعلم الحضورى»، كما كنت تقول.

* * * * *

يا صغيري، ما خاب فيك الرجاء..

أهدى الله للشيخ الشبيب باقة عبقة تزدهي بخمس ورود ندية: أربع بنات، وذكر

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيبب رحمته الله —

واحد، اسمه (علي)، نمت وترعرعت في دوحته الباسقة، يسقيها حبه الأبوي الجم،
ويظلها حنانه الدافق.

وفي ٧ / ربيع الأول / ١٤١٣ هـ (١٩٩٣ م) حزمت الأسرة حقائبها لمناغاة
السعادة في روضة من رياض غوطة الشام الخلافة.

إنها رحلة استكناه للطبيعة الفاتنة!!

رحلة توحد وذوبان في الجمال الأخاذ!!

رحلة استجمام ومرح!!

وشاءت إرادة الله التي امتحنت إبراهيم الخليل في ولده الحبيب إسماعيل
أن تمتحن الشيخ الشيبب - زيادة على ضنى قلبه - في وردته الفيحاء (علي) ذات
السنوات الثلاث، فمزق ثياب السعادة وقتل الضحكات الغامرة غرق الابن الودود في
بركة ماء ضافية، وصعود روحه الغضة الدعوب إلى عرش الرحمن؛ ليحتضنها إبراهيم
الخليل، وتربيتها سارة، «في جبل من مسك وعنبر وزعفران»^(١)!!

وتجرع الأب مرارة الفقد، ولوعة الفراق.

وداعاً بني علي..

وداعاً بني الذي اقتطعته من مهجتي..

بني الذي أهده كفاي للثرى فيا عزة المهدي، ويا حسرة المهدي
توخي حمام الموت أوسط صبيتي فله كيف اختار واسطة العقد؟!
على حين شمت الخير في لمحاته وأنست من أفعاله آية الرشد

(١) يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إن الولدان تحت العرش: يستغفرون لأبائهم، يحتضنهم إبراهيم،
وتربهم سارة، في جبل من مسك وعنبر وزعفران» [الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، الكافي
٥ / ٣٣٤، (باب كراهية تزويج العاقر)، ح ٤].

طواه الردى عني؛ فأضحى مزاره بعيداً على قُربٍ، قريباً على بُعد
لقد قلَّ بين المهد والحد لبثه فلم ينس عهد المهد إذ ضُمَّ في الحد
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به وإن كانت السُّقيا من الدمع لا تُجدي
كأنِّي ما استمتعتُ منك بنظرة ولا قُبلة أحلى مذاقاً من الشهد
كأنِّي ما استمتعتُ منك بضمّة ولا شمة في ملعب لك أو مهد^(١)
وقد اجتاز الشيخ المكلوم بالجرح الناجر.. الامتحان العسير، وحكى نصاعة
صفحة بيضاء نُقشت عليها قيمه النبيلة:

فمن طرف كان مثلاً للمؤمن الذي يتلهّب حزنه في قلبه، وترقص البشاشة على
محيّاه!!

ومن طرف آخر، وتحت وقع سياط ذلك الخطب الفادح؛ لم يغب يوماً واحداً
عن الدرس؛ ليجسّد صدق مقولته «بأنّ حضور الدرس واجب كوجوب الصلاة،
والغياب عنه حرام كحرمة الخمر، بل.. هو أشدّ الكبائر، وثامن الموبقات»!!

لقد غاب الهلال في أوائل إزهاره، ولم تقدّر حكمة الله أن يضحى بدرًا وهاجًا،
وأهيل عليه الثرى في مقبرة السيّدة زينب عليها السلام، وصبّ الأخ بدر الشيب على شاهدة
قبره دموع أبيات شجيّة: تفيض أسى ولوعة، وتنفث حشاشةً وتنفّج، وتترنّج سكرًا
وتُعول:

يا صغيري، ما خاب فيك الرّجاء نلت أعلى ما يبتغي الآباء
واختصرت الزمان حتى كأنّي فيك أبصرتُ ما تقولُ السماءُ
عن حياة مصيرها لفناء وحياة لا يعترىها فناء



(١) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصّار ٢/ ٦٢٤-٦٢٧.

الصوت والصدى:

في (المكاسب) شرع الشيخ الشيبب بتدريس (المكاسب المحرّمة)، ولما أوشكنا على اقتحام قلعة بحث (ولاية السلطان الجائر)، اقترح الشيخ أن يتبرّع أحد طلبته بكتابة البحث، وكانت تدغدغ قلبي محاولة الكتابة الفقهية الصناعية الاستدلالية الرصينة، وأن هذه فرصة مؤاتية لا تعوّض؛ إذ سأخوض المعترك، وعين الأستاذ ترعى تجربتي البكر، وتسدد سهم رمايتي!!

وشرع في التدريس، وشرعت في التدوين..

وفي جمادى الأولى / ١٤١٣ هـ (١٩٩٣ م) أنهيتُ كتابة البحث، وتزامن تسطير مداده الوضيء مع إعلان الشيخ محمد بن محمد طاهر الخاقاني (أستاذ الشيخ الشيبب في بحث الخارج في الأصول)، عن مسابقة لأفضل بحث في الأصول، وأفضل بحث في الفقه.

طلب مني الشيخ الشيبب أن أشارك في المسابقة ببحث (ولاية السلطان الجائر)، على أن يكون البحث باسمي!!

قلتُ له: إنّ تقديمه باسمي يغمسني في مشكلتين:

الأولى: مع زملائي الطلبة، الذين تباركوا معي بحضور الدروس، والنهل من حياضها، وهم يعلمون - حقّ اليقين - أنّك النبع الفيّاض، وأنّي مجرد إناء وقلم، يعلمون أنّك الشمس، وأنّي الظلّ، يعلمون أنّك الصوت وأنّي الصدى، وكتابته باسمي قد تصمّني بـ (السرقعة العلمية)، ومجانبة الموضوعية والأمانة العلمية!!

والثانية: مع الشيخ الخاقاني، ومن سينصّب له مناقشتي؛ إذ كيف أدّعي أنّي زارع هذه الدوحة الفيحاء، وساقى غرسها النضير، وأنا طالب للتو ولج بستان (المكاسب)؟! فلم لا نقدّمه باسمك، فأنت زارعه وساقيه وراعيه حتى اشتدّ على سوقه، وأعجب الزّراع، وآتى ثمره اليناع؟!!

كنتُ أعلم - علم اليقين - أنَّ أستاذي الشيخ يسبح في عالم نكران الذات،
والبعد عن الأضواء، ويخاف من شبح العُجب والرَّياء والغرور والسمعة والأبهة
والمجد، خوف العرب من الغول والعنقاء، والصينيين من التين!!

وبعد شدّ وجذب وصلنا لحلّ وسط!! أن يُكتب البحث باسمي، ويُتوّج بجملة:
«تقرير لبحث أستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشبيب لكتاب (المكاسب)، للشيخ مرتضى
الأنصاري».

واشتركتُ في المسابقة، وحُدّد لي يوم للمناقشة، وذهبتُ لمكتب الشيخ
الخاقاني، وكان ينتظرنني هناك الشيخ محمد علي الفاضل (وهو عالم أفغاني جليل
مجتهد، وأحد مدرّسي الخارج المرموقين في الحوزة الزينية، والمشرف المباشر
على البحوث في مسابقة الشيخ الخاقاني).

كان الدور قبلي لعالم جهبذ فاضل من (غانا)، فاز بحثه كأفضل بحث في
الأصول، شرحاً استدلالياً لأحد مباحث (الكفاية)، شرع الشيخ الفاضل بتجاذب خيط
التساؤلات معه، فعلاني دوار مهول، فأسئلة الشيخ الفاضل مرعبة؛ تختزل في أحشائها
أسئلة ذكية وعميقة ودقيقة جداً، وفي الوقت ذاته كثيفة، فهي مخيفة كيّفاً، ومخيفة كمّاً،
وتصبّ عدستها الباهرة على الاستدلال والبرهان، وكيفية صنع الرأي!!

بعد قرابة الساعة انتهى (الحوار الودي!!) مع الشيخ الغاني، وحلّ دوري، وقلبي
يرقص هلعاً..

ولكي يسكب الشيخ الفاضل برد الطمأنينة والسلام على نار الرعب المضطربة
داخلي؛ قال لي بأدب جمّ: «شيخنا، أنا أعلم أنّك كاتب البحث، ولكن.. أستاذك أن
نتناقش قليلاً!!»

وبدأت أسئلة الشيخ الفاضل تتفجّر كالبرق، وتدوّي كالرعد، وتهمي كالوابل
الهتّان، ومع كلّ سؤال منها كنتُ أشعر بمجرة درب التبانة كاملة تهوي على رأسي.

سؤاله الأول قال فيه: «شيخنا، ذكرت أربعة وجوه متصورة لتقرير حرمة الولاية

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيب رحمته —

عن السلطان الجائر هي: الحرمة الجعلية النفسية الذاتية الأصلية، والحرمة العرَضية الخارجية الطارئة، والحرمة اللاعنوانية، والحرمة للتصَرّف في سلطان الغير، فما الفرق بينها؟!».

أظنّ أنّي تلقيت أسئلة سنة في ساعة، ومطر قرن في يوم!!، ثمّ شكرني الشيخ الفاضل، وأخبرني بيوم ستُعلن فيه النتائج..

* * * * *

وأقيم الحفل البهيج!!

وفي مكتب الشيخ الخاقاني، وبحضوره المبارك الميمون، وحضور أستاذاي الشيخ الشيب، والشيخ الفاضل، وكوكبة مشرقة من العلماء زها بهم المكان؛ أقيم حفل بهيج لتكريم الفائزين، وكان أحد المشايخ الكرام يعلن النتائج، بينما كان الشيخ حسن موسى الصفار واقفاً على المنصة يسلم بيده الهدايا والجوائز، وأعلن المقدّم أنّ بحث (ولاية السلطان الجائر) حاز على وسام أفضل بحث فقهي قدّم في المسابقة، وسُلِّمَتْ ظرفاً داخله هدية!!

عند خروجي من الحفل فتحتُ الظرف، وكان داخله رسالة شكر من الشيخ الخاقاني، مع مبلغ ٢٠٠٠ ليرة سورية، وكان المبلغ - بمقياس زمانه - سخياً؛ إذ كان متوسط المكافأة الشهرية التي تقدّمها الحوزة لطالب أعزب مثلي هي ٥٠٠ ليرة، وللمتزوج ١٠٠٠ ليرة.

في اليوم التالي كلّمتُ أستاذاي الشيب بالأمر، وطلبتُ منه أن يأخذ الهدية، فما إسهامي إلا صفحة غدير انعكست عليها شمسها، ومراة تجلّت فيها صورته، ونسيم فاحت عليه بالشذا وردته؛ فرفض، وقال: «هي هدية ساقها الله إليك!!»

* * * * *

دوامات الجدل!!

في الحين الذي أصّر الشيخ الشبيب أن آخذ الهدية، وقال: «هي هدية ساقها الله إليك»، طلب مني طلباً آخر هو: أن يجد البحث طريقه إلى النور، وأن يشقّ العباب إلى صفحات مجلة (البصائر)، الصادرة عن قسم الدراسات والبحوث في حوزة الإمام القائم عليه السلام، وكان رئيس تحريرها حينئذ الشيخ حسين صالح آل الشيخ، وكان أشدّ شخص متحمّس لنشر البحث، ودائم الإلحاح على ذلك.

كان البحث عبارة عن دراسة علمية فقهية صرفة، والذي سلّم هديته هو الشيخ الصفار.. بيده، لكنّ السعي لنشره سنة (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) أثار كثيراً من دوامات الجدل!!؟

- هل هو اعتراض على مفاوضات تجري في لندن!!؟

- هل هو رسالة علنية صريحة أو خفية ضمنية موجّهة لأحد!!؟

- توقّيتُ نشره هل هو مناسب!!؟

- هل سيكون حجر عثرة في طريق مشروع أحد!!؟

- هل هو مشروع في قبال مشروع، ويستهدف وأده!!؟

كان الشيخان الشبيب وآل الشيخ مصرّين على نشر البحث؛ بوصفه بحثاً علمياً نظرياً محايداً، لا يقصد بمصدايقه أحداً بعينه، وكنْتُ متأثراً بضغوط المكان، خاضعاً لوطأة ثقلها، فتأخّر نشره ثلاث سنين نزل فيها كثير من طلبة العلم السعوديين من سوريا وإيران إلى بلادهم..

وفي ١ / ١٢ / ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) ألقى الشيخ الشبيب - أيضاً - عصا الترحال، وقفل راجعاً من سوريا إلى بلده، واستقرّ بمدينته الطيبة الأثيرة، ذات النخيل الباسقة، وبساتين الجمال الخلاب: (أمّ الحمام/ القطيف).

— الملاك والفقهاء والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيبب رحمته الله —

وفي خريف ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م صدر العدد ٢١ من مجلة (البصائر)، حاملاً بين دفتيه البحث، بعد أن تحوّر عنوانه إلى (السلطان والمجتمع: بحث فقهي في آلية التعامل)، وكُتِب تحت العنوان مباشرة: «هذا البحث عبارة عن محاضرات ألقاها أستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيبب في شرحه لكتاب (المكاسب)، للشيخ الأنصاري، فدوّنت في شهر جمادى الأولى / ١٤١٣هـ (١٩٩٣م)»^(١).

* * * * *

وحنينه - أبداً - لأول منزل:

نهاية ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م عاد الشيخ الشيبب؛ ليحتضن تراب وطنه العبق، ومع بداية ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م شرع بالتدريس في الحوزة العلمية الفتية التي تبرّعت أغصانها الميَّاسة في دوحة القطيف الوارفة.

وبعد عام ونيف من استقرار الشيخ الشيبب، عزم طيري الذي عشق التجوال بين الوديان والأنهار والبساتين؛ بحثاً عن ريّ المعرفة وشهدها الشهيّ، على العودة لعشّه ومنزله الأول، وفي مطلع ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م رست سفيني في شاطئ القطيف الخلاب.

تطلّعت عيني مباشرة إلى حوزة القطيف العامرة، فالتحقتُ بمحيطها الخضمّ لإكمال مشوار الدراسة الدينية، ومن الدروس التي علقتُ بركابها درس (الكفاية)، وكان يلقيه الشيخ الشيبب، وفي الليل واصلتُ دراسة ثاني وثالث ثانوي في مدرسة تاروت الثانوية.

ومنذ ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م كنّا نتابع مع الشيخ الشيبب شؤون مجلة (البصائر)، التي يصغي جميع إدارتها وطاقمها لتوجيهاته ونصائحه الأبوية الملهمّة.

(١) علي علي آل موسى، السلطان والمجتمع: بحث فقهي في آلية التعامل، مجلة البصائر، العدد ٢١، السنة التاسعة، خريف ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص ١٠.

واقترح يومًا أن نهدي ٥٠ نسخة من كلّ عدد يصدر من المجلة إلى أبرز علماء القطيف والأحساء، وكفاءتهما، وأنه سيتبرع بثمنها الـ ١٠٠٠ ريال ما دام حيًّا، وكذلك كان..



البعد عن النبع:

في ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م أنهيتُ دراسةَ الثانوية، ويممّتُ وجهي شطر جامعة الملك فيصل بالأحساء؛ لدراسة اللغة العربية بكلية التربية، وما بين ١٤١٨-١٤٢٢هـ (١٩٩٨-٢٠٠١م) انقطعتُ عن معين الدراسة الحوزوية المباشرة، ورحتُ أعبّها عبر التعلّم الذاتي، بمناعة القراءة والأشرطة والسيدات!!

وعلى مساحة هذه السنوات الأربع كانت لقاءاتي بالشيخ الشيب تكاد تتمحور بصورة أساسية حول أمرين:

- أولهما: الزيارات الودية الممزوجة برحيق العلم ورضاب المعرفة.

- وثانيهما: متابعة شؤون مجلة (البصائر).

كم يكتوي قلبي بنار البعد عن الدراسة الحوزوية!!، وكم أشعر بجفاف التصحّر يفتني وأنا بعيد عن نهرك الخضم وبحرك الطامي!!، ولكن.. (مشيناها خطى كُتبت علينا/ ومن كُتبت عليه خطى مشاها) ^(١)!!



(١) نُسب البيت إلى كثيرين، منهم: المتنبّي، ولم نجدّه في ديوانه، وأحمد بن فارس الرازي، صاحب (المجمل في اللغة)، والشيخ عبد العزيز الدريني، انظر: السيّد محسن الأمين، أعيان الشيعة ٣/ ٦٣، تحقيق: حسن الأمين، وقد نسبّه لأحمد بن فارس.

رغبة جامحة:

مع إشراقة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م أنهيتُ الدراسة الجامعية، وكان يضطرم في داخلي بركان يلتظي عزمًا لإكمال كتابة البحوث الفقهية، ولاسيما في شرح (المكاسب)، فزرتُ الشيخ الشيبب، وأخبرته برغبتني الملحة لإكمال كتابة شرح (المكاسب)، تقريرًا لدروسه النيرة، وأنَّ الإعلام في بلادي الغالية صادر نسختي من كتاب (المكاسب) التي زينتها بشروحه التي رَوَى بها عقولنا في سوريا، ورغبتني في الحصول على أشرطة له في شرحها؛ لأعيد تدوينها، ونشرها، أو حضورها دراسة من جديد؛ بغية ذلك، فأخبرني أنَّه يؤمن بأنَّه هناك (ثلاثة ليس لها نهاية/ مكاسب، رسائل، كفاية) - كما يترنم لسان الأوساط الحوزوية -، وأنَّه عازم قريبًا على الشروع في تدريس (المكاسب)، واتفقنا أن يخبرني متى عزم ذلك.

* * * * *

متى تنجلي الغيوم؟

متى ستزولُ السحابُ القتامُ ويشرقُ في الكونِ فجرٌ جديدٌ؟! في ١١ / ٤ / ١٤٢٢هـ (٢٠٠١م) أخبرنا أنَّ مرضًا عتيْدًا ألمَّ بالشيخ، منعه من التدريس وصلاة الجماعة والالتقاء بالناس.

ترقّبنا بفارغ الصبر زوال غيوم الضنى، وعودة الشمس للإشراق، وفي يوم الثلاثاء ١٨ / ٤ / ١٤٢٢هـ (٢٠٠١م)، عدت بمعيّة الشيخ علي آل زايد، والشيخ جعفر البناوي، أستاذنا الكبير الشيخ الشيبب، وكان للتوّ قد خرج من غيبته المرضية تلك، فطلب منا بعض المقرّبين من الشيخ أن لا نتحدّث معه في أيّ موضوع علمي أو فكري؛ لأنّ ذلك يجهد كهرباء دماغه، فعقدنا العزم على أن نقصر كلامنا على التحية والودّ وسؤاله عن صحته فقط.

ما أوشكنا على الجلوس، وتفقد صحته، حتى استلّ الشيخ من غرفات ذهنه

الوقاد نظريات الدكتور عبد الكريم سروش، وراح يصبّ عليها عدسته التحليلية النقدية البارعة.

وحفاظًا على جذوة صحته، وامتنالًا لنصيحة المقرّبين، تبادلنا لغة الجسد، وتهامست منّا العيون والنظرات، أن نفزع على عجل من المجلس، وودّعناه، وخرجنا من عنده.

وكشوق الصحاري القاحلة إلى زلال الغمام، ولهفة الظلمات الدامسة إلى إشراقة الشمس، وتحرقّ الصادي إلى جرعة ماء؛ رحّت أعدّ الأيام وأدرع الليالي؛ ترقّبًا لشفائه الميمون، وعودة لتدوين بحوثه الاستدلالية في (المكاسب).

* * * * *

وحلت الكارثة!!

بعد أسبوع فقط على لقائنا به، وعند الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ٢٥ / ٤ / ١٤٢٢ هـ، الموافق ١٧ / ٧ / ٢٠٠١ م جاءني اتصال من الشيخ ناجي آل زايد يخبرني بأنّ روح أستاذنا الحبيب الغالي الوقور الشيخ الشيب.. قبل قليل غادرت عالم المُلْك، وتعلّقت بسُبُحات عالم الملكوت!!

إذًا.. وقع الخطب، وحلت الكارثة، وتحطّمت السفينة، ورحل الساقى وكؤوس الأمانى عطشى!!

رحل وعمره ثمان وثلاثون عامًا فقط!!، وذوت شجرته الخضراء وملؤها الثمر اليناع، وقد اشربّت مئات القلوب والعقول إليها؛ لتقطف شيئًا من ثمرها الوفير..

وتوالى الآت عجلي، ففي عصر هذا اليوم نفسه سيّشع الشيخ إلى مثواه الأخير، في مقبرة أم الحمام الغالية.

ما أشدّ وقع الفجائع، لا سيما حين تكون عاتية ومتوالية!!

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيبب رحمته —

ازدلفنا موتورين إلى حسينية الحاج منصور الحرز بأم الحمام، وكانت تتلهَّب وتبكي وتنشج وتزفر بصيحاتٍ ثكلى فقدت وحيدها الودود، وبعد انتهاء غُسل الميِّت أذن لنا أن نلقي نظرة الوداع على الشيخ الأستاذ الذي لن نراه بعد اليوم في عالم التصرُّم والزوال.

- أحقًّا.. نحن على موعد مع (نظرة وداع)؟! -

- أبهذه السرعة تخرس البلابل، وتجفّ الأنهار، وتموت المروج، وتنطمس النجوم؟! -

دخلتُ مع زمرة من أهله وزملائه وطلابه إلى الغرفة المسجى فيها، وألقينا (نظرة الوداع) على جسد ساكن ولسان صامت، وطبعنا على جبينه الأنور (قبلة الوداع)، ونحن لا نسمع سوى لحن المناحة تعزفه أنات الصدور على أوتار شجي الحناجر.

- شيخنا الغالي أبا علي..

لقد قلتَ لنا يوماً في درسك الأخلاقي العذب: «حين وقف الحكيم ديوجانس على جدث الإسكندر الأكبر المقدوني، ورآه ساكناً ساكناً؛ قال: (إنَّ الإسكندر أمس أنطقَ منه اليوم، وهو اليوم أوعظُ منه أمس)»^(١)!!

فهل كان هذا منك وعظاً أخلاقياً عبر قنطرة ألفاظ نقلت أخبار الماضين، أم هو

(١) علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣ / ٤٩٥، باب (نطق الحكماء على جدث الإسكندر).

ونقل أبو الفرج الأصفهاني في (الأغاني ٤ / ٢٨٩، فصل: ذكر نسب أبي العتاهية وأخباره) كلمة الحكيم ديوجانس بشيء من التغيير، فذكرها بعبارة: «كان الملك أمس أهيب منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس».

ومما أشده صعصة بن صوحان العبدي على قبر أمير المؤمنين عليه السلام يوم دفنه: وكانت في حياتك لي عظاتٌ وأنْتَ اليوم أوعظُ منك حياً ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب ٣ / ٩٧، (باب في أحواله عليه السلام)، وبحار الأنوار ٤٢ / ٢٤٢، باب (في المراثي عليه عليه السلام).

نبوءة استشرافية لما هي عليه حالك الآن؟!!!

وهل تأذن لنا أن نكمل عبارة الحكيم ديوجانس بعبارتك التي كنتَ تكثر من قولها، ونهمس في إذنك: (والحالُ هو الحال)؟!!

- شيخنا الغالي..

لقد كنتَ حقاً ملكَ المحافل، وكنتَ المسيطرَ على المجالس: تتكلم، تحاور، تنتقد....، لكنك اليوم تتدثر بصمت جليل مهيب، إنك اليوم تصغي لمحبوبك الأسر، فتبدو أمامنا كالمحبِّ الذي جذبه الوجد لمحبوبه الفاتن، فسكن بين يديه سكون الطفل على صدر أمه.

ومع سكونك على صخرة المغتسل، فتلك ابتسامة ثغرك النضيد التي تفتّر كالورد مع كل سلام تطلقه أو تردّ عليه حتى في أحلك ساعات العسرة، لا زالت ترقص جذلي، إنها مثال صادق للعاشق المسكون بحبيبه الأوحد.

- شيخنا الشبيب..

أنت الآن نائم، نحاذر أن نوقظك؛ فنحن نعلم أن المشاقّ الجسام أتعبتك، وأن الآلام المبرّحة أرهقتك..

بلى.. أنت نائم لا ميّت، لكن.. لماذا تنام على صخرة المغتسل؟!، ألم تجد لك مكاناً أليق منه؟!!

يا له من منظر يفتّت القلب!!

بلى.. أستاذنا نائم على صخرة المغتسل، فليهنأ له المنام، ولتزره الأنبياء والأوصياء والملائك والحوور تهدد قلبه المضنى!!

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيبب رحمته الله —

شيخنا..، هذه قلوبنا افترشها تراباً يزدهي ويفخر أن رجلك الطاهرة وطأته..

— أستاذي الحبيب..، وداعاً!!

سأظل أبصر وجهك الوضيء على صفحة كل كتاب، وأسمع صوتك الندي ينساب طرياً مع كل ألحان العشق، وأسكر كلما أعاد قلبي معارفك النوراء، ويوماً سيُطوى بساط الزمان بيننا، وقد يمنّ الله عليّ أن أجلس معك ﴿فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾^(١).

وفي مشهد أليم فجيح، وعند الساعة الرابعة عصرًا انطلق بحر من البشر يحمل على أطراف أنامله الجثمان الطاهر باتجاه المقبرة..

* * * * *

هذا المداد:

إذا.. رحل الشيخ الشيبب!!

رحل الأستاذ الملهم..

رحل وترك خلفه طلاباً كُثُر، وورّث العلم في كتب، ودروس، ومحاضرات قرآنية وأخلاقية وثقافية واجتماعية وغيرها..

وإذ انحسرت مياه فكرة كتابة شروحه لمباحث (المكاسب)، وغاضت في الأرض، تطلّعت عين الوفاء لأستاذنا الكبير الملهم لفكرة تدوين بعض عطائه الثرّ الذائع المنتشر، ووقع الاختيار على سلسلة محاضرات (آداب الصلاة)، المكوّنة من ١٦ شريطاً.

(١) سورة القمر، الآية ٥٤ - ٥٥.

وتمّ التواصل مع الإخوة الكرام:

١- بدر شبيب الشبيب.

٢- جبر سعود العبد العال.

٣- هاشم علي المسبّح.

الذين كانوا من أقرب المقربين لأستاذنا الشيخ الشبيب، من أجل توفير الأشرطة، والمكتوب منها، فكان المأمول منهم وأكثر؛ إذ كانوا السّباقيين المبادرين لكلّ خير، ولم يألوا جهداً في إمدادنا بكلّ ما لديهم، فلهمّ منّا أجزل الشكر وأعطر الثناء، وكتب الله ذلك في ميزان حسناتهم، وجمع بينهم وبين الشيخ الشبيب في الفردوس الأعلى والرّضوان الأكبر، وركاب العترة المعصومة الطاهرة.

ورفدنا صديقنا الغالي بدر شبيب الشبيب بالمحاضرة الأولى من هذه السلسلة الثمينة مكتوبة، وعليها تصحيحات وإضافات واسعة كثيرة، وإحالات من أستاذنا المرحوم الشيخ الشبيب إلى نصوص وكتب، وعنوانته لسلسلته المباركة هذه بـ(صلاة المتقين)، الذي ارتأينا إبقاءه عنواناً يتوّج هذا السفر المبارك.

وتبرّعت الأخوات المؤمنات:

١- آيات عبد الله البناوي.

٢- فاطمة علي آل زايد.

٣- نداء جاسم الصفار.

بتفريغ عطر المحاضرات الشذيّ في قارورة الدفاتر.

وبعد تنزيدها بالكمبيوتر، أسهم سماحة الشيخ محمد حسن زين الدين بفاعلية وإخلاص بالغين في تخريج كثير من الهوامش والمصادر، وبعد استيفائها هممتُ أن أصوغ المحاضرات، ساعياً لتمثّل المنهج التالي:

١- دمج المحاضرات الصوتية بما حصلنا عليه منها مكتوباً.

— الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيبب رحمته —

٢- التعامل مع الكتاب كاملاً بوصفه نصّاً واحداً، وجمع نثار البحث وأشتاته في مكان واحد؛ لتجتمع أجزاء الصورة، بما يتطلبه ذلك من جمع نقاط الفكرة في محور واحد، والتقديم والتأخير في بعض الفقرات؛ حرصاً على التسلسل المنهجي المنطقي للأفكار، والتوالي الطبيعي لها.

فإذا طرق أستاذنا المرحوم الشيخ الشيبب - في أشرطة متباعدة - تفسيرات عدّة غير مرقمة لعبارة (الله أكبر)، وملاحظات متفرقة عليها، جمعنا التفسيرات متوالية ومرقمة، ونقد كلّ تفسير تحت جناحه، كما فعلنا في فصل (الله أكبر) من فصول الأذان.

٣- وضع عناوين أساسية وفرعية للبحوث.

٤- إبراز الأفكار على شكل نقاط مرقمة.

٥- في حال انتهاء الشريط بجزء من الرواية، أكملنا الرواية بما يقتضيه الشاهد فيها.

٦- في حال ورود الرواية بالمعنى ذكرناها بالنص، وذلنا المعنى كشرح له.

٧- تحويل التعبيرات العامية إلى عربية.

٨- صبغ العبارة العلمية بمسح ضئيل من الوشي الأدبي.

٩- تخريج النصوص والمعلومات.

١٠- ذكر المصادر والمراجع.

علي علي آل موسى

٥ / ٣ / ١٤٣٧ هـ

١٦ / ١٢ / ٢٠١٥ م

القطيف / العوامية

في ظلال الكتاب

وقبل أن نلج إلى الروضة الغناء لهذا الكتاب الممتع، نقف وقفة سريعة عند بعض مميّزاته التي ازدان بها:

١- منهج القراءة:

المنهج الذي يمتشقه الشيخ الشبيب - قدس الله سرّه الشريف - في هذا الكتاب هو منهج أخلاقي (تحليلي - تركيب - بنائي)، يقوم على (استنطاق النصوص المعصومة)، ومن ثمّ فهو منهج يسعى للاقتراب من اليقينية، والبعد عن المناهج الظنيّة والتأويلية في القراءة والاستلهام والاستنتاج؛ فهو أكثر قابلية للإقناع من تلك المناهج. إنّه يسعى - بما أوتي من قوة - لسبر نصوص القرآن الكريم، وسنّة النبي الأكرم، وآله الهداة الميامين، أي النصّ المعصوم؛ للتعرفّ على الصلاة وآدابها، ولعلّ هذه هي السمة الأهمّ في هذا الكتاب.

٢- عمق القراءة والمحتوى:

لا يكتفي الشيخ الشبيب بسلامة منهج العرض، بل يقرنه بعمق الاستنتاج، فقرأته للنصّ الديني، ولآداب الصلاة ليست قراءة سطحية مستعجلة، ولا تجزيئية مبتسرة، وإنّما هي قراءة عميقة، تسبر أعماق المناجم والبحار، وتجتني الألماس واللؤلؤ.

ومن ثمّ فمنهج الكتاب نصّي، لكنّه ليس حشويّاً، ولا يعتمد على سرد أكبر قدر من النصوص كيفما اتفق، وإنّما يسعى أن يعثر على النصّ الجامع؛ ليستخرج منه نظرية كاملة أو متكاملة، وفي حال عدم العثور على نصّ جامع يقوم بإعادة ترتيب النصوص وتركيبها وبنائها؛ ليصل منها إلى رؤية كلية متناسقة..

٣- التوليد المذهل للأفكار:

تندرج السمة السابقة في نسق (العمق والنوع والكيف)، بينما تندرج سمة التوليد المذهل للأفكار في نسق (السعة والكمّ والعدد)، فالنصّ الواحد أو الأدب الواحد للصلاة، قد يفجّر الشيخ الشبيب منه الكثير من الينابيع الروية والأنهار المترعة.

٤- الصلاة منطلق العلاج:

وينطلق الشيخ الشبيب في هذا الكتاب الفريد، من الصلاة قاعدة راسخة لحلّ المشكلات: العقدية، والفقهية، والفكرية، والسلوكية، فإذا بالصلاة كنز مليء بالذخائر في شتى الجوانب، وليست طقساً خاوياً، أو عبادة منفصلة عن الواقع، وعن البناء العام الذي تستهدفه السماء لشخصية الإنسان وأبعاده.

٥- منهجية العرض:

يعرض البعض أفكاره ونتائجه بشكل عشوائي أو مبعثر، فتضيع روعة الأفكار في خضمّ شتات الأسلوب واضطرابه، بينما يتحلّى هذا الكتاب الثمين بمنهجية منطقية فذة في أسلوب العرض، وكأنّه خريطة مهندس قدير، صمّمها بعناية فائقة لمنزل فاخر. إنّ إحدى مكامن الجمال في هذا الكتاب أنّه يعرض كلّ ما مضى من النقاط الوضيئة السابقة بمنهجية سلسلة عذبة، فالكتاب يرتّب آداب الصلاة ترتيباً طويلاً متوالياً متواشجاً، بحيث تؤدي كلّ لؤلؤة في عقدها النضيد إلى أختها، وتتخذ كلّ لبنة مكانها المناسب مع البناء العام والصورة المتكاملة، يبدأ بالإخلاص، وحضور القلب، ثمّ

الطهارة، والأذان، والقيام، فتكبيرة الإحرام، والاستعاذة، والقراءة، وهكذا وصولاً إلى الركوع، والسجود، والتشهد، والتسبيحات والاستغفار، والتسليم، وختاماً بتعقيبات الصلاة، ثم منافيات الصلاة.

وباختصار.. فالكتاب رائع من حيث المضمون والمحتوى، ورائع من حيث الشكل والأسلوب، ورائع من حيث الهدف والتعبير.

علي علي آل موسى

٥ / ٣ / ١٤٣٧ هـ

١٦ / ١٢ / ٢٠١٥ م

القطيف / العوامية



الفصل الأول

آداب صلاة المتقين

حقيقة الصلاة

الصفات الجوانحية التي تشكّل قوام الصلاة..

ذكر الملا محسن الفيض الكاشاني في (المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء)، والشيخ محمد مهدي النراقي في (جامع السعادات): أنّ الإنسان يحتاج إلى مجموعة من الصفات الجوانحية التي تشكّل حقيقة الصلاة وقوام الصلاة^(١)، وتمثّل المعاني الباطنة للصلاة؛ فلكي تكون الصلاة ذات روح ومعنى ومضمون سام يجب أن يوفر الإنسان في نفسه مجموعة من المواصفات ترتقي بالصلاة لتكون ناهية عن الفحشاء والمنكر، ومجموع هذه الصفات نعبّر عنه بـ (الصفات الجوانحية للصلاة)، كما نعبّر عنه بـ (حضور القلب) بمعناه الواسع^(٢).

- (١) يقسّم علماء الأخلاق الأفعال والصفات عمومًا - ومنها ما يحصل في الصلاة - إلى قسمين:
- ١- الأفعال والصفات الجارحية (أفعال الجوارح)، وهي الأفعال الخارجية الظاهرية التي تؤدي بالجوارح والحواس، كالقيام والركوع والسجود.
 - ٢- الأفعال والصفات الجانحية (أفعال الجوانح)، وهي الأفعال الداخلية الباطنية التي تؤدي بالقلب، كالإخلاص والقربة والخلو من شوائب الرّياء، وحضور القلب، والتفهّم لمعنى الكلام، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء.
- ويقول علماء العقيدة: الجبر على العمل الجارحي ممكن، والجبر على العمل الجانحي محال، فيستطيع إنسان أن يجبر آخر على حمل شيء، أو نقله من مكان إلى آخر، لكنّه لا يستطيع أن يجبر قلب أحد على حبه.
- (٢) انظر: الملا محسن الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء، تحقيق: علي أكبر

فلنا في مصطلح (حضور القلب) معنيان:

١- المعنى الأخص:

تارةً نتحدّث عن حضور القلب بمعنى عدم شرود الخاطر وذهول اللبّ، أي أن يكون الإنسان متوجّهًا إلى صلاته غير غافل عنها، مقبل بقلبه على الله، ملتفت إلى أنّه في محضر ساحته القدسية الشريفة، وهذا هو المعنى الأخصّ لحضور القلب.

٢- المعنى الأعم:

وتارةً أخرى نتحدّث عن حضور القلب بالمعنى الواسع الذي تتسع دائرته لتشمل سبعة معانٍ باطنية هي روح الصلاة وحقيقتها، وهي: الإخلاص والقربة والخلوّ من شوائب الرّياء، وحضور القلب بمعنى عدم شرود الخاطر (المعنى الأخصّ لحضور القلب)، والتفهّم، والتعظيم، والهيبة، والرّجاء، والحياء^(١).

وهذه الأمور السبعة تمثّل الصفات الجوانحية التي تشكّل قوام الصلاة، والعمود الفقري لها، وستتحدّث عنها مفصّلًا في الصفحات القادمة:

أولاً: الإخلاص:

ونقصد به: أن يكون القصد الوحيد للإنسان من أعماله وعباداته هو الله.

الغفاري ١ / ٣٧٠.

والشيخ محمد مهدي النراقي، جامع السعادات ٣ / ٣٢٣، و ٣ / ٣٣٢-٣٣٤، و ٣ / ٣٤٣، و ٣ / ٣٤٥.

(١) عدّها الملا محسن الفيض الكاشاني في (المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ١ / ٣٧٠) ستة فقط، من دون (الإخلاص والقربة، وخلوّها من شوائب الرّياء)، أما الشيخ محمد مهدي النراقي في (جامع السعادات ٣ / ٣٢٣-٣٢٤، و ٣ / ٣٣٢-٣٣٤، و ٣ / ٣٤٣، و ٣ / ٣٤٥)، فقد عدّها سبعة، بإضافة: (الإخلاص والقربة، وخلوّها من شوائب الرّياء).

فالمصلي ينبغي أن يكون قصده من صلاته، ووجهه الذي يفعلها لأجله، ونيته التي تغمر قلبه فيها، ودافعه وباعثه من الإتيان بها، هو الله وحده، ونيل قربه ورضاه، والخلو من أية شائبة ومقصد آخر غير الله، كالرياء.

يقول الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام: «أفضل العبادة الإخلاص»^(١).

ثانيًا: حضور القلب:

ونعني به: أن يفرغ الإنسان القلب لله عمّا سواه، فيكون القلب خالصًا لله وحده، لا يسكنه أحد سواه، ولا تكون في القلب شائبة لغير الله، ولا يدنس صفاء القلب وطهره بشيء غير الله.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «القلب حرم الله، فلا تُسكن حرم الله غير الله»^(٢). ومن هذا الحضور القلبي أن يفرغ الإنسان الصلاة عمّا يلبسها من الدخائل والشواغل التي لا تليق بها، وأن لا يكون الفكر جاريًا في غير الصلاة وما فيها من قول وفعل.

ولأهمية هاتين الصفتين: (الإخلاص)، و(حضور القلب) في العمل العبادي سوف نقف عندهما - في بحوث قادمة - بشيء من التفصيل.

ثالثًا: التفهم:

(التفهم لمعنى الكلام) ..

بمعنى أن يكون الإنسان عارفًا ما يتفوّه به في صلاته، مدرّكًا لما يقول فيها، ولا يكون ذلك منه مجرد كلمات جوفاء وألفاظ فارغة تجري على لسانه دون إدراك لمعناها النبيل الذي تنبض به وتشعّ بضياؤه، يعني أن يتأمل الإنسان قوله: (الله أكبر)،

(١) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٥، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ح ١٩.

(٢) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٥، باب (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ كَيْفَ مَنَزَلَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ)، ح ٢٧.

مفتتحًا بذلك الصلاة، ويتفهم ماذا يعني قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١)؟، وقراءته الفاتحة ماذا تعني؟، وركوعه ماذا يعني؟، وسجوده ماذا يعني؟، وذكره في ركوعه وسجوده ماذا يعني؟، ماذا تعني هذه الألفاظ وتلك الأفعال؟، أي أن يكون الإنسان مدركًا لهذه المعاني المنطوية في الصلاة.

تفهم هذه الألفاظ والأفعال يعني أن يدرك الإنسان - فعلاً - معناها السامي الرفيع ومحتواها المشرق البهي، فعندما يقول المصلي: (الله أكبر)، يكون - فعلاً - مدركًا معناها العظيم البالغ الحساسية.

وسنأتي - إن شاء الله - على ذكر شيء من معاني هذه الأذكار في الآداب الأخرى المرتبطة بآداب الصلاة.

هذا الأدب الجانحي الداخلي يعني أن يكون الإنسان مدركًا متفهمًا واعيًا عارفًا بعظمة هذه الألفاظ وهذه المعاني.

ولعل إدراك هذه المعاني - كما يقول البعض - هو الذي ينهي عن الفحشاء والمنكر^(٢)، وليس مجرد نطق هذه الألفاظ أو مجرد التفوه والتحدث بهذه الكلمات هو الذي ينهي عن الفحشاء والمنكر، فهم الإنسان لهذه الألفاظ وإدراكه لهذه المعاني هو الذي يجعله متهمًا عن الفحشاء والمنكر، كل كلمة يتفوه بها ينعم النظر فيها، ويجيل الفكر؛ ليتأمل ماذا تعني هذه الكلمة؟، وكل فعل يفعله يسبره، وينفذ بعين بصيرته إلى أعماقه وأغواره؛ ليدرك معناه وهدفه ومغزاه.

في الرواية أن الإمام الصادق عليه السلام قرأ آية في صلاته، وأخذ يكررها حتى أغمي عليه، فلما أفاق سئل عن ذلك، فقال: «ما زلتُ أردد هذه الآية على قلبي حتى سمعتها

(١) سورة الفاتحة، الآية ١.

(٢) يقول الفيض الكاشاني عن هذا: «ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر؛ فإنها تفهم أمورًا، تلك الأمور تمنع من الفحشاء لا محالة»، [المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء ١ / ٣٧٠].

من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته»^(١).

ويبدو أن الآية التي كان الإمام يقرأها هي قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢).

ولننظر لعظمة هذا الإدراك العميق الغور للمعنى..

وكم مرة يرى أمير المؤمنين علي عليه السلام مغشياً عليه في أثناء صلاته!!

وعلى الطرف الآخر المقابل لهذا الفهم العميق يقف الفهم السطحي القشري والفهم الخاطئ الذي يدندن بحروف خاوية دون معانٍ، ويقرأ جملاً باهتة لا يلج منها إلى مغزى!!

ينبغي أن يكون الإنسان في الصلاة مدرّكاً متفهّماً واعياً عارفاً بعظمة هذه الألفاظ التي تمرّ على لسانه، بل يسعى جهده أن يستنطق معانيها، ويستحضرها لتلامس شغاف قلبه.

رابعاً: التعظيم:

لا يكفي لتمام الصلاة وقوامها: الإخلاص والقربة والخلو من شوائب الرّياء، وحضور القلب، والتفهّم، فلا يكفي أن يكون الإنسان مخلصاً في نيته القربة لله في صلاته، وحاضر القلب، وفاهماً متفهّماً لما يقول.. إذا لم يكن متوجّهاً إلى عظمة المخاطب، فبعد أن نُحضر القلب في الصلاة، ونعي ما نقول يجب أن نعرف مَنْ نخاطب، ونتوجّه إلى أنّنا بين يدي مَنْ؟، وفي حضرة مَنْ نقف؟، تعظيماً لله - عزّ وجلّ -.

وهذا التعظيم المرخى على الإنسان المعظمّ ناشئ من أمرين؛ لا يمكن أن يوجد

(١) تفسير الصافي ١ / ٧٣، والمحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ١ / ٣٥٢، وجامع السعادات ٣ / ٣٠١.

(٢) سورة الفاتحة، الآية ٥.

في نفس الإنسان تعظيم ما لم يستشعرهما، وهما:

الأمر الأول: استشعار المصلي لعظمة الخالق:

يقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١).

إنَّ لله تعالى في قلب المؤمن مقامًا عظيمًا شامخًا إذا استحضره المؤمن وجل قلبه، وسكنت جوارحه، وخشعت أركانه، وارتعدت فرائضه، وأخذت الهيبة بتلابيبه، وخيَّم عليه شعور ضافٍ بتعظيم الله وإجلاله وإكباره.

إنَّ استشعار المصلي لعظمة الخالق ليس كلمة تُقال، وليس لفظًا يجري على اللسان، بل هو استشعار قلبي لعظمة الله، وتعظيم لله في النفس.

الأمر الثاني: استشعار المصلي لحقارته:

ويقابل استشعار الإنسان لعظمة الخالق استشعار مقابل، يدرك فيه الإنسان حقارته هو وصغره وضآلته، فإذا عظم الله - سبحانه وتعالى - في القلب صغر ما دونه في العين، وغدا كل شيء غير الله هباءً وعدمًا في عين المؤمن، فليس هناك من شيء يُقاس بالله، أو يُتصور أن يوضع في صفِّ عظمة الله وجلاله وبهائه القدسي.

فمن هو الإنسان المحدود: زمانًا ومكانًا وجهة وقدرة و....، حتى يقارن بالله المطلق العظيم الذي لا يحده زمان ولا مكان ولا جهة ولا قدرة ولا...؟!

وقد ورد في وصف مولانا أمير المؤمنين عليه السلام للمتقين: «عظم الخالق في أنفسهم؛ فصغر ما دونه في أعينهم»^(٢)، وقال الله تعالى في كتابه الخالد: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا

(١) سورة الأنفال، الآية ٢.

(٢) الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، جمع: الشريف الرضي / ٣٠٣، الخطبة ١٩٣.

مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾.

فمغزى تفكر أولي الألباب في خلق السماوات والأرض هو: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، أي استشعار عظمة الله، استشعار عظمة خالق السماوات والأرض والجمال والبحار والنجوم والكواكب والمجرات، وفي المقابل استشعار ضعف الإنسان وفقره ومحدوديته ومسكنته وذلته.

في بعض الأوقات نستشعر أنّ الطرف المقابل قوي، لكننا نرى أنفسنا - أيضًا - أقياء، فلا نعظمه حقّ العظمة؛ لأننا نشعر بالتكافؤ أو التقارب بين القوتين، فلا يدرنا الشعور بعظمة ذلك الطرف، لكنّ تعظيم الله يتطلّب - من طرف - استشعارًا لعظمته - جلّ وعلا -، ويتطلّب - من طرف آخر، وفي الوقت ذاته - استشعارًا لحقارة النفس، واستشعارًا لذلة الإنسان، واستشعارًا لفقر الإنسان، واستشعارًا لضالة هذا الإنسان.

على الإنسان أن يستشعر أنّه لا شيء، وأنّه في كلّ أحواله وفي كلّ حركاته وفي كلّ سكناته عبد خالص قنّ مملوك ذليل حقير مسكين، واقعه الذلّ، وحقيقته المسكنة، وطبيعته التناهي والمحدودية.

واستشعار الإنسان أنّه لا شيء، يعني أنّه لا شيء فعلاً، ولا يملك شيئاً، لا أنّه شيء، وعنده شيء، وأنّ هذا مجرد تعبير مجازي غرضه المبالغة، أو تعبير أخلاقي غرضه التواضع!!

هذه المعاني الجليلة في استشعار الإنسان لعظمة الله - عزّ وجلّ - ليست كلاماً نظرياً مجرداً، بل على المصلّي أن يمرّرها على باله عندما يصلّي، ويستحضرها في أعماق غرفات قلبه وعقله، وقرارة وجدانه وصميم وعيه، يستحضرها ويعايشها ويعانقها في كلّ أحواله: حين يتلو القرآن في صلاته، وحين يخاطب الله، وحين يدعو ويناجي، وحين ينتصب بين يدي ربّه، وحين يركع ويسجد، وحين يسبح في ركوعه وسجوده، وحين يقنت ويرفع يديه، في كلّ ذلك يجب أن يكون المصلّي مستشعراً

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩١.

لعظمة الخالق.

إذا.. ينبغي أن يكون المصلي: مخلصاً لله متقرباً إليه، حاضر القلب، متفهماً لمعاني الألفاظ التي تدور على لسانه، معظماً للمخاطب وهو الله - جلّ وعلا -.

خامساً: الهيبة:

وبعد الإخلاص لله، وإفراغ القلب ممّا سوى الله (حضور القلب)، والتفهم، والتعظيم؛ تأتي الهيبة، وهي أن يستشعر الإنسان الخوف من الله - عزّ وجلّ -.

هناك خوف ناتج من الحذر من الأذى والضرر، وخوف ناتج من الإجلال والتعظيم، وفرق كبير بين الخوفين:

فالإنسان قد يخاف سبُعاً ضارياً، أو يخاف رجلاً قوياً عتيداً ذا أخلاق شريرة، لكنّ خوفه هذا ليس ناتج إجلال.

والهيبة هي الخوف الناتج من الإجلال والتعظيم، وكما يقول الله - جلّ وعلا - : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(١).

ضرار بن ضمرة الضبابي النهشلي لما وصف أمير المؤمنين عليه السلام عند معاوية قال:

«رحم الله علياً، كان - والله - فينا كأحدنا، يديننا إذا أتينا، ويجيبنا إذا سألناه، ويقربنا إذا زرناه، لا يُغلق له دوننا باب، ولا يحجبنا عنه حاجب، ونحن - والله - مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلّمه لهيبته، ولا نبتديه لعظمته، فإذا تبسّم فمنّ مثل اللؤلؤ المنظوم»^(٢).

إنّ عبارة: «كان فينا كأحدنا، يديننا إذا أتينا، ويجيبنا إذا سألناه، ويقربنا إذا

(١) سورة النازعات، الآية ٤٠-٤١.

(٢) بحار الأنوار ٤١/ ١٤-١٥، الباب ١٠١ (باب عبادة أمير المؤمنين عليه السلام وخوفه)، ح ٦.

زرناء، لا يُغلق له دوننا باب، ولا يحجبنا عنه حاجب»، تخطّ لنا ملمحًا من تواضع أمير المؤمنين عليه السلام، وتبيّن لنا أنّ من تواضعه وحنوّه عليه السلام أنّه كان كواحد من الموجودين، ولم يكن يتميّز عليهم، لا يترفع عليهم في مجلس، ولا لباس، ولا هيئة، ولا صوت، ولا مأكّل، ولا مشرب، ولا غير ذلك..، إن لم يُنقص نفسه عنهم!!

أو لم يكونوا يقولون عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله: ما كنّا نعرفه ولا نميّزه من أصحابه، مجلسه مثل مجلس أصحابه، حتى وضعت له دكة يجلس عليها؛ لكي يعرفه السائل القادم، ولا يتحرّر إلى مَنْ يتجه، وإلى مَنْ يقصد في حاجته، فإذا أتى الغريب عرف أين الرسول صلّى الله عليه وآله. وإن كنّا لا ندري أيّة عيون تلك التي لم تكن تميّز رسول الله وجماله وبهاء الأخاذين عن غيره من الصحابة، ومميزاته الفذة الفريدة المنقطعة النظر، عجيب ذلك!!

ثمّ يقول ضرار: «ونحن - والله - مع تقريبه لنا وقربه منّا لا نكلّمه لهيته، ولا نبتديه لعظمته»!!

ففي الوقت الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام متواضعًا غدا فينا كأحدنا، كانت له عندنا هيئة وجلال، تلك الهيئة ليست مثل هيبتنا من معاوية، هيئة علي عليه السلام هيئة الإجلال.. هيئة العظمة.. هيئة الإكبار.. هيئة أن تقف بين يدي طود شامخ عظيم كأمر المؤمنين عليه السلام، ليست الهيئة المصطنعة بالصولجان واللباس والجند والحراس والأسلحة والترويع والسجن وتقطيع الأعضاء والقتل التي كانت لمعاوية ولغيره من الحكام الذين يستعيزون عن هيئة الجلال بهيبة الترويع وبثّ الرعب والذعر!!

نحن عندما نتطرّق إلى موضوع الهيئة من الله لا نريد الهيئة السلبية، وإنّما نريد الهيئة الإيجابية: هيئة الإجلال والإكبار؛ لأنّنا بين يدي ذي الجلال - جلّت عظمته - . فبعد أن تعظّم الله، لابدّ أن ينعكس هذا التعظيم هيئةً في النفس من الله - عزّ وجلّ -، فتتدثر النفس بجلباب الخوف والفرق والخشية من الله:

يقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا

بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴿^(١)﴾.

وفي البلاغة يقولون: تقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص، فالله يريد بقوله: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، أن تكون وجهة الرهبة الإنسانية منصرفة نحوه وحده، لا نحو بشر شرسين، ولا حيوانات مفترسة، ولا أشياء مؤذية.

ويقول الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(٢).

وهذه الآيات الشريفة تتحدث عن نبيين عظيمين هما: زكريا وابنه يحيى، بالإضافة إلى زوجة زكريا، وتصنفهم بأنهم ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، فمع أنّهما نبيان معصومان من الخطيئة والدنس، ومع أنّ زوجة نبي الله زكريا كانت تقية صالحة، إلا أنّ الدعاء يرتفع من حناجرهم إلى الله جامعًا بين الرغبة والرهبة، يصعد إلى الله وهو يحمل الأمل الكبير بالجواد الكريم، وأناة البكاء وزفرات الألم والخوف من الله.

وإذا كان هذا حال الأنبياء، فكيف ينبغي أن يكون حال المؤمنين، فضلاً عن العصاة المذنبين؟!!

والهيبة تجعل الإنسان يتذكر أنّ الله - سبحانه وتعالى - في لحظة من اللحظات قد يذر هذا الكون قاعاً صفصفاً، ولا يهتم شيء: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّوْهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾^(٣)، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية ٤٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٩-٩٠.

(٣) سورة الشمس، الآية ١٤-١٥.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.

هذا الإنسان يعلم أنّ الله قادر أن يفني الأرض بمن عليها وما عليها في لحظة خاطفة وأقلّ من لمح بصر، بل يفني الكون بأسره بـ (كن.. فيكون)، وهو الغني المطلق غير المحتاج لأحد وإرادته النافذة في كلّ شيء: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

على الإنسان أن يستشعر أنّ الله - سبحانه وتعالى - صاحب القوة المتين.. الجبار.. المنتقم.. شديد العقاب، له كلّ معاني العظمة إلى يوم القيامة، وبهذا تمتدّ رؤية الإنسان إلى التفكير في عظمة الله وجلاله، ولا تقف رؤيته عند حدود لهب نار الدنيا و«حديدة أحماها إنسانها لمدعبه»^(٢)، ولا عند حدّ وجود «نارٍ سجّرها جبارها لغضبه»^(٣)، - كما يقول أمير المؤمنين -، بل.. تمتدّ للهيبة من الله - سبحانه - خالق نار الدنيا ونار الآخرة.

فالهيبة - هنا - ليست هيبة من نار الدنيا أو نار الآخرة، وإنما هي هيبة من الله العليّ القدير.

ويوم القيامة لا تتوجّه عين الخوف عند الإنسان نحو النّار وحدها، بل.. تنصرف نحو الهيبة والخشية من الله، وترتعب فرقاً من عظمة الباري وجلاله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٤).

سينظر الإنسان في الآخرة إلى النّار والعذاب، فتمتلئ نفسه هيبة، وترتعد فرائضه فرقاً، ويتحلّبه العرق من كلّ جوانبه!!؛ لأنّها «نار سجّرها جبارها لغضبه».

(١) سورة البقرة، الآية ١١٧.

(٢) نهج البلاغة/ ٣٤٧، الخطبة ٢٢٤، وبحار الأنوار ٤٠ / ٣٤٧، الباب ٩٨، باب (فيما قاله عليه السلام) في زهده، وإشارة إلى ما فعل بعقيل)، ح ٢٩.

(٣) نهج البلاغة/ ٣٤٧، الخطبة ٢٢٤، وبحار الأنوار ٤٠ / ٣٤٧، الباب ٩٨، باب (فيما قاله عليه السلام) في زهده، وإشارة إلى ما فعل بعقيل)، ح ٢٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

في يوم من الأيام جاء الأمين جبريل عليه السلام عابساً كئيباً إلى النبي محمد صلّى الله عليه وآله، فلما رآه الرسول كذلك قال له: «يَا جَبْرِئِيلُ، جِئْتَنِي الْيَوْمَ قَاطِبًا!!»، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ وُضِعَتْ مَنَافِخُ النَّارِ، فَقَالَ: وَمَا مَنَافِخُ النَّارِ يَا جَبْرِئِيلُ؟، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَمَرَ بِالنَّارِ فَنُفِخَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ نُفِخَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ نُفِخَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءٌ مُظْلِمَةٌ...»^(١)، تنتظر مرور بعض الناس عليها، حتى تمسكه من تلايبه، وتقسم ظهره، وتلتهمه، وتسمه بصنوف العذاب المهين: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾^(٢)، أجارنا الله وإياكم منها.

كل معاني الجلال لابد أن يستشعرها الإنسان في قلبه، ويجيلها في خلدته؛ ففي يوم القيامة أهوال عظام يشيب لها رأس الوليد: ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(٣).

انظر عظمة التعبير القرآني، اختار - بالتحديد - (الأم المرضع) من بين الأمهات، وليس كل أم!!، لم يختار الأم الفاطم لولدها، ولا ذات الولد الكبير.

في هذه الدنيا لو نزلت داهية فإن الأم المرضع أول شيء يهتمها هو ولدها الرضيع، فتضحى غايته نجاته أكثر مما تطلب النجاة لنفسها، إنها تحنو عليه بعطف وحنان فريدين أكثر من اهتمامها في ذلك الوقت العصيب بنفسها، والبعض ممن نقل حوادث هدم أو حريق أو غرق أو سيارات أو غير ذلك.. تلك الحوادث الأليمة التي كان فيها طفل رضيع وأم، يرى الأم محتضنة ولدها الرضيع أو نائمة فوقه، تريد أن تقيه من جمرة الأذى، ولو كان ثمن ذلك حياتها!!، هذا هنا في عالم الدنيا، أما هناك

(١) بحار الأنوار ٨ / ٢٨٠، الباب ٢٤ (باب النار)، ح ١.

(٢) سورة الفرقان، الآية ١٢-١٤.

(٣) سورة الحج، الآية ٢.

في القيامة، فالساعة من شدة وقعها وهول رعبها ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

فالأم المرضع ذات القلب الرؤوم الحاني تذهل عن وليدها، والحامل من وقدة الفزع تضع حملها، والناس هناك في حالة سُكر، كل شخص لا يعرف صاحبه... ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(١).

إنه - بحق - فادح جسيم، وخطب جلل، أجادت عدسة القرآن الكريم في تصويره والتقاطه مجسماً ماثلاً عياناً وشعوراً لنا، ونحن بعد في الدنيا، أعاذنا الله وإياكم من أهوال الطامة، وعذاب الآخرة وأهوالها.

ولكن لله عظمة لا تقارن بها النار.

النار عظيمة، ولكنها لا تُقاس بعظمة الله!!

والإنسان الذي يعظم الله لا بد أن يستشعر في الله معاني الهيبة.. معاني الانتقام.. معاني الغضب.

صحيح - كما سيأتي - أن الله هو الرحمن الرحيم، والعفو الغفور، والحنان المنان، ولكنه - أيضاً - جبار ومتقم وشديد العقاب، إلى آخر هذه المعاني الجلالية^(٢).

هذه الهيبة يلزم أن تسكن الإنسان في صلاته، فتظلل سحابتها؛ فيرتعب خشية من الله العظيم.

(١) سورة عبس، الآية ٣٤-٣٧.

(٢) واضح أن أستاذنا الشيخ الشبيب - رضوان الله عليه - لا يستخدم - هنا - مصطلح (الجلالية)، بمعنى الصفات السلبية المتتفة عن الله، كالحلول والاتحاد والتحيز والانتقال والمرض والموت، في مقابل (الجمالية)، التي تعني الصفات الثبوتية لله مثل: السميع والعليم والبصير، ومثل: الخالق والمحيي والمميت، وإنما يستخدمها بمعنى العظمة والهيبة (الجلال).

سادساً: الرجاء:

الخوف والرجاء لابد أن يكونا متلازمين في قلب الإنسان المؤمن.

يقول الإمام الحسين عليه السلام في (دعاء عرفة): «إلهي، إنَّ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ، كَمَا أَنَّ خَوْفِي لَا يُزِيلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ»^(١)، «إلهي، كُلَّمَا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ، وَكُلَّمَا آيَسْتَنِي أَوْصَا فِي أَطْمَعْتَنِي مِنْكَ»^(٢).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «لَا تُجْمَعُ الرِّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ فِي قَلْبٍ إِلَّا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٣).

وحسب استنباطنا من الأحاديث فالرجاء يجب أن يكون غالباً في نفس الإنسان المؤمن على الخوف، أي لابد أن يكون هناك توازن، وإذا أراد الإنسان أن يغلب أحد الجانبين على الآخر، فيغلب كفة الرجاء؛ لأنَّ جانب رحمة الله أوسع وأرحب من عذابه ونقمته، وقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نشر الله - تبارك وتعالى - رحمته، حتى يطمع إبليس في رحمته»^(٤).

فإبليس - وهو إبليس - يوم القيامة يبحث عن طريق لدخول الجنة!!

لم يُعْطَ أحد من العمر ما أُعْطِيَ إبليس، لقد عمّره الله عشرات آلاف السنين، فبدد حزمة أيامه في محاربة الله ومعصية الله وإغواء الناس وإضلالهم، وصدّهم عن السبيل والطريق القويم، ومع ذلك كلّهُ فهو حين يرى في ساحة المحشر نشر رحمة الله الواسعة وعظمة تجلّي رحمة الله وغيثها العميم يستمطر تلك الرحمة، ويطمع في الجنة!!

(١) بحار الأنوار ٩٥ / ٢٢٧، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)، ح ٣ (دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٢٩٩.

(٢) بحار الأنوار ٩٥ / ٢٢٥، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)، ح ٣ (دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٢٩٨.

(٣) بحار الأنوار ٨١ / ٢٦٠، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ذيل الحديث ٥٩.

(٤) بحار الأنوار ٧ / ٢٨٧، الباب ١٤ (باب ما يظهر من رحمته تعالى في القيامة)، ح ١.

في الرواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إنَّ آخر عبد يؤمر به إلى النار يلتفت، فيقول الله - عزَّ وجلَّ -: أعجلوه، فإذا أُتِيَ به قال له: يا عبدي، لمَ التفت؟، فيقول: يا ربِّ، ما كان ظنِّي بك هذا، فيقول الله - جلَّ جلاله -: عبدي، وما كان ظنُّك بي؟، فيقول: يا ربِّ، كان ظنِّي بك أن تغفر لي خطيئتي، وتسكنني (وتدخلني خ ل) ^(١) جنتك، فيقول الله: ملائكتي!، وعزَّتي وآلائي وبلائي وارتفاع مكاني، ما ظنَّ بي هذا ساعة من حياته خيرًا قطَّ، ولو ظنَّ بي ساعة من حياته خيرًا ما رَوَّعته بالنار، أجزوا له كذبه، وأدخلوه الجنة.

ثمَّ قال أبو عبد الله عليه السلام: ما ظنَّ عبدٌ بالله خيرًا إلا كان الله عند ظنِّه به، ولا ظنَّ به سوءًا إلا كان الله عند ظنِّه به، وذلك قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ^(٢)» ^(٣).

وفي رواية أخرى يرويها ابن رثاب يقول: «سمعتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام يقول: يؤتى بعد يوم القيامة ظالم لنفسه، فيقول الله له: ألم آمرك بطاعتي؟، ألم أنهك عن معصيتي؟، فيقول: بلى.. يا ربِّ، ولكن غلبت عليَّ شهوتي، فإن تعذبني فبذنب لم تظلمني، فيأمر الله به إلى النار، فيقول: ما كان هذا ظنِّي بك، فيقول: ما كان ظنُّك بي؟، قال: كان ظنِّي بك أحسن الظنِّ، فيأمر الله به إلى الجنة، فيقول الله - تبارك وتعالى -: لقد نفعك حسن ظنِّك بي الساعة» ^(٤).

ماذا يستفيد الله من عذاب الناس؟!، بالطبع.. لا يستفيد شيئًا؛ لأنَّه «خلق الخلق حين خلقهم غنيًّا عن طاعتهم، آمنًا من معصيتهم؛ لأنَّه لا تضرُّه معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه» ^(٥).

(١) (خ ل): هي اختصار لعبارة (نُسَخ بدل)، أي أنَّ جملة: «وتسكنني جنتك»، وردت في بعض النسخ هكذا، وفي نسخ أخرى بديلة للكتاب وردت: «وتدخلني جنتك».

(٢) سورة فصلت، الآية ٢٣.

(٣) بحار الأنوار ٧ / ٢٨٧-٢٨٨، الباب ١٤ (باب ما يظهر من رحمته تعالى في القيامة)، ح ٣.

(٤) بحار الأنوار ٧ / ٢٨٨، الباب ١٤ (باب ما يظهر من رحمته تعالى في القيامة)، ح ٤.

(٥) نهج البلاغة / ٣٠٣، الخطبة ١٩٣.

فرحمة الله وسعت كل شيء، نسأل الله أن تسعنا..

فالمؤمن لابد أن يستشعر معنى الرجاء، ويستشعر الأمل، ويتظلل بظلاله الوارفة، وينتشي بشذاه العبق.

يروى الحارث بن المغيرة أو أبوه - والترديد من أصل الرواية - عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «قلت له: ما كان في وصية لقمان؟»، قال: كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما فيها أن قال لابنه: خف الله - عز وجل - خيفة لو جئت ببر الثقلين لعذبك، وارح الله رجاء لو جئت بذنوب الثقلين لرحمك»^(١).

وروي عن (عالم أهل البيت) الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «والله، ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله - عز وجل -، ورجائه له، وحسن خلقه، والكف عن اغتياب المؤمنين، والله تعالى لا يعذب عبداً بعد التوبة والاستغفار، إلا بسوء ظنه، وتقصيره في رجائه لله - عز وجل -، وسوء خلقه، واغتيابه المؤمنين، وليس يحسن ظن عبد مؤمن بالله - عز وجل - إلا كان الله عند ظنه؛ لأن الله كريم يستحي أن يخلف ظن عبده ورجائه، فأحسنوا الظن بالله، وارغبوا إليه؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾»^(٢) ^(٣).

وهكذا يبقى المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمة: بين خوف ورجاء، كما تعبر الأحاديث -:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما من آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله»^(٤).

(١) الكافي ٢ / ٧٣، الباب ٢١٩ (باب الخوف والرجاء)، ح ١، وبحار الأنوار ٦٧ / ٣٥٢، الباب ٥٩ (باب الخوف والرجاء)، ح ١.

وورد مثله عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يا بُنَيَّ، خف الله خوفاً أنك لو أتيت بحسنات أهل الأرض لم يقبلها منك، وارح الله رجاء أنك لو أتيت بسيئات أهل الأرض لغفرها لك» [بحار الأنوار ٦٧ / ٣٩٤، الباب ٥٩ (باب الخوف والرجاء)، ح ٦٤].

(٢) سورة الفتح، الآية ٦.

(٣) بحار الأنوار ٦٧ / ٣٩٩، الباب ٥٩ (باب الخوف والرجاء)، ح ٧٢.

(٤) الشريف الرضي، المجازات النبوية / ٣٤٦، ح ٢٦٨.

ويقول ﷺ: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١).

ولا يفوتنا - هنا - أن ننبه إلى أن تعبري (من أصابع الله) و(من أصابع الرحمن) تعبران يكتسيان حلة المجاز، تمامًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٢)، ولا يصح حملهما على المعنى الحسي المباشر، والقول بأن الله - جلّ وعلا - له أصابع!!

سابعًا: الحياء:

المعنى الأخير من معاني حضور القلب هو: الحياء.

ليس معنى سهلاً أن يستحي الإنسان من ربه!!، أتعرف ماذا يعني أن يستحي الإنسان من ربه؟!

أوليس الإنسان إذا وجد أمامه بهيمة - أجلكم الله جميعاً - يستحي أن يرتكب بعض المعاصي بحضورها، فضلاً عما لو وجد طفلاً غير مميز، فضلاً عن المميز من الأطفال، فضلاً عن الكبار؟!

ألا يستحي الإنسان أن يعصي الله أمام الآخرين؟!

يمكن أن تصل الجرأة بالإنسان أن يترك صلاته وصيامه، ويشرب الخمر ويسرق ويزني ويقتل، لكنه يفعل ذلك بالسرّ والخفاء، ولا يعلن فسقه وعصيانته، أما أن تصل به الجرأة إلى إعلان ذلك فهي صلافة وقلة حياء، وفي هذا يقول الإمام السجّاد - صلوات الله وسلامه عليه - في دعائه: «اللهم وإذ سترتني بعفوك، وتغمّدني بفضلك في دار الفناء بحضرة الأكفاء، فأجرتني من فضيحات دار البقاء عند مواقف الأشهاد من الملائكة المقرّبين، والرسل المكرّمين، والشهداء والصالحين، من جار كنت أكاتمته سيئاتي، ومن ذي رحم كنت أحتشم منه في سريرتي، لم أثق بهم - ربّ - في الستر

(١) الشيخ ابن أبي جمهور الأحسائي، عواليء اللآلئ ١ / ٤٨، الفصل الرابع، ح ٦٩.

(٢) سورة الفتح، الآية ١٠.

عليّ، ووثقتُ بك - ربّ - في المغفرة لي، وأنت أولى مَنْ وثق به، وأعطى مَنْ رُغب إليه، وأرأف مَنْ استرحم»^(١).

ويقول الإمام السجّاد عليه السلام في دعاء السحر الذي علّمه تلميذه أبا حمزة الثمالي، وعُرف بـ (دعاء أبي حمزة الثمالي):

«أي ربّ، جلّني بسترِكَ، واعفُ عن توبيخي بكرم وجهك، فلو اطلع اليوم على ذنبي غيرُك ما فعلته، ولو خفتُ تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنّك أهون الناظرين إليّ، وأخفّ المطلعين عليّ، بل.. لأنّك - يا ربّ - خير الساترين، وأحلم الأحمليين، وأكرم الأكرمين، ستار العيوب، تستر الذنب بكرمك، وتؤخر العقوبة بحلمك، فلك الحمد على حلمك بعد علمك، وعلى عفوك بعد قدرتك، ويحملني ويجرّني على معصيتك حلمك عني، ويدعوني إلى قلة الحياء سترك عليّ، ويسرّعني إلى التوبّ على محارمك معرفتي بسعة رحمتك، وعظيم عفوك»^(٢).

أي أنّنا - يا ربّ - حين عصينا في السرّ، فذاك ليس استخفافاً منك، فأنت العظيم الجبار، وإنّما لأنّنا نعلم أنّك تستر، وعبيدك لا يسترون!!، أنت ترخي علينا حجاب الستر، وتظلل علينا سحب الكتمان، ولكنّ لسان عبيدك طلق ذلق بنشر معصيتنا في كلّ محفل ونادٍ!!

ثوب الحياء من الله لا بدّ أن يدثرنا ويكسوننا، والشعور بالحياء من الله لا بدّ أن يكون حاضراً معنا في حلّنا وترحالنا وكلّ آفات حياتنا، فالإنسان الذي يستحي من ربّه يعني أنّه يراقبه في خلوته، يراقبه حين يكون وحيداً، ولا يكتفي بمجافاة المعصية حين يكون بمراءى من الناس ومسمع.

(١) الإمام علي بن الحسين السجّاد، الصحيفة السجّادية، تقديم: السيّد الشهيد محمد باقر الصدر /

١٤٩ (من دعائه عليه السلام بعد الفراغ من صلاة الليل لنفسه في الاعتراف بالذنب).

(٢) بحار الأنوار ٩٥ / ٨٤، الباب ٦ (باب الأعمال، وأدعية مطلق ليالي شهر رمضان وأيامه)، ح ٢ (دعاء أبي حمزة الثمالي).

لا يصبح الزاهد والورع والملتقي أمام الناس، وعندما تسنح له فرصة يكون فيها لوحده يركبها، ويرتكب من المعاصي ما يرتكب، وينتهك من المحرمات ما ينتهك، فهنا - لدى الخلوة بالنفس - يظهر الحياء من الله، ويتبدى السبب الحقيقي والأصيل في عدم اجتراح المعصية: هل هو الخوف من الناس والفضيحة الاجتماعية أم الحياء من الله تعالى؟!

ينبغي أن يراقب الإنسان أعماله في العلن والسرّ، في المحضر والخلوة، ويشعر - دومًا - بمراقبة الله له، ويشعر بعين الله البصيرة وعلمه المحيط، ومن ثم يفرّ من المعصية فراره من الذنب والطاعون!!

إنّ معاصي الخلوات شنيعة؛ لأنّها حيث فقدت البشر الناظرين استهانت بالله، فهي تراعي نظر البشر، ولا تراعي نظر الله!!

يقول إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام:

«فَأَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أَنْ لَا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعَائِي سُوءَ عَمَلِي وَفِعَالِي، وَلَا تَفْضَحْنِي بِخَفِيِّ مَا أَطْلَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ سِرِّي، وَلَا تُعَاجِلْنِي بِالْعُقُوبَةِ عَلَى مَا عَمِلْتُهُ فِي خَلَوَاتِي مِنْ سُوءٍ فِعْلِي وَإِسَاءَتِي، وَدَوَامِ تَفْرِيطِي وَجَهَالَتِي، وَكَثْرَةِ شَهَوَاتِي وَغَفْلَتِي، وَكُنِ اللَّهُمَّ بِعِزَّتِكَ لِي فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ رَوْوْفًا، وَعَلَيَّ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ عَطُوفًا. إِلَهِي وَرَبِّي مَنْ لِي غَيْرُكَ أَسْأَلُهُ كَشْفَ ضُرِّي، وَالنَّظَرَ فِي أَمْرِي»^(١).

لماذا الحياء من الله؟

وقبل أن نسدل الستار على مبحث (الحياء) ينتصب أمامنا السؤال التالي: لماذا الحياء من الله؟

والجواب: لأنّ الله دائماً معنا، ودائماً هو حاضر شاهد، ودائماً هو رقيب بصير:

(١) مصباح المتهجد / ٨٤٥ (دعاء آخر، وهو دعاء الخضر عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٦٣ (دعاء كميل بن زياد).

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبَلٍ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٢).

- ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(٣).

- «إِلَهِي وَسَيِّدِي، فَاسْأَلُكَ بِالْقُدْرَةِ الَّتِي قَدَّرْتَهَا، وَبِالْقَضِيَّةِ الَّتِي حَتَمْتَهَا وَحَكَمْتَهَا، وَعَلَبْتَ مَنْ عَلَيْهِ أَجْرِيَّتَهَا، أَنْ تَهَبَ لِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ: كُلَّ جُزْمٍ أَجْرَمْتُهُ، وَكُلَّ ذَنْبٍ أَذْبَنْتُهُ، وَكُلَّ قَبِيحٍ أَسْرَزْتُهُ، وَكُلَّ جَهْلٍ عَمِلْتُهُ: كَتَمْتُهُ أَوْ أَعْلَنْتُهُ، أَخْفَيْتُهُ أَوْ أَظْهَرْتُهُ، وَكُلَّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتُ بِإِثْبَاتِهَا الْكَرَامَ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ مَا يَكُونُ مِنِّي، وَجَعَلْتَهُمْ شُهُودًا عَلَيَّ مَعَ جَوَارِحِي، وَكُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَالشَّاهِدَ لِمَا خَفِيَ عَنْهُمْ، وَبِرَحْمَتِكَ أَخْفَيْتُهُ، وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ»^(٤).

وبهذا لا يستطيع الإنسان المستحي من الله أن يتجرأ على المعصية في أية لحظة من اللحظات، لا في العلن، ولا في الخلوة؛ لأنه بعين الله.

ولو تصور الإنسان حين معصيته وحين ارتكابه للذنوب هذا المعنى، معنى رقابة الله - عز وجل -، معنى نظر الله له، معنى وجود الملكين الرقيبين، معنى تدوين الأعمال في كتابه وصحيفته؛ لاستحي فعلاً من ربه.

(١) سورة المجادلة، الآية ٧.

(٢) سورة ق، الآية ١٦-١٨.

(٣) سورة طه، الآية ٧.

(٤) مصباح المتهجد / ٨٤٨ (دعاء آخر، وهو دعاء الخضر عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٦٦ (دعاء كميل بن زياد).

هنا يستحي الإنسان ممن؟!، إنه يستحي من خالق كريم عفو غفور، كلما عصاه الإنسان يقول له: تُب؛ فتعود كَأَنَّكَ لم تعص ، وتعود كَأَنَّ شَيْئًا لم يكن، ولكن هذا الإنسان لا يستحي ولا يرعوي ولا يرتدع ولا ينزجر، ولا يقلع عن المعاصي، فيعود ويعصي ويتوب؛ فيتوب الله عليه!!

هل رأيتَ كرمًا بهذا الحجم؟!، وهل عرفتَ أحدًا أكرم من الله؟!، كلما عصى الإنسان يقول الله له: لا تقنط، ولا تتلفع برداء اليأس، يكفي - فقط - أن تقول: (أستغفر الله ربِّي، وأتوب إليه)، وأنت نادم على اقتراف الذنب، صادق في الاستغفار، عاقد العزم على التوبة، مصرّ على عدم العود إلى الذنب؛ فتصبح أبيض نقيًا كالثلج، طاهرًا من كل دنس كالمطر، وتغدو صحيفتك خالية من سواد الذنوب، زاهية صقيلة كَأَنَّ شَيْئًا لم يكن: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^(١).

لابدّ أن يستحي الإنسان من هذا الكرم الغامر، وهذا العفو الإلهي العميم، وهذه الرحمة الربانية الواسعة، فيجعل في نفسه نوعًا من الحياء... نوعًا من الخجل أن يعصي الله، ويقابل كرمه العميم بالذنب.

الخلاصة:

إذا اجتمعت هذه المعاني السبعة، فكان الإنسان في صلاته:
أولاً: مخلصًا لله، متقربًا إليه وحده، خاليًا من أية شائبة أخرى كالرياء.
وثانيًا: حاضر القلب.
وثالثًا: متفهمًا لما يقول.
ورابعًا: معظّمًا لمن يخاطب.

(١) سورة الزمر، الآية ٥٣-٥٤.

وخامسًا: راهبًا.

وسادسًا: راجيًا (راغبًا).

وسابعًا: مستحيًا.

فقد وفّر لديه روح الصلاة وقوامها وُصْلُهَا، وفّر لديه حضور القلب (بالمعنى الأعمّ الواسع)، وفّر لديه المحتوى المضموني الداخلي النبيل للحضور بين يدي الله، فهذه المعاني السبعة تشكّل مجمل الصفات الجوانحية التي يجب أن يوفّرها الإنسان في نفسه حين صلاته، وفي ذاك الوقت سوف يستكشف أنّ هذه الصلاة فعلاً تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي..



الأدب الأول

**الإخلاص لله والقربة،
والخلو من شوائب الرّياء**

الإخلاص لله والقربة، والخلو من شوائب الرّياء

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله - عز وجل - على عبد أجل من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره»^(١).

رأس الفضائل ورئيسها:

أهمّ صفة ينبغي أن يتصف بها العمل العبادي وغيره؛ ليكون مرضياً عند الله ومقبولاً عنده هي: الإخلاص.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الإخلاص أشرف نهاية»^(٢)، «الإخلاص أعلى فوز»^(٣)، «الإخلاص غاية»^(٤)، «الإخلاص غاية الدين»^(٥)، «الإخلاص أعلى

(١) بحار الأنوار ٦٧ / ١٩٨، الباب ٥٣ (باب النية، وشرائطها، ومراتبها، وكمالها، وثوابها، وأن قبول العمل نادر)، ذيل الحديث ٢.

(٢) الإمام علي بن أبي طالب، غرر الحكم ودرر الكلم، جمع: عبد الواحد الأمدي التميمي ١ / ٤٣، الحكمة ٩٠١.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٣٤، الحكمة ٦٧٢.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ١٤، الحكمة ٩٦.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٣٨، الحكمة ٧٧٧.

الإيمان»^(١)، «الإخلاص ملاك العبادة»^(٢)، «أعلى العبادة إخلاص العمل»^(٣)، «الإخلاص شيمة أفاضل الناس»^(٤).

ويقول الإمام السجّاد عليه السلام: «فأما حقّ الله الأكبر عليك: فأن تعبده لا تشرك به شيئاً، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة»^(٥).

ويقول المولى الشيخ محمد مهدي النراقي - بعد أن عرض شيئاً من زلال الروايات الشريفة التي تحدثت عن (الإخلاص) -:

«ومن تأمل [في] هذه الأخبار وفي غيرها ممّا لم يُذكر، يعلم أنّ الإخلاص رأس الفضائل ورئيسها، وهو المناط في قبول الأعمال وصحتها، ولا عبادة بعمل لا إخلاص معه، ولا خلاص من الشيطان إلا بالإخلاص؛ لقوله [تعالى]: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾»^(٦) ^(٧).

حقيقة الإخلاص:

الإخلاص هو «تجريد القصد عن الشوائب كلّها»^(٨).

أي أن يكون مراد الإنسان من العمل - أيّ عمل كان - وجه الله تعالى، ولا شيء سواه، فالإخلاص هو الضدّ التامّ للرياء ولكلّ شائبة أخرى - مهما كانت صغيرة - يمكن أن تنسرب إلى معيّن المقصد الإلهي النقي.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٤٣، الحكمة ٩١٠.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٤٣، الحكمة ٩٠٩.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٣٠٧، الحكمة ٤٨٩.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٣٣، الحكمة ٦٤٩.

(٥) بحار الأنوار ٧١ / ٣، باب (رسالة الإمام علي بن الحسين عليه السلام إلى بعض أصحابه، وهي: رسالة الحقوق).

(٦) سورة الحجر، الآية ٤٠.

(٧) جامع السعادات ٢ / ٤٠٦.

(٨) جامع السعادات ٢ / ٤٠٢.

فلكي يكون العمل مقبولا عند الله يلزم أن يكون خالصا لوجهه الكريم، لا تشوبه نيّة أخرى، يترفع أن يمزج نيّته برغبات تدّس طهر المقصد، يترفع أن يشوب صفاء النيّة مكدر يوسّسها، سواء أكان رياء، أم سمعة، أم ثناء ومدحًا، أم وجاهة، أم مصلحة، أم مالا، أم غير ذلك..

قال الحواريون لنبيّ الله عيسى المسيح ﷺ: «يا روح الله، من المخلص لله؟، قال: الذي يعمل لله، لا يحبّ أن يحمده أحد على شيء من عمل الله - عزّ وجلّ -»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إنّ لكلّ حقّ حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتى لا يحبّ أن يُحمد على شيء من عمل لله»^(٢).

وقال أمير المؤمنين عليّ ﷺ: «تقرّب العبد إلى الله سبحانه بإخلاص نيّته»^(٣).
وقال أمير المؤمنين ﷺ: «العبادة الخالصة: أن لا يرجو الرجل إلا ربّه، ولا يخاف إلا ذنبه»^(٤).

وقال أمير المؤمنين ﷺ: «من لم يختلف سرّه وعلا نيّته، وفعله ومقالته، فقد أدّى الأمانة، وأخلص العبادة»^(٥).

وقال الإمام الباقر ﷺ: «لا يكون العبد عابداً لله حقّ عبادته حتى ينقطع عن الخلق كلّ إليه، فحينئذ يقول: (هذا خالص لي)؛ فيتقبّله بكرمه»^(٦).

(١) جلال الدين السيوطي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٢ / ٢٣٧، (تفسير سورة النساء).

(٢) بحار الأنوار ٦٩ / ٣٠٤، الباب ١١٦ (باب الرّياء)، ذيل الحديث ٥.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٣١١، الحكمة ١٦.

(٤) علي بن محمد الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي / ٦٥.

(٥) نهج البلاغة / ٣٨٢، العهد ٢٦ (ومن عهد له ﷺ إلى بعض عمّاله وقد بعثه على الصدقة).

(٦) بحار الأنوار ٦٧ / ١٩٨، الباب ٥٣ (باب النيّة، وشرائطها، ومراتبها، وكمالها، وثوابها، وأنّ قبول العمل نادر)، ذيل الحديث ٢.

وقال الإمام الصادق عليه السلام في قول الله: ﴿حَنِيفًا مِّنْ دِينِ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾^(١): «خالصًا مخلصًا، لا يشوبه شيء»^(٢).

هناك فرق كبير بين تقييم الناس للعمل، وتقييم الله - سبحانه وتعالى - للعمل:
الناس يقيّمون العمل بالنتيجة، والله يقيّمه بالقصد.
الناس يقيّمونه بالأداء، والله يقيّمه بالنية.
الناس يقيّمونه بالمنتهى، والله يقيّمه بالمبتدأ.
الناس يقيّمونه بالإنجاز، والله يقيّمه بالمنطلق.

بالإخلاص تقبل الأعمال:

إنّ الله - سبحانه وتعالى - لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم..

فعن علي بن سالم قال: «سمعتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام يقول: قال الله - عزّ وجلّ - : أنا خير شريك، من أشرك معي غيري في عمله لم أقبله، إلا ما كان خالصًا»^(٣).
وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إنّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتغي به وجهه»^(٤).

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «أخلصوا أعمالكم لله؛ فإنّ الله لا يقبل إلا ما خلص له»^(٥).

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٧.

(٢) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٢٧، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ح ١.

(٣) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٣، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ح ١٥.

(٤) أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي ٦ / ٢٥، باب (ثواب من قاتل في سبيل الله فواق ناقة).

(٥) المتقي الهندي، كنز العمال ٣ / ٢٣، باب (الإخلاص)، ح ٥٢٥٨.

الأدب الأول: الإخلاص لله والقربة، والخلو من شوائب الرياء —

وعن رسول الله ﷺ: «إذا عملت عملاً فاعمل لله خالصاً؛ لأنه لا يقبل من عباده الأعمال إلا ما كان خالصاً؛ فإنه يقول: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾»^(١)»^(٢).

وعن رسول الله ﷺ: «ليست الصلاة قيامك وقعودك، إنما الصلاة إخلاصك وأن تريد بها وجهه»^(٣).

وعن أمير المؤمنين ع: «ضاع مَنْ كان له مقصد غير الله»^(٤).

وعن أمير المؤمنين ع: «العمل كله هباء إلا ما أخلص فيه»^(٥).

الإخلاص أصعب من التهام الجمر!!

إنّ توفير الإخلاص وتحقيقه ونيله وبلوغه صعب، بل أشدّ صعوبة من المشي على الشوك، والنوم على الإبر، والتهام الجمر، وشرب لابة البركان!!
يقول مولانا أمير المؤمنين ع: «الإخلاص خطرٌ عظيمٌ حتى يُنظر بما يُختم له»^(٦).

ويقول مولانا أمير المؤمنين ع: «تصفية العمل أشدّ من العمل، وتخليص النية عن الفساد أشدّ على العاملين من طول الجهاد»^(٧).

(١) سورة الليل، الآية ١٩-٢١.

(٢) بحار الأنوار ٧٤ / ١٠٣، الباب ٥ (وصية النبي ﷺ إلى عبد الله بن مسعود)، ح ١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١ / ٣٢٥، (فصل الرياء والنهي عنه).

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٤٢٠، الحكمة ١٦.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٦٩، الحكمة ١٤٤٢.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٧٦، الحكمة ١٥٩٦.

(٧) الشيخ الحسن بن شعبة الحرّاني، تحف العقول عن آل الرسول / ٩٩، (خطبته ع المعروفة ب (الوسيلة))، وبحار الأنوار ٧٤ / ٢٨٨، (خطبه - صلوات الله عليه - المعروفة: خطبة الوسيلة).

ويقول إمامنا الصادق عليه السلام: «الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص: الذي لا تريد أن يحمّدك عليه أحد إلا الله - عزّ وجلّ -، والنية أفضل من العمل»^(١).

مراتب الإخلاص:

للإخلاص مراتب عدّة، منها:

١- الإخلاص المطلق (إخلاص الصديقين):

وهو «إرادة محض وجه الله سبحانه من العمل»^(٢)، والعمل دون إرادة أيّ غرض آخر غير الله في الدارين، وهو أعلى مراتب الإخلاص^(٣).

وهنا تترفع النية والمقصد في العمل والعبادة عن أيّ شوب دنيوي أو أخروي!!، فلا تطلّ بعينها نحو مقاصد دنيوية كالرياء والسمعة والوجاهة والمصلحة والمال، بل.. وأعظم من ذلك وأسمى: لا تطلّ بعينها نحو مقاصد أخروية كالثواب الإلهي والجنة!! الإخلاص المطلق يعني أن يكون المقصد في أيّ عمل يأتي به الإنسان هو الله، ولا أحد غيره، ولا شيء سواه.

الإخلاص المطلق يعني أن يكون منطلق العمل العبادي هو الله وحده، ومنطلق العمل الاجتماعي هو الله وحده، ومنطلق العمل الخدمي هو الله وحده، ومنطلق العمل السياسي هو الله وحده، ومنطلق العمل الحقوقي هو الله وحده، ومنطلق العمل الصحي هو الله وحده، ومنطلق العمل الرياضي هو الله وحده، إلى خاتمة أيّ عمل يمكن أن يقدمه الإنسان.

(١) الكافي ٢ / ١٦، (باب الإخلاص)، ح ٤.

(٢) جامع السعادات ٢ / ٤٠٢.

(٣) جامع السعادات ٢ / ٤٠٢.

_____ الأدب الأول: الإخلاص لله والقربة، والخلو من شوائب الرّياء _____

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ولا بدّ للعبد من خالص النية في كلّ حركة وسكون؛ لأنّه إذا لم يكن هذا المعنى يكون غافلاً، والغافلون قد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(١)، وقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢)»^(٣).

وهذا المستوى الأعلى من الإخلاص لا يتحقّق إلا للمفتون في حبّ الله، الذائب فيه، المتّيمّ به، العاشق له، الواله به، الهائم به وحده، المستغرق الهمّ بعظمة الله وجلاله، غير الملتفت والمكترث والآبه مطلقاً بالدنيا وزخرفها الفاني، غير المنخدع بزبرجها الظاهر^(٤).

وهذا يعني عقد الصلة بالله وحده، وقطعها عن كلّ من وما عداه: في مستوى الدافع والباعث والمحفّز والمنطلق والمحرّك، وفي مستوى المقصد والغاية والهدف، وفي مستوى الطموح والأمل، وفي مستوى الفكر والنظر، وفي مستوى الفعل والعمل، وفي كلّ مستوى، وفي كلّ شيء.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الإخلاص عبادة المقربين»^(٥).

٢. الإخلاص الإضافي:

وهو «قصد الثواب والاستخلاص من العذاب»^(٦)، وهو أدنى مراتب الإخلاص.

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

هذا المقطع والمقطع السابق كلاهما من آية واحدة، يقول الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية ١٧٩].

(٣) بحار الأنوار ٦٧ / ٢١٠، الباب ٥٣ (باب النية، وشرائطها، ومراتبها، وكمالها، وثوابها، وأنّ قبول العمل نادر)، ح ٣٢.

(٤) جامع السعادات ٢ / ٤٠٢.

(٥) غرر الحکم ودرر الکلم ١ / ٣٦، الحكمة ٧١٨.

(٦) جامع السعادات ٢ / ٤٠٢.

نحن مع ثلاث طوائف من الناس:

أ- الطائفة الأولى تبعثها للعمل العبادي نيّة مفردة هي: (نيل الثواب، واجتناب العقاب)، أي المصلحة والمكسب المادي فقط!!

كثير من الناس - المسلمين وغيرهم - يعبدون الله من أجل نيل الثواب، واجتناب العقاب، فالواحد منهم يفعل الخيرات ويصلي ويتصدق؛ لأنّ الله وعد الفاعلين بالجنة، ويترك الشرور والكذب والغش والزنا؛ لأنّ الله توعدّ الفاعلين بالنار. وبعض الناس في مجتمعاتنا لا يقوم بأيّ عمل عبادي إلا إذا عرف ثوابه، ورآه محرّزاً، ويحرص غاية الحرص أن يسأل أو يبحث أو يقرأ - أولاً - عن الثواب المدخّر لفعله، ويسأل دائماً وبإلحاح:

- حتى أغتسل غُسل الجمعة، ما الثواب الذي أُعطاها؟!
 - حتى أصلي صلاة ليلة القدر، ما الثواب الذي أُعطاها؟!
 - حتى أصلي صلاة الليل، ما الثواب الذي أُعطاها؟!
 - حتى أصلي صلاة جعفر الطيّار، ما الثواب الذي أُعطاها؟!
 - حتى أصلي النوافل أو الغفيلة، ما الثواب الذي أُعطاها؟!
 - حتى أصوم رجب أو شعبان أو بعضاً منهما، ما الثواب الذي أُعطاها؟!
 - حتى أحمّس أو أزكي أو أتصدق، ما الثواب الذي أُعطاها؟!
 - حتى أحجّ أو أعتمر، ما الثواب الذي أُعطاها؟!
- وهكذا..

ومن يعبد الله ضمن معادلة الثواب والعقاب عبادته صحيحة شرعاً، ولا نقول بأنّها باطلة؛ فأحد المحرّكات التي حرّك بها النصّ الديني الناس نحو الطاعات والأعمال الصالحة والعبادات، واجتناب المعاصي والأعمال الطالحة والمحرّمات؛

الأدب الأول: الإخلاص لله والقربة، والخلو من شوائب الرّياء —

هو التحريك بالثواب والعقاب^(١)، ولكنها ليست العبادة المثلى، وهي عبادة مصلحة نفعية بحتة، منطلقها مادي تجاري.

ب- والطائفة الثانية تبعثها للعمل العبادي نيّة مركبة مزدوجة ثنائية هي: (نيل الثواب واجتناب العقاب)، و(الله سبحانه)، أي (المصلحة) و(الله) معاً!!
فبعض الناس يعمل لله، ولكنه لا ينسى نفسه أيضاً، فالعمل ليس خالصاً لوجه الله، وإنما يشوبه ويدخله دافع آخر شخصي مصلي!!
يريد الله، ولكنه يبحث - أيضاً - عن النعيم والثواب الذي يعود إليه من الفعل العبادي، وهذا ما سميناه (الإخلاص الإضافي)؛ فهو يضيف (الله) رغبة أخرى موازية ومصاحبة هي: المصلحة!!

ج- والطائفة الثالثة تبعثها للعمل العبادي نيّة مفردة - كذلك - هي: (وجه الله)

(١) ومن ذلك قوله تعالى:
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية ١٢٤].
﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٣٣].
﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [سورة الجن، الآية ٢٣].
﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ [سورة طه، الآية ٧٤].
وأحياناً يستخدم النصّ الديني المحرّكين: المادي والمعنوي معاً؛ لبعث الناس نحو العمل الصالح، وزجرهم عن العمل الطالح، كقوله تعالى:
﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، الآية ٧٢].
فجنتا عدن وثواب مادي، والرضوان الإلهي ثواب معنوي.
﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء، الآية ٩٣]، فجهنم عقاب مادي، والغضب الإلهي عقاب معنوي.

وحده، أي الله دون النظر والتطلّع لأيّة مصلحة ورغبة سواه حتى الجنّة، وهذا هو الإخلاص المطلق (إخلاص الصديقين).

وعلى حسب تعبير العرف الاجتماعي عندنا:

الطائفة الأولى يحركها (التين) وحده!!

والطائفة الثانية يحركها: (التين) و(الدين)!!

والطائفة الثالثة يحركها: (الدين) وحده!!

الفرق بين الطوائف الثلاث:

هناك ثلاثة فروق أساسية يمكن أن نشهدها بين الطوائف الثلاث:

١- المنطلق:

منطلق الطائفة الأولى (مادي) بحث، ومنطلق الطائفة الثانية (مادي إلهي)، ومنطلق الطائفة الثالثة (إلهي) صافٍ.

٢- النتيجة:

الطائفة الأولى تبحث عن المادة والربح والمنفعة والمصلحة الشخصية، والطائفة الثانية تبحث عن المادة والله معاً، والطائفة الثالثة تبحث عن الله وحده، لا تغريها مصالح أخرى: لا دنيوية كالوجاهة، ولا أخروية كالجنّة.

٣- الثبات:

ولعلّ هذه النقطة أبرز ما يجليّ لنا الفروق بين الطوائف الثلاث:

فالطائفة الأولى إنّما تقوم بالعبادة لأجل المادة والمصلحة، ولو انعدم المردود المادي من العبادة لما عبدت الله؛ لأنّ انتفاء الغاية عندها يؤدي إلى انتفاء الوسيلة!!

يقول جبران خليل جبران:

فالقومُ لولا عقابُ البعثِ ما عبدوا ربّاً، ولولا الثوابُ المرتجى كفروا
كأنّما الدينُ ضربٌ من متاجرهم إنّ واضبوأربحوا، أو أهملوا خسروا^(١)
أما الطائفة الثانية، فلا تتحرّك لله وحده، بل تبحث في كلّ شيء عن (الغنم)،
وهي تشارط الله في كلّ عمل تقوم به أن يدوّن ثوابها عنده، وينيلها إيّاه، كما ينيل
صاحبُ البيت الأجير عنده، وصاحب الشركة عمّاله، وإذا انعدم المردود المادي
للعمل العبادي يبقى في نفسها حرج من أداء العبادة؛ لأنّ نصفاً من الغاية انتفى!!
أما الطائفة الثالثة، فهي تعبد الله لأنّها تريد وجهه فقط، ولا تنظر للثواب أصلاً،
ولو انعدم الثواب على العمل العبادي لبقيت تعبد الله كما كانت بذات الإخلاص
والاندفاع والحيوية والنشاط والحماس، ولبقيت ثابتة لا ينال من عزمها شيء؛ لأنّها
لم تضع الثواب المادي في خانة بواعث ودوافع التحريك العبادي أصلاً.

هذا من جهة الإنسان..

وأما من جهة الله:

- فالطائفتان الأولى والثانية سيلاقون الثواب الإلهي الجزل، ولكنّهم قد لا
ينالون المقامات المعنوية الشامخة من قرب ورضوان، سينالون الثواب المادي، وربّما
لا يحظون بالثواب المعنوي، أو لا يحظون بكثير منه!!

- أما الطائفة الثالثة فسوف يعطيهم الله منها من بلوغ وجه الله وقربه ورضاه،
وسيهبهم الثواب المادي الباذخ في الجنّة، أي أنّهم سيظفرون بالثوابين: المعنوي
والمادي معاً.

(١) جبران خليل جبران، موسوعة جبران خليل جبران (العربية)، شرح: الدكتور درويش الجويدي /
٣٣٢ (قصيدة المواكب).

(الإخلاص) في دوحة النصوص الشريفة:

وقد تضافرت كثيرًا نصوص الدين في الحث على التحلي بالإخلاص،
والترغيب فيه:

أولاً: القرآن الكريم:

١- ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ
دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(١).

٢- ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا
الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾^(٢).

٣- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ
الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

٤- ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ
أَحَدًا﴾^(٤).

٥- ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ
وَبَذَلِكُ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٥).

(١) سورة الزمر، الآية ١١-١٥.

(٢) سورة البينة، الآية ٥.

(٣) سورة النساء، الآية ١٤٦.

(٤) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٥) سورة الأنعام، الآية ١٦٢-١٦٣.

- ٦- ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(١).
- ٧- ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَّدَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾^(٢).
- ٨- ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٣).
- ٩- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾^(٤).
- ١٠- ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(٥).

ثانيًا: السنة المباركة:

- ١- قال الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام: «أفضل العبادة الإخلاص»^(٦).
- ٢- وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لمن أخلص لله عمله وعلمه، وحبّه وبغضه، وأخذه وتركه، وكلامه وصمته، وفعله وقوله»^(٧).

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٣.

(٢) سورة الصافات، الآية ٤٠-٤٩.

(٣) سورة لقمان، الآية ٢٢.

(٤) سورة الزمر، الآية ٢-٣.

(٥) سورة الإنسان، الآية ٨-٩.

(٦) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٥، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ح ١٩.

(٧) تحف العقول عن آل الرسول / ١٠٠، (خطبته عليه السلام المعروفة بـ (الوسيلة)).

٣- وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «ما أنعم الله - عز وجل - على عبد أجل من أن لا يكون في قلبه مع الله - عز وجل - غيره»^(١).

٤- وجاء في الحديث القدسي: «الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي»^(٢).

٥- وقال الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام: «لو سلك الناس وادياً شعباً لسلكوا وادي رجل عبد الله وحده خالصاً»^(٣).

٦- وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم»^(٤).

٧- وقال الإمام الصادق عليه السلام: «الإخلاص يجمع حواصل الأعمال، وهو معنى مفتاحه القبول، وتوقيعه الرضا، فمن تقبل الله ما نهى ورضى عنه فهو المخلص وإن قل عمله، ومن لا يتقبل الله منه فليس بمخلص وإن كثر عمله، اعتباراً بآدم عليه السلام وإبليس، وعلامة القبول: وجود الاستقامة ببذل كل المحاب، مع إصابة علم كل حركة وسكون.

فالمخلص ذائب روحه، باذل مهجته، في تقويم ما به العلم والأعمال، والعامل والمعمول بالعمل؛ لأنه إذا أدرك ذلك فقد أدرك الكل، وإذا فات ذلك فات الكل، وهو تصفية معاني التنزيه في التوحيد كما قال الأول: (هلك العاملون إلا العابدون، وهلك العابدون إلا العالمون، وهلك العالمون إلا الصادقون، وهلك الصادقون إلا المخلصون، وهلك المخلصون إلا المتقون، وهلك المتقون إلا الموقنون، وإن الموقنين لعلى خطر عظيم)، قال الله لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٥).

(١) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٩، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ذيل الحديث ٢٥.

(٢) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٩، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ذيل الحديث ٢٤.

(٣) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٥، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ذيل الحديث ١٩.

(٤) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٨، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ذيل الحديث ٢١.

(٥) سورة الحجر، الآية ٩٩.

الأدب الأول: الإخلاص لله والقربة، والخلو من شوائب الرّياء —

وأدنى حدّ الاخلاص: بذل العبد طاقته، ثم لا يجعل لعمله عند الله قدرًا، فيوجب به على ربّه مكافأة بعمله؛ لعلّمه أنّه لو طالبه بوفاء حقّ العبودية لعجز.

وأدنى مقام المخلص في الدنيا: السلامة من جميع الآثام، وفي الآخرة النجاة من النّار والفوز بالجنّة^(١).

٨- وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله - عزّ وجلّ - : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٢) قال: «ليس يعني أكثركم عملاً، ولكن أصوبكم عملاً، وإنّما الإصابة خشية الله تعالى، والنية الصادقة الحسنة، ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل.

والعمل الخالص: الذي لا تريد أن يحمّدك عليه أحد إلا الله - عزّ وجلّ -، والنية أفضل من العمل، ألا وإنّ النية هي العمل، ثم تلا قوله - عزّ وجلّ - : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾^(٣)، يعني على نيّته^(٤).

٩- وعن سيّدة نساء العالمين الصديقة الطاهرة المعصومة فاطمة الزهراء - صلوات الله عليها - قالت: «من أصدّد إلى الله خالص عبادته أهبط الله - عزّ وجلّ - إليه أفضل مصلحته»^(٥).

١٠- وعن المفضّل بن صالح قال: «قال لي مولاي الصادق عليه السلام: يا مفضّل، إنّ لله تعالى عبادةً عاملاًه بخالص من سرّه، فقابلهم بخالص من برّه، فهم الذين تمرّ صحفهم يوم القيامة فارغاً، فإذا وقفوا بين يديه ملأها لهم من سرّ ما أسروا إليه، فقلت: وكيف ذاك يا مولاي؟ فقال: أجلّهم أن تطلع الحفظة على ما بينه وبينهم»^(٦).

(١) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٥، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ح ١٨.

(٢) سورة هود، الآية ٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٤.

(٤) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٥٠، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ذيل الحديث ٢٦.

(٥) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٥٠، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القربة لله)، ذيل الحديث ٢٥.

(٦) تحف العقول عن آل الرسول / ٢٢٤، (في قصارى كلماته عليه السلام)، وبحار الأنوار ٦٧ / ٢٥٢.

١١- وعن إسماعيل بن يسار قال: «سمعتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام يقول: إنَّ ربَّكم لرحيم، يشكرُ القليل، إنَّ العبدَ ليصلي الركعتين يريد بها وجه الله؛ فيدخله الله به الجنة»^(١).

١٢- وعن علي بن سالم قال: «سمعتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام يقول: قال الله - عزَّ وجلَّ -: أنا خير شريك، مَنْ أشرك معي غيري في عمله لم أقبله، إلا ما كان خالصاً»^(٢).

١٣- وقال الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام: «لو جُعِلَت الدنيا كلُّها لقمة واحدة، ولقمتُها مَنْ يعبد الله خالصاً؛ لرأيتُ أنِّي مقصَّر في حقِّه، ولو منعتُ الكافر منها حتى يموت جوعاً وعطشاً، ثمَّ أذقته شربة من الماء؛ لرأيتُ أنِّي قد أسرفتُ»^(٣).

١٤- وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنَّ المؤمنَ ليخشع له كلُّ شيء، ويهابه كلُّ شيء، ثمَّ قال: إذا كان مخلصاً لله أخاف الله منه كلُّ شيء حتى هوامَّ الأرض وسباعها وطير السماء»^(٤).

١٥- وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «في الإخلاص تنافسُ أولي النهى والألباب»^(٥).

كيف نحصل على الإخلاص؟

من الأمور التي تشيد بناء الإخلاص في القلب:

١- العلم:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ثمرَةُ العلم إخلاص العمل»^(٦).

الباب ٥٥ (باب العبادة، والاختفاء فيها، وذمُّ الشهرة بها)، ح ٧.

(١) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٤، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القُرْبَة لله)، ح ١٦.

(٢) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٣، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القُرْبَة لله)، ح ١٥.

(٣) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٥، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القُرْبَة لله)، ذيل الحديث ١٩.

(٤) بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٨، الباب ٥٤ (الإخلاص ومعنى القُرْبَة لله)، ح ٢١.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم ٢ / ٥٤، الحكمة ٥٢.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٣٢٢، الحكمة ٥٥.

٢. اليقين:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «سبب الإخلاص اليقين»^(١)، و«الإخلاص ثمرة اليقين»^(٢)، و«إخلاص العمل من قوة اليقين وصلاح النية»^(٣).

٣. قوة الإيمان والدين:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «على قدر قوة الدين يكون خلوص النية»^(٤).

٤. مجانية المعاصي والأهواء:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «تمام الإخلاص تجنّب المعاصي»^(٥).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كيف يستطيع الإخلاص مَنْ يغلبه الهوى!!»^(٦)، «كيف يستطيع الإخلاص مَنْ بقلبه الهوى!!»^(٧).

٥. الزهد في الدنيا وما في أيدي الناس:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الزهد سجية المخلصين»^(٨)، «أول الإخلاص: اليأس ممّا في أيدي الناس»^(٩)، «من رغب فيما عند الله أخلص عمله»^(١٠)، «طوبى لمن

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٣٩٠، الحكمة ٢٩.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٤٣، الحكمة ٩٠٣.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٦٤، الحكمة ١٣٤٨.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ٢ / ٢٨، الحكمة ٢١.

(٥) بحار الأنوار ٧٥ / ٩١، باب (أشعاره عليه السلام)، ح ٩٥.

(٦) الشيخ حسين النوري المازندراني الطبرسي، مستدرک الوسائل ١٢ / ١١٥، الباب ٨ (باب تحريم اتّباع الهوى الذي يخالف الشرع)، ذيل الحديث ١٣.

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم ٢ / ٩٢، الحكمة ٤.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٣٥، الحكمة ٧١٣.

(٩) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٢٠٥، الحكمة ٤٦٥.

(١٠) غرر الحكم ودرر الكلم ٢ / ١٦٤، الحكمة ٣٠٠.

أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينسَ ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أُعطي غيره»^(١).

ويقول المولى الشيخ محمد مهدي النراقي عن (طريق تحصيل الإخلاص): «يتوقف تحصيله على كسر حظوظ النفس، وقطع الطمع عن الدنيا، والتجرد في الآخرة»^(٢).

٦. العبادة الصادقة:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الإخلاص ثمرة العبادة»^(٣).

آفات الإخلاص:

١. الرّياء الظاهر:

وهو أجلى آفات الإخلاص، وأظهرها، وفيه يعمل الإنسان العمل خالصاً للرّياء، فيصليّ؛ ليراه الناس، ويقولون: (فلان مصلّ)، ويحسنّ قراءته؛ ليقول الناس: (فلان قارئ، وقراءته رائعة ومجودة)!!

٢. تحسين العبادة في الملاء:

وهذا القسم يجمّل عبادته في الملاء، وأمام الناس؛ فيظهرها بخشوع وخضوع، لكنّ صلاته في الخلوة ليست كذلك.

٣. تحسين العبادة في الخلوة؛ ليحسنّها في الملاء:

وهذا قسم من الرّياء الغامض الخفيّ جداً، فهو يحسنّ صلاته في الخلوة، لكن

(١) الكافي ٢ / ١٦، (باب الإخلاص)، ح ٣.

(٢) جامع السعادات ٢ / ٤٠٣ (الإخلاص وحقيقته).

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ١ / ٢٦، الحكمة ٤٤٤.

الأدب الأول: الإخلاص لله والقربة، والخلو من شوائب الرّياء —

ليست رغبته الأساسية هي هذا، وإنّما رغبته أن يحسّن عبادته في الخلوة؛ ليحسّنها في الملاء، فتحسين صلاته في الخلوة تمهيد وتدريب على تحسينها في الملاء، وفي كلا مستويي التحسين (في الخلوة، وفي الملاء)، عينه لا تتوجّه بالتحسين إلى الله، وإنّما هي منصّبة على الناس، ولأجل الناس.

٤. انبثاق خاطر التخشع العبادي في العلن:

وأخفى آفات الرّياء أن يقول الشيطان للإنسان - وهو في العبادة في الملاء بعد يأسره من المكائد السابقة -: أنت واقف بين يدي الله سبحانه، فتفكّر في جلاله وعظمته، واستحيّ من أن ينظر إلى قلبك وهو غافل.

ولو كانت هذه الخطرة ناشئة عن الإخلاص لما انفكت عنه في الخلوة، ولم يخصّ خطورها بحالة حضور الناس (الملاء).

وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديبب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء!!^(١).

والذي يجعلنا نعدّ هذا الشكل أخفى آفات الرّياء، أو من أخفاها: أنّه خاطر ربّاني الظاهر، شيطاني الباطن، ظاهره طلب معانقة الخشوع العبادي، والتفكير في جلال الله وعظمته، ولكنّ حقيقة ذلك ليست إلا إبداء آثار ذلك الخشوع أمام الناس بتحريك التفكير الداخلي في جلال الله، وإلا.. فلو لم يكن أمام الناس؛ لانعدم هذا الخاطر والدافع.

وبعبارة أخرى: فهذا الخاطر لا يقترب إلا مع العبادة في الملاء؛ ويسعى لإشعال نار الخشوع والتفكير، لا لقناعة بها، ولا لملازمتها لعبادته دائماً، وإنّما لكي ترشّح آثارها للعلن!!

الشيطان ليس غيباً حتى تكون تجارته واضحة الكساد، بل.. هو ذكي جداً، وبارع

(١) راجع: جامع السعادات ٢ / ٤٠٦-٤٠٨.

في عملية التسويق التجاري؛ ولذلك نجد بضاعته رائجة، وبعضها يستطيع تسويقه - ولو في أحيان معينة، أو بعد سلسلة طويلة، أو بعد مئات المحاولات - حتى على أشد الناس إيماناً، والتزاماً، وقد يفعل الواحد من هؤلاء عملاً يظنه ربّانياً، وهو شيطاني؛ لذلك ينبغي أن ننظر بعمق إلى نيّاتنا وبواعث أعمالنا ودوافعها، وأن يكون الإخلاص سياج نيّاتنا الواقية لها من العطب والضياع.



الأدب الثاني

حضور القلب

حضور القلب

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، وَلَمْ يُحَدِّثْ فِيهِمَا نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا؛ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ»^(١).

لعلّ ثاني أهمّ قضية ترتبط بأداب الصلاة هي قضية (حضور القلب)، فهي من الأهمية بمكان قد لا يدانيه شيء آخر بعد (الإخلاص)، ولا ترتقي لشأوه السامي عبادة أخرى، فمراعاة المصلّي لحضور قلبه أثناء صلاته هو ثاني أهمّ أمر ينبغي عليه أن يراعيه، وإن كان في الوقت نفسه من أدقّ الأمور وأصعبها.

ولعلّ الحديث الشريف المتقدم يشير إلى هذا المعنى، أي الدقة والصعوبة، فهو يقول: «مَنْ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ» فقط، وهما من الناحية العددية الكمية شيء سهل يسير جداً يتأتى للجميع فعله، وليست فيه صعوبة بتاتاً، لكنّ الشرط الكيفي النوعي الذي ذكره الحديث هو الذي يوضح لنا مكن الدقة والصعوبة، فهو لا يريد صلاة ركعتين كيفما اتفق، وإنما يريد ركعتين خالصتين في حضور القلب «لم يحدث فيهما نفسه بشيء من أمور الدنيا».

وإمعاناً في توضيح مدى هذه الدقة والصعوبة ذكر الحديث أنّ مَنْ فعل هاتين الركعتين بالشرط المذكور سيهبه الله ثواباً جزّلاً وعطاء كبيراً: «غفر الله له ذنوبه».

(١) بحار الأنوار ٨١ / ٢٤٩، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٤١.

وقبل أن نخوض في الحديث عن تفاصيل موضوع حضور القلب دعونا نعرّج قليلاً للحديث عن بعض المفردات المرتبطة بالموضوع، وهي:

أولاً: المقصود بـ (القلب).

ثانياً: المقصود بـ (حضور القلب).

أولاً: ما المقصود بـ(القلب)؟

حين نتحدث عن موضوع (حضور القلب) فإنّ أول أمر يواجهنا هو السؤال عن هذا القلب الذي يُراد من المصلّي استحضاره في الصلاة.

(القلب) الذي نقصده في حديثنا عن (حضور القلب) مرادف للروح، ومرادف للنفس أيضًا؛ إذ ليس المقصود بـ(القلب) - هنا - هذا الجزء المادي الصنوبري الذي يضخّ الدم في البدن، بل.. المقصود به الروح، المقصود به النفس.

هذا هو القلب الذي ينبغي حضوره في الصلاة، وأن نبعده عن وساوس الشيطان الرجيم.

كيف نسبر بحرًا لا نملك أدوات التجديف فيه؟!

إنّ كلمات كـ (القلب) و(النفس) و(الروح) ألفاظ بسيطة نطقًا، لكنّها تحمل معاني دقيقة، وقد تكون غامضة لا يُعلم بالتحديد ما الذي يُراد منها، بحيث تغدو من مشكلات المعاني، ومن ثمّ يصعب تعريفها وتحديدها، وإن كان بالإمكان الإشارة إلى بعض خواصها.

وعندما نراجع كلمات علماء الأخلاق والمفسّرين نجدها متباينة متناقضة في الحديث عن معنى هذه الألفاظ، فهي لا تكاد تلتقي على معنى واحد، وكثير من العلماء حاروا في تحديد معاني هذه الكلمات!!

ولعلّ سبب ذلك التباين والاختلاف: أنّه خوض في أمور متكلّفة عميقة بعيدة الغور، لا نملك سبل السباحة فيها والتجديف في مياهها الموّارة؛ فالعقل البشري بما أوتي من أدوات معرفية أولية محدودة لا يستطيع أن يصل إلى كنهه وكيفية المغيّبات التي لا تقع تحت دائرة الحسّ والشهود، ولا يمكنه سوى الإشارة إلى بعض آثارها دون الغور في كنهها.

ومن الآيات التي تؤكد هذا المعنى - كما يشير بعض المفسّرين - قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

فالأية تقول: إنّ ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، فهي أمر خاصّ يستتر بكثير من أغطية الغيب وأحجبة المجهول، وإلى جانب ذلك فالآية تقرّر أنّ علمنا البشري محدود ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فكيف نستطيع بعلمنا المحدود أن نسبر ظلمة ذلك العالم الصعب وسعته؟!

وهذا يعني أنّنا أمام عقبتين: عقبة في الأمر المبحوث (الروح)، فهو صعب شاقّ، وعقبة في الباحث - وهو الإنسان البشر -، فعلمه محدود، ومداركه يسيرة، وأدواته ووسائله في البحث والتنقيب متناهية!!

متى خلقت الأرواح؟!

١. عالم الأرواح:

الذي يظهر من الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الروح أمر عظيم، وأنّ الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام^(٢)، و«خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

(٢) الكافي ١ / ٥٠٨، الباب ١٦٦ (باب في معرفتهم أوليائهم، والتفويض إليهم)، ح ١، وبحار الأنوار ٥٨ / ١٣١، الباب ٤٣ (باب آخر في خلق الأرواح قبل الأجساد)، ح ١، (والحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام)، كما ورد في: بحار الأنوار ٦ / ٢٥٢، الباب ٨ (باب أحوال البرزخ،

عام^(١)، بل ورد في بعض الروايات أنّ الله تعالى خلق الأرواح قبل خلق آدم عليه السلام بألفي عام^(٢).

فالله - أولاً خلق الأرواح، وبثّها في الهواء^(٣).

والقبر وعذابه وسؤاله)، ذيل الحديث ٨٧ مروياً عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام.

(١) بحار الأنوار ٥ / ٢٦٦، الباب ١٠ (باب الطينة والميثاق)، ذيل الرواية ٦٧.
(٢) روى عمرو بن عنبسة حديثاً مرفوعاً، عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنّ الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفي عام، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» [شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد السفاريني النابلسي الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضية في عقد الفرقة المرضية ٢ / ٤٢، وابن قيم الجوزية، الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة ١ / ١٦٠].

وعن أنس بن مالك، قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: كنْتُ أنا وعلي عن يمين العرش نسبحُ الله قبل أن يخلق آدم بألفي عام، فلما خلق آدم جعلنا في صلبه، ثم نقلنا من صلب إلى صلب في أصلاب الطاهرين وأرحام المطهرات، حتى انتهينا إلى صلب عبد المطلب، فقسّمنا قسمين: فجعل في عبد الله نصفاً، وفي أبي طالب نصفاً، وجعل النبوة والرسالة فيّ، وجعل الوصية والقضية في عليّ، ثم اختار لنا اسمين اشتقهما من أسمائه: فالله المحمود وأنا محمد، والله العلي وهذا علي، فأنا للنبوة والرسالة، وعلي للوصية والقضية» [الشيخ محمد حسن الطوسي، الأمالي ١ / ٢٠٤].

وقد ورد على الشيخ المفيد في (المسائل السروية) سؤال: (في الأشباح والذّرّ والأرواح ما يقوله - أدام الله تأييده - في معنى الأخبار المروية عن الأئمة الهادية عليهم السلام في الأشباح، وخلق الله تعالى الأرواح قبل خلقه آدم عليه السلام بألفي عام، وإخراج الذرّة من صلبه على صورة الذرّ) [بحار الأنوار ٥ / ٢٦١، الباب ١٠ (باب الطينة والميثاق)، ذيل الرواية ٦٧].

(٣) عن ميمون بن عبد الله، عن الإمام أبي عبد الله الصادق، عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: خلق الله الأرواح قبل خلق الأجساد بألفي عام، ثم أسكنها الهواء، فما تعارف منها ائتلف هاهنا، وما تناكر ثم اختلف هاهنا» [بحار الأنوار ٥٨ / ١٣٢، الباب ٤٣ (باب آخر في خلق الأرواح قبل الأجساد)، ح ٤].

وعن أبي محمد المشهدي من آل رجاء البجلي، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قال رجل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: يا أمير المؤمنين، أنا - والله - أحبّك، فقال له: كذبت. قال: بلى - والله - إني أحبّك وأتولاك، فقال له أمير المؤمنين: كذبت. قال: سبحان الله يا أمير المؤمنين، أحلف بالله إني أحبّك، فتقول: كذبت!! قال: وما علمت أنّ الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام، فأمسكها الهواء، ثم عرضها علينا أهل البيت، فولله

٢. عالم الذرّ:

وبعد أن كانت الأرواح تعيش في عالم المجرّدات الفسيح أسكن الله - جلّ وعلا - هذه الأرواح - في مرحلة من مراحل الخلق - في قوالب ذريّة، تلك المرحلة هي ما نسمّيه (عالم الذرّ) ^(١)، وعرفها نفسه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ^(٢).

ولولا ذلكم الشهود وتلكم المعرفة التي منّ الله بها على الإنسان في ذلك العالم لما استطاع أن يتعرّف على خالقه في هذه الحياة الدنيا وفي هذه النشأة الحاضرة، هذه هي المعرفة التي فطر الإنسان عليها: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ^(٣)؛ إذ إنّ البشر - بحسب الروايات - نسوا المعايينة، وثبتت المعرفة ^(٤).

ما منها روح إلا وقد عرفنا بدنه، فوالله ما رأيته فيها، فأين كنت؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: كان في النار [الكافي ١ / ٥٠٨، الباب ١٦٦ (باب في معرفتهم أولياءهم، والتفويض إليهم)، ح ١، والشيخ محمد بن الحسن الصفار، بصائر الدرجات ١ / ١١١، وبحار الأنوار ٥٨ / ١٣١، الباب ٤٣ (باب آخر في خلق الأرواح قبل الأجساد)، ح ١].

(١) قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في حديثه مع الزنديق: «والروح جسم رقيق قد ألبس قالباً كثيفاً» [بحار الأنوار ٦ / ٢١٦، الباب ٨ (باب أحوال البرزخ، والقبر وعذابه وسؤاله)، ح ٨].

وعن زرارة قال: «سألت أبا جعفر [الباقر] عليه السلام عن قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ إلى ﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ قال: أخرج الله من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة، فخرجوا كالذرّ، فعرفهم أنفسهم، وأراهم أنفسهم، ولولا ذلك ما عرف أحد ربّه، وذلك قوله: ﴿وَلَيْتُنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [سورة لقمان، الآية ٢٥، وسورة الزمر، الآية ٣٨] [بحار الأنوار ٥ / ٢٥٨، الباب ١٠ (باب الطينة والميثاق)، ح ٦١].

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

(٣) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٤) عن ابن مسكان، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾، قلت: معايينة كان هذا؟ قال: نعم، فثبتت المعرفة، ونسوا الموقف، وسذكرونه، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه، فمنهم من أقرّ بلسانه في الذرّ ولم يؤمن بقلبه، فقال الله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا

ففي عالم الذرّ هذا عرّف الله نفسه لتلك الأرواح؛ حتى يحتجّ على البشر، ولا يأتي أحد يوم القيامة ويقول: أنا كنت غافلاً عن هذا: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾!!

٣- عالم التراب:

وبعد أن خلق الله - عزّ وجلّ - أرواح الناس مجرّدة في مرحلة، وأودعها قوالب ذرية في مرحلة ثانية، أودعها التراب والطين، والجسد المادي العنصري في مرحلة ثالثة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾^(١).

الروح في عوالمها الثلاثة:

وخلاصة ما مضى من بحث: أن أرواح البشر مرّت بثلاث مراحل:

كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴿[سورة يونس، الآية ٧٤]﴾ [بحار الأنوار ٥ / ٢٣٧، الباب ١٠ (باب الطينة والميثاق)، ح ١٤].
(١) سورة الروم، الآية ٢٠.

ولا شك أن للروح بعد هذه العوالم الثلاثة عوالم أخرى تمرّ بها، وقد عرض أستاذنا الشيخ الشبيب - رضوان الله تعالى عليه - العوالم كاملة ضمن شرحه لقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة، الآية ٢] - في بحث سيأتي ضمن (الأدب التاسع: أسرار سورة الفاتحة) -، في سياق توضيح المقصود بـ ﴿الْعَالَمِينَ﴾، فكانت تسعة عوالم متتابعة هي:

- ١- عالم الأرواح.
- ٢- عالم الذرّ.
- ٣- عالم التراب.
- ٤- عالم الأصلاب.
- ٥- عالم الأرحام.
- ٦- عالم الدنيا، وهو العالم الذي نعيشه الآن.
- ٧- عالم البرزخ (القبر).
- ٨- عالم البعث والنشر والحشر.
- ٩- عالم البقاء والخلود والدوام (عالم الأبدية / عالم الجزاء).

١- في المرحلة الأولى، وفي البداية، كانت أرواحًا مجردة عن المادة والتراب والطين والجسم والجسد، تسبح في سعة عالم المجردات، وهذه المرحلة الأولى هي (عالم الأرواح).

٢- وفي المرحلة الثانية خلق الله أبانا آدم ﷺ، وأودع أرواح البشر جميعًا في ظهره، فكانت الأرواح تعيش وجودًا مجموعيًا في ظهر آدم، ثم استخرجها الله من ظهر آدم؛ ليعرفها نفسه، وهذه المرحلة الثانية هي (عالم الذر).

٣- وفي المرحلة الثالثة خلق الله كلَّ شخص على انفراد من تراب؛ وذلك عن طريق التناسل والإنجاب، فصار لكل شخص - على استقلال - جسم وجسد ماديّ ترابيّ طينيّ عنصريّ مستقلّ، وأودع الله فيه روحًا خاصّة به، فصارت كل روح منفصلة في بدن شخص مستقلّ له هويته الخاصّة، وهكذا تمّ التلاحم بين الروح والجسد، واندمجت كل روح بجسد خاصّ، أو سُجنت في قفصه الخاصّ!!، وهذه المرحلة الثالثة هي (عالم التراب).

الأرواح موجودة:

وهكذا.. فالله خلق الأرواح، وبثّها في الهواء، ثمّ ألبسها لباسًا ذريًّا، وبعد ذلك أسكنها هذا البدن الترابي.

وإذا كان الأمر كذلك فإنّ أرواح المخلوقين جميعًا موجودة في هذا العالم، ماثلة في هذا الكون، مَنْ خُلِقَ في الحياة الدنيا، وَمَنْ مات، وَمَنْ سيوجد، فهل يستطيع أحدنا أن يتصور هذا الأمر المذهل أو يتقبّل هذه الصورة المحيرة لولا طلاقة القدرة الإلهية ولسان نصوص الكتاب المجيد والمعصومين ﷺ؟!!

تساءل مع نفسك: كم عدد المرّات التي صادفتَ فيها منظرًا تراه عينك لأول وهلة في الدنيا، وإذا بك ترى أنّه منظر مألوف متطابق مع ذاكرتك، وأنّ ذاكرتك تختزنه في أحشائها منذ زمن بعيد، وتعضّ عليه بنواجذها، ولا زالت تمسك بخيط تفاصيله

بأيديها؟!، وتسأل نفسك: أين ومتى مررت على هذا المكان؟!

ومرة أخرى: قد تشاهد شخصاً لأول مرة، فيقع في قلبك أنك قد قابلت هذا الشخص من قبل، وتحاول - عاجزاً - أن تتذكر أين ومتى حصل ذلك، فتعييك السبل، وتضل بك الطرق، ويرهقك التطواف، ولا تجد جواباً!!

أوليس من المعقول أنك صادفت ذلك المنظر في عالم من عوالم تنقلك وسباحة الروح قبل ولوجها في هذا البدن؟!، أو أنك التقيت هذا الشخص في عالم الذرّ، فثبتت صورته في ذاكرتك؟!، هل تجد لذلك تفسيراً آخر؟!

أثر انتقال الروح إلى البدن..

إنّ انتقال الروح إلى هذا البدن الماديّ العنصريّ الترابيّ الطينيّ أذهب كثيراً من ذاكرة الروح، وأرسله إلى بحر النسيان؛ ولذا يتذكر الإنسان أشياء محدودة وخيالات ضئيلة عن ذلك العالم الكبير الواسع؛ ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»^(١).

وفي رواية أخرى قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله تعالى آخى بين الأرواح في الأظلة قبل أن يخلق الأبدان بألفي عام»^(٢).

أين حصل هذا التعارف بينها؟!، وأين تمّ هذا التناكر؟!، وأين وقعت هذه المؤاخاة؟!

لقد تمّ ذلك في عالم قبل هذا العالم الماديّ العنصريّ الترابيّ الطينيّ، هناك.. في عالم الذرّ.

(١) الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القميّ (الصدوق)، مَنْ لا يحضره الفقيه ٤ / ٢٧٩، (باب: وَمِنْ أَلْفَاظِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ المَوْجُزَةِ الَّتِي لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهَا)، ح ٥٨١٨.

(٢) بحار الأنوار ٦ / ٢١٦، الباب ٨ (باب أحوال البرزخ، والقبر وعذابه وسؤاله)، ذيل الحديث ٨٧.

ومن الطريف أن ننقل هذه القصة من كتاب (عالم عجائب الأرواح)، عن شخص عمره أربعون سنة من مدينة (لاهيجان) التي يسمّيها الإيرانيون (لاهج) في محافظة (جیلان) الإيرانية، ينقل قصة حصلت له وقائعها قبل عشرين عامًا من سردها، يقول فيها:

«لي بيت يقع في ضاحية من ضواحي مدينة (لاهج) عبر طريق (سياهكل)، يشرف على مزرعة شاي. جلستُ يومًا قرب المزرعة، وكان الجو صيفًا، وأنا أشخص ببصري نحو باب المزرعة، فأبصرتُ شابًا وسيماً يقف وراء الباب وهو ينظر إليّ. فقمّتُ من مكاني واتّجهتُ صوبه؛ لأسأله عمّ يريد؟، وعن سبب دخوله المزرعة؟. فأذهلني مرآه؛ إذ أخذ يتلاشى شيئًا فشيئًا كلما أقترب منه حتّى أصبح كالذرة، ثم غاب تمامًا عندما أصبحت المسافة بيني وبينه عشرة أمتار!!، فارتبّتُ في هذا الأمر، وتخالجني فيه شك، وحدثتُ نفسي: لعلّ هذا الشاب قد تمثّل لي، وعدتُ من حيث أتيتُ.

وحينما صوّبتُ نظري نحو الباب ثانية رأيته - كما في المرّة الأولى - يقف وراء الباب وهو ينظر إليّ، وكأنّه يريد أن يتفوّه بشيء إلا أنّ الخجل يتملّكه فيحجم عن الكلام. فنهضتُ من مكاني، وصرختُ بأعلى صوتي - وأنا خائف -: من أنت؟، وماذا تريد؟، والى أين ذهبتَ قبل قليل؟، وكيف غبتَ؟، فأجابني بصوت رخيم: أريد أن أؤنسك وأسليك؛ لأنك أغثتَ مظلومًا، وأنقذته من ظالم، فعليّ أن أوقفك على بعض الحقائق، وهي بمثابة مكافأة لك.

فقلتُ له: ما اسمك؟، ومن أين أتيت؟، أجبني قائلًا: لا زلت في هيئة لا تخطر على بالك؛ فلذا لا يمكنني أن أسمّي نفسي باسم، ولعلّي في المستقبل القريب أصير ذا هيئة، ويُطلق عليّ اسم، فيمكنني حينئذ أن أعرفك بنفسي، قلتُ له: اقترُب مِنّي؛ لكي نقعد معًا، ونتحدّث عن كُتب، وهذا لا يمكن ونحن متباعدان.

قال: لا أستطيع الاقتراب منك أكثر من هذا، ولكنني أحاول أن أوصل

صوتي إليك كما تسمع صوت من يقعد جنبك، وسأسمع صوتك حتّى ولو كان واطئاً. ولما تجاذبنا أطراف الحديث أحسست بصوته قريباً منّي، على الرغم من أنّ المسافة بيني وبينه تُقدّر بثلاثين متراً. وكان يظهر لي في نفس المكان كلّ يوم قبل غروب الشمس بساعة تماماً، ويغيب عنيّ عند غروب الشمس مباشرة، واستمرّ الحال على هذا المنوال مدّة عشرة أيام متوالية. وكنت أذهب بعض الأيام إلى ذلك المكان قبل الموعد بدقائق فلا أراه فيه، وكان يظهر حين وصول أشعة الشمس إلى المكان الذي يقف فيه، ويتلاشى شيئاً فشيئاً بغياب الشمس، ثمّ يضمحلّ.

ونهضتُ من مكاني مرّة حينما ظهر، واتّجهتُ نحوه بدافع حبّ الاطلاع، واقتربتُ منه على بُعد عشرة أمتار، فما كان منه إلا أن تضاءل، ثمّ غاب، وعندما ظهر ثانية قال: دعني أعلمك ما أعلم. وممّا يثير الانتباه هو أنّي ما كنت أشعر بخوف أو وجل طيلة هذه المدّة أبداً، على الرغم من كوني وحيداً في المزرعة؛ إذ أصبح أمره مألوفاً بالنسبة إليّ، فلم يخطر على بالي فيمن هو؟، وما عمله؟، ولم أعر له اهتماماً؛ بحيث أنّي ما أخبرتُ أحداً بأمره، وما سألته في اليوم الأخير لرحيله عن محلّه، وما حزنْتُ حين رحيله عنيّ.

ومن الجدير بالذكر أنّي ما كنتُ ألمّ بأيّ شيء من علوم الإسلام وأحكامه، على الرغم من كوني شابّاً، وقد علّمني خلال عشرة أيام علوماً وأحكاماً ضروريّة. ولم أره بعد تلك المدّة، إلا أنّه طرق سمعي ليلة صوت على غرار صوته أيقظني من نومي، فأسرعتُ إلى المكان الذي كان يقف عنده، وكان الظلام مدلهماً، فلم أر سوى شيء نظير شرارة النّار، لكنّها بيضاء في نفس المكان الذي كان يقف فيه، وحينما اقتربت منه غاب.

وفي العام الماضي - أي بعد تصرّم تسعة عشر عاماً على تلك الحادثة - كنتُ قاعداً في الموضع الذي ألفتّه، وقد طرأ على المزرعة بعض التغيير؛ حيث غرستُ

أشجاراً محلّ الشاي، وكان باب المزرعة مفتوحاً. وفي هذه اللحظة رأيتُ ذلك الشابّ بنفس هيئته المعهودة ينقر الباب بأصابعه؛ طالباً الإذن مني لدخول المزرعة، فهتفتُ به: تفضّل بالدخول، ولم أقترّب منه - كما هي عادتي معه سابقاً -، ولكن هو اقترب مني هذه المرّة، تقدّم نحوي، وهديته إلى غرفتي، فرحبتُ به وأكرمتُه. ثمّ التفتُ إليه قائلاً: إنّ شكلك لم يتغيّر قط منذ تسعة عشر عاماً، إلّا أنّ سلوكك فقط قد تغيّر، فقال: لا أفقه ما تقول!!، إنّ عمري لا يتجاوز ثمانية عشر عاماً، كما أنّي لم أزر مدينة (لا هج) من قبل، وجئتُ إلى هنا برفقة أبي قبل بضعة أيام؛ كي نخلد إلى الدعة، ونتمتّع بنسيم البحر، فليس الأمر كما تقول!!

وحاولتُ عبثاً إقناع نفسي بأنّ ما حدث كان مني زلّة، ولكنّ جهودي باءت بالفشل؛ إذ إنّ هيئته هي بعينها، ونبرة صوته هي هي، فرأيتُ أنّ أختبره لأطمئن نفسي.

فبادرته بالسؤال: لماذا أتيت إلى مزرعتي إذا؟، فردّ قائلاً: إنّ كنتُ قد ضايقتك فسأعود من حيث أتيتُ، قلت: ما كنتُ أرمي إلى ذلك، إلّا أنّي أرجو منك أن تجيب على أسئلتي بدون إحراج؛ لأنّ هذا الأمر يهمني كثيراً، فقال: لقد قادني قدماي إلى هذا المكان، فتعلّق قلبي به تعلّقاً شديداً، ولا أعلم ما الباعث على ذلك، فاستأذنتك لدخول المزرعة.

ثمّ أردف حديثه بالقول: وممّا يثير دهشتي هو أنّي أتصور شكل هذه المزرعة كان مغايراً لما هو عليه الآن، ولا أجد تحليلاً لتصوري هذا. فقلتُ: حسناً، كيف كان شكلها مثلاً؟، قال: كانت المزرعة تحفل بجنبه الشاي، أما الآن فقد حلّت الأشجار محلّها، أليس من الأفضل أن تستأصل الأشجار، وتغرس الشاي محلّها؟، فقلتُ: كان الأمر كما تقول قبل عشرين سنة، إلّا أنّ الأشجار كانت غراساً فنمت، فالشجرة سادت، والجنبه بادت، وسوف أجتثّ الأشجار، وأغرس الشاي ثانية عملاً باقتراحك، وسوف تعود المزرعة إلى سابق عهدها إن شاء الله، بشرط أن تضيفني كلّما زرتَ (لا هج). قال: تسرّني رؤيتك والإقامة في

منزلك، ولكن يجب أن أستأذن أبي في هذا الأمر.

ثم قلتُ له: ما اسمك؟، قال: كما تراني الآن بهذه الهيئة أمامك، إنَّ أبي أطلق عليَّ اسم (مهدي). فتداركتُ جوابه بسؤالِي: ماذا تعني بقولك: (كما تراني الآن بهذه الهيئة أمامك؟)، قال: لا أعلم، إنَّ ذلك جرى على لساني.

وهنا تبادر إلى ذهني أنني سألتُه قبل عشرين سنة عن اسمه، فقال حينها: لا زلتُ في هيئة لا تخطر على بالك؛ فلذا لا يمكنني أن أسمي نفسي باسم. وتذكرتُ أنه بين لي أحكامًا ومسائل دينية، وكان العلماء حولها مختلفين. فسألتُه عن بعضها، فأبدى جهله بها بحركة من كتفيه، وعقَّب بالقول: أنا لا أدرك ما تقول؛ لأنِّي ما درستُ العلوم الدينية. فقلتُ له: صارحني بكلِّ ما يخطر على بالك؛ لأنَّ ذلك يعينني عناية فائقة، قال: إنَّ كان الموضوع بهذه الخطورة فالأولى برأيي أن يكون الاستجواب مطابقًا لما حدث لي سابقًا بدون أدنى تفاوت واختلاف.

فسألتُه: أيَّ المواقع من المزرعة يثير إعجابك، وتركن إليه نفسك؟، قال: إنِّي آنس بتلك الزاوية - وأشار بيده إلى باب المزرعة -، ولا أدري ما السبب؟؛ إذ حين قدومي إلى هنا دفعني دافع للوقوف فيه!!

وهنا انجلى الرِّيب، فهذا الشابُّ هو نفسه الذي كان يتردَّد إليَّ قبل عشرين سنة؛ فلقد دلَّ على الموضوع الذي اعتاد الوقوف فيه خلال الأيام العشرة. فقلتُ له: أيمكنني الالتقاء بأبيك؟، قال: نعم.

ذهبنا معًا إلى بيت مضيَّفه - وهو أحد أصدقائي -، سألتُ أباه: ما عمر ولدك؟، قال: سبع عشرة سنة، فقلتُ: أرجو منك أن تذكر لي نبذة مختصرة عن حياته، قال: ولكن لماذا هذا الطلب؟، فقلتُ: لي قصد وراء ذلك، وربما سأشرحه لك. فاستعرض لي لمحة من حياته منذ ولادته حتَّى لحظة لقائي معه، ولم تكن في حياته مواقف تثير الاهتمام. وإنِّي عزفتُ عن إخباره بحقيقة الأمر؛ لأنِّي لا أستطيع تفهيمه بذلك، وكلَّ ما ذكرته له هو رؤيتي لابنه في الحلم قبل عشرين عامًا بصورة مختصرة، وأنَّه لقنني

بعض العلوم، ولا زلتُ أحفظها، فهو بمثابة الأستاذ بالنسبة إليّ، وأحبّ أن تبقى هذه الصلة بيننا دوماً»^(١).

والشاهد في هذه القصة: أنّ الروح والقلب والنفس أمور يصعب الحديث عنها، ويعسر استجلاء حقائقها: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٢)، أي أنّها أمر خفيّ مجهول، وأنّ هناك تعارفات تمت قبل هذا العالم، وبقيت بعض ذكرياتها مركوزة في الذاكرة، بينما علت على أكثرها أتربة النسيان.

هل نستطيع أن نحيط بكنه (الروح)؟!

ونحن لو أمضينا من الوقت من بداية الليل إلى مطلع الفجر في محاولة جادة مضنية بتبغّي توضيح معنى الروح وكنهها، وسرد القصص عنها، وبأكبر مقدار نستطيعه؛ فلن نقدّم إلا إشارات لمعنى هذه الروح، وإلا فروح الإنسان شيء عجيب، إنّها تسكن هذا البدن الترابيّ المحدود فترة من الزمن، ثمّ تنسلخ منه، وترجع إلى الوطن الآخر، .. إلى عالم المجرّدات من جديد.

الطيف الذي تراه ليلاً في المنام ماذا تظنّه؟!، وبأيّ شيء تفسّره؟!

إنّ الروح تنسلخ عن البدن قليلاً، وتفلت من أساره وسجنه وقيوده، وتنطلق إلى عالم أرحب مدّى وأوسع مجلّى، وتحوم في ذلك العالم، فترى أشياء فيه، نحن نسمّيها (أحلاماً)، لكن.. هي أشياء صادفتها الروح ورأتها وهي تتجوّل في العالم: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾^(٣).

(١) السيّد حسن الأبطحي، عالم عجائب الأرواح، ترجمة: ناصر النجفي / ٢٦ ٣٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

(٣) سورة الزمر، الآية ٤٢.

ويقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «إنّ الأرواح لتلتقي في الهواء، فتتعارف وتتساءل، فإذا أقبل روح من الأرض قالت الأرواح: دعوه، فقد أفلت من هول عظيم، ثمّ سألوه: ما فعل فلان؟، وما فعل فلان؟، فكلمّا قال: قد بقي، رجوه أن يلحق بهم، وكلمّا قال: قد مات، قالوا:

في المنام تخرج هذه الروح، وتنسلّ من صدفتها، وتطوف بحرّية هذا العالم الأرضي، شخص لم تره منذ زمن بعيد تراه.. تلتقي به، وتتجول في الليل، نحن نقول: (هو حلم)، لكنّ الحقيقة أنّه شيء رأته الروح حين خرجت من البدن وتجوّلت، هذا البدن الذي تريد الروح أن تتخلّص من ثقل قيوده بأيّة طريقة؛ لأنّ البدن - بالنسبة للروح - قفص سُجنت فيه؛ لأنّ روح الإنسان شيء عظيم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(١)، الروح نفخ من الباري، وهو شيء لا يتحمّله هذا البدن سبعين سنة، هذه المدة قصيرة في الحياة الممتدة للروح، هذه الروح المخلوقة قبل خلق الأبدان بألفي عام، وقبل خلق آدم، وآدم خلق منذ زمن بعيد، وسوف تبقى مخلّدة بعد مغادرتها هذا القفص: إما في نعم الله الغامرة، وإما في عذاب الله المقيم، والعياذ بالله.

إلى أين تمضي الأرواح بعد انسلاخها من البدن؟

هذه الأرواح بعدما تخرج من هذه الأبدان لها أحد مسيرين: إما (وادي السلام) البهي الفاتن في النجف الأشرف الذي نتمنى أن نلتقي فيه جميعاً - إن شاء الله - بعد عمر طويل، أو (وادي برّهوت) الكثيب المحزن عند اليمن، وهو وادي أرواح الكفار والمعذّبين.

ومن هذه الأرواح الكثيبة روح معاوية بن أبي سفيان التي كانت تخرج من شدّة وقدة العذاب ولظاه، وتستجير بالأئمة الذين يمرّون بالوادي الذي هي فيه (عُسفان) أو (ضُجّنان):

ففي رواية يحيى بن أمّ الطويل، قال: «صحبْتُ علي بن الحسين عليهما السلام من المدينة إلى مكة - وهو على بغلته، وأنا على راحلة -، فجُرنا وادي ضُجّنان، فإذا نحن برجل

هوى، هوى. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارُ حَامِيَةٍ﴾ [سورة القارعة، الآية ٨- ١١] [بحار الأنوار ٦/ ٢٤٨- ٢٤٩، الباب ٨ (باب أحوال البرزخ، والقبر وعذابه وسؤاله)، ذيل الحديث ٨٧].
(١) سورة الحجر، الآية ٢٩.

أسود في رقبته سلسلة وهو يقول: يا علي بن الحسين!!، اسقني، فوضع رأسه على صدره، ثم حرك دابته، قال: فالتفت فإذا برجل يجذبه وهو يقول: لا تسقيه، لا سقاه الله، قال: فحركت راحلتي، ولحققت بعلي بن الحسين عليه السلام، فقال لي: أي شيء رأيت؟، فأخبرته، فقال: ذاك معاوية - لعنه الله - ^(١).

وفي رواية أخرى عن بشير النبال قال: «قال أبو عبد الله [الصادق] عليه السلام: كنت مع أبي بعسفان في واد بها أو بضجنان، فنفرت بغلته، فإذا رجل في عنقه سلسلة، وطرفها في يد آخر يجرها، فقال: اسقني، فقال الرجل: لا تسقيه، لا سقاه الله، فقلت لأبي: من هذا؟، فقال: هذا معاوية» ^(٢).

وفي رواية ثالثة عن مالك بن عطية، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «كنت أسير مع أبي في طريق مكة، ونحن على ناقتين، فلما صرنا بوادي ضجنان خرج علينا رجل في عنقه سلسلة يسحبها فقال: يا ابن رسول الله، اسقني سقائك الله، فتبعه رجل آخر فاجتذب السلسلة، وقال: يا ابن رسول الله، لا تسقيه، لا سقاه الله، فالتفت إلي أبي فقال: يا جعفر، عرفت هذا؟، هذا معاوية - لعنه الله -» ^(٣).

وفي رواية رابعة عن علي بن أبي المغيرة قال: «نزل أبو جعفر [الباقر] عليه السلام بضجنان فقال - ثلاث مرّات -: لا غفر الله لك، فلما قال ذلك قال: أتدرون لمن قلت - أو قال له بعض أصحابنا -؟، فقال: مرّ بي معاوية بن أبي سفيان يجرّ سلسلة قد أدلع لسانه يسألني أن أستغفر له، ثم قال: إنه يُقال: إنه واد من أودية جهنم» ^(٤).

نعم جاءت روح معاوية تستجير، ولكن بعد ماذا؟!

(١) بحار الأنوار ٦ / ٢٤٨-٢٤٩، الباب ٨ (باب أحوال البرزخ، والقبر وعذابه وسؤاله)، ح ٨٦.
 (٢) بحار الأنوار ٦ / ٢٤٨، الباب ٨ (باب أحوال البرزخ، والقبر وعذابه وسؤاله)، ح ٨٣.
 (٣) بحار الأنوار ٤٦ / ٢٨٠، الباب ٥ (معجزات الإمام الباقر، ومعالي أموره، وغرائب شأنه)، ح ٨١.
 (٤) بحار الأنوار ٣٣ / ١٧٢، الباب ١٧ (باب ما ورد في معاوية وعمرو بن العاص وأوليائهما)، ح ٤٥٣.

من قدرات الروح..

الروح عند الموت تنسلخ من الجسد، وتمضي لعالمها الآخر، عالم المجرّدات، وهناك بعض الصالحين والصدّيقين يستطيع في هذه الحياة أن يسليخ روحه عن بدنه وهو حيّ، يستطيع - وهو جالس - أن يُخرج الروح من هذا البدن، وهذا نظام عرفاني معروف بـ (نظام الخلسة)^(١)، يخلص هذه الروح من هذا البدن، ويجعلها تذهب لتزور النبي أو تزور الأئمة، وتزور وتزور، وتعبّ شيئاً من نخب عشقها، ثمّ ترجع، ففي ظرف نصف ساعة من الزمن - مثلاً - أو أقلّ ينهي زيارات الرسول والأئمة ويعود، دون الحاجة إلى جواز سفر أو تذكرة أو حجز ولا غير ذلك..

ولا تستغرب من هذا الأمر؛ فكما أنّ للبدن والعقل قدرات، هناك قدرات عظيمة للروح لمنّ نَمَى استعداداتها، وفجّر طاقاتها، وحوّلها من القوة إلى الفعل، ومن الكمون إلى التحقق، ومن الطاقة الساكنة إلى الطاقة الحركية.

(١) وفي القدرات الروحية هناك حديث مفصّل عما يُعرف بـ (الإسقاط النجمي)، الذي يعتقد المشتغلون به بوجود جسمين لدى الإنسان: جسم مادي، وجسم أثيري، وأنّ الجسد الأثيري هو جسم من الطاقة ينفصل عن الجسم المادي عند النوم، حيث يبقى بقربه متصلاً به بحبل فضي، ويمكن لهذا الجسم الأثيري التنقل في العالم والكون بسرعة تفوق الضوء، وقدرة لا تحدّها الأبعاد المادية كالزمن والمكان والمادة والكثافة، ويرون أنّ من فروع (الإسقاط النجمي): تجربة الخروج عن الجسد، والأحلام الواضحة أو الجلية، والتخاطر، والرؤية عن بُعد. [انظر موضوع: (إسقاط نجمي)، موسوعة ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة: (ar.wikipedia.org)].

ثانياً: ما المقصود بـ(حضور القلب)؟

المقصود من (حضور القلب) هو: توجّه القلب إلى ما يقول ويفعل.

يقول المولى الشيخ محمد مهدي النراقي عن معنى (حضور القلب): «أن يفرّغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلّم به؛ حتى يكون العلم مقروناً بما يفعله ويقول، من غير جريان الفكر في غيرهما....، ويُعبّر عنه بـ (الإقبال على الصلاة) و(التوجّه)، وقد يُعبّر عنه بـ (الخشوع بالقلب)»^(١).

فالأدب الثاني، والتالي في الأهمية للإخلاص في الصلاة - كما أسلفنا -، هو: أن يكون هذا القلب حاضراً حين يصلي الإنسان.

والمشكلة الكبرى أنّ الشيطان - والعياذ بالله - يتولى بني آدم حين يقفون للصلاة؛ لئلا يحضر قلبهم فيها، ولئلا يعوا ويعقلوا منها شيئاً، ولتصبح طقوساً شكلية خاوية من المحتوى والمضمون، ومظهرًا دون مخبر، وإطارًا دون جوهر، ومجرد أقوال وأفعال قشرية فارغة من اللب!!

ولا تستغرب إذا بدأت الصلاة وقلت: (الله أكبر)، وجاءتك في هذه اللحظة الخيالات وكلّ الأمور التي نسيتها في اليوم؛ لأنّ الشيطان - كما ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ يجيء للإنسان إذا شرع بالصلاة وكبّر، ويقول له: «اذكُرْ كَذَا، اذكُرْ

(١) جامع السعادات ٣ / ٣٢٣.

كَذَا، حَتَّى يُضِلَّ الرَّجُلَ أَنْ يَدْرِيَ كَمْ صَلَّى»^(١)، إلى أن تنتهي صلاة الإنسان، ويسلم تسليمه الأخير ويقول: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وهو لا يدري ماذا قال بين التكبير والسلام!!

يقول أحدهم في قصة شهيرة معروفة متداولة: سافرنا إلى العراق، وتجوّلنا فيه، وطبعنا بعض الكتب، ورجعنا، وهكذا لم ألتفت إلى نفسي إلا وأنا أقول: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)!!، لقد كنتُ شكلاً وظاهراً في الصلاة، بينما كنتُ في الحقيقة والواقع ساهماً أسرح في عالم آخر، وتجوّل في ذهني قصة!!

والشاهد في هذه القصة أنّ الشيطان يترقّب هذا الوقت حتى يلقي بأحابيله وشبابه وشراكه وأفخاخه؛ ليصطاد القلب، ويصرفه عن الله وعن معايشة الصلاة.

وقد يقول الواحد منّا: أنا جئتُ لأصلي، جئتُ لأذكر الله، جئتُ لأقف بين يديه الحانيتين، فلماذا يأتي الشيطان الغويّ في هذا الوقت؟!

والجواب: لأنّ الشيطان يسيئه ويسخطه ذكرُ الله، ولا يريد أن يذكر الله أحدٌ أبداً، وحين يقول الواحد منّا: أنا جئتُ حتى أذكر الله؛ يقف الشيطان له في طريقه بالمرصاد؛ ليقطع عليه الطريق، ويحول بينه وبين ذكر الله.

لا شك أنّ الشيطان منذ أن عصى الله، وطُرد من الجنة والسماء والملا الأعلى؛ بسبب رفضه السجود لأبينا آدم عليه السلام؛ كره آدم وذريته، وأصبح لهم عدواً مبيناً لدوداً، وتعهّد أمام الله - جلّ وعلا - أن يكون لهم بالمرصاد، وأن يقعد لهم في (الصراط المستقيم)؛ ليضلّهم ويغويهم، ومن ثمّ يوردهم مورده، ويدخلهم معه النار، وهو يكره ويأبى أن يرى أحداً منهم مطيعاً لله؛ فيحظى برضوان الله، ويدخل الجنة، وينال ما لن يناله هو:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا

(١) بحار الأنوار ٨١ / ٢٥٩، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٥٨.

إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَنُصِّرُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ^(١).

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا^(٢)﴾.

الشيطان وتبديد حضور القلب:

ما إن يبتدئ الإنسان بتكبيرة الإحرام حتى تحضر في نفسه كل مشاغل الدنيا، حتى تلك الأمور التي يحاول بجهد ومشقة أن يتذكرها قبل الصلاة يجدها حاضرة ماثلة شاخصة أمامه، وإذا به يدرك من صلاته تكبيرة الإحرام في بدايتها والتسليم في نهايتها دون أدنى معرفة بما قاله خلال الصلاة، أو لا يدرك من صلاته شيئاً أصلاً حتى التكبيرة والتسليم، فأية صلاة هذه التي شطح بها في كل وإد إلا الحضور بين يدي الله؟!، وإلى أين ستوصل هذا العبد؟!، وهل يرجو من ورائها تلك الغايات السامية التي ترتبت على الصلاة في الآيات والروايات؟!.

وكلّما سارع الإنسان إلى ذكر الله سارع الشيطان إلى محاربته، وكلّما ارتقى في

(١) سورة الأعراف، الآية ١١-١٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٦١-٦٥.

مدارج الذكر ومسالك المعرفة ارتقت أساليب الشيطان في إغوائه وإضلاله، وتفنّن الشيطان في طريقة محاربته: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١)، وهو - عليه اللعنة - يبحث عن تلك الصلاة التي تقرب إلى الله، وتبعد عن الشيطان، وهي تلك الصلاة التي يحضر العبد فيها قلبه، ويتوجّه بكلّ جوانحه وكلّ جوارحه إلى الله.

لصلاة المؤمن وزن خاص عند إبليس!!

صلاة المؤمن الموالي لأهل البيت عليه السلام صلاة مهمة عند الشيطان، تثير حنقه وغيظه، وتسعر لظى الحقد في دمه؛ لذلك يسعى جهده أن يبدّدها، هناك آخرون لا يبالي بهم الشيطان، ولا يعير لهم وزناً، ولا يدير لهم بالاً، حتى لو صلّوا من بداية الليل إلى الصبح، ليس لديه شغل معهم، لكن.. أنت كموالٍ لأهل البيت عليه السلام صلاتك هذه يعتبرها الشيطان صلاة حقيقية؛ لذلك وبمجرّد أن تبدأ في الأذان أو الإقامة وتقول: (أشهد أنّ عليّاً ولي الله)، يقول إبليس الرجيم: هذا من الجماعة الذين لا بدّ من إمساكهم وغوايتهم، فيأتي وينصب شراكه وفخاخه، ويحوم حول القلب ويوسوس، ويقول: اذكر الشيء الفلاني، والعمل، وربّ العمل، والرئيس، والدرجة، والترقية، والمعاش، وأحداث الحياة، ومشكلاتها،....

كلّ هذه الأمور تأتيك وتدهمك وتقتحم قلاعك في هذا الوقت وفي الصلاة!!

لماذا يستفرغ الشيطان كامل جهده للصلاة؟!

لعلّ سائلاً يسأل: ما هذه الصلاة؟، وما أهميتها حتى يستفرغ لها إبليس كلّ هذا الجهد؟!

والجواب: لأنّ الشيطان يعلم أنّ الله - سبحانه وتعالى - جعل الصلاة مدار

(١) سورة فاطر، الآية ٦.

قبول العمل ورفضه: (الصلاة عمود الدين: إن قُبِلَتْ قُبِلَ ما سواها، وإن رُدَّتْ رُدَّ ما سواها)^(١)؛ ولذلك يريد الشيطان أن يهدم عمود الخيمة الذي بهدمه تسقط الخيمة على وجهها، يريد أن يسد رميته إلى قلب العبادات، فيقضي على العبادات كاملة بذلك، كما يفعل السهم الذي يصيب قلب الإنسان، فيقضي عليه، وتصبح جميع أعضائه جثة هامدة ليس فيها حراك، يريد أن يقوِّض مدار قبول الأعمال؛ لتضحي جميع الأعمال باطلة، يريد أن يطمِّ النبع؛ لتجف جميع الجداول والترع!!

(١) ورد في (الحرّ العاملي، وسائل الشيعة) ٣/ ٢٣، الباب ٨ (باب وجوب إتمام الصلاة وإقامتها)، ح ١٣: عن الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إن عمود الدين الصلاة، وهي أول ما يُنظر فيه من عمل ابن آدم، فإن صَحَّتْ نُظِرَ في عمله، وإن لم تصحَّ لم يُنظر في بقية عمله».

كما ورد في (وسائل الشيعة) ٣/ ١٧-١٨، الباب ٦ (باب تحريم الاستخفاف بالصلاة والتهاون بها)، ح ١٢: عَنْ جَابِرٍ، عَنِ الْإِمَامِ أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ عليه السلام قَالَ: «الصَّلَاةُ عَمُودُ الدِّينِ، مَثَلُهَا كَمَثَلِ عَمُودِ الْفُسْطَاطِ: إِذَا ثَبَتَ الْعَمُودُ ثَبَتَ الْأَوْتَادُ وَالْأَطْنَابُ، وَإِذَا مَالَ الْعَمُودُ وَانْكَسَرَ لَمْ يَثْبُتْ وَتَدَّ وَلَا طُنْبٌ».

وفي (الكافي) ٣/ ٢٦٨، (باب مَنْ حَافِظٌ عَلَى صَلَاتِهِ أَوْ ضَيِّعُهَا)، ح ٤: عَنْ أَبِي بصير قَالَ: سَمِعْتُ الْإِمَامَ أَبَا جَعْفَرٍ الْبَاقِرَ عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ: فَإِنْ قُبِلَتْ قُبِلَ مَا سِوَاهَا، إِنْ الصَّلَاةُ إِذَا ارْتَفَعَتْ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ بَيَضَاءٌ مُشْرِقَةٌ تَقُولُ: (حَفِظْتَنِي حَفِظَكَ اللَّهُ)، وَإِذَا ارْتَفَعَتْ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا بَغَيْرِ حُدُودِهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ: (ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعَكَ اللَّهُ)»، وورد هذا الحديث - كذلك - في: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام ١/ ٢١٢، الباب ١٢ (باب فضل الصلاة، والمفروض منها والمسنون)، ح ١٥.

وفي (مستدرک الوسائل) ٣/ ٢٥، الباب ٦ (باب تحريم الاستخفاف بالصلاة والتهاون بها)، ح ٤: عَنْ الْإِمَامِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ: فَإِنْ صَحَّتْ لَهُ الصَّلَاةُ صَحَّ لَهُ مَا سِوَاهَا، وَإِنْ رُدَّتْ رُدَّ مَا سِوَاهَا، وَإِيَّاكَ أَنْ تَكْسَلَ عَنْهَا، أَوْ تَتَوَانَى فِيهَا، أَوْ تَتَوَانَى بِحَقِّهَا، أَوْ تُضَيِّعَ حَدَّهَا وَحُدُودَهَا، أَوْ تَنْقُرَهَا نَقْرَ الدِّيكِ، أَوْ تَسْتَخِفَّ بِهَا، أَوْ تَشْتَغَلَ عَنْهَا بِشَيْءٍ مِنْ غَرَضِ الدُّنْيَا، أَوْ تُصَلِّيَ بِغَيْرِ وَقْتِهَا».

لماذا خلق الله الخلق؟، ولماذا شرع الشرائع؟

لماذا خلق الله الخلق؟

إنّ عقيدتنا في الله - جلّ وعلا - هي أنّه الغنيّ المطلق، والكون بشراشر وجوده مفتقر إليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١)، وأنّه - تعالى - حين خلق الخلق لم يكن بحاجة إلى طاعتهم، ومعاصيهم ليست بضارته شيئاً.

يقول رسول الله ﷺ: «في صحف موسى بن عمران عليه السلام: يا عبادي، إني لم أخلق الخلق لأستكثر بهم من قلة، ولا لأنس بهم من وحشة، ولا لأستعين بهم على شيء عجزت عنه، ولا لجرّ منفعة، ولا لدفع مضرة، ولو أنّ جميع خلقي من أهل السماوات والأرض اجتمعوا على طاعتي وعبادتي لا يفترون عن ذلك ليلاً ولا نهاراً ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، سبحانه وتعالى عن ذلك»^(٢).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة (وصف المتقين): «إنّ الله خلق الخلق

(١) سورة فاطر، الآية ١٥.

(٢) الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (الصدوق)، علل الشرائع ١ / ١٣، الباب ٩ (علة خلق الخلق واختلاف أحوالهم)، ح ٩، وبحار الأنوار ٥ / ٣١٣، الباب ١٥ (باب خلق العباد وتكليفهم، والعلة التي من أجلها جعل الله في الدنيا اللذات والآلام والمحن)، ح ٤.

حين خلقهم: غنيًا عن طاعتهم، آمنًا من معصيتهم؛ لأنّه لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضرّه معصية من عصاه»^(١).

ويقول الإمام الحسين عليه السلام في (دعاء عرفة): «إلهي، تقدّس رضاك أن تكون له علة منك، فكيف يكون له علة منّي؟! إلهي، أنت الغني بذاتك أن يصل إليك النفع منك، فكيف لا تكون غنيًا عني؟!»^(٢).

وقد تضافرت نصوص عديدة في بيان الغاية من الخلق، ومنها:

١- المعرفة (معرفة الله وصفاته):

يقول الإمام الحسين عليه السلام: «إنّ الله - جلّ ذكره - ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه، فقال له رجل: يا ابن رسول الله، بأبي أنت وأمي، فما معرفة الله؟، قال: معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته»^(٣).

وهذا الحديث المشرق للإمام الحسين عليه السلام ذكر ثلاث غايات للخلق هي: المعرفة، والعبادة، والاستغناء بعبادة الله عن عبادة ما سواه.

ويقول الله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٤).

(١) نهج البلاغة / ٣٠٣، الخطبة ١٩٣ (في وصف المتقين).

(٢) بحار الأنوار ٩٥ / ٢٢٦، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)، ح ٣ (دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٢٧٣.

(٣) بحار الأنوار ٥ / ٣١٢، الباب ١٥ (باب علة خلق العباد وتكليفهم، والعلة التي من أجلها جعل الله في الدنيا اللذات والآلام والمحن)، ح ١، وكذلك ٢٣ / ٨٣، الباب ٣ (باب وجوب معرفة الإمام)، ح ٢٢، و ٢٣ / ٩٣، الباب ٣ (باب وجوب معرفة الإمام)، ح ٤٠.

(٤) سورة الطلاق، الآية ١٢.

وهذه الآية الشريفة ذكرت أن غاية خلق الكون هو معرفة قدرة الله، وسعة علمه المحيط بكل شيء، أي صفتي القدرة والعلم.

وفي رواية جعفر بن محمد بن عمار، عن أبيه قال: «سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلتُ له: لِمَ خلق الله الخلق؟، فقال: إنَّ الله - تبارك وتعالى - لم يخلق خلقه عبثاً، ولم يتركهم سدى، بل خلقهم لإظهار قدرته، وليكلفهم طاعته؛ فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليُجلب منهم منفعة، ولا ليدفع بهم مضرة، بل خلقهم لينفعهم، ويوصلهم إلى نعيم الأبد»^(١).

ويقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «الحمد لله فاطر الأشياء إنشاءً، ومبتدعها ابتداءً بقدرته وحكمته، لا من شيء فيبطل الاختراع، ولا لعلّة فلا يصحّ الابتداء، خلق ما شاء كيف شاء متوحّداً بذلك؛ لإظهار حكمته وحقيقة ربوبيّته»^(٢).

٢. العبادة:

بعض الآيات القرآنية تتحدّث عن أنّ الغاية من الخلق هي (العبادة)، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣).

وعن جميل بن درّاج، عن أبي عبد الله [الصادق] عليه السلام قال: «سألته عن قول الله - عزّ وجلّ -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، قال: خلقهم للعبادة، قلتُ: خاصّة أم عامّة؟، قال: لا.. بل عامّة»^(٤).

٣. البلاء والامتحان:

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ

(١) علل الشرائع ١ / ٩، الباب ٩ (علّة خلق الخلق واختلاف أحوالهم)، ح ٢.

(٢) علل الشرائع ١ / ٩، الباب ٩ (علّة خلق الخلق واختلاف أحوالهم)، ح ٢.

(٣) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٤) علل الشرائع ١ / ١٤، الباب ٩ (علّة خلق الخلق واختلاف أحوالهم)، ح ١٢.

عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا^(١)، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا^(٢)﴾.

وفي حديث الإمام الباقر عليه السلام أن الله - جلّ وعلا - قال الله لآدم يوم أخذ
من ظهره ذريته، وأراهم إياه: «وخلقتك وخلقْتُ ذريتك من غير فاقة لي إليك وإليهم،
وإنما خلقتك وخلقْتهم؛ لأبْلوك وأبْلوهم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا في دار الدنيا في حياتكم
وقبل مماتكم»^(٣).

٤- الرحمة:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ *
إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ^(٤)﴾.

ويقول الإمام الحسين عليه السلام في (دعاء عرفة): «اللهم لك الحمد كما خلقتني،
فجعلتني سميعًا بصيرًا، ولك الحمد كما خلقتني، فجعلتني خلقًا سويًا؛ رحمة بي، وقد
كنت عن خلقي غنيًا»^(٥).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «واعلم أنه غير محتاج إلى خدمتك، وهو غني عن
عبادتك ودُعائك، وإنما دعاكَ بِفَضْلِهِ؛ لِيَرَحِمَكَ وَيُبْعِدَكَ عَنْ عُقُوبَتِهِ، وَيُنْشِرَ عَلَيْكَ مِنْ
بَرَكَاتِ حَنَانِيَّتِهِ، وَيَهْدِيكَ إِلَى سَبِيلِ رِضَاهُ، وَيَفْتَحَ لَكَ بَابَ مَغْفِرَتِهِ»^(٦).

(١) سورة هود، الآية ٧.

(٢) سورة الإنسان، الآية ٢.

(٣) علل الشرائع ١/ ١١، الباب ٩ (علة خلق الخلق واختلاف أحوالهم)، ح ٤.

(٤) سورة هود، الآية ١١٨ - ١١٩.

(٥) بحار الأنوار ٩٥ / ٢١٩، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)، ح ٣.

(دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٢٩١ (دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام).

(٦) مستدرک الوسائل ٤ / ٩٦، الباب ٢ (باب تأكد استحباب الخشوع في الصلاة، واستحضار

عظمة الله، واستشعار هيئته، وأن يصلي صلاة مودّع)، ح ٩.

ويقول أبو بصير: «سألتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام عن قول الله - عز وجل -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، قال: خلقهم؛ ليأمرهم بالعبادة، قال: وسألته عن قول الله - عز وجل -: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، قال: ليفعلوا ما يستوجبون به رحمته؛ فيرحمهم»^(١).

الغاية الأولى والمتوسطة والأخيرة:

والحقيقة.. أنه لا يمكننا افتراض أن الغاية النهائية من الخلق هي: المعرفة، أو عبادة الله، أو البلاء، وما إلى ذلك، بمعنى أن الله إنما خلقهم؛ لأنه يريد منهم أن يعرفوه، أو لأنه يريد منهم أن يعبدوه، أو ليتليهم!!، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فالمعرفة غاية أولى، والعبادة والبلاء هي - بحسب الغرض - من الغايات المتوسطة.

ومن أدلة كون المعرفة غاية ابتدائية أولى، والعبادة غاية متوسطة رواية الإمام الحسين السابقة التي قال فيها: «إن الله - جل ذكره - ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه».

فالغاية الأولى للخلق هي المعرفة، والغاية الأخيرة هي (الرحمة)، وهناك غايات متوسطة بين الغاية الأولى والأخيرة، منها: العبادة، والبلاء، والاستغناء بعبادة الله عن عبادة ما سواه.

الغاية النهائية للخلق هي الرحمة:

ومما سبق نصل إلى أن الغاية الأخيرة والنهائية لخلق الله للكون والإنسان هي: الرحمة، فالله خلق الإنسان؛ ليرحمه، وأما المعرفة والعبادة والبلاء والاستغناء بالله فهي أمور جاءت لتزكي الإنسان، وتصقله، وتوصله للرحمة.

وعندما نقول بأن الغاية الأخيرة والنهائية للخلق هي الرحمة، فهذا - بدوره -

(١) علل الشرائع ١/ ١٣، الباب ٩ (علة خلق الخلق واختلاف أحوالهم)، ح ١٠.

يرسخ المقولة السابقة من أنّ مصلحة الخلق عائدة للخلق، ومنه الإنسان، وليست عائدة لله، تعالى الله من أن تصيبه مصلحة من خلقه.

ترتيب غايات الخلق:

وبهذا يمكن ترتيب أشهر الغايات المذكورة في غاية خلق الخلق والإنسان كالتالي:

١- المعرفة.

٢- العبادة.

٣- الرحمة^(١).

لماذا شرع الله الشرائع؟

إنّ جميع التشريعات والأوامر والنواهي الإلهية التي جاءت في كتب الله المنزل،

(١) هناك اختلاف كبير في ترتيب الغايات الأساسية للخلق:

١- يقول الإمام الحسين عليه السلام: «إنّ الله - جلّ ذكره - ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه»، فعُدّ (المعرفة) غاية أولى، و(العبادة) غاية وسطى، و(الاستغناء بالله) غاية أخيرة، ولم يذكر (الرحمة).

٢- ويقول السيّد الطباطبائي: «فالعبادة غرض لخلق الإنسان وكمال عائد إليه، هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك... ولو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى، والعبادة غرضاً متوسطاً» [السيّد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ١٨ / ٣٨٦، تفسير سورة الذاريات]، فهو يرى أنّ (العبادة) غاية وسطى، و(المعرفة) هي الغاية الأخيرة، ولم يشير نصّه إلى الغاية الأولى.

٣- بينما يرى أستاذنا الشيخ الشبيب رحمته أنّ «الغاية الأولى للخلق هي (المعرفة)، والغاية الأخيرة هي (الرحمة)، وهناك غايات متوسطة بين الغاية الأولى والأخيرة، منها: (العبادة)، و(البلاء)، و(الاستغناء بعبادة الله عن عبادة ما سواه)»، ومن ثمّ فترتيب الغايات الأساسية في نظره - وكما ذكره في المتن -: (المعرفة) هي الغاية الأولى، و(العبادة) غاية وسطى، و(الرحمة) هي الغاية الأخيرة والنهائية للخلق.

أو على لسان الأنبياء والأوصياء عليهم السلام إنما تدور مدار (المصلحة والمفسدة)، وغايتها جلب المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار^(١).

فالتشريعات الإلهية إنما تريد جلب المصلحة والمنفعة للعباد أنفسهم، وتريد دفع المفسدة والمضرة عن العباد أنفسهم؛ رحمة من الله بهم؛ ولذلك خلقهم، ولا تعود بالمصلحة والمنفعة على الله، وهو الغني المطلق، ولا تدفع المفسدة والمضرة عن الله، جلّ الله وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

إنّ تشريع الصلاة والصيام والزكاة وجميع العبادات الأخرى أمر يعود نفعه ومصالحته على العبد ذاته؛ كي تكتمل بذلك روحه، وتسمو إلى مقام العبودية، وترتقي في مدارج الكمال والقرب، ويحظى - بالتالي - بشرف الخلد المقيم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾^(٢).

ومن كمال مظاهر الرحمة أن يغدق الله - عزّ وجلّ - على عباده الطائعين خيرات الدنيا، وأن يشيهم بجزيل العطاء يوم القيامة؛ تحننًا منه وكرمًا.

ومن النصوص الدينية النيرة في علل الأحكام وآثارها الدنيوية والأخروية والاجتماعية على الإنسان:

أ- قول نبيّ الله نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾^(٣).

ب - وقول نبيّ الله هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ

(١) وقد نظم السيّد حسن ابن السيّد محمود الأمين ذلك فقال:

ما حلّل الشرع، وما الشرعُ حَظُرَ إلا لجلبِ النفع، أو دفعِ الضررِ
[أعيان الشيعة ٥ / ٢٩١، (ترجمة السيّد حسن محمود الأمين)].

(٢) سورة القمر، الآية ٥٥.

(٣) سورة نوح، الآية ١٠-١٢.

السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿١﴾.

ج - وقول الله في وصف شريعة نبيه الأكرم محمد ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢).

د - وما صدحت به مهجة الصديقة الكبرى السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها (الفدكية):

«فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكيةً للنفس، ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزاً للإسلام، والصبر معونةً على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحةً للعامة، وبرّ الوالدين وقايةً من السخط، وصلة الأرحام مناعةً للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكايل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرّجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية، ف﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٣)، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه؛ فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٤)﴾ (٥).

(١) سورة هود، الآية ٥٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

(٤) سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٥) الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، الاحتجاج ١ / ٩٩، (خطبة الزهراء البتول)، وبحار الأنوار ٢٩ / ٢٢٣، (فصل: نورد فيه خطبة خطبتها سيّدة النساء فاطمة الزهراء - صلوات الله عليها - احتجّت بها على من غصب فدك منها)، ح ٨.

هـ- وما رواه إسحاق بن إسماعيل النيسابوري، عن الإمام الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن الحسن بن علي عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بِمَنْتِهِ وَرَحْمَتِهِ لَمَّا فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْفَرَائِضَ لَمْ يَفْرَضْ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ، بَلْ رَحْمَةً مِنْهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ لِيَمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَلِيَسْتَلِي مَا فِي صُدُورِكُمْ، وَلِيَمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَلِتَسَابِقُوا إِلَى رَحْمَتِهِ، وَلِتَتَفَاضَلَ مَنَازِلُكُمْ فِي جَنَّتِهِ»^(١).

الهدف من هذا البحث:

هذا البحث الذي تحدثنا فيه بشيء من التفصيل عن غايات خلق الخلق، وغايات تشريع الشرائع نريد به أمرين:

١- معرفة غاية الله وغاية الشيطان:

عندما تكون الغاية الأخيرة والنهائية لخلق الخلق هي: الرحمة، سنعرف سرّ السعي الشيطاني الحثيث لإضلال الإنسان وإغوائه؛ فهو يريد - بوضوح - إبعاد الإنسان عن الله، وتفويت الرحمة عليه، وسوق الناس معه - كسوق القطيع - إلى نار جهنم: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢).

علينا أن نعرف الله وغايته الحميدة من خلقنا، وعلينا أن نعرف عدونا المبين للددو الشيطان الرجيم وغايته الخبيثة من إضلالنا، الله يريد لنا الرحمة، والشيطان يريد لنا السخط الإلهي والعذاب والنقمة.

(١) بحار الأنوار ٥ / ٣١٥، الباب ١٥ (باب علّة خلق العباد وتكليفهم، والعلّة التي من أجلها جعل الله في الدنيا اللذات والآلام والمحن)، ح ١٠.
(٢) سورة فاطر، الآية ٦.

٢- بَمَ تُنالُ العبادات؟

عندما تكون التشريعات والعبادات آتية لجلب المصالح ودفع المفاسد، فإنّ الالتزام الحقيقي بها، والأداء الفعلي لها، هو ذاك الذي يحقق المصالح، ويدرأ المفاسد، وليس ذاك الفعل الخاوي من الأثر.

والله يريدنا أن نأتي بتشريعات محقّقة للغايات والمصالح والآثار، والشيطان إن لم يستطع أن يجعل الإنسان متمرّدًا على الله بترك تشريعاته، وفعل النواهي، وترك الأوامر، فسوف يلجأ إلى حيلة أخرى هي تجويف التشريعات من الغايات والمصالح والآثار، وبذلك يترك الإنسان يصلّي ويصوم ويحجّ ويزكي ويخمس وغير ذلك، لكنّها جميعًا تضحى عنده طقوسًا خاوية دون جوهر، أشكّالًا دون مضامين، أضاعها عدم الإخلاص، أضاعها عدم حضور القلب.

فالشيطان يعلم أنّ الصلاة بإخلاص وبحضور قلب وبتحقيق للغايات وبانتهاء عن الفحشاء والمنكر؛ هي الصلاة المقبولة، ومن ثمّ يعمل جاهدًا على تضييع جميع هذا؛ لتكون صلاة شكلية (شكل صلاة فقط)، لا تقرب الإنسان إلى الله، ولا ينال الإنسان بها ثوابًا، وهذا يصبّ في الغاية الأخيرة التي يريدّها الشيطان للإنسان، وهي أن يرد معه النار: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

أنواع العبادة

تعامل المكلفين مع التشريعات الإلهية على أنواع:

أولاً: الأداء السطحي القشري؛ لإسقاط التكليف:

تعامل بعض المكلفين مع التشريع الإلهي تارة يكون أداءً سطحيًا قشريًا للعبادة؛ لمجرد إسقاط التكليف والواجب، وباصطلاح الفقهاء: الأداء الذي لا يستوجب إعادة أو قضاء، دون اعتناء من هذا المكلف بما وراء ذلك من الآثار والمصالح والغايات. فلو أخذنا الصلاة كفعل مأمور به شرعاً - مثلاً - نجد أن بعض الناس يؤدي هذه الصلاة أداءً سطحيًا استخفافياً - كنقر الغراب^(١) -، كأنه يريد التخلص من ثقل الواجب الملقى على كاهله، والتحلل من ربة الأمر المتعلق بذمته، وقد تكون صلاته محكومة - فقهياً - بالصحة، لكنه من نافلة القول: أن الحكم بالصحة والإجزاء شيء، وقبول العمل شيء آخر، فلا تلازم بين الصحة والقبول^(٢).

(١) عن زرارة، عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «بينا رسول الله ﷺ جالس في المسجد إذ دخل رجل، فقام يصلي، فلم يتم ركوعه ولا سجوده، فقال عليه السلام: نقر كنقر الغراب، لئن مات هذا وهكذا صلاته لموتن على غير ديني» [وسائل الشيعة ٣ / ٢٠ - ٢١، الباب ٨ (باب وجوب إتمام الصلاة وإقامتها)، ح ٢، والمصدر ٣ / ٢٥، الباب ٩ (باب كراهة تخفيف الصلاة)، ح ٦].
(٢) هناك فرق بين (الإجزاء) و(القبول): فالمُعْزِي من العبادة هو: ما يسقط التكليف عن العبد، وإن لم يترتب عليه ثواب، ولم يقربه إلى الله، أما المقبول من العبادة فهو: ما يقرب إلى الله، ويترتب عليه الثواب في الآخرة [جامع السعادات ٣ / ٣٣١].

ثانيًا: الأداء المادي المصلحي؛ لنيل الثواب، واجتناب العقاب:

وتارة ثانية يؤدي بعض المكلفين التكليف الشرعي المطلوب؛ بغرض إدراك المصلحة، وبلوغ النفع، ونيل الثواب، في طرف أداء المأمور به. ودفع المفسدة، واجتناب الضرر، والفرار من ربة العذاب، في طرف ترك المنهي عنه.

أي أنه يؤدي هذه الصلاة حرصًا منه على الغاية المصلحية النفعية المادية التي توصله إليها، طالبًا أن تكون مدرجة في صحيفة أعماله كصلاة مقبولة ينال ثوابها، علاوة على صحتها من الناحية الفقهية^(١).

وحين نعود إلى النصّ القرآني الذي يأمر بالصلاة نجده يتحدث عن غايات غير مادية لها ينبغي استهدافها بالصلاة؛ فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٢)، فالتوقف والانتها عن الفحشاء والمنكر غاية وهدف من أداء الصلاة والأمر بها.

ولكن أصحاب (الأداء المادي المصلحي) حتى لو جعلوا النهي عن الفحشاء والمنكر غاية مترشحة من صلاتهم، فإنما يرومون من ذلك أن تكون صلاتهم مقبولة ينالون بها الثواب؛ لأنّ أعينهم ليست مفتوحة إلا على نيل الثواب وتجنّب العقاب!!

إذاً.. نحن - إلى هنا - بين نوعين من التعامل مع الواجب:

أحدهما: يتعامل مع الواجب كثقل على كاهل الإنسان يريد التخلص منه بأي شكل وكيفما اتفق، بل ويبحث عن الطرق والحيل الالتفافية لإسقاطه.

وثانيهما: ينبثق تعامله من فهم بعض المقاصد الشرعية وبعض الغايات السامية والمصالح، فتجد صاحبه - على العكس من التعامل الأول - يبحث عن أحوط

(١) سبق الحديث مفصلاً في هذا الكتاب عن (العبادة المصلحية النفعية المادية) تحت عنوان (الإخلاص الإضافي).

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

الطرق، بل وأعسرهما في ضمان الوصول لتلك الغاية، ولكن مشكلته تكمن في قصر النظر على الغايات المادية النفعية - فقط - للعبادة.

ثالثاً: الأداء الأخلاقي المعنوي؛ لأهلية الله للعبادة واستحقاقه لها، ولبلوغ العبد مقام الشكر، والحب، والقرب والرضوان، والمقامات الشامخة:

والآن دعونا نتساءل مع أنفسنا:

ما الذي يجعل رسول الله ﷺ يجفو مضجعه، ويهجر دفء منامه، ويقوم الليل حتى تورّم قدماه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾^(١)؟

وكيف يستطيع ﷺ أن يقوم الليل كله على أطراف أصابعه ولمدة عشر سنين؛ حتى تورّمت قدماه، واصفرّ وجهه، وخاطبه العليّ الأعلى -رحمة به ورأفة-: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾^(٢)؟

وما الذي يجعل أهل البيت (عليهم السلام) يحذون حذو رسول الله ﷺ في هذا المنهج العبادي الصارم؟

فهذا أمير المؤمنين (عليه السلام) يصف حاله ضرار بن ضمرة الضبابي النهشلي عند دخوله على معاوية ومساءلته له عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، فيقول:

«فَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ، وَقَدْ أَرَخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ، وَهُوَ قَائِمٌ فِي مَحْرَابِهِ، قَابِضٌ عَلَىٰ لِحْيَتِهِ، يَتَمَلَّمُ تَمَلَّمُ السَّلِيمِ، وَيَبْكِي بُكَاءَ الْحَزِينِ، وَيَقُولُ: يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، إِلَيْكَ عَنِّي، أَبِي تَعَرَّضْتَ؟، أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتَ؟، لَا حَانَ حِينُكَ، هَيْهَاتَ، غُرِّي غَيْرِي، لَا حَاجَةَ لِي فِيكَ، قَدْ طَلَّقْتُكَ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ فِيهَا، فَعِيشُكَ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكَ يَسِيرٌ،

(١) سورة المزمل، الآية ٢٠.

(٢) سورة طه، الآية ١-٢.

وَأَمْلِكْ حَقِيرًا، أَوْ مِنْ قَلِيلِ الزَّادِ، وَطُولِ الطَّرِيقِ، وَبُعْدِ السَّفَرِ، وَعَظِيمِ الْمَوْرِدِ»^(١).

ومطالعة يسيرة في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام ترينا عمق هذا الخطّ العبادي الذي ورثه أهل البيت عليهم السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله، ونعني به خطّ العبادة الراقية.

يقول جابر بن عبد الله الأنصاري - الصحابي الجليل - : «والله ما أرى في أولاد الأنبياء بمثل علي بن الحسين إلا يوسف بن يعقوب عليه السلام»^(٢).

وعن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام : «أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لَمَّا نَظَرَتْ إِلَى مَا يَفْعَلُ ابْنُ أَخِيهَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بِنَفْسِهِ مِنَ الدَّأْبِ فِي الْعِبَادَةِ؛ أَتَتْ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنَ حَرَامِ الْأَنْصَارِيِّ فَقَالَتْ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ، إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ حَقًّا، مِنْ حَقِّنا عَلَيْكُمْ أَنْ إِذَا رَأَيْتُمْ أَحَدَنَا يَهْلِكُ نَفْسَهُ اجْتِهَادًا أَنْ تَذْكُرُوهُ اللَّهَ، وَتَدْعُوهُ إِلَى الْبَقِيَّةِ عَلَى نَفْسِهِ، وَهَذَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بَقِيَّةُ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ قَدْ انْخَرَمَ أَنْفَهُ، وَثَقَنَتْ جَبْهَتَهُ وَرَكِبَتْهُ وَرَاحَتَاهُ، إِذَا بَا مِنْهُ لِنَفْسِهِ فِي الْعِبَادَةِ.

فَأَتَى جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بَابَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام وَبِالْبَابِ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ [الباقر] عليه السلام فِي أَغِيلْمَةٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ قَدْ اجْتَمَعُوا هُنَاكَ،، ثُمَّ قَالَ لِي: أَتَذُنُّ لِي عَلَى أَبِيكَ، فَدَخَلَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَى أَبِيهِ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ...، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، ذَلِكَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ،، ثُمَّ أَذِنَ لَجَابِرٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَوَجَدَهُ فِي مُحَرَابِهِ قَدْ أَنْضَتِ الْعِبَادَةَ، فَنَهَضَ عَلِيُّ عليه السلام فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ سُؤلاً حَفِيًّا، ثُمَّ أَجْلَسَهُ بَجَنْبِهِ، فَأَقْبَلَ جَابِرَ عَلَيْهِ يَقُولُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ الْجَنَّةَ لَكُمْ وَلِمَنْ أَحَبَّكُمْ، وَخَلَقَ النَّارَ لِمَنْ أَبْغَضَكُمْ وَعَادَاكُمْ؟، فَمَا هَذَا الْجَهْدُ الَّذِي كَلَّفْتَهُ نَفْسُكَ؟!، قَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ جَدِّي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَلَمْ يَدَعْ الْجَهْدَ، وَتَعَبَدَ - بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي - حَتَّى انْتَفَخَ السَّاقُ، وَوَرَمَ الْقَدَمُ»^(٣).

(١) نهج البلاغة / ٤٨٠ - ٤٨١، قصار الحكم، الحكمة ٧٧.

(٢) بحار الأنوار / ٤٦ / ٦١، الباب ٥ (مكارم أخلاق الإمام السجّاد وعلمه)، ح ١٨.

(٣) بحار الأنوار / ٤٦ / ٦٠ - ٦١، الباب ٥ (مكارم أخلاق الإمام السجّاد وعلمه)، ح ١٨، وقد وردت هذه الرواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في (بحار الأنوار) / ٦٨ / ١٨٥ - ١٨٦،

هل يستهدف المعصومون الأربعة عشر: بدءًا من النبي المصطفى محمد ﷺ،
ومرورًا بأهل بيته الكرام الأطهار، وختامًا بالإمام الحجة المنتظر - عليهم جميعًا
أشرف الصلوات وأزكى التحيات وأعطر السلام - من عبادتهم الموصولة تلك:

- الأداء السطحي القشري؛ لإسقاط الواجب والتكليف.

- أم الأداء المادي المصلحي؛ لنيل الثواب، واجتناب العقاب.

- أم أمرًا ثالثًا أكبر من ذلك وأعمق؟!

الحقيقة أننا إذا طالعنا سيرة المعصومين ﷺ؛ نجد أنفسنا مع نموذج ثالث
لأنواع العبادة، وخطّ أرفع، وفهم أعمق وأشمل لها، ولمقاصدها وغاياتها، ومعايشة
أصفى وأطهر لكيونيتها، وندرك من ذلك أن تعاملهم مع الله - جلّ وعلا - يرتقي إلى
مقام أسمى من الشكّلين الأولين: السطحي القشري، والمادي المصلحي.

هذا النموذج الثالث هو مقام النبيين والصديقين والأولياء والعارفين الذين
عرفوا الله حق معرفته، فراحوا يعبدونه بغرض أخلاقي معنوي، يترفع على عبادة
سطحية لا تفتح عينها إلا على إسقاط التكليف، ويتعالى على عبادة مصلحية لا تفتح
شهيتها إلا على النفع!!

غرض العبادة عند المعصومين ﷺ أخلاقي معنوي؛ قائم على أسس ودعائم
راسخة هي: أن الله - جلّ وعلا - أهل للعبادة، ويستحقّ العبادة، وأنّ عبادتهم له -
سبحانه - هي عبادة شكر، وعبادة حبّ، تبتغي قربه ورضوانه والزلفى لديه؛ لأنّ قرب
ورضاه غاية الغايات.

وفيما يلي سنفصّل هذا النموذج الثالث، وأسسهِ الراسخة ودعائمه المتينة
وملامحه الصافية:

١. عبادة الأهلية والاستحقاق:

المعصومون عليهم السلام يعبدون الله - جلّ وعلا -؛ لأنّه أهل للعبادة، ويستحقّ العبادة. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة؛ فعبدتك»^(١).

وقال الإمام السجّاد عليه السلام: «إنّي أكره أن أعبد الله، ولا غرض لي إلا ثوابه؛ فأكون كالعبد الطمع المطمع: إن طمع عمل، وإلا.. لم يعمل، وأكره أن (لا) أعبد إلا لخوف عقابه، فأكون كالعبد السوء: إن لم يخف لم يعمل. قيل: فلم تعبده؟، قال: لما هو أهله بأياديهِ عليّ وإنعامه»^(٢).

٢. عبادة الشكر:

وعبادة المعصومين عليهم السلام لله هي: عبادة شكر، شكر على نعمه السابغة التي لا تُعدّ: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٣).

لقد أجاب الرسول صلّى الله عليه وآله مَنْ سألَه: «يا رسول الله، لِمَ تُتَعَبُ نَفْسُكَ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟»، فقال: «ألا أكون عبداً شكوراً؟!»^(٤).

(١) بحار الأنوار ٦٧ / ١٩٧، باب (في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: نية المؤمن خير من عمله)، ذيل الحديث ٢.

(٢) بحار الأنوار ٦٧ / ٢١٠، باب (الخلود في الجنة والنار)، ح ٣٣، نقلاً عن (التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري).

(٣) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

(٤) الكافي ٢ / ١٠٠، الباب ٢٣٤ (باب الشكر)، ح ٦.

عن أبي بصير، عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وآله عند عائشة ليبتها، فقالت: يا رسول الله، لِمَ تُتَعَبُ نَفْسُكَ وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟»، فقال: يا عائشة، ألا أكون عبداً شكوراً؟!». [الكافي ٢ / ١٠١-١٠٢، الباب ٢٣٤ (باب الشكر)،

قال: وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجله، فأنزل الله - سبحانه وتعالى -: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. [الكافي ٢ / ١٠١-١٠٢، الباب ٢٣٤ (باب الشكر)،

وفي ختام الحديث السابق بين الإمام السجّاد عليه السلام وجابر بن عبد الله الأنصاري نقل الإمام السجّاد حديث الناس لرسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه «قيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟!»، فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً^(١).

وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ قومًا عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجّار، وإنّ قومًا عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد، وإنّ قومًا عبدوا الله شكرًا، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة»^(٢).

وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «لو لم يتوعّد الله على معصيته لكان يجب أن لا يُعصى؛ شكرًا للنعمه»^(٣).

- ح ٦، ووسائل الشيعة ٤ / ٦٩٥، الباب ٣ (باب جواز التوكؤ على إحدى الرجلين من طول القيام، وحكم القيام على أصابعهما، وعلى رجل واحدة)، ح ٢.
- وفي رواية أخرى عن بكر بن عبد الله: «أنّ عمر دخل على النبي صلى الله عليه وآله وهو موقوذ أو قال: محموم، فقال له: يا رسول الله، ما أشدّ وعكك أو حمّاك؟، فقال له: ما منعني ذلك أن قرأت الليلة: ثلاثين سورة، فيهنّ السبع الطول، فقال: يا رسول الله، غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر وأنت تجتهد هذا الاجتهاد؟!، فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً» [وسائل الشيعة ٤ / ٨٤٤، الباب ١١ (باب استحباب كثرة قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وعلى كلّ حال)، ح ١٩].
- (١) بحار الأنوار ٤٦ / ٦٠-٦١، الباب ٥ (مكارم أخلاق الإمام السجّاد وعلمه)، ح ١٨، وقد وردت هذه الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام في (بحار الأنوار) ٦٨ / ١٨٥-١٨٦، الباب ٦٤ (باب الاجتهاد والحث على العمل)، ح ٤٧.
- (٢) نهج البلاغة / ٥١٠، قصار الحكم، الحكمة ٢٣٧، ووسائل الشيعة ١ / ٤٥، الباب ٩ (باب ما يجوز قصده من غايات النية، وما يُستحب اختياره منها)، ح ٣، وبحار الأنوار ٤١ / ١٤، الباب ١٠١ (باب عبادة أمير المؤمنين وخوفه عليه السلام)، ح ٤.
- (٣) نهج البلاغة / ٥٢٧، قصار الحكم، الحكمة ٢٩٠، وغرر الحكم ودرر الكلم ٢ / ١٤٤، الحكمة ٢٦.

يتحدّث أمير المؤمنين عليه السلام في هذا النصّ عن لزوم اجتناب المعصية (الترك)؛ لا لأجل الخوف من النّار والعقاب (الوعيد)، وإنّما لأجل الدافع الأخلاقي المعنوي.

وفي نصّ آخر يتحدّث أمير المؤمنين عليه السلام عن لزوم طاعة الله (الفعل)؛ لا لأجل الرغبة في الجنّة والثواب (الوعد)، وإنّما لأجل الدافع الأخلاقي المعنوي، فيقول: «لو لم يرغب الله - سبحانه - في طاعته لوجب أن يُطاع؛ رجاء رحمته» [غرر الحكم ودرر الكلم ٢ / ١٤٤، الحكمة ٢٧].

٣. عبادة الحب:

والمعصومون عليه السلام يشقشق في قلوبهم الحب والعشق والوجد والوله والهيام بالله - سبحانه وتعالى -، ويعبدون الله عبادة حبٍّ وإلهٍ صافٍ، مترفع عن المصالح والمنافع حتى نيل الجنة والفرار من النار!!

وقد تضرّع الإمام الحسين عليه السلام بالدعاء إلى الله فقال: «وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجؤوا إلى غيرك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم، ماذا وجد مَنْ فقدك؟!، وما الذي فقد مَنْ وجدك؟!، لقد خاب مَنْ رضيَ دونك بدلاً، ولقد خسر مَنْ بغى عنك متحوّلاً، كيف يُرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟!، وكيف يُطلب مِنْ غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟!، يا مَنْ أذاق أحبّاءه حلاوة المؤانسة؛ فقاموا بين يديه متملّقين، ويا مَنْ ألبس أوليائه ملابس هيئته؛ فقاموا بين يديه مستغفرين، أنت الذاكر قبل الذاكرين»^(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله - عزّ وجلّ - خوفاً، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله - تبارك وتعالى - طلب الثواب، فتلك عبادة الأجرء، وقوم عبدوا الله - عزّ وجلّ - حبّاً له، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة»^(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام في رواية أخرى: «إنّ الناس يعبدون الله - عزّ وجلّ - على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه، فتلك عبادة الحرّصاء، وهو الطمع. وآخرون يعبدونه خوفاً من النار، فتلك عبادة العبيد، وهي رهبة. ولكني أعبدّه حبّاً له - عزّ وجلّ -، فتلك عبادة الكرام، وهو الأمن؛ لقوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ

(١) بحار الأنوار ٩٥ / ٢٢٦، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)، ح ٣ (دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام).

(٢) الكافي ٢ / ٨٤ (باب النية)، ح ٥.

يَوْمَئِذٍ أَمْنُونَ ﴿١﴾، ولقوله - عز وجل -: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ﴿٢﴾، فَمَنْ أَحَبَّ اللَّهَ - عز وجل - أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ تَعَالَى كَانَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣﴾.

فعبادة المعصومين عليه السلام لله هي عبادة العشق الإلهي الواله، والوجد الملتهب الأسر، والهيام الموصول الذي لا يفتر!!

٤- عبادة القرب والرضوان:

والمعصومون عليه السلام يعبدون الله؛ رغبة في نيل أسمى مراتب القرب من الله، وذروة درجات الرضوان..

- يقول الله تعالى:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ﴿٤﴾.

فالصلاة مشرعة للنهي عن الفحشاء والمنكر، وهو غرض سام ومقصد نبيل، ولكن الغرض الأسمى منه والأرفع هو (ذكر الله)، والأنس بالحديث معه: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

- ويقول تعالى: ﴿قُلْ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٥﴾.

(١) سورة النمل، الآية ٨٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٣) علل الشرائع ١ / ١٢، الباب ٩ (علة خلق الخلق واختلاف أحوالهم)، ح ٨، و الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (الصدوق)، الخصال ٢ / ٨٨، باب (صَمْنِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ أَضَافَهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ)، ح ٢٥٩، ووسائل الشيعة ١ / ٤٦، الباب ٩ (باب ما يجوز قصده من غايات النية، وما يُستحب اختياره منها)، ح ٢.

(٤) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٥.

فالتقوى توصل إلى الجنان الخالدات والنعيم الباذخ المقيم، والأزواج المطهرة، ولكن لها غرضاً أرفع من الجنان بكل ما تحويه، وهو نيل رضوان الله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾. - ويقول تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

فالإحسان يسمو بالإنسان للجنان والحسنى، ولكن هناك أمراً آخر يزيد قيمة ويعلو قدراً على نعيم الجنة المادي، ويتفوق عليه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وهو رضا الله، والقرب منه.

والمعصومون الكرام عليهم السلام يعبدون الله بعيداً عن معادلة (الثواب والعقاب)، فهم يعبدونه عبادة الأحرار، لا عبادة التجار، ولا عبادة العبيد، أولئك يعبدونه طمعاً في ثوابه، وهؤلاء يعبدونه خوفاً من عقابه، أما العارفون فيعبدونه طمعاً في التزلف ومزيد القرب، وطلباً للوصول إلى رضوانه، تلك المقامات الشامخة والرتب العالية التي لا ينالها إلا المملأ الأعلى والخُلص:

أ- يقول النبي الأكرم صلی الله علیه وآله لأمر المؤمنين علي عليه السلام: «يا علي، إذا توضأت فقل: (بسم الله، اللهم إني أسألك تمام الوضوء، وتمام الصلاة، وتمام رضوانك، وتمام مغفرتك)؛ فهذا زكاة الوضوء»^(٢).

وقد رقى النبي الأكرم محمد صلی الله علیه وآله في القرب والرضوان أعلى مرتبة بلغها مخلوق على الإطلاق، مرتبة لم يُسمح لأمين الله على وحيه: جبريل الأمين عليه السلام بالوصول إليها في ليلة المعراج، في حين تقدّم النبي الأعظم صلی الله علیه وآله وحده قاطعاً تلك المقامات!! في رحلة المعراج وقف جبريل الأمين في موضع لم يتجاوزه، بل.. ولا يستطيع تتجاوزه، وقال للنبي محمد صلی الله علیه وآله: «تقدّم يا رسول الله، ليس لي أن أجوز هذا المكان،

(١) سورة يونس، الآية ٢٦.

(٢) مستدرک الوسائل ١ / ٣٢٢، الباب ٢٤ (باب تأکد استحباب التسمية والدعاء بالمأثور عند الوضوء، والتسمية عند الأكل والشرب واللبس وكل فعل)، ح ١٠.

ولو دنوتُ أنملة لا حترقتُ»^(١)، لكنَّ النبي ﷺ اجتازه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٢).

وقد جاء في (دعاء النذبة): «يا ابن مَنْ دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، دنواً واقترباً من العليِّ الأعلى»^(٣).

هذا الدنوُّ والقُرب هو القُرب المعنوي الذي يُبعد الإنسان عن حُجُب الظلام والمادة، بل وحُجُب النور؛ ليصل إلى معدن العظمة، كما لهج مولانا أمير المؤمنين ﷺ في مناجاته الشعبانية: «إلهي، هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حُجُب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقةً بعزِّ قدسك»^(٤).

يقول الرسول الأكرم ﷺ: «فلما انتهيتُ إلى حُجُب النور قال لي جبرئيل: تقدّم يا محمد - وتخلّف عني -، فقلتُ: يا جبرئيل، في هذا الموضع تفارقتني؟!، فقال: يا محمد، إنّ انتهاء حدِّي الذي وضعني الله - عزّ وجلّ - فيه إلى هذا المكان، فإن تجاوزته احترقت أجنتحتي بتعدي حدود ربّي - جلّ جلاله -، فرجّ بي في النور زجّة حتى انتهيتُ إلى حيث ما شاء الله من علوّ ملكه»^(٥).

(١) مناقب آل أبي طالب ١ / ١٥٥ (فصل في معراج)، وفي بحار الأنوار ١٨ / ٣٨٢، الباب ٣ (باب إثبات المعراج، ومعناه، وكيفيته، وصفته، وما جرى فيه، ووصف البراق)، ذيل الحديث ٨٦: «فلما بلغ إلى سدرة المنتهى، فانتهى إلى الحُجُب، فقال جبرئيل: تقدّم - يا رسول الله -، ليس لي أن أجوز هذا المكان، ولو دنوتُ أنملة لا حترقتُ».

(٢) سورة النجم، الآية ٨-٩.

(٣) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٨، الباب ٧ (باب زيارة الحُجّة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)، ذيل الحديث ١، (دعاء النذبة).

(٤) بحار الأنوار ٩١ / ٩٩، باب (مناجاة مولانا علي ﷺ والأئمة ﷺ في شهر شعبان)، ومفاتيح الجنان ١٨٧ (المناجاة الشعبانية لأمر المؤمنين ﷺ).

(٥) علل الشرائع ١ / ١٧، الباب ٧ (باب العلة التي من أجلها صارت الأنبياء والرسل والحجج - صلوات الله عليهم - أفضل من الملائكة)، ح ١.

فالنبي ﷺ وصل في شخصيته، وفي سمّوه، وفي قربه من الله إلى المكان الذي لا يستطيع جبرائيل الأمين - وهو الملك العظيم المقرب - الوصول إليه، ولا يستطيع تخطيه، فالمسألة ليست مادية فحسب، إنها قرب معنوي.

ب- ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي، إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك»^(١).

ج- وتقول الصديقة الكبرى، سيّدة نساء العالمين، السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام: «اللهم إني أسألك قول التّوابين وعملهم، ونجاة المجاهدين وثوابهم، وتصديق المؤمنين وتوكلهم، والراحة عند الموت، والأمن عند الحساب، واجعل الموت خير غائب أنتظره، وخير مطلع يطلع عليّ، وارزقني عند حضور الموت، وعند نزوله وفي غمراته، وحين تنزل النفس من بين التراقي، وحين تبلغ الحلقوم، وفي حال خروجي من الدنيا، وتلك الساعة التي لا أملك لنفسي فيها ضرّاً ولا نفعاً، ولا شدّة ولا رخاء، رَوْحاً من رحمتك من رضوانك»^(٢).

د- ويقول الإمام السجّاد عليه السلام: «اللهم صلّ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ، وادْرأ عني بِلُطْفِكَ، واغْذِني بِنِعْمَتِكَ، وَأَصْلِحْني بِكَرَمِكَ، ودَاوِني بِصُنْعِكَ، وَأَظِلْني فِي ذَرَاكَ، وَجَلِّلْني رِضَاكَ....، وَسَهِّلْ لي بُلُوغَ رِضَاكَ سُبُلِي»^(٣).

ويقول عليه السلام في (مناجاة المحبّين): «اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلّقة بمحبّتك، وأفئدتهم منخلعة

(١) الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (الصدوق)، الأمالي / ١٣٧، المجلس الثامن عشر، ح ١٣٦، (حديث أبي الدرداء في حقّ علي عليه السلام).

(٢) بحار الأنوار / ٨٣ / ٦٦، باب (الدعاء للمهمات عقيب صلاة الظهر، والدعاء للمهدي - عجل الله تعالى فرجه -)، ح ٤.

(٣) الصحيفة السجّادية / ١٠٠، الدعاء ٢٠ (وكان من دعائه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال).

من مهابتك، يا مَنْ أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسُبُحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة، يا مَنْى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين، أسألك حبك وحب مَنْ يحبك وحبَّ كلِّ عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحبَّ إليَّ مما سواك، وأن تجعل حبي إياك قائداً إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك، وامنن بالنظر إليك عليّ، وانظر بعين الودِّ والعطف إليّ، ولا تصرف عني وجهك، واجعلني من أهل الإسعاد والحظوة عندك، يا مجيب، يا أرحم الراحمين»^(١).

هـ- ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «أسألك اللهم الرفاهية في معيشتي ما أبقيتني، معيشة أقوى بها على طاعتك، وأبلغ بها رضوانك، وأصير بها إلى دار الحيوان غداً»^(٢).

و- ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «أصبحتُ على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وملة إبراهيم ودين محمد، على ذلك أحيأ وأموت إن شاء الله، اللهم أحيني ما أحيتني به، وأمتني إذا أمتني على ذلك، وابعثني إذا بعثتني على ذلك، أبتغي بذلك رضوانك»^(٣).

ز- ويقول الإمام الكاظم عليه السلام: «وأحبني بمحبتك، وبلغني رضوانك وشريف كرامتك وجزيل عطائك: من خير ما عندك، ومن خير ما أنت معطٍ أحداً من خلقك»^(٤).

نعم.. هكذا كان أهل البيت عليهم السلام يجهدون أنفسهم في العبادة والتوجه إلى الله - سبحانه وتعالى -؛ لينالوا بذلك رضوان الله، ويبلغوا درجات المقربين ومراتب المخلصين.

وإذا كانت الصلاة (معراج المؤمن) و(قربان كلِّ تقي) فهي حُرية أن توصل الإنسان إلى أعلى مراتب الرضوان والقرب.

(١) بحار الأنوار ٩١ / ١٤٨، (المناجاة الخمس عشرة له عليه السلام، المناجاة التاسعة (مناجاة المحبين)).

(٢) الكافي ٢ / ٥٨٨، (باب دعوات موجزات لجميع الحوائج)، ح ٢٥.

(٣) الكافي ٢ / ٥٢٩، (باب القول عند الإصباح والإساءة)، ح ٢١.

(٤) الكافي ٤ / ٧٣، (باب ما يُقال في مستقبل شهر رمضان)، ح ٣.

الخلاصة:

وهكذا.. نشهد واضحاً في لسان الروايات السابقة للمعصومين عليه السلام أن هناك ثلاثة أنواع للعبادة:

الأول: عبادة التجار:

ومنطلقها: الرغبة والحرص والطمع، وغايتها: نيل الثواب والجنة.

الثاني: عبادة العبيد:

ومنطلقها: الخوف والرغبة، وغايتها: النجاة من العذاب والنار.

الثالث: عبادة الأحرار:

ومنطلقها: الأهلية والاستحقاق من الله، والشكر والحب من العبد، وغايتها: القرب والرضوان.

لماذا الحديث عن حضور القلب؟

ما هي آثار حضور القلب؟

لحضور القلب آثار هامة، وأهمية بالغة، نقتنص منها الآتي:

١- توقف الأعمال عليه:

عندما نسبر الروايات الشريفة المباركة في موضوع الصلاة نجدها تشكل سلسلة نوراء ذات حلقات متماسكة نستطيع تلخيصها في الآتي:

أ- الصلاة عمود الدين:

تحدثنا الروايات الشريفة أنّ أهم ركن في بناء الدين هو الصلاة، وأنّه العمود الذي تستقيم به خيمته:

يقول الرسول الأكرم ﷺ: «الصلاة عمود الدين»^(١).

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «الصلاة عمود الدين، مثلها كمثّل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب»^(٢).

(١) مستدرک الوسائل ٧ / ١٦٢، الباب ١ (باب تأكد استحباب الصدقة مع كثرة المال وقلته، ومع الدين)، ح ٣٩.

(٢) وسائل الشيعة ٣ / ١٧-١٨، الباب ٦ (باب تحريم الاستخفاف بالصلاة والتهاون بها)، ح ١٢.

ب- قبول الأعمال منوط بقبول الصلاة:

تخبرنا الروايات الشريفة أنّ قبول أعمال العباد منوط بقبول الصلاة، بمعنى أنّ أول ما يُنظر فيه من عمل العبد هو صلاته، فـ (إن قُبِلَ قَبْلَ ما سواها، وإن رُدَّتْ رُدَّ ما سواها).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أول ما يُحاسب به العبد الصلاة، فإن قُبِلَ قَبْلَ سائر عمله، وإن رُدَّتْ رُدَّ عليه سائر عمله»^(١).

ويقول الإمام الرضا عليه السلام: «أول ما يُحاسب العبد عليه الصلاة، فإن صحَّتْ له الصلاة؛ صحَّ له ما سواها، وإن رُدَّتْ رُدَّ ما سواها»^(٢).

ج- لا يقبل الله صلاة لم يحضرها القلب:

تعلّمنا الروايات الشريفة أنّ الله لا يقبل صلاةً لا حضور للقلب فيها، ولا إقبال فيها.

يقول النبي صلّى الله عليه وآله: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ أَمْرٍ لَا يَحْضُرُ فِيهَا قَلْبُهُ»^(٣).

وعنه صلّى الله عليه وآله: «وَأَيْنَمَا لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ مَا أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ بِقَلْبِكَ»^(٤).

وعنه صلّى الله عليه وآله: «إِنَّ الرَّجُلَيْنِ مِنْ أُمَّتِي يَقُومَانِ فِي الصَّلَاةِ، وَرَكَعُهُمَا وَسُجُودُهُمَا وَاحِدٌ، وَإِنْ مَا بَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا مِثْلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٥).

-
- (١) وسائل الشيعة ٣/ ٢٢، الباب ٨ (باب وجوب إتمام الصلاة وإقامتها)، ح ١٠.
- (٢) مستدرک الوسائل ٣/ ٢٥، الباب ٦ (باب تحريم الاستخفاف بالصلاة والتهاون بها)، ح ٤.
- (٣) مستدرک الوسائل ٣/ ٥٩، الباب ١٦ (باب تأكد استحباب المداومة على النوافل، والإقبال بالقلب على الصلاة)، ح ١٣.
- (٤) بحار الأنوار ٨١/ ٢٦٠، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٥٩، ومستدرک الوسائل ٣/ ٥٩، الباب ١٦ (باب تأكد استحباب المداومة على النوافل، والإقبال بالقلب على الصلاة)، ح ١٠.
- (٥) عواليء اللآلئ ١/ ٣٢٢، المسلك الأول، ح ٥٧، وبحار الأنوار ٨١/ ٢٤٩، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٤١، ومستدرک الوسائل ٤/ ٩٨، الباب ٢ (باب تأكد استحباب الخشوع في الصلاة، واستحضار عظمة الله، واستشعار هيئته، وأن يصلي صلاة مودّع)، ح ١٣.

وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الصَّلَاةِ لَمَا يُقْبَلُ نِصْفُهَا وَثُلُثُهَا وَرُبُعُهَا وَخُمْسُهَا إِلَى الْعُشْرِ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يُلْفُ كَمَا يُلْفُ الثُّوبُ الْخَلِيقُ، فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا، وَإِنَّمَا لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ مَا أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ بِقَلْبِكَ»^(١).

وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي لَا يَكْتَبُ لَهُ سُدُسُهَا وَلَا عُشْرُهَا، وَإِنَّمَا يَكْتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا»^(٢).

ويقول أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَام في حديث الأربع مئة: «لَا يَقَوْمَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ مُتَكَاسِلًا، وَلَا نَاعِسًا، وَلَا يُفَكِّرَنَّ فِي نَفْسِهِ؛ فَإِنَّهُ بَيْنَ يَدَيِّ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَإِنَّمَا لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مِنْهَا بِقَلْبِهِ»^(٣).

وعن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَام: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُرْفَعُ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ نِصْفُهَا أَوْ ثُلُثُهَا أَوْ رُبُعُهَا أَوْ خُمْسُهَا، فَمَا يُرْفَعُ لَهُ إِلَّا مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ، وَإِنَّمَا أَمْرُنَا بِالْإِنْفَالَةِ؛ لِيَتِمَّ لَهُمْ بِهَا مَا نَقْصُوا مِنَ الْفَرِيضَةِ»^(٤).

فالذي يُقْبَلُ مِنَ الصَّلَاةِ هو ما حضره القلب، وما أقبل فيه الإنسان بقلبه، ووعاه بعقله، إن حصل ذلك في الصلاة كاملة كانت بأكملها مقبولة، وإن حصل في جزء منها - كالنصف أو الثلث أو الربع أو غير ذلك - فهو وحده المقبول منها، والباقي جهد ضائع وهباء فارغ لا ثمرة منه؛ لأنَّ الله إنَّما يقبل من هذه الأجزاء ما حضره القلب فحسب.

(١) بحار الأنوار ٨١ / ٢٦٠، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٥٩، ومستدرک الوسائل ٣ / ٥٩، الباب ١٦ (باب تأكد استحباب المداومة على النوافل، والإقبال بالقلب على الصلاة)، ح ١٠.
(٢) مستدرک الوسائل ٣ / ٥٧، الباب ١٦ (باب تأكد استحباب المداومة على النوافل، والإقبال بالقلب على الصلاة)، ح ٦.

(٣) الخصال ٢ / ١٤٣، ووسائل الشيعة ٤ / ٦٨٧، الباب ٨ (باب تأكد استحباب الإقبال بالقلب على الصلاة، وتدبر معاني القراءة والأذكار)، ح ٤.

(٤) الكافي ٣ / ٤٣٦ (باب ما يُقْبَلُ من صلاة الساهي)، ح ٢، وعلل الشرائع ٢ / ٢٣، الباب ٢٤ (باب العلة التي من أجلها وُضِعَتِ النوافل)، ح ٢، ووسائل الشيعة ٣ / ٥٢، الباب ١٧ (باب تأكد استحباب المداومة على النوافل، والإقبال بالقلب على الصلاة)، ح ٣.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لا تَجْتَمِعُ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ فِي قَلْبٍ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، فَإِذَا صَلَّيْتَ فَأَقْبِلْ بِقَلْبِكَ عَلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فَإِنَّهُ لَيَسَّ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يُقْبَلُ بِقَلْبِهِ عَلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي صَلَاتِهِ وَدُعَائِهِ إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، وَأَيَّدَهُ - مَعَ مَوَدَّتِهِمْ إِيَّاهُ - بِالْجَنَّةِ»^(١).

وعن أبي حمزة الثمالي قال: «رَأَيْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليهما السلام يُصَلِّي، فَسَقَطَ رِذَاهُ عَنْ مَنْكِحِيهِ. قَالَ: فَلَمْ يُسَوِّهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ. قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ عليه السلام: وَيَحْكُ، أَتَدْرِي بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ كُنْتُ؟!، إِنَّ الْعَبْدَ لَا تُقْبَلُ مِنْهُ صَلَاةٌ إِلَّا مَا أَقْبَلَ مِنْهَا. فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، هَلَكْنَا....»^(٢).

وعن الإمامين أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام أَنَّهُمَا قَالَا: «إِنَّمَا لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ مَا أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ مِنْهَا، فَإِنْ أَوْهَمَهَا كُلَّهَا، أَوْ غَفَلَ عَنْ أَدَائِهَا؛ لُفَّتْ فَضْرِبَ بِهَا وَجْهَ صَاحِبِهَا»^(٣).

هذه المجموعة من الروايات تؤكد هذا المعنى العبادي الهام وهو: أن المطلوب من الإنسان حين صلاته أن يكون حاضر القلب، حاضر النفس، حاضر العقل، حاضر الوعي، متوجّهاً بين يدي مَنْ هو واقف، وَمَنْ يخاطب.

النتيجة:

فإذا.. أعمال العبد متوقفة على الصلاة، والصلاة في قبولها متوقفة على حضور

(١) مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ١ / ١٥٠، (باب فضل الصلاة)، ح ٦٣٢، ووسائل الشيعة ٤ / ٦٨٧، الباب ٣ (باب تأكد استحباب الإقبال بالقلب على الصلاة، وتدبر معاني القراءة والأذكار)، ح ١.
(٢) تهذيب الأحكام ٢ / ٣٤١، الباب ١٦ (باب أحكام السهو)، ح ٣، ووسائل الشيعة ٤ / ٧٨٨، الباب ٣ (باب تأكد استحباب الإقبال بالقلب على الصلاة، وتدبر معاني القراءة والأذكار)، ح ٦.
(٣) الكافي ٣ / ٣٦٣، (باب ما يُقْبَلُ مِنْ صَلَاةِ السَّاهِي)، ح ٤، وتهذيب الأحكام ٢ / ٢٩٩، الباب ١٦ (باب أحكام السهو)، ح ٤، وبحار الأنوار ٨١ / ٢٦٠، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٥٩.

القلب؛ لأنّه الأمر الذي على أساسه تُقبَل أعمال العباد، وإذا حذفنا الواسطة فإنّ النتيجة ستكون: كلّ أعمال الإنسان منوطة بحضور قلبه في صلاته؛ وبهذا نصل إلى أنّ مركز دائرة قبول الأعمال هو حضور القلب.

صعوبة إحضار القلب في الصلاة:

لذا كان حضور القلب في الصلاة ثاني أهمّ ما يجب أن يلتفت إليه الإنسان، وينبغي أن لا نظنّه أمرًا هيئًا، فهناك عبّاد وزهّاد قضوا سنواتٍ طويلاً يجاهدون أنفسهم حتى يصلوا إلى القدرة على حضور هذا القلب، وعدم تشبّثه وتبعثره، والبعض منهم وصل، والبعض الآخر عجز، إنّهُ ليس أمرًا سهلاً حتى يبلغه جميع الناس!!

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يُبسط له نطع بين الصفين ليلة الهيرير، فيصلّي ورده، والسهم تقع بين يديه، وتمرّ على صماخيه: يميناً وشمالاً، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته»^(١).

تمرّ السهم على أذنيه يميناً وشمالاً، فلا يعبأ بها، وليس لا يعبأ بها فقط، وإنّما لا يدري عنها، أليس النصل الذي انتصب في رجله فلم يمكن إخراجها؛ قد أُخرج منها وهو يصلّي، فلم يحسّ أصلاً؟!^(٢)؛ لأنّه انقطع عن هذا العالم، وراح إلى عالم آخر استغرق فيه بكلّه.

وقد شهدنا بعض أساتذتنا - رضوان الله عليه - كان إذا صلّى، وشك في إقبال صلاته أعادها المرة والثانية والثالثة، وفي بعض الأوقات كان يمرّ عليه وقت الفريضة كاملاً وهو في الإعادات حتى يحصّل صلاة بإقبال، كان لا يرضى بصلاة دون حضور القلب، ويقول: ما هذه؟!، إنّها صلاة غير مقبولة.

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة ١ / ٢٧.

(٢) جامع السعادات ٣ / ٣٢٨.

الصلاة التي فيها ذهولٌ لبٍّ وتشتُّ فكرٌ، وفيها ذكرٌ لكلِّ شيءٍ إلا الله، وإن كان يجري على اللسان فيها: (سبحان الله، والحمد لله)، لكنّه مجرد لقلقة لسان، ذكرٌ يجري على اللسان فحسب، وليس في القلب، ليس في النفس، ليس في الضمير، ليس في الوجدان.. هي صلاة ليس لها فائدة!!

صحيح أن هذه الصلاة - فقهيًا - صحيحة مجزية لا يجب إعادتها أداء ولا قضاء، لكن عند الله - سبحانه - هذه الصلاة غير مقبولة؛ ولذا قدّمنا الحديث: «مَنْ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، وَلَمْ يُحَدِّثْ فِيهِمَا نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا؛ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ».

يا لله!!، يا لصعوبة هذا الفعل!!، هل هناك شخص يستطيع أن يصلي ركعتين هكذا؟!، ركعتان فقط لا غير!!، إنّه تحدّ كبير نستطيع أن نخوض ميدانه وغماره؛ لنرى مدى صعوبته أو بساطته، ومدى القدرة التي نتحلى بها في القيام به وفعله!!

أحد مراجعنا وهو في التسعين من عمره - رضي الله عنه - يقول: أنا أتمنى أن يكون عندي ركعتان أقابل بهما الله تعالى، وأقول له: هاتان ركعتان خالصتان لوجهك الكريم، ولكنّ ذاك غير موجود!!

صلاتك ليست لك!!

إذا كان المصلّي مخلصًا لله متقرّبًا إليه وحده، حاضر القلب، متفهّمًا لما يقول، معظّمًا لله، خائفًا خاشعًا خاضعًا، راجيًا، مستحيًا؛ قبلت هذه الصلاة، وبالتالي قبلت بقية الأعمال، وإن كان عكس ذلك - فكما ورد في الحديث -: «وإنّ منها لما يُلفّ كما يُلفّ الثوبُ الخلقُ، فيُضرب بها وجه صاحبها!!»^(١).

ومن هنا ندرك أنّ هذا الإنسان يمكن أن يصلي ستين سنة أو سبعين سنة، ويعمل الخيرات والصالحات، ثمّ يجيء يوم القيامة فيُقال له: صلاتك ليست لك، لم يكن

(١) بحار الأنوار ٨١ / ٢٦٠، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٥٩، ومستدرّك الوسائل ٣ / ٥٩، الباب ١٦ (باب تأكّد استحباب المداومة على النوافل، والإقبال بالقلب على الصلاة)، ح ١٠.

فيها إخلاص وتقرب، لم يكن فيها حضور للقلب، لم يكن فيها تعقل وتفهم لما يُقال، لم يكن فيها تعظيم لله، ولا خوف منه ولا خشوع وخضوع له، لم يكن فيها رجاء، لم يكن فيها استحياء، وهي غير مقبولة!!، فيقول: وباقي أعمالي؟!، فيُقال له: «الصلاة إن رُدَّت رُدَّ ما سواها»، ليس لدينا شغل مع باقي الأعمال، لقد ضاعت بضائع الصلاة!!، إن الأعمال خيمة لا تقوم من دون أن تتكى على العمود، وحين هوى العمود هوت الخيمة على وجهها!!

٢. حصول الأثر من العبادة:

ليس هناك عبادة من العبادات إلا وقد وضعها الله - سبحانه وتعالى - لغاية تُحقِّقها ومقصد تنجزه في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهي تعود بالنفع على الإنسان نفسه، لا على الله؛ فالله - سبحانه - هو الغني المطلق الذي لا يحتاج إلى عباده، ولا إلى أعمالهم.

فتشريع الصلاة، وتشريع الصوم، وتشريع الحج، وتشريع الزكاة، وغير ذلك من العبادات.. نفعه عائد على العبد؛ حتى تكمل صورة العبد، ويرقى إلى مقام العبودية الحقة، ويرتقي مدارج الكمال؛ وبالتالي يحظى بشرف القرب والرضوان والخلد: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾^(١)، كل هذه الأعمال جاءت حتى تجعل هذا الإنسان قابلاً لأن يكون في بحبوحة جنة الله، وذاك ليس مسألة مادية فقط، فهناك رضا الله والقرب من الله الذي هو أسمى وأكبر من النعيم المادي للجنة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

(الرضوان) أكبر من ماذا؟!

(١) سورة القمر، الآية ٥٤-٥٥.

(٢) سورة التوبة، الآية ٧٢.

إنَّه أكبر من كلِّ نعيم الجنَّة المادي على عظمتِه وسعته ولا محدوديته وديموميته، مع أنَّ الجنَّة باذخة النعيم، وتتحدَّى أوسع دائرة عند الإنسان وهي الخيال: «وفيهما ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١).

فالله الكريم يقدِّم للإنسان مجموعة من الأعمال، ومجموعة من التكاليف، ومجموعة من التشريعات؛ حتى يرتقي الإنسان بنفسه إلى مقام القُرب، إلى مقام الرِّضوان، إلى مقام الكروبيين^(٢)، إلى ذرى الرفعة والعلوِّ، إلى ذلك المقام الفذِّ البهيِّ الذي لم يستطع جبرائيل الأمين بلوغه مع ما له من عظمة سامقة، وقرب عظيم من الباري - جلَّ وعلا -.

أمثالنا حين يتضرَّعون إلى الله، فعندهم مجموعة ذنوب يطلبون من الله أن يغفرها لهم، ويرجون أن يحطَّ عنهم النَّار والعذاب، ويرزقهم الجنَّة والثواب، فهي

(١) بحار الأنوار ٨١ / ١٢٥، الباب ١٣ (باب الأذان والإقامة، وفضلهما، وتفسيرهما)، ح ٢١.
(٢) الكروبيون:

هم سادة الملائكة والمقربون منهم، وهم أقرب الملائكة إلى حَمَلَةِ العرش، ورأسهم وسيدهم جبرئيل الأمين عليه السلام، واسمهم مشتق من الكلمة العربية (كُرب) بمعنى: (اقترَب)، أو من الكلمة العبرانية (كريم). ويُقصد من (مقام الكروبيين): مقام سادة الملائكة المقربين. [مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط ١ / ١٢٣، مادة (كُرب)، ومحمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ابن منظور)، لسان العرب ١ / ٧١١، (باب الكاف)، مادة (كُرب)، والشيخ فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين ١ / ٤٦١، (باب ما أوله الواو)، وبحار الأنوار ٣ / ٢٢٤، الباب ٧ (نزل التوراة، وسؤال الرؤية، وعبادة العجل، وما يتعلَّق بها)، ح ١٨، الحاشية ٢، وبحار الأنوار ٨٧ / ١٠٩، باب (دعاء السَّمات) وأسانيدها، وما روي عن الباقر والصادق عليهما السلام].

وورد في (دعاء السَّمات): «وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِمَجْدِكَ الَّذِي كَلَّمْتَ بِهِ عَبْدَكَ وَرَسُولَكَ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْمُقَدَّسِينَ فَوْقَ إِحْسَاسٍ [أَحْسَاسٍ] الْكُرُوبِيِّينَ [الْكُرُوبِيِّينَ]، فَوْقَ غَمَائِمِ الثُّورِ، فَوْقَ تَابُوتِ الشَّهَادَةِ: فِي عَمُودِ النَّارِ، وَفِي طُورِ سَيْنَاءَ وَ...».

[مصباح المتهجد / ٤١٧، (دعاء السَّمات)، وبحار الأنوار ٨٧ / ١٠٩، باب (دعاء السَّمات) وأسانيدها، وما روي عن الباقر والصادق عليهما السلام، ومفاتيح الجنان / ١٤٠، (دعاء السَّمات)].

عبادة مصلحية بحتة!!، وهناك آخرون، ومنهم النبي الأكرم محمد وآله الكرام - عليهم جميعاً أتمّ الصلوات وأفضل التسليم - عندهم مقامات سامية ومراتب عالية ودرجات رفيعة يريدون الوصول إليها، فالقضية لديهم ليست قضية ذنب يُغفر، وليست قضية نار وجنة، وعقاب وثواب، وإنما هي قضية مقامات شامخة يريدون تحقيقها وبلوغها، وقرب ورضوان يرجون التقلّب في بحبوخته الكبرى ولذته العظمى.

إنّ هذا العمل المخلص بالتكليف الإلهي، وهذه العبادة المضنية الشاقّة، الخالصة الصافية المترفعة عن مآرب المنافع والمصالح المادية، والثواب والعقاب، هي التي أوصلت النبي الأكرم محمدًا ﷺ في رحلة المعراج إلى مقام قاب قوسين أو أدنى، وستوصله في الآخرة إلى الدرجة العالية الرفيعة المخصّصة له (الوسيلة) التي يغبطه عليها جميع الأنبياء والمرسلين، والتي تمثّل أعلى درجة في الجنة، وأعلى سنام سيرتقي شأوه أحد: أعمّ من كونه بشراً أو ملكاً أو غير ذلك..

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ يقول: إذا سألتم الله فاسألوا لي (الوسيلة)، فسألنا النبي ﷺ عن (الوسيلة)، فقال: هذه درجتي في الجنة»^(١).

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة، فسلوا الله أن يؤتيها على الخلق يوم القيامة»^(٢).

وبلوغ المقامات العالية والدرجات الرفيعة كالقرب والرضوان ينبغي أن يكون محطّ آمالنا ومطمح أفعالنا، وهناك أمور كثيرة تتضافر وتتواشج لتأخذ بيد الإنسان إلى هذه المقامات العالية والمنازل السامية، ومنها: الصلاة والصوم والحجّ والزكاة والصدقة والدعاء و....، من العبادات والطاعات والقربات، فكلّ هذه الأعمال

(١) بحار الأنوار ٧ / ٣٢٦، الباب ١٧ (باب الوسيلة، وما يظهر من منزلة النبي وأهل بيته عليهم السلام)، ح ٢.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣ / ٨٣، (مسند أبي سعيد الخدري)، ح ١٨٠٠، وكنز العمال ٧ / ١١٩٨، (باب الإكمال)، ح ٢٠٩٨٤، وكذلك: ٤ / ٤٦٨، (باب الشفاعة)، ح ٣٩٠٧١.

الصالحة موصلة:

- فالصلاة جاءت؛ لنتهى عن الفحشاء والمنكر وكل المعاصي والآثام: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١).

- والصوم جاء؛ لكي يحقق التقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢).

- والحج له مجموعة من الغايات، منها: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾^(٣).

- والزكاة والصدقة تطهر القلب والنفس من دنس المال والافتتان به، وتفك أسرهم من شرنقة الطمع والأنانية والحرص والبخل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٤).

- والدعاء مُنَحَ للإنسان؛ ليعطيه الله سؤاله، ويجيب مراده، ويحقق مبتغاه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(٥)، ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٦).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ أُعْطِيَ الدَّعَاءَ لَمْ يُحَرَمِ الْإِجَابَةُ»^(٧).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام لميسر بن عبد العزيز: «يا ميسر، ادْعُ، وَلَا تَقُلْ: (إِنَّ

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

(٣) سورة الحج، الآية ٢٧.

(٤) سورة التوبة، الآية ١٠٣.

(٥) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

(٦) سورة غافر، الآية ٦٠.

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم ٢ / ١٧٥، الحكمة ٤٩٨.

الأمر قد فرغ منه!!)، إنَّ عند الله - عزَّ وجلَّ - منزلة لا تُنال إلا بمسألة، ولو أنَّ عبدًا سدَّ فاه ولم يسأل لم يُعط شيئًا، فسل تُعط. يا ميسر، إنَّه ليس من باب يُقرع إلا يوشك أن يُفتح لصاحبه»^(١).

إذًا...، العنصر الآخر في موضوع حضور القلب والذي يجعل من حضور القلب أمرًا مهمًا هو أنَّ الآثار والغايات المترتبة على الأفعال العبادية منوطة بحضور القلب؛ لأنَّه هو الذي يميِّز هذا الانحناء: هل هو خضوع لله أم تقوُّس ظهر؟!، وهو الذي يميِّز هذا الوضع للجبهة على الأرض هل هو ثناء على الباري - جلَّ وعلا -، أم هو مجرد مسَّ للتراب. الذي يميز ذلك هو حضور هذا القلب.

وإذا عدنا بالحديث إلى النمط الأوسط في أداء التكليف والواجب^(٢)؛ بحثًا عن الغاية التي من أجلها شُرِع هذا الواجب نجد أنَّ الصلاة ذات آثار عظيمة في حياة الإنسان؛ ذلك أنَّها بتعبير القرآن: ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٣)، وتنمي في نفس الإنسان ملكة التقوى، وتحضه على الورع، ولكنَّ هذا يتوقف على (أدائنا) للصلاة و(إقامتها)، وليس على مجرد فعلها، يقول الله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٤)، و﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٥)، والآيتان تحرصان على إقامة الصلاة، وتركزان على جملة ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾؛ لأنَّ المطلوب هو (إقامة الصلاة)، وهو شيء آخر غير الفعل في

(١) الكافي ٢ / ٤٦٦، (باب فضل الدعاء، والحثُّ عليه)، ح ٣.

(٢) أي (الأداء المادي المصلحي؛ لنيل الثواب، واجتناب العقاب)، فقد تقدَّم أن ذكر أستاذنا الشيخ الشيب - رضوان الله عليه - ثلاثة أنماط لأداء العبادة، هي:

١- الأداء السطحي القشري؛ لإسقاط التكليف.

٢- الأداء المادي المصلحي؛ لنيل الثواب، واجتناب العقاب.

٣- الأداء الأخلاقي المعنوي؛ لأهلية الله للعبادة واستحقاقه لها، ولبلوغ العبد مقام الشكر، والحبِّ، والقرب والرضوان، والمقامات الشامخة.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

(٤) سورة طه، الآية ١٤.

(٥) سورة الإسراء، الآية ٧٨.

نمطه الأول الذي تحدثنا عنه، أي (الأداء السطحي القشري؛ لإسقاط التكليف)^(١).

أشرف العبادات وأسمائها:

في الإسلام عبادات كثيرة كالصلاة والصوم والحج والزكاة، ولكن أهم العبادات وأشرفها وأسمائها وأعلىها قمة وسناماً هو: الصلاة؛ ولذا ورد عن النبي ﷺ: «الصلاة خير موضوع»^(٢)، وورد عن الإمام الرضا عليه السلام: «قيل: إن الصلاة أفضل العبادات لله، وهي أحسن صورة خلقها الله، فمن أداها بكمالها وتمامها فقد أذى واجب حقها، ومن تهاون فيها ضرب بها وجهه»^(٣).

ومما يدل على أن الصلاة (خير موضوع) و(أفضل عبادة): كونها (عمود الدين)، و(ميزان قبول الأعمال)، كما قال رسول الله ﷺ: «إن عمود الدين الصلاة، وهي أول ما يُنظر فيه من عمل ابن آدم، فإن صحّت نُظر في عمله، وإن لم تصح لم يُنظر في بقية عمله»^(٤).

وبهذا نصل إلى أن أفضل العبادات طراً هي الصلاة، وأفضل ما يتعبّد به الإنسان إلى ربه مطلقاً هو الصلاة^(٥).

(١) ولذلك نقول في زيارتنا إلى الإمام الحسين الشهيد عليه السلام: «أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة» [مفاتيح الجنان/ ٤٤٥، زيارة وارث]، ولا نقول: (أشهد أنك قد صليت)، فكثير هم الذين يصلّون، لكنهم لا يقيمون الصلاة، بحفظ حدودها، وإحضار القلب فيها، وإلا.. فقد صلى عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وجيشهما الظالم، في يوم العاشر من المحرم في أرض كربلاء، لكنّ صلاتهم تلك لم تمنعهم من قتل ابن بنت رسول الله ﷺ، وآله وأصحابه وأطفاله، وحرق خيامه، وسبي عترته.

(٢) مستدرک الوسائل ٣/ ٤٣، الباب ١٠ (باب استحباب اختيار الصلاة على غيرها)، ح ٨.

(٣) مستدرک الوسائل ٣/ ٣٤، الباب ٨ (باب وجوب إتمام الصلاة وإقامتها)، ح ١٠.

(٤) وسائل الشريعة ٣/ ٢٣، الباب ٨ (باب وجوب إتمام الصلاة وإقامتها)، ح ١٣.

(٥) في تحديد العبادة الأفضل في الدين وردت روايات عديدة مختلفة، منها:

١- التفكير:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أفضل العبادة: إيمان التفكير في الله، وفي قدرته» [الكافي

٢ / ٥٥، (باب المكارم)، ح ٣.

٢- العلم بالله والتواضع له:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أفضل العبادة: العلم بالله، والتواضع له» [تحف العقول عن آل الرسول / ٣٦٤، (في قصار كلمات الإمام الصادق عليه السلام)].

٣- الفقه:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة: الفقه، وأفضل الدين الورع» [الخصال / ٣٠، باب (أفضل الدين خصلة)، ح ١٠٤].

٤- الصلاة:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصلاة خير موضوع» [مستدرک الوسائل ٣ / ٤٣، الباب ١٠ (باب استحباب اختيار الصلاة على غيرها)، ح ٨].

ويقول الإمام الرضا عليه السلام: «قيل: إن الصلاة أفضل العبادة لله، وهي أحسن صورة خلقها الله، فمن أداها بكمالها وتمامها فقد أدى واجب حقها، ومن تهاون فيها ضرب بها وجهه» [مستدرک الوسائل ٣ / ٣٤، الباب ٨ (باب وجوب إتمام الصلاة وإقامتها)، ح ١٠].

٥- قراءة القرآن:

يقول النبي صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة: قراءة القرآن» [وسائل الشيعة ٦ / ١٦٨، (أبواب قراءة القرآن ولو في غير الصلاة)، ح ١٠].

٦- قراءة القرآن في المصحف:

يقول النبي صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة: القراءة في المصحف» [مستدرک الوسائل ٤ / ٢٦٧، الباب ١٧ (باب استحباب القراءة في المصحف، وإن كان يحفظ القرآن، واستحباب النظر في المصحف)، ح ١].

٧- الدعاء:

يقول النبي صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة: الدعاء، وإذا أذن الله لعبده في الدعاء فتح له أبواب الرحمة، إنه لن يهلك مع الدعاء أحد» [وسائل الشيعة ٧ / ٣١، الباب ٣ (باب استحباب اختيار الدعاء على غيره من العبادات)، ح ٧].

٨- التهليل والحقلة:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة قول: (لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله)، وخير الدعاء الاستغفار، ثم تلا النبي صلى الله عليه وآله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [سورة محمد، الآية ١٩]» [بحار الأنوار ٩٠ / ١٩٠، باب (معنى لا حول ولا قوة إلا بالله)، ح ٢٨].

٩- انتظار الفرج:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة: انتظار الفرج» [الشيخ محمد بن علي بن الحسين

بن موسى بن بابويه القمي (الصدوق)، كمال الدين وتمام النعمة / ٢٨٧، الباب الخامس والعشرون (ما أخبر به النبي ﷺ من وقوع الغيبة)، ح ٦.

١٠- الصبر والصمت:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أفضل العبادة: الصبر، والصمت، وانتظار الفرج» [تحف العقول عن آل الرسول / ٢٠١، (في قصار كلمات أمير المؤمنين عليه السلام)].

١١- العفاف:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كان أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - يقول: أفضل العبادة: العفاف» [الكافي ٢ / ٧٩، (باب العفة)، ح ٣].

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «إن أفضل العبادة: عفة البطن والفرج» [الكافي ٢ / ٧٩، (باب العفة)، ح ٢].

سبب الاختلاف في لسان الروايات:

ولعل سبب اختلاف الروايات في تحديد العبادة الأفضل هو: اختلاف ذلك حسب الأشخاص، والأماكن، والأزمان، والظروف والأحوال، فقد تكون العبادة الأفضل لشخص هي التفكير، وقد تكون لآخر العفة، وقد تكون العبادة الأفضل في زمان أو مكان أو ظرف شيئاً، وتكون في زمان أو مكان أو ظرف آخر شيئاً آخر، ومن ثم فهي أشبه بـ (الحصر الإضافي).

ويظهر واضحاً من تعبير أستاذنا المرحوم الشيخ الشيب - قدس سره - أنه يعدّ (الصلاة) أفضل العبادات؛ لما ورد من الروايات، كالتي ذكرها عن رسول الله وعن حفيده الإمام الرضا، ووصفتا الصلاة بـ (خير موضوع)، و(أفضل العبادة)، ولكونها (عمود الدين) و(ميزان قبول الأعمال)، بالإضافة لكونها حاوية لكثير من هذه العبادات، إن لم يكن جميعها، فهي تحتوي على التواضع لله، وقراءة القرآن، والدعاء، والأذكار، مثل: (لا إله إلا الله)، والحث على التفكير، والفقه، والعلم بالله، والعفاف، والانتهاز عن الفحشاء والمنكر.

ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن الكلام - هنا - عن العبادة الأفضل (الذات)، وليس عن صفة العبادة الأفضل (الصفة)، ومن ثم تجنّبنا الروايات التي ذكرت أن العبادة الأفضل هي: عبادة الإخلاص، أو عبادة الأهلية والاستحقاق والشكر والحب، أو عبادة السرّ، أو غيرها..

أسباب غياب القلب

الكلمة المقابلة لـ (الحضور) هي (الغياب)، وبخلاف (حضور القلب) يأتي (غياب القلب)، وهناك أسباب كثيرة لغياب القلب في الصلاة، منها:

١- دور الشيطان:

الشيطان اللعين عدو مبين للإنسان لا يريد مصلحته ومنفعته، ويقف عائقاً في طريق كل ما يحقق منفعة، ولعلمه بأثر حضور القلب في قبول الصلاة يسعى جاهداً لتشتيت وعي الإنسان عن صلاته، وتغيب قلبه عن الحضور فيها؛ حتى تكون صلاة غير مقبولة، وليست بذات جدوى، وتضحي مجرد أقوال وأفعال لاهية فارغة!!
يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اشْتَغَلَ بِالصَّلَاةِ جَاءَهُ الشَّيْطَانُ، وَقَالَ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا؛ حَتَّى يُضِلَّ الرَّجُلَ أَنْ يَدْرِيَ كَمْ صَلَّى»^(١).

٢- دور الإنسان:

أ- المشكلة الأساس والأكبر التي تصدر من الإنسان، وتجهز على حضور

(١) بحار الأنوار ٨١ / ٢٥٩، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٥٨، ومستدرک الوسائل ٤ / ١٠١، الباب ٢ (باب تأكد استحباب الخشوع في الصلاة، واستحضار عظمة الله، واستشعار هيئته، وأن يصلي صلاة مودّع)، ح ١٩.

القلب عنده هي: عدم الاهتمام، فاهتمام الإنسان بشيء يجعل قلبه وعقله حاضرين فيه، ومركّزين فيه، وعدم اهتمامه به يجعل قلبه وعقله لا يعيرانه بالآ، ومن ثمّ يهرب القلب، ويسرح الذهن في أمور أخرى، ويتوارى التركيز!!

لماذا حين نكون بين يدي ملك أو أمير أو وزير يكون قلبنا حاضراً؟!

ولماذا حين نشاهد التلفاز أو المباراة يكون قلبنا حاضراً؟!

ولماذا حين نتجاذب أطراف الحديث مع أصدقائنا في الديوانية يكون قلبنا حاضراً؟!

كلّ ذلك سببه واحد هو: الاهتمام.

نحن نهتمّ كثيراً ونعير بالآ واسعاً لهذه الأمور، ولا نهتمّ ولا نعير بالآ للصلاة ومحتواها وأفعالها؛ لذلك يحضر قلبنا فيها، ويشرد في الصلاة، ولو كنّا نهتم بقاء الله في الصلاة، وكنّا نستشعر وقوفنا بين يدي جبار السماوات والأرض؛ لتملّكنا الالتفات والانتباه والتركيز بأشدّ مما يملّكنا في حضور ملك أو أمير أو وزير، ولو كنّا نهتم بالصلاة ومحتواها المشرق وأفعالها وآدابها لتملّكنا الالتفات والانتباه والتركيز بدرجة أعظم من تلك التي تمسك بجميع مشاعرنا وألباننا حين نشاهد التلفاز أو المباراة أو نتجاذب الحديث مع الأصدقاء.

يقول المولى الشيخ محمد مهدي النراقي:

«أما حضور القلب: فسببه الاهتمام.

.... فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب في الصلاة إلا بصرف الهمة إليها، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتيقن أنّ الآخرة خير وأبقى، وأنّ الصلاة وسيلة إليها. وإذا أضيف إلى هذا: العلم بحقارة الدنيا ومهانتها، حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة. ولكون الباعث والسبب لإحضار القلب في أمر إنّما هو: الاهتمام والاعتناء بشأنه، ترى قلبك يحضر إذا حضرت بين يدي ملك من ملوك الدنيا، بل

بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على نفعك وضررك. فإذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده المُلْك والملكوت، والنفع والضرر، فلا تظن أن له سبباً سوى ضعف الإيمان واليقين. فينبغي حينئذ السعي في تقوية اليقين والإيمان^(١).

ب- والمشكلة التي تخدر فاعلية الإنسان، وتجعله يستقل من الصلاة، وينصرف عنها مسرعاً هي: الجهل!!

إنه لا يعلم أنه حين يقوم للصلاة فإن الله - جلّ جلاله، وتعالى شأنه - ينظر إليه بعينه، ولا يعلم أن الرحمة حينها تظله من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، ولا يعلم أن الملائكة حينها تحفه، وأن ملكاً خاصاً يناديه، كما يجهل أثر حضور القلب في قبول الصلاة.

عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا قَامَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ فِي صَلَاتِهِ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ، أَوْ قَالَ: أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْصَرِفَ، وَأَظْلَتَهُ الرَّحْمَةُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ إِلَى أَفْقِ السَّمَاءِ، وَالْمَلَائِكَةُ تُحَفُّهُ مِنْ حَوْلِهِ إِلَى أَفْقِ السَّمَاءِ، وَوَكَّلَ اللَّهُ بِهِ مَلَكًا قَائِمًا عَلَى رَأْسِهِ يَقُولُ لَهُ: أَيُّهَا الْمُصَلِّي، لَوْ تَعَلَّمُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ وَمَنْ تُنَاجِي مَا التَقَتَ، وَلَا زَلَّتْ مِنْ مَوْضِعِكَ أَبَدًا»^(٢).

وعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَإِنَّمَا لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ مَا أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ بِقَلْبِكَ»^(٣).

(١) جامع السعادات ٣/ ٣٣٢، (فصل شرائط الصلاة).

(٢) الكافي ٣/ ٢٦٥، (باب فضل الصلاة)، ح ٥، ووسائل الشيعة ٣/ ٢١، الباب ٨ (باب وجوب إتمام الصلاة وإقامتها)، ح ٥.

(٣) بحار الأنوار ٨١/ ٢٦٠، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٥٩، ومستدرک الوسائل ٣/ ٥٩، الباب ١٦ (باب تأكد استحباب المداومة على النوافل، والإقبال بالقلب على الصلاة)، ح ١٠.

آثار الصلاة

للصلاة آثار (غايات) كثيرة: دنيوية وأخروية:

أولاً: الآثار الدنيوية:

من الآثار الدنيوية للصلاة:

١- النهي عن الفحشاء والمنكر:

فالصلاة ليست مجرد أقوال وأفعال مفصولة عن الجانب الأخلاقي والسلوكي والعملي للإنسان، بل تضع طابعها وبصمتها على كامل حياته الأخلاقية والسلوكية والعملية، فتلونها بلون النزاهة والطهارة والبعد عن الفحشاء والمنكر: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١).

ومن ثمّ كان نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر أحد المعايير الأساسية لقبولها عند الله^(٢)، فالصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر صلاة مقبولة، والتي لا تنهى عنهما هي مجرد أقوال وأفعال جوفاء خاوية!!

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

(٢) والمعيار الآخر لقبول الصلاة هو: حضور القلب.

٢. المعراجية:

فالصلاة سبيل العروج لذرى المراتب السامية:

يقول رسول الله ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن»^(١).

فهي شيء يعرج بالمؤمن في مراتب الكمال، ويسمو بالإنسان إلى مرتبة بعد أخرى من مراتب الرضوان والقرب، إنها سلّم يأخذ بأيدينا إلى مراقي الرفعة والسمو.

٣. التقرب إلى الله:

فالصلاة وسيلة يتقرب بها المتقون إلى بارئهم الكريم - عز وجل -، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الصلاة قربان كل تقى»^(٢).

٤. الأمان:

فالصلاة أمان في الأرض: يقول الرسول الأكرم ﷺ: «الصلاة أمان الله في الأرض»^(٣).

غايات الصلاة وحضور القلب:

لكن هذه الآثار والغايات للصلاة - والتي منها البعد عن الفحشاء والمنكر، والمعراجية، والتقرب، والأمان - لا يمكن أن تترتب على صورة الصلاة وشكلها ومظهرها الخارجي، فالعبد الذي يقف بين يدي ربه ثم ينصرف قلبه إلى كل شيء سوى الله إنما يأتي بصورة تشبه الصلاة، وهي - في واقع الأمر - ليست بصلاة!!

إذا كان المقصود الحقيقي من الركوع هو تعظيم الله والخضوع له، فإذا انحنى

(١) الشيخ علي النمازي الشاهرودي، مستدرک سفينة البحار ٦ / ٣٤٣.

(٢) نهج البلاغة / ٤٩٤، قصار الحكم، الحكمة ١٣٦.

(٣) كنز العمال ٨ / ٣، (الباب الأول: في فضل الصلاة ووجوبها)، ح ٢١٦١٧.

الإنسان غافلاً ساهياً فأين التعظيم؟!، وأين الإجلال؟!، إنه مجرد تقوُّس ظهر ليس أكثر، كأنما قوَّس الإنسان ظهره ليلتقط شيئاً من على الأرض، ما الفرق بين هذا وهذا؟! وإذا كان المراد الفعلي من السجود هو الثناء على الله، والخضوع له، فهل يحقق ذلك المجيءُ بصورة السجود فيما لو استوى شخص على تلك الحالة لا لغرض السجود، أم أن ما فعله مجرد مظهر وشكل أجوف لا يحكي واقع السجود؟!، وهل بين هذا الفعل وبين السجود لله فرق، أم هما شيء واحد؟!

إنَّ هذا الركوع الفارغ، وهذا السجود الخاوي، هما - معاً - صورة ركوع وسجود، هما مجرد انحناء وتقوُّس، وفعل شكلي لا أكثر!!، وشتان بينهما وبين الركوع والسجود المكتنزين بالمضمون والجوهر والمحتوى القيمي للعبادة.

والمعاني السامية المدخرة في الركوع أو في السجود، إنما تتأتى مع استشعار العبد وقوفه بين يدي ربه، ومع تحقيق جوهر الصلاة ولبها ومحتواها، وهو حضور القلب؛ وبالتالي لا نستشكل ونقول: إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وها نحن بعد ستين سنة من الدأب على الصلاة إذا عرض لنا أقل منكر رحنا نركض إليه، ونتهافت عليه، فأين تلك الصلاة التي نهت؟!

إنَّ ذاك الأثر والنهي عن الفحشاء والمنكر يحتاج منا أن نحقق - أولاً - هل كانت تلك الأفعال التي فعلناها ستين سنة صلاة أم شيئاً آخر؟!؛ لأنَّ الله تعالى يقول في كتابه الحكيم: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١)، وما لم تنه عن ذلك فإنَّها ليست بصلاة!!

إذا... متى وجدت الصلاة وجد النهي عن الفحشاء والمنكر، وعلينا أن نستكشف أنه إذا كان هناك نهْي فإنَّه يعني أن ثمة صلاة، وإذا لم يكن هناك نهْي فليس هناك صلاة!!

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

يقولون في علم المنطق: كل قضية خبرية تنحلّ إلى قضيتين إنشائيتين، فيهما مقدّم وتاليّ. وعبرة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى﴾ جملة خبرية، ينتج منها جملتان إنشائيتان هما: (متى وجدت الصلاة وجد النهي)، و(متى لم توجد الصلاة لم يوجد النهي)؛ لأنّ «المشروط عدم عند انتفاء شرطه»^(١)، وإذا انعدم الشرط انعدم المشروط؛ ولذلك متى وجدت الصلاة وجد النهي عن الفحشاء والمنكر، ومتى انعدمت الصلاة انعدم النهي عن الفحشاء والمنكر، أي لم تكن تلك الأفعال صلاة أصلاً، ومن ثمّ لم يكن لها أيّ أثر أخلاقي وسلوكي وعملي في حياة الإنسان.

ونحن في مسيرتنا الوجودية في هذه الحياة هل أتينا حتى نسقط تكليفاً عن كواهلنا، أم أتينا حتى نعبد الله ونحظى بالثواب والجنة، أم أتينا حتى نبحث عن الآثار المعنوية النبيلة للفعل العبادي؟!

إنّ غايتنا الصحيحة ووجهتنا النبيلة التي ينبغي أن نوجّه وجهنا شطرها هي أن نصليّ حتى نخرج بهذه الصلاة إلى تلك المقامات الشامخية، وأن نصوم حتى نوجد في أنفسنا حصانةً (تقوى، ورعاً، خوفاً، حذراً)، وهذه الآثار مترتبة على حضور القلب؛ لأنّ جوهر الفعل العبادي هو هذا الحضور، والأثر المراد من العبادة لا يتمّ من دون حضور القلب..

هل تتأتى غايات الصلاة من مجرد طقس شكلي؟!

هل نريد كلّ هذه الآثار العظيمة من مجرد حركات لها صورة الصلاة؟!

وهل ننتظر كلّ هذه الغايات العظام من طقوس شكلية جوفاء؟!

إذا وقف العبد في محراب صلاته، ودخل الصلاة، ثمّ انصرف قلبه إلى كلّ شيء سوى الله - سبحانه -، فهو يأتي بشيء يشبه الصلاة في صورتها الظاهرية، وهذا

(١) الشيخ محمد حسن النجفي (صاحب الجواهر)، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام ٣٥/ ٣٩٩ (مسائل الصوم).

الشيء لا يوصله إلى تلك الغايات النبيلة.

المقصود من تكبيرة الإحرام أن يلج الإنسان إلى محراب الله محرماً على نفسه ذكر أي شيء سوى الله، فهي (إحرام)، و(تحريم) من الإنسان لخطر أي شيء في قلبه سوى الله، إنه منقطع عن كل شيء إلا الله، فإذا كبر وسها عن الله، وغاص في كل شيء إلا الله، فأين هي تكبيرة الإحرام؟!

والمطلوب من الركوع هو الخضوع إلى الله، فإذا انحنى المصلّي ساهياً عن الله، فأين يكون الخضوع والتذلل والتعظيم والإجلال؟!

والمطلوب من السجود ووضع الجبهة على الأرض هو الفناء والاستغراق في ذات الله، فإذا هوى الإنسان إلى الأرض، ووضع جبهته على التراب ساهياً غافلاً عن الغاية والمحتوى، فأين هو الفناء والاستغراق؟!

لن تكون التكبيرة تلك تكبيرة إحرام، وما هي إلا رفع لليدين إلى محاذاة الأذن!! ولن يكون ذاك الانحناء ركوعاً لله، وما هو إلا تقوُّس للظهر، كمن ينحني ليلتقط شيئاً من الأرض!!

ولن يكون ذاك الفعل سجوداً لله، وما هو إلا لمس للتراب بالجبين!!

الصلاة وفعل المنكرات!!

قد يصلّي الواحد منّا ستين عاماً، ولكنه لا يجد حراماً إلا ووثب عليه، وانغمس فيه حتى النخاع، واندكّ فيه، وتوحد به، بل.. ترى بعض المصلّين مواظبين على بعض المنكرات، فهو يطيل الصلاة والخشوع، ويداوم على صلاة الجماعة، وفي الصفّ الأول؛ ليحظى بثقة الناس، ومن ثمّ يستغلّ ذلك في الربا أو العمل التجاري أو غير ذلك!!، فأية صلاة هذه التي لم تنه هذا الإنسان عن الفحشاء والمنكر؟!

يقول رسول الله ﷺ: «رُبَّ صائم حظّه من صيامه الجوع والعطش، وربّ قائم

حظّه من قيامه السهر»^(١).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كم من صائم ليس له من صيامه إلاّ الظمّ!!، وكم قائم ليس له من قيامه إلاّ السهر!!»^(٢).

امتحان الذات..

على كلّ واحد منّا أن يعود إلى ذاته قليلاً؛ ليرى هل أنّ صلاته التي يصلّيها كلّ يوم خمس مرّات تنهاه عن الفحشاء والمنكر ولو بصورة إجمالية؟!

إن كانت الإجابة (نعم)، فهي - إذا - الصلاة المطلوبة ولو في مرتبتها الدنيا، أما إن كانت الإجابة (لا)، فليعلم أنّ ما يقوم به مجرد حركات لا تمتّ إلى الصلاة بصلة!!

والآية الشريفة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٣) تحدّثنا بوضوح عن العلاقة بين الصلاة والنهي عن الفحشاء والمنكر، وهذه العلاقة قد تكون على نحو العلية التامة، بمعنى أنّه متى وجدت الصلاة وجد الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وإذا انتفى التالي انتفى المقدّم - باصطلاح المناطقة -، يعني إذا لم ينتفِ المنكر من حياة المصلّي فإنّ ذلك يعني أنّه لم يكن يصلّي - بعبارة واضحة -!!

من هنا علينا أن نتساءل مع أنفسنا: ماذا نريد من الصلاة؟، هل نريد من أدائها مجرد إسقاط التكليف، وإفراغ ذمّتنا من الواجب؟، أم نريد أن نخرج من خلال هذه الصلاة وآثارها المعنوية إلى درجات القُرب والرّضوان ومقامات المقرّبين؟!، وبين هذا وذاك بون شاسع، والفاصل الذي يميّز الأمرين - في الدرجة الأولى - هو حضور

(١) وسائل الشيعة ١ / ٥٣، الباب ١٢ (باب بطلان العبادة المقصود بها الرّياء)، ح ٩.

(٢) نهج البلاغة / ٤٩٥، قصار الحكم، الحكمة ١٤٥.

وورد بصيغة أخرى هي: «كم من صائم ليس له من صيامه إلاّ الظمّ والجوع!!، وكم من قائم ليس له من قيامه إلاّ العناء!!، حبّذا صوم (نوم) الأكياس وإفطارهم» [وسائل الشيعة ١ / ٥٣، الباب

١٢ (باب بطلان العبادة المقصود بها الرّياء)، ح ٨].

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

القلب، وهذا يجعل حضور القلب في الصلاة عنصراً أساسياً وأمرًا مهمًا فارزًا، وأن حضور القلب هو الذي يميّز رفع اليدين للمنحرف والأذنين هل هو (تكبيرة إحرام)، أم مجرد رفع لهما فقط؟!، وهو الذي يميّز الانحناء هل هو خضوع وتذلل لله، أم هو مجرد تقوُّس ظهر؟!، وهو الذي يميّز وضع الجبهة على الأرض، هل هو فناء واستغراق في ذات الله، أم هو مجرد لمس للتراب بالجبين؟!.

وهكذا سائر أقوال وأفعال الصلاة، فالذي يميّز بين كونها طقوسًا بالية وبالونات خاوية، أو كونها مضمونًا مكتنّزًا وسلا لا مملوءة هو: حضور القلب.

يقول بعض العارفين: «ولا تحصل كلُّ من هذه النتائج المذكورة إلا بالحضور الكامل للقلب، وإذا كان القلب في وقت العبادة غافلًا وساهيًا لا تكون عبادته حقيقية، بل تشبه اللهو واللعب، ولا يكون لمثل هذه العبادة أثر في النفس.. البتة، ولا تتجاوز العبادة من الصورة والظاهر إلى الباطن والملكوت - كما أشير إلى ذلك في الأحاديث -، ولا تكون القوى النفسانية بمثل تلك العبادة مسلّمة للنفس، ولا تظهر سلطنة النفس لها، كذلك القوى الظاهرية والباطنية لا تكون مستسلمة لإرادة الله، ولا تنقهر المملكة تحت كبرياء الحق كما هو واضح جدًّا؛ ولذا ترون أنّه بعد مضيّ أربعين أو خمسين سنة لا يحصل أثر في أنفسنا، بل تزداد يومًا فيومًا ظلمة القلب، وتعصّي القوى، ويزيد اشتياقنا إلى الطبيعة وإطاعتنا الأهواء النفسانية والوساوس الشيطانية أناة فأنّا.

وليس هذا كلّه إلا من جهة أنّ عبادتنا قشور بلا لبّ، وفاقة للشرائط الباطنية والآداب القلبية، في حين أنّنا نرى أنّ كتاب الله - سبحانه - قد نصّ على أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذا النهي ليس صوريًا البتة، بل لا بدّ أن يزهر مصباح في القلب، ويضيء نور في الباطن يهدي الإنسان إلى عالم الغيب، ويوجد زاجر إلهي ينهى الإنسان عن العصيان والتمرد، وها نحن أولاء نحسب أنفسنا في زمرة المصلّين، وقد مضت علينا سنون ونحن مشغولون بهذه العبادة العظيمة، ومع ذلك لا نرى في أنفسنا هذا النور، ولا نجد في باطننا هذا الزاجر والمانع، فالويل لنا يوم تُعطى صور أعمالنا وصحيفة أفعالنا في ذلك العالم بأيدينا ويُقال لنا: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ

الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيْبًا ﴿١١﴾» (٢).

ثانيًا: الآثار الأخروية:

وإلى جانب الآثار الدنيوية للصلاة هناك آثار أخروية لها تظهر في العالم الآخر. ومن ذلك ما ورد عن أبي بصير، عن أحد الباقرين عليهما السلام قال: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ستة صور، فيهنّ صورة أحسنهنّ وجهًا، وأبهأهنّ هيئة، وأطيبهنّ ريحًا، وأنظفهنّ صورة.

قال: فيقف صورة عن يمينه، وأخرى عن يساره، وأخرى بين يديه، وأخرى خلفه، وأخرى عند رجله، وتقف التي هي أحسنهنّ فوق رأسه، فإن أتي عن يمينه منعتة التي عن يمينه، ثمّ كذلك إلى أن يُؤتى من الجهات الست.

قال: فتقول أحسنهنّ صورة: وَمَنْ أَنْتُمْ - جزاكم الله عني خيرًا - ؟

١- فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة.

٢- وتقول التي عن يساره: أنا الزكاة.

٣- وتقول التي بين يديه: أنا الصيام.

٤- وتقول التي خلفه: أنا الحجّ والعمرة.

٥- وتقول التي عند رجله: أنا برّ مَنْ وصلت مِنْ إخوانك.

ثمّ يقلن: مَنْ أَنْتِ؟ فأنت أحسننا وجهًا، وأطيبنا ريحًا، وأبهأنا هيئة!!

٦- فتقول: أنا الولاية لآل محمد - صلوات الله عليهم أجمعين - «(٣).

فالصلاة تتجسّم في صورة ملكوتية بهية المنظر، وتقف على يمين الميت تدافع

(١) سورة الإسراء، الآية ١٤.

(٢) السيّد الإمام روح الله الخميني، الآداب المعنوية للصلاة / ٧٢-٧٣.

(٣) بحار الأنوار / ٦ / ٢٣٤-٢٣٥، الباب ٨ (أحوال البرزخ والقبر، وعذابه، وسؤاله، وسائر ما يتعلّق بذلك)، ح ٥٠.

الأدب الثاني: حضور القلب —————

عنه، وإلى جانبها تتجسّم العبادات الأخرى - كالزكاة، والصيام، والحجّ والعمرة، والبرّ -، وتشرف عليهنّ جميعاً أعظمهنّ قدرًا وجلالاً وقيمة ومنزلة وهي الولاية لمحمد وآل محمد - صلوات الله عليهم أجمعين -.

كيف يحضر القلب في الصلاة؟

كيف نستطيع أن نجعل هذا القلب حاضرًا في الصلاة؟

ما هي العوامل المساعدة على حضور القلب؟

بعد أن مرّ علينا أهمية حضور القلب في الصلاة؛ وذلك لأنّ الصلاة - من جهة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها، وإن رُدّت رُدّ ما سواها، ومن هنا تكون أعمال العبد كلّها متوقفة في ميزان القبول على هذه الصلاة، ولأنّ الصلاة - من جهة أخرى - مرتبطة في مرحلة القبول بموضوع حضور القلب، وبنائها قائم على ركنه المشيد؛ فأصبح لزامًا - إذاً - أن نتساءل عن الأسباب والعوامل التي تساعد المصلّي على حضور القلب؟

وعلى السالك إلى الله أن يثابر أيّة مثابرة على هذا الأمر العظيم، ولا يصغي لوساوس الشيطان الرجيم الذي يزرع في نفوس المؤمنين اليأس من الوصول إلى هذه المرتبة العظيمة، وينفث في عزائمهم سمومه التخديرية حتى يشلّ قواهم، ويقعدهم عن الانطلاق والحركة والمسير، بل دأب الشيطان أن يعترض سبيل السالك إذا أراد سلوك هذا الطريق؛ ليقطعه عليه؛ إذ إنّ الصلاة المقربة إلى الله هي الخطر الأكبر الذي يخشاه هذا المطرود من رحمة الله وقربه، ويحاذر أن يبلغه الإنسان، ويصل إليه.

من أهمّ الأسباب والعوامل التي تساعد المصلّي على حضور القلب الآتي:

١- استشعار حضور الرب:

في بداية الأمر نقول:

إنَّ على السالك أن يجهد نفسه ليعبد الله حقَّ عبادته، بل يعبدَه وكأنَّه يراه، ويشهده، ويستحضره، كما أشار إلى ذلك سيّد المرسلين ﷺ بقوله: «الإحسانُ أنَّ تَعْبُدَ اللَّهَ كأنَّكَ تَرَاهُ، فإنَّ لم تكنْ تَرَاهُ فإنَّه يراكُ...»^(١).

هذا الحديث الشريف ذو المحتوى العميق يشير إلى مرتبتين من مراتب حضور القلب، هما:

المرتبة الأولى هي: أن يكون الإنسان عابداً لله كأنَّه يرى الله فعلاً، وكما يقول رسولنا الأكرم ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كأنَّكَ تَرَاهُ».

وقد جاء ذِعلْبُ اليماني إلى أمير المؤمنين عليه السلام وسأله: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟»، فقال عليه السلام: «وَيْلَكَ يَا ذِعلْبُ، لَمْ أَكُنْ بِالَّذِي أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ، قَالَ: فَكَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ صِفْهُ لَنَا!!، قَالَ: وَيْلَكَ، لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»^(٢).

وفي (نهج البلاغة) أنَّ ذِعلْبُ اليماني قال: «هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟»، فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟!، فقال: وكيف تراه؟!، فقال: لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»^(٣).

وفي رواية ثالثة عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «جاء حبر إلى أمير المؤمنين - صلوات الله عليه -، فقال: يا أمير المؤمنين، هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ حِينَ عَبَدْتَهُ؟، قَالَ: فَقَالَ:

(١) بحار الأنوار ٦٦ / ٢٠٣، الباب ٣٣ (باب السكينة وروح الإيمان، وزيادته ونقصانه)، ذيل الحديث ٢٢.

(٢) الكافي ١ / ١٨٨، الباب ٤٤ (باب جوامع التوحيد)، ح ٤، وبحار الأنوار ٤ / ٢٧، الباب ٥ (باب نفي الرؤية، وتأويل الآيات فيها)، ح ٢.

(٣) نهج البلاغة / ٢٥٨، الخطبة ١٧٩.

وَيْلَكَ، مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ، قال: وكيف رأيته؟، قال: ويلك، لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يُعَرَفُ بالقياس، ولا يُدْرَك بالحواس، ولا يُشَبَّه بالناس»^(١).

أي أنّ أمير المؤمنين يقول: إنّ توجّهي بالعبادة إلى ربّ لا أراه لا يمكن أن يحصل، وكيف أعبد ربًّا لا أراه؟!، ثمّ يضيف عليه السلام: أنّ ربّي الذي أعبدته لم تره العيون؛ لأنّه ليس محسوسًا ومحدودًا وذا جهة حتى تحيطه العين بالرؤية البصرية العينية الحسية، ولكن رأته القلوب بالرؤية البصرية القلبية المعنوية.

فالمطلوب - أولاً - كما يقول الرسول صلّى الله عليه وآله: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، وهذا هو المقام العالي والرتبة العليا.

٢. استشعار نظر الله ومراقبته للعبد:

قلنا: إنّ الحديث السابق للنبي الأكرم صلّى الله عليه وآله يحوي مرتبتين للعبادة:

مرتبة عليا هي استشعار الإنسان حضور الله، وفيها يكون العبد هو الفاعل والناظر (أن تعبد)، (كأنك تراه)، وقد تكلمنا عنها في النقطة السابقة.

أما المرتبة الأدنى والمقام الأدنى فهو ما عبّر عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله بقوله: «فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».

وهذه المرتبة الدنيا ليس فيها استشعار حضور الله، وإنّما استشعار العبد أنّ الله ينظر إليه، وأنّ الله يراقبه، والفعل فيها ليس منطلقاً من العبد، وإنّما هناك شعور بانطلاق الفعل من الله نحو العبد، فالفاعل فيها هو الله، والإنسان فيها منفعل، الله فيها هو الناظر، والإنسان فيها هو المنظور، الله فيها هو المراقب، والإنسان فيها هو المراقب..

(١) الكافي ١ / ١٥١، الباب ٣١ (باب في إبطال الرؤية)، ح ٦.

والذي يعبد الله بإحدى الزاويتين والمستويين والمرتبتين والمقامين: إما عبادة من يرى الله، وإما عبادة من يستشعر أن الله يراه؛ لا يمكن أن يغفل، ولا يمكن أن يعترية لباس الغفلة.

لكن مشكلتنا نحن أننا نقف في المحراب، ونحرم للصلاة، ونحن غير متوجهين فعلاً إلى أنه بين يدي مَنْ نقف؟!، ومع مَنْ نتحدث؟!، غير مستشعرين أن الصلاة وقوف في حرم الله، وبين يديه، وفي محضره الكريم، وأن التكبير افتتاح للدخول في حديث عذب شائق مع الله، وغير مدركين أن هذه التكبيرة هي مفتاح الدخول إلى حرم الله ومناجاته والحديث معه.

أوليس يروى أن الإمام زين العابدين عليه السلام كان «إذا قرأ ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾»^(١) يكررها حتى كاد أن يموت»^(٢)، وأن «مولانا الصادق عليه السلام كان يتلو القرآن في صلاته، فغشي عليه، فلما أفاق سُئِلَ: ما الذي أوجب ما انتهت حاله إليه؟، فقال: «ما زلتُ أردّد هذه الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته»^(٣).

كل ذلك لأنّهما عليهما السلام يدركان بيقين أنّهما في محضر الحقّ وحضرة الكمال والجمال والجلال، يستشعران أن سُبُحات أنوار الله مرخاة عليهما تغمرهما وتظللّهما، ومنّ هكذا حاله يستحيل أن يلتفت إلى غير الحقّ، كمن يشده باله منظر أسر فتان لا يستطيع إلا أن يندمج بكلّ كيانه فيه، ويدوب بكلّ قواه في زلاله.

إنّ هذا الإحساس المفعم النابض وذلك الشعور الغامر الدافق ليس معلومة يتعلّمها الإنسان، أو مسألة يحاول فهمها، بل هي إدراك باطني لمنّ خلا قلبه من شوائب الأغيار، وطهرت نفسه من الأدناس، فلم يبقَ في داخله سوى الله الجبار.

(١) سورة الفاتحة، الآية ٤.

(٢) الكافي ٢ / ٦٠٢، الباب ٤٥٦ (باب مَنْ يجب مصادقته ومصاحبته)، ح ١٣، والسيّد هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن ١ / ٢٤٩.

(٣) جامع السعادات ٣ / ٣٠١، والملا محسن الفيض الكاشاني، تفسير الصافي ١ / ٧٣، والمحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ١ / ٣٥٢.

فالمسألة ليست معلومة تحصيلية، وإنما هي علم حضوري واستشعار وجداني، هي شعور الإنسان أنه بين يدي ربه، وهذا شيء في داخل الإنسان، وفي عمق وجدانه، وليس مجرد معلومة يفقهها ويعلمها، ولا يعايشها بقلبه.

وباختصار: هي معايشة قلبية..

المعصومون عليه السلام مستشعرون أنهم في حضور رب العزة، في حضور الجبار، في حضور ملك السماوات والأرض، في حضور الحبيب، في حضور الله، وبالتالي لا يمكن أن يلتفتوا إلى غيره.

من هنا تكون المرتبة العليا في العبادة أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه، أن يصلي وهو يستشعر أنه واقف أمام الخالق، ويناجي رب العالمين وهو يحسّ بكامل كيانه أنه يخاطب السميع العليم الخبير البصير، وإذا لم يكن العبد قادرًا على هذه المرتبة فلا أقل من المرتبة الثانية الواردة في كلام النبي صلى الله عليه وآله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

إن من يعبد الله، ويقف بين يديه بأحد هذين الطريقين السالفين لا يمكن أن يغفل عن محضر الحق، ولا يمكن أن يسهو قلبه عن مقام القرب.

الإنسان إذا استشعر أنه واقف بين يدي ربه هل يمكن أن يلتفت إلى غير الله؟! إن ذاك محال.

إن المشكلة التي يعاني منها أغلب الناس أنهم حين يقفون في محراب الصلاة، ويكبرون تكبيرة الإحرام يغفلون عن أنفسهم، ولا يدركون أنهم واقفون بين يدي رب العزة والجلال.

٣. السيطرة على الخواطر:

ذكر علماء الأخلاق أن الخواطر التي ترد على قلب الإنسان في صلاته، وتمنعه من الحضور والاتفات هي أمور ثلاثة:

الأول: الخيال:

قالوا: إنَّ الخيال نفسه طائر فرّار، وكذلك قالوا: إنَّ الخيال بحدّ ذاته مشكلة، فهو يشطّ من شيء لشيء.

فالخيال يفكر في مكيف الهواء، ومن المكيف ينتقل إلى الأسلاك، ومن الأسلاك إلى الكهرباء، ومن الكهرباء إلى العامل (الكهربائي)، ومن العامل إلى عدّته وأدواته، ومن أدوات الكهربائي إلى أدوات الحدّاد، ومن أدوات الحدّاد إلى المصنع، وهكذا.. إلى النجار والخشب، والبحار والماء والسفن، إلى آخره.. وبعد نصف ساعة يرى الإنسان نفسه يفكر في موضوع بعيد لا يعرف كيف وصل إليه، وعلى أيّة خشبة تيه وصل إلى بحاره، فيتساءل بذهول واستغراب: هذا الموضوع المخيم عليّ الآن ما الذي جاء به؟!، وكيف وصلتُ إليه؟!، ويحتاج لمعرفة ذلك إلى أن يتتبّع السلسلة التي تمّت فيها التنقّلات حتى يرى أنّه توصّل إليه عبر عشر وسائط أو خمس عشرة واسطة أو أكثر!!

كان يفكر في موضوع، ومنه قفز إلى موضوع آخر، وهكذا إلى ما شاء الله من المواضيع!!، فكلّ موضوع سحبه إلى موضوع آخر!!

«إنّ طائر الخيال هو بنفسه فرّار: يتعلّق دائماً كطائر من غصن إلى غصن، ويطير من إفريز إلى إفريز، وهذا ليس مرتبطاً بحبّ الدنيا والتوجّه بأمر دينيّة ومال دنيوي، بل كون الخيال فرّاراً مصيبة يبتلي بها الناس حتى التاركين للدنيا. وتحصيل سكون خاطر وطمأنينة النفس وتوقف الخيال من الأمور المهمة التي بإصلاحها يحصل العلاج القطعي»^(١).

وذلك أنّ المصلّي - وهو في صلاته - ينتقل بخياله من مشكلة إلى مشكلة، ومن موضوع إلى آخر، تشابك تشابك حلقات السلسلة، وكما سبق أن ذكرنا أنّ بعض الأمور التي قد ينساها الإنسان في سائر الأوقات يتذكرها أثناء الصلاة!!

(١) الآداب المعنوية للصلاة/ ٩٠-٩١.

فالإنسان منذ أن يحرم للصلاة تبدأ سلسلة الخيالات، وهذا الطائر يقفز من غصن إلى غصن، ومن شجرة إلى شجرة، ولا يستمع لشيء، ولا يصغي لطلب ورجاء، وينغمس الإنسان إلى آخر ذرة فيه في الخيال!!، وينتقل معه من قضية إلى قضية، ومن مشكلة إلى مشكلة، يطوح به في أيّ وادٍ شاء.

هذا هو الخيال، إنّه طائر يتنقل من غصن إلى غصن، ومن هنا ذهب بعض أهل المعرفة إلى استحالة أن يسيطر الإنسان على هذا الخيال وجموحه، وأنّ الإنسان لا يستطيع أن يسيطر على خياله، فهو مسلوب الإمكان أصلاً، وإذا سلب الإمكان سلب الوقوع والتحقّق!!

ولكنّ كلام هؤلاء عن استحالة السيطرة على الخيال إنّما هو مبالغة في توضيح صعوبة الأمر، وعدم تيسّر ذلك إلا للمجاهدين والمرتاضين والسالكين، وحاجته إلى جهد دؤوب وعمل متواصل، وإلا.. فنحن لا نقبل كونه محالاً ممتنعاً غير ممكن؛ فلو كان محالاً لما حثّ الدين على حضور القلب في الصلاة، ولما اشترطه في الصلاة والعبادة؛ لأنّ (التكليف بالمحال محال) في الدين، وممتنع، و﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١).

يقول بعض المجرّبين: ليس الأمر كما قيل من عدم إمكان السيطرة على الخيال، فهذا الخيال يمكن التحكم فيه، لكنّ ذاك يحتاج إلى مجاهدة، وعلاجه: التذكر كلّما فرّ، فكلّما طار أرجع - عبر التذكر - إلى موضعه، وهذا صعب طبعاً، لكنه ممكن.

مشكلتنا أنّنا نسلّم أنفسنا إلى هذا الطائر الجموح المشاكس، وإذا طوّح بنا في وادٍ لا نفكر أن نعيده.. وأن نعود، وبالتالي إذا مضى بنا في قضية أو متاهة أسلمناه القياد، ولم نفكر في إيقافه، بل جعلناه قائداً، ومضينا خلفه!!

ليس صحيحاً أن يقول الواحد منّا: (الله أكبر)، ويمضي في موضوع الخيال، ولا يفكر بالعودة إلى معنى تكبيره وتأمّله، ثمّ يذهب إلى تكبيره الثاني والثالث والرابع

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

والخامس...، حتى يقول: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وتنتهي الصلاة، وهو لم يدرك ولم يع شيئاً منها!!

ليس من الصحيح أن نتلفظ بالتكبير ونحن ساهمو القلب، ذاهلو الوعي، شاردو الخاطر في موضوعات شتى!!

يقول أحد العارفين:

«والطريق العمدة لهذا التطويع هو: العمل على الخلاف، وطريقه: أن الإنسان حينما يريد أن يصلي يهيئ نفسه بأن يحفظ خياله في الصلاة، ويحبسه في العمل، وبمجرد أن الخيال يريد أن يفر من يد الإنسان يسترجعه فوراً، ويلتفت إلى حاله في جميع حركات الصلاة وسكناتها وأذكارها وأعمالها، ويفتش عن حاله، ولا يدعه بحاله، وهذا في أول الأمر ربّما يبدو أمراً صعباً، ولكنه بعدما عمل فيه مدة بدقة وعلاج يصير طائعاً حتماً، ويرتاض على الإطاعة، فأنت لا تتوقع أن تتمكن في أول الأمر من حفظ طائر الخيال في جميع الصلاة؛ فإنّ هذا أمر غير ممكن ومحال البتة، ولعلّ الذين ادّعوا استحالة هذا الأمر كانوا يتوقعون ذلك، ولكنّ هذا الأمر لا بدّ أن يكون بكمال التدريب والتأني والصبر والتأمل، فيمكن أن يحبس الخيال في أول الأمر في عشر من الصلاة، ويحصل حضور القلب في عشر منها، وبالتدريج إذا كان الإنسان بصده، ويرى نفسه محتاجاً إليه، فيصل إلى نتيجة أكثر. وشيئاً فشيئاً يتغلّب على شيطان الوهم وطائر الخيال، بحيث يكون في أكثر حال الصلاة زمام الاختيار بيده، ولا بدّ للإنسان ألا يئأس؛ فإنّ اليأس هو المنبع للوهن والضعف كلّ، ونور الرجاء في القلب يوصل الإنسان إلى كمال سعادته، ولكنّ العمدة في هذا الباب هو حسّ الاحتياج الذي هو فينا قليل، وأنّ قلوبنا لم تؤمن بأن رأس المال في سعادة العالم الآخر، ووسيلة العيش في الأيام غير المتناهية هو الصلاة، نحن نحسب أنّ الصلاة أمر مفروض علينا، ونراها تكليفاً وتحميلاً»^(١).

(١) الآداب المعنوية للصلاة/ ٩٦.

علاج طيران هذا الطائر أن نلزمه بالعودة كلّما طار، وأن نعيده إلى القفص كلّما فرّ، كلّما فكرنا أو رأينا أنفسنا تفكر في موضوع نتذكر أنّ الله أكبر من كلّ شيء، ولا يُقاس به شيء؛ لتعود النفس وترجع.

وفي البداية يمكن أن يجاهد المرء نفسه، ويعيد ذاك الطير العنيد، ويسحبه منّي مرّة أو ثلاث مئة مرّة في الصلاة الواحدة، لكنّ المجرّبين يقولون: إنّ ذاك الطير بعد شهر سيتقلص هربه إلى خمسين مرّة - مثلاً -، وبعد ثلاثة أشهر سينحسر هروبه إلى عشر مرّات، وهكذا يبدأ النقص التدريجي في عدد مرّات الهروب ونوبات الفرار، إلى أن يستطيع الإنسان أن يتحكم في هذا الخيال ويكبحه، ويحصل على حضور القلب.

لا يستطيع الواحد أن يطرد هذه الخيالات ويتغلّب عليها من خلال مران صلاة واحدة، وكثير منّا ليس لديه استعداد أن يصارع هذه الخيالات مرّة ومرّتين وأكثر؛ حتى يتغلّب عليها كاملاً ولا تعود، وإن رجعت عاد إلى جهاد جديد، وإذا حاولنا مرة أو مرّتين ولم يعد؛ يئسنا من رجوعه، وفقدنا الأمل والاهتمام، وتلفعنا بخيبة وانكسار.

علينا أن ندرك جيّداً أنّ هذا الطير الجامح قابل للترويض!!

وهكذا فأول ما يشغل الإنسان هو الخاطر (الخيال).

الثاني: الخواطر الخارجية:

الشواغل الخارجية التي تشغل البصر والسمع تلعب دوراً أساسياً في معادلة التركيز عند الإنسان، فهي سكين قاطعة تبدّد جسم التركيز، فإذا كان مكان الصلاة حارّاً أو بارداً، أو كانت فيه نقوش وزخارف، أو مكتسباً بالضجيج والأصوات، أو كانت السجّادات التي نصلّي عليها ممتلئة بالنقوش؛ فإنّ ذلك يدفع المصلّي للتفكير فيها بدلاً من التفكير في الصلاة وفي معاني الكلمات التي يتلفظ بها، فيهمهم في داخل قلبه: هذه المنارة التي في السجّادة مائلة، ولم تُرسم جيّداً، ثمّ يلوح له سقف المسجد قد سقط عليه شيء من الماء، فيفكر فيه وفي الإسمنت والحديد والخشب والمطر، وهكذا..

وبهذه الصورة يغدو القلب ملعباً ترتع فيه الأشياء، وتتصارع فيه الخواطر، ويغدو القصعة التي تنهشها أنياب الصوارف.

ولذا يأتي التشريع الحكيم ليسجل مجموعة من الأمور في باب (مكروهات مكان المصلّي)، ويدوّن أخرى من باب (مستحبات مكان المصلّي)؛ حتى يُبعد المصلّي عن المشتّتات، ويوفّر له التركيز في الصلاة.

ومن المكروهات في هذا السياق:

- أن يصلي المصلّي أمام باب مفتوح.

لماذا يكره أن يصلي المصلّي أمام باب مفتوح؟ لأنّ الناس بين ذاهب وآتٍ؛ مما يفقده التركيز.

- أن يصلي وبين يديه كتاب مفتوح؛ حتى لا يشغل به.

- أن يصلي على فرش فيه زخارف ونقوش.

- أن يصلي في مكان أساساً فيه نقوشات، حتى لو كانت على الجدران.

- أن يصلي مقابل نار مضرمة أو سراج.

- أن يصلي مقابل تمثال ذي روح^(١).

هذه كلّها شواغل ينبغي أن نبتعد عنها؛ ولذا كان بعض العارفين يصلي في مكان بقدر ركوعه وسجوده، وليس فيه أيّ مجال ليطالع أيّ شيء آخر، مكانه بقدر السجادة فقط، حتى لا يشتغل فكره بشيء، يريد أن يدرب نفسه على حضور القلب، فيصنع له مكاناً مختصراً خالياً من الصوارف، فقلبه لا يشقشق: هل هناك مجال لشيء آخر غير الله حتى يستقطبه ويطالعه؟!

ولذا يستحب عندنا إذا صلي الإنسان أن يضع بينه وبين الآخرين حاجزاً بعد

(١) السيّد محمد كاظم اليزدي، العروة الوثقى ١ / ٤٢١، الفصل ١٤ (فصل في الأمكنة المكروهة)، وقد عدّد السيّد اليزدي في هذا الفصل اثنين وثلاثين مكروهاً.

محلّ سجوده^(١)، كأنّه يحدث نفسه: هنا انقطع عن العالم، وهذه منطقة مرور محظورة. ليس من الجيّد أن يمرّ أحد بين موضع السجود والمصلّي، وعند السنة ذاك حرام، ويستطيع المصلّي أن يمسك المارّ ويعيده، ولكن عندنا نحن - الشيعة الإمامية - ذاك مكروه؛ لأنّ المارّ يقطع ما أراد العبد قطعه، فالعبد أراد بهذا الحاجز أن يقطع اتصاله بالناس، والمارّ حين يمرّ يرجعه إلى الناس، أراد أن ينقطع عن هذا العالم؛ لتحلّق روحه في سماء العالم الأقدس الأرحب، فإذا بالمارّ يشدّه بحبل وثيق، ويركسه مرّة أخرى في وحل هذا العالم، أراد أن ينقطع عن الدنيا، ويحلّق في عالم الملكوت، فإذا بالمارّ يغمسه في وحل الدنيا.

والشاهد - هنا - أنّ على الإنسان أن يحاول قدر استطاعته أن يقطع الشواغل التي تشغل خاطر من الخارج، فلا يصلّي والتلفاز يهدر، والراديو يدوي، والأصحاب يتضحكون، والأطفال يتراكضون، إلى آخر الشواغل..

هذه الأمور التي تشتّت انتباه الإنسان وتبدّد التركيز.. عليه قدر استطاعته أن ينحّيها جانباً، ويلج الحرم الإلهي المقدّس بقلبٍ طاهرٍ صافٍ خالٍ من كلّ شيء سوى الله، مقبلٍ على الله وحده.

(١) يقول الشيخ الطوسي عن المصلّي: «وينبغي أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يمرّ به ساتراً ولو عنزة» [الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، الاقتصاد / ٣٥٩، باب (ستر العورة وما يجوز الصلاة فيه)].

«و(العنزة): العصا التي لها زجّ حديد، ولا تُسمّى (عنزة) إلا أن يكون لها زجّ حديد» [الشيخ ابن إدريس الحلّي، السرائر ١ / ٢٦٦، باب (الأمكنة التي تكره فيها الصلاة)].

وروى محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسن بن محبوب، عن معاوية بن وهب، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ يجعل العنزة بين يديه إذا صلى» [الكافي ٣ / ٢٩٦ (باب مَنْ يَسْتَرُّ بِهِ الْمَصَلِّي مِمَّنْ يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ)، ح ١].

وروى إسماعيل بن مسلم، عن الإمام الصادق، عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام قال: «كانت لرسول الله ﷺ عنزة، في أسفلها عكاز يتوكأ عليها، ويخرجها في العيدين يصلّي إليها» [مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ١ / ٥٠٩، باب (بعض سنن صلاة العيدين وآدابها)، ح ١٤٧٢].

الثالث: الخواطر الداخلية:

الخواطر التي بداخل الإنسان هي أهمّ صارف وشاغل عن حضور القلب.. وهنا لا يكون الشاغل هو نفس (الخاطر) الذي يطير، ولا الشواغل الخارجية، وإنما يكون تلك الخواطر والمشاغل التي تتصارع في داخل الإنسان نفسه، حين يأتي للصلاة وهو مشغول بألف قضية وقضية، وألف موضوع وموضوع، وألف مشكلة ومشكلة، وألف همّ وهمّ، ويريد أن يصلّي!!

وذاك سلوك غير صحيح؛ لأنّ المصلّي سوف تتداعى عليه القضايا والموضوعات، وتتقاطر عليه المشاكل والهموم، وتتكاثر عليه الصور، وتتوالى عليه أحداث اليوم، وإذا كانت عنده اهتمامات سياسية فما جرى وصار في العالم من قضايا وتغيّرات ومن بلاء إلى آخره.. سيرد في خواطره الداخلية، وإذا كانت عنده اهتمامات اقتصادية، فما حصل في البورصة والسوق والاكتتاب والأسهم سيهبط عليه، وإذا كانت عنده اهتمامات رياضية، فما حصل في الملعب والدوري سيخيّم عليه في خواطره الداخلية تلك!!

والحال نفسه مع من لديه اهتمامات اجتماعية، ومن لديه هموم معيشية تتعلق به أو بأسرته وعياله، فتغرس مخالبتها في حشاشته أثناء الصلاة.

هذه الخواطر تستحكم وتتجمّع بالذات فيما يختصّ بشؤون الدنيا؛ لأنّه حسب تعبير الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «الدنيا والآخرة ضُرَّتَانِ، بقدر ما تقرب من أحدهما تبعد عن الأخرى»^(١).

هل رأى أحد منّا امرأتين اثنتين (ضُرَّتَيْنِ) تزوجهما شخص واحد تعيشان في وئام؟!

ذاك صعب، وأندر من الكبريت الأحمر؛ لأنّنا - في الغالب - سنجدهما

(١) عواليء اللآلئ ١/ ٢٧٧، الفصل العاشر، ح ١٠٦.

متنافرتين: إذا دخلت هذه خرجت تلك!!

الدنيا والآخرة بالنسبة لقلب الإنسان صُرتان، بقدر ما يدخل من الدنيا في هذا القلب يخرج من الآخرة، وبقدر ما يدخل من الآخرة يخرج من الدنيا، وشبه بعضهم ذلك بإناء فيه خلّ، كلّما صببت فيه ماءً يخرج منه بذلك المقدار نفسه خلّ؛ لأنّ الخلّ والماء لا يجتمعان، وهكذا ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ﴾^(١)، هذا القلب يتجه أحد اتجاهين: إما دنيّا، وإما آخرة، ومن جاء ليصلي: إما فعلاً يتفرّغ لهذه الصلاة، وإلا.. فسيمضي لقضايا الدنيا، وخواطر الدنيا، ويحتاج الإنسان الذي يريد أن يعانق الآخرة في صلاته أن يطرد عنه هذه الخواطر قبل أن يشرع في الصلاة.

تكبيرة الإحرام هي إعلان الوقوف بين يدي الله؛ ليقطع الإنسان علاقته بالدنيا، ويشرع بالانطلاق في العالم الروحي الأرحب.

علينا أن ندرك أنّ مشاغل الدنيا وهمومها لا تنتهي، ولكن.. لها وقت، والصلاة لها وقت آخر، ونضع حدّاً صارماً قاطعاً لا يسمح بتجاوز الأولى للحدود، وهجومها بجيشها الكاسح على بلد الآخر واستيطانها فيه، ولا نسمح لكدورات الأولى أن تعكر علينا نقاء الثانية وصفاءها، وإذا لم ينفع هذا فأهل البيت عليهم السلام وعلماء الأخلاق يقولون لكلّ واحد منّا: عندما تريد أن تصلي فاقطع علاقتك بكلّ شيء تفكر فيه، وأقبل على الله وحده:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنِّي لِأَحِبُّ لِلرَّجُلِ مِنْكُمْ الْمُؤْمِنَ إِذَا قَامَ فِي صَلَاةٍ فَرِيضَةً أَنْ يُقْبَلَ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَا يَشْغَلْ قَلْبُهُ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، فَلَيْسَ مِنْ مُّؤْمِنٍ يُقْبَلُ بِقَلْبِهِ فِي صَلَاتِهِ إِلَى اللَّهِ إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ بِالمَحَبَّةِ لَهُ بَعْدَ حُبِّ اللَّهِ - جَلَّ جلاله - إِيَّاهُ»^(٢).

ويقول عليه السلام: «إِذَا اسْتَقْبَلَتِ الْقِبْلَةَ فَانْسَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَالْخَلْقَ وَمَا هُمْ فِيهِ،

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤.

(٢) بحار الأنوار ٨١ / ٢٤٠، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٢٤.

وعاين بِسْرَكَ عَظَمَةَ اللَّهِ، واذْكُرْ وَقُوفَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾^(١)، وَقِفْ عَلَى قَدَمِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ^(٢).

ويقول عليه السلام: «وليكن قيامك في الصلاة قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل، واعلم أنك بين يدي مَنْ يراك ولا تراه، وصل صلاة مودّع كأنك لا تصلي بعدها أبداً»^(٣).

و«مَنْ سُنِنَ إِدْرِيسَ - عليه السلام - : إِذَا دَخَلْتُمْ فِي الصَّلَاةِ فَاصْرِفُوا لَهَا خَوَاطِرَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ، وَادْعُوا اللَّهَ دُعَاءً طَاهِراً مُتَقَرِّغاً، وَسَلُّوهُ مَصَالِحَكُمْ وَمَنَافِعَكُمْ بِخُضُوعٍ وَخُشُوعٍ وَطَاعَةٍ وَاسْتِكَانَةٍ»^(٤).

أحد العارفين كان يصلي في بستان له، فرأى طيراً على غصن شجرة، فأعجبه، وأخذ يتبعه ببصره، وينظر إليه؛ حتى ضاعت الصلاة، ولم يدر كم ركعة صلى، فلما أنهى صلاته تصدّق ببستانه كله عقاباً!!^(٥).

فهل يستطيع شخص للتو قد بنى له بيتاً جديداً - مثلاً -، وحين دخله لأول وهلة وأراد أن يصلي فيه، وانشغل قلبه بمحتوياته الفارحة وبنائه الفخم وشكله الأنيق وصبغه الوضاء.. هل يستطيع هذا أن يتخذ قرار التصدّق بالمنزل كله في سبيل الله كما فعل ذلك العارف؟!

هذه النفس لا أقول: إنها شحيحة على التصدّق ببيت، بل.. هي شحيحة حتى

(١) سورة يونس، الآية ٣٠.

(٢) مستدرّك الوسائل ٤ / ٩٥-٩٦، الباب ٢ (باب تأكّد الخشوع في الصلاة، واستحضار عظمة الله واستشعار هيئته، وأن يصلي صلاة مودّع)، ح ٩.

وورد الحديث في (مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة)، المنسوب إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ترجمة وشرح: حسن مصطفوي ١ / ٣٦، وصدّره: «إذا استقبلت القبلة فأيس من الدنيا وما فيها...».

(٣) مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ١ / ٢١٣، (باب وصف الصلاة مِنْ فَاتِحَتِهَا إِلَى خَاتِمَتِهَا)، ح ٩١٦.

(٤) بحار الأنوار ٨١ / ٢٥٣، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٤٩.

(٥) المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ١ / ٣٧٦.

على التصدّق بمسبحة تشغلها عن الله والصلاة، مع أنّ عليها أن تقدم على التخلص من أسارها!!

ولتأصل الشحّ في الإنسان قرنه الله بالنفس، فقال: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

وبعض علمائنا كان إذا لبس ثوباً جديداً، فرأى نفسه مزهوّاً به وعلى حال غير لائق، يرمي الثوب؛ لأنّ الثوب - حينئذ - بدلاً من أن يحافظ عليك، أنت الذي صرت تحافظ عليه، تحرص أن لا يلتوي، وأن لا يصيبه وسخ.

فهذا الذي لا نستطيع أن نتخلص منه حتى في صلاتنا، علينا أن نقطع علاقتنا به، حتى نُقبل على الله بقلوبنا، ومن الصعوبة أن يدرك الكثيرون ذلك!!، نحن طير يريد التحليق في الفضاء الأرحب، لكنّه لن يقدر على ذلك ما لم يبرح القفص، ويفلت من الأغلال التي تكبل رجله وجناحيه، هل يستطيع نسر أن يشقّ بطن الفضاء ورجلاه مربوطتان في صخرة عتيقة؟!، وجناحاه مصفّدان بنير الحديد؟!!

عبد الله بن مسعود كان يحرص على أن يصليّ مع رسول الله ﷺ صلاة الجماعة، ففاته يوماً تكبيرة الافتتاح (تكبيرة الإحرام)، فأعتق رقبة، وجاء إلى النبي ﷺ، فقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاتَتْنِي تَكْبِيرَةُ الْاِفْتِتَاحِ يَوْمًا، فَأَعْتَقْتُ رَقَبَةً، هَلْ كُنْتُ مُدْرِكًا فَضْلَهَا؟»، فَقَالَ: لا..، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ثُمَّ أُعْتِقْتُ أُخْرَى، هَلْ كُنْتُ مُدْرِكًا فَضْلَهَا؟، فَقَالَ: لا.. يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا لَمْ تَكُنْ مُدْرِكًا فَضْلَهَا»^(٢).

ليس كلّ أمر من الأمور يستطيع الإنسان أن يقوم بحركة معيّنة تعويضية بديلة حتى يدرك فضله، ويرقّع خرقة، لكنّ الشيء الذي يشغل قلبك في الصلاة قرّر أن تقطع علاقتك به، حتى تتأدب النفس المرّة والاثنتين والثلاث، وتيأس من العلاقة به والتفكير فيه عن الصلاة.

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

(٢) مستدرّك الوسائل ٦ / ٤٤٥-٤٤٦، الباب ١ (أبواب صلاة الجماعة)، ح ٦.

هذا ما قسمه علماء الأخلاق بالنسبة للخواطر:

- الخاطر نفسه.

- والخواطر الخارجية.

- والخواطر الداخلية.

إذا استطاع الإنسان أن يتخلص من الخاطر بشقيّه: الداخلي والخارجي، وأن لا يسمح للخاطر نفسه أن يصول متى شاء، حيث شاء، كيف شاء، وأولاً وقبل كل شيء أن يستشعر هذا الإنسان أنه بين يدي الله؛ فحينئذ سيكون عنده حضور للقلب.

وقلنا: إن القضية لا تتم بين عشية وضحاها، أو بين يوم وليلة، بل.. يحتاج ذلك إلى جهاد شاق، وعمل دؤوب، في الشهر الأول قد نظفر بعشر الصلاة، وفي الشهر الثاني بعشرين، إلا أن مضي ستة أشهر أو عشرة أشهر قد تكون كفيلة بأن نحصل على الصلاة بكاملها في حضور للقلب، ومع ذلك لن يتركنا إبليس، فإبليس أقسم أن يقف لنا بالمرصاد، ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^(١)، ولن يكمل أو يمل في عزمه على أن يثبنا، ويحطم بناءنا..

نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يوفقنا وإياكم للخضوع والخشوع.

(١) سورة الأعراف، الآية ١٦-١٧.



الأدب الثالث

الطهارة

الطهارة

قبل الولوج في الصلاة يأتي الحديث عن أدب الطهارة، فمن الواجبات التي أمر الله - جلّ وعلا - بها: الطهور، وجعله الرسول ﷺ نصف الإيمان بقوله عليه السلام: «الطهور شطر الإيمان»^(١)، وكذلك فعل حفيده الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «الوضوء شطر الإيمان»^(٢).

ففي سياق الحديث عن آداب الصلاة، يجب أن نتوقف قليلاً عند هذا الأدب، وهو التطهر للصلاة؛ لتعرّف على معناه وأقسامه.

معنى (الطهارة):

الطهارة - لغة - : النزاهة والكفّ عن الإثم وما لا يجمّل^(٣).

وفي معناها الاصطلاحي ذكر الفقهاء معاني كثيرة، منها:

(١) أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم ١ / ١٤٠، (باب وجوب الطهارة للصلاة).

(٢) الكافي ٣ / ٧٢، (باب النوادر)، ح ٨، ووسائل الشيعة ١ / ٢٥٦، الباب ١ (باب وجوب الوضوء للصلاة ونحوها)، ح ٥.

(٣) لسان العرب ٨ / ٢١١، مادة (طهر).

- ١- هي «رفع النجاسة، سواء من حدث أو غيره»^(١).
- ٢- هي «اسم للوضوء أو الغسل أو التيمم على وجه له تأثير في استباحة الصلاة»^(٢).
- ٣- هي «حالة تحصل بعد الوضوء والغسل والتيمم تبيح لصاحبها أحكام الطاهرين»^(٣).

أقسام الطهارة:

الطهور حين يُطلق يُراد به أحد أمور أربعة:

- ١- فتارة نطلق الطهور، ونقصد به: التطهر من (الخَبَث)، وإزالة القذارة والنجاسة من على اللباس والبدن.
 - ٢- وأخرى يُقصد بالطهور: الوضوء.
 - ٣- وثالثة يُراد به: الغُسل.
 - ٤- ورابعة يُراد به: التيمم، بدلاً عن الوضوء والغُسل.
- والأول من هذه الأربعة تطهر من (الخَبَث)، وتحقيق للطهارة المادية.
- بينما الثلاثة التي تليه هي تطهر من (الحَدَث)، وتحقيق للطهارة المعنوية.
- ومن ثمّ يمكن إعادة هذه الأقسام الأربعة من الطهارة إلى قسمين، هما:
- ١- الطهارة من الخَبَث (إزالة الخَبَث).
 - ٢- الطهارة من الحَدَث (إزالة الحَدَث).

وفي الأول يندرج تطهير البدن واللباس من القذارات والنجاسات المادية؛ عبر أحد المطهرات، كالماء.

(١) الدكتور أحمد فتح الله، معجم ألفاظ الفقه الجعفري / ٢٧٢.

(٢) معجم ألفاظ الفقه الجعفري / ٢٧٢.

(٣) معجم ألفاظ الفقه الجعفري / ٢٧٢.

وفي الثاني يندرج تطهير النفس والروح من النجاسات المعنوية؛ عبر الوضوء، والغسل، والتيمم.

فوائد الطهارة:

وإجمالاً نذكر بعض فوائد أدب الطهارة:

١. النظافة:

إنَّ من الآداب العقلانية حين يريد الإنسان أن يقابل شخصاً ذا أهمية ومكانة ومقام أن يتهيأ لهذا اللقاء، وأول هذه التهيّئات والاستعدادات أن يكون نظيفاً حين لقائه، وإذا طرق الباب فجأة طارق والإنسان غير مستعدّ لمقابلته فإنّه لا يخرج له على أيّ صورة كان، إلا أن يكون في عقله لوثّة ونقص، أما الإنسان العاقل فحتى لو ترك الضيف بعض دقائق؛ لكي يتهيأ، فإنّه يرى ذلك أفضل من أن يخرج له بشكل غير لائق: كأن يخرج بثوب نوم - مثلاً -، أو بلباس غير مناسب.

هذا فضلاً عما إذا كان بينه وبين شخص موعد مسبق، فضلاً عما إذا كان ذلك الشخص ذا أهمية، كأن يدخل على ملك أو رئيس دولة أو أمير أو وزير، فهو لا يدخل عليه بمثل ما يدخل على إنسان عادي، بل.. في ذلك اليوم يرتدي أفضل ما عنده من لباس، وينثر عليه أفضل ما لديه من طيب، وإذا كان في حياته لم يلبس (العقال)، ففي ذاك اليوم يلبسه، وإذا لم يكن يعرف لبس العباءة (البشت) فسيذهب ويشترى له ذلك، إلى غير ذلك من الأمور؛ لأهمية هذا اللقاء.

وإذا كان هذا الاستعداد والتهيؤ من الإنسان للقاء بشر مثله، فكيف بلقاء الله - عزّ وجلّ -؟!

البعض - أعوذ بالله - يجعل الله أهون من يلتقي به!!، فهو بأية طريقة، وبأيّ لباس، وبأيّ شكل.. يلتقي الله!!، ويلج في صلاته مكبراً (الله أكبر)، وهو لا يعبا

أن يكون لباسه نظيفاً، ولا يعير بالاً لشكله وأناقته، وليس مهمماً عنده أين يلتقي بربِّ العالمين!!

فالإنسان الجاهل ليس مهمماً عنده لقاءه بالله، فهو بأيّة طريقة يلتقي الله: لا مانع أن يقابله بلباس غير لائق، بثوب متسخ متهاك، بثوب نوم، ببذلة رثة، إنّه يقابل الله الكبير المتعال بأيّة طريقة وبأيّ شكل كان، حتى لو كان شكلاً لا يرتضيه الإنسان في لقائه بأخيه أو مع ابنه، فضلاً عما له أهمية وشأن!!

إذا أتانا ضيف نرى أفضل الأماكن في البيت وأبهاها لنضيفه فيه؛ ولذا جرت العادة أن يكون مجلس البيت أفخم ما في البيت وأفضل ما فيه، قد لا يكون لدى الشخص في داخل منزله سجاد أصلاً، أو أنّ بيته غير مؤثث بمستوى جيّد، لكنّه يدخل الضيق على نفسه في الأثاث وغيره؛ لكي يجعل مجلسه فخماً فاخراً بمستوى تلقّي الزائرين، هذه طبيعة الناس المتوازنين في الحياة.

أما إذا دخلنا مجلس شخص ورأيناه أسوء شيء وأقذره وأوحشه، فماذا نحسب داخل منزله؟!، قد يعنّ ببالنا أنّ داخل منزله مقبرة موحشة، مزبلة نتنة، خرابة نسج فيها العنكبوت خيوطه، وشيّد فيها اليوم أعشاشه!!

والله - سبحانه وتعالى - جعل الطهور والنظافة؛ حتى يستعد الإنسان للقاءه بالله، فهو بالطهور والنظافة يطهّر روحه ونفسه، يطهّر بدنه وجسمه، وينظّف ثوبه ولباسه؛ لكي يلتقي بربِّ العالمين.

وستحدث - إن شاء الله - في بحوث لاحقة عن الأدب المعنوي لهذه الحركات الظاهرة، لكنّ حديثنا - الآن - ستركز على هذا العمل الظاهر من إزالة الخَبث وتطهيره بالماء والمطهّرات، وإزالة الحَدَث بالوضوء والغسل والتميم، أما الأدب المعنوي المشار إليه بهذه الأعمال فهو بحث آخر سيأتي.

أول ما يأمرنا به ربّ العالمين أن نظهّر هذه النفس من كلّ درن ودنس، ونظهّر هذا البدن وهذا اللباس من كلّ خَبث ونجس، سواء أكان بولاً أم غائطاً أم دمّاً أم غير

ذلك... يقول لنا: هذا البدن طهّروه، فيا سبحان الله على هذا الاهتمام الجسم، ولكن مشكلة البشر أنّه لا يعتبر، أو ما قالوا: «ما أكثر العبر، وأقلّ الاعتبار»^{(١)؟!}، حتى عملية دخول الإنسان إلى بيت الخلاء؛ هي عملية تذكير، يذكرنا ربّ العالمين بضعفنا وهواننا.

نحن دائماً وكما ورد عن أهل البيت - صلوات الله وسلامه عليهم - نسأل الله العافية، لا نريد منه أن يزعزعنا بخوف أو جوع، ولا نريد منه أن يتلينا بنقص من الأموال، ولا نقص من الأنفس، ولا نقص من الأولاد، ولا نقص من الثمرات، نطلب من الله العافية في الأمور كلّها، مع أنّه - جلّ وعلا - يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(٢).

نريد العافية من كلّ شيء، لا نريد غياهب السجون، ولا عذابات الأمراض، ولا سعيير الغربة، ولا رهق الترحال، ولا لظى الحاجة والمسكنة، نريد أن نرفل بلباس الصحة والعافية: الصحة الجسمية، والصحة العقلية، والصحة النفسية، ونتقلّب في بحبوحة الخيرات والنعيم..

في الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام: «وشكا يوسف في السجن إلى الله فقال: يا ربّ، ماذا استحققت السجن؟، فأوحى الله إليه: أنت اخترته حين قلت: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ الَّذِي مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(٣)، هلا قلت: (العافية أحبّ إليّ مما يدعونني إليه)»^{(٤)؟!}

(١) نهج البلاغة / ٥٢٨، قصار الحكم، الحكمة ٢٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٥-١٥٧.

(٣) سورة يوسف، الآية ٣٣.

(٤) علي بن إبراهيم القميّ، تفسير القميّ ١ / ٣٥٤، وبحار الأنوار ١٢ / ٢٤٧، الباب ٩ (قصص يعقوب ويوسف عليهما السلام)، ح ١٢.

الأمر ليس محصوراً بين طرفين: إما فتنة النساء، وإما غياهب السجن، هناك شيء ثالث: لا نساء ولا سجن، هو العافية من البلاء في الأمرين معاً، ولو سأل يوسف ربّه العافية لنجا من البلاء فيهما، ونحن نسأل الله العافية. ولذا ورد أنّ الرسول الأكرم محمد ﷺ كان «إذا ذُكر عنده أصحابُ الأخدود تعوّد بالله من جهد البلاء»^(١).

كما ورد عن الإمام السجّاد عليه السلام أنّه كان يتضرّع إلى الله ويقول: «ولولا إحسانك إليّ وسبوغ نعمائك عليّ ما بلغتُ إحراز حظّي، ولا إصلاح نفسي، ولكنّك ابتدأتني بالإحسان، ورزقتني في أموري كلّها الكفاية، وصرفت عني جهد البلاء»^(٢). كما ورد في الدعاء المأثور: «اللهمّ إنّي أعوذ بك من جهد البلاء»^(٣).

وورد في أدعية صلاة الليل: «اللهمّ إنّي أعوذ بك من جهد البلاء، ومن سوء القضاء، ودرك الشقاء، وتتابع الفناء، وشماتة الأعداء»^(٤).

وهذا التركيز على التعوّد من (جهد البلاء)؛ لأنّه غير معلوم يوم يأتي البلاء الشديد المجهد الشاقّ للإنسان ماذا يحلّ به؟!، وهل يصمد ويصبر، ويحتسب ذلك في سبيل الله ونيل مرضاته، أم يتهاوى تحت وقع فؤوسه العاتية كما تتهاوى النخلة الراسخة الضاربة الجذور، والصامدة في مهبّ الريح؟!، قد يعبد الله في الرخاء، لكن.. حين ينزل به البلاء قد ينكص، وينقلب على عقبه، «فإذا مُحْصوا بالبلاء قلّ الديانون»^(٥).

- (١) بحار الأنوار ١٤ / ٤٤٣، الباب ٧٨ (باب قصة أصحاب الأخدود)، ذيل الحديث ٥.
- و(جهد البلاء): الحالة الشاقة [الدكتور سعدي أبو جيب، القاموس الفقهي / ٧١].
- (٢) الصحيفة السجّادية / ٢٤٥ (من دعائه عليه السلام في التضرّع والاستكانة).
- (٣) إقبال الأعمال ٢ / ٢٩٨، وبحار الأنوار ٩٥ / ٣١٤، الباب ٤ (باب أعمال يوم الغدير وليته وأدعيتها)، ح ٣.
- (٤) بحار الأنوار ٨٤ / ٢٧٣، الباب ١٢ (باب كيفية صلاة الليل والشفع والوتر، وسننها وآدابها وأحكامها)، ح ٦٩.
- (٥) تحف العقول عن آل الرسول / ٢٤٥، باب (في قصار كلمات الإمام الحسين عليه السلام)، وبحار الأنوار ٤٤ / ٣٨٣، باب (في نزول الحسين بكر بلاء).

أحد العباد المعروفين في التاريخ كان يقول: أريد ابتلاء؛ حتى تكون مقاماتي عند الله أعظم، وأرتقي الدرجات العُلى والمنازل السامية، فابتلاه الله بحصر في البول، وذاك أهون الابتلاءات، فكان يجزع، ويصيح، ويصرخ، ويجأر، ويندب حظّه العاثر، ويقول: يا ربّ نجني، وجلّني بالعافية.. يا ربّ، وتخليتُ عن الرغبة في الابتلاء والتجريب، ولا أريد ابتلاء وامتحاناً، وصار يمرّ على الأطفال في المعلم (الكتّاب)، ويقول لهم: ادعوا لعمّكم الكذاب!!

إذا كنتَ تسال الله البلاء، فهذا أول البلاء، فهل تثبت؟!، ذاك ليس بالشيء السهل اليسير!!

من نعم الله - سبحانه وتعالى - أن لا يكون الإنسان محصوراً مثل هذا العابد، وأن يكون لديه طريق؛ ليدخل الشراب والأكل، ويخرجهما، هذا تيسير من ربّ العالمين.

نبي الله زكريا عليه السلام طارده اليهود؛ فاخْتَبَأَ في جذع شجرة، فجاءوا بمنشار لينشروا الشجرة بنبي الله، فلما وصل المنشار إلى رأس زكريا، وأخذت تحرقه أسنان المنشار أنّ أنّه، تقول الرواية - فخاطبه الله - عزّ وجلّ - : «لئن صعدت منك أنّة ثانية لأمحوتك من ديوان النبوة»^(١).

أي احترز، واحترس، وتنبّه، وتيقّظ لما يصدر منك!!

«فعضّ زكريا على إصبعه حتى قُطِعَ شطرين»!!^(٢)

لقد كان زكريا بحجم البلاء العظيم المجهد، وكان صبره مذهلاً خارقاً، عضّ على إصبعه؛ ليحبس لسانه عن الكلام، وتغلّب على كلّ آلامه الكاوية وأوجاعه الجسام، ولم يقل ثانية حتى كلمة (آه..)، التي تحكي عن ألمه ووجعه الطبيعي، ولا تبدي شكاً في الله، ولا عتّباً عليه، ولا سُخْطاً عليه، ولا لوماً له، ولم يتزلزل إيمانه النبوي العميق حتى انفلق نصفين، وفارقت روحه الحياة!!

(١) جامع السعادات ٣ / ٢٧٩.

(٢) جامع السعادات ٣ / ٢٧٩.

نحن لا نرغب في هذا الشكل من البلاء، ولا في هذا المستوى البالغ المجهّد منه، ونسأل الله العافية في الدين والدنيا والآخرة، في المال والبدن والولد والأهل وكلّ شيء.

٢- إدراك العاقبة والمآل:

في أدب الطهارة يريد الله أن يقول للإنسان: إنّ حطام الدنيا الذي أنت متهافت عليه، وتركض من أجله، وتصارع الآخرين بسببه، وتظلم هذا، وتغصب ذاك، وتسرق من ذلك، وتعادي أولئك؛ هو هذا البراز الكريه المنظر، النتن الرائحة، هو هذا الذي تستقذر منه، هو هذا الذي تتأذى منه، هو هذا الذي تتقرّز منه، هو هذا الذي تتأفف حتى من النظر إليه، هو هذا الذي تحاذر أن يعلّق منه شيء بحواشي بدنك وأذيال ثوبك، هو هذا الذي تطهّره، هو هذا الذي تسكب عليه الكمّ الهائل من الماء لتخلص منه ومن أيّ أثر له، هذا هو الذي تتكالب عليه!!

وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «أنّه ليس في الأرض آدمي إلا ومعه ملكان موكلان به، فإذا كان على تلك الحال [الخلاء] ثنيا رقبته، ثمّ قال: يا ابن آدم، انظر إلى ما كنت تكدح له في الدنيا إلى ما هو صائر!!»^(١).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما لابن آدم والعُجب، وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قدرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة»^(٢).

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «عجبتُ لابن آدم: أوله نطفة، وآخره جيفة، وهو قائم بينهما وعاء للغائط، ثمّ يتكبّر»^(٣).

علامُ العُجب والغرور؟!، وعلامُ الكبر والتكبّر؟!، وعلامُ الفخر والتباهي؟!،

(١) علل الشرائع ١/ ٣٢٠، الباب ١٨٤ (علّة نظر الإنسان إلى سُفله وقت التغوّط)، ح ٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم / ٣٠٨، العُجب وذمّه، الحكمة ٧٠٨٧.

(٣) علل الشرائع ١/ ٣٢٠، الباب ١٨٤ (علّة نظر الإنسان إلى سُفله وقت التغوّط)، ح ٢.

وعلام التيه والخطيئة؟!، على نقطة أو عذرة أو جيفة؟!، هذه هي المكونات الثلاث، فالله - سبحانه وتعالى - يريد أن يقول للإنسان: ما تستقذر منه وما تنفر منه هو الذي أنت متكالب عليه، فطهره، وبعد هذا نأتي إلى المضمون المعنوي لذلك.

٣. المراقبة:

يقول الله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾^(١)، وهو موضوع يحتاج الإنسان إلى النظر فيه فعلاً، يريد الله أن يقول لك: راقب - أيضاً - ما يدخل في هذا الجوف، راقبه مراقبة دقيقة، لا تأكل كل شيء، ولا تشرب أي شيء، إذا كان الشيء ليس حلالاً بيئياً لا تذهب وراءه، ولا تخض فيه.

نحن لا ندعو بدعوة اليهود والخوارج الذين ضيقوا على أنفسهم، فضيق الله عليهم، ولا نقول: تعالوا وكونوا وسواسين في أكلكم وشربكم، ولكن ينبغي أن يراقب الإنسان أكله؛ لحلول الشبهة الواقعة في بعض موارد.

وكما تراقب الأكل الذي تأكله، تراقب المال الذي يشتري به الأكل الذي تأكله، إذا لم تكن خائفاً على نفسك، ولا تريد أن تخرج حق الله من هذا المال، فخف على أبنائك وتكوينهم الجسمي والعقلي والنفسي المبني على أكل مشبوه ومال مشبوه!!، إذا لم تكن مهتماً أن تخمس هذا المال أو أن تزكيه أو أن تنفق منه، وتريد أن يشتد عظمك وبدنك على هذا المال المحرم، فخف على زوجتك، على ابنك، على ابنتك، خف على من خلفك أن تنمو أبدانهم على مال لله فيه حق!!

قيل لوالدة الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري - رضوان الله عليه - : هنيئاً لك على ما رزقك الله من ولد، وبارك لك فيه، فلقد بلغ في العلم والتقوى درجات رفيعة، ومقامات عالية قلما يرتقي إليها أحد، فقالت في جوابها: إني كنت أتوقع منه أكثر مما ترونه فيه، وأرقى مما وصل إليه اليوم؛ لأنني لم أرضعه حتى رضعة واحدة من غير

(١) سورة عبس، الآية ٢٤.

وضوء، فقد تحمّلتُ الحرّ والبرد.. في الصيف والشتاء، وفي السفر والحضر، وفي كلّ حال، حتى أتوضأ، ثمّ أرضعه، فكيف لا يكون هكذا مَنْ نشأ كذلك؟! (١).

ولما توفيت هذه الأمّ الحنون ذات القلب الرؤوم الدافق كان الشيخ الأنصاري يأتي قبرها، ويبكي بكاءً مرّاً شديداً؛ وذلك لأنّه كان يحبّها حبّاً شديداً، فقال له أحد تلامذته: شيخنا الجليل، لا يليق بك - وأنت بهذه العظمة والمقام الرفيع - أن تبكي بهذا الأسلوب الغريب!!، فقال له الشيخ: إنّ العظمة والمقام الرفيع اللذين تتكلم عنهما.. إنّهما من هذه الأمّ الحنون العطوف الرحيمة؛ فلقد كانت مؤمنة تقية عابدة زاهدة، وقد تعلّمتُ منها الكثير (٢).

فكم كانت هذه الأمّ الرحيمة تحرص على تنشئة هذا الطفل الغضّ لدن العود، فلا ترضعه إلا وهي على وضوء، حتى لو كان تحصيل ذلك صعباً عليها بسبب الحرّ اللاهب اللاfach، أو البرد الشديد القارس، أو السفر الممضّ المرهق؟!!

فالشخص الذي ينمو لستين وهو يُغذى بلبن.. صاحبه طاهرة في كلّ أحوالها، كيف لا ينمو عوده على الإيمان والتقوى؟!، وكيف لا يشتدّ عوده على الورع والنزاهة؟!، وكيف لا يترعرع عوده على المعرفة والعلم؟!!

أما إذا كان الأكل الذي تُحضّره لأطفالنا، فيه لله حقّ لم يُخرج، فيه للفقراء حقّ لم يُعطَ، فيه للناس حقّ لم يُرجع، فكيف نريد أن يخرج الأبناء؟!!

فالمعنى الثالث في موضوع الخَبَث وإزالته هو: أن يراقب الإنسان ما يأكله وما يشربه، ويجيب في داخله وفي أعماق وجدانه وفي حقيقة عمله على الأسئلة الثلاثة التالية التي تضجّ بصوتها المجلجل الهادر في الضمير: ما تأكله وتشربه:

(١) الدكتور الشيخ مرتضى علي المحمدي الشراياني، أستاذ الفقهاء والمجتهدين وقدوة العلماء العاملين الشيخ الأنصاري: دراسة وتحقيق في سيرته الذاتية / ١١٣.

(٢) أستاذ الفقهاء والمجتهدين وقدوة العلماء العاملين الشيخ الأنصاري: دراسة وتحقيق في سيرته الذاتية / ٢١-٢٢.

- أ- هل هو حلال بين وطيب وصافٍ مصفى؟!
ب - أم هو حرام بين وخبيث واضح وقذر آسن؟!
ج - أم هو حلال مشوب بالحرام والشبهة؟!
إذًا.. أولاً يجب على الإنسان أن يزيل هذا الخَبَثَ، وأن يطهّر بدنه ولباسه، ثم يتوجّه مستقبلاً الطهارات الثلاث: الوضوء والغسل والتيمّم.

الطهارات الثلاث:

١- الوضوء:

الوضوء الواجب - في صورته الظاهرة للحسّ والعيان - غسلتان ومسحتان، لا أكثر^(١)، لكنّه - في صورته الملكوتية الغيبية التي تجلّيها لنا النصوص الشريفة - شيء أكبر من ذلك بكثير؛ فقد ورد في الأثر أنّ الإمام الرضا - صلوات الله وسلامه عليه - كتب إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسأله: «إنّ علّة الوضوء التي من أجلها صار على العبد غسل الوجه والذراعين، ومسح الرأس والقدمين؛ فليقيامه بين يدي الله تعالى، واستقباله إياه بجوارحه الظاهرة، وملاقاته بها الكرام الكاتبين:

فيغسل الوجه؛ للسجود والخضوع.

ويغسل اليدين؛ ليقلبهما، ويرغب بهما، ويرهب ويتبتل.

ويمسح الرأس والقدمين؛ لأنّهما ظاهران مكشوفان يستقبل بهما كلّ حالاته، وليس فيهما الخضوع والتبتل ما في الوجه والذراعين»^(٢).

وهذا أمر تحدّثنا عنه في شرح قول أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه - في وصف المتقين: «منطقهم الصواب،....، غصّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم،

(١) وما عدا ذلك من غسل لليدين، ومضمضة، واستنشاق، فهو مستحب.

(٢) مَنْ لَا يحضره الفقيه ١ / ٥٥، (باب علّة الوضوء)، ح ١٢٨.

ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم»^(١).

إنَّ الوجه الذي به تستقبل أمورك، والذي به تُعرف بين الناس، واليدين اللتين تباشر بهما أعمالك، يجب أن تغسلهما؛ لتزيل دنس الخَبَث ودناءة الأوساخ.

والرأس الذي يخطُّ لجوارحك، ويقود خطاها وأفعالها، والقدم التي تسعى بها إلى مجمل أعمالك، يجب أن تمسحهما؛ لتزيل - كذلك - دنس الخَبَث ودناءة الأوساخ.

الله - سبحانه وتعالى - يقول لك: لا تدخل إلى بستان الصلاة بجوارح دنسة، هذه الجوارح التي ستقابلني بها طهرها، وأت بها نضرة مشرقة.

فالأدب الظاهري أن تطهر هذه الجوارح من النجاسات والأوساخ المادية، من الأشياء التي تُرى، لكنَّ الأدب المعنوي هو أن تطهرها من الآثام والمعاصي، تطهرها من الأرجاس المعنوية، من الأشياء التي لا تُرى، من الذنوب التي اجترحتها، واقتحمت حرمتها.

الله - سبحانه وتعالى - يريد أن يقول لك: هذه الجوارح التي تريد أن تستقبلني بها مطلوب منك أن تفد بها طاهرة نظيفة ظاهراً، وفي الوقت نفسه - وكما سيأتي في الحديث عن الأدب المعنوي - مطلوب منك أن تجعلها نظيفة الباطن، طاهرة اللب، صافية الجوهر، نقية المخبر.

٢. الغُسل:

وإلى جانب الوضوء يتجه بنا الأمر - ثانياً - إلى الغُسل، والمطلوب في الغُسل أن يغسل الإنسان كلَّ بدنه بحيث لا يبقى موضع إبرة لم يمسه الماء؛ والسبب كما استنبط بعض العارفين من مجمل الروايات بتعبير رسول الله ﷺ: «أنَّ تحت كلِّ

(١) نهج البلاغة / ٣٠٣، الخطبة ١٩٣.

والشيخ الشيبب رحمه الله يشير - هنا - إلى سلسلة محاضرات له في شرح خطبة أمير المؤمنين علي عليه السلام في (وصف المتقين)، التي قالها لصاحبه (همام).

شعرة جنابة»^(١)، بمعنى أنّ الإنسان الذي يجنب - كما يقول العارفون - ينحطّ إلى أسوأ دركات البهيمية، وإلى قعر التسافل في خضوعه لحالاته الحيوانية والشهوانية!! ليس شيئاً محرّماً شرعاً أن يقضي الإنسان شهوته ووطره في وجه حلال، ولكنّه ارتكاس إلى أسوأ ما يصل إليه الإنسان في الحيوانية والبهيمية، إنّهُ مضيّ محلّل خلف رغبات الجسد والشهوة واللذة، ومن ثمّ لكي يعرج من جديد إلى المقامات المعنوية والربوبية يجب أن يغسل كلّ هذا البدن المرتكس في حمأة الشهوة، وليس مجموعة من الجوارح فحسب؛ ولأنّ البدن ككلّ اشترك في هذه العملية والجنابة، احتاج بكلّ ذرة فيه أن يتطهّر.

٣. التيمّم:

وإذا فقد الماء، أو وجد ولم يمكن استعماله لضرر أو مرض أو حاجة شديدة له أو غير ذلك، أي انتفت (الطهارة المائية) بقسميها: الوضوء أو الغُسل؛ يلتجئ الإنسان إلى الرتبة الثالثة من الطهارات، وهي (الطهارة الترابية) حيث التيمّم بالصعيد والتراب، وتنتقل وظيفته من (الطهارة المائية) إلى (الطهارة الترابية)، التي يقول عنها ربّنا - جلّ وعلا -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾^(٢)، ويقول عنها الإمام الباقر عليه السلام، كما في حديث زرارة بن أعين: «إنّ التيمّم سِنين»^(٣)، ويقول عنها الإمام الباقر عليه السلام، كما في حديث زرارة بن أعين: «إنّ التيمّم

(١) علي بن الحسين بن بابويه القميّ (والد الشيخ الصدوق)، فقه الرضا / ٨٣، (باب الغُسل من الجنابات وغيرها)، وبحار الأنوار ٧٨ / ٥١، الباب ٣ (باب وجوب غُسل الجنابة وعمله وكيفيته وأحكام الجنُب)، ذيل الحديث ٢٣.

(٢) سورة النساء، الآية ٤٣.

(٣) مَنْ لا يحضره الفقيه ١ / ٧٣، (باب التيمّم)، ح ٢٢٢، ووسائل الشيعة ٢ / ٩٨٤، الباب ١٤ (باب عدم وجوب إعادة الصلاة الواقعة بالتيمّم إلا أن يقصّر في طلب الماء فتجب، أو يجده في الوقت فتستحب)، ح ١٢.

أَحَدُ الطَّهَّورَيْنِ»^(١).

المغزى المعنوي للتيّم:

والمغزى المعنوي للتيّم بالتراب أمور، منها:

الأول: تذكير الإنسان بمبدئه ومعه:

مشكلة الإنسان - فعلاً - النسيان، فالنسيان يأكل ذاكرته، فيخيّم عليه نسيان (من أين؟) أولاً، ونسيان (إلى أين؟) ثانياً، والتيّم بالصعيد والتراب جاء ليذكر الإنسان بمبدئه، وأنّه مخلوق من تراب، ويذكره بمعه، وأنّه صائر إلى التراب:

فهو حين يضع يده على التراب، ويمرّغ بها وجهه، أو يمرّ بيده التربة على وجهه يتذكر - من جهة - أنّه في أصل خلقته وتكوينه وبنيته آتٍ من هذا التراب، ومخلوق ومجبول من هذا التراب. ويتذكر - من جهة أخرى - أنّه في خاتمته ونهايته ومآله ومنتهاه راجع في يوم من الأيام إلى هذا التراب.

وهكذا.. فهو من التراب، وإلى التراب، وحين يتيّم يتذكر أصله الترابي ومبدأ خلقته، كما يتذكر مآله الترابي ونهاية خلقته: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾^(٢).

وبهذا التذكر وهذا الاستحضار لأصله ومنتهاه الترابيين يتملّكه إحساس عميق بالتواضع والذلة والعبودية لله، ويخشع قلبه، ويدعن لخالقه وبارئه، ولا ينسى حقارته؛ فيصنع من نفسه خصيماً لربّ العالمين، يقول الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾^(٣).

(١) وسائل الشيعة ٣ / ٣٨٦، الباب ٢٤ (باب وجوب تيّم الجُب وإن وجد من الماء ما يكفيه

للوضوء وحده)، ح ٥.

(٢) سورة طه، الآية ٥٥.

(٣) سورة النحل، الآية ٤.

الثاني: إرغام لأنف هذا الإنسان المتكبر:

التيّم فعل يقول للإنسان: أنت أيّها المترفع على هذا التراب، وأنت يا مَنْ ترى نفسك شموخاً وعلوّاً وعزة وأنفة، وأنت يا مَنْ صنعت لنفسك تختاً مِنَ الأبهة والفخامة والعظمة والجلال، ضع يدك على هذا التراب، ومرّغ وجهك فيه، وامسح به على يديك العزيزتين الغاليتين لديك؛ لكي تحطّم في نفسك صنم الترفع والتكبر والغرور والعجب.

التيّم يقول للإنسان: يا ابن آدم، ها أنت تمرّغ وجهك العالي.. بالتراب الوضيع الذي تطوّره بحذائك، فعلام الترفع؟!!

إحراز شطر الإيمان

يقول الرسول الأكرم ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»^(١).

وقد قلنا - فيما سبق -: إنّ للطهارة أربعة أقسام هي: إزالة الخَبَث عن البدن واللباس، والوضوء، والغُسل، والتيمّم، وأنّه يمكن إعادتها إلى قسمين هما: الطهارة من الخَبَث، والطهارة من الحَدَث.

ونقول الآن: إذا أُحرز الإنسان الآداب الظاهرة والآداب الباطنة لهذه الأقسام الأربعة من الطهارة فقد أُحرز بذلك شطر الإيمان، وسنبيّن - إن شاء الله - في بحوث لاحقة ما معنى أنّ (الطهور شطر الإيمان)؟

المطلوب في الأدب الظاهري أن يحافظ الإنسان قدر استطاعته على أداء هذه الأمور بصورتها التي أمر الله بها، فيؤدي أحكام الطهارة الحَبْثِيَّة، وطرّد رجس النجاسات المادية؛ بعقب المطهّرات، ويؤدي أحكام الطهارة الحَدَثِيَّة، وطرّد رجس النجاسات المعنوية؛ عبر الوضوء، والغُسل، والتيمّم.

هذه الأقسام الأربعة من الطهارة يجب أن يكون الإنسان على دراية كافية بها، وعلى دراية لِمَ شرع الله - سبحانه وتعالى - هذا الأدب ظاهراً؟، وعليه أن يحرز قبل

(١) صحيح مسلم ١/ ١٤٠، والدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ١/ ١٢، ومجمع البحرين ٣/ ٦٦، والسيد حسن القبانجي، مستند الإمام علي، تحقيق: الشيخ طاهر السلامي ٣/ ٥٧، الباب ٦ (في الوضوء وآدابه)، ح ١٥؛ وقد نسب السيد حسن القبانجي إلى الإمام علي عليه السلام.

دخوله فناء الصلاة، وقبل تكبيره للإحرام أنّه على طهارة، بمعنى أنّه متطهّر مستعد ومتهيّئ ومتأهب للقاء ربّ العالمين، ثمّ ينطلق من ذلك إلى معرفة السرّ وراء كون (الطهور شرطاً للإيمان).

أوليس أئمتنا - صلوات الله وسلامه عليهم - حين الوضوء كانت تعترهم حالات، وتحمرّ وجوههم أو تصفرّ، وترتعد فرائصهم، فهم وجلون خائفون؛ لأنّ الوضوء علامة استعداد أو قرب لقاء بالله العظيم - سبحانه وتعالى -، إنّّه لحظة التأهب للحضور في موعد عظيم مع ربّ العزة والجلال، مع جبّار السماوات والأرض، فخشية هذا اللقاء ومهابته تنعكس على قلوب الأئمة - صلوات الله وسلامه عليهم -، ومن ثمّ فالواحد منهم - وهو يتوضأ - يستشعر بكلّ كيانه أنّه يستعدّ للقاء ربّ العالمين.

ولو أردنا أن نقرب فكرة اللقاء هذه بمثال - مع حفظ الفارق بين المثال والأصل - فهم عليه السلام في حالة مثل الحالة التي تعترى كثيراً منّا عندما يقف على أهبة الدخول إلى موعد يجمعه مع شخص جليل القدر والمكانة والمهابة، كأن يكون على وشك مقابلة ملك أو وزير، فنحن في مثل هكذا حال قد يستبدّ بنا الخوف والهلع، ويتملكننا الاضطراب والارتباك، وتصبغنا صنوف من علامات الوجع، كتسارع النبض، وتلاحق النفس، وتقطعّ الصوت، وجفاف الريق، ورعدة الأعضاء!!

ولعلّ هذا الاستعداد التطهري للولوج في الصلاة ولقاء الله، والذي يتمّ بالطهارة من الخبث والحدّث؛ يشير إلى الاستعداد الأعظم للقاء الأعظم، لقاء الله في الآخرة!! هذا اللقاء اليوم بالله ربّ العالمين أمر يدخل في حيّز اختيارنا وحرّيتنا: نستطيع أن نفعله، ونستطيع أن نتركه، لكنّ هناك يوماً سنلتقي فيه بالله من دون اختيارنا وحرّيتنا، وسنصل إلى محطة اللقاء تلك شئنا أم أبينا، اشتقنا أم كرهنّا:

- ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا

عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿١﴾.

- ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (٢).

- ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (٣).

(١) سورة ق، الآية ١٩-٢٢.

(٢) سورة الشورى، الآية ٥٣.

(٣) سورة مريم، الآية ٩٣-٩٥.

مراتب الطهارة

بيِّنَا - فيما سبق - أنَّ رسول الله ﷺ ورد عنه أنَّه قال: «الطهور شرط الإيمان»^(١)، وهي جملة موجزة مكثفة، قليلة الكلمات، عميقة المعاني والدلائل؛ إذ كيف يمكن لتطهير البدن من الخَبَث والأوساخ؛ عبر الماء أو غيره من المطهَّرات، أو لتطهير النفس من الحَدَث؛ عبر مجموعة من الغسلات والمسحات، أو حتى عبر غسل الجسم كُلِّه (الغُسل)، أو عبر التيمُّم عوضًا عن الوضوء والغُسل؛ أن يشكِّل نصف الإيمان؟!

وباختصار: كيف يمكن للطهارة الخَبَثِيَّة والطهارة الحَدَثِيَّة أن تشكِّلَا نصف الإيمان؟!

وقد بيَّنَا أنَّ للطهور معنًى ظاهرًا بيِّنًا، وله معنى باطن عميق، بحسب ما يُستفاد من مثل هذا الحديث البديع الشذِّي الذي صدحت به مهجة نبينا الأكرم محمد ﷺ، ونريد أن نتحدَّث الآن عن مراتب الطهارة المقصودة من لفظة (الطهور) الواردة في الحديث النبوي الشريف، ومن مصطلح (الطهارة) الوارد في الأحاديث الشريفة والتعابير الأخلاقية والفقهية.

(١) صحيح مسلم ١ / ١٤٠، والدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ١ / ١٢، ومجمع البحرين ٣ / ٦٦، وفي مسند الإمام علي ٣ / ٥٧، الباب ٦ (في الوضوء وآدابه)، ح ١٥؛ نسبه السيّد حسن القبانجي إلى الإمام علي عليه السلام.

مراتب الطهارة:

للطهارة - كما يقول علماء الأخلاق - أربع مراتب:

المرتبة الأولى: تطهير البدن من الخبث والحَدَث والأدران:

وقد بينّا فيما مضى الحكمة التي تقف وراء حاجة الإنسان إلى إفراغ هذا الخبث من بدنه، والتخلص من نير ووطأة ثقله، وكيف أنّ الله - سبحانه وتعالى - من لطفه بعباده أن يلفتهم بين الفينة والأخرى إلى أمور تستوقفهم، وتكون لهم بمثابة جرس إنذار؛ لعلهم يفيقون من سُباتهم ويتذكرون.

وهنا ننقل رواية زاهرة عن مولانا الإمام الصادق - صلوات الله وسلامه عليه - حول هذا الموضوع، يقول عليه السلام:

«إنّما سُمّي المستراح مستراحاً؛ لاستراحة النفس من أثقال النجاسات، واستفراغ الأقدار والكسافات فيها، والمؤمن يعتبر عندها أنّ الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته، ويفرّغ نفسه وقلبه عن شغلها، فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر، ويتفكر في نفسه المكّمة في حال.. كيف تصير ذليلة في حال..، ويعلم أنّ التمسك بالقنعة والتقوى يورث له راحة الدارين؛ فإنّ الراحة: في هوان الدنيا، والفراغ من التمتع بها، وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة؛ فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها، ويفرّ من الذنوب، ويفتح باب التواضع والندم والحياء، ويجتهد في أداء أوامر الله واجتناب نواهيه؛ طلباً لحسن المآب وطيب الزلفى، ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكفّ عن الشهوات إلى أن يتصل بأمان الله تعالى في دار القرار، ويذوق طعم رضاه؛ فإنّ المعوّل على ذلك، وما عداه فلا شيء»^(١).

(١) مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة / ١٢٦، وبحار الأنوار / ٧٧ / ١٦٥، الباب ١ (باب علّة الغائط وتنته)، ح ٥، ومستدرّك الوسائل / ١ - ٢٦٦ - ٢٦٧، الباب ١٥ (باب أنّه يُستحب لمن دخل الخلاء تذكّر ما يوجب الاعتبار والتواضع والزهد وترك الحرام)، ح ١.

والمعاني الباطنية في دوحة هذا النصّ الثري المغدق كثيرة ومتشابكة، نقطف يسيرًا منها:

أ- راحة النفس والبدن:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنما سُمِّي المستراح مستراحًا؛ لاستراحة النفس من أثقال النجاسات، واستفراغ الأقدار والكسافات فيها».

فالإنسان حين يدخل الحمام يشعر بمدى النعمة الإلهية العظيمة التي أسبغها الله عليه، وتوجه بها؛ حين أمكنه من التخلّص من ضغط القدر، و«استراحة النفس من أثقال النجاسات، واستفراغ الأقدار والكسافات فيها».

فلو لم يكن بمقدور الإنسان التخلّص من هذا الضغط؛ لغدا شخصًا مفتتًا، تطحنه الآلام، وتصفعه الأمراض، وتسكنه الأوساخ والقذارات، ويستبدّ به التنن.

ب- العظة والاعتبار:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «والمؤمن يعتبر عندها أنّ الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته».

إنّ أفضل ما يروق للإنسان، وأفضل ما يشتريه، وأبهى ما يشتهي، هو الذي يضعه على مائدته، يعني أنّ هذا الموضوع على مائدته هو خالص حطام الدنيا، ومحصلة الجهد والظنى، وصفوة التعب والكدح، فهو يكدح ويشقى من أجل أن يشتري مأكولًا طيبًا، ومشروبًا لذيذًا، والموضوع الآن على مائدة الطعام، والذي سيدخل الجوف مع أنّه خالص حطام الدنيا، ولكن.. بعد ذلك ما هي عاقبته؟!، وما هي نتيجته؟!، وما هو متهاه؟!، وما هو المخلوص منه؟!

إنّ عاقبته ونتيجته ومتهاه ومآبه ومخلوصه أن يتحوّل إلى عذرة قدرة نتنة!!

ذاك هو الطعام الزكيّ والشراب السائغ، وهذا هو القذر الوسخ التنن!!

ذلك هو الخالص من الدنيا، وهذا هو المخلوص منها!!

فحين يقول الإمام الصادق عليه السلام: «والمؤمن يعتبر عندها أن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته»، يقصد من كلمة (عندها): أي عند استراحة النفس في بيت الخلاء، عندما يدخل المستراح.

إنّ مثل الشخص الذي تتحرّك مشاعره عندما يرى الطعام الزاهي قد تحوّل إلى عذرة مقرّزة، كمثّل من يعتبر عندما يرى الميت قد تحوّل إلى جيفة، يقول حفص بن غياث النخعي: «سَمِعْتُ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام عِنْدَ قَبْرِ وَهُوَ يَقُولُ: (إِنَّ شَيْئًا هَذَا آخِرُهُ لَحَقِيقٌ أَنْ يُزْهَدَ فِي أَوَّلِهِ، وَإِنَّ شَيْئًا هَذَا أَوَّلُهُ لَحَقِيقٌ أَنْ يُخَافَ مِنْ آخِرِهِ)»^(١).

ج - الموقف النفسي والعملي:

ويواصل الإمام الصادق عليه السلام إِمطار غيم نصّه الثري؛ حاكياً حال المؤمن مع الدنيا، ليقول: «ويفرّغ نفسه وقلبه عن شغلها، فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقدّر».

وفي هذا المقطع النير يبيّن لنا الإمام عليه السلام الموقف النفسي والعملي الذي اتخذه المؤمن حين أجال فكره واعتبر وتأمل في النتيجة المقرّزة التي انتهى لها الطعام الزاهي!!

يتجلى الموقف النفسي الشعوري الداخلي في قول الإمام: «ويفرّغ نفسه وقلبه عن شغلها، فيستريح بالعدول عنها وتركها»، أي أنّ الإنسان المؤمن المعتبر، أولاً: يخلّص نفسه وقلبه من ربة الاشتغال بهذه الدنيا الفانية الزائلة المتغيّرة، وثانياً: يشعر بحالة من الراحة النفسية بالعدول عن الدنيا وتركها، حالة نفسية بهيجة تظلل قلبه،

(١) الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (الصدوق)، معاني الأخبار/ ٣٤٣ (باب معنى قاصمات الظهر وبوار الأيّم)، ووسائل الشيعة ١١ / ٣١٥، الباب ٦٢ (باب استحباب الزهد في الدنيا وحدّ الزهد)، ح ١٤.

وتمدّ عليه أفياء السعادة والسرور.

وبعد هذا الموقف النفسي الشعوري ينطلق إلى الموقف العملي السلوكي الخارجي، ينطلق من دائرة الشعور إلى دائرة الفعل، وذلك بترك اللهث خلف حطام هذه الدنيا الزائلة بالمستوى الذي يستنكف فيه أن تطاله النجاسة والغائط والقذر، والذي يعبر عنه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر».

إلى أيّ حدّ يستنكف الإنسان من النجاسة والغائط والقذر؟!، وكيف يسعى بألف طريقة وطريقة للتخلّص منه؟!، وكيف يبذل غاية جهده لمغالبة رائحته النتنة بألوان الملطفات؟!، بهذا المستوى ينبغي أن يستنكف من الركض خلف تحصيل حطام الدنيا وجمعه وأخذه!!

هذا القذر والنجس الذي تريد أن تنفك منه مادياً، لا بدّ - أيضاً - أن يكون عندك نفس الاستنكاف المعنوي من أسبابه؛ لأنّ هذا القذر من ذاك الحطام.

د - معرفة الذات:

يقول الإمام الصادق عليه السلام في تصويره للمؤمن الداخل المستراح: «ويتفكّر في نفسه المكرّمة في حالٍ، كيف تصير ذليلة في حال!!»، «بعد معرفته إياها».

لا بدّ أن يفكّر الإنسان في نفسه المكرّمة المحترمة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(١)، كيف أنّها تضحى في حال آخر من حالاتها وفي بعض أوقاتها ذليلة مهينة حقيرة، وبالذات إذا أصاب الإنسان حصر في البول أو الغائط، أو سلس في البول، أو عدم تحكّم في خروج الغائط؛ وبهذا يعرف من هو؟، وما طبيعته؟، وما حجمه ومقداره؟

حين يجعل الله - سبحانه وتعالى - ضمن بُنى نظامه التكويني والطبيعي والفسيولوجي حاجة الإنسان الماسّة الملحة إلى ارتياد الحمّام وبيت الخلاء، فهو -

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

بفعله الحكيم الهادف هذا - يريد أن يُشعر الإنسان بواقع العبودية، وفعلية الحاجة إلى الله؛ فالإنسان هذه طبيعته، وهذه حاله، وهذا شكله، وتلك حاجته، كلّها بادية ظاهرة، وهو مع ذلك كلّه يشمخ بأنفه ويقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١)، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٢)، و﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾^(٣)، فكيف لو ترك من دون أوساخ، ومن دون حاجة إلى حمّام، ومن دون مرض، ومن دون ابتلاء؟! وما الذي سيحصل به حينئذ؟!

هـ - القناعة والتقوى:

يواصل الإمام الصادق عليه السلام عطاءه الهتّان، فيقول عن المؤمن: «ويعلم أنّ التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين؛ فإنّ الراحة: في هوان الدنيا، والفراغ من التمتع بها، وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة».

من مجمل مواقف هذا الإنسان المتأمل الداخل للخلاء يصل إلى يقين راسخ عميق بضرورة التمسك بالقناعة، والأخذ بحصن التقوى المنيع؛ لأنّ القناعة والتقوى تورث له راحة الدارين: راحة الضمير في الدنيا؛ لأنّ القناعة والتقوى ستجعلانه راضياً لا يتحرّق على شيء مُنح للناس، وزوي عنه^(٤)، أو لم يظفر به، وراحة الضمير في الآخرة، حين يبتهج بالجزاء الوفير الذي سيهبه الله إياه جزاء عمله في الدنيا، وزهده فيها.

ثمّ يوضّح الإمام الصادق عليه السلام لبّ الراحة النفسية أين يكمن؟، فيقول: «فإنّ الراحة في هوان الدنيا، والفراغ من التمتع بها، وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة».

(١) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٢) سورة القصص، الآية ٣٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٨.

(٤) يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لولديه الحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم - لعنه الله - : «أوصيكما بتقوى الله، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما» [نهج البلاغة / ٤٢١، الكتاب ٤٧].

إنَّه يكمن في أمور ثلاثة متكاملة متعانقة متواشجة هي:

- «هوان الدنيا»، وإعطائها حجمها الطبيعي الحقيقي، وعدم تضخيمها وعملقتها، وهو المقام الفعلي لها؛ بوصفها نعيمًا ظاهريًا محدودًا زائلًا حقيرًا.

- «والفراغ من التمتع بها»، واليأس منها، والعزوف عنها؛ فالتكالب على الدنيا هو ما ينغص حياة الإنسان، ويضيع وقته وجهده وراء اللهث خلف سراب.

- «وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة»، وهنا يقوم الإنسان بدور عملي، فيزيل النجاسة والقذارة، ويفرّ منهما، ويتعدّ عنهما، وتلك النجاسة مصداقان هما: الحرام، والشبهة.

الحرام: المورد المتحقّق حرّمته، المقطوع بتحريمه.

والشبهة: المورد الملبس بحرّمته، المظنون دخول الحرام فيه.

و - الأثر العقدي والأخلاقي والتشريعي:

وفي خاتمة النصّ العميق البديع هذا، يقول الإمام الصادق عليه السلام عن المؤمن:

«فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها، ويفرّ من الذنوب، ويفتح باب التواضع والندم والحياء، ويجتهد في أداء أوامر الله واجتناب نواهيه؛ طلبًا لحُسْن المآب وطيب الزلفى، ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكفّ عن الشهوات إلى أن يتصل بأمان الله تعالى في دار القرار، ويذوق طعم رضاه؛ فإنّ المعوّل على ذلك، وما عداه فلا شيء».

لا فائدة من التأمل إذا وقف عند حدود الفكر والنظر، بل.. لا بدّ أن يتبعه موقف عقدي وأخلاقي وتشريعي، ومن ثمّ تجلّت في هذا المقطع الشري الآثار الثلاثة مترافقة متواشجة.

يتمثّل الموقف العقدي في الاتصال بالله، والتعلّق به، واللجوء إلى ساحته

المقدّسة وحبّه، والحركة الدائبة نحو رضا الله ومراتب القرب والزلفى: «طلباً لحسن المآب، وطيب الزلفى»، «إلى أن يتصل بأمان الله تعالى في دار القرار، ويدوق طعم رضاه؛ فإنّ المعوّل على ذلك، وما عداه فلا شيء».

ويتمثّل الموقف الأخلاقي في ترك الكبر، والفرار من الذنوب، وفتح «باب التواضع والندم والحياء»، وسجن النفس «في سجن الخوف والصبر والكفّ عن الشهوات». بينما يتمثّل الموقف التشريعي في امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه «ويجتهد في أداء أوامر الله، واجتناب نواهيه».

إذاً.. المرتبة الأولى والمرحلة الأولى للطهارة هي: تطهير هذا البدن من (الخَبَث) والأوساخ والأقذار والنجاسات، أي تنظيف الظاهر وهو البدن، وتطهير النفس من (الحَدَث) بالوضوء أو بالغُسل أو بالتيمّم، والمطلوب هو الحالة المعنوية؛ ولذا عدّ الفقهاء - رضوان الله عليهم - على المشهور أنّ (الطهارة) ليست مجموع الغسلات والمسحات، فهذه هي الأسباب التي توصل إلى الطهارة، أما الطهارة - حقيقة - فهي الحالة النفسية التي تحصل من الوضوء والغُسل والتيمّم، وتبيح للإنسان الأحكام المنوطة بالطهارة والمتوقفة عليها^(١)، كالدخول في الصلاة، ومسّ آيات المصحف الشريف، والطواف حول الكعبة المشرفة.

فالطهارة ليست هي الغسلات والمسحات في الوضوء، وليست اسماً للوضوء

(١) إشارة إلى خلاف فقهي في تعريف (الطهارة): هل هي «اسم للوضوء أو الغُسل أو التيمّم على وجه له تأثير في استباحة الصلاة»؟، أم هي «حالة تحصل بعد الوضوء والغُسل والتيمّم، تبيح لصاحبها أحكام الطاهرين» [معجم ألفاظ الفقه الجعفري / ٢٧٢]. يقول السيّد عبد الأعلى السبزواري: «....؛ لما تقدّم من أنّ الغسلات والمسحات مع الشرائط سبب توليدي للطهارة» [السيّد عبد الأعلى السبزواري، مهذب الأحكام ٢ / ٢٦٣، المسألة ٢].

ويقول: «ومقتضى الأصل العملي كفاية المسح إليهما أيضاً؛ لأنّ المقام من الدوران بين الأقلّ والأكثر، سواء قلنا بأنّ المأمور به نفس الغسلات والمسحات، أم الطهارة الحاصلة منهما» [مهذب الأحكام ٢ / ٣٥٩].

والغُسل والتيمّم المبيح للصلاة - مثلاً -، بل هي النتيجة، أي الحالة والهيئة النفسية المتحقّقة من الوضوء والغُسل والتيمّم.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح من الآثام:

المرتبة الثانية في الطهارة هي: طهارة الجوارح من الآثام والموبقات.

هذه الجوارح كان مطلوباً منّا في المرتبة الأولى أن نطهّرها من درن الخبث والحدّث؛ لتستقبل ربّ العالمين نضرة مشرقة رائقة، فالباري - جلّ شأنه - يقول لنا: جوارح ملطخة بالنجاسة والوساخة لا تصعد بتضرّعها إلى ساحة القدس الإلهي، لا بدّ - أولاً - من إزالة تلك القذارة المادية والمعنوية عنها، وبعد ذلك ترتقي إلى درجة ثانية من الطهارة والنظافة هي: الطهارة من الذنوب والآثام والمعاصي والموبقات.

فإذا كانت العين تدأب على النظر إلى الحرام، وتختلس النظرة المحرمة، يلزم تطهيرها من ذلك، ثمّ نفذ بها إلى الله، ونتوجّه بها إليه، ونتطلع بها إلى سعة رحمته ومغفرته.

وإذا كان اللسان يلهج دائماً بالموبقات - والعياذ بالله -، ويمتهن الاشتغال بالكذب والغيبة والنميمة والسبّ والبهتان وإضرار الفتن بين الناس، ولتوّه قد خرج من غيبة الآدميين وفري أجسادهم وأكل لحومهم، ولا زالت دماؤهم القانية تشخب من جراحاته، وتسيل من الفم الجارح كالسيف وأعظم^(١)، فإن نقول به: (الله أكبر)

(١) يقول الحكيم الجاهلي أكثم بن صيفي: «كلم السنان أنكى من كلم اللسان» [أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ١ / ١٣٥، الخطبة ٨٥ (وصية أكثم بن صيفي لبنيه ورهطه)].

ويقول الشاعر:

وَجُرْحُ السَّيْفِ تَدْمُلُهُ فَيَبْرَأُ وَجُرْحُ الدَّهْرِ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

ويقول آخر:

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا التَّئَامُ وَلَا يَلْتَأَمُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ
[المرتضى الزبيدي، تاج العروس في شرح القاموس ١٤ / ٢٤٤، تحقيق: علي شيري، مادة: (دمل)].

و(سبحانَ الله) و(أستغفر الله ربِّي وأتوب إليه) ماذا يفيد؟!، هذا اللسان يجب أن يكون طاهرًا؛ ولذلك يقول الله تعالى في حديث قدسي لنبِيِّه الكليم موسى بن عمران عليه السلام: «ادعني بلسان لم تعصني به»^(١).

وإذا كانت الأذن تسترق السمع المحرّم، وتتلصص على الناس، وتتجسس عليهم، وتستمع إلى الغناء والغيبة والنميمة والسبّ والبهتان والأحاديث الكاذبة والحرام، فاقطعوها عن ذلك، ثم أوقفوها على الخير والصالح والعلم النافع.

وإذا كانت اليد نجسة ووسخة وملوثة بالحرام والشبهة والسرقة والجريمة والعدوان والقتل، فكيف تُرفع إلى الله؛ لتستمطر غيثه وعطاءه؟!، هذه اليد لا ترفعوها إلى الله، طهروها أولاً؛ لتتوفر فيها الأهلية والقابلية لأن تُرفع إلى الله.

وإذا كانت الرجل تسعى إلى الحرام، وتمشي إلى الزنا والسرقة والقتل والجريمة، فكيف تسعى إلى المسجد؟!، وكيف تمشي إلى الخير؟!، وكيف تتصب للصلاة؟!، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾^(٢).

كلّ هذه الجوارح وغيرها ينبغي إزالة القذارة عنها؛ حتى تستمطر سحب الكرم الإلهي والربّاني، ومثلها مثل إناء وسخ كلّما وضعت فيه ماءً صافياً ختمه بميسمه العكر، وأحاله وسخاً مثله؛ لذلك فالحلّ هو: أن يُغسل الإناء، ويُطهر، قبل وضع أيّ شيء فيه، وحينها سيكون مهياً أن يتلقى الماء الزلال الصافي.

قلنا: إنّ الله تعبّدنا بغسل الوجه الذي به نستقبل، وبغسل اليدين اللتين بهما نبطش، وبمسح الرأس الذي به نفكر، وبمسح الرجلين اللتين بهما نسعى.

إذا.. هذه الجوارح مطلوب في المرتبة الأولى نظافتها الظاهرة من الأقدار والنجاسات، ومطلوب في المرتبة الثانية نظافتها من الموبقات والمعاصي، أن نمشي إلى الصلاة برّجل طاهرة صافية، ندعو الله بلسان طاهر زكي، ونرفع إليه يدًا طاهرة

(١) بحار الأنوار ٩٠ / ٣٩٠، الباب ٢٦ (باب الدعاء للإخوان بظهر الغيب)، ح ٢٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤.

نقية، وهكذا..

إذا.. المرتبة الثانية من الطهارة: أن يطهّر الإنسان جوارحه من الآثام والموبقات والمعاصي - أعاذنا الله وإياكم -.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب من الأمراض والموبقات:

المرتبة الثالثة في الطهارة هي: أن يتطهّر الإنسان من موبقات الجوانح.

هناك جوارح، وهناك جوانح:

الجوارح هي: أعضاء الإنسان المحسوسة الظاهرة، كعينه، وأذنه، وأنفه، ولسانه، ويده، ورجله.

والجوانح هي: أعضاء الإنسان المعنوية المخفية، كالقلب.

وكما أنّ هناك أمراضاً أو معاصي تبثلي بها الجوارح، كالسرقة، والبطش، والغيبة، هناك أمراض تبثلي بها الجوانح، كالشك، والوسوسة، وسوء الظنّ، والحسد، والكراهية، والحقد، والغلّ في النفوس.

صحيح أنّ هناك جوارح، ولها أفعال، لكنّ الذي يقف خلفها هو القلب، وهو - بتعبير بعض علماء الأخلاق - (الرئيس الأعظم لهذه الجوارح)، الرئيس الذي تنطلق الجوارح عن أمره، وهي أمامه جنود أمام القائد، وهذا واحد مما يعطي الأهمية البالغة لتطهير القلب.

هذا القلب لا بدّ أن يطهّر، لا بدّ أن يُنقى، لا بدّ أن يُصَفّى، لا بدّ أن يُزكّى، لا بدّ أن يروّض؛ لأنّه هو الذي يعطي الأوامر للسان، وهو الذي يعطي الأوامر للعين، وهو الذي يعطي الأوامر للأذن، وهو الذي يعطي الأوامر للأنف، وهو الذي يعطي الأوامر لليد، وهو الذي يعطي الأوامر للرجل؛ ولذلك عدّوه المصدر الرئيس والموجه الأساس.

هذا القلب إن لم يُنقَّ فلن تتنقى الجوارح مهما حاولنا، ومهما بذلنا من جهد،

وسيكون السعي لتطهيرها عملاً عبثياً، مثل جداول ماء مصدرها ونبعها عكر ملوث، فكلّما نقينا الجداول والروافد والترع التي تستقي منه فإنّها لن تتنقّى؛ لأنّ المصدر خبيث - والعياذ بالله -، وإذا أردنا التطهير، فعلينا - أولاً - بتنقية النبع.

المطلوب في المرحلة الثالثة هو تطهير هذا القلب، هناك - فعلاً - أمراض في القلب تمنع الإنسان من التطهر، وبالذات فيما يرتبط - والعياذ بالله - بمظالم العباد، وبعلاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، وأمراض القلب أشدّ وأعظم وأدهى من أمراض الجسم.

قلب الإنسان لابدّ أن يكون نظيفاً تجاه الآخرين، صافياً طاهراً لا يحمل حقداً على مؤمن؛ لأنّه يختلف معه في رؤية أو عمل أو أسلوب، ولا يحمل حقداً على أخ؛ لأنّه منعه عطية.

تأمل صفاء الماء الرقاق الذي تذهب إليه في وضوئك وغسلك، واجعل قلبك بمستوى ذاك الصفاء!!

المرتبة الرابعة: تطهير السرِّ عمّا سوى الله:

المرتبة الرابعة في الطهارة هي: تطهير السرِّ عمّا سوى الله.

وهذه ليست مرتبة سهلة، نحن نعدّها في بحثنا من باب المعلومة فحسب؛ لأنّها - إنصافاً - من المراتب الخاصة بالأنبياء والأولياء والمخلصين والصادقين الذين لا يوجد في سرّهم سوى الله، فهم (أوعية لمشيئة الله) و(محالّ لإرادة الله)، كما نعبر عن الأئمة - صلوات الله وسلامه عليهم -، متى شاء الله شاؤوا، ومتى شاؤوا شاء الله؛ لأنّه لا يوجد في داخلهم غير الله، وفي سرّهم ليس هناك سوى الله؛ ولذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتُ الله قبله وبعده ومعه وفيه»^(١).

لاحظوا مولانا الإمام الشهيد الحسين بن علي - صلوات الله وسلامه عليه -

(١) مستند الإمام علي / ١ / ٨.

حين يصبك حجر أبي الحتوف جبهته الشريفة، وينشب السهم المثلث المشؤوم في لبة فؤاده، ويغدو جسمه كالقنفذ من كثرة السهام، وتتوالى السيوف والرماح والسهام والحجارة والنار عليه من كل صوب، وتصيبه الجراحات في كل حناياه، ويعيه نزع الدم، بحيث لا يستطيع الصمود على ظهر جواده، فيهوي على الأرض يصنع له وسادة من التراب، ويضع خده الشريف عليها، ماذا قال حينئذ؟!

في أول مرتبة من تلقى الحسين للأرض قال: «باسم الله وبالله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله»^(١).

فلننظر إلى الحسين.. أين هو؟!، وفي أية حالة هو؟!، وفي أية بحوثة من الاستغراق والعشق الإلهي يعيش؟!

ذاك طبعي على الحسين؛ لأنه ليس في قلبه غير الله!!

فالإنسان إذا كان ربّانيًا، ففي داخله لا يوجد سوى الله، يُعبّر عنه الحديث القدسي: «كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها»^(٢).

لقد طهر سرّه، فلم يعد في داخله سوى الله، وكانت جوارحه لا تصدر عن شيء سوى الله، فالله سمعه وبصره ولسانه ويده!!

(١) السيّد الشهيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسين / ٣٠٣.

(٢) الكافي ٢ / ٣٣٦، الباب ٣٣١ (باب مَنْ أذى المسلمين واحتقرهم)، ح ٧، ووسائل الشيعة ٣ / ٥٣، الباب ١٧ (باب تأكّد استحباب المداومة على النوافل والإقبال بالقلب على الصلاة)، ح ٦. والرواية المنقولة في (الكافي) كاملة: «عن حماد بن بشير قال: سمعتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام يقول: قال رسول الله ﷺ: قال الله - عز وجل - : من أهان لي وليًا فقد أَرصد لمحاربتي، وما تقرب إليّ عبد بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضتُ عليه، وإنّه ليتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبتّه، وإن سألني أعطيتّه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله كترددني عن موت المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته».

تطهير السرّ ليس أن يلهج لسان الإنسان بالأحاديث الخيرة، ويلهج بالأذكار، والتسبيح، والحمد، والتهليل، والتكبير، ويدأب على تكرار (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، ولكنّ في نفسه - والعياذ بالله - ألف شيطان وشيطان!!، ماذا ينفع ذلك؟!، «لا يُخَدِّعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ»^(١)، يمكن أن أخدعك وتخدعني، أضحك عليك وتضحك عليّ، يمكن أن ترى في آثار التقوى وسيماء الصلاح وما شاكل، وتغترّ بذلك، لكنّ الله - سبحانه وتعالى - مطّلع على ضمير الإنسان، لا تخفى عليه خافية، ولا تخدعه المظاهر الزائفة، «لا يُخَدِّعُ عَنْ جَنَّتِهِ!!».

لو جلستَ من أول الفجر إلى آخر الليل وحياتك التسبيح، ولكنّ بداخلك شيطاناً - لا سمح الله - فما نفع ذلك؟!، يمكن أن يقول جارك عنك: (ما شاء الله متهجّد بالأسحار، ولا يفتر عن الذكر في النهار!!)، لكنّ الله مطّلع، وهو - سبحانه - خير شريك يقول عن نفسه: «أنا خير شريك، مَنْ عمل لي ولغيري؛ فهو لِمَنْ عمل له دوني»^(٢).

إذا.. الطموح الأساس، والمنتهى والغاية في الطهارة أن يطهّر الإنسان سرّه عمّا سوى الله، فلا يوجد في داخله إلا الله كمعنى - تعالى الله عن الحلول -؛ فيكون نومه ويقظته، أكله وشربه، حركته وسكونه، كلامه وسكوته.. كلّ ذلك لله وبالله، ليس فيه شيء غير الله، نومه عبادة، وأكله عبادة، وشربه عبادة، وتسبيحه عبادة، وصلاته عبادة، وحياته كلّها عبادة، لا توجد حركة من حركاته تخرج عن إطار العبادة؛ لأنّه لا يوجد في داخله سوى معبوده!!: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

(١) نهج البلاغة / ١٨٧، الخطبة ١٢٩، وبحار الأنوار ١٠٠ / ١٠٨، الباب ٢ (باب الكيل والوزن)، ح ٨.

(٢) محمد بن مسعود بن عياش السلمي، تفسير العياشي ٢ / ٣٥٣، ومستدرّك الوسائل ١ / ١١١، الباب ١٢ (باب بطلان العبادة المقصود بها الرّياء)، ح ٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٦٢-١٦٣.

التخلية والتحلية:

إذا تحققت المراتب الأربع السابقة للطهارة، حصلنا على شطر الإيمان.. لماذا؟ لأن هذه المراتب الأربع تطهير ورفع، أي أنها (سلب)، لكن الأمر -بعد السلب- يحتاج أن تضع بديلاً له، أي يحتاج إلى (إيجاب):

أ- فإذا طهرت البدن من الأدران والنجاسات والأوساخ تضع النظافة مكانها.

ب - وإذا طهرت الجوارح من الآثام تحلّيتها بالأعمال الصالحة.

ج - وإذا طهرت القلب من الموبقات والصفات الرذيلة تضع فيه الفضائل والصفات الحسنة.

د - وإذا طهرت السر من الشيطان تحلّ فيه الله، وتسكنه فيه.

وبهذا يكون الطهور شطر الإيمان؛ لأنه يوفر (التخلية) ^(١): للبدن من الأدران،

(١) هناك ثلاث مراحل تُسمّى (مفتاح الحركة إلى الله)، أو (أبواب دخول الإنسان إلى لقاء الله)، أو (مراحل تركية النفس)، وهي:

١- (التخلية):

وهي: أن يتفرغ الإنسان ويتطهر عن العقائد الباطلة، والأخلاق والملكات الذميمة، والذنوب والمعاصي. فهي تشمل العقيدة والأخلاق والسلوك، أي تفرغ القلب من كل رين وحبّ وتعلّق بالدنيا، وترك جميع الرذائل، ورفع جميع الموبقات، واشتقت (التخلية) من (إخلاء) القلب من كلّ همّ وتعلّق؛ لله تعالى.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك،، وقطعت عنه كلّ شيء يقطعه عنك» [الصحيفة السجّادية / ٣١٦، (مناجاة المحبّين)].

٢- (التحلية):

وهي: أن يتصف الإنسان بالعقائد الحقّة، والأخلاق والملكات الحميدة، ويقوم بواجباته العملية، فهي - كذلك - تشمل العقيدة والأخلاق والسلوك، أي هي الاتصاف (بالفضائل)، وعملية وضع وإحلال الفضائل بدلاً من الرذائل التي نزع وتُرُفَع وتطهر وفُرِغ القلب منها. واشتقت (التحلية) من (التحلّي) بالفضائل.

- يقول الإمام السجّاد عليه السلام في (دعاء يوم عرفة): «وحلّني حلية المتقين، واجعل لي لسان

وللجوارح من الآثام، وللقلب من الموبقات، وللسرّ من الشيطان^(١)، والشرط الآخر

صدق في الغابرين، وذكرًا ناميًا في الآخرين» [الصحيفة السجّادية / ٢٢٦] (دعاؤه ﷺ في يوم عرفة).

- ويقول الإمام السجّاد ﷺ: «اللهم صلّ على محمد وآله، وحلّني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتقين في بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة، وضمّ أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة، وستر العائبة، ولين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة، و....» [الصحيفة السجّادية / ٩٩] (دعاؤه ﷺ في مكارم الأخلاق).

- ومن دعاء اليوم الثاني عشر في شهر رمضان: «اللهم زين لي فيه الستر والعفاف، واسترني فيه بلباس القنوع والكفاف، وحلّني فيه بحلّي الفضل والإنصاف، بعصمتك يا عصمة الخائفين» [بحار الأنوار ٩٥ / ٣٥] (باب أدعية كلّ يوم وكلّ ليلة من شهر رمضان، وسائر أعمالها)، فصل فيما يختصّ باليوم الثاني عشر منه من دعاء غير متكرّر.

٣- (التجلية):

وهي عملية ظهور آثار حبّ الله على الإنسان، وظهور بركات الاتصال به، واشتقت من (التجلّي) وظهور آثار وكرامات حبّ الله في حياة المحبّ.

- يقول الإمام السجّاد ﷺ: «وجلّني شرائف نحلّك في المقامات المعدة لأحبائك» [الصحيفة السجّادية / ٢٢٦] (دعاؤه ﷺ في يوم عرفة).

- ويقول ﷺ: «جلّلتني نعمك من أنوار الإيمان حُللاً، وضربت عليّ لطائف برك من العزّ كلّاً» [الصحيفة السجّادية / ٢٢٦] (مناجاة الشاكرين).

وإذا توفر الإيمان عبر (التخلية) و(التحلية)؛ ظهرت الآثار والكرامات على يدي صاحبه (أي التجلية)، ومنها استجابة الدعاء.

والمرحلتان: الأولى والثانية هما مرحلتا دخول، بينما المرحلة الثالثة هي مرحلة وصول. (١) واضح أنّ عبارة أستاذنا المرحوم الشيخ الشبيب (قدّس سرّه الشريف): «ولذا يكون الطهور شرط الإيمان؛ لأنّه يوفر (التخلية): للبدن من الأدران، وللجوارح من الآثام، وللقلب من الموبقات، وللسرّ من الشيطان» لم تردّ الجمل الأربع في خاتمتها؛ لتشكّل مجرد معطوفات لفظية أو زخرفة جمالية، وإنّما هي جمل أربع بالغة الدقة تقابل كلّ واحدة منها مرتبة من مراتب الطهارة الأربع التي تحدّث عنها:

أ- فالتخلية من (الأدران والنجاسات والأوساخ، أي من الخبث والحَدَث) توجد طهارة (البدن).

ب - والتخلية من (الآثام) توجد طهارة (الجوارح).

ج - والتخلية من (الموبقات) توجد طهارة (القلب).

د - والتخلية من (الشيطان) توجد طهارة (السرّ).

من الإيمان هو (التحلية) التي توفر الفضائل والصفات الحسنة الخيرة الصالحة التي يتحلّى بها الإنسان، فتكون حلية، وهذا ما يعبر عنه بعض العرفاء في قولهم: هناك (تخلية) و(تحلية).

فالشرط الأول من الإيمان هو (التخلية)، والشرط الثاني منه هو (التحلية)، والظهور يوجد (التخلية)؛ ولذلك عبر عنه حديث النبي ﷺ بأنه (شرط الإيمان).

الخاتمة:

إذا تحققت هذه المراتب الأربع للطهارة، وهي:

الأولى: طهارة البدن من الخبث والحادث والأدران.

الثانية: طهارة الجوارح من الآثام.

الثالثة: طهارة القلب من الأمراض والموبقات.

الرابعة: طهارة السرّ عما سوى الله.

يكون الإنسان - فعلاً - قد تطهر.

إذا وصل الإنسان إلى هذه المراتب بالفعل والحقيقة، فحينذاك يستحق أن يدخل المسجد، ويستعدّ للقاء الله - عزّ وجلّ -: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾^(١).

وإذا وصل الإنسان إلى هذه المراتب بالفعل والحقيقة، فحينذاك لن يعترض ويقول: كيف أدعو ولا يُستجاب لي؟!، فحينها يُستجاب له قطعاً^(٢).

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

(٢) وبهذا يكون هناك (تخلية، وتحلية، وتجلية)، (تخلي، وتحلي، وتجلي)، وإذا حصل التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل، ظهرت التجليات، ومنها استجابة الدعاء.



الأدب الرابع

الأذان

الأذان

ورد في الأحاديث الشريفة الحثّ الكبير البالغ على الأذان والإقامة، حتى قال بعض فقهاءنا بوجوبهما على المكلف^(١)، وإن كان الأظهر والذي عليه مدار الفقهاء

(١) يقول الشيخ يوسف البحراني (صاحب الحقائق):

«اختلف الأصحاب - رضوان الله عليهم - في الأذان والإقامة: وجوبًا واستحبابًا، عمومًا وخصوصًا:

فذهب الشيخ في (الخلاف) إلى أنّهما مستحبّان، ليسا بواجبين في جميع الصلوات: جماعة صُليّت أو فرادى. وهو اختيار السيّد المرتضى - رضي الله عنه - في (المسائل الناصرية)، وهو مذهب ابن إدريس، وسَلَّار، والظاهر أنّه هو المشهور بين المتأخرين.

وأوجب الشيخان الأذان والإقامة في صلاة الجماعة، واختاره ابن البرّاج وابن حمزة، وأوجبهما السيّد المرتضى في (الجُمْل) على الرجال دون النساء في كل صلاة جماعة: في حضر أو سفر، وأوجبهما عليهم في السفر والحضر في الفجر والمغرب وصلاة الجمعة، وأوجب الإقامة خاصة على الرجال في كلّ فريضة.

وقال في (المبسوط): ومتى صُلّي جماعة بغير أذان ولا إقامة لم تحصل فضيلة الجماعة والصلاة ماضية.

وقال ابن الجُنيد: الأذان والإقامة واجبان على الرجال: للجمع والانفراد، والسفر والحضر، في الفجر والمغرب والجمعة يوم الجمعة، والإقامة في باقي الصلوات المكتوبات التي تحتاج إلى التنبيه على أوقاتها.

وجعلهما أبو الصّلاح شرطًا في الجماعة.

وقال المرتضى في (المسائل الناصرية): اختلف قول أصحابنا في الأذان والإقامة: فقال قوم: إنّهما من السنن المؤكّدة في جميع الصلوات، وليسا بواجبين، وإن كانا في صلاة الجماعة

والفقه المعاصر هذا اليوم استحبابهما المؤكد:

فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أذنت وأقمت صلي خلفك صفان من الملائكة، وإذا أقمت صلي خلفك صف من الملائكة»^(١).

وفي حديث آخر ينقل المفضل بن عمرو أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من صلي بأذان وإقامة صلي خلفه صفان من الملائكة، ومن صلي بإقامة بغير أذان صلي خلفه صف واحد، قلت له: وكم مقدار كل صف؟، فقال: أقله ما بين المشرق والمغرب، وأكثره ما بين السماء والأرض»^(٢).

كما ورد في الحديث: «أن من صلي بأذان وإقامة صلي خلفه صفان من الملائكة، ومن صلي بإقامة بغير أذان صلي خلفه صف واحد، وحد الصف ما بين المشرق والمغرب»^(٣).

وفي الفجر والمغرب وصلاة الجمعة أشد تأكيداً، وهذا الذي أختاره، وأذهب إليه. وذهب بعض أصحابنا إلى أنهما واجبان على الرجال خاصة دون النساء في كل صلاة جماعة في سفر أو حضر، ويجبان عليهم جماعة وفرادى في الفجر والمغرب وصلاة الجمعة. والإقامة دون الأذان تجب عليهم في باقي الصلوات المكتوبات. وجعل في (الجمل) قوله في (المسائل الناصرية) رواية.

وقال ابن أبي عقيل: من ترك الأذان والإقامة متعمداً بطلت صلاته إلا الأذان في الظهر والعصر والعشاء الآخرة؛ فإن الإقامة مجزئة عنه، ولا إعادة عليه في تركه، وأما الإقامة فإنه إن تركها متعمداً بطلت صلاته وعليه الإعادة.

والأصل في هذا الاختلاف: ما يترأى من اختلاف الأخبار [الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة ٧/ ٣٥٢-٣٥٣، باب (حكم الأذان والإقامة)].

ثم يعرض الشيخ يوسف البحراني (قدس سره الشريف) رأيه، فيقول: «وبالجمله، فالظاهر من الأخبار المذكورة بضم بعضها إلى بعض، وحمل مطلقها على مقيدها، ومجملها على مفصلها.. هو استحباب الأذان دون وجوبه: في جماعة كانت أو فرادى»، [الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة ٧/ ٣٥٧، باب (حكم الأذان والإقامة)].

- (١) وسائل الشيعة ٤/ ٦٢٠، الباب ٤ (باب استحباب الأذان والإقامة لكل صلاة فريضة)، ح ٣.
- (٢) وسائل الشيعة ٤/ ٦٢٠-٦٢١، الباب ٤ (باب استحباب الأذان والإقامة لكل صلاة فريضة)، ح ٧.
- (٣) وسائل الشيعة ٤/ ٦٢٠، الباب ٤ (باب استحباب الأذان والإقامة لكل صلاة فريضة)، ح ٦.

وهنا مجموعة من النقاط تستوقفنا في البحث عن الأذان والإقامة:

النقطة الأولى: الأذان رمز لدعوة الله لعباده:

فالأذان يرمز لدعوة الله لعباده بشكليين:

١- الأذان دعوة اختيارية لحضور الضيافة الإلهية:

يُعتبر الأذان رمزاً لدعوة الله لعباده، بمعنى أنّ الله - سبحانه وتعالى - يدعو عباده لضيافته، ويدعو عباده للوقوف بين يديه، ويدعو عباده لدخول فناءه الأرحب، ويهيب بهم أن يحضروا في ساحة قدسه، فـ «مَنْ يَلْبِي يَلْبِي» - كما عبّروا -، بمعنى أنّ من يستجيب لهذا النداء في هذه الحياة يستجيب لذلك النداء في الحياة الأخرى.

وقد ورد في رواية عبد الله بن سنان، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «لما أمر الله - عزّ وجلّ - إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببنائ البيت، وتمّ بناؤه؛ أمره أن يصعد ركنًا ثمّ ينادي: (ألا هلمّ الحجّ)، فلو نادى: (هلموا إلى الحجّ) لم يحجّ إلا من كان يومئذ إنسياً مخلوقاً، ولكنه نادى: (هلمّ الحجّ)، فلبّى الناس في أصلاب الرجال: (لييك داعي الله، لبيك داعي الله)، فمَنْ لَبَّى عشراً حجّ عشراً، ومَنْ لَبَّى خمساً حجّ خمساً، ومَنْ لَبَّى أكثر فبعدد ذلك، ومَنْ لَبَّى واحداً حجّ واحداً، ومَنْ لم يلبّ لم يحجّ»^(١).

فالنبي إبراهيم حين صدحت حنجرته عالياً، ونادى برفيع صوته في الناس بالحجّ؛ لبّاه بعض بني آدم وهم في ظهور آبائهم، وهم في صورة الذرّ، وهم في صورة الأرواح، وقالوا هناك: (لييك داعي الله)، وكلّ إنسان يفد إلى عالم الدنيا بعد ذاك النداء الخالد لأبنائنا إبراهيم يحجّ بعدد ما لبّى النداء هناك ويومذاك:

(١) الكافي ٤ / ٤٠٦، (باب حجّ إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت، ومَنْ وَلِيَ البيت بعدهما عليهما السلام)، وعلل الشرائع ٢ / ١٢٤، الباب ١٥٨ (باب العلة التي من أجلها يكون في الناس مَنْ يحجّ حجّة، وفيهم مَنْ يحجّ حجّتين أو أكثر، وفيهم مَنْ لا يحجّ أبداً)، ح ١.

فَمَنْ لَبَّى هُنَاكَ يَلْبَى هُنَا، ويكون عدد حججه هنا عدد تليياته هناك، فإذا لَبَّى هُنَاكَ مرّة واحدة فقط، يحجّ هنا مرّة واحدة فقط، وإذا لَبَّى هُنَاكَ مرتين حجّ هنا مرتين، وإذا لَبَّى هُنَاكَ خمس مرات يحجّ هنا خمس مرّات، وإذا لَبَّى هُنَاكَ عشر مرّات يحجّ هنا عشر مرّات، وهكذا...، والذي لم يلبّ هناك أصلاً لن يحجّ هنا بتاتاً!!

كذلك نداء المؤذن، فقول المؤذن داعياً الناس: (حيّ على الصلاة) و(حيّ على الفلاح) و(حيّ على خير العمل) يشكّل نداء من الله إلى عباده، مَنْ يَلْبَى هُنَا فِي الدُّنْيَا يسعد هناك في الآخرة.

فهذا الأذان دعوة اختيارية؛ لكي تحضر بين يديّ الله، وهذا نوع كرم ولطف من الكريم اللطيف، فمن كرم الله ورحمته وشفقته بعباده أن دعاهم إلى ضيافته والنزول بساحته، أو ليس كرمًا هذا؟!

مَنْ نَحْنُ لَكِي يَدْعُونَا اللَّهَ إِلَى ضَيْفَاتِهِ؟!، إنه كرم من الله، وسيب هطول من نعمه السابعة، لكنّ المجيء اختياريًا خير من المجيء كرهاً، أنت الآن في الدنيا مخير بين أن تستجيب لهذا النداء، وتهبّ إليه؛ فتسعد، أو لا تستجيب له، وتضرب به عرض الحائط؛ فتشقى، ولكن في يوم القيامة لا يوجد أحد مخير، ولن يعطى أحد آنذاك شيئاً من أزمنة الأمور ومقاليدها الخيارات حتى يستجيب أو لا يستجيب، يوم القيامة ينادى الجبار في الخلائق: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(١).

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، لقد انتفت كافة الملكيات الاعتبارية، وزالت الملكيات الظاهرية والمصطنعة والمزيفة، وتكشّف أنّ الملك الحقيقي ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وحده، فهناك لا يوجد إنسان يكلفه الله أن يصنع شيئاً، لقد انتهت فترة الاختيار الطوعي بانتهاء الدنيا، وأسدل عليها الستار، وحلّ عالم الجزاء، العالم الذي لا طوع فيه لأحد أن يتمرد على دعوة الله:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ

(١) سورة غافر، الآية ١٦.

نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ
بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ
لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَشِّرْهُم بِمَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ
زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا
خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ
نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١﴾.

في ذاك اليوم تزول الموانع، وتتكشف الحُجُب، وتظهر الحقائق: ﴿لَقَدْ كُنْتَ
فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ﴿٢﴾.

المجيء والحضور بين يدي الله - عز وجل - سيكون في ذلك اليوم حضور
فرض وقسر وإجبار، شئنا أم أبينا، فالله الجواد الكريم منحنا في الدنيا خمسين سنة أو
ستين، أو سبعين، أو ثمانين، أو تسعين، أو غير ذلك... ونحن نسمع نداء الأذان كلَّ
يوم خمس مرَّات يجلجل في الآفاق: (الله أكبر) و(حيَّ على الصلاة)، و(حيَّ على
الفلاح)، و(حيَّ على خير العمل)، هذه دعوة مجانية طوعية للحضور، تدعونا برفق
ولين وحنان، وتقول لنا: (تعالوا إلى الله)، (أقبلوا على الصلاة)، (أقبلوا على الفلاح)،
(أقبلوا على خير العمل)، ونحن الآن في عالم الدنيا باختيارنا أن نلبي هذه الدعوة
الطوعية، أو أن نضرب عنها صفحاً وكشعاً، رهن إرادتنا أن نحضر أو لا نحضر، أما
حين يصدق نداء القيامة نافخاً في الصور فحضورنا بين يدي الله في ساحة المحشر
جبري لن نستطيع التخلف عنه.

(١) سورة الزمر، الآية ٦٨ - ٧٤.

(٢) سورة ق، الآية ١٩ - ٢٢.

ما ضررنا لو قطعنا انشغالاتنا عند سماع الأذان؟!

في بعض الأوقات تمرّ على أناس مندمجين في أحاديث معيّنة والمنادي يصدح بالصلاة!!، ما ضرر أيّا منهم أن يقطع هذا الكلام دقائق معيّنة، ويلجأ إلى ربّه، إنّ الحكايات لا تنتهي، والأشغال لا تنقضي، والعمل لن يطير، وقد قلنا: إنّ نداء الأذان هذا.. هو النداء الطوعي الاختياري الذي يتمّ هذا اليوم في عالم الدنيا، والمؤذن حين ينادي: (حيّ على الصلاة) و(حيّ على الفلاح) و(حيّ على خير العمل)، فنداؤه هذا كناية عن ذلك النداء الجبري الذي سيصدق به إسرافيل معلناً قيام القيامة وبدء المسير الجبري إلى الله، حين ينفخ في الصور، ذلك النداء الذي لن يتخلف عنه أحد ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾^(١).

إذا أذن المؤذن هذا الأذان فيجب أن ينقطع الإنسان عن الناس، وعن الأعمال، وعن كلّ شاغل، وعن كلّ صارف، ويمضي ليستقبل القبلة، وقد قلنا: إنّ الاستقبال رمز، والنية رمز، والتكبير رمز، كلّها رموز إلى هذا التوجّه العظيم إلى الله، وإلى المثل الطوعي بين يدي الله، وإلى الانقطاع إلى الله: «إِلَهِي هَبْ لِي كَمَالَ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ..»^(٢)، كما يقول أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه - في مناجاته الشعبانية.

٢- نداء الأذان رمز لهول القيامة:

نداء الأذان اليوم رمز لنداء يوم القيامة.

نداء المؤذن في الدنيا رمز لهول يوم القيامة ولهول النداء في يوم القيامة. ولهذا اعتبر العارفون نداء الأذان بمثابة نداء يوم القيامة، وجعلوا صيحة المؤذن ودعائه الناس إلى الصلاة كنفس الصور ودعوة الله عباده إلى البعث والنشور، والخروج

(١) سورة النبأ، الآية ١٨.

(٢) بحار الأنوار ٩١ / ٩٩، باب (مناجاة مولانا علي عليه السلام والأئمة عليهم السلام في شهر شعبان)، ومفاتيح الجنان / ١٨٧ (المناجاة الشعبانية لأمر المؤمنين عليه السلام).

من القبور والمثول بين يديّ الله - عزّ وجلّ - .

والجامع المشترك بينهما: أنّهما معاً دعوة للمثول بين يديّ الله تعالى، فالأذان دعوة لترك رداء النوم والانغماس في القول والشغل والعمل، والالتذاذ بالمأكل والمشرب، وغير ذلك... والحضور بين يديّ الله، ونفخة الصور دعوة للنهوض من القبر ومن عالم الموت إلى مقابلة ربّ العالمين في ساحة القيامة.

طبعاً.. انطلاق وعينا من نداء الأذان إلى نداء يوم القيامة ليس بهذه السهولة، فنحن مشكلتنا أنّنا بمداركنا المحدودة ومقاييسنا المحدودة لا يمكن أن نستوعب المقاييس التي تحكم ذلك العالم الآخر، لا يمكن أن نتصوّر تلك النظم ونحن لا نملك فكرة كافية عنها، فضلاً عن كونها خارقة لتصوّراتنا ومداركنا، كما لا يمكن للطفل في بطن أمه - بمقاييسه المحدودة وعالمه الضيق - أن يستوعب مقاييس عالم الدنيا، مهما شرحنا له الأمر، ومهما أفضنا وأسهبنا له في الشرح والتفصيل والتوضيح والتقريب والتمثيل.

المقاييس الحاكمة للعالم الآخر:

هناك مقاييس أخرى تحكم ذلك العالم القادم (عالم الآخرة)، وتدير دفته، غير مقاييس عالمنا الدنيوي التي اعتدناها، وتعودنا على طبيعة التعامل معها، واستثمارها، بل.. وتوجيه دفعة بعضها لصالحنا.

مقاييس ذاك العالم مهولة مخيفة، تبدأ من لحظة الموت، وتتجلى عظمتها في ساحة المحشر والحساب وعذاب النار؛ ولذا يقول رسول الله ﷺ عن مفتتح هذا العالم: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»^(١).

نحن نرى أنّ (الناس يقطّون، فإذا ماتوا ناموا)!!، والرسول ﷺ يصدق بعكس ذلك تماماً!!

(١) بحار الأنوار ٥٠ / ١٣٤، الباب ٣ (باب معجزات الإمام أبي الحسن الهادي، ومكارم أخلاقه)، ذيل الحديث ١٥.

نحن نرى الناس بحواسنا يقظين منتبهين: يتحرّكون، ويعملون، يأكلون، ويشربون، يذهبون، ويأتون، يتزوجون، وينجبون، وغير ذلك..، فإذا ماتوا توقفت حياتهم، وانقطعت حركتهم، وتحولوا من عالم الحياة والحيوية والفعل إلى عالم الموت والجمود والشلل والتوقف، وانتقلوا من عالم الحراك المنفتح إلى عالم السكون المطبق.

والسبب في رؤيتنا هذه: اعتمادنا في الحكم على مقاييسنا الظاهرية والمحدودة، وجهلنا بمقاييس ذلك العالم الآخر، فرؤيتنا مقصورة على ما توفره لنا أدوات الحسّ!!

أما النبي ﷺ وهو الذي يعلم مقاييس العالم الآخر، فتتسع الرؤية عنده إلى مدى أوسع من أدوات حسّنا الضيقة، فالوحي يميّط له اللثام عن حقائق ذلك العالم وواقعه، ويفتح لنا كوة يرى منها عالم الغيب والعالم الآخر، وما وراء المادة والحسّ، فيرى النبي ﷺ تلك الحقائق، ويشخصها؛ ولذلك فهو يدرك تمام الإدراك أنّ الناس يعيشون في الدنيا في أسار حياة ضيقة محدودة أشبه بالمجازية والخيالية، وحواسهم محدودة لا تدرك إلا النزر اليسير، فإذا ماتوا انكشفت عن عيونهم الأغشية والحُجُب، وانقشعت عن بصائرهم سحب الستر، فغدوا يرون حقائق الأمور، وصاروا يرون العالم الكبير اللامحدود حيث الملائكة وكلّ ما هو غائب عنا الآن..

ولهذا تعبّر الأحاديث الشريفة عن الخطوة التي يخطوها الإنسان من هذه الحياة إلى الموت والقبر، والانتقال من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة بـ (هول المطلع)^(١)، فهي لحظة اطلاع حضوري و يقيني وعيني على حقائق مهولة من ذلك العالم الآخر، وهذا الاطلاع شيء مرعب مفزع مهول مخيف، لا يتصوّره الإنسان:

(١) (المطلع): اسم مكان أو اسم مفعول، من الاطلاع، ويعني أمر الآخرة، وشاع في الحديث إطلاقه على يوم القيامة، وموقف القيامة، وما بعد الموت، أو ما يشرف عليه من أمر الآخرة عقب الموت، فشبه بالمطلع الذي يشرف عليه من مكان عالٍ [انظر: الكافي ٢/ ٥٠٦، الباب ٤٤٤ (باب الدعاء عند النوم والانتباه)، ح ١٣، الحاشية ٨، ومن لا يحضره الفقيه ١/ ١٢١، (باب الصلاة على الميت)، ح ٤٩٨، الحاشية ٣].

فعن عبد الرحمن بن الحجاج قال: «كان أبو عبد الله [الصادق] عليه السلام إذا قام آخر الليل يرفع صوته حتى يسمع أهل الدار ويقول: اللهم أعني على هول المطلع، ووسّع عليّ ضيق المضجع، وارزقني خير ما قبل الموت، وارزقني خير ما بعد الموت»^(١).

ومن ثم تأتي الأحاديث الشريفة وحنانها الجمّ بالعباد؛ لتطلب من مشيعي الميّت أن لا يهروا به لقبره في دفعة واحدة، وتدرّج إنزاله القبر في ثلاث دفعات^(٢)؛ حتى يتخفّف عليه وقع النازلة الجلل والخطب الفظيع.

فقد ورد في الحديث: «إذا أتيت بالميت القبر: فلا تفدح به القبر؛ فإنّ للقبر أهوالاً عظيمة، وتعوّذ من هول المطلع، ولكن ضعه قرب شفير القبر، واصبر عليه هنيئة، ثمّ قدّمه قليلاً، واصبر عليه ليأخذ أهبتة، ثمّ قدّمه إلى شفير القبر»^(٣).

ويقول الإمام الرضا عليه السلام عن الميت: «وإذا حملته إلى قبره فلا تفاجئ به القبر، فإنّ للقبر أهوالاً عظيمة، وتعوّذ بالله من هول المطلع، ولكن.. ضعه دون شفير القبر، واصبر عليه هنيئة، ثمّ قدّمه إلى شفير القبر»^(٤).

وقد شبّه بعض العارفين الأمر بخروج الإنسان من رحم أمه إلى الحياة الدنيا، كيف يصرخ حين يولد ويخرج من بطن أمه إلى هذه الحياة، ويملاً مسامع الزم من بكاء وعويلًا؟! وعويلًا؟!!

لماذا يبكي ويصرخ؟

لأنّه كان يعيش ضمن مقاييس معيّنة، وإذا به يرى عالمًا آخر ومقاييس أخرى؛ فيصعق من الصدمة، ويولول من الهول.

(١) الكافي ٢ / ٥٠٦، الباب ٤٤٤ (باب الدعاء عند النوم والانتباه)، ح ١٣.

(٢) يقول المحقّق الحلّي في (مستحبات دفن الميّت): «وأن ينقله في ثلاث دفعات» [الشيخ نجم الدين جعفر بن الحسين الهذلي (المحقّق الحلّي)، شرائع الإسلام ١ / ٣٤، المسألة الرابعة (في مواراته الأرض)].

(٣) علل الشرائع ١ / ٣٠٦، الباب ٢٥١ (العلة التي من أجلها لا يفاجأ بالميت القبر)، ح ٢.

(٤) فقه الرضا / ١٧٠.

إنَّ واحدًا فقط من تلك المقاييس التي اختلفت أنَّه كان في كيس مشيمي مأمون لا يشعر فيه بضغط الهواء، وإذا به الآن ينقطع عنه الحبل السري، ويشعر بضغط الهواء الثقيل على رئتيه وجسمه.

صور من أهوال العالم الآخر:

أ. سكرات الموت:

هذا الهول الذي يواجهه الطفل الوليد الخارج من رحم أمه ضاعفًا غير متناهية؛ لتقرب صعوبة الموت ومعاناة خروج الروح، وآلام مغادرة الإنسان لهذا العالم الفاني..

يقول الله - جلَّ وعلا -:

- ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾^(١).

- ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾^(٢).

- ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ للموت لغمرات هي أفظع من أن تُستغرق بصفة، أو تعتدل على عقول أهل الدنيا»^(٣).

- ويقول الرسول صلَّى الله عليه وآله: «لم يلقَ ابن آدم شيئًا قطَّ منذ خلقه الله أشدَّ عليه من الموت، ثم إنَّ الموت لأهون مما بعده»^(٤).

- ويقول صلَّى الله عليه وآله: «أحضروا موتاكم، ولقنوهم: (لا إله إلا الله)، وبشروهم بالجنة؛ فإنَّ

(١) سورة ق، الآية ١٩.

(٢) سورة القيامة، الآية ٢٦-٣٠.

(٣) نهج البلاغة / ٣٤١، الخطبة ٢٢١.

(٤) كنز العمال ١٥ / ٥٦٩، (باب سكرات الموت)، ح ٤٢٢٠٩.

الحليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصارع، وإنَّ الشيطان أقرب ما يكون من ابن آدم عند ذلك المصارع. والذي نفسي بيده، لمعاينة ملك الموت أشدَّ من ألف ضربة بالسيف. والذي نفسي بيده، لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كلَّ عرق منه على حياله»^(١).
- ويقول ﷺ: «لمعالجة ملك الموت أشدَّ من ألف ضربة بالسيف»^(٢).
- ويقول ﷺ: «أدنى جذبات الموت بمنزلة مئة ضربة بالسيف»^(٣).

ب- تهاوي النظام الكوني:

وإذا كانت تلك المشاهد المفزعة السابقة تحكي صورة الموت وخروج الروح، فهناك مشاهد أشدَّ هولاً ورعباً تحكي تهاوي النظام الكوني بأسره، وقيام الساعة:
- ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾^(٤).
- ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾^(٥).
- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(٦).

ج- البعث والنشور:

وهناك مشاهد مفزعة تحكي البعث وخروج الإنسان من قبره متوجّهاً إلى ساحة المحشر:

- ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ

(١) كنز العمال ١٥ / ٥٥٦، باب (تلقين الميت)، ح ٤٢١٥٨.

(٢) كنز العمال ١٥ / ٥٦٩، (باب سكرات الموت)، ح ٤٢٢١٠.

(٣) كنز العمال ١٥ / ٥٦٩، (باب سكرات الموت)، ح ٤٢٢٠٨.

(٤) سورة الانفطار، الآية ١-٣.

(٥) سورة التكويد، الآية ١-٦.

(٦) سورة الزمر، الآية ٦٨.

يَوْمَ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا
ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ
يَخَافُ وَعِيدِ ﴿١﴾.

- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ
بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾ (٢).

- ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكُرٍ * خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ
الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (٣).
- ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا *
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بَأْنَ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ (٤).

د- وجاء يوم القيامة!!

ثم يأتي يوم الهول الأكبر، والخطب الأدهى، وهو يوم القيامة، اليوم العظيم
المذهل، يوم الفزع الأكبر، يوم ملاقة الله، والحساب، وملاقة الأعمال، ونصب
الموازين، ونشر الصحف، وتطاير الصحف، والمشى على الصراط، ثم عالم الأبدية
والخلود، حيث التنعم بالجنة أو مكابدة عذاب النار!!

وإذا كان رب العالمين - وهو العظيم - يعبر عن يوم القيامة بأنه ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾،
فيقول: ﴿إِنَّ زُلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (٥)، فكيف أستطيع أنا وأنت أن نتصور مدى

(١) سورة ق، الآية ٤١-٤٥.

(٢) سورة يس، الآية ٥١-٥٤.

(٣) سورة القمر، الآية ٦-٨.

(٤) سورة الزلزلة، الآية ١-٦.

(٥) سورة الحج، الآية ١.

عظمته وهيبته؟!

لست أنا - الحقيير - الذي أعبر عن ذلك اليوم بـ (العظيم)، بل.. الله العظيم،
العلي الأعلى، جبار السماوات والأرض، يعبر عن ذلك اليوم بأنه ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، ثم
يعرض لنا ألواناً من عظمته، بحيث ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ
حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(١).

ويقول - جلّ وعلا - عن ضراوة هول ذلك اليوم: ﴿يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ
وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ
إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾^(٢).

إنّ تعبير ﴿يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ تعبير مجازي تقوله العرب عند تكشف الهول
والشدة وظهوره.

يقول ابن منظور في (لسان العرب): «وفي حديث القيامة: يكشف عن ساقه،
الساق في اللغة: الأمر الشديد، وكشفه مثلٌ في شدة الأمر، كما يُقال للشيخ: يده
مغلولة، ولا يد ثم ولا غلّ، وإنّما هو مثل في شدة البخل، وكذلك هذا: لا ساق هناك
ولا كشف، وأصله: أنّ الإنسان إذا وقع في أمر شديد يُقال: شمر ساعده، وكشف عن
ساقه للاهتمام بذلك الأمر العظيم....، كقولهم: قامت الحرب على ساق، ولسنا ندفع
مع ذلك أنّ الساق إذا أُريدت بها الشدة فإنّما هي مشبّهة بالساق هذه التي تعلو القدم،
وأنّه إنّما قيل ذلك؛ لأنّ الساق هي الحافلة للجملة والمنهضة لها؛ فذكرت - هنا -
لذلك تشبيهاً وتشنيعاً، وعلى هذا بيت الحماسة لجذّ طرفة (في الحرب):

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشرّ الصّراخ»^(٣)

(١) سورة الحجّ، الآية ٢.

(٢) سورة القلم، الآية ٤٢-٤٣.

(٣) لسان العرب ٦/ ٤٣٦، مادة (سوق).

آثار الأذان:

هذا النداء اليوم هو نفس النداء لذلك اليوم، لبّ هنا لتسعد هناك، تعاطَ إيمانياً مع هذا الأذان؛ لتجد الثمرة متجسّمة متجسّدة في الآخرة في صورة نعيم مقيم، وملك خالد لا يزول، ورضوان من الله أكبر.

لو نظرتَ بحبٍّ وود وعشق ووله وهيام لهذا الأذان، وتجاوبتَ معه إيمانياً وعملياً بالحضور المبكر للمثول بين يدي الباري ومعانقة الصلاة؛ لشعرتَ بالبهجة والسعادة لسماعه، والحنين إليه وإلى الصلاة، ولناديتَ مع رسول الله ﷺ بملء كيائك كلاً: «أرحنا بالصلاة، يا بلال»^(١)، وعندئذ يتجسّم فعلك الإيماني هذا أمناً عند النفخ في الصور، وطمأنينة يوم الفرع الأكبر.

في الحديث عن رسول الله ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»^(٢). يقول أحدهم معلّقاً على هذا الحديث: ما فائدة ذلك؟، لو صار عند بني آدم عنق زرافة فهل تلك ميزة؟!

فائدة ذلك أجاب عنها أحد العلماء فقال: في يوم القيامة يغطّي العرق نصف قامة الإنسان، أو يغطيها إلى الترقوة، أو يغطي الإنسان بأكمله، فالعرق هناك يتفايض في المحشر، ويغمر الناس كأنّه المحيط الخضم، ويوم يكون لدى الإنسان عنق طويل يتوفر له عنصر من عناصر السعادة والراحة؛ لأنّ عنقه سيعلو على العرق، وهامته سترتفع عن بحره اللجّي.

والذي يسمع المنادي هنا يقول: (حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على

(١) بحار الأنوار ٥٠ / ١٣٤، الباب ٣ (باب معجزات الإمام أبي الحسن الهادي، ومكارم أخلاقه)، ذيل الحديث ١٥.

(٢) الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القميّ (الصدوق)، عيون أخبار الرضا ٧٦ / ٢، ح ٢٤٩، ووسائل الشيعة ٥ / ٣٧٦، الباب ٢ (باب استحباب تولي أذان الإعلام والمداومة عليه ورفع الصوت به)، ح ٢١.

خير العمل)، فيغرد كالهزار، ويقول: (لبيك داعي الله) - كما ورد في الحديث -^(١)، ويلتزم الصلاة، ويتشبّث بها في وقتها، يسعد هناك، ويكون ممن ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾^(٢).

في ساحة المحشر ظلمات متكاثفة متراكبة، ونور المؤمن يسعى بين يديه، فيزيح عنه عتمة الدرب، ويريه الطريق، وغير المؤمن متخبط في الظلمات، ومن شدة الظلام وتكاثفه يلتفت الذين يخوضون في الظلمات إلى المؤمنين فيقولون: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾^(٣).

انتظرونا قليلاً؛ لعلنا نقتبس جذوة من نوركم، ونرى الطريق بشمسكم، فتأتيهم الإجابة الصاعقة: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، فهذا النور لم يصنع هنا حيث القيامة، وإنما جاء من هناك.. من الدنيا، صنعه الإيمان والقول الصالح والعمل الصالح في عالم الدنيا، وسرعان ما يُنهي هذا المشهد الحركي الصاحب بأن يُضرب بين المؤمنين والكافرين بسور (حاجز)، فيمتاز الطرفان، ويتميّز كلّ منهما عن الآخر: فرقة في جهة، وفرقة في الجهة الأخرى.

هذه هي النقطة الأولى فيما يرمز إليه الأذان.

النقطة الثانية: الأذان إقرار بحقيقة أن الأمور من الله، وإلى الله:

نحن نبدأ الأذان بتكبير الله، ونختمه بتهليل الله، أي نبدؤه بـ (الله أكبر)، ونختمه بـ (لا إله إلا الله)؛ وهذا الترتيب السماوي البديع لم تُنسج حلته الزاهية هكذا عبثاً، بل

(١) الكافي ٤ / ٤٠٦، (باب حج إبراهيم وإسماعيل وبنائهما البيت، ومن ولي البيت بعدهما ﷺ)، وعلل الشرائع ٢ / ١٢٤، الباب ١٥٨ (باب العلة التي من أجلها يكون في الناس من يحج حجة، وفيهم من يحج حجّتين أو أكثر، وفيهم من لا يحج أبداً)، ح ١.

(٢) سورة التحريم، الآية ٨.

(٣) سورة الحديد، الآية ١٣.

جاء ليحكي معاني سامية، منها:

- أن نعلم أن الله هو الأول، وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن.

- وأن نعلم أن الأمور كلّها من الله، وإلى الله، تبدأ من الله الذي أخرجها من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وتنتهي إليه حين يُفني كل شيء، وتصير كل الأشياء إليه: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^(١).

النقطة الثالثة: ما ترمز إليه فصول الأذان:

وستحدث عنها مفصلاً في الموضوع القادم..

(١) سورة الشورى، الآية ٥٣.

من أحفل الروايات عن (علل الأذان) رواية ينقلها الفضل بن شاذان، عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، ذكرت أن من علله: التذكير للناسي، والتنبيه للغافل، والتعريف لمن جهل الوقت، تقول الرواية:

«إنما أمر الناس بالأذان لعل كثيرة، منها: أن يكون تذكيراً للناسي، وتنبيهاً للغافل، وتعريفاً لمن جهل الوقت واشتغل عنه، ويكون المؤذن بذلك داعياً لعبادة الخالق، ومرغباً فيها، ومقرراً له بالتوحيد، ومجاهراً بالإيمان، معلناً بالإسلام، مؤذناً لمن ينساها. وإنما يقال له (مؤذن)؛ لأنه يؤذن بالأذان بالصلاة.

وإنما بدأ فيه بالتكبير وختم بالتهليل؛ لأن الله - عز وجل - أراد أن يكون إلا بذكره واسمه، واسم الله في التكبير في أول الحرف، وفي التهليل في آخره.

إنما جعل مثنى مثنى؛ ليكون تكراراً في آذان المستمعين، مؤكداً عليهم: إن سها أحد عن الأول لم يسه عن الثاني، ولأن الصلاة ركعتان ركعتان؛ فلذلك جعل الأذان مثنى مثنى.

وجعل التكبير في أول الأذان أربعاً؛ لأن أول الأذان إنما يبدأ غفلة، وليس قبله كلام ينبيه المستمع له، فجعل الأوليان تنبيهاً للمستمعين لما بعده في الأذان.

وجعل بعد التكبير الشهادتان؛ لأن أول الإيمان هو التوحيد، والإقرار لله - تبارك وتعالى - بالوحدانية، والثاني الإقرار للرسول عليه السلام بالرسالة، وأن إطاعتهما ومعرفتهما مقرورتان، ولأن أصل الإيمان إنما هو بالله وبرسوله.

وإنما هو نداء إلى الصلاة في وسط الأذان، ودعاء إلى الفلاح، وإلى خير العمل.

وجعل ختم الكلام باسمه كما فتح باسمه «مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ١ / ٢٩٩، باب (علة

تشريع الأذان)، ح [٩١٤].

إِلَامَ ترمز فصول الأذان؟

أولاً: ما يرمز إليه قولنا: (الله أكبر):

عن عظمة التكبير يقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: التسبيح نصف الميزان، والحمد لله يملأ الميزان، والله أكبر يملأ ما بين السماء والأرض»^(١).

إن قولنا في الأذان: (الله أكبر) رمز عظيم وجليل له تفسيرات مختلفة:

التفسير الأول: الله أكبر من كل شيء:

جملة (الله أكبر) ترمز إلى أن الله أكبر من كل شيء، فنحن حينما يتملكنا الإعجاب بشيء والذهول منه، نقول: (سبحان الله)، أو (الله أكبر)، يعني أن كل ما يشده بالنا، ويقتحم نفوسنا، ويبهرننا؛ فالله أجل منه وأكبر.

وحين نقول في أذاننا أو تكبيرة إحرامنا أو بعد الاعتدال من ركوعنا وسجودنا أو غير ذلك: (الله أكبر) يجب أن نستشعر في داخلنا أن الله في الواقع أكبر، وليس ذاك مجرد لفظة تُحكى، وعبارة مرسلة تجري على الألسن، بينما نؤمن في واقع أنفسنا وقرارة وجداننا بأن المال أكبر، وأن المنصب أكبر، وأن السلطان أكبر، وأن الشهوات

(١) الكافي ٢ / ٥٠٦، (باب التسبيح والتهليل والتكبير)، ح ٣.

أكبر، فيقول الله - عز وجل - لمن يفعل ذلك منّا: «يا كذاب، أتخدعني؟!»، وعزّتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري، ولأحجبك عن قربي والمسرّة بمناجاتي»^(١).
هذه خديعة من الإنسان لنفسه وذاته، وليست لله؛ لأنّه «لا يُخدعُ الله عن جَنَّتِه»^(٢).

أنا وأنت نستطيع أن نخدع بعضنا بما لو أزيح عنه غشاء الستر لما وثق أحد منّا في الآخر، ولما شهد جنازته: «لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَافْتُمْ»^(٣)، وقد تنظلي علينا أحابيل الخداع، لكننا لا نستطيع أن نخدع المطلع على السرائر والغيوب الذي ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٤).

قد يجري على لسان الواحد منّا قول: (الله أكبر) بوصفه - لا سمح الله - مجرد لفظ يحكيه لسانه، وقلبه مليء بهذه الدنيا وما فيها من زخرف ومتاع، ومتشبّث بأذيالها حتى آخر قشّة ورمق، وحينها فهو لم يكبر الله في الحقيقة والواقع، فالذي يكبر الله في الحقيقة والواقع هو ذلك الشخص الذي يعتقد أنّ الله أكبر من كلّ شيء، وترشّح آثار اعتقاده على سلوكه، وبالتالي لا يخاف شيئاً، ولا يرغب في شيء سوى الله: «اللهم صلّ على محمد وآله، وهب لي الغداة رضاك، وأسكن قلبي خوفك، واقطعه عمن سواك، حتى لا أرجو ولا أخاف إلا إياك»^(٥).

إذا كان أحدنا معتقداً أنّ الله هو الأكبر؛ فعليه أن يعيش بإحساس نابض مفعم بالصدق أنّ الله وحده هو الذي يُخَاف، وهو وحده الذي يُرْجى، وهو وحده الذي

(١) جامع السعادات ٣ / ٣٤٧.

(٢) نهج البلاغة / ١٨٧، الخطبة ١٢٩، وبحار الأنوار ١٠٠ / ١٠٨، الباب ٢ (باب الكيل والوزن)، ح ٨.

(٣) عيون أخبار الرضا ١ / ٥٨، ح ٢٠٤، وبحار الأنوار ٧٤ / ٣٨٣، باب ١٥ (مواعظ أمير المؤمنين وخطبه وحكمه)، ح ١٠.

(٤) سورة غافر، الآية ١٩.

(٥) مصباح المتهجد / ٢٧٩، الدعاء ٣٨٧، وبحار الأنوار ٨٦ / ٣٠٧، الباب ٣ (باب أعمال ليلة الجمعة وصلاتها وأدعيّتها)، ح ١١.

تتطلع إليه عين الرجاء، وهو وحده الذي تُمدّ له يد الآمال؛ إذ ما قيمة عبد مهين من الناس لا يُخاف ولا يُرجى ولا يُؤمل حتى أكبره بدلاً من الله؟!، أما الذي يكبر الله حقاً فينطبق عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «عظم الخالق في أنفسهم؛ فصغر ما دونه في أعينهم»^(١).

السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام يُتصور في الشكل الظاهري المنظور الذي دخلت به إلى قصر يزيد أنها كانت منهزمة ذليلة، فقد قُتل أولياؤها، وغُلّت يداها بالحبال، وقيدت في أصفاد السبي والأسر، ولكن - في رسم الواقع - فإن الصديقة زينب عليها السلام كبرت الله في أعماق قلبها؛ فصغر ما دونه في عينها، ومن إحساسها بكبرياء الله ارتدت ثوب العزة والشموخ والإباء، ومن ثمّ فمن يكون يزيد عندها؟!، لقد خاطبته غير آبهة بكبريائه المصطنع، ووقفت أمامه موقف البطولة والشجاعة والعظمة، وراحت حشاشتها الدافقة كالبركان اللاهب تخطب خطابها المجلجل في القلوب والأسماع، والذي ذكر الحاضرين بكلام أبيها أمير المؤمنين عليه السلام وخطاباته، وقرعت يزيد في مجلسه، وحوله جنده وخدمه وحشمه، وقالت:

«أمن العدل - يا ابن الطلقاء - تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهنّ، وأبديت وجوههنّ؟!، تحدو بهنّ للأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرهنّ أهل المناهل والمناقل، ويتصفّح وجوههنّ القريب والبعيد، والدنيّ والشريف؟!....، ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك، إنّي لأستصغر قدرك، وأستعظم توبيخك، وأستكثر تقريعك، لكنّ العيون عبرى، والصدور حرّى،...، فكيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميّت وحيّنا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترخص عنك عارها، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين»^(٢).

(١) نهج البلاغة / ٣٠٣، الخطبة ١٩٣.

(٢) السيّد ابن طاووس، اللهوف في قتلى الطفوف / ١٠٦، باب (خطبة زينب في الشام)، وبحار الأنوار ٤٥ / ١٣٥، الباب ٣٩ (باب الوقائع المتأخرة عن قتل الحسين عليه السلام).

إنَّه خطاب البطل الشجاع الصلب المقتنع بإمساك يده بحبل الله الوثيق وعروته الوثقى، المستهزئ بخيلاء المتغطرسين، خطاب المستهجن للظالم وزعيقه الطَّانِ الخاوي، خطاب من لا يرى لمن يخاطبه قيمة وقدرًا، هذا هو كِبَر الخالق في النفس، وبالتالي صَغَر ما دون الخالق في العين، من هو فلان؟!، ومن هو غيره حتى يخشاه الإنسان، ويمتلئ منه مهابة وخوفًا؟!، والأمر أنَّ «مَنْ خاف الله أخاف الله منه كلَّ شيء، وَمَنْ لم يخف الله أخافه الله من كلِّ شيء»^(١)، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام. من يخف غير الله يصبح شخصًا مهزوزًا جبانًا، ويضحى كلَّ شيء لديه مخيفًا يبتَّ عواصف الفزع، وينشر أجنحة الذعر.

وهكذا.. فمما يبينه قول (الله أكبر): أنَّه تعالى أكبر من كلِّ شيء، كلَّ ما يُطلق عليه (شيء)، فالله تعالى أكبر منه، وقد نقل الشيخ الكليني رواية أبي بصير أنَّ الإمام الصادق عليه السلام دعا عند الحجر الأسود فقال: «الله أكبر من خلقه، الله أكبر ممَّا أخاف وأحذر»^(٢).

ملاحظات على التفسير الأول:

ولنا على تفسير جملة (الله أكبر) بـ (الله أكبر من خلقه)، أو (أكبر من كلِّ شيء)، أو (أكبر من أيِّ شيء) ثلاث ملاحظات:

أ. الخطأ اللغوي:

إنَّ جملة التفضيل - من الناحية النحوية - تختزن في أحشائها ثلاثة أجزاء هي: المفضَّل، والمفضَّل عليه، واسم التفضيل، وتحمل في لبِّ دلالتها اللغوية مقارنة بين شيئين اشتركا في صفة واحدة، وتفوق أحدهما على الآخر فيها، وذاتك الطرفان هما: المفضَّل، والمفضَّل عليه، والذي تفوق فيهما هو المفضَّل.

(١) الكافي ٢/ ٧٣، الباب ٢١٩ (باب الخوف والرجاء)، ح ٣.

(٢) وسائل الشيعة ٧/ ١٩٢، الباب ٣٤ (باب استحباب الإكثار من الصلاة على محمد وآله عليهم السلام)، ح ٣٣.

فحين نقول: (محمد أطول من علي)، فهذا يعني أنَّهما اشتركا في صفة واحدة هي الطول، فكلاهما طويل فارغ، لكنَّ محمداً تفوّق على علي في هذه الصفة.

وهذه المقارنة كما تتم في الأمور الحسية كالمثال السابق، تتم في الأمور المعنوية، فحين نقول: (حسن أعلم من سعيد)، فهما مشتركان في صفة العلم، والمقارنة ليست بين عالم يترشح العلم من بين جوانحه / وجاهل تفيض الجهالة من نواحيه، بل.. هي مقارنة بين شخصين يرتديان حلة العلم الزاهية البهية، لكنَّ أحدهما تفوّق في العلم على الآخر.

ومن ثم لا يصحّ أن نقول: (قمة إيفرست أرفع من الكرسي)؛ لأن ليس ثمة مقارنة بينهما في الارتفاع، فالكرسي مهما علا لن يزيد ارتفاعه - في العادة - على مترين، فلا يقارن بقمة تسمو برأسها لتناطح السحاب، حيث تعلو ٨٨٤٨ متراً، أي قرابة تسعة كيلومترات^(١).

ولا يصحّ أن نقول: (الجمل أكبر من النملة)، فما هي المقارنة بين جمل ضخّم، ونملة صغيرة لا تعادل شيئاً أمام حافره، فضلاً عن مقارنتها به ككل؟!

وإذا اتضح ما مضى نقول: إن تفسير (الله أكبر) بـ (أكبر من خلقه)، أو (أكبر من كلّ شيء)، أو (أكبر من أي شيء)، تفسير يعقد الموازنة والمقارنة بين طرفين: الطرف الأول هو (الله)، والطرف الثاني هو (الخلق) أو (كل شيء) أو (أي شيء)، والواقع أن لا شيء يقارن بالله، فالله هو الخالق البارئ العظيم، وغيره مخلوق مصنوع حقير، وكل شيء موجود به، قائم به، صائر إليه^(٢)، وإذا قيس شيء به فوجوده وجود مجازي

(١) مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الموسوعة العربية العالمية ٣ / ٥٤٥.

(٢) ورد في (دعاء الجوشن الكبير): «يا مَنْ كل شيء خاضع له، يا مَنْ كل شيء خاشع له، يا مَنْ كل شيء كائن له، يا مَنْ كل شيء موجود به، يا مَنْ كل شيء منيب إليه، يا مَنْ كل شيء خائف منه، يا مَنْ كل شيء قائم به، يا مَنْ كل شيء صائر إليه، يا مَنْ كل شيء يسبح بحمده، يا مَنْ كل شيء هالك إلا وجهه» [الشيخ إبراهيم الكفعمي العاملي، البلد الأمين والدرع الحصين / ٤٠٥، دعاء الجوشن الكبير، الفقرة (لز). ومفاتيح الجنان / ١٢١، دعاء الجوشن الكبير، الفقرة ٣٧].

لا يُقارن بالوجود المطلق.

وهذا الوعي اللغوي المرهف هو ما دفع الإمام الحسن المجتبي عليه السلام أن يقول لمعاوية: «وحاش لله أن أقول: (أنا خير منك)؛ فلا خير فيك، ولكن الله برّاني من الرذائل، كما برّأك من الفضائل»^(١).

فلا قياس بين الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان؛ حتى يستعمل الإمام الحسن فعل التفضيل (خير) الدالّ على اشتراك شيئين في صفة واحدة، وتفوق أحدهما على الآخر فيها؛ لأنّ لا قياس بين إمام معصوم (برّاه الله من الرذائل)، وآخر دنيء (برّاه الله من الفضائل)!!

ب - المحذور الشرعي:

سنرى في بسايتين روايات التفسير الثاني الآتي التي تفسّر جملة (الله أكبر) بـ (الله أكبر من أن يُقاس)، أنّ الجمل التي تحمل في طياتها المقارنة مثل: (الله أكبر من كلّ شيء)، أو (الله أكبر من أيّ شيء) تستلزم محذورات دينية شرعية، منها:

- أنّها تفرض شيئاً آخر غير الله قابل للمقارنة؛ لأنّها تشيد بناءها على عنصر المقارنة، والمقارنة لا تتمّ إلا بين شيئين فأكثر متقاربين في الصفة.

- كما تستلزم تحديد الله بوجود أكبر من تلك الأشياء، بما يستبطن شبهة كون الله محسوساً أو محدوداً متناهيّاً، وإن كان أكبر من غيره من الأشياء.

(١) بحار الأنوار ٤٤ / ١٠٤، الباب ٢٠ (باب سائر ما جرى بين الإمام الحسن - صلوات الله عليه - وبين معاوية)، ح ١٢، والرواية كاملة هي:

«قال معاوية للحسن بن علي عليه السلام: أنا خير منك يا حسن، قال: وكيف ذاك يا ابن هند؟! قال: لأنّ الناس قد أجمعوا عليّ، ولم يجمعوا عليك، قال: هيهات هيهات، لشّر ما علوت، يا ابن آكلة الأكباد، المجمعون عليك رجالان: بين مطيع ومكره، فالطائع لك عاصي لله، والمكره معذور بكتاب الله، وحاش لله أن أقول: أنا خير منك؛ فلا خير فيك، ولكن الله برّاني من الرذائل كما برّأك من الفضائل».

وهذه المعاني التي تنوء بثقلها جمل المقارنة فاسدة وباطلة، نجّل الله عنها، فالله أكبر من أن يُقاس، وأكبر من أن يوصف، وأكبر من أن يُدرك، و«أكبر من أن يُقاس بالناس، أو يدخل تحت القياس»^(١)، وسنرى ذلك في رحاب المعاني الثلاثة القادمة لجملة (الله أكبر).

ويقول المولى محمد صالح المازندراني في (شرح الكافي): «كما روي في (الله أكبر) من أن معناه: (الله أكبر من أن يوصف)، لا أنه (أكبر من كل شيء)؛ فإنه لا يُقاس بشيء حتى يقال: (إنه أكبر منه)»^(٢).

ويرى بعض علمائنا كراهة حكاية جمل المقارنة بين الله وخلقه، وقد توجّج الحرّ العاملي أحد أبواب كتابه (وسائل الشيعة) بعنوان: (باب كراهة أن يُقال: الله أكبر من كل شيء، بل يُقال: من أن يوصف)^(٣).

ج - التأويل المعنوي:

وفي حال ورود كلمات تحمل - ظاهراً - المقارنة بين الله وخلقه - كالحديث السابق الذي نقله ثقة الإسلام الكليني، عن الإمام الصادق عليه السلام؛ فإننا لا نفسرها بالمعنى المقارني المتكئ على القياس والموازنة بين الله وخلقه، بل نفسرها بالمعاني الصحيحة لقولنا (الله أكبر)، ومنها المعاني الثلاثة التي سنبحثها في النقاط التالية، أي أن الله أكبر من أن يُقاس، وأكبر من أن يوصف، وأكبر من أن تُدرك ذاته.

التفسير الثاني: الله أكبر من أن يُقاس:

مما ينبئ عنه واقع التكبير أن جملة (الله أكبر) رمز يمدّ ظلاله الوارفة إلى مفهوم

(١) السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي، شرح إحقاق الحقّ ٢٧ / ١٨٥.

(٢) المولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي ١٢ / ٢١٧، باب (خطبة لأُمير المؤمنين عليه السلام).

(٣) وسائل الشيعة ٧ / ١٩٢، الباب ٣٣ (باب كراهة أن يُقال: (الله أكبر من كل شيء)، بل يُقال: (من أن يوصف)، وذكر فيه الحرّ العاملي ثلاثة أحاديث.

عميق الغور هو أنّ الله تعالى أكبر من أن يُقاس؛ لأنّه لا يُقاس الله بشيء، ولا يُقاس شيء بالله؛ ولذا ورد في بعض الأحاديث أنّ قول (الله أكبر من كلّ شيء)، وإن كان في أحاديث أخرى مرخصاً به، لكن.. أريد منه: أن يحقق معنى (لا تقس).

فقد «قال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام: يا ابن عمّ خير خلق الله، ما معنى رفع يديك في التكبيرة الأولى؟، فقال عليه السلام: قوله (الله أكبر)، يعني الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، لا يُقاس بشيء، ولا يلتبس بالأجناس، ولا يُدرك بالحواس»^(١).

وقال ابن الأزرق - وكان رأس الخوارج الأزارقة - للإمام الحسين عليه السلام: «يا حسين، صف لي إلهك الذي تعبد»، فأجابه عليه السلام: «يا ابن الأزرق، أصف إلهي بما وصف به نفسه، أكبر من أن يُقاس بالناس، أو يدخل تحت القياس، أو يُدرك بالحواس، قريب غير ملتصق، بعيد غير مستقصى، لا إله إلا هو الكبير المتعال»، فقال ابن الأزرق في إعجابه بوصف الحسين عليه السلام: «قد نبأ الله عنكم أنّكم قوم خصمون»^(٢).

وعندما صدح الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام بخطبته الصاعقة في مجلس يزيد بن معاوية بالشام، أمر يزيد المؤذن أن يؤذن حتى يقطع على الإمام خطبته، «فلما قال المؤذن: (الله أكبر)، قال علي بن الحسين: (كبرت كبيراً لا يُقاس، ولا يُدرك بالحواس، ولا شيء أكبر من الله)»^(٣).

وروي عن محمد بن عبد الله الخراساني خادم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: «دخل رجل من الزنادقة على الرضا عليه السلام عنده جماعة، فقال له أبو الحسن عليه السلام: أيها الرجل، أرايت إن كان القول قولكم - وليس هو كما تقولون -، ألسنا وإياكم شرعاً سواء، ولا يضرنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقررنا؟، فسكت الرجل،

(١) مَنْ لا يحضره الفقيه ١ / ٢١٥، (باب وصف الصلاة من فاتحتها إلى خاتمتها)، ح ٩٢١، وعلل الشرائع ٢ / ١٤، الباب ١٠ (علّة مدّ العنق في الركوع)، ح ١.

(٢) شرح إحقاق الحقّ ٢٧ / ١٨٥.

(٣) الموفق بن أحمد المكي (الخطيب الخوارزمي)، مقتل الحسين عليه السلام، تحقيق: الشيخ محمد السماوي / ٧١.

ثم قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: وإن يكن القول قولنا - وهو كما نقول - أستم قد هلكتم ونجوننا؟ فقال: رحمك الله، فأوجدني كيف هو؟، وأين هو؟، فقال عليه السلام: ويلك، إن الذي ذهبت إليه غلط، هو أين الأين، وكان ولا أين، وكيف الكيف، وكان ولا كيف، ولا يُعرف بكيفية ولا بأينونية، ولا يُدرك بحاسة، ولا يُقاس بشيء.

قال الرجل: إذا.. إنه لا شيء؛ إذ لم يُدرك بحاسة من الحواس، فقال أبو الحسن عليه السلام: ويلك لما عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته، ونحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيقننا أنه ربنا خلاف الأشياء^(١).

وقال الفخر الرازي في (تفسيره): «والمعنى أنه أكبر من كل الموجودات، وأعلى وأعظم وأعز من كل المعلومات، بل هو أكبر من أن يُقاس إليه شيء، أو يُقال: أنه أكبر»^(٢).

التفسير الثالث: الله أكبر من أن يوصف:

مما ترمز إليه جملة (الله أكبر): أن الله أكبر من أن يُوصف؛ لأنه لا يمكن وصفه والإحاطة بوصفه، فتحن البشر - بلغتنا المحدودة التعبير، وقدراتنا المحدودة العاجزة عن بلوغ صفات الله والإحاطة بمقاماته الجليلة - لا نستطيع أن نصف الله كما هو، جلّ وعلا.

الكلمات لباس ترتديه المعاني، فيبرزها ويوضحها ويشخصها، ونحن قاصرون عن إدراك الصفات الإلهية كما هي، ومن ثمّ فلسان حالنا العجز الذاتي عن إمكان

(١) الكافي ١ / ٧٨، (باب حدوث العالم وإثبات المحدث)، ح ٣، والشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (الصدوق)، التوحيد / ٢٥٠ - ٢٥١، الباب ٣٦ (بيانه في معنى أنه تعالى يُري أوليائه نفسه)، ح ٣، وبحار الأنوار ٣ / ٣٧، الباب ٣، باب (إثبات الصانع، والاستدلال بعجائب صنعه على وجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته)، ح ١٢.

(٢) محمد بن ضياء الدين عمر (الفخر الرازي)، تفسير الرازي (مفتاح الغيب) ١ / ٢٧٧ (تفسير سورة الفاتحة، الفائدة الرابعة).

تفصيل كلمات تليق بساحة تلك المعاني الفريدة التي نجهلها.

فقد رَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ قَالَ: «كُنْتُ مَعَ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَأَى رَجُلًا قَائِمًا يُصَلِّي فَقَالَ لَهُ:

يَا هَذَا، أَتَعْرِفُ تَأْوِيلَ الصَّلَاةِ؟!، فَقَالَ: يَا مَوْلَايَ، وَهَلْ لِلصَّلَاةِ تَأْوِيلٌ غَيْرُ الْعِبَادَةِ؟!، فَقَالَ: إِي وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالنُّبُوَّةِ، مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ بِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا وَلَهُ تَشَابُهُ وَتَأْوِيلٌ وَتَنْزِيلٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى التَّعَبُّدِ، فَقَالَ لَهُ: عَلَّمَنِي مَا هُوَ يَا مَوْلَايَ، فَقَالَ:

١- تَأْوِيلُ تَكْبِيرَتِكَ الْأُولَى إِلَى إِحْرَامِكَ: أَنْ تُخْطِرَ فِي نَفْسِكَ إِذَا قُلْتَ: (اللَّهُ أَكْبَرُ) مِنْ أَنْ يُوصَفَ بِقِيَامٍ أَوْ قُعُودٍ.

٢- وَفِي الثَّانِيَةِ: أَنْ يُوصَفَ بِحَرَكَةٍ أَوْ جُمُودٍ.

٣- وَفِي الثَّلَاثَةِ: أَنْ يُوصَفَ بِجِسْمٍ أَوْ يُشَبَّهَ بِشَيْءٍ أَوْ يُقَاسَ بِقِيَاسٍ.

٤- وَتُخْطِرُ فِي الرَّابِعَةِ: أَنْ تَحُلَّ الْأَعْرَاضُ، أَوْ تُؤْلَمَ الْأَمْرَاضُ.

٥- وَتُخْطِرُ فِي الْخَامِسَةِ: أَنْ يُوصَفَ بِجَوْهَرٍ، أَوْ عَرَضٍ، أَوْ يَحُلَّ شَيْئًا، أَوْ يَحُلَّ فِيهِ شَيْءٌ.^١

٦- وَتُخْطِرُ فِي السَّادِسَةِ: أَنْ يَجُوزَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْمُحَدَّثِينَ مِنَ الزَّوَالِ، وَالْإِنْتِقَالِ، وَالتَّغْيِيرِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

٧- وَتُخْطِرُ فِي السَّابِعَةِ: أَنْ تَحُلَّ الْحَوَاسُّ الْخَمْسُ^(١).

ويبدو أن هذه التكبيرات السبع التي يتحدث عنها أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الحديث، هي (تكبيرات الافتتاح) السبع، التي يُستحب افتتاح الصلاة بها، وجعل تكبيرة الإحرام من بينها.

(١) مستدرک الوسائل ٤ / ١٠٧-١٠٨، الباب ٣ (باب تأكد استحباب الإقبال بالقلب على الصلاة، وتدبر معاني القراءة والأذكار)، ح ٥.

وعن جميع بن عمير قال: «قال أبو عبد الله [الصادق] عليه السلام: أي شيء (الله أكبر)؟، فقلت: الله أكبر من كل شيء، فقال: وكان ثم شيء فيكون أكبر منه؟!، فقلت: فما هو؟، فقال: الله أكبر من أن يوصف»^(١).

وعن ابن محبوب أن رجلاً قال عند الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: (الله أكبر)، فقال له الإمام عليه السلام: «الله أكبر من أي شيء؟»، فقال: من كل شيء، فقال أبو عبد الله عليه السلام: حدّثه!!، فقال الرجل: كيف أقول؟!، قال: قل: الله أكبر من أن يوصف»^(٢).

التفسير الرابع: الله أكبر من أن تدرك ذاته:

إنّ جملة (الله أكبر) الواسعة المعنى تختزن في أحشائها إلى جانب المعاني السابقة: أنّ الله - سبحانه وتعالى - أكبر من أن تحيط به العقول والأوهام، أو تدركه، مهما حلّقت وجنّحت في عالم الخيال، وسبحت في بحار الوهم؛ لأنّ ذات الله غيب خفيّ مستور لا يعلمه إلا هو، وقد ورد في دعاء أمير المؤمنين عليه السلام: «يا مولاه، يا غاية رغبته، يا هو، يا هو، يا مَنْ لا يعلم ما هو إلا هو، ولا كيف هو إلا هو»^(٣).

فنحن لا نملك المؤهلات والقدرات والإمكانات لإدراك الصفات الإلهية ك (الحيّ، القيوم، السميع، العليم، البصير)، فكيف نستطيع أن ندرك الذات الإلهية!!، فعقولنا قاصرة، وخیالنا كسير، ووهمنّا أشلّ، ولا نملك مجاديف الإبحار والسباحة في ذلك الصقع الإلهي الخفيّ!!

(١) وسائل الشيعة ٤ / ١٢١٠، الباب ٣٣ (باب كراهة أن يُقال: (الله أكبر من كل شيء)، بل يُقال: (من أن يوصف))، ح ١.

(٢) الكافي ١ / ١٦٩، الباب ٣٨ (باب معاني الأسماء واشتقاقاتها)، ح ٨، والتوحيد ٣١٣، الباب ٤٦ (باب معنى (الله أكبر))، ح ١، ووسائل الشيعة ٤ / ١٩١، الباب ٣٣ (باب كراهة أن يُقال: (الله أكبر من كل شيء)، بل يُقال: (من أن يوصف))، ح ٢.

(٣) بحار الأنوار ٨٣ / ٣٣٤، الباب ٤٥ (باب الأدعية والأذكار عند الصباح والمساء)، ح ٧٢.

يقول مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام:

- «الحمد لله الذي أعجز الأوهام أن ينال إلا وجوده، وحجب العقول أن تتخيل ذاته في امتناعها من الشبه والشكل»^(١).

- «الحمد لله الذي انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته، وردعت عظمته العقول، فلم تجد مساعاً إلى بلوغ غاية ملكوته، هو الله الحق المبين، أحق وأبين مما ترى العيون، لم تبلغه العقول بتحديد؛ فيكون مشبهاً، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير؛ فيكون ممثلاً»^(٢).

- «ليست له صفة تُنال، ولا حد تُضرب له فيه الأمثال،، فتبارك الله الذي لا يبلغه بُعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن»^(٣).

- «تلقاه الأذهان لا بمشاعرة، وتشهد له المرائي لا بمحاضرة، لم تُحط به الأوهام، بل تجلّى لها بها، وبها امتنع منها، وإليها حاكمها»^(٤).

- «إنّه - عز وجلّ - أحدي المعنى، يعني به: أنّه لا ينقسم في وجود، ولا عقل، ولا وهم، كذلك ربنا - عز وجلّ -»^(٥).

ويقول الإمام السجّاد عليه السلام في دعاء يوم الاثنين: «وانحسرت العقول عن كنه معرفته»^(٦).

وعن عبد الرحمن ابن أبي نجران قال: «سألت أبا جعفر [الباقر] عليه السلام عن

(١) بحار الأنوار / ٤ / ٢٢١، الباب ٤ (باب جوامع التوحيد)، ح ١.

(٢) نهج البلاغة / ٢١٦-٢١٧، الخطبة ١٥٥ (بديع خلقه الخفّاش)، وبحار الأنوار / ٤ / ٣١٧، الباب ٤ (باب جوامع التوحيد)، ح ٤٢.

(٣) الكافي / ١ / ١٨٤، الباب ٤٤ (باب جوامع التوحيد)، ح ١.

(٤) نهج البلاغة / ٢٦٩، الخطبة ١٨٥ (من خطبة يحمد الله فيها، ويثني على رسوله، ويصف خلقاً من الحيوان)، وبحار الأنوار / ٤ / ٢٦١، الباب ٤ (باب جوامع التوحيد)، ح ٩.

(٥) الخصال / ٢، باب الواحد، ح ١.

(٦) الصحيفة السجّادية الكاملة / ٢٧٩.

التوحيد، فقلت: أتوهم شيئاً؟، فقال: نعم، غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه، لا يشبهه شيء، ولا تدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يُعقل، وخلاف ما يُتصور في الأوهام؟!^(١).

وعن محمد بن زيد قال: «جئتُ إلى [الإمام] الرضا عليه السلام أسأله عن التوحيد، فأملى عليّ:

الحمد لله فاطر الأشياء إنشاءً، ومبتدعها ابتداءً؛ بقدرته وحكمته، لا من شيء فيبطل الاختراع، ولا لعلّة فلا يصحّ الابتداء، خلق ما شاء كيف شاء متوحّداً بذلك؛ لإظهار حكمته وحقيقة ربوبيّته، لا تضبطه العقول، ولا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأبصار، ولا يحيط به مقدار، عجزت دونه العبارة، وكلّت دونه الأبصار، وضلّ فيه تصارييف الصفات، احتجب بغير حجاب محجوب، واستتر بغير ستر مستور، عُرف بغير رؤية، ووُصِف بغير صورة، ونُعت بغير جسم، لا إله إلا الكبير المتعال»^(٢).

وعدم إمكان إدراك الذات الإلهية هو ما حدا بالأحاديث الشريفة للنهي عن التفكير في ذات الله، وأن ترفع بأيديها في سماء العقيدة والمعرفة لافتة تقول لنا:

- «مَنْ تفكر في ذات الله - سبحانه - تزندق»^(٣).

- «مَنْ تفكر في ذات الله - سبحانه - أَلحد»^(٤).

(١) الكافي ١ / ١٣٧، الباب ٢٤ (باب إطلاق القول بأنّ شيء)، ح ١.

(٢) علل الشرائع ١ / ٩-١٠، الباب ٩ (علة خلق الخلق واختلاف أحوالهم)، ح ٣.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ٢ / ١٩٥، الحكمة ٨٥١.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ٢ / ١٩٤، الحكمة ٨٣٥.

لأنّه لا يمكن إدراك الذات الإلهية المقدّسة، نهت النصوص الدينية - كما ذكر أستاذنا الشيخ الشيبب (قدّس سرّه الشريف) - عن التفكير في ذات الله، ووجهت عين التفكير إلى خلق الله، وآياته، ونعمه، ومن تلك النصوص:

- يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ

والخلاصة: أن قولنا (الله أكبر) يرمز إلى المعاني الثلاثة السامية التالية:

أ- الله أكبر من أن يُقاس؛ لأنه لا يُقاس الله بشيء، ولا يُقاس شيء بالله.

ب- والله أكبر من أن يوصف؛ لأنه لا يمكن وصف الله والإحاطة بوصفه.

ج- والله أكبر من أن تُدرك ذاته؛ لأن ذات الله غيب الغيوب الذي لا يعرفه أحد سواه، ولا يمكن أن يحيط بالله أحد؛ لأن (إحاطة المحاط بالمحيط محال).

ثانيًا: ما يرمز إليه قولنا: (أشهد أن لا إله إلا الله):

قولنا: (أشهد أن لا إله إلا الله) شهادة لله - عز وجل - بأنه الله الواحد الذي لا إله إلا هو: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾^(١).

فالله - سبحانه وتعالى - يشهد لنفسه بالوحدانية، ونحن - أيضًا - نقرو ونشهد له بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢)، ونستشعر هذا المعنى الجليل في نفوسنا، فالذي يشهد (أن لا إله إلا الله) لا يجعل له إلهًا غير الله، فالمازق البشري ليس دائمًا صنمًا حجريًا، فالمال قد يكون إلهًا، وبريق النصار قد يكون إلهًا، والدنيا قد تكون إلهًا، والسلطة قد تكون إلهًا، والنفس قد تكون إلهًا، والأهواء قد تكون إلهًا، والشهوات قد تكون إلهًا، والأسرة قد تكون إلهًا، والبيت قد يكون إلهًا، والسيارة قد تكون إلهًا؛ ولذلك يقول الله - تبارك وتعالى -:

اثْنَيْنِ يُغِشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صُنُوفٌ وَغَيْرُ صُنُوفٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿سورة الرعد، الآية ٢-٤﴾.

- ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ تَفَكَّرَ فِيَّ آلَاءَ اللَّهِ - سبحانه - وَفَقَّ [غرر الحكم ودرر الكلم

٢/ ١٩٥، الحكمة ٨٥٠.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(٢) سورة الإخلاص، الآية ٣-٤.

- ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^(١).
- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).
- ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣).
- ويقول سيّد الشهداء الإمام الحسين - صلوات الله وسلامه عليه -: «الناس عبيد الدنيا»^(٤).

وهكذا.. فالمال والذهب والدنيا والسلطة والنفس والهوى والشهوة والأسرة والبيت والسيارة، كلّ ذلك وغيره يمكن أن يتحوّل إلى إله يُعبد من دون الله!!؛ إذ ما معنى (الإله)؟!، وما معنى (العبادة)؟!

هل يعني (الإله) غير المعبود الذي يُخضع له، ويُتوجّه إليه؛ فيغدو هو المعبود؟! هل تعني (العبادة) غير الخضوع والانقياد لشيء، والركون إليه بوصفه الأمر الناهي؟!!

فإذا خضع الإنسان وانقاد لهذه الأشياء، أو ليس ذاك منه عبادة لها؟!

(١) سورة الفرقان، الآية ٤٣.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣١.

وكلمة ﴿الْمَسِيحَ﴾ في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوفة على ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾؛ ولذلك جاءت منصوبة مثلهما، والمعنى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح بن مريم أرباباً من دون الله)، وليست معطوفة على لفظ الجلالة في ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وإلا.. لجاءت مجرورة تبعاً للفظ الجلالة، واستلزمت معنى فاسداً هو: إشراك النبي عيسى عليه السلام مع الله في الربوبية، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً..

(٣) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

(٤) تحف العقول عن آل الرسول / ٢٤٥، باب (في قصار كلمات الإمام الحسين عليه السلام)، وبحار الأنوار / ٤٤ / ٣٨٣، باب (في نزول الحسين بكر بلاء).

بلى...؛ ولهذا فإذا خضع الإنسان لآدمي مثله، أو خضع لمنطق دنيا، أو لمنطق هوى، أو لمنطق شهوة؛ فقد عبد هذه الأمور كلها!!

ومن جميل الروايات التي تعلّق على الآية الشريفة الآنفة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾، رواية رائعة ينقلها أبو بصير، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام تقول: «والله، ما صاموا لهم، ولا صلّوا لهم، ولكن.. أحلّوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالاً؛ فاتبعوهم»^(١).

فنحن حين نقول: (أشهد أن لا إله إلا الله)، فهذا إقرارٌ منّا بأنّه لا إله في هذا الكون إلا الله ربّ السماوات والأرض وما فوقهن وما تحتهن وما بينهن وما فيهنّ، وهو الله الخالق البارئ.

إذا.. يجب أن نقرّ أنّ الله - وحده - هو المتألّه بصدق، وأنّه - وحده - هو المعبود بحقّ، وأنّه - وحده - هو الذي يستحقّ أن يكون الإله والربّ والمعبود، فنشهد له بأنّه هو الله، وهو الربّ، ولا إله غيره، ولا ربّ سواه، ونخلص له العبادة.

ثالثاً: معنى (أشهد أن محمداً رسول الله):

لماذا نشهد لمحمد صلّى الله عليه وآله بالرسالة؟، ونصدق في الأذان بالقول: (أشهد أن محمداً رسول الله)؟

لأنّه غير مطلوب منّا - فقط - أن نشهد بأنّ الله حقّ لا إله إلا هو، وأنّه أكبر من أن يُقاس، ومن أن يوصف، ومن أن تُدرك ذاته، بل.. يجب أن نخضع للمنهج السماوي العلوي الذي جاء به النبي محمد صلّى الله عليه وآله رسولاً من عند الله.

لا يكفي أن يقول الواحد منّا: (الله أكبر) و(أشهد أن لا إله إلا الله)، بل.. يجب أن يشهد بأنّ كلّ ما جاء به النبي محمد صلّى الله عليه وآله يُعدّ رسالة من الله يجب أن يسلم بها، ويخضع لها، ويجب أن يُذكر النبي محمد صلّى الله عليه وآله في سماء الرفعة، ويُلهج باسمه العطر

(١) الكافي ١ / ٥٣، (باب التقليد)، ح ٣.

في مسامع الدنيا والكون، ويُعلى ذكره باعتباره رمزًا للرسالة الإلهية، رمزًا للمنهج الحق، رمزًا لما أمر الله به في هذه الحياة.

وبهذا نستشعر في أنفسنا الخضوع لرسالة النبي ﷺ من جهة، ومن جهة أخرى نشكر النبي، ونصلي عليه، لماذا؟ لأنّه منقذنا من مخالب الشرك والضلالة وبرائن الغواية والجهالة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَنْقَذَنَا بِكَ مِنَ الشَّرِّ وَالضَّلَالَةِ»^(١).

ولذلك تقول الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عِزَّتُهَا فِي خُطْبَتِهَا - وهي تخاطب الناس - : «وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطَّرْق، وتقتاتون [القَدَّ، و] الورق»^(٢)، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله - تبارك وتعالى - بمحمد ﷺ»^(٣).

فلنولّ وجهنا شطر الجاهلية، ولنتصوّر حياتنا ذليلة بئيسة: (مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام)، نشرب الطَّرْق، ونقتات القَدَّ والورق، أذلة خاسئين، نخاف أن يتخطّفنا الناس من حولنا، ويسطو القويّ فينا على الضعيف، ونئد البنات، وينتشر فينا الرّبا والخمر وعبادة الأصنام والأوثان، ثمّ لنشح ببصرنا إلى هذه الحياة التائهة التي يغرق فيها العالم الآخر في العصر الراهن، فهو ليس ببعيد عنّا، بل.. هو أمام نواظرنا نراه ونتأمّله، فنحن اليوم نستطيع بسهولة ويسر بالغين أن نطلع على حياة الآخرين، ونشهد بأم أعيننا كم تعجّ بلدانهم بالجريمة؟!، وكم تنّ تحت وطأة الخوف والقلق وفقدان الأمن والانغماس في الشهوات والبهيمية؟!

(١) الكافي ٤ / ٥٥١، (باب دخول المدينة وزيارة النبي ﷺ، والدعاء عند قبره)، ح ١.

(٢) الطَّرْق: المطر الذي تبول فيه الإبل وتبعر [لسان العرب ٨ / ١٥١، مادة (طرق)].

والقَدَّ: السير يقدّ من جلد، أو من جلد غير مدبوغ [لسان العرب ١١ / ٥٢، مادة (قدد)].

(٣) بحار الأنوار ٢٩ / ٢٢٤، (فصل: خطبة سيّدة النساء فاطمة الزهراء - صلوات الله عليها - احتجّت بها على مَنْ غصب فدك منها)، ح ٨.

وروى الشيخ الطبرسي: «تشربون الطَّرْق، وتقتاتون القَدَّ، أذلة خاسئين» [الاحتجاج ١ / ١٠٠].

لولا مجيء النبي محمد ﷺ وجهاده وعناؤه وبذله وعطاؤه فأين كنا سنكون؟، ربّما كنا لا زلنا نتخبّط في متاهات الجاهلية النكراء ووهداتها المظلمة ومستنقعاتها الآسنة، «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَنْقَذَنَا بِكَ مِنَ الشَّرْكِ وَالضَّلَالَةِ».

فالشهادة للنبي محمد ﷺ بالرسالة في فصول الأذان هي إعلان للشكر لله أن بعث لنا هذا الرسول المنقذ، وشكر لهذا النبي العظيم وجهوده الجبّارة المضنية، وطلب حثيث لرفعة منزلة هذا الرسول الكريم، الرحمة المهداة من الله - عزّ وجلّ - إلى البشرية جمعاء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

رابعاً: معنى (أشهد أن علياً وليّ الله):

بعد شهادتنا للنبي الأكرم محمد ﷺ بالرسالة نخصّص الدائرة، فنقول: (أشهد أن علياً وليّ الله)، فعلي هو باب النبي ذو المكانة العالية: «وَسَدَّ الْأَبْوَابَ إِلَّا بَابَهُ»^(٢).

باب أمير المؤمنين هو الباب الوحيد الذي بقي مفتوحاً على المسجد، كناية عن أن الباب الوحيد الذي يوصل إلى الرسول ﷺ هو علي.

لسنا وحدنا الذين نشهد لمحمد ﷺ بالرسالة، فغيرنا - أيضاً - يشهد، ولكننا نتميّز عليهم بأننا لا نقف عند حدود الشهادة للنبي محمد ﷺ بالرسالة، وإنما نشهد لعليّ عليه السلام بالولاية، أي أننا نقرّ بالرسالة التي تجسّدت في النبي الأكرم محمد ﷺ، ونقرّ بالإمامة والولاية والمسؤولية التي تجسّدت في علي وأبناء علي، والتي ركّزها علي وأبناء علي، والتي بيّنها علي وأبناء علي.

وهذا ينبئ عن إيماننا العقدي الراسخ بأن الإمامة والولاية امتداد طبيعي لنهر النبوة والرسالة، ومن ثمّ نحن لا نقطع نهر النبوة الدافق عن امتداده الطبيعي الذي

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٢) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٦، الباب ٧ (باب زيارة الحجّة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)، ذيل الحديث ١، (دعاء الندبة).

تشكّله الإمامة، فهما معاً نهر واحد، وما جاء به الأئمة هو ذاته ما جاء به النبي ﷺ نقيّاً صافياً من عند ربّه، لم تعكّره الأهواء والأيام والمبادئ والأشخاص، إنهم الحَمَلَة الأمان للشيعة المحمدية الخاتمة.

وقد ورد عن هشام بن سالم وحماد بن عثمان وغيرهما قالوا: «سمعنا أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله قول الله - عزّ وجلّ -»^(١).

خامساً: معنى (حيّ على الصلاة):

وبعد شهادتنا للنبي محمد ﷺ بالرسالة، ولعلي عليه السلام بالولاية نتوجّه إلى الموضوع الأساس الذي نحن بصددّه، والذي جئنا لتمثله والقيام به، وهو الصلاة؛ لكي نعلن بـ (حيّ على الصلاة) الدعوة للانقطاع عن كلّ شيء، وعن كلّ فكر وقول وعمل، وعن كلّ شائبة غير الله، والإقبال على الصلاة، والحضور بين يدي الله.

(حيّ على الصلاة) دعوة للنفس بأن تُحضّر هممها، وتحضّر شتاتها، وتستجمع أوراقها، وتركّز أفكارها وقواها في هذه الصلاة وحدها، ومعانيها السامية، فكأنك حين تقول: (حيّ على الصلاة) تستجمع جنود نفسك، تستجمع أهواءك المتفرّقة، تستجمع قواك المشتتة؛ لكي تستحضرها للوقوف بين يدي الله بقلب خاشع تائب.

سادساً: معنى (حيّ على الفلاح):

ثمّ نعلن ضرورة الإقبال على الفلاح، وشحذ الهمة والقوة لئيله ومعانقته والظفر به، وأن الصلاة هي الفلاح، وذلك بقولنا: (حيّ على الفلاح).

(١) الكافي ١ / ٥٣، (باب التقليد)، ح ١٤.

وفي الرواية عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله:

لما أُسري بي، وانتهيتُ إلى سدرَةِ المنتهى - إلى أن قال - : فإذا ملك يؤذّن، لم يُر في السماء قبل تلك الليلة:

- فقال: (الله أكبر، الله أكبر).

- فقال الله: صدق عبدي، أنا أكبر.

- فقال: (أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله).

- فقال الله تعالى: صدق عبدي، أنا الله لا إله غيري.

- فقال: (أشهد أنّ محمدًا رسول الله، أشهد أنّ محمدًا رسول الله).

- فقال الله: صدق عبدي، إنّ محمدًا عبدي ورسولي، أنا بعثته وانتجبته.

- فقال: (حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة).

- فقال: صدق عبدي، دعا إلى فريضتي، فمن مشى إليها، راغبًا فيها، محتسبًا، كانت كفّارة لما مضى من ذنوبه.

- فقال: (حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح).

- فقال الله: هي الصلاح، والنجاح، والفلاح..

ثم أمتت الملائكة في السماء، كما أمتت الأنبياء في بيت المقدس^(١).

فالوقوف بين يدي الله تعالى هو الفلاح الأكبر، وهو الفوز الأعظم، وأيّ فلاح أكبر من هذا؟!، هل هناك فلاح أكبر من أن يقف الإنسان بين يدي ربّه طائعًا مختارًا عابدًا شاكرًا؟!!

(١) مستدرّك الوسائل ٤/ ٤٠، الباب ١٨ (باب كيفية الأذان والإقامة، وعدد فصولهما، وجملة من أحكامهما)، ح ١. ومثلها رواية الشيخ الصدوق في (معاني الأخبار) / ٤٢، (باب معنى حروف الأذان والإقامة)، ح ٤، عن الأصبغ بن نباتة، عن محمد بن الحنفية.

سابعًا: معنى (حيّ على خير العمل):

ثم نعلن لزوم الإقبال على خير العمل، ونصيح في حجرات وجداننا وفي قلوب الآخرين: (حيّ على خير العمل)، أقبلوا على خير العمل، ونعلن أنّ الصلاة هي خير العمل.

يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ»^(١).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وأما قوله: (حيّ على الصلاة)، أي هلمّوا إلى خير أعمالكم، ودعوة ربّكم، وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم، وإطفاء ناركم التي أوقدتموها على ظهوركم، وفكّك رقابكم التي رهنتموها بذنوبكم؛ ليكفّر الله عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم ذنوبكم، ويبدّل سيئاتكم حسنات؛ فإنّه ملك كريم ذو الفضل العظيم، وقد أذن لنا - معاشر المسلمين - بالدخول في خدمته، والتقدّم إلى بين يديه»^(٢).

أوليس قد استنكر البعض وقال: كيف تكون الصلاة خير العمل؟!، إنّ الصلاة عمل عادي ليس فيه بذل للمهجة والنفس في سبيل الله، ليس فيه تقديم النفس المضرّجة بالدماء قرباناً إلى الله في مذبح الحقّ وسوح الوغى، وإنّما ذلك في الجهاد، ومن ثمّ يجب أن يكون الجهاد هو خير العمل^(٣)!!

(١) عواليء اللآلئ ١/ ٤١٥، المسلك الثالث (في أحاديث رواها الشيخ محمد بن مكي في بعض مصنفاته تتعلّق بالفقه)، ح ٨٧.

(٢) التوحيد/ ٢٣٨، الباب ٣٤ (باب تفسير حروف الأذان والإقامة)، ح ١.

(٣) يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«كان الأذان بـ (حيّ على خير العمل) على عهد رسول الله ﷺ، وبه أمروا أيام أبي بكر وصدرًا من أيام عمر، ثم أمر عمر بقطعه، وحذفه من الأذان والإقامة، ف قيل له في ذلك: فقال: إذا سمع عوامّ الناس أنّ الصلاة خير العمل، تهاونوا بالجهاد، وتخلّفوا عنه» [علل الشرائع ٢/ ٣٦٨، الباب ٨٩ (نوادير علل الصلاة)، ح ٤].

- وعن محمد بن أبي عمير «أنّه سأل أبا الحسن [علي بن موسى الرضا] عليه السلام عن (حيّ على خير العمل): لم تُركت من الأذان؟ فقال: تريد العلة الظاهرة أو الباطنة؟

ونحن نقول لهذا: لا..، ليس هناك عمل أفضل من الوقوف بين يديّ الله، وإعلان العبودية لله؛ فتكون الصلاة بذلك هي خير العمل، وهي لا تشغل عن الجهاد، فالمجاهدون - وهم في سوح الوغى - يصلّون، ولم تعقهم صلاتهم عن البسالة وبذل مهجهم في سبيل الله، بل كانت الصلاة الوقود الذي يشحذ عزائمهم، ويمدّهم بالقوة والإقدام والتضحية والتفاني، ويزرع في حداثق نفوسهم الإخلاص؛ ليكون جهادهم لله وحده، لا للتوسع والسيطرة، ولا لنيل الأموال والغنائم والسبايا، ولا للجلوس على تخت الشهرة والأبهة والمجد.

ثامناً: الإقبال بالتكبير، والتهليل:

ثمّ نعاود الكرّة من جديد لكي نعلن أنّ (الله أكبر)، وأنّه (لا اله إلا الله)، فنحن في الأذان نبتدئ بالله (الله أكبر)، وننتهي بالله (لا اله إلا الله)، وما بين هذا الابتداء وهذا الانتهاء نعلن خضوعنا لرسالة الرسول ﷺ، ونعلن خضوعنا لولاية علي - صلوات الله وسلامه عليه -، ونحزم حقائبنا للإقبال على الصلاة، ونعتبر الصلاة معراجاً وفلاحاً، وأنّها خير عمل وموضوع يقربنا إلى الله - عزّ وجلّ -.

وإذا استحضرنا هذه المعاني جميعاً أمكننا الوقوف بين يدي الله - عزّ وجلّ -؛ لكي نقول: (قد قامت الصلاة)، الشيء الذي نكرّره في الإقامة؛ إذ تميّز الإقامة عن الأذان بإقامة الصلاة (قد قامت الصلاة)، بمعنى أنّي قائم متأهب، وأجمعت أمري، وشددت قواي، وجمّعت شتات نفسي، قائماً خاضعاً لله - عزّ وجلّ - ثم أقول: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، ﴿قُلْ

قُلْتُ: أريد هما جميعاً..

فقال: أما العلة الظاهرة؛ فلئلا يدع الناس الجهاد؛ اتكلاً على الصلاة، وأما الباطنة فإنّ خير العمل الولاية، فأراد من أمر بترك (حيّ على خير العمل) من الأذان أن لا يقع حثّ عليها ودعاء إليها [بحار الأنوار ٨١ / ١٥٦، باب علة الأذان وفصوله بكيفيته المشهورة، ذيل الحديث ٥٤].

(١) سورة الأنعام، الآية ٧٩.

إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا
أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١﴾.

هذه المعاني العظيمة تؤهلنا للوقوف بين يديّ الله، وإذا استشعرنا كلّ هذه
المعاني كنّا أهلاً - إن شاء الله - للوقوف بين يديّ الله - عزّ وجلّ -، ولا مثال أمره
وإظهار طاعته^(٢).

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٢-١٦٣.

(٢) من أوسع الروايات التي تتحدّث عن معاني فصول الأذان: رواية نقلها يزيد بن الحسن بن علي
الكنّال - مولى زيد بن علي -، عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم، عن أبيه الإمام جعفر بن
محمد الصادق، عن أبيه الإمام محمد بن علي الباقر، عن أبيه الإمام علي بن الحسين السجّاد،
عن أبيه الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال:
«كنّا جلوساً في المسجد إذ صعد المؤذّن المنارة فقال: (الله أكبر، الله أكبر)، فبكى أمير
المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وبكىنا ببكائه، فلما فرغ المؤذّن قال [أمير المؤمنين]:
أتدرون ما يقول المؤذّن؟!
قلنا: الله ورسوله ووصيّيه أعلم.

فقال: لو تعلمون ما يقول لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً:

- فلقوله: (الله أكبر) معاني كثيرة:

منها: أنّ قول المؤذّن: (الله أكبر) يقع على قدّمه وأزليته وأبديته وعلمه وقوته وقدرته
وحلمه وكرمه وجوده وعطائه وكبريائه، فإذا قال المؤذّن (الله أكبر) فإنّه يقول: الله الذي له
الخلق والأمر، وبمشيئته كان الخلق، ومنه كان كلّ شيء للخلق، وإليه يرجع الخلق، وهو الأول
قبل كلّ شيء.. لم يزل، والآخر بعد كلّ شيء.. لا يزال، والظاهر فوق كلّ شيء.. لا يدرك،
والباطن دون كلّ شيء.. لا يُحدّد، فهو الباقي، وكلّ شيء دونه فإنّ.

والمعنى الثاني: (الله أكبر)، أيّ العليم الخبير، علم ما كان، وما يكون قبل أن يكون.

والثالث: (الله أكبر)، أيّ القادر على كلّ شيء، يقدر على ما يشاء، القويّ لقدرته، المقتدر
على خلقه، القويّ لذاته، قدرته قائمة على الأشياء كلّها، إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون.

والرابع: (الله أكبر) على معنى حلمه وكرمه، يحلم كأنّه لا يعلم، ويصفح كأنّه لا يرى،
ويستر كأنّه لا يُعصى، لا يعجل بالعقوبة كرمًا وصفحًا وحلمًا، والوجه الآخر في معنى (الله
أكبر)، أيّ الجواد جزيل العطاء، كريم الفِعال، والوجه الآخر (الله أكبر)، فيه نفي كَيْفِيّته، كأنّه
يقول: الله أجلّ من أن يدرك الواصفون قدر صفته التي هو موصوف بها، وإنّما يصفه الواصفون
على قدرهم، لا على قدر عظّمته وجلّاله، تعالى الله عن أن يدرك الواصفون صفته علوّاً كبيراً،

والوجه الآخر (الله أكبر) كأنه يقول: الله أعلى وأجل، وهو الغني عن عباده، لا حاجة به إلى أعمال خلقه.

- وأما قوله: (أشهد أن لا إله إلا الله): فإعلام بأن الشهادة لا تجوز إلا بمعرفة من القلب، كأنه يقول: اعلم أنه لا معبود إلا الله - عز وجل -، وأن كل معبود باطل سوى الله - عز وجل -، وأقر بلساني بما في قلبي من العلم بأنه لا إله إلا الله، وأشهد أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا منجى من شر كل ذي شر وفتنة كل ذي فتنة إلا بالله.

وفي المرة الثانية (أشهد أن لا إله إلا الله) معناه: أشهد أن لا هادي إلا الله، ولا دليل لي إلا الله، وأشهد الله بأنني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد سكان السماوات وسكان الأرضين وما فيهن من الملائكة والناس أجمعين، وما فيهن من الجبال والأشجار والدواب والوحوش وكل رطب ويابس بأنني أشهد أن لا خالق إلا الله، ولا رازق ولا معبود ولا ضار ولا نافع ولا قابض ولا باسط ولا معطي ولا مانع ولا دافع ولا ناصح ولا كافي ولا شافي ولا مقدم ولا مؤخر إلا الله، له الخلق والأمر، وبيده الخير كله، تبارك الله رب العالمين.

- وأما قوله: (أشهد أن محمداً رسول الله) يقول: أشهد الله أنني أشهد أن لا إله إلا هو، وأن محمداً عبده ورسوله ونبيه وصفيه ونبيه، أرسله إلى كافة الناس أجمعين بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأشهد من في السماوات والأرض من النبيين والمرسلين والملائكة والناس أجمعين أنني أشهد أن محمداً ﷺ سيد الأولين والآخرين.

وفي المرة الثانية (أشهد أن محمداً رسول الله) يقول: أشهد أن لا حاجة لأحد إلى أحد إلا إلى الله الواحد القهار، مفتقرة إليه سبحانه، وأنه الغني عن عباده والخلائق أجمعين، وأنه أرسل محمداً إلى الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فمن أنكره وجحدته ولم يؤمن به أدخله الله - عز وجل - نار جهنم خالداً مخلداً لا يتفك عنها أبداً.

- وأما قوله: (حي على الصلاة)، أي هلموا إلى خير أعمالكم، ودعوة ربكم، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم، وإطفاء ناركم التي أوقدتموها على ظهوركم، وفكأك رقابكم التي رهنتموها بذنوبكم؛ ليكفر الله عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم ذنوبكم، ويبدل سيئاتكم حسنات؛ فإنه ملك كريم ذو الفضل العظيم، وقد أذن لنا - معاشر المسلمين - بالدخول في خدمته، والتقدم إلى بين يديه.

وفي المرة الثانية (حي على الصلاة)، أي قوموا إلى مناجاة ربكم، وعرض حاجاتكم على ربكم، وتوسلوا إليه بكلامه، وتشفعوا به، وأكثروا الذكر والقنوت والركوع والسجود والخضوع والخشوع، وارفعوا إليه حوائجكم، فقد أذن لنا في ذلك.

- وأما قوله: (حي على الفلاح)، فإنه يقول: أقبلوا إلى بقاء لا فناء معه، ونجاة لا هلاك معها، وتعالوا إلى حياة لا موت معها، وإلى نعيم لا نفاذ له، وإلى ملك لا زوال عنه، وإلى سرور

لا حزن معه، وإلى أنس لا وحشة معه، وإلى نور لا ظلمة معه، وإلى سعة لا ضيق معها، وإلى بهجة لا انقطاع لها، وإلى غنى لا فاقة معه، وإلى صحة لا سقم معها، وإلى عز لا ذلّ معه، وإلى قوة لا ضعف معها، وإلى كرامة يا لها من كرامة!!، وعجلوا إلى سرور الدنيا والعقبى، ونجاة الآخرة والأولى.

وفي المرة الثانية (حيّ على الفلاح)، فإنه يقول: سابقوا إلى ما دعوتكم إليه، وإلى جزيل الكرامة، وعظيم المنّة، وسنيّ النعمة، والفوز العظيم، ونعيم الأبد في جوار محمد ﷺ في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

- وأما قول: (الله أكبر)، فإنه يقول: الله أعلى وأجلّ من أن يعلم أحدٌ من خلقه ما عنده من الكرامة لعبد أجابه وأطاعه، وأطاع ولأه أمره، وعرفه وعبد، واشتغل به وبذكره، وأحبّه وأنس به، واطمأن إليه، ووثق به، وخافه ورجاه، واشتاق إليه، ووافقه في حكمه وقضائه، ورضي به. وفي المرة الثانية (الله أكبر)، فإنه يقول: الله أكبر وأعلى وأجلّ من أن يعلم أحدٌ مبلغ كرامته لأولياته، وعقوبته لأعدائه، ومبلغ عفوه وغفرانه ونعمته لمن أجابه وأجاب رسوله، ومبلغ عذابه ونكاله، وهو أنّه لمن أنكره وجحد.

- وأما قوله: (لا إله إلا الله) معناه: لله الحجة البالغة عليهم بالرسول والرسالة والبيان والدعوة، وهو أجلّ من أن يكون لأحد منهم عليه حجة، فمن أجابه فله النور والكرامة، ومن أنكره فإن الله غنيّ عن العالمين، وهو أسرع الحاسبين.

- ومعنى (قد قامت الصلاة) في الإقامة، أي حان وقت الزيارة والمناجاة وقضاء الحوائج ودرك المنى، والوصول إلى الله - عزّ وجلّ -، وإلى كرامته وغفرانه وعفوه ورضوانه [التوحيد/ ٢٣٨، الباب ٣٤ (باب تفسير حروف الأذان والإقامة)، ح ١].

ويعلق الشيخ الصدوق على هذه الرواية قائلاً:

«قال مصنف هذا الكتاب: إنّما ترك الراوي لهذا الحديث ذكر (حيّ على خير العمل)؛ للتقية» [التوحيد/ ٢٣٨، الباب ٣٤ (باب تفسير حروف الأذان والإقامة)، ح ١].



الأدب الخامس

القيام

القيام

من واجبات الصلاة: القيام، وقد ذكر الفقهاء: أنَّ القيام من شرائط صحة الصلاة، وبالتالي لا تجوز صلاة الإنسان من جلوس ما دام متمكناً من أدائها قائماً. ونريد - هنا - أن نتناول مجموعة من النقاط المتصلة بهذا الموضوع:

النقطة الأولى: معنى (القيام):

للقيام في الصلاة مجموعة من الشرائط والمستحبات تأتي على ذكرها - إن شاء الله - في بحثنا الفقهي، إلا أنَّ الذي يعنينا هنا في بحث آداب الصلاة هو أدب القيام وسرّه ومغزاه.

فالقيام الطوعي في الصلاة كناية عن القيام الجبري بين يدي الله يوم القيامة، أي أنَّ الإنسان في هذه الحياة يقوم بين يديّ ربّه طوعاً واختياراً، متذكّراً أنّه سيقوم ذات يوم بين يديّ ربّه - جلّ وعلا - مكرّهاً غير مختار، اليوم يختار الإنسان المُثول بين يديّ ربّه، ويختار هذه الخطوات التي يخطوها إلى المساجد، بملء إرادته أن يخطو أو لا يخطو، أن يقف متواضعاً بين يديّ الله، أو يشمخ بأنفه ويتمرّد ويصدّ، ولكن في ذلك اليوم لن يستطيع الإنسان أن يفرّ من هذا المُثول أو أن يعتذر عن امتثال هذا النداء، فالإنسان حين يقوم بوظيفته التامة هنا في عالم الدنيا يسلم من طول المكث هناك في

عالم الآخرة، وحسابه حينئذ سيكون يسيرًا ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾^(١).

في الحديث عن رسول الله ﷺ أن ذلك الحساب اليسير هو (التصفح)^(٢).

عندما يأتي الإنسان بكتاب أعماله، فيتصفح الملائكة المحاسبون تصفحاً سريعاً، دون أن يطيلوا فيه صرامة النظر، ويحيلوا فيه عين التدقيق، ثم يقولون له: توكل على الله، وامنض إلى الجنة، أما من سيكون حسابه عسيراً - والعياذ بالله - فسيطول وقوفه في ساحة المحشر بين يدي الله، وسيرهقه طول القيام، ويهدّ قواه وأركانه نظر الله له بعين الحساب والعتاب!!

إذا.. حين يقف الإنسان في صلاته وبين يدي ربه هذه الدقائق اليسيرة المعدودة في حياته يلزمه أن يتذكر ذلك الوقوف الأخرى بين يدي ربه في ساحة المحشر، فيقف اليوم طائعاً مختاراً خاضعاً خاشعاً متقرباً حتى يفوز في وقوفه هناك..

فالله المحبّ الكريم الحنان المنان يبعث للناس الرسول تلو الرسول ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٣)، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٤)، ويرسل لهم الكتاب تلو الكتاب، ويقدم لهم الآية تلو الآية، ويسوق لهم العبرة تلو العبرة، ويقرع لهم الكثير من أجراس الإنذار؛ حتى يفيقوا من نومة الغافلين وسكرة الجاهلين؛ لأنّ الله - جلّ وعلا - لا ينتفع بشيء حين يعدّب عباده، ولولا أنّه كما يقول أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه - عن النّار: «أَقْسَمْتُ أَنْ تَمْلَأَهَا مِنَ الْكَافِرِينَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٥)، لولا هذا العهد الذي قطعه الله على نفسه لعفا عن الناس كلّهم،

(١) سورة الانشقاق، الآية ٨.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ١٠ / ٢٢٤، ح ١١٤٩٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية ١٥.

(٤) سورة فاطر، الآية ٢٤.

(٥) مصباح المتهجد / ٨٤٨، (دعاء آخر، وهو دعاء الخضر عليه السلام)، والبلد الأمين والدرع الحصين / ٥٥٩، (دعاء أمير المؤمنين في النصف من شعبان)، المعروف بـ (دعاء كميل).

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع من (دعاء كميل): «فباليقين أقطع لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك، وقضيت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار كلّها برداً

وأدخلهم في بحبوحة رحمته الواسعة ورياض جنانه الخالدة.

ما النفع الذي يتنفع به الربّ الغني العظيم - جلّ وعلا وتعالى عن ذلك علواً كبيراً - بتعذيب فلان من الناس؟!

نحن في دعائنا في صلاة الميت نقول: «اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُسَجَّى قُدَّامَنَا عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ، وَقَدْ قَبِضَتْ رُوحُهُ إِلَيْكَ، وَقَدْ احْتَاجَ إِلَى رَحْمَتِكَ، وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِهِ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَعْلَمُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّيرَتِهِ، اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَزِدْ فِي إِحْسَانِهِ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَتَجَاوَزْ عَنْ سَيِّئَاتِهِ»^(١).

فنحن في دعائنا - هنا، في صلاة الميت - نوّكّد ما علّمنا إياه أئمتنا المعصومون عليه السلام أنّ الله غني عن عذاب خلقه، ومنهم الميت الذي نصلي عليه، ونقول في صلاتنا عليه: «وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْ عَذَابِهِ».

ونحن دائماً نكرّر أنّه من لطف الله بعباده أن جعل للناس في هذه الدنيا محطات توقّف وتذكّر:

- ﴿وَإِذْ كَرَّرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾^(٢).

- ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

وسلاماً، وما كان لأحدٍ فيها مقرّاً ولا مقاماً، لكنك - تقدّست أسماؤك - أقسمت أن تملأها من الكافرين، من الجنّة والناس أجمعين، وأن تُخلّد فيها المعاندين، وأنت - جلّ ثناؤك - قلتُ مُبتدئاً، وتطوّلت بالإنعام مُتكرّماً: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾^(٤).

(١) الكافي ٣ / ١٨٤، (باب الصلاة على المؤمن والتكبير والدعاء)، ح ٣.

(٢) سورة الكهف، الآية ٢٤.

(٣) سورة يونس، الآية ٢٢-٢٣.

هل يريد الله أن يتمّ الحجة على عباده فقط، أم أنّه رؤوف رحيم مشفق بهؤلاء العباد، خلقهم لكي يرحمهم كما نصّت الآيات الكريمة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(١)؟!

فبناء على هذه الرحمة الواسعة يعطي الله الإنسان مجموعة من التنبيهات؛ لعلّه يستيقظ من غفلته ورقدته وسباته، ويلقي عنه أردية الغفلة، يقول له: وقوفك القصير هذا في الصلاة اجعله جرس إنذار وتنبيه؛ تحذيرًا من ذلك الوقوف، وحتى تسلم في وقوف ذلك اليوم العسير سلّم هذا الوقوف تسليماً حسناً.

النقطة الثانية: موضوع الوقوف:

ذكر الفقهاء أنّه يُستحب أن يقف المصلّي - أثناء قيامه في الصلاة - منتصباً غير مطأطئ القوام، أي أن يجعل بدنه وجسمه مستويًا مستقيمًا معتدلاً، «يقيم صُلبه» - كما عبّروا -^(٢)، وأن ينظر المصلّي إلى موضع سجوده^(٣)؛ لكيلا يشتّت بصره وقلبه وإدراكه

(١) سورة هود، الآية ١١٨ - ١١٩.

(٢) في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يُقِمَّ صُلبه فلا صلاة له» [مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ١ / ١٩٥، باب القِبلة، ح ٨٥٦، ووسائل الشيعة ٤ / ٦٩٤، الباب ٢ (باب وجوب الانتصاب في القيام والاستقلال والاستقرار)، ح ١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ لَمْ يُقِمَّ صُلبه في الصلاة فلا صلاة له» [وسائل الشيعة ٤ / ٦٩٤، الباب ٢ (باب وجوب الانتصاب في القيام والاستقلال والاستقرار)، ح ٢].

ويقول الشيخ صاحب الجواهر (قده): «والمرجع في القيام إلى العرف، كما في سائر الألفاظ التي لم يُعلم فيها للشرع إرادة خاصة؛ ضرورة أن ليس في النصوص - هنا - إلا الأمر بالقيام، وأن (مَنْ لَمْ يُقِمَّ صُلبه فلا صلاة له)، نعم.. في مرسل حريز، عن أبي جعفر عليه السلام: (قُلْتُ لَهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [سورة الكوثر، الآية ٢]، قال: النحر: الاعتدال في القيام، أن يقيم صُلبه ونحره)، الحديث.. والصُّلب - كما في (المجمل) و(مختصر النهاية): الظهر وعظم من الكاهل إلى أصل الذنب - كما في (الحقائق)» [جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام ٣ / ٦٣٤].

(٣) ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «واشع ببصرك لله - عزّ وجلّ -، ولا ترفعه إلى السماء، وليكن حذاء وجهك في موضع سجودك» [مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ١ / ١٩٥، (باب القِبلة)،

وتركيزه بالنظر إلى اليمين والشمال والأمام والخلف، وإنما يجعل بصره منصباً على نقطة واحدة مكثفة هي موضع سجوده.

ولعلّ العبرة في تركيز النظر على موضع السجود هي أن يتذكر الإنسان من أين أتى؟، وأنه خلُق من هذا التراب الذي يركّز عليه ببصره، وأنه مخلوق من هذا الطين الذي ينعم النظر فيه.

والله - جلّ وعلا - دائماً وأبداً في القرآن الكريم يذكر الإنسان بهذه الحقيقة: حقيقة المبدأ، وأصل خلقه الإنسان (حقيقة أنك من أين جئت أيها الإنسان؟)، وقد دأب القرآن الكريم على تفصيل هذه الحقيقة للإنسان، وتصويرها واضحة جلية أمام ناظره: فتارة يذكر أن الإنسان خلُق من تراب، وأخرى من طين، وثالثة من حمأ مسنون، ورابعة من صلصال كالفخار، وخامسة من ماء مهين، وسادسة من نطفة إذا تُمنى!!^(١).

هذا هو الإنسان الذي يتنكر لأصل خلقته، ويرتدي ثوب العُجب والكبر والغرور، ويخاصم ربّ العالمين: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(٢)، خلُق الإنسان من هذه العناصر التي هي أحوط العناصر وأحقرها «أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قدرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة»^(٣).

يريد الله من خلال هذا التذكير الدائم للإنسان بحقيقة خلقته، والتركيز عليها حتى في قيام المصلّي في صلاته أن يقول للإنسان: تذكر أصلك، ولا تتكبر أو تشمخ بأنفك على خالقك.

ح ٨٥٦، والمصدر ١/ ٢١٣، (باب وصف الصلاة من فاتحتها إلى خاتمتها)، ح ٩١٦، ووسائل الشيعة ٤/ ٣١٣، الباب ٩ (باب بطلان الصلاة إلى غير القبلة عمداً ووجوب الإعادة)، ح ٣.

(١) في موضوع آتٍ بعنوان (غايات تشريع السجود) سيُطرَق أستاذنا المرحوم الشيخ الشيب - رضوان الله عليه - مفصلاً لموضوع (من أي شيء خلُق الإنسان؟)، ويعرض الآيات القرآنية التي تتناول هذه الحقيقة الوجودية.

(٢) سورة النحل، الآية ٤.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم / ٣٠٨، الحكمة ٧٠٨٧.

نحن لسنا بصدد الحديث عن التكبر ورفع النفس على الناس وأمام الآخرين (التكبر على العباد)، ولكن حديثنا أن هناك مَنْ يتكبر على رب العالمين (التكبر على رب العباد)!!، وتلك درجة أعلى وأخطر من التكبر على العباد؛ لذلك يقول الله تعالى لهؤلاء: لا تتذكر - فقط - (مَنْ خلقك؟): ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١)، ولكن تذكر - أيضًا - (مِمَّ خلقك؟): ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(٢).

تذكر (مِنْ أين جئت؟)، و(إلى أين ستمضي عندما تموت؟)، وهل يحق لشخص هذا أصله ومبدؤه، وهذا منتهاه وغايته: (مِنْ التراب، وإلى التراب!!) أن يشمخ بأنفه، وأن يترفع على خالقه؟!

والترفع ليس كلمة تُقال، وإنما هو سلوك ومنهج، فإبليس - عليه لعائن الله -، لم يشمخ بأنفه بكلمة قالها لله - عز وجل -، بل.. بمنهج وسلوك صدر منه، فحين أمره الله بالسجود لآدم استكبر ﴿أَسْتَكْبَرْتُ﴾^(٣)، يعني عن الطاعة، فالمسألة ليست مسألة السجود لآدم، وإنما هي مسألة طاعة الله، أوليست مسألة السجود لآدم مسألة طاعة لله - جلّ وعلا -، وانقيادًا له، وامتنثالًا لأمره: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾^(٤)!

والله - سبحانه وتعالى - في بعض الأوقات يمتحن عباده امتحانات عسيرة

(١) سورة الروم، الآية ٤٠.

(٢) سورة الطارق، الآية ٥ - ٧.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [سورة ص، الآية ٧٥]، وقد ذكرت كثير من آيات القرآن الكريم تلك الكلمة بصيغ مختلفة منها: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية ١٢]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [سورة الإسراء، الآية ٦١].

(٤) سورة ص، الآية ٧٥.

حتى يبين ويظهر المعدن المستتر في هذا الإنسان، قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم **﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾** ^(١)، هل هناك امتحان أكبر وأشد من هذا؟!، أن يؤمر الأب الحاني بقتل ولده وفلذة كبده، إنه بحق امتحان عسير للأب والابن معاً!!! **﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾** ^(٢).

النبي إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - كان بإمكانه أن ينفذ أمر ربه من دون إخبار ابنه إسماعيل، لكنه أراد أن يثاب ابنه معه، أراد أن يجعل ابنه مشاركاً له في الثواب والأجر الجزيل؛ فأخبره بما أمره الله - عز وجل - به، فأجاب إسماعيل بكل طمأنينة وتسليم، و**﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** ^(٣)، إنه تسليم عميق في مقابل امتحانات عسيرة، ولم يكن ذاك منهما مجرد ادعاء لفظي يكذبه الامتحان، بل.. راحا يطبقان ما أمر الله تعالى به، فأخذ الأب الحاني الودود السكين الباترة، ليحزّ نحر ولده الذي كان بدوره - أيضاً - لابساً ثوب الرضا والتسليم للأمر الإلهي: **﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** ^(٤).

وكلمة **﴿أَسْلَمَا﴾** في الآية الشريفة تدل على أن التسليم صدر منهما معاً.

والله - جلّ وعلا - قدّم هذا الامتحان وهذا الأمر من أجل امتحان إبراهيم وإسماعيل فقط، لا من أجل أنه يريد تحقيق ذبح إسماعيل، فهو - سبحانه وتعالى - العليم بما ستؤول إليه عاقبة الأمور، وأنه سيفتدي إسماعيل بكبش عظيم: **﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾** ^(٥).

وهذا الامتحان من ضمن الكلمات التي حين أتمّها إبراهيم جعله الله للناس

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٢.

(٢) سورة الصافات، الآية ١٠٦.

(٣) سورة الصافات، الآية ١٠٢.

(٤) سورة الصافات، الآية ١٠٣-١٠٥.

(٥) سورة الصافات، الآية ١٠٧-١٠٨.

إِمَامًا: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١).

فهذا الامتحان الشديد أظهر المعدن الطاهر النقي لإبراهيم وإسماعيل معًا:

كشف أنَّ إبراهيم مسلّم جميع أزمنة أموره لله، مطيع لله في كل شيء، حريص على رضا الله بتنفيذ كل ما يأمر الله به مهما كان صعبًا وشديدًا ومجهدًا، حتى لو كان ذبح ولده العزيز الذي رزق به على كبر وشيخوخة، وفري أوداجه بالسكين الباترة الحارة!!

كما كشف أنَّ إسماعيل هو الآخر مسلّم مطيع لله، حريص على رضا الله ولو أكلت شفرة السكين أوداج نحره، وأجرت أنهار الدم القاني من فيض أوداجه، ورقص كالطير المذبوح على وقع أنغامها الأليمة، وبذل مهجته وروحه قربانًا لرضا الله، والروح أعز شيء عند الإنسان، و(الجودُ بالنفس أقصى غاية الجود)^(٢)؛ لأنَّ ذهابها فقدان حياة الإنسان، ومن بعدها لا خير في حياة ولا نعيم دنيوي.

الله - جلّ وعلا - حين يصفع الإنسان بيد البلاء يريد أن ﴿يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٣)؛ لذلك يمتحنه بمجموعة من الأوامر ومجموعة من النواهي، والامتنال لذلك يبرهن على طاعة الله، وخضوع الإنسان لهذا الخالق الجليل. وترك الامتنال لذلك يبرهن على معصية الله، وترسخ شجرة الاستكبار في نفس الإنسان أمام خالقه. وهكذا.. فالامتنال وعدمه ينبئان عن الخضوع لله أو عدم الخضوع له.

حين تكون في صلاتك ارم ببصرك لموضع سجودك، هذا التراب الذي خلقت

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٤.

(٢) شطر من بيت يُنسب للشاعر العباسي مسلم بن الوليد، وشطره الأول: (يجودُ بالنفس إنْ ضنَّ الجوادُ بها) [شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب ٣/ ٢١٤، باب (ذكر مَنْ انتهى إليهم الجود في الجاهلية وذكر شيء من أخبارهم)].

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٧٩.

منه، وسوف تعود إليه ذات يوم شئت أم أبيت، طال الزمان أم قصر، ففي يوم من الأيام سنعود إلى هذه التربة، ومعها نتحد، وبذلك يتحلل الإنسان؛ لكي يصبح جزءاً من هذا التراب الذي خلق منه، ويعود تراباً كما كان^(١).
هذا بعض ما يمكن أن يُقال في سرّ القيام..

(١) يقول تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [سورة طه، الآية ٥٥].



الأدب السادس

تكبيرة الإحرام

تكبيرة الإحرام

النقطة الأولى: معنى (تكبيرة الإحرام):

تكبيرة افتتاح الصلاة اسمها (تكبيرة الإحرام)، أي إعلان الوقوف بين يدي الله تعالى، والانقطاع إلى الله، والانفصال عن الدنيا وكلّ الشواغل.

واسمها آتٍ من كون المصلّي عازماً بهذا (التكبير) على (تحريم) أي شيء يُبعده عن صلاته، ويقطعه عن الله، وأنّ المصلّي يضع بها حاجزاً يحجزه عن كلّ شيء من فكر وفعل وغيرهما...؛ ليلج إلى ساحة الله والاتصال به.

فتكبيرة الإحرام هي الفاصل الذي يفصل بين انشغال الإنسان بحياته ومحيطه/ وبين الانقطاع عن جميع الانشغالات والصوارف والولوج إلى ساحة الربّ - جلّ وعلا -.

أي أنّ (تكبيرة الإحرام) اسم مشتقّ من (التحريم)، وبها يدخل الإنسان (حرم الله)، وينقطع له، و(يحرم) على نفسه أموراً معيّنة هي (مبطلات للصلاة)، كما أنّ (الإحرام) للحجّ والعمرة مشتقّ من (التحريم) كذلك؛ لغزم المُحرّم على منع مجموعة من الأشياء والأمر عليه، هي (محرمات الإحرام).

وفي معنى تكبيرة الإحرام يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إذا كبرت فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه؛ فإنّ الله - تعالى - إذا أطلع على قلب

العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: يا كذاب، أتخدعني؟!، وعزّتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري، ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي»^(١).

يقول المولى الشيخ محمد مهدي النراقي: «وإذا كبرت تكبيرة الإحرام تذكر أنّ معناها: أنّه تعالى أكبر من أن يوصف، أو أكبر من كلّ شيء، أو أكبر من أن يدرك بالحواس، أو يُقاس بالناس، فانتقل إلى غاية عظمته وجلاله، واستناد ما سواه إليه بالإيجاد والاختراع والإخراج من كتم العدم، وينبغي أن تكون على يقين بذلك حتى لا يُكذّب لسألك قلبك؛ فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله - تعالى - عندك، فالله يشهد أنّك كاذب»^(٢).

النقطة الثانية: عدد التكبيرات:

إذا.. يبدأ الإنسان مستقبلاً القبلة، وينوي هذه الصلاة، ويكبر تكبيرة الإحرام: إن شاء واحدة، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء خمساً، والأفضل السبع، فمن المستحبات عندنا التكبير سبعا قبل الدخول في الصلاة، ثمّ يشرع في صلاته.

فقد روى أبو بصير، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إذا افتتحت الصلاة، فكبر إن شئت واحدة، وإن شئت ثلاثاً، وإن شئت خمساً، وإن شئت سبعا، وكلّ ذلك مجزئ عنك، غير أنّك إذا كنت إماماً لم تجهر إلا بتكبير»^(٣).

وبعض العارفين يقول: إنّ التكبيرات السبع رمي لحُجُب سبعة؛ حتى يصل الإنسان إلى مقام افتتاح الصلاة؛ لأنّ هناك حُجُباً كثيرة على هذا القلب لابدّ أن يخترقها الإنسان حتى يصل، فالإنسان قبل أن يحرم إلى صلاته يجب أن يفرغ قلبه من الضرة

(١) جامع السعادات ٣ / ٣٤٧.

(٢) جامع السعادات ٣ / ٣٤٦-٣٤٧.

(٣) وسائل الشيعة ٤ / ٧٢١، الباب ٧ (باب استحباب افتتاح الصلاة بسبع تكبيرات، وجواز إيقاع النية مع أيّها شاء، وجعلها تكبيرة الإحرام، وجواز الاقتصار على خمس، وعلى ثلاث، وعلى واحدة)، ح ٣.

الأخرى (الدنيا)؛ حتى يتفرّغ للوقوف بين يدي الله.

وهذا المعنى الجليل الذي أشار إليه بعض العرفاء مأخوذ من الروايات الشريفة؛ فقد سأل هشام بن الحكم الإمام موسى الكاظم عليه السلام عن بعض أسرار الصلاة، ومنها: «لأَيِّ عِلَّةٍ صار التكبير في الافتتاح سبع تكبيرات أفضل؟»، فأجابه عليه السلام: «يا هشام، إنّ الله - تبارك وتعالى - خلق السماوات سبعاً، والأرضين سبعاً، والحُجُبَ سبعاً، فلما أسري بالنبى صلّى الله عليه وآله، وكان من ربه كقاب قوسين أو أدنى؛ رُفِعَ له حجاب من حُجُبِهِ، فكَبَّرَ رسول الله صلّى الله عليه وآله، وجعل يقول الكلمات التي تُقال في الافتتاح، فلما رُفِعَ له الثاني كَبَّرَ، فلم يزل كذلك حتى بلغ سبع حُجُبَ، وكَبَّرَ سبع تكبيرات؛ فلذلك العِلَّةُ يُكَبَّرُ في الافتتاح في الصلاة سبع تكبيرات»^(١).

(١) علل الشرائع ٢/ ٢٧-٢٨، الباب ٣٠ (باب العِلَّة التي من أجلها يُقال في الركوع: (سبحان ربّي العظيم وبحمده)، وفي السجود: (سبحان ربّي الأعلى وبحمده))، ح ٤.



الأدب السابع

الاستعادة

الاستعاذة

أول شيء يفعله الإنسان في هذه الصلاة بعد اتصافها بصفة الصلاة عن قيام هو: أن يستعيز بالله من شرّ الشيطان اللعين الرجيم. وهنا سوف نقف عند النقاط التالية:

النقطة الأولى: معنى الاستعاذة:

الاستعاذة تعني اللجوء، و(أعوذ) يعني (ألوذ وألجأ وأعتصم)^(١)، لكن - كما ذكر بعض العارفين - أنّ اللجوء إلى الله لا يمكن أن يكون بكلمة، يعني أنّ الإنسان إذا كان واقعاً في دائرة نفوذ الشيطان فكلمة (أعوذ بالله) لا تنفعه؛ لأنّ الاستعاذة تعني اللجوء الفعلي، لا مجرد الكلام اللفظي الذي يخالفه العمل.

إذاً.. على الإنسان المستعيز أن يخرج من دائرة الشيطان إلى دائرة الله، إلى حصن الله، هو يستعيز أي يلجأ، و(يلجأ) يعني يتحرّك من دائرة نفوذ الشيطان إلى دائرة الله وحصنه - جلّ وعلا -، وحصن الله هو (لا إله إلا الله)، يقول الإمام الرضا عليه السلام في الحديث القدسي عن الله: «لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»^(٢).

(١) لسان العرب ٩/ ٤٦٤ مادة (عوذ).

(٢) معاني الأخبار / ٣٧١، باب (معنى حصن الله - عزّ وجلّ -)، ح ١.

هو هذا الحصن الذي يجب أن نلجأ إليه، يعني أن نوحّد الله، يعني أن لا نشرك بالله شيئاً، هذا هو مضمون الاستعاذة، (أعوذ بالله) معناها أُلجأ إلى الله - جلّ وعلا -، واللجوء إلى الله يعني الفرار من مناطق الشيطان، يعني الفرار من المعصية، يعني الفرار من أماكن العصيان، يعني الابتعاد عن الموبقات، هذا هو معنى اللجوء إلى الله، أما أن يقول شخص بلسانه: (أعوذ بالله)، وقائلها يرتع في حظيرة الشيطان، فإنّ هذه الاستعاذة لا تنفعه بشيء، بل لا تصل استغاثته؛ لضعف فيها، لا في سامعها - سبحانه -.

الاستعاذة تعني اللجوء إلى ذلك الحصن، وشرط ذلك الحصن: التوحيد (لا إله إلا الله)، يعني أن الإنسان متبرئ من كلّ إله، لا يعبد إلا هذا الإله الحقّ (الله)، ولا يقرّ إلا بهذا الإله الصّديق، أما من جعل للشيطان على نفسه سيلاً، فهو وإن تفوّه بكلمة التوحيد إلا أنّ واقعه الشرك، فعليه أن يستعيد بالله من شرّ الشيطان اللعين الرجيم أولاً. الاستعاذة كناية عن خروج الإنسان من حصن الشيطان، ودخوله في حصن الرحمن.

النقطة الثانية: حكم الاستعاذة:

ذهب الشيخ المفيد الثاني (أبو علي الحسن ابن الشيخ محمد بن الحسن الطوسي) - رضوان الله عليهما - إلى وجوب الاستعاذة في الصلاة في الركعة الأولى^(١)؛ للأمر به في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٢)؛ حملاً منه لفعل الأمر ﴿اسْتَعِذْ﴾ الوارد في الآية الشريفة على الوجوب، ولا بأس به من باب الاحتياط.

(١) بحار الأنوار ٨٢ / ٦، الباب ٢٣، والحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة ٨ / ١٤٩، وجواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام ٣ / ٧٣٠.

يقول العلامة المجلسي: «وللشيخ أبي علي ابن الشيخ الأعظم أبي جعفر الطوسي قول بوجوب التعوذ؛ للأمر به. وهو غريب؛ لأن الأمر - هنا - للندب بالاتفاق، وقد نقل فيه والده في (الخلاص) الإجماع، وقد روى الكليني، عن أبي جعفر [الباقر] عليه السلام: (إذا قرأت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فلا تبال أن لا تستعيد)» [بحار الأنوار ٨٢ / ٦، الباب ٢٣، (باب القراءة وآدابها وأحكامها)].

(٢) سورة النحل، الآية ٩٨.

أما بقية فقهاءنا فقد حملوا الأمر في الآية الكريمة على الاستحباب؛ لوجود نصوص مرخصة بترك الاستعاذة قبل البسملة^(١)، ومن ثم أفتوا بالاستحباب، وكونها من السنن والمندوبات^(٢).

قبل أن تتوجّه في صلاتك، وقبل أن تتلو الآيات المفروضة من الفاتحة والسورة، أول شيء تقوم به هو: أن تستعيز بالله من شرّ الشيطان اللعين الرجيم.

(١) من هذه النصوص المرخصة لترك الاستعاذة: ما رواه فرات بن أحنف، عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «سمعت يقول: أول كلّ كتاب نزل من السماء: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فإذا قرأت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فلا تبالي أن لا تستعيز، وإذا قرأت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ سترتك فيما بين السماء والأرض» [وسائل الشيعة ٦ / ٥٩، الباب ١١ (باب أن البسملة آية من الفاتحة، ومن كلّ سورة، عدا (براءة))، ح ٨].

(٢) يقول الشهيد الأول في (الذكرى) في سنن القراءة: «فمنها: الاستعاذة قبل القراءة في الركعة الأولى خاصّة من كلّ صلاة؛ لعموم ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [سورة النحل، الآية ٩٨]، أي أردت القراءة، ولما روى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وآله كان يقول قبل القراءة: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، ولرواية الحلبي، عن الصادق عليه السلام، وصورته ما روى الخدري، وروي (أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم)، ورواه البنزطي، عن معاوية بن عمار، عن الصادق عليه السلام، واختاره المفيد في (المقنعة)، وروى سماعة: (أستعيز بالله من الشيطان الرجيم، إنّ الله هو السميع العليم)، وقال ابن البرّاج: يقول: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، إنّ الله هو السميع العليم)» [بحار الأنوار ٨٢ / ٦٠٥، الباب ٢٣، (باب القراءة وآدابها وأحكامها)].

ويقول الشيخ صاحب الحقائق: «المشهور أنّها مستحبة، ونقل فيه الشيخ في (الخلاف) الإجماع منّا، وقال أمين الإسلام الطبرسي في كتاب (مجمع البيان): (والاستعاذة عند التلاوة مستحبة غير واجبة بلا خلاف: في الصلاة، وخارج الصلاة)، ونقل في (الذكرى) عن الشيخ أبي علي القول بالوجوب فيها، قال: وللشيخ أبي علي ابن الشيخ الأعظم أبي جعفر الطوسي قول بوجوب التعوّد للأمر به؛ وهو غريب؛ لأنّ الأمر - هنا - للندب اتفاقاً»، [الحقائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة ٨ / ١٤٩].

ويقول الشيخ صاحب الجواهر: «ويستحب - أيضًا - أن يتعوّد أمام القراءة إجماعاً في (المنتهى) و(الذكرى) و(كشف اللثام)، والمحكي عن (الخلاف) و(الفوائد المليّة) و(البحار)، بل عن (مجمع البيان) نفي الخلاف فيه....، فما عن أبي علي ولد الشيخ الطوسي من القول بالوجوب شاذ وغريب»، [جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام ٣ / ٧٣٠ - ٧٣١].

النقطة الثالثة: موقع الاستعادة:

واضح أنّ الكلام عن الركعة الأولى، وليس كلّ الركعات، ففي الركعة الأولى من الصلاة قبل الشروع في البسملة؛ يستعيز الإنسان بالله من الشيطان اللعين الرجيم. فالاستعادة خاصّة بالركعة الأولى قبل قراءة سورة الفاتحة فيها، ولا تُقرأ في الركعة الثانية قبل الفاتحة.

النقطة الرابعة: شروط الاستعادة:

اشترط بعض فقهاءنا الإخفات في الاستعادة، بمعنى أنّه لا يجوز عند هذا البعض أن يستعيز الإنسان بالله من الشيطان اللعين الرجيم في صلاته جهراً، وإنّما يخفت بذلك سواء أكانت صلاته جهرية أم إخفائية.

النقطة الخامسة: صيغ الاستعادة:

من الصيغ الواردة في الروايات:

- «أَعُوذُ بِاللّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(١).
- «أَعُوذُ بِاللّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَأَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ يَحْضُرُونِ»^(٢).
- «أَسْتَعِيزُ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^(٣).

(١) وسائل الشيعة ٤ / ٨٠١، الباب ٥٧ (باب استحباب الاستعادة في أول الصلاة قبل القراءة، وكيفيتها)، ح ٧.

(٢) وسائل الشيعة ٤ / ٨٠١، الباب ٥٧ (باب استحباب الاستعادة في أول الصلاة قبل القراءة، وكيفيتها)، ح ٥.

(٣) وسائل الشيعة ٤ / ٨٠٠، الباب ٥٧ (باب استحباب الاستعادة في أول الصلاة قبل القراءة، وكيفيتها)، ح ٣.

وقد وردت الاستعادة بصيغ مختلفة، وفي ذلك يقول العلامة المجلسي: «وفي كيفية الاستعادة عند القراء اختلاف كثير، فقال ابن كثير وعاصم وأبو عمرو: (أعوذ بالله من الشيطان

فهذه بعض الصيغ المستحبة شرعاً في الاستعاذة، إما أن يأتي بها الإنسان بنية الاستحباب، وإما أن يأتي بها احتياطاً من باب القرية المطلقة.

النقطة السادسة: لماذا نستعيز بالله من الشيطان الرجيم؟

السّر في الاستعاذة: أنّ إبليس هاهنا مرصده، وهاهنا جلوسه، وهاهنا مقعده: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١).

إبليس لن تجده أمام الخمارة (البار)، ولن تجده في الملهى، ولن تجده في المرقص، ولن تجده في أماكن الفساد!!، بل ستجد إبليس على باب المسجد أولاً، ثم في المحراب ثانياً، هو جالس في المسجد: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وأي صراط يؤدي إلى الله - جلّ وعلا -، فإبليس واضح إليه فيه (برج مراقبة).. مرصد يرصد الخضوع إلى الله، يرصد السجود لله، يرصد الطاعة، أي مطيع يسعى إبليس جهده أن يفسد عليه طاعته، ويصرفه عن الطاعة، وهناك يقوم بعمله التضليلي.

ولذا فأول عمل عمله في هذا الصراط: أن تستعيز بالله من الشيطان الرجيم، لماذا تستعيز بالله؟ لأنّ إبليس - في مجمله - يرانا: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾^(٢).

الرجيم)، ونافع وابن عامر والكسائي كذلك بزيادة: (إنّ الله هو السميع العليم)، وحمزة: (نستعيز بالله من الشيطان الرجيم)، وأبو حاتم: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم)، والأشهر بيننا الأول والأخير، وفي بعض رواياتنا: (أستعيز بالله من الشيطان الرجيم)، وزاد في بعضها: (إنّ الله هو السميع العليم)، وفي بعضها: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بالله أن يحضرون)، وفي بعضها: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إنّ الله هو الفتّاح العليم) [بحار الأنوار ٨٢ / ٥، الباب ٢٣ (باب القراءة وآدابها وأحكامها)].

(١) سورة الأعراف، الآية ١٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

النقطة السابعة: إبليس الرجيم.. قوي أم ضعيف؟!

كيد إبليس كيد ضعيف ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^(١)، ليس عنده سلطان على بني آدم، لا سلطان له على من يتوكل على الله، وعلى المخلص من الله.

لكن مجموع أشراكه وحبائله المتناغمة مع خور النفس تجعل له سلطاناً قوياً؛ ولذلك فإن المرتكس في لجة النفس والهوى والمغريات لإبليس عليه سلطان؛ لأنه هو الذي اتبع إبليس، وهروا خلفه، فسلطانه إنما هو على من اتبعه من البشر^(٢).

فأنت أول عمل تقوم به اقطع على إبليس طريقه واستعد بالله منه.

النقطة الثامنة: شيطان واحد أم شياطين كثر؟!

لاحظوا في صيغتي الاستعاذة: القرآنية والروائية الآيتين: أن التعبير فيهما جاء بالفعل المضارع أولاً: ﴿يَحْضُرُونَ﴾، وجاء بصيغة الجمع لا الإفراد، ثانياً: ﴿وَأَعُوذُ

(١) قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء، الآية ٧٦].

(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية ٤٢].

ومن الآيات التي تشير إلى دور (التوكل) في مغالبة كيد إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [سورة الإسراء، الآية ٦٥].

وفي آيات أخرى اعترف الشيطان بعدم قدرته على إغواء المخلصين فقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * [سورة الحجر، الآية ٣٩-٤٣].

والجدير بالذكر أن هناك فرقاً بين (المخلصين)، بكسر اللام، أي اسم الفاعل من (أخلص)، وبين (المخلصين)، بفتح اللام، وهو اسم مفعول من (أخلص)، فالمخلص: هو الشخص الذي يخلص لله، والمخلص: هو الشخص الذي استخلصه الله إليه، واختاره إليه، واصطفاه.

والشيطان الرجيم اعترف بعدم قدرته على إغواء القسم الثاني (المخلصين): ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ *.

بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ^(١)، «وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يَحْضُرُونَ».

فلماذا جاءت الصيغة بالفعل المضارع، دون الماضي؟!

ولماذا جاء الفعل المضارع بصيغة الجمع، ولم يأت بصيغة الأفراد؛ تبعًا لكون إبليس الرجيم مفردًا؟!

والجواب:

١- جاءت الصيغة بالفعل المضارع (يَحْضُرُونَ)، دون الماضي (حضر/ حضروا)؛ لأنَّ الفعل المضارع يدلُّ على التجدد والحدوث والتكرار، فالشيطان لا يأتي مرة واحدة إلى الإنسان ويكتفي، أو يتعب أو يملُّ أو يصدُّ أو ينزوي، بل يأتي مرارًا وتكرارًا، فإن أطاعه الإنسان في معصية جرَّه لأخرى وأخرى وهكذا...، وإن رفضه الإنسان، وطرده، وأغلق الأبواب في وجهه؛ لم يستسلم، ولم يرفع الراية البيضاء، ويعلن الانسحاب، وإخلاء الساحة، بل يعاود الكرَّة ثانية وثالثة ومئة وألف ومليون و....، ويظلُّ طامعًا في عصيان الإنسان وضلاله وضياعه حتى آخر لحظة من عمر الإنسان، بل.. يأتي للإنسان حتى في لحظات النزع والاحتضار؛ ليجعله يشكُّ في الله، أو يسخط عليه ويلومه على المحنِّ التي رنقت حياته، وهذا واحد من أعظم المبررات التي تجعل قراءة سور (الصفات) و(يس) و(دعاء العديلة) مستحبًا عند النزع والاحتضار، من قِبَل المحتضر نفسه أو من قِبَل الحاضرين عنده؛ لتثبَّت إيمان الإنسان برَّبِّه.

٢- وجاءت الصيغة بالجمع (يَحْضُرُونَ)، وليس بالأفراد (حضر/ يحضر)؛ لأنَّ الشيطان رمز لكلِّ وسواسٍ خناس: الشيطان قد يكون مال الإنسان، وقد يكون عمل الإنسان، وقد يكون منصب الإنسان، وقد يكون بيت الإنسان، وقد يكون زوجة الإنسان، وقد يكون ولد الإنسان، وقد يكون أخا الإنسان، وقد يكون صديق الإنسان، وقد يكون زميل الإنسان، وقد يكون...، وقد يكون...، إلى آخره؛ فالشيطان اسم لكلِّ ما

(١) سورة المؤمنون، الآية ٩٨.

خفي ووسوس في صدور الناس؛ ولذا نقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(١).

يعني هناك (أناس) يمكن أن يوسوسوا في صدر بني آدم، يمكن أن يشتركوا مع إبليس في الصفة نفسها، وأنّ ذاك ليس مقصوراً على إبليس والجنّ، بل.. هناك من دائرة البشر من يقوم بالوسوسة في الصدور!!

ومالك وعملك ومنصبك وبيتك وزوجتك وولدك وأخوك وصديقك وزميلك.. هذه كلّها وغيرها من الممكن أن تكون حاجبة وصادة عن الله، كلّها يمكن أن تكون شيطاناً توسوس في صدر الإنسان؛ لتبعده عن طريق الطاعة، لتبعده عن صراط الله - جلّ وعلا -، أي أنّها يمكن أن توسوس.

إذا.. نستعيز بالله من شرور الناس، ومن شرور أنفسنا، ومن جنس (الشيطان)، الجنس الذي يصدق على كلّ من يوسوس؛ ولذا نقول: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾^(٢)، ولم نقل: (أن يحضر)؛ لأنّ الشيطان عنده قبيلة، وفرخ جماعة وأولاداً وأحفاداً إلى آخره، وهم يعينونه في ذلك، والناس يمكن أن يتحوّلوا إلى شياطين.

النقطة التاسعة: ما طريقة إبليس في إغواء بني آدم؟

ما طريقة إبليس؟

طريقته: أن يقعد للإنسان في الصراط المستقيم، وهناك يزرع فخاخه، وينصب أحابيله، ومنها:

١- أن يزين للإنسان القبيح والباطل والحرام والشبهات؛ ليخوض في مستنقعها الوبيل.

(١) سورة الناس، الآية ١-٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٩٨.

٢- أن يوسوس في صدر الإنسان؛ ليشك في ربه، وفي أحكامه وتشريعاته، وليلهيهِ عن العبادة، وفيها، فلا يعرف معناها المشرق ومحتواها النبيل.

٣- أن يشغل الإنسان بأمور الدنيا؛ لينسيه ذكر الله.

الإنسان يشتغل ببيت؛ فينسى ذكر الله، أو يشتغل بزوجة؛ فينسى ذكر الله، أو يشتغل بولد؛ فينسى ذكر الله، أو يشتغل ببعض الأوقات بشيء اسمه (عمل ديني)، لكنّه يلهيه عن ذكر الله!!

وأقول: (اسمه عمل ديني)؛ لأنّ واقعه لا يمكن أن يكون كذلك، فما فائدة هذا العمل الديني الذي يُنسى ذكر الله؟!
٤- أن يحجب الإنسان عن ذكر ربه.

النقطة العاشرة: الاستعاذة تؤهلنا لقراءة الفاتحة والقرآن المجيد..

وإذا تمّت الاستعاذة، وخرج الإنسان من حظيرة الشيطان إلى حصن الله - جلّ وعلا - حينذاك يؤذن له أن يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، داخلاً إلى رحاب سورة الفاتحة.

بعد أن انقطع عن غير الله، والتجأ إلى الله؛ حقّ له وساغ له أن يتلفظ بلفظ الجلالة الشريف المقدّس الطاهر.. على لسانه، ويبدأ بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ - جلّ وعلا -... حامداً لله، قارئاً لهذه الآيات المباركة قبل أن يتوجّه إلى ركوعه.

(١) سورة الفاتحة، الآية ١- ٢.



الأدب الثامن

القراءة

أنواع الناس في القراءة

الفقهاء يذكرون أنّ الإنسان في صلاته بعد الاستعاذة يجب عليه أن يقرأ الفاتحة وسورة، وإن كان هناك بحث فقهي بالنسبة للسورة، وهل يجب قراءة سورة كاملة أم لا؟، فالفقهاء إما يفتون بالوجوب، وإما يحتاطون بالوجوب، ولا قائل بغير هذين، إما فتوى بالوجوب، وإما الاحتياط الوجوبي، أما فاتحة الكتاب فـ «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»^(١)، وهي في كلّ صلاة واردة: سواء كانت صلاة واجبة، أو صلاة مستحبة، ولو جوب فاتحة الكتاب سرّ عظيم نتطرّق إليه - إن شاء الله - في بحوث أخرى قادمة. من واجبات الصلاة كما ذكر الفقهاء - رضي الله عنهم - القراءة: قراءة فاتحة الكتاب، وهو حكم إجماعي، بل يكاد أن يكون من ضروريات الدين. إذًا.. (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب)، وإن كان فتوى الفقهاء أنّه لا تجب الإعادة فيمن ترك فاتحة الكتاب سهوًا، إلا أنّهم يفتون بوجوب الإعادة فيما لو تركها عمدًا. هذه القراءة في الصلاة على أنحاء، والناس تجاهها على أقسام:

(١) عوالم الآلئ ١ / ١٩٦، الفصل التاسع، ح ٢، ومستدرّك الوسائل ٤ / ١٥٨، الباب ١ (باب وجوب قراءة الفاتحة في الثنائية، وفي الأوليين من غيرها)، ح ٥.

القسم الأول: أصحاب الجهل بالمعنى:

هناك أناس يقرؤون الفاتحة والسورة في الصلاة، لكنهم يجهلون معنى ما يقرؤون!!

وهذا القسم بدوره ينقسم إلى قسمين:

أ. الجهل باللفظ والمعنى:

أول أمر يواجه الإنسان في قراءته لكتاب الله في الصلاة وغيرها هو: صحة القراءة، ومن صحة القراءة يتفرع صحة المعنى.

هناك قسم من الناس يتلفظون بمجموعة من الآيات دون إدراكٍ منهم لصحة اللفظ (أي القراءة الصحيحة للفظ)، فضلاً عن معناه!!، بمعنى أنه يسمع شيئاً، فيتلقاه كالمتلقن، ويكرّر هذا اللفظ من دون إدراك ماذا يعني ذاك اللفظ، وقبل ذلك من دون إدراك لصحة اللفظ نطقاً، فالسؤال عن المعنى فرع السؤال عن صحة اللفظ، أي هل ينطق الإنسان هذا اللفظ نطقاً صحيحاً أم لا؟، وهذه مشكلة يعاني منها الكثيرون، فالواحد منهم يقرأ القرآن من دون تعلّم صحيح للقراءة، ومن دون تصحيح لها، ومن دون سؤال عن صحة القراءة أصلاً!!

في بعض الأوقات الإنسان يجهل، وهذا ليس عيباً، فليس هناك من بين البشر غير المعصومين مَنْ يعلم كلّ شيء، ويحيط خبراً بكلّ شيء ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(١)، لكنّ هذا البعض يتجاهل أو يقصّر حتى في السؤال.

رحم الله العلماء الماضين، ولا أدري هل فعلهم موجود الآن أم لا؟، كانوا يطلبون ممن يعتزم الذهاب إلى الحجّ أن يقصّ صلاته وقراءته عليهم، وكان الواحد من الناس يعرف أنه يصليّ بشكل صحيح أو لا.. عندما يذهب إلى الحجّ؛ باعتبار أنّ المرشد يجلس مع كلّ واحد، ويسمع نطقه للفاتحة والسورة، ويمكن أن يضبطها ذاك

(١) سورة يوسف، الآية ٧٦.

الإنسان أثناء فترة الحج، ثم يعود إلى ما كان عليه سابقاً، وتجد الإنسان خمسين أو ستين سنة يصلي صلاة.. فاتحة الكتاب فيها - وهي أم الصلاة - لا تُقرأ صحيحة!!

والشواهد الاجتماعية على هذا (الجهل باللفظ والمعنى) كثيرة، منها:

- أحدهم يقول: إنه أرسل ابنه إلى الكتاتيب (المعلم) حتى يتعلم القرآن، وبعد سنة سأل ابنه: في أي سورة أنت؟، فقال له: في سورة ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(١)، (والد بلا ولد!!)، فقال له الأب: لا.. يا عمري، إنما هي: (من كنت ولده فهو بلا ولد)!!

وفي رواية أخرى للقصة أن الطفل قد سمعها بهذا الشكل، أو فهمها بهذا الشكل: (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. ووالد بلا ولد)، فقال له الأب: بل هي.. (الذي أنت ولده هو فعلاً ما عنده ولد).

- والآخر الذي قرأ قوله تعالى في قصة النبي يوسف عليه السلام وإخوته: ﴿اتُّوْنِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَّكْتُلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢).

فكان هذا الشخص يسأل عن قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَّكْتُلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ويقول: (نكتل) هذا هل هو أخو يوسف لأمه وأبيه، أم هو أخوه لأبيه فقط؟!

لقد أخذ لفظة (نكتل) على أنها اسم علم لأحد إخوة يوسف شأنه شأن: (لاوي) و(يهودا) و(شمعون)، و(بنيامين)!!^(٣)، أي (أرسل معنا أخانا الذي اسمه نكتل)!!،

(١) سورة البلد، الآية ١-٢.

(٢) سورة يوسف، الآية ٥٩-٦٣.

(٣) كان لنبي الله يعقوب عليه السلام اثنا عشر ولداً ذكرًا هم: النبي يوسف عليه السلام، وبنيامين - وكانا شقيقين، وأمهما (راحيل)، ولاوي، ويهودا، وجاد، وأشير، ويساكر، وشمعون، ورأوبين،

تماماً مثل: (أرسل معنا أخانا بنيامين)، وأؤكد أنّ هذه ليست قصة مختلقة أو طرفة تُقال، لا..، فكثيرون ذاك اليوم كان هذا فهمهم!!

وإلى زمن قريب كان هذا الفهم لكلمة ﴿نُكْتَلُ﴾ سائداً منتشرًا بين الناس بما يفيد أنّ الأمر ليس قصة مختلقة أو نادرة فكاهية تُقال، وهو أمر يتداوله كثير من الناس إلى الآن، ويجري على ألسنتهم.

- وثالث كلّما يسأل ابنه: ماذا تشتغل هذه الأيام؟، قال: أنا تارك كلّ الدنيا ومتوجّه إلى القرآن، فلا يسألني أحد في شيء!!، فقد مضت عليّ سنتان أو ثلاث وأنا متجه لعلوم القرآن فقط، وتارك بقية العلوم، فقال له أبوه: إن شاء الله وجدت نتيجة؟، فقال: أنا فهمتُ كلّ شيء في القرآن، لكنّ لفظة واحدة لستُ قادراً أن أفهم معناها، فقال له: ما هي؟، فقال: (خبيز) نبي أو وصي؟، فقال له: مَنْ هو (خبيز) هذا؟!، فقال: خبيز هذا، هو المذكور في الآية: (فاسأل به خبيرا)، يقصد الآية: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾^(١)، لكنّ هذا الشخص قرأها: (فأسأل به خبيرا)!!، فظنّه رجلاً اسمه (خبيز)، ومن ثمّ نشأ الوهم لديه فقال: لا أدري (خبيز) هل هو نبي أم وصي؟!

- وفي إحدى الفواتح كان أحد المؤمنين جالساً إلى جانبي يقرأ القرآن، وتناهى إلى سمعي أنّه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٢).

ونفتالي، ودان، وزبولون، وكانوا إخوة يوسف من أبيه فقط، [راجع: التوراة، أخبار الأيام الأول، الإصحاح الثاني، الآية ١-٢، والفخر الرازي، التفسير الكبير (مفتاح الغيب) ١٨/٩١، في تفسير قوله تعالى في سورة يوسف، الآية ٧: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَائِلِينَ﴾].

(١) قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان، الآية ٥٩].

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٥٣.

فكان يقرأ: (تلك الرسل فصلنا بعضهم على بعض)!!، الموضوع ليس إلا في نقطة تفصل بين قراءتي ﴿فَصَّلْنَا﴾ و(فصلنا)، والواحد منا قد يقرأ ولا يلتفت ماذا يعني (تلك الرسل فصلنا بعضهم على بعض)، تفصيل الرسول على الثاني، بل قد يعتقد أن ذاك هو اللفظ الصحيح والمعنى الصحيح، وأنه يدل على أنهم متوافقون متطابقون متناغمون، يجرون على أمر واحد هو الذي أوحى به الله إليهم، ولا يختلفون، كأن بعضهم فصل على بعض، كما أن لباس الإنسان يُفصل عليه، أي يؤخذ على مقاسه بدقة، فيتطابق مع صاحبه ويناسبه!!

نحن نضحك على هذه الحكايات، لكننا في بعض الأوقات نقع في آيات أخرى ربّما ليست بهذا الوضوح..

فأول واجب على الشخص الذي يقرأ القرآن هو: أن يضبط نطق الآيات ضبطاً صحيحاً.

نحن مشكلتنا حتى في فاتحة الكتاب في صلواتنا، كثيراً ما نجهل النطق الصحيح للآية وكلماتها كيف يجب أن يكون؟! ^(١)، وعلينا أن نعي أنه ليس عيباً أن يسأل الأكبر

(١) ومن أمثلة ذلك:

- ١- قراءة كلمة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ في البسملة بضمّ النون (الرحمن)!!
- ٢- قراءة كلمة ﴿الْحَمْدُ﴾ في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بكسر الدال (الحمد).
- ٣- قراءة كلمة ﴿رَبِّ﴾ في ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بضمّ الباء (رب).
- ٤- إشباع كلمة ﴿مَالِكُ﴾ في ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ حتى تتحوّل كسرة الكاف إلى ياء، وتضحي جمع مذكر سالم (مالكي يوم الدين).
- ٥- قراءة كلمة ﴿إِيَّاكَ﴾ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بهمزة وصل (أيّاك).
- ٦- قراءة كلمة ﴿نَعْبُدُ﴾ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بكسر الباء (نعبد).
- ٧- قراءة كلمة ﴿نَسْتَعِينُ﴾ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بكسر نون المضارعة (نستعين).
- ٨- قراءة كلمة ﴿اهْدِنَا﴾ في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بهمزة قطع عند وصل القراءة (إهدنا).
- ٩- قراءة كلمة ﴿صِرَاطُ﴾ في ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، بفتح الصاد (صراط).
- ١٠- وقراءة كلمة ﴿الْمَغْضُوبِ﴾ بالطاء (المغضوب).
- ١١- وقراءة كلمة ﴿الضَّالِّينَ﴾ بالطاء (الظالين).

مَنَّا سَنَّا مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ وَأَفْضَلُ نَطْقًا مِنْهُ حَتَّى لَوْ كَانَ أَصْغَرَ مِنْهُ سَنًا، لَيْسَ عِيًّا أَنْ يَسْأَلَ الْوَاحِدُ مَنَّا الْآخَرَ.

عندنا أصحاب كبار للأئمة - صلوات الله وسلامه عليهم - كان الواحد منهم سنويًا يأتي ليعرض دينه على الإمام، ويقول له: أعرض عليك ديني الذي أدين الله - عزَّ وجلَّ - به، ويتلو عقيدته، ويقول له: يا ابن رسول الله، هذه العقيدة هل هي صحيحة أم فيها إشكال؟!^(١).

أَنْ يَصَحَّحَ الْإِنْسَانُ نَطْقَهُ وَعَقِيدَتَهُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُفَاجَأَ غَدًا، وَبِالتَّالِي يُقَدِّمُ عَلَى رَبِّهِ بِنَطْقٍ خَاطِئٍ وَبِعَقِيدَةٍ خَاطِئَةٍ، وَالْجَاهِلُ إِذَا كَانَ قَاصِرًا يُعْذِرُ، أَمَّا الْجَاهِلُ الْمَقْصَّرُ فَإِنَّهُ لَا يُعْذِرُ أَمَامَ اللَّهِ، وَنَحْنُ فِي وَاقِعِنَا الْاجْتِمَاعِيِّ الْيَوْمَ يَكَادُ أَنْ يَكُونَ الْجَاهِلُ الْقَاصِرُ مُتَنَفِّيًا مَعَ وَجُودِ الْعُلَمَاءِ وَوُجُودِ الطُّلَبَةِ وَوُجُودِ الْمُتَدِينِينَ وَوُجُودِ الْكُتُبِ وَالْمَحَاضِرَاتِ وَالْوَسَائِلِ الْمَعْرِفِيَةِ الْآخَرَى، فَلَيْسَ عِنْدَنَا جَهْلٌ قُصُورِي، وَإِذَا كَانَ هُنَاكَ جَهْلٌ فَهُوَ جَهْلٌ تَقْصِيرِي، يَعْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الْمَقْصَّرُ عَلَى نَفْسِهِ.

فَالْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي الْقِرَاءَةِ هِيَ أَنْ يَتَقَنَّ الْإِنْسَانُ قِرَاءَتَهُ، بِمَعْنَى أَنْ يَتَلَفَّظَ بِالْأَلْفَاظِ صَحِيحَةٍ كَمَا وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

(١) انظر على سبيل المثال:

- إسماعيل بن جابر يعرض عقيدته على الإمام الباقر عليه السلام [الكافي ١ / ٢٤٣، الباب ٦٥ (باب فرض طاعة الأئمة)، ح ١٣].

- والحسن بن زياد العطار يعرضها على الإمام الصادق عليه السلام [الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العبري (الشيخ المفيد) الأمالي / ٣٢].

- وابن أبي يعفور يعرضها على الإمام الصادق عليه السلام [بحار الأنوار ٣٥ / ١٨٧-١٨٨، الباب ٤ (في نزول آية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ في شأن أمير المؤمنين عليه السلام)، ح ٨].

- وعبد العظيم بن عبد الله الحسني يعرضها على الإمام أبي الحسن الهادي [كمال الدين وتمام النعمة / ٣٥٣، الباب ٣٧ (باب ما روي عن أبي الحسن علي بن محمد الهادي في النص على القائم عليه السلام وغيبته، وآته الثاني عشر من الأئمة عليهم السلام)، ح ١، ووسائل الشيعة ١ / ١٣، الباب ١ (باب وجوب العبادات الخمس: الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد)، ح ٢٠].

وملخص هذا النوع الأول من الناس في قراءتهم: هم الذين يقرؤون القرآن، ولكنهم لا يحسنون القراءة الصحيحة لألفاظه وعباراته، فهم لا يدركون صحة اللفظ، ولا يدركون صحة المعنى، وهذا النوع من الناس لا ينتفع بصلاته، نحن قلنا: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي معراج المؤمن، وقربان كل تقي، وخير موضوع، إلى آخره..^(١)، لكن ذاك حين تكون الصلاة متقنة وتامة، بشروطها وشرائطها، وواحدة من شرائطها أن تكون قراءة الإنسان فيها صحيحة حتى تكون ناهية عن الفحشاء والمنكر.

ب- الجهل بالمعنى وحده:

المطلوب بعد أن يتقن الإنسان قراءة اللفظ بشكل صحيح أن يدرك المعنى.. فبعد أن يتقن اللفظ وأنه لفظ صحيح، عليه أن يتقن معنى هذه الألفاظ، فهي ليست ألفاظاً - فقط - يقرؤها من دون فهم وبصورة بمعانيها. والجهل بمعنى ألفاظ القرآن الكريم يمثل البلاء الأعظم عند أكثر الناس، ولا أستثني منهم حتى طلبة العلم!! نحن مشكلتنا مع القرآن أننا قد نتقن قراءة القرآن كألفاظ، فتتوفر عندنا القراءة الصحيحة، لكن بالنسبة للمعاني قد يمر على الإنسان ألف لفظ ولفظ من دون أن يدرك ماذا تعني تلك الألفاظ؟!

آيات كثيرة يمكن أن نقرأها دون إدراك معناها، وبالذات نحن.. فمع الأسف الشديد عندنا فاصلة كبيرة مع القرآن، فليس لدينا لقاء مع القرآن إلا في مناسبات شهر رمضان أو عندما نذهب إلى مجلس فاتحة (عزاء) - أبعد الله السوء عن الجميع -، فانتظر متى يحل شهر رمضان، وانتظر اليوم الذي نذهب فيه لنعزي شخصاً، أو نمضي لفاتحة؛ حتى نقرأ فيه شيئاً من القرآن!!

(١) تقدّمت الروايات في ذلك في مبحث (آثار حضور القلب: حصول الأثر من العبادة) من هذا الكتاب.

وقد جرت العادة أنّ الإنسان يختم القرآن في شهر رمضان مرّة، والمؤمنون المتدينون لا يكاد يمرّ عليهم شهر من دون ختم القرآن، والبعض عنده قانون كلّ ثلاثة أيام يختم القرآن، ونحن لا نتكلم عن الصحابة الذين كانوا يختمون القرآن في كلّ ليلة مرّة، وهذا ليس شيئاً صعباً مستصعباً على الإنسان، فالإنسان وقراره، إنّه مستعد أن يضيق أربع ساعات أو خمس أو ثمان يومياً في كلام فارغ وضحك!!، وهذه الأربع ساعات أو الخمس أو الثمان كفيلة بإنجاز ختمة للقرآن، ماذا تستغرق ختمة القرآن؟!، فـ «الخير عادة، والشرّ لجاجة»^(١).

ونتيجة هذا البعد عن القرآن الكريم أن تأتي مجموعة من الألفاظ القرآنية نعرفها من ناحية اللفظ، ولكننا نجهلها من ناحية المعنى.

والإنسان حين يقرأ سورة - لا أقلّ في إطار الصلاة - يجب أن يكون مدرّكاً لمعناها، فالإنسان ممّا يلزم حين يقرأ فاتحة الكتاب أن يقرأ ولو تفسيراً لفظياً واحداً لمعاني ألفاظ هذه السورة المباركة؛ حتى يدرك حين يقرأ ماذا يقرأ؟، وبماذا يخاطب ربّه؟، والسورة التي بعد فاتحة الكتاب - أيضاً - التي نختار قراءتها في صلواتنا، علينا أن نرجع إلى التفاسير؛ لنفقه معنى هذه السورة، هذا هو القدر المتيقن، القدر الأقل.

حتى تكون صلاة الإنسان صلاة تامة لا بدّ أن تكون السور التي يتلوها في صلاته واضحة لديه من ناحية المعنى.

من المعيب حقاً أن نقرأ سورة الفاتحة وسورة الإخلاص - مثلاً - في صلواتنا يومياً، ولا نعرف معنى ﴿الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، ولا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٣)، في سورة

(١) محمد بن يزيد القزويني (ابن ماجه)، سنن ابن ماجه ١ / ٨٠، الباب ١٧ (باب فضل العلماء، والحثّ على العلم)، ح ٢٢١، ومحمد بن حبان التميمي، صحيح ابن حبان ٢ / ١١١، (باب ما جاء في الطاعات وثوابها)، ح ٣١١، وكنز العمال ١٠ / ٢٥٠، (الباب الأول: في الترغيب في العلم)، ح ٢٨٧٢٢.

(٢) سورة الفاتحة، الآية ٢.

(٣) سورة الفاتحة، الآية ٥.

الفاتحة. ولا نعرف معنى ﴿أَحَدٌ﴾^(١) و﴿الصَّمَدُ﴾^(٢)، في سورة الإخلاص!!

نحن نقرأ هاتين السورتين المباركتين عشرات المرات، بل مئات المرات، ولربما ألوف المرات، في صلواتنا، وفي مجالس عزاء أهل البيت عليه السلام، وفي الفواتح، ولا نعرف معنى ألفاظهما!!

وإذا كان هذا مع معاني أكثر سورتين شريفتين نعص عليهما بنواجذنا، فما ترانا ندرك من معاني سور أخرى كالضحى والانشراح والماعون والعاديات، وغيرها؟!!

القسم الثاني: أصحاب النطق الصحيح واستحضار المعنى في النفس:

هناك درجة أرفع من القسم السابق بشقيه يحتلها أولئك الذين يتقنون اللفظ، ويعرفون المعنى، ويستحضرون هذه المعاني في نفوسهم عبر الألفاظ، وهؤلاء ليست لديهم مشكلة في نطق اللفظ، وليست لديهم مشكلة في فهم المعنى، ويحاولون أن يستحضروا المعاني إلى نفوسهم بتلاوتهم للآيات، يعني أن يستحضروا معنى (الاستعانة بالله) عندما يقرؤون في سورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٣)، ويستحضروا معنى (الحمد) عندما يقرؤون قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤)، ويستحضروا معنى (المثول أمام الله) في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٥)، ويستحضروا معنى إفراد الله بـ (العبادة) و(الاستعانة) في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٦)، ويستحضروا الدعاء المخلص بالهداية إلى الصراط المستقيم في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

(١) سورة الإخلاص، الآية ١.

(٢) سورة الإخلاص، الآية ٢.

(٣) سورة الفاتحة، الآية ١.

(٤) سورة الفاتحة، الآية ٢.

(٥) سورة الفاتحة، الآية ٤.

(٦) سورة الفاتحة، الآية ٥.

الضَّالِّينَ ﴿١﴾، إلى آخره..

وهذا يعني أنّ الواحد منهم يقرأ القرآن، ويستحضر المعاني إلى نفسه، وهذه درجة رفيعة من القراءة، وإن كانت ليست الدرجة الأرفع، لكن في مقابل الدرجة الأولى تصبح هذه الدرجة رفيعة، أن يتلو الإنسان آيات الله، ويحاول استحضار هذه المعاني إلى نفسه، وإشباع نفسه بهذه المعاني السامية.

القسم الثالث: أصحاب النطق الصحيح، وحضور المعنى في النفس:

في مقابل القسم الثاني نأتي إلى القسم الثالث، وهو الذي غدت هذه الألفاظ عنده تعبيراً عن معاني موجودة في داخل نفسه، لا أنّه عبر اللفظ يستحضر المعنى، فالمعنى موجود في النفس، مستقر في القلب، ثم يأتي اللفظ ليحكّيه ويكشفه ويبيّنه:

- هو موقن أنّ كلّ شيء تجري شؤونه بالله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

- وموقن أنّ الحمد كلّ له ربّ العالمين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

- وموقن أنّ الله صاحب الرحمة الواسعة الدافقة: العامة والخاصة ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

- وموقن أنّ الله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وسلطان يوم الحساب، وأننا سنمثل بين يديه حتماً في ذلك اليوم..

- وموقن أنّ العبادة والاستعانة محصورة بالله ربّ العالمين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

- وموقن أنّ الهداية للصراط المستقيم من الله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

كلّ هذه المعاني هو مستحضر لها في قرارة نفسه، نفسه مشبعة بهذه المعاني، وإنّما يتلو الآيات، وينطق بالألفاظ معبراً عن معاني ثابتة مستقرة في عمق وجدانه...، وهذه هي الدرجة الأرفع من التلاوة.

في القسم السابق (الثاني) كان يقرأ ألفاظاً؛ لكي يستحضر المعنى إلى النفس، أما في هذا القسم (الثالث) فالمعنى حاضر في النفس، المعنى موجود في داخل هذا الإنسان، وإنّما يتلو الآيات معبراً عن هذه المعاني أمام الله - جلّ وعلا -.

هذه أقسام ثلاثة، ولينظر كلّ منّا من أيّ الأصناف هو!!

الدرجة المقدّرة لأقلّ مطلوب هي الثانية (النطق الصحيح، واستحضار المعنى في النفس)، وهذا يعني أنّ أقلّ ما يجب أن يكون عند المصلّي هو أن يتلو الآيات ليستحضر المعاني إلى نفسه.

والدرجة الأرفع هي (النطق الصحيح، وحضور المعنى في النفس)، أن تكون المعاني حاضرة في نفس الإنسان، حاضرة في قلب المصلّي قبل مثوله بين يدي ربّه الكريم، ويقرأ القرآن ويتلو الآيات؛ لكي يعبر بهذه الألفاظ عن هذه المعاني الموجودة في نفسه.



الأدب التاسع

أسرار سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

نريد - هنا - أن نسير سيرة إجمالاً في شرح ألفاظ سورة الفاتحة؛ باعتبار أنها من جهة (أم الكتاب)، ومن جهة أخرى السورة المتكررة في كل صلاة، فيلزم على المصلي إن أراد استيفاء الغرض من صلاته أن يكون ملماً بقدر ما يؤتى من استطاعة بمعرفة فاتحة الكتاب، و«إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها»^(١).

أعظم آية في كتاب الله:

سورة الفاتحة هي أعظم سورة في كتاب الله المجيد، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ عموماً - في جميع السور، ومنها سورة الفاتحة - أعظم آية في كتاب الله، وأعظم آية في سورة الفاتحة؛ وفي ذلك يقول خالد بن المختار: «سمعتُ جعفر بن محمد [الصادق] عليه السلام يقول: ما لهم - قاتلهم الله -، عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله، فزعموا أنها بدعة إذا أظهروها، وهي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؟!»^(٢).

ويستحب الجهر بالبسملة حتى في الصلوات الإخفائية، وقد روي عن الإمام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام أنه قال: «علامات المؤمن خمس: صلاة الخمسين، وزيارة

(١) نهج البلاغة / ٤٩٥، الخطبة ١٤٧.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ١ / ٩٩، باب (ثواب فاتحة الكتاب، وفضلها، والبسملة آية منها، وفضلها)، ح ٢٦.

الأربعين، والتختّم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١). وهناك مجموعة من الروايات تقول: «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أقرب إلى اسم الله الأعظم من بياض العين إلى سوادها»^(٢)، لكنّ المسألة مرتبطة بيقين الإنسان. وحين يطالع الإنسان هذه الرواية التي تعدّ البسملة «أقرب إلى الاسم الأعظم من بياض العين إلى سوادها»، قد يشكك فيها، أو يشكك في أنّ هذا الكلام صدر من معصوم؛ لأنّه لا يرى أو لا يلمس الأثر المذكور لهذه الآية أو لتلك السورة!!

مثلاً في فضل سورة الفاتحة (أمّ الكتاب) وسورة الإخلاص، وأثرهما الإعجازي العظيم؛ ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «استشفوا بما حمد الله تعالى به نفسه قبل أن يحمده خلقه، وبما مدح الله تعالى به نفسه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾»^(٣)، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»^(٤)، فمن لم يشفهِ القرآن فلا شفاه الله»^(٥).

وهذا يعني أنّ فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص شفاء من كلّ داء، وإذا لم يشفَ إنسان بهما فلا شيء يشفيه!!

وقد يقول إنسان: لماذا نبتلي بأمراض؛ فنقرأ الفاتحة الممرة، والسبع، والسبعين.. ولا نشفى؟! ونجيبه بأنّ المسألة مرتبطة بيقين الإنسان، مرتبطة بثقة الإنسان بربه.

المسألة مسألة يقين، لا شيء آخر، وقصة مَنْ كان يقرأ البسملة ويمشي على صفحة الماء حاضرة في أذهان الجميع، قرأها بيقين، فمشى على الماء، وشيخه الذي

(١) تهذيب الأحكام ٦ / ٥٢، الباب ١٦ (باب فضل زيارة الحسين عليه السلام)، ح ٣٧.

(٢) وسائل الشيعة ٤ / ٧٤٧، الباب ١١ (باب أنّ البسملة آية من الفاتحة، ومن كلّ سورة عدا براءة، ووجوب الإتيان بها، وبطلان الصلاة بتعمّد تركها، ووجوب إعادتها)، ح ١١، والبرهان في تفسير القرآن ١ / ٢٢١، ح ٢٣٠، وبحار الأنوار ٨٩ / ٢٣٣، الباب ٢٩ (باب فضل سورة الفاتحة وتفسيرها)، ح ١٥.

(٣) سورة الفاتحة، الآية ٢.

(٤) سورة الإخلاص، الآية ١.

(٥) الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ١ / ٦، وكنز العمال ١٠ / ١٤، (باب التداوي بالقرآن)، ح ٢٨١٠٤.

علّمه إياها لم يكن لديه ذاك اليقين، علّمها طالبه من باب حكاية يقولها له فقط، لكنّ تلميذه ارتفع في يقينه، وسما، وقد قيل لرسول الله ﷺ: «إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَانَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، فَقَالَ: لَوْ زَادَ يَقِينُهُ لَمْشَى فِي الْهَوَاءِ..»^(١).

درجة يقين الإنسان هي التي تحدّد خطّ سيره، وتحدّد قدرته على الوصول، مشكلتنا نحن أنّ يقيننا ضعيف، الواحد منّا يدعو: «وَهَبْ لِي ثَبَاتَ الْيَقِينِ»^(٢)، لكنّ تحقّق هذا لكثير من الناس ليس بالأمر السهل.

ويقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «لَوْ كُشِفَ الْغَطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا»^(٣)، هذا يعني أن يصل الإنسان إلى درجة يخرق من خلالها الحُجُب، ولا تقف المادة عائقاً أمام نفاذ بصره، وإنّما يعيش في هذه الدنيا بيدن وبجسم فحسب، لكنّ روحه معلّقة بالملاّ الأعلى، بدنه موجود في هذه الأرض يعاشر الناس، لكنّ الروح مخترقة للحُجُب، مخترقة لأغشية المادة السميكة، تعيش في عالم المجرّدات الواسع، وكما يقول أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه -: «وَأِنَّمَا كُنْتُ جَارًا جَاوَرَكُمُ بَدَنِي أَيَّامًا..»^(٤).

روح أمير المؤمنين عليه السلام ما جاورت البشر قطّ، وإنّما جاور البشر بدنه، أما روحه فكانت معلّقة بالملاّ الأعلى؛ ولذا كان ينتظر ذلك اليوم الذي يلتحق فيه هذا البدن بتلك الروح، وكان يقول: «متى يُبعث أشقاها؛ فيخضب هذه من هذه؟»^(٥)،

(١) بحار الأنوار ٦٧ / ١٧٩، الباب ٥٢ (باب اليقين والصبر على الشدائد في الدين)، ح ٤٥.

(٢) مصباح المتعجّد / ٢٧٩، الدعاء ٣٨٧، وبحار الأنوار ٨٦ / ٣٠٧، الباب ٣ (باب أعمال ليلة الجمعة وصلاتها وأدعتها)، ح ١١.

(٣) بحار الأنوار ٤٠ / ١٥٣، الباب ٩٣ (في علم أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّ النبي ﷺ علّمه ألف باب)، ح ٥٤.

(٤) الكافي ١ / ٣٥٥-٣٥٦، الباب ١٢٢ (باب الإشارة والنصّ على الحسن بن عليّ عليه السلام)، ح ٦، ونهج البلاغة / ٣٤، الخطبة ١٤٩.

(٥) ابن أبي عاصم الضحاك، الأحاد والمثاني ١ / ١٤٨، ح ١٧٦، وفي بحار الأنوار: «أما أن أن تُخَضَّب هذه مِنْ هذه؟، أم متى يُبعث أشقاها؟» [بحار الأنوار ٩٧ / ٣٦٨، الباب ٥ (باب زيارات أمير المؤمنين المختصّة بالأيام والليالي)، ذيل الحديث ٦].

ويشير إلى لحيته وهامته.

والسبب لأهات أمير المؤمنين المحرقة وأمانيه العذاب تلك: أن هذا البدن يعيش حُجْباً مادية، وصاحب البدن يريد أن يسمو إلى خالقه، وحين يفارق هذا السجن والقفص، أو يحصل على سبيل الخلاص؛ ينادي: «فرتُ وربَّ الكعبة»^(١)، إنها ساعة الخلاص والانعقاد والتحرر والانطلاق.

أثر البسملة في حياة الإنسان:

حين نقول: إِنَّ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» أقرب إلى اسم الله الأعظم من بياض العين إلى سوادها؛ يحتاج ذاك منا إلى يقين، فهل يبسم الواحد منا هذه البسملة في أكله، في شربه، في حركته.. بيقين؛ فيكفيه الله كل شيء.

لو أكل الإنسان ما أكل، مسمياً باسم الله، موقناً بهذه التسمية؛ لما ضره شيء.

كان أمير المؤمنين عليه السلام جالساً بين أصحابه فقال: «ضَمِنْتُ لِمَنْ يُسَمِّي عَلَى طَعَامِهِ أَنْ لَا يَشْتَكِيَ مِنْهُ. فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْكَوَّاءِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَقَدْ أَكَلْتُ الْبَارِحَةَ طَعَامًا، فَسَمَّيْتُ عَلَيْهِ، وَأَذَانِي. فَقَالَ: لَعَلَّكَ أَكَلْتَ أَلْوَانًا، فَسَمَّيْتَ عَلَى بَعْضِهَا، وَلَمْ تَسْمَ عَلَى بَعْضٍ، يَا لُكْعُ»^(٢).

فمن تلا: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وأكل، لم يضره في أكله شيء، لكنك (يا لُكْع)، يا أحمق، أكلت أصنافاً، ولم تسم إلا بسملة واحدة؛ ولذلك يقول داود بن فرقد: «قلتُ لأبي عبد الله [الصادق] عليه السلام: كيف أسمى على الطعام؟، فقال: إذا اختلفت الآنية، فسم على كل إناء، قلتُ: فإن نسيْتُ، قال: تقول: (بسم الله على أوله وآخره)»^(٣).

(١) بحار الأنوار ٤١ / ٢، الباب ٩٩ (باب يقين أمير المؤمنين، وصبره على المكاره، وشدة ابتلائه)، ح ٤.

(٢) الكافي ٦ / ٤١٩، (باب التسمية والتحמיד والدعاء)، ح ١٨.

(٣) تهذيب الأحكام ٩ / ٩١، الباب ٢ (الذبايح والأطعمة، وما يحل من ذلك، وما يحرم)، ح ١٦٦.

وهذا الجواب من الإمام علي عليه السلام جاء على مقدار فهم هذا اللكع!!، وإلا فالبسمة ييقن تكفي الإنسان حركته في اليوم كله.

دلالة حذف متعلق الباء في {بِسْمِ اللَّهِ}:

في قولنا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حذف متعلق (الباء) هنا، وأطال المفسرون الحديث في بيان تقديره:

١- أم هو (أبتدئ) بسم الله الرحمن الرحيم.

٢- هل هو بمعنى (أقرأ) بسم الله الرحمن الرحيم.

٣- أم هو (أستعين) بسم الله الرحمن الرحيم.

٤- إلا أن المتجه أن حذف المتعلق جاء؛ ليفيد معنى عظيمًا، وهو أن (كل شيء) بسم الله الرحمن الرحيم، ابتداءً وقراءتك واستعانتك ونشاطك وعملك وقيامك وقعودك وحياتك ووجودك و....، كله بسم الله الرحمن الرحيم؛ ولذا وردت الروايات: «إِنَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها»؛ وذلك لإفادتها معنى أن كل شيء بالله.

فمعنى البسمة - على ما استظهرناه قبل قليل - أن المحذوف أو المتعلق فيها شيء مطلق، ليس خصوص (أبتدئ) بسم الله الرحمن الرحيم، أو (أقرأ) بسم الله الرحمن الرحيم، أو (أستعين) بسم الله الرحمن الرحيم، بل.. هو أي شيء تتصوره في حركتك، هو بسم الله الرحمن الرحيم، يعني حذف المتعلق مراد هنا؛ لكي يكون شيئاً مطلقاً ومبهماً، يفيد الشمول والسعة لكل شيء، وإن شئت إلا الجري على قواعد اللغة وتحديد متعلق واحد قلنا: إن المتعلق الأفضل تقديره هنا هو (الاستعانة)، أي (أستعين) بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأن الاستعانة هي المعنى الأجمع والأشمل لكافة المفردات، فهي تشمل الابتداء، وتشمل القراءة، وتشمل كل مورد بحسب ذلك المورد.

حين تقرأ القرآن مبتدأً، فأنت تقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وحين تبسمل

على الشرب، فأنت تشرب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وحين تبسمل على الأكل، فأنت تأكل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وحين تشرع في أي عمل تقوم به، وتقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فأنت تستعين بالله في عملك ذلك.

لمن يُعطى الاسم الأعظم؟!

ذهب بعض العلماء إلى أن الاسم الأعظم عبارة عن معنى، وليس لفظاً يُقال. لكن يبدو أنه - بالنتيجة - معنى، وله لفظ يحكيه، ويوصل إليه.

أولا يتمنى الإنسان أن يحصل على الاسم الأعظم؟!

الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به على كل شيء استجاب^(١)؛ يتمنى الجميع أن يصل إليه، ويظفر به؛ ولذا كان بعض أصحاب الأئمة - صلوات الله وسلامه عليهم - يأتي ليطلب من الإمام أن يعلمه الاسم الأعظم، كأن المسألة بهذه البساطة، وبهذه السهولة.

في الرواية عن عمر بن حنظلة قال: «قلتُ لأبي جعفر [الباقر] عليه السلام: إني أظنّ أنّ لي عندك منزلة، قال: أجل، قال: قلتُ: فإنّ لي إليك حاجة، قال: وما هي؟، قلتُ: تعلّمني الاسم الأعظم، قال: وتطبيقه؟!، قلتُ: نعم، قال: فادخل البيت، قال: فدخل البيت، فوضع أبو جعفر عليه السلام يده على الأرض، فأظلم البيت، فأرعدت فرائص عمر، فقال: ما تقول؟، أعلمك؟، فقال: لا..، قال: فرفع يده، فرجع البيت كما كان»^(٢).

(١) ورد في (دعاء السمات) الذي يُستحب قراءته آخر ساعة من نهار يوم الجمعة: «اللهم، إني أسألك باسمك العظيم الأعظم، الأعزّ الأجلّ الأكرم، الذي إذا دُعيت به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمة انفتحت، وإذا دُعيت به على مضائق أبواب الأرض للفرج انفرجت، وإذا دُعيت به على العسر ليسر تيسرت، وإذا دُعيت به على الأموات للنشور انتشرت، وإذا دُعيت به على كشف البأساء والضراء انكشفت» [مصباح المتهجد / ٤١٧، الدعاء ٥٣٨ (دعاء السمات)].

(٢) بحار الأنوار ٢٧ / ٢٧، الباب ١٢ (باب أنّ عندهم الاسم الأعظم، وبه يظهر منهم الغرائب)، ح ٦.

وفي رواية أخرى عن عمّار الساباطي قال: «قلتُ لأبي عبد الله [الصادق] جعلتُ فداك، أحبّ أن تخبرني باسم الله تعالى الأعظم، فقال لي: إنك لن تقوى على ذلك!!، قال: فلما ألححتُ، قال: فمكانك إذا، ثمّ قام فدخل البيت هنيهة، ثمّ صاح بي: ادخل، فدخلتُ، فقال لي: ما ذلك؟، فقلتُ: أخبرني به جعلتُ فداك، قال: فوضع يده على الأرض، فنظرتُ إلى البيت يدور بي، وأخذني أمر عظيم كدت أهلك، فضحك، فقلتُ: جعلتُ فداك!!، حسبي لا أريد»^(١).

فالإمامان الباقر والصادق عليهما السلام أرادا أن يمهدا لصاحبيهما: عمر بن حنظلة وعمار الساباطي تمهيداً، لكن بمجرد استحضار هذا الاسم الشريف ظهرت الآثار: فأظلم البيت، وارتجّ المكان، وأخذ البيت يدور، ولم يتحمل الرجلان حالة الاستحضار هذه، فضلاً عن التعليم؛ لأنّه ليس مقاماً سهلاً.

فالله لا يعطي الاسم الأعظم إلى أيّ أحد، ولا يعطيه لشخص لا يترك أحداً إلا رماه بدعوة: يصكّ هذا بدعوة، ويقذف هذا ببلاء، وفي كلّ يوم يقتل له عشرة!!، وإنّما يعطي الاسم الأعظم إلى شخص صبور يتحمّل، وكأنّه واحد من أنبياء الله - على نبينا وآله وعليهم جميعاً صلوات الله -.

الله لا يعطي اسمه الأعظم إلى شخص بمجرد أن صار عنده نوع من الكشف بحيث يرى ما في بيوت الناس، وفي مشيه في الطرقات يعرف أنّ هنا أناساً يشربون خمرًا، وأنّ هناك أناسًا - والعياذ بالله - على فاحشة، فيهمّ بسرعة وفي كلّ برهة ليدعو ربّه بالاسم الأعظم: يا ربّ أكسر هذا، يا ربّ اقضِ على هذا، يا ربّ دمّر على هذا. إنّ الله ودود محبّ لخلقه، ومن أجل ذاك يمهلهم؛ لعلّهم يفيقون من غيهم ويتوبون، فيسامحهم..

في معرض حديث الروايات عن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ

(١) بحار الأنوار ٢٧ / ٢٧، الباب ١٢ (باب أنّ عندهم الاسم الأعظم، وبه يظهر منهم الغرائب)، ح ٨.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿١﴾ ورد أنه «لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض التفت فرأى رجلاً يزني، فدعا عليه فمات، ثم رأى آخر فدعا عليه فمات، ثم رأى ثالثة، فدعا عليهم فماتوا، فأوحى الله: يا إبراهيم، إن دعوتك مستجابة، فلا تدع على عبادي؛ فإنني لو شئت لم أخلقهم»^(٢).

فالله - جلّ وعلا - حليم ستار غفور رحيم، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٣).

ويعفو عن كثير..

للذنوب آثار كثيرة في مسيرة الإنسان، في جانيبه: التكويني والتشريعي، وواقعه الفردي والاجتماعي.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في لوحته البديعة التي رسمتها يده الباهرة في (دعاء كميل)، مبيّناً آثار الذنوب:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تَهْتِكُ الْعِصَمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تَحْبِسُ الدُّعَاءَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تُنْزِلُ الْبَلَاءَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تَقْطَعُ الرَّجَاءَ»^(٤).

ويقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٥).

(١) سورة الأنعام، الآية ٧٥.

(٢) تفسير القمّي ١ / ٢٣٤.

(٣) سورة النحل، الآية ٦١.

(٤) مصباح المتجهد / ٨٤٤، (دعاء آخر، وهو دعاء الخضر عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ١٢٧،

(دعاء كميل بن زياد (رض)).

(٥) سورة الروم، الآية ٤١.

والله يعفو عن الكثير، وبعض الذنوب يجازينا عليه في الدنيا ببعض مصائبها بدلاً عن ذلك الذنب؛ ليغفرها لنا في الآخرة؛ ولذا ورد في رواية هشام بن سالم، عن الإمام الصادق عليه السلام: «أما إنه ليس من عرق يضرب، ولا نكبة، ولا صداع، ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول الله - عز وجل -: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾^(١)، قال: ثم قال: وما يعفو الله أكثر ممّا يؤاخذ به»^(٢).

لا تظنّ أنّ هذه المصائب جاءت عبثاً إليك، بل.. هي أثر تكويني من آثار الذنوب، فأنت لابدّ أن تحمد الله - جلّ وعلا - أن جعل عقوبة هذا الذنب في الدنيا، وإلا فتصوّر لو أنّ الله - جلّ وعلا - لم يحاسب الإنسان، ولم يُعجل له عقوبة في الدنيا، وادخر جميع العقوبات إلى الآخرة كيف ستقابل الله؟!، لكن من رحمته بالعباد أن يُعجل لهم عقوبة بعض الذنوب.

﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾، فالإلى جانب ما يصيبنا بما كسبت أيدينا.. هناك كثير من الذنوب يعفو الله عنها، وإلا لو أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يجازي العاصي على كلّ ذنب اقترفه لصبّ عليه في كلّ يوم عقوبة وبلاء، فتجد الإنسان في كلّ يوم مصاباً بمصيبة: يوماً يصارع الحمّى، ويوماً يتعثّر بشيء، ويوماً يتدنّس بكارثة، بما يكشف أنّه في كلّ يوم يذنب، وتلك حال كثير من الناس.

الإنسان واقعه الفقر والحاجة:

إنّ الإنسان في ذاته، وفي واقعه، وفي حقيقة أمره، وفي داخله.. فقير محتاج، فهو لا يملك حولاً ولا قوة إلا بالله - جلّ وعلا -، فمن أقرّ بواقع الاستعانة أقرّ بواقع الفقر والحاجة في نفسه، وأقرّ بواقع الغنى في الله - جلّ وعلا -، وهذا معنى قريب من الاسم الأعظم، يعني أن ترى الكون معلقاً بإرادة الله، بحول الله، بقوة الله، بغنى الله، أن ترى أنّ الله هو الأول، وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن، وأن لا شيء في الكون

(١) سورة الشورى، الآية ٣٠.

(٢) الكافي ٢ / ٢٦٣-٢٦٤، الباب ٢٩٧ (باب الذنوب)، ح ٣.

إِلَّا اللَّهَ، وَأَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِاسْمِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْأُمُورَ جَمِيعًا مِنْهُ وَإِلَيْهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١)، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢)، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(٣)، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^(٤)، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾^(٥)، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٦)، «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»^(٧).

كُلْ هَذِهِ الْمَفْرَدَاتِ تَنْطَوِي تَحْتَ قَوْلِنَا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

هذا المعنى هو استشعار للعبودية، استشعار لواقع الإنسان؛ لأنَّ مشكلة الإنسان هي الطغيان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِفٌ﴾^(٨).

مشكلة الإنسان هي مشكلة قارون الذي ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(٩)، وأنَّ هذا الذي عندي هو بقوتي وبحولي وبعلمي وبارادتي وبجهدي وتعبي!!

مشكلة الإنسان هي (الأنا)، كلما تفوّه بكلمة وأخرى قال: (أنا.. أُموالي.. حولي.. قوتي.. جاهي.. علمي.. عملي.. منصبي.. وظيفتي.. راتبي.. عائلتي.. نسبي، الخ...)، كلَّ ياءات النسبة للمتكلّم وضعها وسطرها؛ لتكشف قناعته المتضخّمة بنفسه، واعتداده البالغ بها، وافتتانه بذاته، وقد تتناول هذه المشكلة عند بعض الناس إلى مستوى (الترجسية) و(الغرور) و(قطع الأسباب عن الله) و(قطع الصلة مع الله)!!

هذه هي مشكلة البشر، بينما يريد الله - سبحانه وتعالى - أن يعلمك أنّك لا شيء، بل أنت لا شيء فعلاً إلا بالله - جلّ وعلا -، ويعلمك أن تستعين بالله، أي أنّك

(١) سورة الحديد، الآية ٤.

(٢) سورة ق، الآية ١٦.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٠.

(٤) سورة الشورى، الآية ٥٣.

(٥) سورة النجم، الآية ٤٢.

(٦) سورة البقرة، الآية ١٥٦.

(٧) الكافي ١/ ٣٧٦، الباب ١٢٨ (الإشارة والنصّ على أبي الحسن الرضا عليه السلام)، ح ١٥.

(٨) سورة العلق، الآية ٦-٧.

(٩) سورة القصص، الآية ٧٨.

لا تملك في داخلك حولًا ولا قوة، ولا قدرة، ولا إرادة، ولا ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا تملك لنفسك شيئًا، ولا تملك شيئًا.. إلا بالله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءَ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْخُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾^(٢).

وقد ورد في تعقيب صلاة العصر: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الرحمن الرحيم ذو الجلال والإكرام، وأسأله أن يتوب عليّ توبة عبد ذليل خاضع فقير بائس مسكين مستجير، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشيع، ومن قلب لا يخشع، ومن علم لا ينفع، ومن دعاء لا يسمع.

اللهم إني أسألك اليسر بعد العسر، والفرج بعد الكرب، والرخاء بعد الشدة.

اللهم ما بنا من نعمة فمنك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»^(٣).

وكان الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول في دعائه:

«اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة، فلا حول ولا قوة إلا بك.

اللهم إني أبرأ إليك من الذين ادعوا لنا ما ليس لنا بحق.

اللهم إني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا.

اللهم لك الخلق، ومنك الأمر، وإياك نعبد، وإياك نستعين.

اللهم أنت خالقنا، وخالق آبائنا الأولين وآبائنا الآخرين.

اللهم لا تليق الربوبية إلا بك، ولا ت صلح الإلهية إلا لك، فالعن النصارى

(١) سورة الأنفال، الآية ١٧.

(٢) سورة الكهف، الآية ٢٣ - ٢٤.

(٣) مصباح المتهجد / ٧٥، (فصل في سياقة الصلوات)، الدعاء ١٢٢ - ١٢٣.

الذين صَغَرُوا عَظَمَتَكَ، والعن المضاهين لقولهم من بريتك.
اللهم إِنَّا عبيدك وأبناء عبيدك، لا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة
ولا نشوراً^(١).

سعادة الإنسان في الاعتقاد بإرادة الله وتدبيره:

اعتقاد الإنسان أنَّ لهذا الكون ربًّا خالقاً مدبِّراً مديراً، وأنَّ هذا الكون يسير بإرادة
الله ومشيتته، اعتقادٌ يجعل الإنسان مطمئناً سعيداً مرتاحاً، ويغمسه في بحر من برد
الطمأنينة وورد السعادة، ومن دون هذا الاعتقاد يصبح الإنسان ريشة في مهبِّ الريح،
ليس له ثقل؛ لأنَّه معتمد وملتجئ على حوله وقوته هو!!

وإذا توصَّل الإنسان إلى هذا الاعتقاد المسعد بأنَّ الكون بأسره يسير بإرادة الله
ومشيئته، وأنَّه تدبير يده الحكيمه؛ ففي ذلك الوقت يكون قد ارتقى بيقينه وسما.

يرتقي؛ فتكشف له الحُجُب، ويسمو؛ فتنهـار أمام بصيرته جدران الستر، ويُرى
- أقول (يُرى) -، بفعل مبني للمجهول، أي أنسبها إلى (إراءة)، أنسبها إلى الله -
جلَّ وعلا - الذي يُريه ملكوت السماوات والأرض... ويوصله إلى درجة الكشف
والشهود؛ لأنَّ الرؤية والكشف والشهود ليست فعل الإنسان، وإنَّما هي هبة إلهية؛
لذلك لم نبين الفعل للمعلوم (يُرى)؛ لئلا يتصور الإنسان أنَّ ذاك بفعله هو وإرادته!!

والإنسان يوصَّل ويُبَلِّغ إلى ذاك المكان السامي لولا أنَّ الشياطين التي تحوم
حول قلبه ترديه، وذاك ما يكشفه رسول الله ﷺ حين يقول: «لولا أنَّ الشياطين
يحمون على قلوب بني آدم؛ لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض»^(٢).

(١) الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (الصدوق)، الاعتقادات في دين
الإمامية، تحقيق: عصام عبد السيّد / ١٠٠، (باب الاعتقاد في نفي الغلو والتفويض)، وبحار
الأنوار ٢٥ / ٣٤٣، باب (فصل في بيان التفويض ومعانيه)، ح ٢٥.

(٢) بحار الأنوار ٦٠ / ٣٣٢، الباب ٣ (باب ذكر إبليس وقصصه)، ذيل الحديث ١٧٧.

هذه هي مشكلتنا التي تحول دون أن نبلغ درجة النظر إلى ذلك الملكوت العظيم، ملكوت السماوات والأرض.

حين يجتمع على الواحد منّا: نفس، وشيطان، ودنيا، وهوى، ومال حرام، وأكل حرام، وأكل شبهة، ومال شبهة، فماذا ينتج بعد ذلك؟!، وكيف نخترق كتمان الحُجُب؟!!

ينقل السيّد أحمد أمين النجفي: «أنّ رجلاً قرويًّا كان يسكن في قرية قريبة من (رشت)، وكان يعيش من كدّ يمينه، ولم يخالط مأكله ومشربه شيءٌ من الحرام أبدًا، وكان يهيئ ما يحتاجه من مأكّل ومشرب وملبس من بيته ومزرعته، وكان مع ذلك متقربًا إلى الله بأعمال صالحة، يتعبّد ويشكر الله تعالى على ما أولاه من نعم، ويعطي فضول ماله إلى الفقراء والمعوزين، ويطبّق ما كان يعلم من الآداب الإسلامية، فأشكّلت عليه مسألة شرعية، فجاء إلى عالم ديني في مدينة (رشت)؛ ليتبصّر فيها، فدخل المدينة عند الظهر، وسمع المؤذّن يؤذّن، فبادر إلى صلاة الظهر في أفضل أوقاتها، وأخذ طريقه إلى بيت العالم الديني، فدخل عليه قائلاً: إنّي أرى شيئاً غريباً في هذه البلدة، فسأله العالم: وما الذي تراه؟، قال لم أرَ في شوارع المدينة إلا بهائم: حميرًا وبغالًا، ولم أصادف في طريقي إلا شخصين على شكل إنسان!!، أين ذهب الناس؟!!

أدرك العالم الديني - لطهارة نفسه، وتضلّعه في شتى العلوم - السبب في هذه الرؤية الباطنية، وأنّ الرجل - لطهارة مأكله ومشربه، وحُسن سريره، وتطبيقه أوامر الشرع تطبيقًا صحيحًا - أخذ ينظر بنور الله، وتتمثّل له بعض الخلائق بحسب حالتهم النفسية الصحيحة، وما بلغوا من التسافل والتكامل من جرّاء أعمالهم وما اجترحت أيديهم.

ثمّ إنّ العالم الديني خاطب القرويّ قائلاً: هل تناولت طعام الظهر؟، قال: كلا، فدعا العالمُ خادمه، وقال له: اذهب إلى السوق، وائت بطعام إلى هذا المؤمن، (مع وجود طعام في البيت).

أطاع الخادم أمر سيّده، وجاء بطعام من السوق، وقدمه للقرويّ، فأكل القرويّ، وجلس في مجلس العالم، وأخذ يسأله عن مسائل شتى، حتى مضى شطر من الوقت، ثم أمر خادمه بأن يأخذ هذا القرويّ إلى الشوارع، ويعود به إلى البيت .

قاد الخادّم القرويّ، وصار يسير معه في الشوارع، ورجع به إلى البيت، فسأله العالم: ماذا رأيت؟، قال: رأيتُ الشوارع مملوءة بالناس، فقال العالم: إنّ الطعام الذي تناولته قبل ساعات مشته فيه، فيه الطاهر والخبيث، وإنّ طعامًا مخلوطًا بالحرام أو النجس ليؤثر في النفس تأثيرًا سيئًا وإن كانت النفس لا تعلم ذلك، فيُخرج هذا الطعام الإنسان عن الحالة الملكوتية أو العالم القدسي، فلا تتجلّى له الحقائق كما كانت تتجلّى قبلاً، إلا أنّك سترجع إلى حالتك السابقة بعد رجوعك إلى قريتك إن شاء الله^(١).

انظروا إلى أثر ما يأكله الإنسان على روحه، لم يشتّر له شيئًا بمال حرام، ولكنّ الطعام المجتلب من السوق فيه شبهة، فهل نتأكّد أنّ الأكل الموجود في هذا المحلّ أو في ذاك المطعم أو في تلك (البوفية) أو في غير ذلك.. حلال مئة في المئة حتى نأكل، صحيح أنّه من سوق المسلمين، ومن الناحية الشرعية هو حلال، وتجري عليه (قاعدة سوق المسلمين)، لكن في الواقع هناك فرق بين أن نظهر بطوننا من الحرام، وأن نظهرها من الشبهة، هذا شيء، وهذا شيء آخر؛ ولذلك نقول في الدعاء: «وطهر بطوننا من الحرام والشبهة»^(٢).

بعض علمائنا - رحم الله الماضين، وحفظ الباقين - لم يكن يأكل إلا شيئاً يُذبح أمامه، وبعض الحاضرين^(٣) يذكر أنّ بعض علمائنا إذا دعوه على غداء أو عشاء كان

(١) الدكتور أحمد أمين النجفي، التكامل في الإسلام ١/ ٢١٤-٢١٥.

(٢) البلد الأمين والدرع الحصين / ٢٨٠ (من الأدعية المروية عن الإمام المهدي - عجلّ الله فرجه الشريف -).

(٣) ينبغي التذكير - هنا - أنّ أصل هذا الكتاب القيم عبارة عن محاضرات كان أستاذنا المرحوم الشيخ الشيب - قدّس سرّه - يلقيها شفاهياً في المسجد؛ ولذلك تأتي فيها بعض العبارات مخاطبة الجمهور والمستمعين.

يقول: الدجاجة التي ستذبح، اربطوها ثلاثة أيام لا تأكل إلا شيئاً طاهراً، حتى لا تكون حيواناً جلالاً، كلّ ذاك محافظة على نقاء هذه النفس حتى تبصر، حتى ترى ملكوت السماوات والأرض!!

فأنت إذا رأيت الأمور ليست كما ينبغي لا تشكّك في ذاك الاتجاه المرتبط بالله وكرمه وعطاياه، وآته لا يجيب سائليه مع أنّه وعدهم بذلك!!^(١)، وإنّما شكّك في هذا الاتجاه المرتبط بالنفس، فكيف تستطيع النفس -وهي تعيش حُجُباً وتراكمت ومادة- أن تخترق كلّ ذلك وهي بهذه الحال؟!

لماذا دخلت الباء على (الاسم) بدلاً من لفظ الجلالة (الله)؟

وينتصب أمامنا تساؤل: لماذا نقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، ولا نقول: (بالله)؟!، لماذا دخل حرف الجرّ (الباء) على الاسم (اسم)، ولم يدخل على الذات (الله)؟!

والجواب: أنّنا لا نستطيع الخوض في الذات، وهذا أحد التفاسير الواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾، أي «إذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا»^(٢)، فهذا العقل القاصر لا يمكنه أن يصل إلى فهم تلك الذات المقدّسة، وهل يمكن لمحدود أن يفهم اللا محدود؟!، وهل يمكن لشخص قاصر منته إدراك ما لا ينتهي وما لا حدّ له؟!

إنّ حواسنا مسيّجة بأسوار:

فهذه العين - وهي العين ذات المدى الواسع في الرؤية والإبصار - ماذا تبصر؟، إنّها تبصر المادة إلى حجم محدّد، وإلى مسافة محدّدة، فإذا صغرت المادة عن مقدار

(١) يقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٨٦]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر، الآية ٦٠].
(٢) الكافي ١ / ١٤٧، الباب ٣٠ (باب النهي عن الكلام في الكيفية)، ح ٢، والتوحيد / ٤٥٦، الباب ٦٧ (باب النهي عن الكلام والجدال والمرء في الله - عزّ وجلّ -)، ح ٩.

معين، أو كُبرت عن حجم معين، أو بُعدت إلى حدٍّ معين؛ لم تدركها!!
وهذه الأذن تدرك مستوى معينًا من الصوت، وحدًا معينًا من الذبذبات، فإذا
نقص قليلًا لم تسمعه، وإذا زاد قليلًا لم تسمعه!!^(١).

وهذا يعني أنَّ إدراك العين والأذن محدود، وكلَّ حواسنا إدراكها محدود.

ولأنَّه لا يمكننا أن نتكلم عن الذات الإلهية - جلَّ ربِّي وعلا - فنحن نمضي إلى
الاسم ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، نقف عند الاسم، نقف عند الأثر، نقف عند العلامة المشيرة دون
المشار إليه، وهذا أدب ربوبيّ يعلمنا إياه ربُّ العالمين، يقول: هنا حدك الذي لا تبلغ
سواه.

الرسول الأكرم محمد ﷺ وصل إلى مقام قاب قوسين أو أدنى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى *
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٢)، وكما في الدعاء: «دُنُوًّا وَاقْتِرَابًا مِنَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى...»^(٣).

فالنبي وهو سيّد البشر، بل سيّد المخلوقات أجمعين، بل أكمل الموجودات
والكائنات طرًّا؛ وصل إلى تلك المرحلة فقط، ولم يصل إلى أكثر منها، فما بالك بنا:
أنا وأنت؟! نحن نقف عند مرحلة الاسم فحسب ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾!!

وليس معنيّ سهلاً أن يتصوّر الإنسان أنَّ الكون بما فيه قائم باسم الله دون ذاته،
فالنوبة لم تصل بعد إلى مرحلة الذات.

قف عند مرحلة (الاسم)؛ لكي ترى أنَّ كلَّ شيء قائم بهذا الاسم: حياتك،
مماتك، كسبك، عيشتك، ذهابك، مجيئك، كلَّ شيء في هذا الكون: مما تراه ومما
لا تراه؛ قائم باسم الله.

(١) يتراوح مدى السمع الطبيعي للإنسان ما بين ٢٠ و ٢٠,٠٠٠ هرتز، فلا يسمع الأقل من ٢٠
هرتز، ولا الأعلى من ٢٠,٠٠٠ هرتز [الموسوعة العربية العالمية ١ / ٤١١].

(٢) سورة النجم، الآية ٨ - ٩.

(٣) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٨، الباب ٧ (باب زيارة الحجّة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)،
ذيل الحديث ١، (دعاء الندبة).

معنى لفظ الجلالة (الله):

ولفظ الجلالة (الله) - على ما عليه كثيرٌ من محققي المفسرين - ليس مشتقاً من شيء: لا من (أله)، بمعنى (عبد)، ولا من (أله)، بمعنى (تحير)، ولا من (وله)، بمعنى (عشق)، وإنما هو لفظ جامد وعلم مختص بالله - جلّ وعلا -^(١).

ولنقل: هو اسم حاوٍ لكلّ معاني الكمال والجمال والجلال، أو هو الاسم الجامع لكلّ الصفات والكمالات الإلهية، أو هو الاسم الجامع لكلّ الأسماء الحسنى والصفات العلى، ولا نقول: اشتقاقه من (التأله) أو (الوله)، أو من أيّ شيء آخر، تعالى

(١) هناك خلاف بين العلماء حول أنّ لفظ الجلالة (الله): جامد أو مشتق؟

أ- جامد:

من القائلين بأنّ لفظ الجلالة (الله) جامد: السيّد الخوئي (قُدس سرّه الشريف)، والسيّد السبزواري (قُدس سرّه الشريف):

يقول السيّد أبو القاسم الخوئي: «إنّ لفظ الجلالة - بما له من المعنى - لا يُستعمل وصفاً،، وهذه آية كون لفظ الجلالة جامداً، وإذا كان جامداً كان علماً لا محالة؛ فإنّ الذهاب إلى أنّه (اسم جنس) فسّره بالمعنى الاشتقاقي» [السيّد أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن/ ٤٢٥].

ويقول السيّد عبد الأعلى السبزواري: «فالحقّ: ما نُسب إلى (الخليل) اللغوي وغيره؛ من أنّ لفظ الجلالة بسيط، وليس بمشتق، واللام جزء اللفظ، وأنّ الواضع له هو الله تعالى، بل جميع أسمائه عُرفت بتعليمه - عزّ وجلّ -، فهو المعرّف فيها، والمعرّف بها، ويشهد له قول الصادق عليه السلام: (اعرفوا الله بالله)» [السيّد عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن ١/ ١٣].

ب - مشتقّ:

ومن القائلين بأنّ لفظ الجلالة (الله) مشتق: السيّد الطباطبائي (قُدس سرّه الشريف): يقول السيّد محمد حسين الطباطبائي: «وأما لفظ الجلالة: ف (الله) أصله (الإله)، حُذفت الهمزة؛ لكثرة الاستعمال، و(إله) من (أله الرجل - يألّه)، بمعنى (عبد)، أو من (أله الرجل) أو (وله الرجل)، أي (تحير)، فهو (فعال) - بكسر الفاء - بمعنى (المفعول)، ك (كتاب) بمعنى (المكتوب)، سُمّي (إلهاً)؛ لأنّه معبود، أو لأنّه ممّا تحيرت في ذاته العقول، والظاهر أنّه علّم بالغلبة» [الميزان في تفسير القرآن ١/ ١٨].

هذا اللفظ الشريف - وهو لفظ الجلالة - أن يكون مشتقاً، هو لفظ علّمنا إياه الربّ - جلّ وعلا - .

(الله) تعني: الذات المستكملة لكافة الصفات الخيرة، وواقعاً التعبير مشكل، يعني هناك ضيق خناق عند الإنسان، فنحن مشكلتنا أنّ لدينا ألفاظاً محدودة، ونريد أن نعبر بها عن الله - جلّ وعلا -، وهو لا محدود؛ فتعوزنا الألفاظ، وتخوننا العبارات!!^(١).

(١) وفي هذا يقول أحد الشعراء:

وإنّ قميصاً خيطَ مِنْ نسجِ تسعةٍ وعشرينَ حرفاً عَنْ معانيهِ قاصِرُ
[العلامة نظام الدين الحسن بن محمد القميّ النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ضبط وتخرّيج: الشيخ زكريا عميرات ١ / ٥٨٢، تفسير سورة البقرة، الآيات ٢١١-٢١٤.

وذكره الشيخ جعفر السبحاني بصيغة:

ألا إنّ ثوباً خيطَ مِنْ نسجِ تسعةٍ وعشرينَ حرفاً عَنْ معانيهِ قاصِرُ
[الشيخ جعفر السبحاني، الإلهيات ١ / ١٠٢، تقرير: الشيخ حسن محمد مكي العاملي].

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

الله هو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١)، ومن مظاهر لطفه أن عبّدا بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾^(٢)، ثم أردف لفظ الجلالة باسمين من أسمائه الحُسنى يدلان على الرحمة؛ لأنَّ الله خلق الخلق لكي يرحمهم، ولم يخلق الخلق لكي يعذبهم ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٣)، ولو خلقهم لتعذيبهم لعذب الواحد منهم بذنبه عند أول صدور للذنوب منه؛ تشفياً منه وانتقاماً، ولم يؤخر تسجيل ذنبه ساعات، ويفتح له المجال لفعل حسنة تمحو ذنبه، ويشعر له باب الاستغفار والتوبة؛ فيغفر له، ويعفو عنه، كأنه لم يذنب أصلاً.

من مظاهر الرحمة الإلهية:

لماذا يخفي الله بعض ذنوب العباد عن الملائكة الموكلين بالكتابة والتدوين؟
ولماذا يترك الله لنا سبع ساعات بعد الذنب قبل تسجيله علينا؟
ولماذا يجعل الحسنة تمحو السيئة؟
ولماذا يفتح لنا باب الاستغفار؟
ولماذا يشعر لنا باب التوبة؟

(١) سورة الفاتحة، الآية ١.

(٢) سورة الفاتحة، الآية ٣.

(٣) سورة هود، الآية ١١٩.

ولماذا يُنسى ملائكته الكتبة بعض ذنوب الإنسان عندما يقلع عنها، ويتوب؟
كلّ ذلك لأنّه (رحمن رحيم)، يريد أن يرحم عباده.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ متحدثاً عمّن يعمل السيئة والمعصية:
«ويهمّ بالسيئة أن يعملها: فإن لم يعملها لم يُكتب عليه شيء، وإن هو عملها
أُجل سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيئات - وهو صاحب الشمال
-: (لا تعجل، عسى أن يتبعها بحسنة تمحوها، فإن الله - عزّ وجلّ - يقول: ﴿إِنَّ
الْحَسَنَاتِ يَمْحُوْنَ السَّيِّئَاتِ﴾»^(١)، أو الاستغفار؛ فإنّ هو قال: (أستغفر الله الذي لا إله إلا
هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، الغفور الرحيم، ذو الجلال والإكرام، وأتوب
إليه)؛ لم يُكتب عليه شيء، وإن مضت سبع ساعات، ولم يتبعها بحسنة، أو استغفار،
قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات: (اكتب على الشقيّ المحروم)»^(٢).

يعني أنّ هناك مهلة حتى في الكتابة.

وبعد كتابة السيئة وتدوينها في صحيفة أعمالك إذا فعلت الحسنة أكلت السيئة!!

وإذا استغفرت يمحو الله ما يشاء!!

وإذا تبت أنسى الله الملكين الكاتبين ذنوبك.

عن المسعودي قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: من تاب تاب الله عليه، وأمرت
جوارحه أن تستر عليه، وبقاع الأرض أن تكتُم عليه، وأنسيت الحفظه ما كانت تكتب عليه»^(٣).

وعن معاوية بن وهب قال: «سمعتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام يقول: إذا
تاب العبد المؤمن توبة نصوحاً أحبه الله، فستر عليه في الدنيا والآخرة، قلت: وكيف
يستر عليه؟ قال: يُنسى ملكيه ما كتب عليه من الذنوب، وأوحى إلى جوارحه: (اكتمي

(١) سورة هود، الآية ١١٤.

(٢) الكافي ٢ / ٤٠٧، الباب ٣٧٦ (باب من يهمّ بالحسنة أو السيئة)، ح ٤.

(٣) بحار الأنوار ٦ / ٢٨، الباب ٢٠ (التوبة، وأنواعها، وشرائطها)، ح ٣٢.

عليه ذنوبه)، وأوحى إلى بقاع الأرض: (اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب)، فيلقى الله حين يلقاه، وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»^(١).

ما معنى كون (الرحمن) و(الرحيم) صفتي مبالغة؟

وصفتا (الرحمن الرحيم) يمكن أن نصرّ على أنّهما صيغتا مبالغة، لكن.. مبالغة بالنسبة إلى المقابل، أي إلى العبد، وليس بالنسبة إلى الذات - جلّ وعلا -، هما مبالغة بلحاظ كثرة المرحومين، وليس بلحاظ المبالغة في الصفة الذاتية؛ إذ لا مبالغة في الذات، فهو رحمن ورحيم، ويبقى أن الله هو ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

لماذا اختار الله صفتي (الرحمن) و(الرحيم)؟

ومن عظيم الاختيار الإلهي أنه لم يأت في البسملة أن (الله شديد العقاب)، أو أن (الله جبار منتقم)، أو أن (الله متكبر قهار)، أو غير ذلك من صفات الجلال، وإنّما جاء بصفتين من صفات الجمال، وهما (الرحمن الرحيم). وهاتان الصفتان تشيران إلى أن الرحمة الإلهية نوعان هما:

١. الرحمة الرحمانية:

وقد ورد في الروايات الشريفة - التي سننقل بعضها بعد قليل -: أن (الرحمن) بمعنى الرحمة العامة لجميع الخلق في الدنيا، فهو رحمن الدنيا؛ بما أن رحمته في الدنيا وسعت كلّ شيء، وعمّت المؤمن والكافر.

٢. الرحمة الرحيمية:

وقد ورد في الروايات الشريفة: أن (الرحيم) بمعنى صاحب الرحمة الخاصة التي تسع المؤمن فقط، ومكانها في الآخرة.

(١) بحار الأنوار ٦/ ٢٨، الباب ٢٠ (التوبة، وأنواعها، وشرائطها)، ح ٣١.

الفرق بين (الرحمة الرحمانية) و(الرحمة الرحيمية):

من خلال الروايات الشريفة الآتية يظهر فرقان أساسيان بين نوعي الرحمة الإلهية: (الرحمة الرحمانية) و(الرحمة الرحيمية)، هما:

١- المجال:

الرحمة الرحمانية التي تستحضرها صفة (الرحمن) عامة تسع كل شيء، وتعم الجميع: المؤمن والكافر والمنافق.

والرحمة الرحيمية التي تشير إليها صفة (الرحيم) خاصة بالمؤمنين فقط. وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «(الرحمن) اسم خاص بصفة عامة، و(الرحيم) اسم عام بصفة خاصة»^(١).

كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «والله إله كل شيء، ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بجميع خلقه، و﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين خاصة»^(٢).

٢- مكان التجلي:

مكان تجلي الرحمة الرحمانية هو الدنيا، فهي تصيب بغيثها العميم كل شيء، وجميع الخلق، وجميع البشر، من مؤمنين وكفار ومنافقين.

ومكان تجلي الرحمة الرحيمية هو الآخرة؛ فهي تنيل عطاياها السابغة للمؤمنين وحدهم. وقد روى أبو سعيد الخدري، عن النبي صلّى الله عليه وآله أنه قال: «إن عيسى بن مريم قال: (الرحمن) رحمن الدنيا، و(الرحيم) رحيم الآخرة»^(٣).

نسأل الله لنا ولكم الرحمة والرضوان..

(١) الشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان ١ / ٥٤، تفسير سورة الفاتحة.

(٢) الكافي ١ / ١١٤، (باب معاني الأسماء واشتقاقها)، ح ١.

(٣) مجمع البيان ١ / ٥٤، تفسير سورة الفاتحة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

بعد أن نقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، يؤدّبنا الله أن نقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وهي أقصى مدحة يمكن أن يمتدح بها البشر ربّه.

ففي الرواية أن الإمام الباقر - صلوات الله وسلامه عليه - نفرت له بغلة فيما بين مكة والمدينة، فقال: «لئن ردّها الله عليّ لأشكرنّه حقّ شكره، فلما أخذها قال: (الحمد لله ربّ العالمين) - ثلاث مرّات -، ثمّ قال - ثلاث مرّات -: (شكراً لله)»^(٢).

فهذه المحمّدة التي تلهفت القلوب لسماعها تجري على شفّتي الإمام الباقر عليه السلام ولسانه العبق الطاهر هي: (الحمد لله ربّ العالمين) - ثلاث مرّات -، و(شكراً لله) - ثلاث مرّات -!!

و(الحمد لله) تعبير موجز يحوي معاني كبيرة وعظيمة، منها: أنّه يدلّ على اختصاص الحمد بالله، وهذه هي نكتة تقديم (الحمد) في قولنا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، يعني لماذا لم نقل: (لله الحمد) كما ورد في آية أخرى قال فيها - جلّ وعلا -: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟!^(٣).

فهنا في سورة الفاتحة يريد الباري - جلّ وعلا - أن يبيّن لك أن الحمد له

(١) سورة الفاتحة، الآية ٢.

(٢) بحار الأنوار ٩٠ / ٢١٥، الباب ٧ (باب التحميد وأنواع المحامد)، ح ١٨.

(٣) سورة الجاثية، الآية ٣٦.

وحده، لا محمود سواه، وأن الحمد من مختصات الله - جلّ وعلا -، فحتى من ناحية لفظية لا يصح إطلاقها على غير الله، أنت تقول لشخص: (شكرًا)، أو تمدحه، مع أن مادة (حمد) و(مدح) واحدة من ناحية لغوية، وهناك تقديم وتأخير في الحروف إلا أن الحمد من مختصات الله، والشكر والمدح عامان حتى للخلق^(١).

(١) الفرق بين (الحمد) و(الشكر):

تحدث اللغويون كثيرًا عن الفرق بين (الحمد) و(الشكر)، ومما ذكره:

١- يقول أبو هلال العسكري:

«الفرق بين (الحمد) و(الشكر) و(المدح):

- (الحمد): هو الثناء باللسان على الجميل، سواء تعلّق بالفضائل كالعلم، أم بالفواضل كالبرّ.
- و(الشكر): فعل ينبئ عن تعظيم المنعم؛ لأجل النعمة، سواء أكان نعتًا باللسان، أو اعتقادًا، أو محبةً بالجنان، أو عملاً وخدمة بالأركان.

وقد جمعها الشاعر في قوله:

أفادتكم النعماء منّي ثلاثة: يدي، ولساني، والضمير المحجّب
فالحمد أعمّ مطلقًا؛ لأنّه يعمّ النعمة وغيرها... وأخصّ موردًا؛ إذ هو باللسان فقط، والشكر بالعكس؛ إذ متعلّقه النعمة فقط، ومورده اللسان وغيره.

فبينهما (عموم وخصوص من وجه): فهما يتصادقان [يجتمعان] في الثناء باللسان على الإحسان، ويتفارقان في صدق (الحمد) - فقط - على النعت بالعلم مثلاً، وصدق (الشكر) - فقط - على المحبة بالجنان [لا باللسان]؛ لأجل الإحسان.
[أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية/ ٢٠١، مادة (الحاء)].

٢- ويقول السيّد المرتضى الزبيدي:

«وتكلّم الناس في الفرق بين (الحمد) و(الشكر)، أيّهما أفضل؟

وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمّد الله لم يشكره».

والفرق بينهما:

- أن (الشكر) أعمّ من جهة أنواعه وأسبابه، وأخصّ من جهة متعلّقاته.

- و(الحمد) أعمّ من جهة المتعلّقات، وأخصّ من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن (الشكر) يكون بالقلب خضوعًا واستكانةً، وباللسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا، ومتعلّقه: المنعم دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعِهِ وبصرِهِ وعِلْمِهِ، وهو المحمودُ بها، كما هو محمودٌ على إحسانه وعدله،

فالحمد كل الحمد لله وحده..، والسبب؛ لأنه الله أولاً، أي الذات المستكملة للصفات الحسنة، وأعود وأقول: العبارات ضيقة، ولأنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثانياً.

فربوبية الله للبشر هي العمدة، ومشكلة المشركين لم تكن عدم اعتقادهم بأن الله خالق، فالقرآن الكريم ينقل إقرارهم بذلك، ويقول: ﴿وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١)، ﴿وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٢)، ﴿وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٣).

المشركون لم تكن عندهم مشكلة في أن الله هو الخالق، بل.. كانت عندهم مشكلة في أن الله هو (الرب) أم لا؟!

كانوا يقولون: الله خلق واعتزل!! - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -.

و(الشُّكْرُ) يكون على الإحسان والنعم، فكلُّ ما يتعلَّق به (الشُّكْرُ) يتعلَّق به (الحمدُ)، يقع به الشُّكْرُ، من غير عكس، فإنَّ (الشُّكْرُ) يقع بالجوارح، و(الحمدُ) باللسان. [السيد المرتضى الزبيدي، تاج العروس في شرح القاموس ٧ / ٤٩، مادة (شكر)].

والخلاصة:

- (الحمد) هو: الثناء على الصفات الذاتية (الذاتي)، وعلى النعمة المسداة (العرضي)، ولكنه يقع باللسان فقط.
- و(الشكر) هو: الثناء على النعمة المسداة فقط، ولكنه يقع باللسان وغيره، كالقلب، والجوارح.

فبينهما (عموم وخصوص من وجه):

فهما يلتقيان في الثناء على النعمة باللسان.

ويفترق (الحمد) عن (الشكر) في الثناء على الصفات الذاتية لأحد، فهو (حمد)، وليس (شكراً)؛ لأنَّ (الشكر) ثناء على النعمة المسداة فقط، ولا يقع على الصفات الذاتية. ويفترق (الشكر) عن (الحمد) في الثناء على النعمة المسداة عبر وسيلة القلب أو الجوارح والأفعال؛ لأنَّ (الحمد) ثناء باللسان فقط، ولا يقع بالقلب أو الجوارح والأفعال.

(١) سورة لقمان، الآية ٢٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦١.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٨٧.

حتى أن بعض الديانات السماوية وقعت في هذا المأزق: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدُّ اللَّهُ مَغْلُولَةً غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^(١)!!
ماذا تعني ﴿يُدُّ اللَّهُ مَغْلُولَةً﴾؟!

تعني أنه ليس رباً مدبراً راعياً محرّكاً، فقد خلق الكون واعتزل، وأوكل هذا الكون إلى غيره، سواء إلى الملائكة عند بعض المعتقدين، أو إلى الأرباب، أو إلى الأصنام، أو إلى القوانين والنظم الكونية - حسب رؤية الماديين -!!
والله - سبحانه وتعالى - يريد أن يقول هنا: إنه هو (الرب)، إلى جانب كونه هو (الخالق) أيضاً، فهو (الرب) و(الخالق) معاً.

ولفظة (الرب) دالة على نوع من التربية، من الشفقة، من الحنو، أولاً يقولون للأب: (رب الأسرة)؟!، يعني الذي عنده تربية لهذه الأسرة، و(تربيته للأسرة) ماذا تعني؟، تعني أنه المشفق عليها، الحاني عليها.
فالحمد أمر محصور في الله - جلّ وعلا -، فلا محمود غيره، وهو محمود على كل حال.

متى نحمد الله؟

وقد جرت عادة البشر على حمد الله - جلّ وعلا - عند نعمه الظاهرة: فالواحد منهم متى ما شبع بطنه حمد الله، ومتى ما رُزق مالا حمد الله، ومتى ما رُزق مولوداً حمد الله، ولكن الله - جلّ وعلا - محمود في السراء والضراء، على النعم الظاهرة والخفية..

ينقل الإمام الصادق عليه السلام أنه «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ورد عليه أمر يسره

(١) سورة المائدة، الآية ٦٤.

وسوف يتناول أستاذنا الشيخ الشيب - رضوان الله عليه - هذا المبحث بكثير من التفصيل عند حديثه عن (أجزاء التشهد/ الشهادة لله بالقوامة).

قال: (الحمد لله رب العالمين)، وإذا ورد عليه أمر يَغْتَمُّ به قال: (الحمد لله على كلِّ حال)»^(١).

فالنبي متى ما رأى نعمة، أو أصابته نعمة قال: «الحمد لله رب العالمين»، ومتى ما نزلت به مصيبة قال: «الحمد لله على كلِّ حال».

فالحمد موجود دائماً، كلُّ ما في الأمر أنك - تبعاً للروايات - تقول تارة: (الحمد لله رب العالمين)، وتارة أخرى (الحمد لله على كلِّ حال)، وإلا.. ففي كليهما تلهج بالحمد لله، والثناء العطر عليه.

والسبب الذي يجعلنا نحمد الله دائماً وعلى كلِّ حال: أن الله - جلَّ وعلا - باعتباره ربِّ العالمين، باعتباره الإله والمعبود والرازق والخالق والرزؤف والرحيم، باعتبار أن له كافة الصفات الحسنى، وباعتبار ذاته - جلَّ وعلا -؛ لا يختار لعبده إلا ما هو خير لهذا العبد، وأساساً خلقَ هذا الخلق؛ لكي يرحمهم ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٢).

لماذا يبتلي الله المؤمنين؟!

إذا كان الله لا يختار لعبده إلا ما هو خير وصالح لهذا العبد، فما معنى أن يُنزل على عبد مصيبة كاملة من كافة نواحيها، ليس فيها أية فائدة لهذا العبد؟!

والجواب على هذا السؤال: أن ما يبدو مصيبة خالصة على العباد ليس كذلك، وإنما هو أمر ظاهره - فقط - كونه مصيبة خالصة، وإلا.. ففيه الخير والنفع لذلك العبد، كأن يبين جوهره، ويمحصه من الذنوب، ويرفع درجاته، وغير ذلك: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾^(٣).

(١) الكافي ٢ / ١٠٤، الباب ٢٣٤ (باب الشكر)، ح ١٩.

(٢) سورة هود، الآية ١١٩.

(٣) سورة محمد، الآية ٣١.

ولذا يصبر جمع من العارفين على أنه لا يوجد (شرٌّ مطلق) في هذا الكون، وأنَّ الشرور نسبية فحسب^(١)، فما نراه في ظاهره شرًّا هو في واقعه خير، ولكن.. ينطبق علينا قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

بعض الأمور يترأى لنا أنها شرٌّ لنا، والحقيقة أنها في واقعها خير لنا، وبعض الأمور يظهر لنا أنها خير مطلق لنا، لكنها قد تحوي في داخلها شرًّا، فقد يحب الإنسان شيئًا، ولا يعلم أنَّ ذلك الشيء في واقعه شرٌّ له: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

والله - جلّ وعلا - باعتباره خلق الخلق لكي يرحمهم، ولكي يربحوا عليه، لا ليربح عليهم، لا يختار لهذا الخلق إلا ما هو صلاح لهم، حتى إهلاكهم صلاح لهم!! وهذا يعني أنَّ الله - جلّ وعلا - حين يرسل على قوم ريحًا صرصراً عاتية أو ريحًا عقيمًا أو صاعقة أو رجفة وزلزلاً؛ إنما يُرسل ذلك رحمة!!، وإلا لو افترضنا أنَّ الله - جلّ وعلا - أمهلهم؛ فتمادوا في طغيانهم، فما النتيجة التي ستكون؟!، وما

(١) يرى الفلاسفة أنَّ الوجودات - من ناحية الإمكان والاحتمال - أربعة:

١- خير محض.

٢- شرٌّ محض.

٣- شيء خيره أكثر من شرّه.

٤- شيء شرّه أكثر من خيره.

ثم يقولون: إنَّ هذه الأشياء الممكنة لم يقع - ولا يقع - منها إلا اثنان، هما:

١- خير محض.

٢- شيء خيره أكثر من شرّه.

أما الشرُّ المحض، والشيء الذي شرّه أكثر من خيره، فلا وجود لهما في الكون بتاتاً، وما يراه الإنسان شرًّا محضاً أو شرّه أكثر من نفعه، إنما يتصور الإنسان وجوده؛ لجهله بحقائق الأمور، ولأنَّه ينسب الأمور إليه، وينظر إليها من زاويته الخاصة، ومن الزاوية الظاهرية، لا من زاوية خيرية ذلك للأشياء وللنظام الكوني العام.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

النتيجة التي يستحقونها حينئذ؟، إنها مضاعفة العذاب في الآخرة، لكنّه - سبحانه - حين ينتقم منهم، ويعجل لهم العذاب، فذاك معناه أنّه اختصر المسافة على هذا العبد، وخفف من العقاب عليه.

بل.. حتى خلق جهنم نعمة وخير للإنسان؛ ولذلك عبّر الله عنها بـ ﴿آلَاءِ﴾^(١): ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذَّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٢)، وإلا.. لو لم يخلق الله جهنم لطغى كثير من البشر، وعاثوا في الأرض خراباً، ونهبوا الأموال، وهاكوا الحرمات، وسفكوا الدماء، ولكنّ الخوف من جهنم قيد أفعال كثيرين ورشدها، فضلاً عن كون جهنم منطقة تصفية وتأهيل لبعض الناس، تهيئهم لدخول الجنة.

متى تتم عملية تطهير العباد من رجس الذنب؟

أولاً: في الدنيا:

الإنسان قد يُذنب مجموعة من الذنوب، لكن من رحمة الله بعباده - في بعض الأوقات - أن يعاقبه الله عليها في الدنيا؛ حتى يصل إلى الآخرة صافياً مصفّياً، أما لو أدخر الله عذاب كلّ ذنب إلى يوم القيامة فما الذي سيحصل؟، وكم هي أحمال الذنوب التي ستتراكم على ظهره؟، وكم سيكون عذاب بني آدم عليها في ذاك اليوم؟! يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله - عزّ وجلّ - بعبد خيراً عجل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبد سوءاً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة»^(٣).

(١) يقول ابن منظور في (لسان العرب ١٥ / ٢٧٨، مادة (مري)): «وقال الفرّاء في قوله - عزّ وجلّ - : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُ تَتَمَارَى﴾ [سورة النجم، الآية ٥٥]؛ يقول: بِأَيِّ نِعْمَةٍ رَبِّكَ تُكَذِّبُ أَنَّهَا ليست منه».

(٢) سورة الرحمن، الآية ٤٣-٤٥.

(٣) الكافي ٢ / ٤٤٥، (باب تعجيل عقوبة الذنب)، ح ٥.

أ- فقد يبتليه الله - سبحانه وتعالى - في جسمه:

يقول الرسول الأكرم ﷺ: «لا يمرض مؤمن ولا مؤمنة ولا مسلم ولا مسلمة إلا حطَّ الله تعالى خطاياهم»^(١)، وأنَّ المرض «يحطُّ السيئات، ويحطُّها حتَّ الأوراق»^(٢).
ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الحَمَى تحت الخطايا كما تحت الشجرة ورقها»^(٣).

ب- وقد يبتليه الله - سبحانه وتعالى - في نفسه:

يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لا يزال الهمُّ والغمُّ بالمؤمن حتى ما يدع له من ذنب»^(٤).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ العبد إذا كثرت ذنوبه، ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها؛ ابتلاه بالحزن؛ ليكفرها»^(٥).

ج- وقد يبتليه الله - سبحانه وتعالى - في رزقه:

ولذا ورد في أحوال النبي موسى عليه السلام: أنَّ الله - جلَّ وعلا - ناجاه، وقال له: «يا موسى، إذا رأيتَ الفقر مقبلاً فقل: (مرحباً بشعار الصالحين)، وإذا رأيتَ الغنى مقبلاً فقل: (ذنبٌ عجَّلْتُ عقوبته)»^(٦).

(١) كنز العمال ٣ / ٥٧١، (باب الإكمال من الصبر)، ح ٦٧٣٧.

(٢) نهج البلاغة / ٤٧٦، قصار الحكم، الحكمة ٤٢.

(٣) كنز العمال ٣ / ٥٧٣، (باب الصبر على الحمى)، ح ٦٧٤٢.

(٤) الكافي ٢ / ٤٤٦، (باب تعجيل عقوبة الذنب)، ح ٩.

(٥) الكافي ٢ / ٤٤٤، (باب تعجيل عقوبة الذنب)، ح ٢.

(٦) الكافي ٢ / ٢٥٩، الباب ٢٩٣ (باب فضل فقراء المسلمين)، ح ١٢.

ولذا كان البلاء يصيب حتى الأنبياء الأوصياء والأئمة والمؤمنين!!

يقول تعالى في كتابه المجيد:

- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءُ وَرَزِلْوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

الإنسان المؤمن حين يدهمه ثوب الفقر، ويستتر عنه بحبوحه رزقه، عليه أن يقول: «مرحباً بشعار الصالحين»!!

كما ورد أن سلب الله لنعمة أو لنعم من الإنسان ليس إلا بسبب ذنب أو ذنوب ارتكبتها، كان جزاؤها التكويني الدنيوي سلب تلك النعمة أو النعم!!

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في (دعاء كميل): «اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم»^(١).

[سورة البقرة، الآية ٢١٤].

- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٤٦-١٤٨].

وفي رواية بكر بن عبد الله: «أنَّ عمر دخل على النبي صلى الله عليه وآله وهو موقوذ أو قال: محموم، فقال له: يا رسول الله، ما أشدَّ وعكك أو حمَّاك؟، فقال له: ما منعي ذلك أن قرأت الليلة ثلاثين سورة، فيهنَّ السبع الطول، فقال: يا رسول الله، غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر وأنت تجتهد هذا الاجتهاد؟!، فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً» [وسائل الشيعة ٤ / ٨٤٤، الباب ١١ (باب استحباب كثرة قراءة القرآن في الصلاة وغيرها وعلى كلِّ حال)، ح ١٩].

فهذه الرواية تعني أنَّ النبي محمداً صلى الله عليه وآله، وهو أفضل الخلق أجمعين، مسَّته الحمى بميسمها. فضلاً عن الأوصياء والأئمة والمؤمنين:

فقد أصاب أمير المؤمنين عليه السلام قبل معركة خيبر الرمد في عينيه.

وقد روى عبد الله بن عمر وابن العاص، قالا: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله دفع الراية يوم خيبر إلى رجل من أصحابه، فرجع منهزماً، فدفعها إلى آخر، فرجع يجبن أصحابه ويجبنونه، قد ردَّ الراية منهزماً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه، فلما أصبح قال: ادعوا لي علياً. فقيل له: يا رسول الله، هو رمد. فقال: ادعوه. فلما جاء تفل رسول الله صلى الله عليه وآله في عينيه، وقال: اللهم ادفع عنه الحرَّ والبرد. ثمَّ دفع الراية إليه ومضى، فما رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بفتح خيبر» [الشيخ الصدوق، الأمالي / ٦٠٤]. وروى جابر بن عبد الله الأنصاري، عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إذا أحبَّ الله عبداً نظر إليه، فإذا نظر إليه، أتخفه من ثلاثة بواحدة: إما صداع، وإما حمى، وإما رمد» [الخصال، باب (خصلة من أجلها لا يحبُّ الموت)، ح ٤٥].

(١) مصباح المتهجد / ٨٤٤، (دعاء آخر، وهو دعاء الخضر عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ١٢٧، (دعاء كميل بن زياد (رض)).

وفي الرواية عن أبي عمرو المدائني، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «سمعتُه يقول: كان أبي عليه السلام يقول: إنَّ الله قضى قضاءً حتمًا ألاَّ ينعم على العبد بنعمة، فيسلبها إيَّاه؛ حتى يُحدِّث العبد ذنبًا يستحقَّ بذلك النعمة»^(١).

وهكذا يعطي الله عبده شيئًا من الأمراض الجسمية كالحمى والصداع والزكام والآلام، وشيئًا من الأكدار النفسية كالهجوم والغموم والأحزان، وشيئًا من البلاء في الأرزاق كالأموال والثمرات؛ ليحطَّ سيئاته، أو ليرفع درجاته، هذا هو السبب.

ثانيًا: عند بليّة الموت:

وقد تحتاج عملية تطهير المؤمن وتصفيته وتأهيله لدخول الجنّة إلى امتحان عسير عند الاحتضار، ومكابدة سكرات الموت وتجرّع غصص النزع؛ لتكون جزاءه على ذنوبه التي ارتكبها، لقيه في الدنيا؛ ليرد على الله وليس عليه جزاء لذنوبه أو لمعصية!! يدخل شخص على مولانا الإمام الصادق - صلوات الله وسلامه عليه - فيقول: «صف لنا الموت».

قال: للمؤمن كأطيب ريح يشمّه، فينعس لطيبه، وينقطع التعب والألم كلّ عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولذع العقارب أو أشدّ.

قيل: فإنَّ قومًا يقولون: إنّه أصعب من نشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، ورضخ بالأحجار، وتدوير قطب الأرحية في الأحداق.

قال: كذلك هو على بعض الكافرين والفاجرين بالله - عزّ وجلّ -، ألاَّ ترون منهم مَنْ يعاني تلك الشدائد؟!، فذلكم الذي هو أشدّ من هذا، ألاَّ إنّ من عذاب الآخرة فإنّه أشدّ من عذاب الدنيا.

قيل: فما بالنا نرى كافرًا يسهل عليه النزاع، فينطفئ وهو يحدّث ويضحك

(١) وسائل الشيعة ١١ / ٢٤٠، الباب ٤٠ (باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب)، ح ١٥.

ويتكلم؟!، وفي المؤمنين - أيضًا - من يكون كذلك، وفي المؤمنين والكافرين من يقاسي عند سكرات الموت هذه الشدائد؟

فقال: ما كان من راحة للمؤمن هناك فهو عاجلٌ ثوابه، وما كان من شديدة فتمحيصه من ذنوبه؛ ليرد الآخرة نقيًا نظيفًا مستحقًا لثواب الأبد، لا مانع له دونه، وما كان من سهولة هناك على الكافر، فليوفى أجر حسناته في الدنيا؛ ليرد الآخرة وليس له إلا ما يوجب عليه العذاب، وما كان من شدة على الكافر هناك، فهو ابتداء عذاب الله له بعد حسناته؛ ذلكم بأن الله عدل لا يجور^(١).

فالله من عظمة رحمته بهذا العبد حتى في اللحظات الأخيرة من حياته يريد أن يصفّيه، وقد ينتزع روحه بشدة لذلك؛ ليكون ذلك تعويضًا عن ذنوبه، بدلًا من أن يعاقبه الله في الآخرة.

ثالثًا: في البرزخ (عذاب القبر):

وقد تحتاج عملية تطهير المؤمن إلى مدى أبعد من الدنيا وصعوبة نزع الروح، فيكوى بميسم عذاب البرزخ، وتحطّم أضلاعه ضغطة القبر، أو يسقى بعض صنوف العذاب الأخرى فيه؛ ليأتي آمنا يوم الفرع الأكبر.

يقول رسول الله ﷺ: «ضغطة القبر للمؤمن كفارة لما كان منه من تضييع النعم»^(٢).

وقد ذهل المسلمون من عظمة اهتمام الرسول الأكرم ﷺ بدفن سعد بن معاذ، وما أرخاه عليه من تبجيل وتكريم وحفاوة باذخة، وفي ختامه سألوا النبي ﷺ متعجبين

(١) علل الشرائع ١ / ٣٤٦ - ٣٤٧، الباب ٢٣٥ (باب علة سهولة النزع وصعوبته على المؤمن والكافر)، ح ٢.

(٢) علل الشرائع ١ / ٣٠٩، الباب ٢١٦ (العلة التي من أجلها يكون عذاب القبر)، ح ٣.
وبحار الأنوار ٦ / ٢٣١، الباب ٨ (أحوال البرزخ والقبر، وعذابه، وسؤاله، وسائر ما يتعلق بذلك)، ح ١٦.

مذهولين، «فقالوا: أمرت بغسله، وصليت على جنازته، ولحدته، ثم قلت: (إنَّ سعدًا قد أصابته ضمة!!)، قال: فقال ﷺ: نعم.. إنه كان في خُلُقِه مع أهله سوء»^(١).

رابعاً: في الآخرة:

وإذا لم يكفِ بلاء الدنيا أو سكرات الموت أو عذاب القبر لتصفية بعض العباد، فقد يذيقهم الله شيئاً من كؤوس العذاب في ساحة المحشر؛ لتكون عاقبتهم الجنة..، وذلك كله خير للعبد.

وقد تحتاج عملية تطهير بعض الناس وتصفيتهم من رجس الذنوب والخطايا إلى المكوث في النار بضع سنين، أو عشرات، أو مئات، أو ألوف، أو مئات ألوف السنين، وربما أكثر!!

في الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العبد ليُحسب على ذنب من ذنوبه مئة عام، وإنَّه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن»^(٢).

وفي الرواية عن الإمام محمد بن علي الجواد، عن أبيه الإمام علي بن موسى الرضا، عن أبيه الإمام موسى بن جعفر الكاظم، عن أبيه الإمام جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه الإمام محمد بن علي الباقر، عن أبيه الإمام علي بن الحسين السجاد، عن أبيه الإمام الحسين الشهيد عليه السلام قال:

«قيل لأمر المؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت، فقال: على الخير سقطتم، هو أحد ثلاثة أمور يرد عليه:

١- إما بشارة بنعيم الأبد.

٢- وإما بشارة بعذاب الأبد.

٣- وإما تحزين وتهويل وأمر مبهم لا يدري من أي الفرق هو.

(١) علل الشرائع / ١ / ٣١٠، الباب ٢١٦ (العلة التي من أجلها يكون عذاب القبر)، ح ٤.

(٢) وسائل الشيعة ١١ / ٢٣٧، الباب ٤٠ (باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب)، ح ٤.

أ- فأما وليّنا المطيع لأمرنا، فهو المبشّر بنعيم الأبد.

ب- وأما عدوّنا المخالف علينا، فهو المبشّر بعذاب الأبد.

ج- وأما المبهّم أمره الذي لا يدري ما حاله، فهو المؤمن المسرف على نفسه لا يدري ما يؤول إليه حاله، يأتيه الخبر مبهمًا مخوفًا، ثمّ لن يسويه الله - عزّ وجلّ - بأعدائنا، لكن يخرجهم من النار بشفاعتنا، فاعملوا وأطيعوا، لا تتكلموا، ولا تستصغروا عقوبة الله - عزّ وجلّ -؛ فإنّ من المسرفين من لا تلحقه شفاعتنا إلا بعد عذاب ثلاث مئة ألف سنة^(١).

لا تناله الشفاعة، ولا يدخل الجنة إلا بعد ثلاث مئة ألف سنة يلبثها في النار، وهذا تطهير له، وبعد ثلاث مئة ألف سنة يخرج منها؛ بشفاعة أهل البيت الكرام - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام -!!

كلّ ذلك لأنّ الله - سبحانه وتعالى - يريد أن يطهّر العباد، ويصقّيهم من الشوائب، ويطهّرهم من الدنس، كما تنقيّ النار الشوائب عن الذهب.

ونحن نسأل الله أن يقبض أرواحنا بيسر وعافية، ويأخذنا إلى بحبوحة رضوانه ومستقرّ جنانه، وأن يعفو عنّا، ويغفر لنا دون أن نمّر على محطات العسر والتصفية من رجس الذنوب.

قبس من جذوة الروايات:

ومن الروايات التي جمعت أصنافًا مما يبتلّي به الله عباده:

١ - يقول الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الله - عزّ وجلّ - إذا كان من أمره أن يُكرم عبداً، وله ذنب: ابتلاه بالسقم، فإن لم يفعل ذلك له ابتلاه بالحاجة، فإن لم يفعل به ذلك شدّد عليه الموت؛ ليكافئه بذلك الذنب.

(١) معاني الأخبار / ٢٨٨، (باب معاني الموت)، ح ٢.

قال: وإذا كان من أمره أن يهين عبداً، وله عنده حسنة: صحّح بدنه، فإن لم يفعل به ذلك وسّع عليه في رزقه، فإن هو لم يفعل ذلك به هوّن عليه الموت؛ ليكافيه بتلك الحسنة»^(١).

٢- ويقول الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله - عز وجل -: وعزّتي وجلالي، لا أخرج عبداً من الدنيا، وأنا أريد أن أرحمه حتى أستوفي منه كلّ خطيئة عملها، إما بسقم في جسده، وإما بضيق في رزقه، وإما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية شددتُ عليه عند الموت.

وعزّتي وجلالي، لا أخرج عبداً من الدنيا، وأنا أريد أن أعذّبه حتى أوفّيه كلّ حسنة عملها: إما بسعة في رزقه، وإما بصحة في جسمه، وإما بأمن في دنياه، فإن بقيت عليه بقية هوّنتُ عليه بها الموت»^(٢).

٣- ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله - عز وجل -: ما من عبد أريد أن أدخله الجنّة إلا ابتليته في جسده، فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلا شددتُ عليه عند موته، حتى يأتيني ولا ذنب له، ثم أدخله الجنّة.

وما من عبد أريد أن أدخله النّار إلا صحّحتُ له جسمه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلا آمنت خوفه من سلطانه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلا وسّعتُ عليه في رزقه، فإن كان ذلك تماماً لطلبته عندي، وإلا هوّنتُ عليه موته؛ حتى يأتيني ولا حسنة له عندي، ثم أدخله النّار»^(٣).

٤- وعن المفصّل بن عمرو، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «يا مفصّل، إيّاك والذنوب، وحذرّها شيعتنا، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم، إنّ أحدكم لتصيبه المعرّة من السلطان، وما ذاك إلا بذنوبه، وإنّه ليصيبه السّقم، وما ذاك إلا بذنوبه، وإنّه

(١) الكافي ٢ / ٤٤٤، (باب تعجيل عقوبة الذنب)، ح ١.

(٢) الكافي ٢ / ٤٤٤، (باب تعجيل عقوبة الذنب)، ح ٣.

(٣) الكافي ٢ / ٤٤٦، (باب تعجيل عقوبة الذنب)، ح ١٠.

لِيُحْبَسَ عَنْهُ الرِّزْقُ، وما هو إلا بذنوبه، وإنَّه لِيُشَدَّدَ عَلَيْهِ عند الموت، وما هو إلا بذنوبه، حتى يقول مَنْ حضره: (لقد غُمَّ بالموت!!). فلما رأى ما قد دخلني قال: أتدري لِمَ ذاك، يا مفضل؟ قال: قلت: لا أدري - جُعِلْتُ فداك -، قال: ذاك - والله - أنكم لا تؤاخذون بها في الآخرة، وعُجِّلَتْ لكم في الدنيا^(١).

الغاية من البحث:

المراد والهدف والغرض من كل ما سبق من كلام: أن الله - جلَّ وعلا - لا يريد لعبده إلا الخير، فأنْتَ لا تجزع حينما ترى قريباً لك متوفى، أو ترى منذ أول الصبح حادث سيارة، أو مالا سُرق، أو غير ذلك، بل.. احمد الله على كل حال.

الحمد لله في ظروف كهذه آتٍ من أن الإنسان في بعض الأوقات لا يعرف ما الذي كان متوجَّهًا إليه، فصرفه الله عنه، وهذا ما يجعلنا نقول للإنسان الذي حصل له حادث: (دفع الله ما كان أعظم)، ربَّما يكون في هذا الحادث أجله، لكنَّ الله دفعه عنه: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٢)، هناك حفظة يرسلهم الله للبشر، لكن حين يحلَّ اليوم الذي يأتي فيه أمر الله لا يفعلون له شيئاً، ويتركونه وأجله، ولو تخلَّى هؤلاء الحفظة الذين يحفظون الإنسان من بين يديه ومن خلفه ويحيطونه، وأسلموه إلى مصائب هذا الكون، لانتهى أمره في لمحة بصر.

لذلك ينبغي أن تغمرنا قناعة بفعل الله، ونلهج دوماً بعبق حمده، والثناء العطر عليه، وأن الحمد كل الحمد لله.

فقيراً كنتَ أم غنياً أحمد الله، شريفاً كنتَ أم وضيعاً احمد الله، صحيحاً كنتَ أم سقيماً احمد الله، ينبغي أن يكون كلُّك حمد لله - جلَّ وعلا -؛ والسبب أنَّه ربَّ العالمين.

(١) علل الشرائع ١ / ٣٤٦ - ٣٤٧، الباب ٢٣٥ (باب علّة سهولة النزع وصعوبته على المؤمن والكافر)، ح ١.

(٢) سورة الرعد، الآية ١١.

سعة رحمة الله:

أترى ربًّا لا يشفق على مربوبيه؟!، لا يشفق على عبيده؟!

الأم التي لا نستطيع وصف حنانها الأمومي الدافق المرخي على ولدها، ورحمتها العظيمة تلك ليست إلا قسمًا يسيرًا من رحمة الله الواسعة، فهذا الكون كله يعيش على جزء من مئة جزء من رحمة الله.

في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِائَةَ رَحْمَةٍ، وَإِنَّهُ أَنْزَلَ مِنْهَا وَاحِدَةً إِلَى الْأَرْضِ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ خَلْقِهِ، بِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَيَتَرَاحَمُونَ، وَأَخْرَجَ تَسْعًا وَتَسْعِينَ لِنَفْسِهِ، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وروي «أَنَّ اللَّهَ قَابَضَ هَذِهِ إِلَى تِلْكَ، فَيَكْمُلُهَا مِائَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وعن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، كُلَّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طِبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَأَهْبَطَ رَحْمَةً مِنْهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَبِهَا تَرَاحَمَ الْخَلْقُ، وَبِهَا تَعَطَّفَ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَبِهَا تَشْرَبُ الطَّيْرُ وَالْوَحُوشُ مِنَ الْمَاءِ، وَبِهَا تَعِيشُ الْخَلَائِقُ»^(٣).

وقال أمير المؤمنين ع: يصف رحمة الله: «رحيم بعباده المؤمنين، ومن رحمته أَنَّهُ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، جَعَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، فَبِهَا يَتَرَاحَمُ النَّاسُ، تَرَاحَمَ الْوَالِدَةُ وَلَدَهَا، وَتَحْنُو الْأُمَّهَاتُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَضَافَ هَذِهِ الرِّحْمَةَ الْوَاحِدَةَ إِلَى تِسْعٍ وَتَسْعِينَ رَحْمَةً؛ فَيَرْحَمُ بِهَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ يَشْفَعُهُمْ فَيَمُنُّ يَحْبُونَ لَهُ الشَّفَاعَةُ مِنْ أَهْلِ الْمَلَةِ»^(٤).

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ١ / ٥٤، تفسير سورة الفاتحة.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ١ / ٥٤، تفسير سورة الفاتحة.

(٣) كنز العمال ٤ / ٤٦٠، (فصل: في سعة رحمة الله تعالى)، ح ١٠٤٦٤.

(٤) بحار الأنوار ٤ / ١٨٣، الباب ٢ (معاني الأسماء، واشتقاقاتها، وما يجوز إطلاقه عليه تعالى، وما لا يجوز)، ح ١٠.

وفي هذه الأحاديث مسامحة، فالعدد (مئة) - شأنه شأن أعداد أخرى مثل (السبعة، والأربعين، والسبعين، والألف) - قد يراد به التكثير، وبيان سعة رحمة الله، وليس المراد به العدّ والإحصاء والحصر.

فهذا التراحم الذي نراه بين البشر: الأم التي تسهر وتتعب وتشقى، والأب الذي يرحم ابنه، والابن الذي يرحم أباه، والأخ الذي يرحم أخاه، والذي نراه بين الحيوان، فتحنو الأم على صغارها، هذا كله - منذ أن خلق الله الكون، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - هو جزء من مئة جزء من رحمة الله، هو من الجزء الذي أنزله الله إلى هذا الكون، وادخر تسعة وتسعين جزءاً ليوم القيامة.

نفسية الناقم ونفسية المؤمن:

لماذا يجزع الإنسان إذاً من أقلّ مصيبة تعترضه؟!، ولماذا يتذمّر؟، ولماذا يتشكّى؟، ولماذا نرى الكلّ ناقماً على وضعه؟!

الطفل يشتكى، وكبير السنّ يشتكى!!

الأعزب يشتكى، والمتزوج يشتكى!!

الرجل يشتكى، والمرأة تشتكى!!

الذي يستلم راتباً ألف ريال في الشهر يشتكى، والذي يستلم عشرين ألفاً يشتكى!!

الكلّ عابس، والكلّ متبرّم، والكلّ يحكمه الألم، ما هذا؟!

يقول الشاعر حاكياً صورة هؤلاء:

كُلُّ مَنْ تَلَقَّاهُ يَشْكُو دَهْرَهُ لَيْتَ شَعْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَمَنْ؟! ^(١)

(١) الدكتور إميل بديع يعقوب، معجم لآلئ الشعر: أجمل الأبيات وأشهرها/ ٣٨٢، والدكتور حسن نمر دندشي، معجم الأبيات الشهيرة/ ٢٢٣، وقد نسب الدكتوران يعقوب ودندشي إلى أبي العلاء المعري، ولم نجده في دواوينه.

أما نفسية الإنسان المؤمن فتتزين بزيتين هما: الرضا والثناء:
فهو - من جهة - راضٍ بفعل الله، راضٍ بالقضاء والقدر، لا يكثر الشكوى والتذمر والضجيج والعجيج.

ومن أجمل الآيات التي تصوّر حالة المؤمن هذه:

كُنْ عَنْ أَمُورِكَ مَعْرِضًا وَكُلِ الْأُمُورَ إِلَى الْقَضَا
فَلِرَبِّمَا أَتَسَعِ الْمَضِيئُ وَرَبِّمَا ضَاقَ الْفَضَا
وَلِرُبِّ أَمْرٍ مَتَعِبٍ لَكَ فِي عَوَاقِبِهِ رِضَا
اللَّهُ يُفْعَلُ مَا يَشَاءُ ءُ، فَلَا تَكُنْ مَتَعَرِّضًا
اللَّهُ عَوْدَكَ الْجَمِيلَ فَقِسْ عَلَى مَا قَدْ مَضَى^(١)
والإيمان بالقضاء والقدر يسكب على النفس برد الطمأنينة، ويلبسها أبهى حلل السعادة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ رَضِيَ بِالْقَضَاءِ طَابَ عَيْشُهُ»^(٢).

وهو - من جهة أخرى - يملك نفسية ملؤها الحمد والشكر والثناء العطر الموصول على الله.

ونحن مكلفون أن نقول عشر مرّات يوميًا في صلواتنا المفروضة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وذلك حين قراءة سورة الفاتحة في الركعتين الأوليين؛ لأنّه ربّ هذا العالم، وربّ جميع العالمين، وهو رحيم بجميع العالمين الذين خلقهم.

إنّ السبب الذي يُلبس الناقد ثوب التبرّم الأسود الحالك، ويُلبس المؤمن ثوب الرضا الأبيض الناصع هو: ما سبق أن أشرنا إليه تحت عنوان (سعادة الإنسان في الاعتقاد بإرادة الله وتديره)، حين قلنا:

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة ٢/ ٤٥٧.

والميرزا محمد بن سليمان التنكابني، قصص العلماء / ٤٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ٢/ ١٩٢، الحكمة ٧٨٧.

(٣) سورة الفاتحة، الآية ٢.

«اعتقاد الإنسان أن لهذا الكون ربًّا خالقًا مدبّرًا مديّرًا، وأنّ هذا الكون يسير بإرادة الله ومشيتته، اعتقادٌ يجعل الإنسان مطمئنًا سعيدًا مرتاحًا، ويغمسه في بحر من برد الطمأنينة وورد السعادة، ومن دون هذا الاعتقاد يصبح الإنسان ريشة في مهبّ الريح، ليس له ثقل؛ لأنّه معتمد وملتجئ على حوله وقوته هو!!»^(١).

معنى ﴿الْعَالَمِينَ﴾:

وفي ختام الآية جاءت كلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾، وكلمة (عالمين) جمع (عالم)، ولها معان كثيرة، منها:

أولاً: المجموعة المتماثلة من الخلق:

فنقول: عالم الجماد، وعالم النبات، وعالم الحشرات، وعالم الحيوان، وعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة.

إنّ عالم الجماد كبير واسع يضمّ آلاف الأنواع من الصخور والأحجار والمعادن والنيازك والكواكب والمجرات وغيرها... ومثله عالم النبات، وعالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة، بل إنّ نوعاً واحداً من الأحياء - كالنمل والعناكب - قد يحتوي على آلاف الأصناف، ومليارات الأفراد!!^(٢).

وهذه العوالم جميعاً لا تسير أمورها، ولا تنتظم إلا برّب حكيم مدبّر يدير شؤونها ويرعاها؛ وبذلك ندرك بعض حجم السعة البالغة المذهلة التي يخترنها تعبير ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وعظمة المدد الربّاني الغامر الذي يغدقه الله على هذه العوالم المتنوّعة بأفرادها المتكثّرة.

(١) سبقت هذه الفقرة تحت عنوان (سعادة الإنسان في الاعتقاد بإرادة الله وتديره) في بداية شرح أستاذنا الشيخ الشبيب - رضوان الله عليه - لمعنى البسملة.

(٢) تقدّر (الموسوعة العربية العالمية ١٦ / ٦٩٤) العناكب بما بين ثلاثين ألفاً إلى مئة ألف نوع، كما تقدّر (المصدر ٢٥ / ٥٢٥) النمل بأكثر من عشرة آلاف نوع.

فما أعظمك يا الله، يا رب العالمين!!
وكم تحتاج هذه العظمة الربوبية إلى حمد!!

ثانياً: المجموعة المتفقة في الزمان أو المكان:

فأله - سبحانه وتعالى - خلق تسعة عوالم نمّر بها بالتدرّج، وعلى التوالي الطولي، والتتابع الزمني، وهو - جلّ وعلا - ربّها، وهي:

- ١- عالم الأرواح.
 - ٢- عالم الذرّ.
 - ٣- عالم التراب.
 - ٤- عالم الأصلاب.
 - ٥- عالم الأرحام.
 - ٦- عالم الدنيا، وهو العالم الذي نعيشه الآن.
 - ٧- عالم البرزخ (القبر).
 - ٨- عالم البعث والنشر والحشر.
 - ٩- عالم البقاء والخلود والدوام (عالم الأبدية/ عالم الجزاء).
- فكلّ هذه عوالم، والله - جلّ وعلا - ربّها الذي خلقها، وله الحمد والمِنَّة أن جعلنا نندرج فيها بكلّ رأفة ورحمة وحنان.

ثالثاً: الخلق كلّهُ:

فأله ربّ العالم كلّهُ، أي الوجود والكون بأسره، وهو ربّ جميع العالمين، وربّ جميع العوالم^(١).

(١) راجع: البيان في تفسير القرآن / ٤٥٣.

إنّ هذا الكون يضم بين حناياه ملايين المجرات التي لا تحسب مساحاتها الشاسعة إلا بالسنين الضوئية، والمجرة الواحدة قد تضم ملايين أو مليارات النجوم والكواكب والأقمار والمذنبات والنيازك و....^(١)، وهي - جميعاً - تسبح في بحر هذا الوجود المتسع كلّ حين: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٢)، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٣).

ومع كلّ هذه السعة والعظمة والحركة الدائبة في هذا الكون، إلا أنّه يجري بنظام دقيق فتّان، وانتظام زاهٍ خلّاب، يجعلنا ننمّ قريري العين، لا نخشى تصادم الأجرام، ولا يتملّكننا القلق من تهاوي النجوم والكواكب على رؤوسنا، ولا نخاف أن تنسانا الشمس، أو يحجم عنا القمر، ويغادرنا إلى عالم آخر، ألا يحتاج ذلك منا إلى حمد، وأن نعلن بقلوبنا ومشاعرنا وأفواهنا وأعمالنا ونقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾!؟

(١) ورد في (الموسوعة العلمية المبسّطة: عجائب الكون وغرائبها / ١٠ - ١١): «وقد اكتشف علماء الفلك عن طريق التلسكوب أو المرقب الفلكي أنّ في الكون ملايين المجرات وراء مجرتنا»، وأنّ (مجرة درب التبانة) - وحدها - تضمّ حوالي ثلاثة مليار نجم، وأنّ الضوء يحتاج إلى مئة ألف سنة ضوئية ليقطع هذه المجرة، ويحتاج الضوء لكي يقطع المسافة من مركز المجرة إلى الشمس إلى سبع وعشرين ألف سنة، والنقطة أو الموقع الذي نحن فيه يحتاج إلى مئتي مليون سنة كي يكمل دورة واحدة في المجرة!!

(٢) سورة يس، الآية ٤٠.

(٣) سورة الذاريات، الآية ٤٧.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

من خلال جمع هذه الآية والآية السابقة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، نصل إلى أمور نحمد الله لأجلها، فنحن نحمد الله؛ لأنه رب العالمين أولاً، ولأنه الرحمن الرحيم ثانياً.

وقد تحدّثنا عن هاتين الصفتين في معرض كلامنا عن البسملة.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

لماذا أبرزت الآية مالكية يوم الدين؟

الله مالك لكل يوم، لكن القرآن في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١)، ذكرنا بذلك اليوم الذي تزول فيه الموانع، وتنقشع فيه الحُجُب، وتنكشف فيه الأستار: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(٢)، ذاك اليوم تنكشف الحُجُب، ويرى الناس حقائق الأمور ماثلة - حسًا وعيانًا ومعايشة - أمامهم، حاضرة متجسمة في صورتها الواقعية الحقيقية:

- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٣).

- ﴿وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا

(١) سورة الفاتحة، الآية ٤.

(٢) سورة ق، الآية ١٩-٢٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴿^(١)﴾.

- ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴿^(٢)﴾.

لِمَن الْمَلِكُ الْيَوْمَ؟!

والمُلك في ذاك اليوم لله وحده: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾
لَمَنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴿^(٣)﴾.

المُلك أمس وبالأمس كان لله، ومنذ اليوم الأول للخلق كان المُلك لله، منذ
أوجد الله هذا الكون من كتم العدم والمُلك كان لله، ولكن.. في الحياة الدنيا عندنا
مجموعة من الملكيات الظاهرية الاعتبارية، فتصوّر - باعتبار وقوف البشر عند نطاق
الحُجب والأستار - أنّ هذه السيارة ملك لفلان، وهذا البيت ملك لفلان، وهذا البستان
ملك لفلان، وهذه البلاد ملك لفلان؛ ولذلك هتف قارون و﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ
عِنْدِي﴾﴿^(٤)﴾!!

أليس الله هو من ملّك البشر؟، الله جعل للإنسان مالكية لهذا المال، وخوّله
إياه، وأعطاه مالكية لهذا الشيء، هذه مجرد ملكية اعتبارية جعلية مجازية، والملكية
الذاتية الحقيقية الأصلية لله، ولكننا نقف عند هذه الاعتبار الدنيوية الظاهرية،
وننسى ما بعدها وهو الحق!!، فتصوّر أنّ مالك هذا اليوم سيكون مالكاً لذلك اليوم،
ونتصوّر أنّ أمرنا بيد فلان وعلان من الناس، وذات يوم ستنكشف هذه الحُجب،
وسنرى أنّ المالك لكل ذلك ليس إلا الله: ﴿وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾﴿^(٥)﴾؛ ولذا

(١) سورة الكهف، الآية ٤٨-٤٩.

(٢) سورة الزلزلة، الآية ٦-٨.

(٣) سورة غافر، الآية ١٦.

(٤) سورة القصص، الآية ٧٨.

(٥) سورة مريم، الآية ٨٠.

يؤكد القرآن دائماً ويلحّ على أنّ جميع هذا إنّما هو (مال الله)، وأنّ الإنسان مجرد شخص (مخوّل) من الله بالتصرّف المؤقت فيه، لا ملكية أصلية له عليه، ولا ملكية دائمة له عليه، وبموته ستقطع ملكيته الظاهرية، وتخويله الزمني: ﴿مَنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾^(١)، ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾^(٢).

في الدنيا.. الله هو الذي أعطاك كلّ هذا ﴿مَنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾، ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾، لكنّ الملكية الظاهرية الاعتبارية في هذه النشأة ساتر كثيف يحجب عين الكثيرين عن إِبصار الملكية الحقيقية الأصلية، لكنّه في يوم من الأيام ستزول الملكيات الاعتبارية، وتتجلّى ملكية الله الحقّة، فهو مالك ليوم الدين، مالك ليوم الجزاء، مالك ليوم الحساب.

مالك النهايات هو مالك البدايات:

المالك ليوم الدين هو - بالطبع - المالك لبقية الأيام.. لماذا؟

لأنّ الذي يملك النهاية وعاقبة الأمر هو - في الحقيقة والواقع - المالك الحقيقي للبداية والوسط: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^(٣)، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾^(٤).

مالك يوم الدين هو مالك الأمس، ومالك اليوم، ومالك الغد.

مالك يوم الدين هو المالك لجميع أشتات الماضي، ولجميع آتات الحاضر، ولجميع شذرات المستقبل؛ لأنّ الأمور طرّاً صائرة إليه^(٥).

(١) سورة النور، الآية ٣٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٩٤.

(٣) سورة الشورى، الآية ٥٣.

(٤) سورة النجم، الآية ٤٢.

(٥) ورد في (دعاء الجوشن الكبير): «يا من كلّ شيء كائنٌ له، ...، يا من كلّ شيء منيبٌ إليه، ...».

لماذا يخشى الإنسان يوم الحساب؟!

وهذا اليوم الذي يخشاه الإنسان؛ لأنه يوم جزاء ويوم حساب، ويلقى الإنسان فيه كتابه الذي يحصي عليه كل شيء: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(١)، ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٢)، في ذلك اليوم تزول الغشاوة والموانع، وتنكشف كل هذه الحُجُب، وتنكشف كل الأغطية، وتنهار كل العلاقات وكل الروابط.

الروابط في عالم الدنيا تقوم على أمرين هما: الأسباب والأنساب، لكنها في عالم الآخرة تنقطع وتنهار!!

يقول الله - جلّ وعلا - عن انهيار الأسباب الدنيوية في الآخرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(٣)؛ فعالم الآخرة هو عالم جزاء، وليس عالم أسباب وعمل.

ويقول - جلّ من قائل - عن انهيار الأنساب والعلاقات الاجتماعية الدنيوية في الآخرة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٤)، ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّائِغَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٥).

يا من كل شيء صائرٌ إليه [البلد الأمين والدرع الحصين / ٤٠٥، دعاء الجوشن الكبير، الفقرة (لز). ومفاتيح الجنان / ١٢١، دعاء الجوشن الكبير، الفقرة ٣٧].

(١) سورة الكهف، الآية ٤٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٣-١٤.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٦٦.

(٤) سورة المؤمنون، الآية ١٠١.

(٥) سورة عبس، الآية ٣٣-٣٧.

كُلَّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سبب رسول الله ﷺ ونسبه؛ ولذلك يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: «كُلَّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»^(١)، ونحن نسأل الله أن يكون لنا إلى رسول الله سبب، فيهم نُرحم، وإلا فنحن من دونهم لا نجاة لنا.

(١) الخصال / ٥٥٩، باب (احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام بمثل هذه الخصال على الناس يوم الشورى). وبحار الأنوار ٥ / ٢٠٩، الباب ٧ (الهداية والإضلال والتوفيق والخذلان)، ذيل الحديث ٤٨. وأحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى ٧ / ٦٤، باب كان ماله بعد موته قائماً على نفقته وملكه). والدرر المنتور في التفسير بالمأثور ٥ / ١٥، سورة المؤمنون.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾:

وبعد أن يعلمنا الله - جلّ وعلا - أنّه مالك يوم الدين؛ يعلمنا أن نحصر عبادتنا واستعانتنا به وحده، فنقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾^(١)، وتقديم المفعول - هنا - يفيد الحصر، بمعنى أن عبادتنا ليست إلا إليك وحدك، ﴿إِيَّاكَ﴾ لا سواك.. لا غيرك ﴿نَعْبُدُ﴾.

ولو قلّت: (نعبدُ إياك) أو (نعبدك) لما تحقّق معنى الحصر، كما لو قال إنسان لآخر: (أشكر إياك) أو (أشكرك)، فكلامه هذا مختلف جذرياً عن قوله: (إياك أشكر)؛ لأنّ (تقديم ما حقّه التأخير يفيد الحصر)، فأين يكمن الفرق بين التعبيرين؟

(إياك أشكر) تحمل في داخلها معنيين: إثبات ونفي: إثبات الشكر لك، ونفيه عن غيرك، أي اختصاصك - وحدك - بالشكر، واقتصار الشكر عليك دون سواك، وهذا معنى الحصر والقصر، فهي تعني أنّي حصرت الشكر لك وحدك، مثل قلّتي: (إياك أعني)، أي (إنّما أعنيك أنت)، وهذا غير قلّتي: (أعنيك)، الذي يحمل في داخل أحشائه معنى الإثبات فقط دون النفي عمّن سواك، أي: أعنيك، ويمكن أن أعني غيرك أيضاً، وكذلك الحال حين أقول: (أشكرك)، فهي تثبت الشكر لك، ولا تنفيه عن غيرك، فهي تعني أشكرك، وأشكر غيرك، بخلاف (إياك أشكر) التي تثبت الشكر لك،

(١) سورة الفاتحة، الآية ٥.

وتنفيه عن غيرك، فتجعل الشكر لك وحدك، مقصور عليك دون سواك.

وحين نعود للآية المباركة نجدها تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فالحصر والقصر فيها يحمل في طياته معنيين هما: الإثبات والنفي، إثبات العبادة لله، ونفيها عمّن وعمّا سواه، أي إثباتها له وحده دون سواه.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تعني أننا نعبدك وحدك، ولا نعبد غيرك، لا من عالم الأهواء، ولا من عالم الأشياء، لا من عالم الملائكة، ولا من عالم البشر، ولا من عالم الجن، ولا من أيّ عالم آخر.

وهذا معنى كون الآية تحصر العبادة في الله - جلّ وعلا - وحده.

العبادة الظاهرة للشيطان والعبادة الخفية!!

أحدهم يقول: نحن جميعاً موحدون، ولا نعبد أحداً إلا الله، فما فائدة الحصر في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؟ وهل يمكن للإنسان أن يعبد غير الله؟!

المشكلة لا تكمن - بالضرورة - في عبادة صنم أو وثن ظاهر، فالعبادة هي إطاعة الأمر، الائتمار بأمر أحد هو عبادة لذلك الأحد، أو لم يرد في الحديث «مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ: فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَقَدْ عَبَدَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ»^(١)!

الذي يتبع شخصاً يعني أنّه يعبد ذلك الشخص، فإن كان هذا الإتياع عن أمر الله - جلّ وعلا - فهو عابد لله، وإلا فهو عابد لغير الله:

هناك (عبدة للشيطان)، ولهم طقوس، وذاك واضح دون أيّ لبس وخفاء، وهي من العبادة الظاهرة للشيطان، لكنّ اللبس والخفاء يكمن في الطرف الآخر: فهناك عبدة خفيّون يعبدون الشيطان بفعلهم وتنفيذهم مراد الشيطان وطاعتهم له فيما يريد، وهناك

(١) الكافي ٦ / ٤٣٤، (باب الغناء)، ح ٢٤.

عبدة القيم المادية المنحطّة، وهناك عبدة الأهواء، وهناك عبدة الشهوات، وهناك عبدة المال والدينار والدرهم والذهب والفضة، وهناك عبدة الوجاهة والسمعة وحبّ الظهور:

- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١).

- ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢).

- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٣).

ماذا تعني (العبادة)؟، وماذا تعني كلمة (العابد)؟!

أولا تعني (المطيع)؟!؛ إذا.. كل شخصٍ محورُ عمله هواه أو شهوته أو وجاهته أو أمر فلان أو غيره فهو عابد لذلك الهوى أو تلك الشهوة أو تلك الوجاهة أو ذلك الإنسان، فلا يصحّ منه قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فقد أشرك في عبادته.

الشرك مسلك خطير وخفي!!

الشرك مسلك خطير في عمل بني آدم، قد يكون خفياً لا يستشعره الإنسان.

أنت تتصوّر أنّك مخلص في عبادتك لله، لكن.. بعض الأوقات دقق النظر، أمعن النظر وأنعمه تجد نوعاً من الشوب، هناك شائبة رياء تجعلك في عملك مشرّكاً؛ ولذلك تقول الآية الشريفة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٤).

إنّ المذهل في هذه الآية العظيمة أنّها تتكلّم عن (المؤمنين)، لا عن الكفار أو المنافقين، وأنّ أكثر المؤمنين بالله، مع كونهم مؤمنين بلغوا تلك المرتبة الشامخة

(١) سورة يس، الآية ٦٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣١.

(٣) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

(٤) سورة يوسف، الآية ١٠٦.

السامقة، إلا أن شرًا خفيًا كدبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء؛ استطاع أن يتسلل سرًا إلى وسط القلاع العتيدة في نفوسهم وقلوبهم!!

أولم يقل أحد المحافظين على صلاة الجماعة لسنين طوال: «قضيت ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد جماعة في الصف الأول؛ لأنني تأخرت يومًا لعذر، وصليت في الصف الثاني، فاعترتني خجلة من الناس؛ حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان يسرني، وكان سبب استراحة قلبي من ذلك من حيث لا أشعر»^(١)!

وهذا الانتباه والالتفات.. من رحمة الله تعالى بعباده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢)، فالله لا ينفك ينبه الإنسان، ويبعث له أجراس تنبيه لعلها توقظه من غفلته وسباته، وتحثه على تدارك عثراته، وحتى بعد مضي ثلاثين سنة على تماديه سادرًا في العمل الخاطيء، فإن الله لا يتركه، وإنما ينهيه، ويقول له: انتبه، التفت، حاذر، ارجع، تدارك.

والرحمة الأكثر أن ينبه الله الإنسان دائمًا وأبدًا.

تنبيه الله دائم، ولكن الغفلة تلفنا!!

والحقيقة أن التنبيه الإلهي موجود بشكل دائم ومستمر وأبدي، ولكن المشكلة تكمن فينا نحن، تكمن في الغفلة التي تلفنا بأسارها.

(١) جامع السعادات ٢ / ٤٠٣.

وعلق الشيخ محمد مهدي النراقي على هذه الحكاية فيقول: «وهذا دقيق غامض، وكلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقُلَّ مَنْ يَنْتَبِهْ لَهُ، والغافلون عنه يرون حسناتهم في الآخرة كلها سيئات، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [سورة الجاثية، الآية ٣٣]، ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية ٤٧]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف، الآية ١٠٣-١٠٤]» [جامع السعادات ٢ / ٤٠٣].

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

فالله الجواد الكريم الرحمن الرحيم الحنان المنان، من فيض رحمته وحنانه الدافق ينبّه الإنسان دائماً وأبداً، لكنّ الإنسان هو الذي لا يلتفت، وأحياناً تحجبه الذنوب عن الالتفات: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١)، وأحياناً -والعياذ بالله- لا يريد أن يلتفت، وبعبارة أصوب: يستكبر ويصدّ ويعرض عن المنبهات: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾^(٢).

هناك منبهات كثيرة تنبّه الإنسان، منها:

١- النفس اللوامة:

فقد أودع الله تعالى داخل الإنسان نفساً لوامة تلومه باستمرار: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾^(٣)، هي ما نعبّر عنه بـ (الضمير الحي)، و(وخز الضمير)، و(الوجدان)، و(الوازع الداخلي)، و(الباعث الذاتي).

لكنّ هذه النفس اللوامة إذا لامت الإنسان المرّة والاثنتين والثلاث، ثمّ لم يُصغَ إليها؛ سكتت!!، كما تفعل أنت مع ابنك إذا نبّهته مرّة وعشر، وتكلّمت معه ولم يصغ إليك، ولم يطعك، وضرب بنصائحك عرض الحائط، فقد تسلّم أمرك إلى الله وتقول: لقد أدّينا دورنا، لقد قمنا بواجبنا، و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٤)، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾^(٥).

فما تقوم به أنت تجاه ولدك من تنبيه وتذكير، ثمّ إيكال الأمور إلى الله، يحصل مع المنبهات والمواعظ، فهي تدقّ الأجراس تلو الأجراس، وتكرّر عليك، وتعود وتلحّ، فإن وجدت تجاوباً من نفسك سرى مفعولها، وإن تركتها، وأعرتها أذنًا صماء،

(١) سورة المطففين، الآية ١٤.

(٢) سورة السجدة، الآية ٢٢.

(٣) سورة القيامة، الآية ١-٢.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

(٥) سورة الغاشية، الآية ٢١-٢٢.

ستفتقر وتتجمّد، ويخبو صوتها الهادر وألقها الوهاج: «مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ»^(١).

٢- آيات الذكر الحكيم:

لقد تنزلت آيات القرآن الكريم تترى على العباد منبهة موقظة، فأبى بعضهم إلا أن يضع على قلبه غشاء يمنع نفاذ نورها إلى قلبه: ﴿حَمَّ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّنَا غَامِلُونَ﴾^(٢).

٣- صفعات الواقع الخارجي:

وأحياناً يظّل الإنسان سادراً في غفلته، لا يلتفت إلى تنبيهات ضميره الداخلي ونفسه اللوامة، ولا إلى آيات الذكر الحكيم، فهنا تأتيه صفعات قاسية من الواقع؛ يرسلها الله له؛ حناناً ورحمة؛ لعله يفيق على وقع فؤوسها العاتية: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

(١) نهج البلاغة / ١٢٣، الخطبة ٩٠ (من خطبة له تشتمل على قدّم الخالق، وعظم مخلوقاته، ويختمها بالموعظة).

(٢) سورة فصلت، الآية ١-٥.

(٣) سورة يونس، الآية ٢٢-٢٣.

الحذر الحذر من شرك العبادة:

علينا أن نحذر شرك العبادة، وأن لا نتصور أن شرك العبادة هو عبادة صنم ظاهر، لا..، فشرك العبادة شيء أعم من ذلك.

نحن في كل شيء - وبشكل دائم - أمام مفترق طرق: قد نطيع الله - سبحانه وتعالى - فيها؛ فنكون عابدين لله، وقد نترك ونعصي الله، ونلهث خلف آخر، قد يتمثل في شخص نطيعه، أو هوى نتبعه، أو غير ذلك، فنكون عابدين لغير الله!!، ولعل هذا أحد أسرار الأمر الإلهي بتكرار هذه الآية في كل صلواتنا، وتكرارها ما لا يقل عن عشر مرات في اليوم في صلواتنا الخمس اليومية، وسر مجيء الفعل في الآية بالمضارع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١)، الدال على التجدد والحدوث.

﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

وبعد أن حصرنا العبادة في الله وحده، وقلنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ نقول: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فنحصر الاستعانة - أيضًا - بالله - جلّ وعلا -؛ لأنه لا حول ولا قوة لأيّ شيء إلا بالله، كلّ ما صدق عليه اسم (الشيء) لا حول ولا قوة له من ذاته، وحوله وقوته مستمدة من الله.

والإنسان الذي وهبه الله نوعًا من القدرة، ومنحه نوعًا من الاختيار، لو سلبه الله تلك القوة والمنحة لانهى، مثله مثل لعبة تشتغل بالبطارية، فلو رفعت بطايرتها لتوقفت، ومثل الجهاز الذي يعمل بالكهرباء، فلو فصلت عنه التيار لتحوّل إلى جسم ساكن.

فلو أنّ الله - جلّ وعلا - يرفع مشيئته عن إنسان في هذا الكون لما كان لهذا الإنسان حول ولا قوة؛ ولذلك نتعلّم أن نقول في صلواتنا دومًا: (بحول الله وقوته أقوم وأقعد، وأركع وأسجد)، يعني قيامك وقعودك، ركوعك وسجودك، إنّما هو بحول من

(١) سورة الفاتحة، الآية ٥.

الله وقوة، وهذا أمر دقيق يحتاج أن تلتفت إليه، لا تعتقد أن عندك شيئاً ذاتياً من نفسك، فمالك هذا الحول وهذه القوة يستطيع في لحظة واحدة أن يسلبك ذلك، فتعود فرداً ضعيفاً ﴿وَنَرِيْهُ مَا يَّقُوْلُ وَيَأْتِيْنَا فَرْدًا﴾^(١).

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

بعد أن استعذنا بالله من الشيطان الرجيم، وذكرنا البسملة التي تعني استعانتنا بالله، وحمدنا الله رب العالمين الرحمن الرحيم، صرنا مؤهلين أن نقدم دعاءنا بين يدي الله؛ لذلك أقبلنا عليه - جلّ وعلا - بطلب الهداية، ورحنا نتضرّع ونقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١).

الهداية مراتب ودرجات:

ولأن الهداية ذات مراتب طويلة، صحّ لواجد كل مرتبة أن يطلب المرتبة التي فوقها.

وهنا يتكرّر الإشكال ذاته الذي رأيناه في العبادة، ودفع بعضهم إلى القول: (نحن جميعاً موحّدون، ولا نعبد أحداً إلا الله، فما فائدة هذا الحصر؟، وهل يمكن للإنسان أن يعبد غير الله؟!)، فأعادوا السؤال ذاته وقالوا: لماذا نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ونحن آتون لكي نصلي، أي أننا على الصراط؟!

والحقيقة أن الهداية مراتب، فهل تتساوى مرتبة شخص عادي من الناس مع مرتبة علي بن أبي طالب - صلوات الله وسلامه عليه -؟!

(١) سورة الفاتحة، الآية ٦.

بل.. هل تتساوى درجة هداية الكثيرين منّا مع درجة المقداد، وسلمان، وعُمّار، وأبي ذرٍّ؟!

لا تقل: (أنا مهتدٍ، وذاك مهتدٍ؛ فالكُلُّ متساوٍ في الهداية)؛ لأنّ الهداية مراتب طولية، والله - جلّ وعلا - يقول: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾^(١)، يعني أنّ هناك زيادة في الهدى، هناك زيادة في البصيرة، هناك سلّم به مراتب تصاعدية، فأنت في كلّ يوم، بل في كلّ يوم عدة مرّات، تسأل الله المرتبة الأعلى، إلى أن تصل إلى مرتبة الهداية التامة.

لذلك نسأل الله الهداية دائماً إلى الصراط المستقيم، وهو الصراط إلى الله - جلّ وعلا -، وندعو ونلجّ ونقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

صراط الله واحد، وسبل الشيطان كثيرة:

والصراط إلى الله واحد، وفي مقابله هناك سبل متعدّدة، هي حبال الشيطان ومكائده وخططه؛ ولذلك نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ - بالإفراد -.

وفي آية أخرى يبيّن الله صراطه المستقيم، وأنّه واحد، وأنّ سبل الشيطان كثيرة، فيقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢).

لماذا الصراط المستقيم؟

أنواع الخطوط ثلاثة:

- ١- الخطّ المستقيم.
- ٢- الخطّ المنحني.
- ٣- الخطّ المتعرج.

(١) سورة محمد، الآية ١٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

والخط المستقيم هو أقصر الخطوط الموصلة بين نقطتين، كما يفيدنا علم الرياضيات.

ولأنّ الله - جلّ وعلا - هو العالم بالطريق الموصل إليه، ورحمة منه بالعباد، وضع للناس صراطاً وطريقاً واضحاً وقصيراً يوصل إليه، وعيّن الصراط الذي يجب أن نسلكه حتى نصل إليه، والطرق الأخرى غيره ما هي إلا ضلال وانحراف وتخبط ومناهة، تضعيع الوقت والجهد، ولا توصل إلى الله، بل تضعيع الله!!

إنّ الله - سبحانه وتعالى - كما عيّن لنا الأهداف والغايات العبادية، وضع لنا الطريق الموصل إليها، فالغاية والوسيلة كلاهما إلهي، لا بشري؛ وهذا معنى قولنا: إنّ العبادات أمور توقيفية لا تؤخذ إلا من الشارع الحكيم.

طريق الله الوحيد هو طريق الأئمة المعصومين:

وطريق الله الوحيد هو طريق الأئمة المعصومين - صلوات الله وسلامه عليهم -؛ ولذلك نقول عنهم: «فكانوا هم السبيل إليك، والمسلك إلى رضوانك»^(١).

لا تعتقد أنّ هناك سبيلاً إلى الله غير سبيل أئمة أهل البيت - صلوات الله وسلامه عليهم -، فهم الباب إلى الله؛ ولذلك يقول الحديث الشريف واصفاً أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «وسدّ الأبواب إلا بابه، ثمّ أودعه علمه وحكمته، فقال: (أنا مدينة العلم، وعلي بابها، فمن أراد المدينة والحكمة، فليأتها من بابها)»^(٢).

وروى محمد بن سنان، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «نحن جنب الله، ونحن صفوة الله، ونحن خيرة الله، ونحن مستودع موارث الأنبياء، ونحن أمناء الله، ونحن وجه الله، ونحن آية الهدى، ونحن العروة الوثقى، وبنا فتح الله،

(١) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٥، الباب ٧ (باب زيارة الحجّة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)، ذيل الحديث ١، (دعاء الندبة).

(٢) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٥، الباب ٧ (باب زيارة الحجّة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)، ذيل الحديث ١، (دعاء الندبة).

وبنا ختم الله، ونحن الأولون، ونحن الآخرون، ونحن أخيار الدهر ونواميس العصر، ونحن سادة العباد وساسة البلاد، ونحن النهج القويم والصراط المستقيم، ونحن علة الوجود وحجة المعبود، لا يقبل الله عمل عامل جهل حقنا. ونحن قناديل النبوة ومصابيح الرسالة، ونحن نور الأنوار وكلمة الجبار، ونحن راية الحق التي من تبعها نجا، ومن تأخر عنها هوى، ونحن أئمة الدين وقائد الغر المحجلين، ونحن معدن النبوة وموضع الرسالة، وإلينا تختلف الملائكة، ونحن سراج لمن استضاء، والسبيل لمن اهتدى، ونحن القادة إلى الجنة، ونحن الجسور والقناطر، ونحن السنام الأعظم. وبنا ينزل الغيث، وبنا ينزل الرحمة، وبنا يدفع العذاب والنقمة، فمن سمع هذا الهدى فليتفقد في قلبه حبنا: فإن وجد فيه بغض لنا والإنكار لفضلنا؛ فقد ضلّ عن سواء السبيل؛ لأنّا حجة المعبود، وترجمان وحيه، وعيبة علمه، وميزان قسطه. ونحن فروع الزيتون، وربائب الكرام البررة، ونحن مصباح المشكاة التي فيها نور النور، ونحن صفوة الكلمة الباقية إلى يوم الحشر المأخوذ لها الميثاق والولاية»^(١).

ونقرأ في (دعاء الندبة) في وصف علي عليه السلام وحاله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله: «وكان بعده هدى من الضلال، ونورا من العمى، وحبل الله المتين، وصراطه المستقيم»^(٢)، كما نقول في الدعاء ذاته - ونحن نخاطب مولانا صاحب العصر والزمان -: «يا ابن الصراط المستقيم، يا ابن النبأ العظيم، يا ابن من هو في (أم الكتاب) لدى الله عليّ حكيم»^(٣).

(١) بحار الأنوار ٢٦ / ٢٥٩، الباب ٥ (باب جوامع مناقبهم وفضائلهم عليه السلام)، ح ٣٦.
(٢) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٦، الباب ٧ (باب زيارة الحجة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)، ذيل الحديث ١، (دعاء الندبة).
(٣) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٨، الباب ٧ (باب زيارة الحجة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)، ذيل الحديث ١، (دعاء الندبة).

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

تحديد الصراط المستقيم:

في الآية السابقة طلبنا من الله - جلّ وعلا - أن يهدينا الصراط المستقيم، وفي هذه الآية الشريفة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يعلمنا الله أن نسعى لوضوح الرؤية المعرفية لدينا، وأن نحدّد - بشكل أجلى وأدقّ - هذا الصراط المستقيم، ونسعى للفرز بينه وبين الخطوط الأخرى، ورفع حالة الغبش والتداخل بين الخطوط، ففي كلّ شيء، وإزاء كلّ شيء هناك خطّ مستقيم واحد، وخطوط أخرى، ومن يسير في أيّ خط دون الفحص والتنقيب، فقد يسلك الطرق المنحرفة المعوجّة، أو يدلّس عليه البعض، فيجعله يسلك خطّاً منحرفاً، وهو يظنّ أنّه يسلك الصراط المستقيم.

الإنسان والطرق الثلاثة:

إنّ الصراط المستقيم الذي نبتغيه - وكما تعلّمنا الآية الشريفة - هو ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١).

(١) سورة الفاتحة، الآية ٧.

أي أن هناك ثلاثة طرق هي:

١ - طريق الذين أنعم الله عليهم.

٢ - طريق المغضوب عليهم.

٣ - طريق الضالين.

فأنت تسأل الله أن يهديك صراط الذين أنعم الله عليهم، وأن يقيك طريق المغضوب عليهم، وطريق الضالين..

من هم الذين أنعم الله عليهم؟

وفي آيات قرآنية أخرى أوضح الله - جلّ وعلا - من هم الذين أنعم الله عليهم، وذكر نماذج ومصاديق إجرائية لهذا الخط، ومنهم:

- النبيون والصديقون والشهداء والصالحون:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^(١).

- الأنبياء:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾^(٢).

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

(٢) سورة مريم، الآية ٥٨.

- المؤمنون:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

من هم المغضوب عليهم؟

وكما بيّن الله تعالى لنا في كتابه الكريم من هم الذين أنعم الله عليهم، بيّن لنا مصاديق المغضوب عليهم، ومنهم:

- المنافقون والمشركون:

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٢).

- المشركون:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾^(٣).

- اليهود:

﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(٤).

(١) سورة المائدة، الآية ٢٣.

(٢) سورة الفتح، الآية ٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٧١.

(٤) سورة المائدة، الآية ٦٠.

- القتلة:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^(١).

من هم الضالون؟

وعلى نحو إبراز القرآن الكريم لنماذج الذين أنعم الله عليهم، ونماذج المغضوب عليهم، ألهمنا مجموعة من نماذج ومصاديق الضالين، ومنهم:

- الكفار والمشركون:

- ﴿وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾^(٢).

- ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾^(٣).

- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾^(٤).

- القانطون:

- ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(٥).

(١) سورة النساء، الآية ٩٣.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٨٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٧٧.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٨.

(٥) سورة الحجر، الآية ٥٦.

- الذين يكفرون بعد إيمانهم:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ اِزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾^(١).

- المكذبون:

- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآ كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾^(٢).

- ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٠.

(٢) سورة الواقعة، الآية ٥١-٥٥.

(٣) سورة الواقعة، الآية ٩٢-٩٤.



الأدب العاشر

الركوع

صفات الله

أقسام الصفات الإلهية:

تنقسم صفات الله - جلّ وعلا - إلى قسمين هما:

١- الصفات الثبوتية (صفات الكمال).

٢- الصفات المنتفية السلبية (صفات الجلال) ^(١).

وتنقسم الصفات الثبوتية الكمالية - بدورها - إلى قسمين هما:

أ- صفات الذات (الصفات الذاتية).

ب- صفات الفعل (الصفات الفعلية الإضافية).

المقصود من (صفات الذات) و(صفات الفعل):

والمقصود بـ (صفة الذات) هي تلك الصفة المأخوذة عن مقام ذاته - جلّ وعلا-، مثل صفة (الحياة، والقدرة، والعلم، والسمع، والبصر، والأزلية والأبدية)، فالله - سبحانه وتعالى - حيّ، قدير، عليم، سميع، بصير، أزلي، أبدي.

(١) وقد استدلل البعض على هذا التقسيم الثنائي بقول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمن، الآية ٢٦-٢٧].

وهناك صفات يُطلق عليها (صفات الفعل)، أي أنّها مشتقة من مقام فعله، كقولنا: أنّ الله (خالق)، فالخالقية إنّما اشتقت من مقام فعله، أي فعل وعملية (الخلق)، ومثلها صفات: القيوم، والرازق، والباسط، والمعطي، والمانع، والضارّ، والنافع، والغفور، والرحيم، والمحيي، والمميت.

كيف نميّز بين (صفات الذات) و(صفات الفعل)؟

والضابط في التمييز بين (صفة الذات) و(صفة الفعل) هو: أنّ صفة الذات لا يمكن سلبها عن الله - جلّ وعلا - على أيّ حال من الأحوال، أما صفة الفعل فيمكن سلبها عنه بحيثية ما.. كالزمان أو المكان أو الجهة:

فالله كان ولا يزال وسيبقى (حيّاً)، ولا يمكن أن نقول: إنّهُ لم يكن حيّاً، ثمّ صار حيّاً، فهي صفة ذاتية، ومثلها: القدير، العليم، السميع، البصير، الأزلي، الأبدي.

ولكنّ الله قد يكون خالقاً، وقد لا يكون خالقاً، فنقول: منذ الأزل كان الله ولا خلق، فلم يكن خالقاً، والله خلق بشراً في الأرض، ولم يخلق بشراً في الشمس، والله خلق الشيء الفلاني، ولم يخلق الشيء الفلاني، ونقول: لم يرزق الله فلاناً ولدّاً عشر سنين، ثمّ رزقه، والله لم يرزق فلاناً ولدّاً في القطيف، ثمّ رزقه في الأحساء، والله رزق فلاناً مالاً، ولم يرزق فلاناً الآخر مالاً، فيصحّ منك أن تسلب الصفة عنه - جلّ وعلا -.

ومعنى هذا أنّ صفتي (الخالق) و(الرازق) من صفات الفعل، ومثلهما: الباسط، والمعطي، والمانع، والضارّ، والنافع، والغفور، والرحيم، والمحيي، والمميت..

والخلاصة: أنّ ما لا يصحّ سلبه فهو من صفات الذات، وما يصحّ سلبه فهو من صفات الفعل^(١).

(١) يقول السيّد أبو القاسم الخوئي (قده):

«والفارق بين صفات الله الذاتية/ وصفاته الفعلية:

أنّ صفات الله الذاتية هي: التي يستحيل أن يتصف سبحانه بنقيضها أبداً، إذّا.. فهي التي لا يصحّ سلبها عنه في حال.

الإرادة) من صفات الفعل:

وصفة (الإرادة)، أي كون الله مريدًا، هل هي من صفات الذات، أو من صفات الأفعال؟

واقع الأمر أنَّ هذه الصفة مما وقع فيه النزاع بين الفلاسفة وعلماء الكلام، إلا أنَّ الأصحَّ هو ما تبناه جمهور فقهاءنا - رضوان الله عليهم - من كون الإرادة صفة للفعل، وليست صفة للذات، فهي من الصفات الفعلية الإضافية، وليست من الصفات الذاتية الثبوتية؛ استنادًا إلى الدليل النصي النقلي، والضابطي القاعدي:

١- الدليل النصي النقلي:

فمن الدليل النصي قول الإمام الصادق عليه السلام: «خَلَقَ اللَّهُ الْمَشِيئَةَ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ بِالْمَشِيئَةِ»^(١)، وقوله عليه السلام: «خَلَقَ اللَّهُ الْمَشِيئَةَ بِنَفْسِهَا، ثُمَّ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ بِالْمَشِيئَةِ»^(٢)، وقوله عليه السلام: «الْمَشِيئَةُ مُحَدَّثَةٌ»^(٣)، وقول الإمام الرضا عليه السلام: «الْمَشِيئَةُ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ مُرِيدًا شَائِيًا فَلَيْسَ بِمُوحِّدٍ»^(٤).

ومثال ذلك: العلم والقدرة والحياة، فالحل - تبارك وتقدس - لم يزل ولا يزال عالمًا قادرًا حيًّا، ويستحيل أن لا يكون كذلك في حال من الأحوال.
وأنَّ صفاته الفعلية هي: التي يمكن أن يتصف بها في حال، وبتقيضها في حال آخر.
ومثال ذلك: الخلق والرزق، فيقال: إنَّ الله خلق كذا، ولم يخلق كذا، ورزق فلانًا ولدًا، ولم يرزقه مالا.

وبهذا يظهر جليًّا أنَّ (التكلم) إنما هو من الصفات الفعلية؛ فإنه يُقال: (كَلَّمَ الله موسى، ولم يكلم فرعون)، ويُقال: (كَلَّمَ الله موسى في جبل طور، ولم يكلمه في بحر النيل) [البيان في تفسير القرآن / ٤٠٦].

- (١) بحار الأنوار ٤ / ١٤٥، الباب ٤ (باب القدرة والإرادة)، ح ١٩.
- (٢) الكافي ١ / ١٦٢، الباب ٣٦ (باب الإرادة أنَّها من صفات الفعل، وسائر صفات الفعل)، ح ٤، وبحار الأنوار ٤ / ١٤٥، الباب ٤ (باب القدرة والإرادة)، ح ٢٠.
- (٣) الكافي ١ / ١٦٣، الباب ٣٦ (باب الإرادة أنَّها من صفات الفعل، وسائر صفات الفعل)، ح ٧.
- (٤) بحار الأنوار ٤ / ١٤٥، الباب ٤ (باب القدرة والإرادة)، ح ١٨.

فالمشيئة - أي الإرادة - مخلوقة له - جلّ وعلا -، وليست صفة قديمة، إذاً هي صفة قائمة بفعله.

٢. الضابط القاعدي:

ومن الدليل القاعدي أنّ ضابطنا في التمييز بين (صفة الذات) و(صفة الفعل) ينطبق على صفة الإرادة، فنستطيع أن نقول: إنّ الله أراد الشيء الفلاني، ولم يرد الشيء الفلاني، أراد من الناس الإيمان، ولم يرد منهم الكفر، أراد منهم الطاعة، ولم يرد منهم المعصية، و(صحّة السلب) هذه تعني أنّ صفة الإرادة صفة من صفات فعله - جلّ وعلا -، وليست من صفات ذاته.

أقسام الإرادة الإلهية:

تحدّثنا فيما سبق عن الإرادة، وقلنا: إنّها من صفات الفعل، وليست من صفات الذات، والآن نريد أن نتحدّث عن أقسام الإرادة نفسها.

تنقسم إرادة الله - جلّ وعلا - إلى قسمين: إرادة تكوينية، وإرادة تشريعية.

١. الإرادة التكوينية:

المقصود بـ (الإرادة التكوينية): الإرادة المتعلقة بالكون من ناحية الإيجاد والتكوين، وضابط الإرادة التكوينية: أن لا يتخلّف فيها مراد الله - جلّ وعلا - عن إرادته، فمتى ما أراد شيئاً وجد.

والإرادة التكوينية هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١)، وهي المقصودة في قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «أَمْرُهُ بَيْنَ

(١) سورة يس، الآية ٨٢.

الْكَافِ وَالنُّونِ...»^(١).

وطبعاً التعبير بـ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ و(أمره بين الكاف والنون)، تعبير من ضيق الخناق؛ لأنه لا يمكن أن تصل أفهامنا وعقولنا إلى المعنى التام لإرادته - جلّ وعلا -، وكيف يحيط المحدود باللامحدود؟!، وكيف يحيط المتناهي باللامتناهي؟!، وكيف يحيط المخلوق بالخالق؟!، جلّ ربّي وعلا.

فنقول: إرادته بين الكاف والنون، إذا أراد شيئاً تكويناً يقول له: كن.. فيكون، لا فاصلة بين الإرادة والتحقيق، لا فاصلة بين أمره وبين وجود الشيء في الخارج.

طبيعة القابل وكمال الفاعل:

إنّ ما يترأى فيه وجود فواصل زمنية في تحقّق الإرادة الإلهية، كخلق الله - جلّ وعلا - السماوات والأرض في أيام متعددة، أو خلقه لشيء بعد آخر، ثمّ استوائه على العرش، وما شاكل...، هذا لطبيعة في (القابل) لا لنقص في (الفاعل) - جلّ وعلا -.

وفي ظلال التفريق بين (طبيعة القابل) و(كمال الفاعل) نفهم مثل قوله تعالى:

- ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ

(١) بحار الأنوار ٢٥ / ١٧٢، الباب ٤ (باب جامع في صفات الإمام، وشرائط الإمامة)، ح ٣٨ (من كلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام لطارق بن شهاب عن صفات الإمام وشرائط الإمامة)، وشرح أصول الكافي ٢ / ٧٥.

كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

لا تخضعن لمخلوق على طمع
فإنّ ذلك وهنٌ منك في الدين
واسترزق الله ممّا في خزانته
فإنّما الأمر بين الكاف والنون
[الإمام علي بن أبي طالب، ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، جمع: سالم شمس الدين / ١١٣].

كَرَّهَا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾.

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

وذيل هذه الآية الشريفة يشير إلى نوعي الإرادة الإلهية: فكلمة ﴿الْخَلْقُ﴾ تشير إلى عالم الخلق، أي عالم التكوين. وكلمة ﴿الْأَمْرُ﴾ تشير إلى عالم الأمر، أي عالم التشريع، والله مالك العالمين: عالم ﴿الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾.

أو لم يأت أحدهم ويسأل الإمام أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه - :
«هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن يصغر الدنيا أو يكبر البيضة؟!»،
قال: إن الله - تبارك وتعالى - لا ينسب إلى العجز، والذي سألتني عنه لا يكون» (٣).

ليس لأن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - غير قادر على فعله، وإنما لأن هذا الشيء بطبيعته يأبى أن يكون...، وإلا فالله قادر على كل شيء، لكن هذا ليس لديه قابلية إفاضة القدرة من الله عليه، فالعجز في (القابل) لا في (القادر).

ونوضح ذلك بمثالين تقريين:

- لو كان عندك إبريق ماء، وأردت أن تسكبه في كأس، فأنت قادر على ذلك، لكن الكأس - بما فيه من محدودية - لا يستطيع احتواء الماء كله.

- ولو أردت أن تعلم ولدك الذي لم يتجاوز بعد السنة الأولى من العمر مسائل الجمع والطرح والضرب والقسمة، فأنت قادر على ذلك، ولكن.. أنني لولدت في ذاك

(١) سورة فصلت، الآية ٩-١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٥٤.

(٣) التوحيد/ ١٣٠، الباب ٩ (باب القدرة)، ح ٩، وبحار الأنوار ٤/ ١٤٣، الباب ٤ (باب القدرة والإرادة)، ح ١٠.

العمر الفتي جدًا أن يفهم هذه الأمور؟!!!

المثال الأول حسّي: تريد فيه أن تُدخل الماء الكثير الذي في الإبريق في كأس صغير.
والمثال الثاني معنوي: تريد فيه أن تُدخل العلم بالمسائل الحسابية في ذهن لم
يكتمل نموه العقلي بعد.

ولذلك ورد في حديث آخر ينقله الإمام الصادق عليه السلام يقول: «جاء رجل
إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: أيقدر [الله] أن يُدخل الأرض في بيضة، ولا يصغر
الأرض، ولا يكبر البيضة؟!، فقال: ويلك، إنّ الله لا يوصف بالعجز، ومن أقدر ممّن
يلطف الأرض، ويعظم البيضة»^(١).

كما ورد أنّ رجلاً جاء إلى الإمام الرضا عليه السلام فقال: «هل يقدر ربك أن يجعل
السموات والأرض وما بينهما في بيضة؟!، فقال [الإمام عليه السلام]: نعم...، وفي أصغر
من البيضة، قد جعلها الله في عينك، وهي أصغر من البيضة؛ لأنك إذا فتحتها عاينت
السماء والأرض وما بينهما، ولو شاء لأعماك عنها»^(٢).

فإذا كان الحديث الأول المروي عن أمير المؤمنين ينظر إلى مفهوم (قدرة القادر
وعجز القابل)، فإنّ الحديث الثاني الذي رواه الإمام الصادق عليه السلام، عن أمير المؤمنين
عليه السلام، والثالث المروي عن الإمام الرضا عليه السلام يريدان أن يركزا على (شمول القدرة
الإلهية)، وعدم تطرّق العجز لها بحال، أي أنّهما يركزان على سعة مفهوم (القادر)،
وعدم محدوديته.

والحديث حول إرادة الله وقدرته وما أشبه ذلك فيه تشعب، ونحن إنّما ذكرنا
هذا على سبيل التقديم لموضوعنا حول الإرادة التكوينية.

(١) التوحيد / ١٣٠، الباب ٩ (باب القدرة)، ح ١٠، وبحار الأنوار ٤ / ١٤٣، الباب ٤ (باب القدرة
والإرادة)، ح ١١.

(٢) التوحيد / ١٣٠، الباب ٩ (باب القدرة)، ح ١١، وبحار الأنوار ٤ / ١٤٣، الباب ٤ (باب القدرة
والإرادة)، ح ١٢.

الإرادة التكوينية والجبر:

إذا.. إرادة الله التكوينية هي إرادته المتعلقة بالكون، متى ما أراد الله شيئاً في الكون والخلق وعالم الإيجاد صار الشيء في الخارج، ولا ننسى أنّ إرادة الله متعلّقة بالأشياء، وكلّ شيء بحسبه، إرادته متعلّقة بأفعالنا على نحو التكوين، يعني أنّنا لا نستطيع فعل شيء دون إرادته ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(١).

قد تقول:

إذا.. نحن مجبورون مكرهون على أفعالنا؟!، فما دامت الإرادة التكوينية هي التي تعلّقت بأفعال البشر، والإرادة التكوينية ميزتها أنّ الفعل والمراد لا يتخلّف عن الإرادة، إذا.. فعلي وعملي يجب أن لا يتخلّف عن إرادة الله!!، أوليس هذا ما قاله الشاعر المعروف عمر الخيّام:

دری الله قَدْماً بارتشافی للطلّ

فإنّ أجتنبها ينقلب علمه جهلاً^(٢)

يقول الخيّام: شربي للخمر كان موجوداً في علم الله الأزلي، فلو لم أشرب الخمر لانقلب علم الله إلى جهل، فأنا لابدّ أن أشرب حتى يتحقّق العلم الأزلي القديم، حيث (دری الله قَدْماً بارتشافی للطلّ)!!

وكلام الخيّام هذا إشارة إلى نوع معضلة في الفكر الفلسفي تشي بالجبر الإلهي، وتوحد بين العلم والإرادة، وأنّ كلّ معلوم لدى الله فهو مراد، وما دام علمه لا ينقلب جهلاً، فمراده لابدّ أن يتحقّق.

فأجابه بعض الحكماء بما مؤداه: أنّ الله - جلّ وعلا - إنّما علم الشيء، وعلمه بالشيء لا يعني تحقّقه على نحو العلية.

(١) سورة الإنسان، الآية ٣٠.

(٢) الشاعر عمر الخيّام، رباعيات عمر الخيّام، تعريب: أحمد الصافي النجفي / ٢٠٦ (الرباعية ٢٥٠).

والعلم شيء مختلف عن الإرادة، فالعلم الإلهي قديم، والإرادة حادثة، وعلم الله بأن فلاناً سيكفر أو سيعصي لا يعني أنه يريد لعباده الكفر والعصيان، ومن ثمّ فليس هناك جبر، وهناك مسؤولية للإنسان عن فعله، وسيحاسبه الله يوم القيامة على ما صدر منه:

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١).

وحتى لا ندخل في متاهات نقول: إن تعلّق إرادة الله - جلّ وعلا - بفعلك إنّما هو تعلّق بالفعل بما هو مراد لك، يعني أنّ إرادته للفعل على نحو التكوين، ولكنه أراد أن يصدر الفعل منك على نحو الاختيار، وبالتالي لو صدر الفعل بلا اختيار لكان خلاف إرادته - جلّ وعلا -، أراد الله تكويناً، لكن أراد بما هو موسوم ومتصف بإرادتك، فلو وقع الفعل في الخارج دون إرادتك لكان خلافاً لما أراد الله - جلّ وعلا -، وبذلك تُحلّ هذه المعضلة التي حصلت في فكر عمر الخيام.

هذه هي الإرادة التكوينية.

٢- الإرادة التشريعية:

أما (الإرادة التشريعية) فهي: ما أراد الله على نحو التشريع والأحكام، وأرسل على أساسه رسله وأنبياءه، وسنّ السنن، وشرع الشرائع، وأنزل الكتب.

كلّ هذه إرادات تشريعية، فالله أراد منّا الصلاة على نحو التشريع، وأراد منّا الزكاة على نحو التشريع، وأراد منّا الحجّ على نحو التشريع.

وضابط الإرادة التشريعية: أنّ المراد قد يتخلّف عن الإرادة فيها، فالله أراد ذلك، وبالتالي فالله يريد منك الالتزام بالتشريع الذي سنّه، ولكنك تستطيع أن تخالف الأمر

(١) سورة الزمر، الآية ٧.

الإلهي، ولا تمتثل، فالله يريد منك الصلاة، وقد تترك الصلاة ولا تصلي!!، ويريد منك أن تزكي، وقد تترك الزكاة ولا تزكي، ويريد منك الحج، وقد تترك الحج ولا تحج!!؛ لأن إرادته للصلاة والزكاة والحج جاءت على نحو التشريع.

دور الإنسان تجاه الإرادتين: التكوينية والتشريعية:

الإرادة الإلهية بنوعيهما: التكوينية والتشريعية تعطينا نوعاً من الانسجام مع موضوع الخضوع لإرادة الله - جلّ وعلا -، بمعنى أن المطلوب من الإنسان في حياته الدنيا أن يكون خاضعاً لإرادتي الله: التكوينية والتشريعية.

فإذا أراد الله لك شيئاً على نحو التكوين، فالمطلوب منك أن تخضع لهذه الإرادة، وهو الذي نعبر عنه بـ (الرّضا بالقضاء والقدر)، ونعبر عنه - كذلك - بـ (التسليم)، ونعبر عنه بـ (الخضوع)، ونعبر عنه بـ (الانقياد والطاعة).

وإذا أراد الله منك شيئاً على نحو التشريع، فيجب أن تكون راضياً أيضاً، وبالتالي لو أن الإنسان رفض حكماً شرعياً واحداً؛ لكان بمثابة رفض لإرادة الله - جلّ وعلا -.

ومن هنا فما يُتناقل على ألسن البعض من استهزائهم - والعياذ بالله - ببعض التشريعات، أو قبولهم للبعض ورفضهم للبعض الآخر؛ بحجة عدم الانسجام مع العقل أو العلم أو الواقع، أو عدم الانسجام مع الذائقة الإنسانية، أو بحجج واهية أخرى؛ يعبر عن سخط وعدم تسليم لإرادة الله التشريعية.

وما يُترأى في مسلك البعض من رفضهم لبعض الأحوال الطارئة عليهم من الفقر والمرض والتعب والنصب هو تعبير آخر عن الرفض لإرادة الله التكوينية.

إنّ رفض الإنسان لإرادة الله بشقيها - التكويني والتشريعي - معناه الكفر بالله العظيم، وحتى لو كان الإنسان مستسلماً لإرادة الله في كلّ شيء إلا في هذا فهو كافر.

إبليس كم حكماً لله رفض؟!!

لقد رفض حكماً واحداً لا غير.

أمر واحد فقط رفضه إبليس، فأحبط أعمال آلاف من السنوات قضائها في العبادة^(١)، وأهبط على إثره من المكان العالي والملا الأعلى والجنة، إلى درك الجحيم، وأسفل سافلين.

إبليس الرجيم رفض أمراً إلهياً واحداً هو السجود لآدم:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٢).

حين تتحدث مع البعض عن بعض الأحكام الشرعية، يقول: هذا حكم غريب لا أستوعبه ولا أفقهه!!

ونحن نسأل: هل مطلوب منك أنت أن تستوعب الأحكام والشريعة؟!، أم لم يمرّ بخلدك أن (كلّ ما حكم به العقل حكم به الشرع، وليس كلّ ما حكم به الشرع حكم به العقل)، فالشرع أعلى كعباً واطلاعاً وسعة، والعقل يدرك (مناطات الأحكام العقلية)، أي المصالح العمومية المبني عليها حفظ النظام العام وإبقاء النوع الإنساني، لكنّه لا يدرك (ملاكات أحكام الشارع)، أي مصالح الأحكام الشرعية المولوية؟!^(٣).

وهل مطلوب منك أن تعي علل الشرائع والأحكام حتى تفعلها؟!، أم المطلوب منك الثقة بالمشرّع الحكيم كما تثق بالطبيب الحاذق، وتسلم له ولأحكامه؟!

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس؛ إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة، لا يُدرى أمن سنّي الدنيا أم من سنّي الآخرة؛ عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟!»، [نهج البلاغة/ ٢٨٧، الخطبة ١٩٢ المعروفة بـ (القاصعة)].

(٢) سورة ص، الآية ٧١-٧٨.

(٣) للتفصيل، راجع: أصول الفقه ١/ ٢٠٦-٢٠٩.

لماذا كانت صلاة الصبح ركعتين، وهي في بداية اليوم حيث النشاط والقوة والعنفوان؟!، بينما صلاة الظهر التي في وسط العمل والتعب والضنى أربع ركعات، وصلاة العصر التي هي وسط العمل - كذلك - أربع ركعات، أو لا يعلم الله أن الإنسان حينها مرهق متعب قد تنتفي لديه الرغبة والدافعية للصلاة؟!، إذا.. لماذا يطالبه الشرع أن يصلي ثمان ركعات في وقت تعبته وإجهاده؟!

وهناك أحكام شرعية كثيرة لا نعرف علّتها، فهذا العقل القاصر لا يمكن أن يفقه كلّ شيء؛ ولذلك قال الإمام الصادق عليه السلام لأبي حنيفة: «لا تقس؛ فإن أول من قاس إبليس حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾»^(١) ^(٢).

ونحن - أيضًا - في بعض الأوقات وبعض المواقف نتحوّل إلى نوع من هذا القليل: في اعتراضنا، وفي استهزائنا، وفي عدم التزامنا، فهناك من لا يلتزم بحكم شرعي من باب التهاون، أو من باب الكسل، وهذا مرتبته أخفّ ممّن لا يلتزم بحكم معترضًا مستهزئًا - والعياذ بالله -؛ لأنّ الحكم الشرعي غير داخل في مزاجه الشريف!!، هذا اعتراض على الله.

لقد جعل الله بعض أحكامه وتشريعاته (معللاً مفسراً)؛ ليعلمنا (الثقة بالمشرع الحكيم)، ويملأ قلب الإنسان غبطة بأنّ الحكم والتشريع الإلهي (غائي هادف)، جاء لتحقيق المنفعة والمصلحة للإنسان، ودفع المضرة والمفسدة عنه.

ومن طرف آخر جعل الله بعض أحكامه وتشريعاته (غيبياً توقيفياً)، لم يطلعنا على علّة تشريعه ومصلحة أمثاله؛ ليخلق في نفوسنا (التسليم) و(الطاعة) و(الانضباط) و(الانقياد).

«ونحن نجد هذا الجانب [الغيبى] - بشكل وآخر - في أكثر العبادات التي جاءت بها الشريعة؛ ومن هنا يمكن اعتبار الغيبية بالمعنى الذي ذكرناه ظاهرة عامة في

(١) سورة الأعراف، الآية ١٢، وسورة ص، الآية ٧٦.

(٢) الكافي ١ / ١١٢، الباب ١٩ (باب البدع والرأي والمقاييس)، ح ٢٠.

العبادات ومن ملامحها المشتركة.

وهذه الغيبية مرتبطة بالعبادات ودورها المفروض ارتباطاً عضوياً؛ ذلك لأنّ دور العبادات - كما عرفنا سابقاً - هو: تأكيد الإيمان، والارتباط بالمطلق، وترسيخه عملياً، وكلّما كان عنصر الانقياد والاستسلام في العبادة أكبر كان أثرها في تعميق الربط بين العابد وربّه أقوى.

فإذا كان العمل الذي يمارسه العابد مفهوماً بكلّ أبعاده، واضح الحكمة والمصلحة في كلّ تفاصيله؛ تضاعف فيه عنصر الاستسلام والانقياد، وغطت عليه دوافع المصلحة والمنفعة، ولم يعد عبادة لله بقدر ما هو عمل نافع يمارسه العابد؛ لكي ينتفع به، ويستفيد من آثاره»^(١).

إنّ مثل الشرع الحكيم في هذا كمثّل الطبيب والقائد العسكري:

فالطبيب حين يصف لك الدواء والغذاء الناجعين، قد يبيّن لك مصلحتهما، وفي حالات كثيرة غالبية يعطيك الوصفة والعلاج دون تفسير وتعليل وبيان للحكم والمصالح التفصيلية فيها؛ اعتماداً منه على ثقّتك به وبخبرته ودقته، وليبني فيك التسليم والطاعة والانقياد والانضباط.

والقائد العسكري قد يبيّن للجندي بعض غايات الأوامر الصادرة له، ومنافعها؛ ليطمئن إلى وجود غاية وحكمة وقصد خلفها، وعدم سريان روح العبث والاعتباط والتشقي فيها، وفي كثير من الأحيان لا يخبره بذلك؛ ليخلق فيه التسليم والطاعة والانقياد والانضباط، فضلاً عن وجود أسرار وغايات عليا لا ينبغي كشفها للجميع، لا سيما في زمن الحرب.

(١) السيّد الشهيد محمد باقر الصدر، بحوث إسلامية (نظرة عامة في العبادات) / ٢٦٤.

أسرار الركوع..

من آداب الصلاة الركوع، الذي يمثل الخضوع التام لإرادة الله -جلّ وعلا-. فالمقصود من المقدمة السابقة حول الإرادة الإلهية بقسميها: التكويني والتشريعي هو: التوصل إلى أن ركوع الإنسان في الصلاة هو تعبير تام عن خضوعه لعظمة الله -جلّ وعلا- ولإرادته؛ ولذا ورد في الحديث الشريف أن رجلاً سأل أمير المؤمنين -صلوات الله وسلامه عليه- عن تأويل الركوع وتأويل مدّ العنق فيه، فقال: «ما معنى مدّ عنقك في الركوع؟»، قال: تأويله: آمنت بالله [بوحدايتك] ولو ضربت عنقي»^(١).

وهذا مؤسس على أنه من آداب الركوع ومستحباته أن ينحني الإنسان على خطّ سويّ، فلا يكوّر ظهره، وإنّما يكون ظهره مستقيماً، وعلى حسب تعبير رواية طلحة بن زيد، عن راشد قال: «سَمِعْتُ وَابِصَةَ بِنَ مَعْبِدٍ يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي، فَكَانَ إِذَا رَكَعَ سَوَّى ظَهْرَهُ حَتَّى لَوْ صُبَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ لَأَسْتَقَرَّ»^(٢).

وفي رواية حماد بن عيسى يصف صلاة الإمام الصادق عليه السلام قال: «ثم ركع

(١) مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ١ / ٢٢٠، (باب وصف الصلاة من فاتحتها إلى خاتمتها)، ح ٩٢٧، وعلل الشرائع ٢ / ١٤، الباب ١٠ (باب علّة مدّ العنق في الركوع)، ح ١.

(٢) سنن ابن ماجه ١ / ٢٨٣، الباب ١٦ (باب الركوع في الصلاة)، ح ٨٧٢، وكنز العمال ٧ / ٨٠، (الفصل الثاني: في الصلاة وآدابها)، ح ١٧٨٩٢.

وملء كفيه من ركبتيه مفرجات، وردّ ركبتيه إلى خلفه حتى استوى ظهره، حتى لو صُبَّ عليه قطرة ماء أو دهن لم تزل؛ لاستواء ظهره، وردّ ركبتيه إلى خلفه، ونصب عنقه، وغمّض عينيه»^(١).

من أدب الركوع أن يمدّ المصلّي عنقه فلا يطأطئ العنق، وقد ورد في رواية حمّاد بن عيسى السابقة التي يصف فيها صلاة الإمام الصادق عليه السلام قال: «وردّ ركبتيه إلى خلفه، ونصب عنقه».

فمدّ العنق كناية عن الإيمان بالله - جلّ وعلا - ولو كلف الإيمان الإنسان ضرب عنقه، أي: أطيعك ولو كلفني الإيمان حياتي، فأنا على أتم الاستعداد لموتي وضرب عنقي في سبيل ذلك، وها هو عنقي ممدود في تعبير عميق كاشف عن ذلك الاستعداد القلبي الصادق.

والإيمان يعني التسليم، يعني الخضوع، يعني الإقرار، يعني الرضا.

فالمطلوب في عملية الركوع عند الإنسان أن يستشعر عظمة الله - جلّ وعلا -؛ ولذا فالذكر الوارد وجوباً على نحو التخيير في الركوع هو: (سبحان ربّي العظيم وبحمده) أو (سبحان الله) - ثلاث مرّات -، بما يحمله من كامل التنزيه والتقديس لله سبحانه، وعدم السماح لأيّ شائبة توجه سهمها نحو ذاته المقدّسة وصفاته وأفعاله، إنّه كامل التسليم له ولإرادته وحكمته، وتنزيه ذلك عن كلّ شائبة.

(١) مَنْ لا يحضره الفقيه ١ / ٢١٢، (باب وصف الصلاة من فاتحتها إلى خاتمتها)، ح ٩١٥.

غايات الركوع..

للكوع غايات عظيمة، منها:

أولاً: تنزيه الله:

أول فائدة للركوع هي أن تنزه الله - سبحانه وتعالى - .

حين تخضع لله وتسبحه فأنت تنزه الله عن كل نقص، فكلمة (سبحان) مأخوذة من التنزيه، و(سبحان الله) أي أن الله منزّه؛ ولذا فالبشر بطبيعته إذا رأى شيئاً عظيماً، أو شيئاً مهولاً، أو شيئاً يُعجب به يقول مباشرة: (سبحان الله)، يعني أن كل ما صار في نفسي من انطباع عن كبر هذا الشيء، وعن ضخامة هذا الشيء، وعن عظمة هذا الشيء، وغير ذلك.. فالله منزّه أن يشبهه، أي أن الله أكبر من هذا، والله أعظم من هذا، والله أجل من أن يُقاس به شيء مهما كان عظيماً وكبيراً وجليلًا، ومن ثمّ تسبّح الله.

وحين تخضع لله في ركوعك فأنت تنزه الله عن كل نقص، وتنزهه عن كل ما يخطر في بالك من صفات السلب.

والتنزيه فيه الكناية نفسها عن التسليم لإرادتي الله: التكوينية والتشريعية، وأنك حين تقول: هذا الحكم لا يدخل في مزاجي، أو هذا الحكم فيه شيء من النظر، أو هذه الرواية لا تقبلها نفسي؛ فهذا فيه نوع من الاعتراض على الله - كما قلنا -، والاعتراض يعني أن المشرّع - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -:

- أ- إما جاهل: لم يلتفت إلى عدم مناسبة الحكم وضرره، وشرع دون علم!!
ب- وإما ظالم: يعرف عدم مناسبة الحكم أو ضرره، وحكم به!!
ج- وإما اعتباطي عابث: يتلهى بتشريع أحكام غير مناسبة وضارة!!
إذا الركوع في حقيقته وجوهره كناية عن خضوع الإنسان لإرادة الله -جلّ وعلا-.

ثانياً: الإقرار بالربوبية:

فأنت حين تقول في ذكر الركوع: (سبحانَ ربِّي العظيم وبحمده)، تقرّ بأنّ الله ربّك، وأنّك مربوب له، ولا تقول: (سبحانَ الربّ العظيم وبحمده)، أو (سبحانَ ربّ عظيم وبحمده)، بل تشرك نفسك في الدائرة، وتأتي بكلمة (ربّي) مقرونة بياء المتكلم، فأنت لا تقرّ أنّ الله ربّ فقط، أو ربّ الأشياء دونك، بل هو إقرار بلسانك أنّه ربّك، وأنّك منسوب إليه، وأنت تخاطبه (ربّي).

ثالثاً: الإقرار بعظمة الله:

الركوع إقرار من الإنسان بعظمة ربّه، فهو يقرّ بأنّه (العظيم)، وفي المقابل فالإنسان الراكع - أي الخاضع - هو خاضع لعظمة الله، مقرّ ومستشعر أنّ الله هو العظيم، وأنّه - أي الراكع - هو الذليل، وأنّ الله هو العظيم، وهو الحقير، وبالتالي هو تجاه هذا العظيم لا يملك لنفسه شيئاً، ويقرّ في ذاته: أنا كإنسان ضعيف موكلّ أمري لهذا العظيم، حامدٌ إياه.

وفي رواية سأل هشامُ بن الحكم الإمامَ الكاظمَ عليه السلام عن بعض أسرار الصلاة، فقال: «ولأيّ علّة يُقال في الركوع: (سبحانَ ربّي العظيم وبحمده)، ويُقال في السجود: (سبحانَ ربّي الأعلى وبحمده)»^(١)، فذكر له عليه السلام معراج الرسول صلّى الله عليه وآله إلى قاب

(١) علل الشرائع ٢ / ٢٨، الباب ٣٠ (باب العلّة التي من أجلها يُقال في الركوع: (سبحانَ ربّي العظيم وبحمده) وفي السجود: (سبحانَ ربّي الأعلى وبحمده))، ح ٤.

قوسين أو أدنى، ورفع الحُجُب السبعة له، وتكبيره عند رفع كل واحد منها، ثم قال ﷺ واصفاً حال النبي الأكرم ﷺ آنذاك: «فلما ذكر ما رأى من عظمة الله ارتعدت فرائصه، فابترك على ركبتيه، وأخذ يقول: (سبحانَ رَبِّي العظيم وبحمده)، فلما اعتدل من ركوعه قائماً نظر إليه في موضع أعلى من ذلك الموضع؛ خرَّ على وجهه، وجعل يقول: (سبحانَ رَبِّي الأعلى وبحمده)، فلما قال سبع مرَّات سكن ذلك الرعب؛ فلذلك جرت به السُّنة»^(١).

والحقيقة أننا لا نستطيع أن ندرك مدى عظمة الله وعظمة أسمائه وعظمة صفاته وعظمة أفعاله، نحن نرى مظاهر عظمة، مظاهر قوة، مظاهر جبروت، لكن واقع هذه العظمة، وواقع هذه القوة، وواقع هذا الجبروت، لا نستطيع تصوُّرها؛ لأنَّ الإنسان لا يستطيع حتى أن يتصوَّر حجمه في منظومة هذا الكون الهائل؟، فكيف يتصوَّر عظمة الله وصفاته وأفعاله؟!

أوليس البشر اليوم على تطوُّر العلم لم يكتشفوا كلَّ العالم، ولا جزءاً يسيراً من الكون الشاسع الممتدَّ، مليارات الكيلومترات تحجبنا عن بعض الكواكب وبعض النجوم، بل.. مئات آلاف السنوات الضوئية تحجبنا عن بعض النجوم^(٢)، ويكفي للتدليل على ذلك أن أقرب نجم إلى الكرة الأرضية يبعد حوالي أربعين مليون مليون كيلو متر عن الأرض^(٣)، وإذا كانت هذه الفاصلة الشاسعة تحجبنا عن هذا النجم

(١) علل الشرائع ٢ / ٢٨، الباب ٣٠ (باب العلة التي من أجلها يُقال في الركوع: (سبحانَ رَبِّي العظيم وبحمده)، وفي السجود: (سبحانَ رَبِّي الأعلى وبحمده))، ح ٤، ووسائل الشيعة ٤ / ٩٤٤-٩٤٥، الباب ٢١ (باب استحباب اختيار (سبحانَ رَبِّي العظيم وبحمده) في الركوع، و(سبحانَ رَبِّي الأعلى وبحمده) في السجود)، ح ٢.

(٢) تقدّم أنَّ قطر مجرّة (درب التبانة) يبلغ حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية، فالفاصل بين الأشياء الموجودة على أقصى طرفيها يحتاج الضوء لكي يقطعه إلى مئة ألف سنة ضوئية!!، وهذا الكلام عن سعة مجرّة واحدة فقط، إلى جانبها ملايين المجرّات [الموسوعة العربية العالمية ١٠ / ٢٩٦].

(٣) الموسوعة العربية العالمية ٢٥ / ٢٣٠، واسم هذا النجم هو: (فنتورس)، ويبعد ٤,٣ سنة ضوئية عن الشمس.

الأقرب فما بالنّا بالنجم الأبعد؟!

كما أنّ هذا القمر القريب منّا... المسافة التي تفصل بينه وبين الكرة الأرضية ليست أكثر من مئات الآلاف من الكيلومترات^(١)، لكنّها عندنا فاصلة كبيرة، هذه المسافات الكونية الشاسعة في الكون توقّفنا بحقّ أمام غرور الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٢).

فليتصوّر الإنسان نفسه ضمن هذه المعادلة الكونية ماذا يغدو؟!، وكم حجمه؟! هل يغدو ضمن هذه المعادلة الكونية ذرة صغيرة؟!، كلا... بل سيغدو شيئاً حقيراً لا يرى، ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣)، لكنّ الإنسان غير ملتفت، لا يستشعر، وقد ورد في بعض الروايات وجود عوالم أخرى في هذا الكون، فيها حياة، وفيها مكلفون، وفيها رسالة، وفيها إقرار بالأئمة، وتوقير للأئمة أفضل من توقيرنا لهم ﷺ، فما الذي يدرينا نحن ماذا في الكون؟!، وإلى أيّ مدى هو كبير وواسع وعظيم؟!

وقد تكلمت الأحاديث عن ذلك، وفي بعض الروايات امتداح لذلك العالم على حسابنا، بمعنى أنّهم يقرّون بالأئمة، ويوقّرون الأئمة أفضل من توقيرنا لهم:

يقول الإمام الباقر ﷺ لجابر بن يزيد: «لعلّك ترى أنّ الله - عزّ وجلّ - إنّما خلق هذا العالم الواحد، أو ترى أنّ الله - عزّ وجلّ - لم يخلق بشراً غيركم؟!، بلى... والله، لقد خلق الله - تبارك وتعالى - ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، وأنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين»^(٤).

(١) متوسط المسافة بين الأرض والقمر ٣٨٤,٤٠٣ كم، وأقلّها هو ٣٥٦,٣٩٩ كم، وأطولها ٤٠٣,٤٠٦ كم [الموسوعة العربية العالمية ١٨ / ٣٢٠].

(٢) سورة الانفطار، الآية ٦.

(٣) سورة غافر، الآية ٥٧.

(٤) بحار الأنوار ٥٤ / ٣٢١، (باب العوالم)، ح ٣.

ومن الأحاديث الواردة في هذا المجال:

ومن باب الطريفة التي لا أدري أهى صدق أم كذب أم خيال؟!، نشرت إحدى

- يقول الرسول الأكرم ﷺ: «لله أرض بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوماً، هي مثل الدنيا ثلاثون مرة، مشحونة خلقاً لا يعلمون أن الله خلق آدم ولا إبليس، ولا يعلمون من أن الله يُعصى في الأرض» [مستدرک سفينة البحار ١ / ١١٢].

- ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن من وراء عين شمسكم هذه أربعين عين شمس، فيها خلق كثير، وإن من وراء قمركم أربعين قمراً فيها خلق كثير، لا يدرون أن الله خلق آدم أم لم يخلقه» [بحار الأنوار ٥٤ / ٣٢٩، (باب العوالم)، ح ١٣].

- ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن لله - عز وجل - اثني عشر ألف عالم، كل عالم منها أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين، ما يرى عالم منهم أن لله - عز وجل - عالماً غيرهم، وإني الحجة عليهم» [بحار الأنوار ٥٤ / ٣٢٠، (باب العوالم)، ح ٢].

- ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن من وراء أرضكم هذه أرضاً بيضاء، ضوءها منها، فيها خلق يعبدون الله لا يشركون به شيئاً» [بحار الأنوار ٥٤ / ٣٢٩، (باب العوالم)، ح ١٢].

- ومن الأحاديث المادحة لأصحاب أولئك العوالم واهتمامهم بالأئمة عليهم السلام:

ما رواه عجلائ أبو صالح قال: «سألت أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام عن قبة آدم، فقال:

نعم... والله قباب كثيرة، أما إن خلف مغربكم هذا تسعة وثلاثين مغرباً أرضاً بيضاء مملوءة خلقاً يستضيئون بنورنا، لم يعصوا الله طرفة عين، لا يدرون أن الله خلق آدم أم لم يخلقه» [بحار الأنوار ٢٧ / ٣٥، الباب ١٢ (باب أنهم عليه السلام سُخر لهم السحاب)، ح ٥].

- ومن الروايات التي تبين أنهم يوقرون الأئمة أفضل من توقيرنا لهم ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن لله - عز وجل - مدينتين: مدينة بالشرق، ومدينة بالمغرب، فيها قوم لا يعرفون إبليس، ولا يعلمون بخلق إبليس، نلقاهم كل حين، فيسألوننا عما يحتاجون إليه، ويسألوننا عن الدعاء فنعلمهم، ويسألوننا عن قائمتنا متى يظهر؟، فيهم عبادة واجتهاد شديد... لهم تقديس وتمجيد ودعاء واجتهاد شديد، لو رأيتهم لا حتقرتم عملكم، يصلي الرجل منهم شهراً لا يرفع رأسه من سجدة، طعامهم التسبيح، ولباسهم الورع، ووجوههم مشرقة بالنور، وإذا رأوا واحداً منا احتشوه، واجتمعوا له، وأخذوا من أثره من الأرض يتبركون به، لهم دوي - إذا صلوا - كأشد من دويّ الريح العاصف...، إذا احتسبنا عنهم ظنوا ذلك من سخط، يتعاهدون أوقاتنا التي تأتي فيها، فلا يسأمون ولا يفترون...، يسألوننا عن الشيء إذا ورد عليهم في القرآن لا يعرفونه، فإذا أخبرناهم به انشروا صدورهم لما يسمعون منا، وسألوا لنا البقاء، وأن لا يفقدونا، ويعلمون أن المنة - من الله عليهم فيما نعلمهم - عظيمة» [البرهان في تفسير القرآن ١ / ٢٣٩، ح ١٤].

ونقل العلامة المجلسي الرواية ذاتها، وفيها: «لا يعلمون أن الله خلق آدم، ولا إبليس، ولا شمس، ولا قمر، هم - والله - أطوع لنا منكم، يأتونا بالفاكهة في غير أوانها، موكلين بلعنة

المجلات في أوائل الثمانينات أن بعض العلماء تلقوا رسالة من أحد الكواكب، فحللوها، فكانت تقول: (نحن هنا..، فمن أنتم؟) ^(١)، يعني أن أهل ذاك الكوكب يسألون عن البشر: من تكونون؟!

وسواء أصحّت المعلومة أم كانت من باب الطرفة، فهناك خلف عالمنا عوالم. فأنت ماذا تظنّ نفسك في مقابل هذا الكون؟!، أعتقد أنك شيء؟!؛ ولذا أقول: إن قراءة الإنسان عن الكون، وعن المنظومة التي نعيش فيها (المجموعة الشمسية)، وعن المجرة التي نعيش فيها (مجرة درب التبانة)، وعن هذه المجرات والكواكب وغيرها.. تُشعر الإنسان بضآلة قدره، وأنه ليس شيئاً حتى يجعل نفسه رباً!!، ويدّعي لنفسه حولاً وقوة!!، والكون كبير ممتدّ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ^(٢)، فهو في ازدياد، وليس في نقصان.

رابعاً: توجيه الحمد لله:

كلمة (وبحمده) الواردة في ذكر الركوع تعني أنك حامد لله - جلّ وعلا - أن وفقك لهذا الخضوع، وأن وفقك لهذا التسليم.

أن يتوفّق الإنسان لعبادة الله، للركوع لله، ذاك فضل عظيم من الله يستحقّ

فرعون وهامان وقارون] [بحار الأنوار ٥٤ / ٣٣٦، (باب العوالم)، ح ٢٥].

(١) يقول الدكتور محمد عبده يمانى في كتابه (الأطباق الطائرة.. حقيقة أم خيال؟)، ص ١٤٦، ١٤٨: «وفي ٣١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٧٩م نشرت جريدة الأهرام بحثاً علمياً تحت عنوان (الباحثون عن الحياة فوق الكواكب) جاء فيه: (حمل عالم أمريكي أستاذ في جامعة بنسلفانيا، هو البروفسور (روبرت جنجنجاك) إلى القاهرة مقدمات نبأ قد يكون أكثر من هبوط الإنسان على القمر إثارة. قال: إنه شهد مع العلماء الإنجليز في مرصد (جودريك) قبل أن يجيء إلى القاهرة عملية التقطوا فيها إشارة صوتية موجهة من الفضاء الخارجي، يعتقدون أنها صادرة عن كائنات عاقلة تعيش خارج الكون، فوق أحد الكواكب الشمسية البعيدة، وتقول: (نحن هنا..، فمن أنتم؟)».

(٢) سورة الذاريات، الآية ٤٧.

عليه الحمد والشكر، فكثيرون لا يوفّقون لعبادة الله، وكثيرون يتمنّون لو يتمكنون من الانحناء والركوع بصورته الطبيعية، لكنّهم لا يستطيعون ذلك؛ فبعضهم لا يستطيع الانحناء لمانع خلقي أو صحي، وبعضهم لا يستطيع النطق، وهكذا..

إنّ كون جسم الإنسان صاحباً قادراً على فعل الركوع وأذكاره، وكون الإنسان موفّقاً أخلاقياً وتشريعياً لسلوكٍ درب العبادة وعبادة الله بالفعل؛ كلّ ذلك أمر عظيم يستحقّ حمد الله وشكره والثناء العظيم عليه.

الخلاصة:

إنّ عبارة (سبحان ربّي العظيم وبحمده) تحوي أربع كلمات هي: التنزيه لله (سبحان)، والإقرار لله بالربوبية (ربّي)، والإقرار لله بالعظمة (العظيم)، وحمد الله على التوفيق للخضوع والتسليم له (وبحمده).

هذا ما يمكن أن نقوله في سرٍّ من أسرار هذا الركوع، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الراكعين والمسبّحين، وسبحان ربّك ربّ العزة عمّا يصفون، والحمد لله ربّ العالمين..



الأدب الحادي عشر

السجود

الجبر والاختيار

الإنسان مختار:

من الأمور التي ميّزت الإنسان عن سائر المخلوقات، ومن ثم جعلته محلاً للتكليف وقابلاً للتشريع، وبالتالي جعلته يختار مصيره بنفسه: إما نعيم دائم، وأما - والعياذ بالله - عذاب دائم؛ هو (اختيار الإنسان)، أي كون الإنسان مختاراً.

ولعل من الأمور التي حدثت في عالم الذرّ - قبل خلق هذا العالم أو لا أقلّ قبل مجيء الإنسان إلى دار التكليف -: أن عرض الله - جلّ وعلا - الاختيار على كافة المخلوقات، فاختار بعض المخلوقات أن يكونوا مكرهين، واختار الإنسان أن يكون مختاراً، فلا يُشكل أن الإنسان لم يُخلق مختاراً؟، ولم تُخلق بقية المخلوقات مكرهة؟

يقول الله - تبارك وتعالى - في تصوير ذلك العرض: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(١).

و(الأمانة) - في أحد تفاسيرها -: الاختيار^(٢).

(١) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

(٢) يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي:

«لقد ذكرت تفاسير مختلفة للأمانة، ومن جملتها:

- فقد عُرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال، يعني أن الله - جلّ وعلا - عرض على السماوات وعلى الأرض وعلى الجبال - أي على الكون بأسره - أن يكون مختاراً: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾.

- ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾، يعني رفضن أن يكنّ مختارات، وأعلنن (الإباء الطبيعي) و(العجز الذاتي) عن حمل الأمانة؛ لعدم وجود الاستعداد والقبالية والقدرة واللياقة لديهنّ على حمل ذلك.

- ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ لأنّ الإنسان أو أيّ مخلوق يختار الاختيار هو مشفق خائف، يعتقد أنّه قد يختار الطريق الصحيح، وقد يختار الطريق الخطأ.

- ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾، فالإنسان اختار أن يكون مريداً، أن يكون مختاراً، وأن يتحمّل التكليف.

- ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، لماذا كان الإنسان ﴿ظَلُومًا جَهُولًا﴾؟ لأنّه يختار ما فيه ظلم لنفسه، وما فيه عدم إدراك لواقعه وواقع المحيط من حوله، وما فيه الخطر عليه؛ لأنّ كونه مختاراً سيحمّله ثمن اختياره.

١- أنّ المراد من الأمانة: هي الولاية الإلهية، وكمال صفة العبودية، والذي يحصل عن طريق المعرفة والعمل الصالح.

٢- أنّ المراد: صفة الاختيار والحرية والإرادة التي تميّز الإنسان عن سائر الموجودات.

٣- أنّ المراد: العقل الذي هو ملاك التكليف، ومناط الثواب والعقاب.

٤- أنّ المراد: أعضاء جسم الإنسان، فالعين أمانة الله، ويجب الحفاظ عليها وعدم استعمالها في طريق المعصية، والأذن واليد والرجل واللسان، كلّها أمانات يجب حفظها.

٥- أنّ المراد: الأمانات التي يأخذها الناس بعضهم من بعض، والوفاء بالعهود.

٦- أنّ المراد: معرفة الله سبحانه.

٧- أنّ المراد: الواجبات والتكاليف الإلهية كالصلاة والصوم والحجّ.

لكن.. يتضح من خلال أدنى دقة أنّ هذه التفسيرات لا تتناقض مع بعضها، بل يمكن إدغام بعضها في البعض الآخر، فبعضها أخذت جانباً من الموضوع، وبعضها الآخر كلّها [الأمثلة في تفسير كتاب الله المنزل ١٣ / ٣٦٨، تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾].

وحين نتحدّث عن كون الإنسان مختارًا لا ننفي أنّ هذه الصفة يشاركه فيها الجنّ - أيضًا -، فهم - كذلك - مختارون، على نحو مفاد قاعدة (إثبات الشيء لا يعني نفي ما عداه)، فنحن نقول: الإنسان مختار، ونثبت له ذلك، ولا نقول: ليس هناك مختار إلا الإنسان، ولكنّ حديثنا - هنا - في (آداب الصلاة) هو حديث مع أبناء جلدتنا البشر، وسنضرب صفحًا عن موضوع الجنّ، فهو خارج - تخصّصًا لا تخصيصًا - عن سياق موضوعنا وحديثنا..

المخلوقات لا تملك الاختيار..

وحين اختار الإنسان أن يكون مختارًا خلق مختارًا، وجعل الاختيار بيده، أما بقية المخلوقات فقد خلقها الله ربّنا لا تملك الاختيار: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(١)، وهذا الصراط، هداها الطريق الذي تصل به إليه.

فكلّ دابة في هذه الأرض أو في السماوات، وكلّ مخلوق؛ عنده إدراك، وعنده شعور، لا تعتقدوا أنّ الكون من حولنا لا يشعر ولا يدرك، بل.. فيه شعور، ولديه إدراك: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(٢).

ولذا يصرّ بعض المفسّرين على أنّ التسبيح الذي تنطق به الجمادات، أو التي نرى أنّها جمادات من حولنا هو تسبيح لفظي قلبي مقالي (تشريعي)، وليس مجرد تسبيح واقعي حالي مقامي (تكويني)، بمعنى أنّها تطلق مجموعة من الألفاظ؛ وتسبيحها ليس مجرد كونها خاضعة لله - جلّ وعلا -، وأنّها تنزّهه وتسبحه وتقدّسه، ولكنّ العجز والقصور فينا، فنحن الذين لا نفقه تسبيحها اللفظي: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أما تسبيح الخضوع فنفقهه؛ ولذلك فالذي نفى القرآن الكريم فقها وفهمنا له إنّما هو التسبيح القولي اللفظي، لا الحالي المقامي الذي يمثله خضوعها لله، ودلالتها على

(١) سورة طه، الآية ٥٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٤٤.

عظمته وقدرته^(١).

تسبيح الخضوع - بمعنى أن كل شيء خاضع لله - جلّ وعلا - يفقهه كل أحد، ولكن التسبيح المنفي الذي لا يفقهه الإنسان هو تسبيحها نطقاً، تسبيحها لفظاً، تسبيحها قولاً؛ ولذا يصّر جمع من العلماء المحققين على أن الكون مدرك يشعر، حتى ما نعتقده جماداً؛ لأن الله - جلّ وعلا - أودع فيه شعوراً يدرك به طريقه الذي أكره عليه، ولكنه أكره عليه باختياره، فمثلما اختار الإنسان الإرادة؛ اختار الكون الإكراه، وبالتالي هو مسير في طريق يوصله إلى غايته، والإنسان لأنه اختار الإرادة أعطي جهازاً اسمه (العقل)؛

(١) اختلفت آراء الفلاسفة والمفسرين في حقيقة (تسبيح الكائنات) أو (التسبيح الكوني) ونوعيته على آراء ثلاثة:

- أ- من يرى أنه تسبيح (تشريعي)، تقوله الكائنات بلسان اللفظ والمقال، وأن جميع ذرات هذا الوجود لها نوع واحد من الإدراك والشعور، ولكننا لا ندركه ولا نسمعه.
- ب- من يرى أنه تسبيح (تكويني)، يحكيه لسان الحال والمقام لدى الكائنات الذي يشهد بعظمة الصفات الثبوتية لله، وينفي الصفات السلبية عنه، ويخضع له.
- ج- من يرى أنه تسبيح (تشريعي تكويني)، يحكيه لسان القول والحال معاً [انظر الآراء في: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٩ / ١٠ - ١١].

وقد ذهب السيد محمد حسين الطباطبائي إلى الرأي الأول (تسبيح تشريعي قولي)، وأن تسبيح الأشياء قولي مقال، لا حالي مقامي (تكويني)، وقال: «والحق.. أن التسبيح في الجميع حقيقي قالي، غير أن كونه قالياً لا يستلزم أن يكون بالفاظ موضوعة وأصوات مقروعة» [الميزان في تفسير القرآن ١٣ / ١١٠ - ١١١]، وقال أيضاً: «تسبيح ما في السماوات والأرض تسبيح ونطق بالتنزيه بحقيقة معنى الكلمة، وإن كنا لا نفقهه» [الميزان في تفسير القرآن ١٩ / ١٤٤].
بينما ذهب الشيخ ناصر مكارم الشيرازي إلى الرأي الثاني (تسبيح تكويني حالي)، فقال: «ولكن التفسير الثاني - حسب الظاهر - أكثر قبولاً للنفس من التفسيرين الآخرين» [الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٩ / ١٣].

وبعد أن ذكر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي نصوصاً للمعصومين عليه السلام عن تسبيح الكائنات قال: «إن هذه المجموعة من الأحاديث والروايات والتي لبعضها معاني دقيقة؛ تُظهر أن التسبيح العام للموجودات يشمل كل شيء بدون استثناء، وكل هذا يتطابق مع ما ذكرناه من التفسير الثاني: أي أن التسبيح هو تسبيح تكويني أو تسبيح بلسان الحال» [الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٩ / ١٤].

ليميّز به طريق الخير وطريق الشرّ، ليميّز به السبيلين: سبيل الهدى، وسبيل الضلال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(١)، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٢)؛ وبالتالي بإرادته أن يختار طريق الهداية، أو أن يختار طريق الغواية - والعياذ بالله -: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٣).

ومن روعة التعبير القرآني في الآيات الأخيرة: أنّه بعد أن ذكر أنّ الله ألهم النفس الفجور والتقوى، نسب عمل التزكية والضلال إلى الإنسان، وأعلن أنّه سيتحمّل نتيجة ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

ولأنّ الإنسان لا يستشعر ذاك التسبيح الكوني، ولا تسمع أذنه نغمته البديعة العذبة، وسيمفونيته الخلافة، ولديه نوع من الطغيان، ويرى الكون حوله مسخرًا ومقهورًا وموضوعًا لخدمته، وأنّ الله - جلّ وعلا - خلق الأشياء لأجل بني آدم، وأتاح له أن يسخر البرّ والبحر والجبال والكون من حوله، ووصل إلى ما وصل إليه من المعلومات، هذا كلّهُ بدلاً من أن يوصل الإنسان إلى حقيقة الخضوع لله، أوصله إلى وهم الكبر؛ لأنّ المفروض أنّ الإنسان كلّما ازداد علمًا ازداد يقينًا بضعفه، ويقينًا بفاقته، ويقينًا بفقره، ولكن.. في بعض الأوقات المعلومات تعطي الإنسان وهمًا بأنّه شيء، وأنّه يمكن أن يكون إلهاً: «ما من نفس إلا وهي مضمّرة ما أظهره فرعون من قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾»^(٤)، ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره^(٥)، وبالتالي سلب من الإنسان الخضوع.

(١) سورة الإنسان، الآية ٣.

(٢) سورة البلد، الآية ١٠.

(٣) سورة الشمس، الآية ٧-١٠.

(٤) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٥) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ١٢ / ٤٨، والمحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ٧ / ١٢٢، ومنهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١٠ / ١٦٨، ومحمد عبد الرؤوف بن علي المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢ / ٢٥.

وجملة الغزالي كاملة هي: «ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمّرة ما

الكبر الأسوأ والخضوع الأفضل:

يذكر علماء الأخلاق ثلاثة أقسام للكبر (التكبر) هي:

١- الكبر على الله.

٢- الكبر على المعصومين (الرسل والأئمة).

٣- الكبر على عباد الله (الكبر على الناس)، (كبر الإنسان على أخيه الإنسان)^(١).

وتكبر الإنسان على أخيه الإنسان قبيح وسيء، وأقبح منه وأسوأ تكبره على المعصومين: من الرسل والأئمة عليهم السلام، ولكن أقبح أقسام التكبر طراً، وأسوأها جميعاً، هو التكبر على الله - سبحانه وتعالى -، ف (الكبر الأسوأ) الذي يقابله (الخضوع الأفضل) هو: أن يتكبر الإنسان على خالقه - جلّ وعلا -.

يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢).

- ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾^(٣).

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ ذُلٌّ»^(٤).

أظهره فرعون من قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [سورة النازعات، الآية ٢٤]، ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبلاً فأظهره؛ إذ استخفّ قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدّعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكلّ من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعاً من إظهاره؛ فإنّ استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته، واستبعاده ذلك لا يصدر إلا عن إضممار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء، فإذا العبودية شاقة على النفس مطلقاً [إحياء علوم الدين ١٢ / ٤٨].

(١) انظر: السيّد عبد الحسين دستغيب، الذنوب الكبيرة، ترجمة: صدر الدين القبانجي ٢ / ١١٥.

(٢) سورة غافر، الآية ٥٦.

(٣) سورة النحل، الآية ٢٢.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ٢ / ١٦٥، الحكمة ٣٣٤.

لا تتصوّر أنّ عبارة (التكبرّ على الله) لا واقع لها، فالتكبرّ ليس شيئاً جديّاً إما أن يكون أبيض أو أسود - مثلاً - !!، فالتكبرّ يعني عدم الطاعة والخضوع، يعني عدم الإصغاء، والإنسان ليس فقط يترك الخضوع والطاعة، ولا يكتفي بعدم الإصغاء إلى الله زيادة على ذلك، بل يجادل ربّ العالمين، ويخاصمه!!

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١).

- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(٢).

- ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ﴾^(٣).

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٤).

(١) سورة الكهف، الآية ٥٤.

(٢) سورة النحل، الآية ٤.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٥٧-٥٨.

(٤) سورة يس، الآية ٧٨.

غايات تشريع السجود

شرع الله السجود لغايات كثيرة، منها:

أولاً: الخضوع لله:

يريد الله من خلال واقع السجود في الصلاة، ومن خلال تشريع السجود، وتشريع الركوع قبل ذلك: أن يوصل الإنسان إلى مرتبة الخضوع، وهذه هي النكتة الأهم التي تجعل من السجود (منتهى العبادة)، وتجعل من السجود المرتبة العليا من العبادة، وتجعل من السجود المحبوب الأول لله - جلّ وعلا -.

وربما كان السجود هو رمز العبادة الأعلى والأجلى والأبرز والأوضح؛ ولذا - لعلّه - لهذا حُرِّم السجود لغير الله - جلّ وعلا -؛ لأنّ السجود كناية عن الخضوع المطلق لإرادة الله - جلّ وعلا -.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «السجود منتهى العبادة من ابن آدم لله - تعالى ذكره -، وأقرب ما يكون العبد إلى الله - عزّ وجلّ - إذا كان في سجوده، وذلك قوله - عزّ وجلّ -: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾»^(١)^(٢).

(١) سورة العلق، الآية ١٩.

(٢) مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه ١ / ٢٢١-٢٢٢ (باب وصف الصلاة من فاتحتها إلى خاتمتها)، ح ٩٢٩، وبحار الأنوار ٨٢ / ١٦٤، الباب ٢٩ (باب فضل السجود وإطالته)، ذيل الحديث ١١.

وقال عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد»^(١).

وعن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «أطيلوا السجود، فما من عمل أشدّ على إبليس من أن يرى ابن آدم ساجداً؛ لأنّه أمر بالسجود فعصى، وهذا أمر بالسجود فأطاع فيما أمر»^(٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «وأطيلوا السجود، فما من عمل أشدّ على إبليس من أن يرى ابن آدم ساجداً؛ لأنّه أمر بالسجود فعصى، وهذا أمر بالسجود فأطاع ونجا»^(٣).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ العبد إذا سجد فأطال السجود نادى إبليس - يا ويله -: أطاعوا وعصيتُ، وسجدوا وأبيتُ»^(٤).

وقد تقدّم - عند حديثنا عن أسرار الركوع - أن نقلنا جزءاً من رواية لهشام بن الحكم يسأل فيها الإمام الكاظم عليه السلام عن بعض أسرار الصلاة، ومنها سؤاله: «ولأيّ علّة يُقال في الركوع: (سبحان ربّي العظيم وبحمده)، ويُقال في السجود: (سبحان ربّي الأعلى وبحمده)؟»^(٥)، وكيف ذكر له الإمام عليه السلام وصول الرسول صلّى الله عليه وآله في رحلة المعراج إلى قاب قوسين أو أدنى، ورفع الحُجُب السبعة له، وتكبيره عند رفع كلّ واحد منها، ثم قال عليه السلام واصفاً حال النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله آنذاك: «فلما ذكر ما رأى من عظمة الله ارتعدت فرائضه، فابتارك على ركبتيه، وأخذ يقول: (سبحان ربّي العظيم وبحمده)، فلما اعتدل من ركوعه قائماً نظر إليه في موضع أعلى من ذلك الموضع؛ خرّ

(١) وسائل الشيعة ٤ / ٩٨٠، الباب ٢٣ (باب استحباب طول السجود بقدر الإمكان، والإكثار منه، والإكثار فيه من التسبيح والذكر)، ح ٩.

(٢) علل الشرائع ٢ / ٣٦، الباب ٣٩ (باب العلّة التي من أجلها يُستحب طول السجود)، ح ٢.

(٣) وسائل الشيعة ٤ / ٩٨٠، الباب ٢٣ (باب استحباب طول السجود بقدر الإمكان، والإكثار منه، والإكثار فيه من التسبيح والذكر)، ح ١١.

(٤) وسائل الشيعة ٤ / ٩٧٨، الباب ٢٣ (باب استحباب طول السجود بقدر الإمكان، والإكثار منه، والإكثار فيه من التسبيح والذكر)، ح ١.

(٥) علل الشرائع ٢ / ٢٨، الباب ٣٠ (العلّة التي من أجلها يُقال في الركوع: (سبحان ربّي العظيم وبحمده)، وفي السجود: (سبحان ربّي الأعلى وبحمده))، ح ٤.

على وجهه، وجعل يقول: (سبحانَ رَبِّي الأعلى وبحمده)، فلما قال سبع مرّات سكن ذلك الرعب؛ فلذلك جرت به السُّنة^(١).

كما سبق منّا الحديث أنّ لله - جلّ وعلا - إرادتين: إرادة في التكوين، وإرادة في التشريع، وتقابلهما عند الإنسان إرادتان وخضوعان:

أ- إرادة في التكوين (الخضوع التكويني).

ب- إرادة في التشريع (الخضوع التشريعي).

أ. الإرادة في التكوين (الخضوع التكويني):

إرادة الإنسان في التكوين تعني خضوع الإنسان لإرادة الله في التكوين (الإرادة التكوينية)، فيتحلّى الإنسان بـ (الخضوع التكويني) و(الخضوع من ناحية التكوين) لإرادة الله في الكون.

وتكمن إرادة الإنسان التكوينية هذه في رضاه بما كتبه الله له في هذا الكون، وفي هذا الوجود، وفي عالم الدنيا، فمن يوم ولادة الإنسان إلى يوم قدره وموته، هناك (كتاب) قُدّر فيه ما يمرّ عليه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢)، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لَكُمْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(٣)، وتصدر عنه أعمال بني آدم: ما هو مقدّر له من رزق، وما هو مقدّر له من ولد، وما هو مقدّر له من مرض، وما هو مقدّر له من مصائب، وهكذا..

فخضوع الإنسان التكويني لله يعني رضاه بما كتب الله له من أمور كونية، ورضاه بقضاء الله وقدره، وعدم إعلان السخط.

(١) علل الشرائع ٢ / ٢٨، الباب ٣٠ (العلة التي من أجلها يُقال في الركوع: (سبحانَ رَبِّي العظيم وبحمده)، وفي السجود: (سبحانَ رَبِّي الأعلى وبحمده))، ح ٤.

(٢) سورة الرعد، الآية ٣٩.

(٣) سورة الحديد، الآية ٢٢-٢٣.

- يقول الله - جلّ وعلا - : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(١).

- ويقول الإمام الكاظم عليه السلام : «قال الله - عز وجل - : ارض بما آتيتك تكن أغنى الناس»^(٢).

- ويقول رسول الله صلّى الله عليه وآله في وصيته لأمر المؤمنين عليهم السلام : «وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك»^(٣).

- وعن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام : «قال: سمعتُ جدي رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول لي: اعمل بفرائض الله تكن أتقى الناس، وأرض بقسم الله تكن أغنى الناس، وكفّ عن محارم الله تكن أروع الناس، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً، وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مسلماً»^(٤).

- ويقول أمير المؤمنين عليه السلام : «اللهم إني أسألك سؤال خاضع مُتَذَلِّل خاشع، أن تُسامحني وتُرحمني، وتُجعلني بقسمك راضياً قانعاً، وفي جميع الأحوال مُتَوَاضِعاً»^(٥).

- ويقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام : «إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجورٌ، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزورٌ»^(٦).

- ويقول الإمام الصادق عليه السلام في وصيته لسفيان الثوري: «يا سفيان، ثق بالله

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٥-١٥٧.

(٢) الشيخ المفيد، الاختصاص، تحقيق: علي أكبر الغفاري، والسيد محمود الزرندي / ٢٥٤، (باب فضل إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة والناس نيام).

(٣) بحار الأنوار / ٢ / ١٥٥، الباب ٢٠، باب (من حفظ أربعين حديثاً)، ح ٧.

(٤) الشيخ الصدوق، الأمالي / ٣٦٩، المجلس السادس والثلاثون، ح ١٦.

(٥) مصباح المتهجد / ٨٤٥، (دعاء آخر، وهو دعاء الخضر عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ١٢٧، (دعاء كميل بن زياد (رض)).

(٦) نهج البلاغة / ٥٢٧، قصار الحكم، الحكمة ٢٩١.

تكن مؤمناً، وارَضَ بما قسم الله لك تكن غنياً»^(١).

- وقال الإمام الصادق عليه السلام لرجل: «اقنع بما قسم الله لك، ولا تنظر إلى ما عند غيرك، ولا تتمنَّ ما لست نائله؛ فإنه مَنْ قنع شبع، وَمَنْ لم يقنع لم يشبع، وخذ حظَّك من آخرتك»^(٢).

ب- الإرادة في التشريع (الخضوع التشريعي):

إرادة الإنسان في التشريع تعني خضوع الإنسان لإرادة الله في التشريع (الإرادة التشريعية)، فيتحلَّى الإنسان بـ (الخضوع التشريعي) و(الخضوع من ناحية التشريع) لإرادة الله في التشريع.

وتكمن إرادة الإنسان التشريعية هذه في رضاه بما شرعه الله له من أحكام، بمعنى إقرار الإنسان لله - جلَّ وعلا - بأنه الأعلَم بمصالح العباد، والحكيم الذي تنطوي تشريعاته على (حِكَم)، وجلبٍ للمصالح، ودفعٍ للمفاسد، وبالتالي التزام الإنسان بما كلفه الله به من أوامر ونواهٍ: فإذا أمر الله بشيءٍ يجب أن يفعله الإنسان، وإذا نهى الله عن شيءٍ يجب أن ينتهي عنه الإنسان، وهذا ما نسمِّيه (التسليم، والخضوع، والطاعة، والامتثال، والانقياد لله)، فإذا تكبَّر إنسان، ولم يلتزم بفعلٍ ما أمره الله - جلَّ وعلا - بفعله، أو ترك ما نهى الله تعالى عنه، فهذا يعني خروجاً عن دائرة الخضوع.

فخضوع الإنسان التشريعي لله يعني رضاه بما شرع الله تعالى من أحكام تشريعية، وفعلها برضا وتسليم، وعدم إعلان التبرُّم منها والسخط عليها والتندر والسخرية عليها، والعياذ بالله.

يقول الله - جلَّ وعلا -:

- ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ

(١) الخصال / ١٦٩، باب (إذا قام القائم عليه السلام حكم بثلاث لم يحكم بها أحد قبله)، ح ٢٢٢.

(٢) الكافي / ٨ / ٢٢٣، باب (مدح القناعة)، ح ٣٣٧.

هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿١﴾.

- ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢).

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٣).

وعن زرارة بن أعين قال: «سألت أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام عن الحلال والحرام، فقال: حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيره، ولا يجيء غيره» (٤).

الإنسان والسخط التكويني والتشريعي!!

وعلى طول مسيرة الإنسان في التاريخ هناك من بين البشر من يرضى بإرادتي الله: التكوينية والتشريعية، ويخضع ويدعن لهما، وهناك من يعلن سخطه وتبرمه عليهما:

- فهناك من لا يرضى بما قسمه الله له في الكون والوجود، ويعترض على شكله، أو سلامة بدنه، أو مستواه العقلي، أو مستواه المالي والاقتصادي، أو نسبه، أو مكانته الاجتماعية، أو

- وهناك من لا يرضى بما شرعه الله من أحكام تكليفية: من واجبات، ومحرمات، ومستحبات، ومكروهات، ومباحات، فلا يعجبه الأمر بالغسل أو القيام لصلاة الصبح، لا سيما في الليالي الشاتية، ولا يعجبه تحريم الربا، أو تحريم الغناء والطرب، أو تحريم مصافحة الأجنبية، أو

(١) سورة النجم، الآية ١- ٤.

(٢) سورة الحشر، الآية ٧.

(٣) سورة النساء، الآية ٦٥.

(٤) الكافي ١ / ٥٨، باب البدع والرأي والمقاييس، ح ١٩.

هناك مَنْ يقرّ بالمعصية، وهناك مَنْ يفلسف المعصية!!

نكرّر كثيراً القول بأنّ الإنسان تارة يفعل الخطأ، ويرتكب الحرام - والعياذ بالله - مع إقراره بأنّه حرام، وهذه المرتبة أهون من مرتبة مَنْ يفعل الحرام، ويفلسف فعله للحرام!!

هناك مَنْ يترك الصلاة تهاوئاً، ويقرّ في داخله أنّه عاصٍ مذنب، وهناك مَنْ يترك الصلاة، وإذا سألته عن ذلك أجاب: أنّ الصلاة ليست واجبة علينا أصلاً، إنّما أوجبها الله على مجتمع بدائي يحتسي البداوة، ويلوك الفراغ، أما نحن في زمن المدنية وصخب العمل وضجيج النشاط، فنحن مشغولون حتى النخاع، ولا وقت لدينا أصلاً حتى نضيّعه!!

والبعض حين تسأله: لماذا لا تخمّس؟، يقرّ أنّ ذاك حقّ شرعيّ أوجب الله إخراجَه، ولكنّه يعصي الله ولا يدفع..

وهناك مَنْ إذا سألته عن تركه الخمس، يقول: ماذا يعني الخمس؟!، الخمس أكُلّ لجهود مَنْ يعمل ويكدح، وتعلّم على التسوّل، الخمس يأكله الوكلاء، ويننون به البيوت الفاخرة، ويشترون به السيارات الفارهة والبساتين الغنّاء، والفقراء لا يصلهم من هذا الخمس شيء!!، ويذكر ألف تبرير وتبرير يسوّقه لكي لا يخمّس، لا يقول: أنا مخطئ في عدم التخميس، لا..، فهو لا يخمّس، وتلك منه معصية، ويزيد عليها أنّه يعصي الله - جلّ وعلا - في إعطاء فلسفة للمعصية، فلسفة لعدم تخميسه، فلو افترضنا أنّ الوكلاء يأكلون الخمس، فأنت أخرج خمسك بنفسك، وخذه إلى مَنْ تثق به من المراجع، وإذا كنت لا تثق بأحد من المراجع أصلاً، فأخرج خمسك، ووزّعه بنفسك على الفقراء والمحتاجين.

لكنّ الإنسان في بعض الأوقات يعصي، ويعلن تمرّده وطغيانه على أصل الحكم الشرعي، وهذه هي المرحلة الأشدّ والأخطر في المعصية، حتى تصل لدى الإنسان إلى مرتبة إعلان خطأ الحكم، وأنّ هذا الحكم لا يقبله العقل، أو أنّ ذاك الحكم لا

ينسجم مع العلم ومعطيات العصر الحديث، أو أن ذلك الحكم لا يتلاءم مع الواقع ومع ظروفنا الاجتماعية اليوم!!، وهذا في واقعه يمثل كفرًا بالله - جلّ وعلا -؛ لأنّه كفر بما أنزل الله على محمد ﷺ، والكفر بما أنزل على الرسول يعني الكفر بالله تعالى، فماذا يعني الكفر إلا ترك الخضوع لله؟!

السجود إعلان للخضوع:

إذًا.. السجود في واقعه نوع من العناوين المشيرة إلى واقع الخضوع، وأنّ الإنسان في هذه الحياة مكلف بأن يعلن خضوعه المرّة تلو الأخرى لله - جلّ وعلا -، ولعلّ وجود سجدتين في الركعة الواحدة كان لأمر في غاية العمق: فسجدة لإعلان الخضوع في ناحية التكوين، وسجدة لإعلان الخضوع في ناحية التشريع، ويجمعهما التسليم الذي هو مرتبة من مراتب الإيمان العليا، وذلك بأن يكون الإنسان مسلمًا أمره لله - جلّ وعلا -؛ ولذا نلاحظ وجود مجموعة من الروايات تركّز على فضل السجود: - ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «أَكْثَرُ السُّجُودِ؛ فَإِنَّهُ يَحُطُّ الذُّنُوبَ كَمَا تَحُطُّ الرِّيحُ وَرَقَّ الشَّجَرُ»^(١).

- وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه - قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:

علّمني عملاً يحبّني الله عليه، ويحبّني المخلوقون، ويثري الله مالي، ويُصِحّ بدني، ويطيل عمري، ويحشرني معك.

قال: هذه ست خصال تحتاج إلى ست خصال:

١- إذا أرت أن يحبّك الله فخفه واثقه.

٢- وإذا أردت أن يحبّك المخلوقون فأحسن إليهم، وارفض فيما في أيديهم.

(١) وسائل الشيعة ٣/ ٧٦، الباب ٣٢ (باب استحباب كثرة التنفّل)، ح ٢، وبحار الأنوار ٨٢/ ١٦٢-١٦٣، الباب ٢٩ (باب فضل السجود وإطالته)، ح ٦.

- ٣- وإذا أردت أن يثري الله مالك فزكّه.
- ٤- وإذا أردت أن يصحّ الله بدنك فأكثر من الصدقة.
- ٥- وإذا أردت أن يطيل الله عمرك فصّل ذوي أرحامك.
- ٦- وإذا أردت أن يحشرك الله معي فأطل السجود بين يدي الله الواحد القهار^(١).
- فهذه ستة بسة، وقوله: (فزكّه) تعني: أخرج الحقّ الشرعي منه.
- وفي الرواية قال منصور الصيقل: «حججتُ فمررتُ بالمدينة، فأثيتُ قبر رسول الله ﷺ، فسلمتُ عليه، ثمّ التفتُ فإذا أنا بأبي عبد الله [الصادق] عليه السلام ساجداً، فجلستُ حتى مللتُ، ثمّ قلتُ: لأسبّحنّ ما دام ساجداً، فقلتُ: (سبحانَ ربّي العظيم وبحمده، أستغفر الله ربّي، وأتوب إليه) ثلاث مئة مرّة ونيّفاً وستين مرّة، فرفع رأسه، ثمّ نهض^(٢)».
- فالمسافة الزمنية من بداية جلوس الصيقل إلى أن ملّ فقرّر أن يسبّح هذه غير محسوبة في عدد تسبيحاته؛ لأنّه وقتها لم يكن يسبّح، وإنّما كان ينتظر أن يرفع الإمام الصادق رأسه من السجود، فأطال الإمام، وملّ الصيقل، وبعدما أعلن الملل وقال: «ثمّ قلتُ: لأسبّحنّ ما دام ساجداً، فقلتُ: (سبحانَ ربّي العظيم وبحمده، أستغفر الله ربّي، وأتوب إليه) ثلاث مئة مرّة ونيّفاً وستين مرّة»، وبعد هذا رفع الإمام رأسه من السجود، فكم من الوقت يستغرق هذا العدد من الذكر، حتى نقرب كم قضى الإمام ساجداً، فضلاً عن ذاك الوقت الذي قضاه الصيقل منتظراً حتى ملّ، والذي لا نعرف تقديره، ولا نعلم كم طال!!
- وفي رواية أخرى عن حفص بن غياث قال: «رأيتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام يتخلّل بساتين الكوفة، فانتهى إلى نخلة، فتوضأ عندها، ثمّ ركع وسجد، فأحصيتُ في

(١) بحار الأنوار ٨٢ / ١٤٦، الباب ٢٩ (باب فضل السجود وإطالته)، ح ١٢.

(٢) بحار الأنوار ٨٢ / ١٦٥، الباب ٢٩ (باب فضل السجود وإطالته)، ح ١٥.

سجوده خمس مئة تسيحة، ثم استند إلى النخلة، فدعا بدعوات»^(١).

- وفي الرواية أن الإمام علي بن الحسين عليه السلام «برز إلى الصحراء، فتبعه مولى له، فوجده ساجداً على حجارة خشنة، فأحصى عليه ألف مرة: (لا إله إلا الله حقاً حقاً، لا إله إلا الله تعبدًا ورقاً، لا إله إلا الله إيمانًا وصدقًا)، ثم رفع رأسه»^(٢).

- وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان علي بن الحسين عليه السلام قاعدًا في بيته، إذ قرع قوم عليه الباب، فقال: يا جارية، انظري من في الباب؟، فقالوا: قوم من شيعتك، فوثب عجلان حتى كاد أن يقع، فلما فتح الباب ونظر إليهم رجع، وقال: كذبوا!!، فأين السم في الوجوه؟!، أين أثر العبادة؟!، أين سيماء السجود؟!، إنما شيعتنا يُعرفون بعبادتهم وشعثهم، قد قرّحت العبادة منهم الأنف، ودثّرت الجباه والمساجد»^(٣).

فالإمام لم يكذب يسمع أنهم من شيعته حتى هبّ مسرعًا عجلًا لهم، حتى كاد أن يعثر، فلما فتح الباب ونظر في وجوههم قال: أين السم في الوجوه؟!، لماذا لا أرى علامات أتباع أهل البيت عليهم؟!.

إلى غير ذلك من الروايات التي تحمل إشارة إلى فضل السجود، وإلى مرتبة السجود، وإلى واقع السجود في سيرة الأولياء، التي قلنا: إن ذاك إشارة إلى أن السجود هو المرتبة النهائية في الخضوع لله - جلّ وعلا -.

(١) الكافي ٨ / ١٤٣، باب (حديث حفص، وسجود أبي عبد الله عليه السلام)، ح ١١١، ووسائل الشيعة ٤ / ٩٧٩، الباب ٢٣ (باب استحباب طول السجود بقدر الإمكان، والإكثار منه، والإكثار فيه من التسييح والذكر)، ح ٦.

(٢) وسائل الشيعة ٤ / ٩٨١، الباب ٢٣ (باب استحباب طول السجود بقدر الإمكان، والإكثار منه، والإكثار فيه من التسييح والذكر)، ح ١٥.

(٣) مستدرک الوسائل ٤ / ٤٦٨، الباب ١٧ (باب استحباب زيادة تمكين الجبهة والأعضاء في السجود)، ح ٦.

ثانيًا: التذكير بالمبدأ والمعاد:

والسجود يذكر الإنسان - أيضًا - بمبدئه ومعاده، وأنه جاء من التراب، وصائر إلى هذه الحفرة والتراب، وصائر إلى الوقوف بين يدي الله - جلّ وعلا -، والإنسان الذي يعرف أن مبدأه الضعف^(١)، ومنتهاه الجيفة التنته، وما بين هذا المبدأ وهذا المنتهى تناله أمراض ومصائب ومشاكل وقذارات وسأم وضجر وكدح وشقاء، وغير ذلك مما لا يمكن عدّه وحصره؛ ينبغي أن يدرك أنه مبدأ ضعف، فما الذي يوجب تكبر الإنسان على أخيه الإنسان؟!، وما الذي يدعوه إلى أن يشمخ بأنفه على الآخرين؟!، وما الذي يحدّو به إلى أن يتكبر على الله؟!، وما الذي يجعله يخاصم ربّه؟!، وما الذي يعطي له مبررًا أن يعصي الله - جلّ وعلا -، وأن يتمرد على طاعة ربّه؟!

التمرد الذي يشكّل خطأ في حياة الإنسان ليس التمرد بمعنى أن يعصي الإنسان ثمّ يتوب!!، لا..، بل هو ذاك الذي يعتنقه أناس تمادوا في الطغيان، حتى غدا خطّ سيرهم في الحياة سمته المعصية - والعياذ بالله -، فهل يستطيع هؤلاء أن يفهمونا ما الذي دفعهم لذلك؟!، وما المبرر الذي يسوّغ لهم معصية الله؟!

والله يذكر الإنسان بهذا المبدأ وبهذا المنتهى، ويختطف من بين أظهره أباه وأمه وأخاه وابنه وصديقه وجاره بالموت؛ ليتعظ، وإلى جانب ذلك يمسه بالفقر والمصيبة والمرض والسقم إلى كافة أنواع البلاء، كلّ هذا حتى يقول له: يا ابن آدم، أنت ضعيف، لا تحتمل أن تقف في مقابل عذاب بسيط مما يرسله الله - جلّ وعلا - إليك، وأنت تريد أن تقارنه بعذاب يطول مقامه، ولا يخفّف عن أهله، هو عذاب الآخرة، وليست هناك مقارنة بينهما، ومن لا يستطيع في هذه الدنيا تحمّل عذابها، ولا يقوى على حمل جمرة، فكيف يستطيع أن يتحمّل عذاب النار؟!

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [سورة الروم، الآية ٥٤].

وعقوباتها، وما يجري فيها من المكاره على أهلها، على أن ذلك بلاء ومكروه: قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدته، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة، وجليل وقوع المكاره فيها!!، وهو بلاء: تطول مدته، ويدوم مقامه، ولا يخفف عن أهله؛ لأنه لا يكون إلا عن غضبك وانتقامك وسخطك، وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض، يا سيدي، فكيف بي: وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين»^(١).

فالسجود يشير إلى هذا المبدأ، وإلى هذا المنتهى؛ حتى يحقق واقع الخضوع في حياة الإنسان، وهو من الأمور الأساسية التي لا بد أن تكون دائماً نصب عين الإنسان: «رحم الله امرأ عرف من أين؟، وفي أين؟، وإلى أين؟»^(٢).

وهكذا نصل في حديثنا عن أدب السجود إلى أن السجود تمثيل واضح لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(٣).

وقد سأل رجل أمير المؤمنين عليه السلام: فقال: «ما معنى السجدة الأولى؟، فقال: تأويلها: اللهم منها خلقتنا، يعني من الأرض، وتأويل رفع رأسك: ومنها أخرجتنا، والسجدة الثانية: وإليها تعيدنا، ورفع رأسك: ومنها تخرجنا تارة أخرى»^(٤).

(١) مصباح المتهجد / ٨٤٧، (دعاء آخر، وهو دعاء الخضر عليه السلام)، مفاتيح الجنان / ٨٨، (دعاء كميل).

(٢) الملا صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي (ملا صدرا)، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة ٨ / ٣٥٥. ونقله كذلك:

- الشيخ محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف ٧ / ٤٧٧.

- السيد حسن السيد علي القبانجي، شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين / ٨٨.

- الشيخ محمد محمدي الري شهري، موسوعة العقائد الإسلامية، ٢ / ٣٠٣، الباب ٢، ح ٢٤٥٠، ثم قال: «ولم نجد هذا الحديث في المصادر الحديثية»، الحاشية ٣.

(٣) سورة طه، الآية ٥٥.

(٤) مَنْ لا يحضره الفقيه ١ / ٢٢٢، (باب وصف الصلاة من فاتحتها إلى خاتمتها)، ح ٩٣٠، ووسائل الشيعة ٤ / ٩٤٦، الباب ٢٤ (باب أنه يجب في كل ركعة ركوع واحد وسجدتان إلا الكسوف)، ح ٣.

فالسجود تذكير بحقيقة مبدأ الإنسان:

ففي سجدتك، في وضع رأسك على الأرض، يذكرك الله - جلّ وعلا - أنّ هذا التراب مبدأ خلقك: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(١)، فهذا الذي تسجد عليه، هذا الذي ترغم الموضع المكرّم عندك - وهو وجهك وجهتك - أن يسجد عليه؛ هو مبدأ خلقك!!

وبعد ذلك تعود إلى السجدة الثانية؛ لتحكي أنّك عائد لهذا التراب: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾. ثم ترفع رأسك من السجود؛ لتذكر أنّ هناك بعثًا، وأنّ هناك نشورًا، وأنّ هناك سؤالًا وحسابًا وكتابًا: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

فالآية تذكّر الإنسان بثلاث حقائق:

- أ - ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، تذكّر مبدأك.
- ب - ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، تذكّر معادك.
- ج - ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، تذكّر المعاد الأساس، وهو الخروج من القبر للقاء الله - جلّ وعلا -.

أي أنّ السجود تذكير عميق للإنسان بمبدئه ومعاده: «رحم الله امرأ عرف من أين؟، وفي أين؟، وإلى أين؟».

فمشكلة الإنسان غفلته عن المبدأ والمعاد، جهله بمبدئه ومنتهاه، جهله بما جاء منه، وجهله بما يؤول إليه.

من أي شيء خلق الله الإنسان؟!

حين يقول الله - جلّ وعلا - عن الإنسان: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾^(٢)، فهذا

(١) سورة السجدة، الآية ٧.

(٢) سورة عبس، الآية ١٨.

استفهام استنكاري - بتعبير اللغويين -، يعني أنّ الله - جلّ وعلا - يستفهم مستنكراً: علام يتكبر الإنسان؟!، وعلام يطغى؟!، ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ الله؟!، هل خلقه من ألماس؟!، هل خلقه من ذهب؟!، هل خلقه من فضة؟!، هل خلقه من نور؟!

كلا.. بل هو من تراب، من طين، من طين لازب، من صلصال من حمأ مسنون، من صلصال كالفخار، ثم من نطفة يتقرّز منها البشر نفسه:

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾^(١).

- ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(٢).

- ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾^(٣).

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾^(٤).

- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(٥).

- ﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾^(٦).

- ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّيْلَ يَسْرُهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾^(٧).

- «أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قدرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة»^(٨).

(١) سورة الروم، الآية ٢٠.

(٢) سورة السجدة، الآية ٧.

(٣) سورة الصافات، الآية ١١.

(٤) سورة الحجر، الآية ٢٦.

(٥) سورة الرحمن، الآية ١٤.

(٦) سورة السجدة، الآية ٨.

(٧) سورة عبس، الآية ١٨-٢٢.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم / ٣٠٨، الحكمة ٧٠٨٧.

عَالَمَانِ مَجْهُولَانِ!!

وكلتا الحلفتين - المبدأ والمعاد - عالم مجهول، وإنما يعرف الإنسان أصل المطلب: أن هناك مبدءاً، وأن هناك معاداً.

وكما يجهل الإنسان مقاييس المبدأ، وكيف كان، وكيف خُلق: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾^(١)؛ يجهل مقاييس المعاد، وكيف سيكون.

وكيفما يتصوّر البشر اليوم طريقة الخلق الأولى، وكيف بدأ الله خلق الكون وخلق الإنسان؛ يبقى ذلك تخرّصاً؛ لأنّ الله - جلّ وعلا - يقول: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾^(٢)، كلّ ما يُقال يبقى إضلالاً للبشر، جهل الإنسان بمبدئه هو عينه جهله بمعاده.

وبعد هذه السبعين سنة التي يقضيها الإنسان في هذه الحياة، وبعد انقضاء هذه الحياة، وبعد تلاشي هذا الكون، فإنّ ما يؤول إليه الإنسان مجهول، و«الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»^(٣)، فبعد الموت يشهد الإنسان مقاييس غير المقاييس التي اعتادها في الدنيا، وحقائق غير الحقائق، وعالمًا غير هذا العالم، وذاك ما يعبر عنه الحديث بـ (هول المطلع)، فالإنسان - هنا - يعيش في مقاييس معيّنة: اعتادها، واعتاد أن يُجري حياته وفقها، وتذليل بعضها لصالحه، ولكنّ الموت سينقله فجأة إلى عالم آخر، وإذا هو أمام مقاييس لم يعهدها: «والله، لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»^(٤)، كما يقول رسول الله ﷺ.

(١) سورة الكهف، الآية ٥١.

(٢) سورة الكهف، الآية ٥١.

(٣) بحار الأنوار ٥٠ / ١٣٤، الباب ٣ (باب معجزات الإمام أبي الحسن الهادي، ومكارم أخلاقه)، ذيل الحديث ١٥.

(٤) بحار الأنوار ٥٥ / ١٠٧، الباب ٨ (باب السماوات وكيفياتها وعددها)، ح ٥٣.

أثر وعي المبدأ والمعاد في حياة الإنسان:

وبمقدار ما يعي الإنسان معادلة مبدئه ومعاده، ومن أين جاء، وإلى مَ يؤول أمره ومصيره؛ ينعكس ذلك على حياته؛ ولذا نجد في الآيات والروايات التذكير الدائم بحقيقة عرفان المبدأ والمعاد: ابتداء خلق الإنسان من نقطة قدرة، إلى أن يكون جيفة نتنة، وهو بين هذا وذاك وعاء يحمل العذرة، وهذا هو مختصر حال الإنسان!!

إذا تذكّر الإنسان مبدأه ومعاده ستترشح الآثار الإيجابية على داخله النفسي، وعلى أقواله، وعلى سلوكه الأخلاقي والعملي والعبادي، وإذا نسيهما أو تناساهما أو أنكرهما فستترشح الآثار السلبية على ذلك.

وسنقف - وقوفاً عاجلاً - عند بعض الآثار السلبية لنسيان المبدأ والمعاد:

١- العُجب:

مع أنّ الإنسان أصله التراب والطين والصلصال والمُني والنطفة، ونهايته أن يكون جيفة نتنة يقتتل عليها الدود، لكنّ تناسيه لذلك يجعله يشعر بحالة من العُجب الداخلي..

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما لابن آدم والعُجب، وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قدرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة»^(١).

٢- التكبر:

وإذا كان العُجب داخلياً في النفس، فإنّ هناك أثراً آخر لنسيان المبدأ والمعاد هو: التكبر، وهو سلوك ظاهري ناتج من العُجب، يجعل صاحبه يشمخ بأنفه، ويطغى ويتكبر، ويتعالى ويتجبر.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم / ٣٠٨، العُجب وذمّه، الحكمة ٧٠٨٧.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «عجبتُ للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة، ويكون غداً جيفة»^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: عجبتُ لابن آدم أوله نطفة، وآخره جيفة، وهو قائم بينهما وعاء للغائط، ثم يتكبر»^(٢). ويقول العلامة المجلسي: «فمن أصله من التراب المهين الذي يُداس بالأقدام، ثم خُمّر طينه، حتى صار حمأ مسنوناً كيف يتكبر؟!»^(٣).

ولا يفعل ذلك على بني جنسه فحسب، بل.. على خالقه - جلّ وعلا - ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(٤).

و(إذا) في هذه الآية يسمّيها علماء اللغة (إذا/ الفجائية)، يعني ما كان متوقعاً أن يكون هذا خصيم ربّه، هذا المخلوق الضعيف يكون خصيم الله على أيّ أساس؟!، ماذا لديه من مؤهلات الخصومة؟!

٣- الخيلاء والافتخار:

ومن مظاهر نسيان المبدأ والمعاد: حالة الزهو والخيلاء والتفاخر على الآخرين.. يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «عجباً للمتكبر الفخور، الذي كان بالأمس نطفة، ثم هو غداً جيفة»^(٥).

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «عجباً للمختال الفخور، وإنّما خُلِقَ من نطفة، ثم

(١) نهج البلاغة/ ٤٩١، قصار الحكم، الحكمة ١٢٦.

(٢) بحار الأنوار ٧٠ / ٢٣٤، باب (منشأ التكبر)، ذيل الحديث ٣٣.

(٣) بحار الأنوار ٧٠ / ٢٢٧، باب (منشأ التكبر)، ذيل الحديث ١٨.

(٤) سورة يس، الآية ٧٧.

(٥) الكافي ٢ / ٣٢٨، (باب الفخر والكبر)، ح ١.

يعود جيفة، وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يُصنع به»^(١).

وعن الإمام الصادق، عن أبيه، عن جده عليه السلام قال: «وقع بين سلمان الفارسي رضي الله عنه وبين رجل كلاماً وخصومة، فقال له الرجل: مَنْ أَنْتَ يا سلمان؟، فقال سلمان: أما أولاي وأولاك فنطفة قدرة، وأما أخراي وأخراك فجيفة منتنة، فإذا كان يوم القيامة، ووضعت الموازين، فَمَنْ ثَقُلَ ميزانه فهو الكريم، وَمَنْ خَفَّتْ ميزانه فهو اللئيم»^(٢).

٤- الفجور والعصيان:

إذا وضع الإنسان مبدأه نصب عينه، بوصفه المحطة الأولى التي قدم منها، وأن خلقه من تراب، ثم من مني ونطفة، وكان خلقاً من الله، فسوف يأخذ بزمام الطاعة: شكراً للخالق المنعم المتفضل، العظيم القدير الذي أوجده من العدم ومن التراب والمني والنطفة، والذي جعله خلقاً سوياً سليماً، وإذا نسي ذلك فسوف يخوض مستنقعات المعصية والذنب؛ ولهذا ذكره الباري - جلّ وعلا - بمبدئه، وأنه إن نسي أن الله خلقه، وسوّاه، وعدله، وركّبه في صورة بهية، فسوف يغتر ويعصي.

يقول ربّنا - تبارك وتعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^(٣).

(١) الكافي ٢ / ٣٢٩، (باب الفخر والكبر)، ح ٤، وبحار الأنوار ٧٠ / ٢٢٧، باب (منشأ التكبر)، ذيل الحديث ٢٢.

(٢) بحار الأنوار ٧٠ / ٢٣١، باب (منشأ التكبر)، ذيل الحديث ٢٤.

(٣) سورة الانفطار، الآية ٦-٨.

ومن كلام لأمير المؤمنين علي عليه السلام عند تلاوته: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾: «أدحض مسؤول حجة، وأقطع مغترّ معذرة، لقد أبرح جهالة بنفسه، يا أيها الإنسان ما غرّك برّبك؟، وما جرّأك على ذنبك؟، وما آنسك بهلكة نفسك؟».

[نهج البلاغة / ٣٤٤، الخطبة ٢٢٣، (ومن كلام له قاله عند تلاوته: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾)].

ويقول الشيخ الطوسي: «﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، أي: أي شيء غرّك بخالقك حتى عصيته فيما أمرك به ونهاك عنه؟!» [الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن

وإذا وضع الإنسان الآخرة نصب عينه، بوصفها المحطة الأخيرة في معاده ومنتهاه، فسوف يسعى لتجنب المعصية والذنب؛ حباً لله، وطلباً لقربه، أو طمعاً في الجنة، أو خوفاً من النار، لكنه قد ينساها أو يتناساها، أو يُعرض عنها أو ينكرها؛ ليحرّر نفسه من وخز الضمير الحيّ وتأنيبه الملحّ على اجتراح المعصية، وبذلك يخوض المعصية مخرباً صوت ضميره.

إنّ أهم دافع للإنسان لإنكار الآخرة دافع نفسي لا علمي، وهو: الرغبة في الفجور والمعصية: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾^(١).

ويروي الإمام الرضا عليه السلام عن جدّه الإمام الحسين بن علي عليه السلام حديثاً ورد في خاتمته: «وعجبت لمن أيقن بالحساب كيف يذنب؟!»^(٢).

فمتى قال الإنسان بالآخرة أتبه ضميره على المعصية، وتوعّده بالحساب فيها، ولكي يُخرس إلحاح هذا الضمير الحيّ، ويُسكِت لسان هذه النفس اللوامة؛ ينكر الآخرة؛ حتى يتغلّت من وخز الضمير، ومن ثمّ يسرح في عالم المعصية دون رقيب ومحاسب.

٥- الكفر:

ويصل نسيان المبدأ والمعاد بالإنسان إلى حدّ الكفر بالله العظيم.

بيّن الله لنا قصة صاحب الجنتين، فيقول: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ

١٠ / ٢٩١، تفسير سورة الانفطار، الآية ٦.

ويقول العلامة المجلسي: ﴿مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمَ﴾، أي شيء خدعك وجرّأك على عصيانك؟! [بحار الأنوار ٩ / ١٦٩، باب (تفسير آيات)].

(١) سورة القيامة، الآية ٥-٦.

(٢) عيون أخبار الرضا ٢ / ٤٨، باب (في فضل زيارة الحسين عليه السلام)، ح ١٥٨، وبحار الأنوار ٧٠ / ٩٥، باب (فيما ناجى الله موسى عليه السلام في الفقر والغنى)، ح ٧٦.

أَتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣﴾.

فصاحب الجنتين - من طرف - نسي أصله ومبدأه الترابي والنطفوي: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾!!

ومن طرف آخر نسي منتهاه ومعاده وآخرته، وآمن بثبات الدنيا ودوام الحال، واعتصم بماله وبستانه بوصفهما الركن الوثيق والملجأ الواقى: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾!!

ونسيانه لمبدئه ومعاده أوصله للكفر بالله: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾!!

وقد اعترف وأقرّ بكفره وشركه بالله بعد أن دمر الله جنتيه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤).

ثالثًا: الفناء في الله - جلّ وعلا -:

نحن لا نستطيع بعقولنا القاصرة إدراك واقع السجود، ولكن فيما نستطيع بعقولنا القاصرة أن نستفيده من واقع السجود هو: الفناء في الله - جلّ وعلا -:

بعض الأولياء يعتبرون السجود المرحلة الأخيرة من الفناء في المعبود، ولا يعني بـ (الفناء) هنا: المعاني التي تخالف التوحيد، والتي يدّعيها بعض الصوفية، وإنما

(٣) سورة الكهف، الآية ٣٢-٣٨.

(٤) سورة الكهف، الآية ٤٢.

نعني أن ترى الله - جلّ وعلا - قبل كلّ شيء، ومع كلّ شيء، وفي كلّ شيء، وبعد كلّ شيء، وأن لا ترى لنفسك وجوداً في مقابل وجود الله - جلّ وعلا -، وأن لا ترى لنفسك إرادة في مقابل إرادة الله - جلّ وعلا -، أي أن يكون الإنسان ربّانياً: يرى الله قبل كلّ شيء، ومع كلّ شيء، وفي كلّ شيء، وبعد كلّ شيء، يعبد الله كأنه يراه، وبالتالي كلّ حركة، وكلّ سكينة، وكلّ تصرّف، وكلّ خطوة، وكلّ عمل؛ مقرون دائماً بإرادة الله - جلّ وعلا -، وهذه المرحلة تبتدئ بحلال الله وحرامه، وتمتد لتصل لكلّ شيء حتى أبسط القضايا، ليس مهماً لدى الإنسان السالك في ذلك الوقت شربه وأكله ونكاحه، كلّ هذا مؤطر بإرادة الله - جلّ وعلا -، ذاك الوقت النوم يكون عبادة، والشرب يغدو عبادة، والحركة تصبح عبادة، والسكون يضحى عبادة، كلّ تصرف من تصرفات الإنسان حينذاك يكون عبادة.

حين يكون الإنسان سالكاً وسائرّاً يعنون كلّ شيء لديه بعنوان العبادة؛ لأنّه إنسان لا يرى لنفسه وجوداً في مقابل الله - جلّ وعلا -، لا يرى لنفسه إرادة في مقابل إرادة الله، يستحضر في داخله الذلّ في مقابل الباري العظيم: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، (ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل)^(٢).

يعني أنّ الإنسان يدرك أنّه لا واقع له في قبال الله، وذاك ما تشير إليه الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٣)، يعني

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٢.

(٢) هذا شطر من بيت شعري للبيد بن ربيعة العامري يقول فيه:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل وكلّ نعيم لا محالة زائل
[البيد بن أبي ربيعة العامري، ديوان لبيد بن أبي ربيعة، شرح: علي بن عبد الله الطوسي، تقديم وفهرسة الدكتور: حنا نصر الحتي / ١٤٥].

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «أصدق كلمة قالها شاعرٌ كلمة لبيد: (ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل)»، [أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري ٤ / ٢٣٦، (باب أيام الجاهلية)، وكذلك ٧ / ١٠٧، (كتاب الأدب)].

(٣) سورة فاطر، الآية ١٥.

أَنَّكَ محض فقر، لا شيء عندك، وواقعك لا شيء، ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾، هو مطلق الغنى، وعنده كل شيء، وعلاقة الإنسان الفقير بالله الغني ليست علاقة فقيرنا بغنيّنا، بل هي علاقة الفقر بالغنى؛ لأنّ واقع الإنسان فقر مطلق ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾، وواقع الله - جلّ وعلا - واقع الغنى المطلق ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، فالإنسان السالك والواصل لا يرى لنفسه وجوداً، وبتعبير أوضح وأشمل أقول: الإنسان ليس له وجود أصلاً في مقابل وجود الله، وعليه أن يرى نفسه ظلاً لذلك الوجود المطلق، وبالتالي عليه أن يطابق بين إرادته وإرادة الله - جلّ وعلا -.

هذا ما يمكن أن نتحقّقه من واقع تشريع السجود في الصلاة، هو خضوع لله - جلّ وعلا -، وذكر للمبدأ والمعاد، وفناء في إرادة الله - جلّ وعلا -.

وإذا تحقّقت هذه العناصر في سجودنا كان السجود مُعِيناً أو موصلاً إلى الصلاة المطلوبة عند الله - جلّ وعلا -.

وفي ختام مبحثنا عن السجود نذكر: أنّ ربيعة بن كعب جاء إلى رسول الله ﷺ، وطلب منه أن يدعو له بالجنّة، فقال: يا رسول الله، ادعُ لي بالجنّة، فقال عليه السلام: «أعني بكثرة السجود»^(١).

جعلنا الله وإياكم من الساجدين المصلّين.

(١) بحار الأنوار ٨٢ / ١٦٤، الباب ٢٩ (باب فضل السجود وإطالته)، ح ١١.



الأدب الثاني عشر التشهُد

لِمَ كَانَ التَّشَهُّدُ بَعْدَ الاسْتِوَاءِ مِنَ السُّجُودِ؟

يقول العارفون: إذا استوى الإنسان من سجدته الثانية جالساً، وأراد التشهد، فموضع التشهد هنا في هذا المكان من الصلاة يشير إلى أنّ الإنسان كأنّه بُعث من موته وقبره، فإذا به يفاجأ بالحقيقة الكاملة والحقيقة الكبرى وهي: أنّ المالك والمتصرّف والإله هو الله - جلّ وعلا - لا شريك له؛ فيبتدئ بالتشهد: (أشهد أن لا إله إلا الله)، كأنّه انبعث من سجوده - أي انبعث من قبره -، وحين ينبعث الإنسان من قبره، حينذاك تزول عنه الحُجُب وتتكشّف أمامه الحقائق: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١).

الغطاء الذي كان يحجبك عن حقيقة الكون، وأنّ الكون بيد مَنْ؟ قد انكشف وزال... وإذا بك ترى أنّ المتصرّف والمالك والإله وكلّ شيء هو الله - جلّ وعلا -، فيُطلب منك حينذاك أن تتشهد.

(١) سورة ق، الآية ١٩ - ٢٢.

أجزاء التشهد

التشهد في لسان أهل البيت:

قبل أن يتجول قطار دراستنا في أفياء معاني أجزاء التشهد، ننقل روايتين عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام تحملان عبارات التشهد المستحبة والواجبة:

١- عن الحسين بن سعيد، عن صفوان قال: حدثنا عبد الله بن بكير، عن عبد الملك بن عمرو الأحول، عن أبي عبد الله [الصادق] عليه السلام قال: «التشهد في الركعتين الأوليين: (الحمد لله، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل على محمد وآل محمد، وتقبل شفاعته في أمته، وارفع درجته)»^(١).

٢- وعن الحسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن زرعة، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله [الصادق] عليه السلام قال: «إذا جلست في الركعة الثانية فقل: (بسم الله وبالله، والحمد لله، وخير الأسماء لله، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة، أشهد

(١) تهذيب الأحكام ٢ / ٩٢، (باب كيفية الصلاة وصفتها، وشرح الإحدى وخمسين ركعة، وترتيبها، والقراءة فيها، والتسبيح في ركوعها وسجودها، والقنوت فيها، والمفروض من ذلك والمستحب)، ح ١١٢.

أَنَّكَ نَعَمَ الرَّبِّ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَعَمَ الرَّسُولَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَتَقَبَّلْ شَفَاعَتَهُ فِي أَمَتِهِ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ، ثُمَّ تَحْمَدُ اللَّهَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا^(١).

أجزاء التشهد:

ومن السماء الغدقة لروايتي أهل البيت السابقتين نستمطر سبعة بحوث، هي وقفات لأهم أجزاء التشهد:

أولاً: الشهادة لله بالقوامة:

نبدأ التشهد بذكر مستحب نقول فيه: (بسم الله وبالله)، وبه نعلن أن مبتدأ الأشياء والأمور بالله، فنقول: (باسم الله)، ونعلن - كذلك - أن قوام الأشياء والأمور (باسم الله)، فنقول: (وبالله).

أي أن ابتداء الأمور وإيجادها من العدم كان (باسم الله)، وبقاؤها واستمرارها في الوجود لا يكون إلا بالله (وبالله)، فالإيجاد والإبقاء هما - معاً - بالله تعالى.

فهذا الشعار القصير (باسم الله وبالله) يعلمنا قيمة عظمى من الحقائق الكونية والعقدية هي: القيومية الإلهية في مستويين:

الأول: قيومية الإيجاد والخلق والابتداء.

والثاني: قيومية الإبقاء والاستمرار والإدامة.

وباصطلاح المتكلمين: الله هو العلة المحدثّة الموجدّة، وهو العلة المبقية المديمة، والعلة المحدثّة هي العلة المبقية، ولا نتصور الانفصال بين العلتين.

ومما يشهد للقيومية الربّانية - بمستوييها - على الأشياء، قولنا في (دعاء

(١) تهذيب الأحكام ٢ / ٩٩، (باب كيفية الصلاة وصفتها، وشرح الإحدى وخمسين ركعة، وترتيبها، والقراءة فيها، والتسبيح في ركوعها وسجودها، والقنوت فيها، والمفروض من ذلك والمستحب)، ح ١٤١.

الجوشن الكبير): «يا مَنْ كُلُّ شيء موجودٌ به،، يا مَنْ كُلُّ شيء قائمٌ به»^(١).

فعبارة: «يا مَنْ كُلُّ شيء موجودٌ به» تتحدّث عن قيومية الإيجاد.

وعبارة: «يا مَنْ كُلُّ شيء قائمٌ به» تتحدّث عن قيومية الإبقاء.

التشكيك في قيومية الإبقاء:

علينا أن لا تصوّر شيئاً أو موجوداً أو كوناً منفصلاً أو منبثّاً عن الله..

علينا أن ننفي التصوّر الذي وقع في شركه الفكر اليهودي، وبعض فرق المسلمين، وبعض الفلاسفة..

أ- مشكلة الفكر اليهودي أنّه اعترف بقيومية الإيجاد والخلق، وأنكر قيومية الإبقاء والاستمرار!!: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^(٢)، فهم يقولون: الله خلق الكون، وأنشأه من العدم، ومضى وجلس على العرش!!، وترك الكون يدير نفسه بنفسه، وليس هناك شيء يتدخل الله فيه!!

ب- وهذا التصوّر اليهودي المشكّك في القدرة الإلهية وسعتها ونفوذها؛ تغلغل في أذهان بعض المسلمين وفرّقهم - وللأسف الشديد -، فقالوا: «رُفعت الأقلام، وجفّت الصحف»^(٣).

ج- وقد ركّز بعض الفلاسفة في أقوالهم ومقولاتهم ونظرياتهم هذا التصوّر المشكّك في القدرة الإلهية!!

- تارة بادعاء أن الله المتعالي أجلّ من أن يفكر في شيء غير ذاته، وأن يكون منشغلاً بأيّ شيء غير التفكير في ذاته!!، كما قال بعض الفلاسفة القدماء.

(١) البلد الأمين والدرع الحصين / ٤٠٦، (دعاء الجوشن الكبير، الفقرة (لز)، ومفاتيح الجنان /

١٢١ (دعاء الجوشن الكبير، الفقرة ٣٧).

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٣) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي ٤ / ٧٦، الباب ٢٢، ح ٢٦٣٥.

- وتارة أخرى بادعاء أنّ الكون يجري بتصرف قوانين طبيعية آلية ميكانيكية كالطفو والجاذبية، فحركته ذاتية، ولا يحتاج إلى افتراض محرّك خارجي عنه، كما قال بعض الفلاسفة الماديين المحدثين.

إنّ مشكلة الفكر اليهودي وبعض الفرق الإسلامية وبعض الفلاسفة الذين تبنّوه - مع شيء من تغيير العبارة - تكمن في (قيومية الإبقاء والاستمرار)، فهم قبلوا (قيومية الإيجاد والخلق)، وأنّ الله هو الذي أوجد الكون من العدم، وابتدأه من لا شيء، وخلقه وأبدعه من غير شيء، ومن غير تصميم سابق، لكنهم رفضوا قيومية الإبقاء والاستمرار.

ونحن بقولنا: (باسم الله، وبالله)، نعلن أنّ إيجاد الكون.. من الله، واستمراره قائم بالله، فهو الموجّد وهو المبقّي، ولو أنّ الله يرفع إرادته عن هذا الكون لانهار الكون، فبم قوام الكون بغير الله؟!

وهنا نقرّر - مجدّداً - أنّ التعبير ببعض العبارات من ضيق الخناق، يعني أنّه ليس عندنا عبارات تليق بساحة الإله - جلّ وعلا -، فنحن ملزومون للتعبير عن ذلك بعبارات غير كاشفة عن حقيقة الأمر بدقة، ومن هذا الضيق تعبّرنا بـ (الرفع) في قولنا: (ولو أنّ الله يرفع إرادته).

عندما نقول عن أمر الله وإرادته النافذة: «أمره بين الكاف والنون»^(١)، ماذا يعني هذا القول؟

يعني أنّه بمجرد عدم الإرادة من الله ينعدم هذا الكون.

ثانياً: تمجيد الله والثناء عليه:

بعد أن تقول في التشهّد: (بسم الله وبالله)، تعطرّ لسانك وقلبك بذكر مستحب

(١) بحار الأنوار ٢٥ / ١٧٢، الباب ٤ (باب جامع في صفات الإمام، وشرائط الإمامة)، ح ٣٨ (من كلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام لطارق بن شهاب عن صفات الإمام وشرائط الإمامة).

آخر هو تمجيد الله والثناء السابغ عليه، والحمد الباذخ لنعمه الوافرة، فتقول: (والحمد لله، وخير الأسماء لله)، أو (والحمد لله، والأسماء الحسنی لله)، أو (والحمد لله والأسماء الحسنی کلّها لله).

ثالثاً: الشهادة لله بالوحدانية:

ثم نلج إلى ساحة الذكر الواجب، ونقول: (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له).

يقول الحديث القدسي: «لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»^(١).

فمتى ندخل هذا الحصن المنيع؟

متى نقول في التشهد: (أشهد أن لا إله إلا الله)؟

إنّ حصن الله حصن شريف، لا يُدخل إليه إلا بأدب جمّ، واحترام عميق، ومقدّمات موطّئة..

تعلّمنا مقدّمة التشهد أنّ الدخول إلى حصن الله المنيع (لا إله إلا الله) يحتاج إلى أدبين ممهّدين هما: الإقرار بالقيومية، وتمجيد الله - كما قدّمناهما -.

فبعد أن تعلن إقرارك بالقيومية، وأنّ الأمور (باسم الله وبالله) - أو لا -، وبعد أن تمجّد الله وتقول: (والحمد لله، وخير الأسماء لله)، أو (والحمد لله، والأسماء الحسنی لله)، أو (والحمد لله والأسماء الحسنی کلّها لله) - ثانياً -؛ عندها تكون قابلاً للدخول في حصن الله وولايته، وأن تقول: (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، فليس كلّ أحد مؤهّلاً أن يدخل في حصن الله وولايته.

(١) معاني الأخبار / ٣٧١، باب (معنى آخر لحصن الله - عزّ وجلّ -)، ح ١.

الإقرار بالوحدانية واقع، لا مجرد ألفاظ!!

إنَّ إقرار الإنسان بالوحدانية لله: (أشهد أن لا إله إلا الله) كلمة خفيفة على اللسان، لكنها ثقيلة في الميزان؛ ولذلك يقول الحديث القدسي: «لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي».

وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خير العبادة قول: (لا إله إلا الله)»^(١).

وعن أحد الباقرين عليه السلام قال: «أكثرُوا من التهليل والتكبير؛ فإنه ليس شيء أحب إلى الله - عز وجل - من التهليل والتكبير»^(٢).

وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الاستغفار وقول: (لا إله إلا الله)، خير العبادة، قال الله العزيز الجبار: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾»^(٣)^(٤).

وليست لفظة (لا إله إلا الله) هي الحصن الذي يلوذ به الإنسان، وإنما إقراره بهذا الواقع هو الحصن: واقع أن لا إله متصرف حاكم في الكون إلا الله، وهي ليست معادلة سهلة وبسيطة يتصورها الإنسان، بل عليه أن يتصور أنها ليست مجرد ألفاظ خاوية غير مشيرة إلى حقيقة: حقيقة أن الكون بما فيه بيد الله - جل وعلا -.

من شروط الوحدانية موالة أهل البيت عليهم السلام:

ومن الشهادة لله - جل وعلا - بالوحدانية، ومن شروطها: الشهادة للآل الكرام بالولاية:

(١) الكافي ٢ / ٥٠٦، (باب التسييح والتهليل والتكبير)، ح ٥.

(٢) الكافي ٢ / ٥٠٦، (باب التسييح والتهليل والتكبير)، ح ٢.

(٣) سورة محمد، الآية ١٩.

(٤) الكافي ٢ / ٥٠٥، (باب الاستغفار)، ح ٦.

الإمام الرضا - صلوات الله وسلامه عليه - وهو سائر إلى خراسان في حديث السلسلة الذهبية يقول:

«سمعتُ أبي موسى بن جعفر يقول: سمعتُ أبي جعفر بن محمد يقول: سمعتُ أبي محمد بن علي يقول: سمعتُ أبي علي بن الحسين يقول: سمعتُ أبي الحسين بن علي بن أبي طالب يقول: سمعتُ أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سمعتُ جبرئيل عليه السلام يقول: سمعتُ الله - عزَّ وجلَّ يقول: (لا إله إلا الله حصني، فَمَنْ دخل حصني أَمِنَ مِنْ عَذَابِي)»^(١).

فهل هناك إسناد أرفع من هذا الإسناد؛ لذلك يقول أحمد بن حنبل عن هذا الإسناد: «وهذا إسناد لو قرئ على المجنون لأفاق»^(٢)، ويقول أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروي: «لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لأفاق»^(٣).

فالإمام الرضا عليه السلام في حديثه يقول: «لا إله إلا الله حصني، فَمَنْ دخل حصني أَمِنَ مِنْ عَذَابِي»^(٤)، وسار الإمام بضع خطوات، ثم أخرج رأسه من محمله وقال: «بشروطها، وأنا من شروطها»^(٥).

أي أن (لا إله إلا الله) حصن الله الذي مَنْ دخله أَمِنَ من عذاب الله، ولكن ذلك له شروط، وولاية الإمام الرضا عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام عموماً - من شروطها، فأهل البيت عليهم السلام هم شروط صحة وقبول هذا التوحيد، وشروط صحة وقبول دخول هذا الحصن العظيم.

(١) معاني الأخبار / ٣٧١، باب (معنى حصن الله - عزَّ وجلَّ -)، ح ١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣ / ٤٣٢.

(٣) بحار الأنوار ١٠ / ٣٦٧، الباب ٢٠ (باب ما كتب الرضا عليه السلام للمؤمن من محض الإسلام وشرائع الدين)، ذيل الحديث ٣.

(٤) معاني الأخبار / ٣٧١، باب (معنى حصن الله - عزَّ وجلَّ -)، ح ١.

(٥) معاني الأخبار / ٣٧١، باب (معنى حصن الله - عزَّ وجلَّ -)، ح ١.

اتخاذ الأرباب من دون الله:

مأزق البشر ومأزق الإنسان غفلته عن حقيقة الوحداية، فإذا به يتخذ أرباباً من دون الله!!

واتخاذ الأرباب من دون الله ليس معناه - بالضرورة - إعلان أن فلاناً رب، أو أن الشيء الفلاني رب، أو أن فلاناً إله، أو أن الشيء الفلاني إله، فحتى المشركين لم يدعوا ذلك لآلهتهم؛ لأن المشركين وضعوا أصناماً، وادعوا أنهم إنما يعبدونها؛ لتقربهم إلى الله زلفى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١)، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٢).

فالمشركون مقررون أن الله موجود، وأنه الخالق، وأن الخلق كله بيد الله، ولكنهم وسطوا ما لم ينزل الله به سلطاناً، فخرجوا من دائرة التوحيد إلى دائرة الشرك. وحين يجعل الواحد منا في حياته، أو في محيطه، أو في قراره، أو في رأيه، أو في فكره، أو في سلوكه؛ شريكاً لم يأذن الله به؛ فقد أشرك وحبط عمله.

حين تتلقى فكرة ما أنزل الله بها من سلطان، وتعتقد بها؛ فقد أشركت في تشريعك، والصلاة - وهي خير صلة للعبد بخالقه، والمظهر الأجل للعبودية الحقة لله - إذا جاء بها أحد من غير إذن شرعي فقد أشرك؛ لأنها من المسائل التوقيفية التعبدية، والله - جلّ وعلا - هو الذي يقول لك: صلّ في هذا الوقت، ولا تصلّ في ذاك، وقل هذا في محتوى الصلاة، ولا تقل ذاك، وصلّ بهذه الكيفية، ولا تصلّ بتلك، وكفى..

رابعاً: التسليم لإرادة الله:

في رفعك رأسك من السجدة تعلن التشهد، تعلن الشهادة، تعلن القيومية، تعلن الوحداية، ثم تقول عن وحداية الله - جلّ وعلا -: (وحده لا شريك له)، لا شريك

(١) سورة الزمر، الآية ٣٨.

(٢) سورة الزمر، الآية ٣.

له في محيط التشريع، ولا شريك له في محيط التكوين، وهو تسليم لإرادتي الله: التشريعية والتكوينية، وهي في الحقيقة إرادة واحدة هي الإرادة الإلهية - جلّ ربّي وعلا -، وما التفريق إلا عندنا نحن البشر.

في إرادة الله التشريعية تسلّم بما أمر الله، وبما شرع، وبما أوحى إلى أنبيائه، وبما جاءت به رسله، وبما حملته كتبه، وفي إرادة الله التكوينية تسلّم لقضاء الله وقدره في هذا الكون من صحة، ومرض، وغنى، وفقر، وحياة، وموت، وغير ذلك... فتعلن أنّ الله واحد لا شريك له وتقول: (أشهد أن لا إله إلا الله).

فبكلمة (لا إله) تنفي الألوهية عن كلّ أحد في محيطك، فلا سلطان، ولا أب، ولا أخ، ولا زوجة، ولا ابن، ولا هوى.. يمكن أن يصبح إلهاً ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾^(١)؛ إذ في بعض الأوقات يكون هوى الإنسان هو الإله المعبود، فأنت تعلن (أن لا إله)؛ لتنفي كلّ إلهة مزيفة مزعومة، ثم تثبت الألوهية الحقّة المطلقة لله - جلّ وعلا -، فتقول: (إلا الله)، ثم تثبت الموضوع أكثر وتؤكد، فتقول: (وحده لا شريك له)، وهذا المعنى حضر في قولك: (أشهد أن لا إله إلا الله)، فأنت فيه أعلنت الوحدة لله وعدم الاشتراك؛ لأنّ الجملة المسيّجة بالنفي والإثبات (لا وإلا) تفيد الحصر والقصر، لكن.. عليك أن تؤكد الموضوع أكثر، فتقول: (وحده)، وتلقّن نفسك التوحيد: (لا شريك له)؛ ليكون أثبت وأرسخ لهذا المفهوم المركزي النبيل الذي قام كلّ بناء الإسلام على أساسه المتين.

التوقيفية في الأحكام الشرعية تزرع أشجار التسليم في القلب:

كان معنا في الحجّ أحد المؤمنين، وكأنّه يحجّ لأول مرّة، وإذا به يُذهل من أفعال الحجّ، يقول: ما هذه الحركات؟!، لسنا نفهم شيئاً منها!!، حجارة تطوف بها سبعاً، وتسعى بين حجرين سبعاً، وتقف في مزدلفة، وتقف في عرفات، وتمضي لمنى لترمي حجراً بحجر، هذه هي أعمال الحجّ!!، ما المغزى منها؟!

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

قلتُ له: الأساس في ذلك كله هو التسليم، ولا شيء غير التسليم، يمكن أن نبحث عن علل وعن فلسفات وحِكم تقف وراء الحكم الشرعي، لكنّ الأساس أنّ الله - جلّ وعلا - يريد أن يعبدك ولا شيء آخر، حتى لا تستشكل في حياتك اليومية على حكم شرعي معيّن، وتقول: لماذا هذا؟، ولماذا ذاك؟!

والحجّ يريد أن يقول لك: سلّم لأمر الله وكفى، هذه الحجارة طف بها سبعاً، وبين هذين الجبلين اسعّ سبعة أشواط، وقف بعرفة، وبت بمزدلفة، وارمِ واذبح واحلق بمنى. لا ننفي أنّه يمكن أن نتصوّر شيئاً من الحِكم والأغراض والفوائد في الطواف، ونتصوّره في السعي، وفي أعمال الحجّ الأخرى كالرمي والذبح والحلق، وقد تكون لنا علل، لكن ليس بالضرورة أن نصل إلى ذلك، لكنّ عنصر التسليم له في أعمال الحجّ مكانة كبيرة، بل.. المكانة الأكبر، فما علّة شخص يقف في عرفات من زوال الشمس إلى غروبها؟!، وماذا يعمل هناك؟!، ليس هناك عمل واجب عليه، ولماذا يقف بين الطلوعين في مزدلفة؟!، ما المناسبة؟!، لم هذا الوقوف؟!، ينتظر متى تطلع الشمس حتى ينفر، إنّهُ تعبّد وتسليم، أما لماذا؟، وما السبب؟!، وكلّ شيء حتى نعمله نريد معرفة علّته، فهذا أمر لا داعي له.

فالله - جلّ وعلا - يريد أن ينبّهنا إلى بعض الإشكالات التي قد تنشأ في أذهاننا، وضرورة قطعها بسيف التسليم الصارم، فلكي يقطع الله بعض التساؤلات التي قد تنشأ في ذهن الإنسان عن بعض الأحكام الشرعية، يأتي لنا بعبادة كالحجّ هي في قِمة التوقيفية والتعبّدية والحاجة إلى التسليم، حتى يقول لنا: خذ هذا، وتعبّد به، وسلّم دون لجاج ومناقشة، بل باقتناع وتواضع وطاعة وعبودية!!

كان أحد السوريين في السعي يسأل صاحبه ويقول له: لماذا نسعى من هنا إلى هناك؟، ما السبب؟، ما القصة؟، فأجابه صاحبه: لأنّ سيّدتنا هاجر لما كانت تبحث عن ماء إلى ابنتها سعت من هذا الجبل إلى هذا الجبل؟، فقال: صحيح، من الرائع أنّها لم تذهب إلى جدة، وإلا.. لكنّا الآن نسعى إلى جدة ذهاباً وإياباً!!

السعي والحجّ وسائر العبادات في الإسلام تعبد وتسليم، يقول الله - جلّ وعلا -: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١)، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهُمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(٢)، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣).

إنّهُ التسليم..

القاضي والشيباني والتشكيك!!

أبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني يُعتبران من أبرز تلامذة أبي حنيفة، وهما المؤسس الحقيقي للمذهب الحنفي. فأبو حنيفة لم يكتب شيئاً، ولم يخلف شيئاً، لكنّ هذين الاثنين هما اللذان أبرزوا المذهب، وأعطياه الصورة، ونسباه إلى أبي حنيفة، وإلا.. فالمذهب لم يتأسس على يده.

في روايات عدة أنّ أبا يوسف القاضي دخل على الإمام الكاظم عليه السلام، ودار بينه وبين الإمام الحوار الآتي، وفي أخرى أنّ الذي دخل على الإمام الكاظم عليه السلام وحاوره هو محمد بن الحسن الشيباني.

في الرواية عن محمد بن الفضيل قال: «كنا في دهليز يحيى بن خالد بمكة، وكان هناك أبو الحسن موسى [الكاظم] عليه السلام وأبو يوسف، فقام إليه أبو يوسف، وتربّع بين يديه، فقال: يا أبا الحسن، جُعِلْتُ فداك، المحرم يظلل؟، قال: لا، قال: فيستظلّ بالجدار والمحمل، ويدخل البيت والخباء؟، قال: نعم، قال: فضحك أبو يوسف شبه المستهزئ!!، فقال له أبو الحسن عليه السلام: يا أبا يوسف، إنّ الدين ليس بقياس كقياسك

(١) سورة القصص، الآية ٦٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

(٣) سورة النساء، الآية ٦٥.

وقياس أصحابك، إنّ الله - عزّ وجلّ - أمر في كتابه بالطلاق، وأكد فيه شاهدين، ولم يرخص بهما إلا عدلين، وأمر في كتابه بالتزويج، وأهمله بلا شهود، فأتيتم بشاهدين فيما أبطل الله، وأبطلتم شاهدين فيما أكد الله - عزّ وجلّ -!!، وأجزتم طلاق المجنون والسكران!!، حجّ رسول الله ﷺ فأحرم ولم يظلل، ودخل البيت والخباء، واستظلّ بالمحمل والجدار، فقلنا (ففعّلنا) كما فعل رسول الله ﷺ، فسكت»^(١).

وقد وردت قصة أبي يوسف القاضي بأشكال عديدة، في بعضها قال الإمام الكاظم عليه السلام: «يا أبا يوسف، إنّ الدين ليس بقياس كقياسكم، أنتم تلعبون!!، إنّنا صنعنا كما صنع رسول الله ﷺ، وقلنا كما قال رسول الله ﷺ، كان رسول الله ﷺ يركب راحلته فلا يستظلّ عليها، وتؤذيه الشمس فيستر بعض جسده ببعض، وربما يستر وجهه بيده، وإذا نزل استظلّ بالخباء وفي البيت وبالجدار»^(٢).

وفي بعضها قال الإمام الكاظم عليه السلام: «ما تقول في الطامث [الحائض]، أتقضي الصلاة؟، قال: لا..، قال: فتقضي الصوم؟، قال: نعم..، قال: ولم؟، قال: هكذا جاء، فقال أبو الحسن عليه السلام: وهكذا جاء هذا، فقال المهدي [الخليفة العباسي] لأبي يوسف: ما أراك صنعت شيئاً!!، قال: رمانى بحجر دامغ!!»^(٣).

ونقل أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي قال: «سأل محمد بن الحسن [الشيبياني] أبا الحسن موسى [الكاظم] عليه السلام بمحضر من الرشيد، وهم بمكة، فقال له: أيجوز للمحرم أن يظلل عليه محمله؟، فقال له موسى عليه السلام: لا يجوز له ذلك مع الاختيار، فقال له محمد بن الحسن: أفيجوز أن يمشي تحت الظلال مختاراً؟، فقال له:

(١) وسائل الشيعة ٩/ ١٥٠، الباب ٦٦ (باب جواز تظليل الرجل المحرم إذا نزل، ودخوله الخباء والبيت)، ح ٢.

(٢) وسائل الشيعة ٩/ ١٤٩-١٥٠، الباب ٦٦ (باب جواز تظليل الرجل المحرم إذا نزل، ودخوله الخباء والبيت)، ح ١.

(٣) عيون أخبار الرضا ٢/ ٧٦، الباب ٧ (باب جلّ أخبار موسى بن جعفر عليه السلام مع هارون الرشيد، ومع موسى بن المهدي)، ح ٦، ووسائل الشيعة ٩/ ١٥١، الباب ٦٦ (باب جواز تظليل الرجل المحرم إذا نزل، ودخوله الخباء والبيت)، ح ٤.

نعم، فتضاحك محمد بن الحسن من ذلك، فقال له أبو الحسن عليه السلام: أتعجب من سنة النبي صلى الله عليه وآله وتستهزئ بها؟!، إن رسول الله صلى الله عليه وآله كشف ظلاله في إحرامه، ومشى تحت الظلال وهو محرم، إن أحكام الله - يا محمد - لا تقاس، فمن قاس بعضها على بعض فقد ضلّ سواء السبيل، فسكت محمد بن الحسن لا يرجع جواباً^(١).

وهكذا نشهد أن الرواية بأشكالها العديدة الواردة تنضح بالتسليم بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله عن ربّه، وأن المعصومين عليهم السلام يقولون ما قال النبي، ويفعلون ما فعل، ويسلمون، ولا يشكّون، ولا يعملون القياس في الدين.

أبو العلاء المعري في زمرة المشكّكين!!

أبو العلاء المعري استشكل على موضوع شرعي، فماذا كان وجه إشكاله؟! كان إشكاله على قطع يد الإنسان.

في الحكم الشرعي إذا قطع إنسان يد آخر، فديتها خمس مئة دينار ذهب (خمسة آلاف درهم فضة)، هذه هي الدية، ولكن الإنسان إذا سرق تُقطع يده، والنصاب الشرعي الذي إذا سرقه فما فوق تُقطع يده.. هو ربع دينار فقط!!

وهكذا، فاليد ديتها خمس مئة دينار، وتُقطع إذا سرق ربع دينار!!

وقد وقف أبو العلاء المعري عند هذا الحكم مذهولاً، وقال:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسَجِدٍ وَدِيَتْ مَا بِأَلْهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ؟!
تَنَاقُضُ مَا لَنَا إِلَّا السَّكُوتُ لَهُ وَنَسْتَجِيرُ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ^(٢)

(١) وسائل الشيعة ٩ / ١٥١، الباب ٦٦ (باب جواز تظليل الرجل المحرم إذا نزل، ودخوله الخباء والبيت)، ح ٦.

(٢) انظر القصة مفصلة في: الشهيد الأول، القواعد والفوائد ١ / ١٤٢، وفيض القدير شرح الجامع الصغير ١ / ٢٩٩، ومحمود شهاب الدين أبو الثناء بن عبد الله الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٦ / ١٣٤.

و(العسجد) هو: الذهب^(١)، فهذه اليد التي تودي^(٢)، وديتها خمس مئة دينار، ما بالها قُطعت في ربع دينار؟!، إذا كانت ديتها خمس مئة دينار، فكيف تُقَطع إذا سرقت ربع دينار فقط؟!، كان ينبغي أن يحكمها مبدأ (المساواة بين الثمن والمثمن)، فما دامت غالية، وديتها خمس مئة دينار، فينبغي أن لا تقطع إلا إذا سرقت خمس مئة دينار، فما زاد، لا ربع دينار فقط!!

ويرى أن ذلك تناقض وتخوّص لا نملك إزاءه إلا السكوت، وأن نعوذ بالله - جلّ وعلا - من النار.

تلك كانت عقيدته ونظرتة لهذا الحكم الشرعي، فأجابه سيّدنا الشريف المرتضى علم الهدى - رضوان الله عليه -:

عزُّ الأمانة أغلاها، وأرخَصها ذلُّ الخيانة، فافهم حكمة الباري^(٣) فحين تكون اليد أمانة تسمو قيمتها، وتصبح خمس مئة دينار، أما حين تكون خائنة، فتهبط قيمتها إلى ربع دينار فقط؛ لذلك عليك أن لا تراها يدًا ويدًا متساويتين في القدر والقيمة، فأَيُّ يد تلك التي وُدِيت بخمس مئة دينار؟!، وأيُّ يد تلك التي قُطعت في ربع دينار؟!

(١) لسان العرب ٩/ ٢٠٠، مادة (عسجد)، والقاموس المحيط ١/ ٦٠١ مادة (عسجد)، والدكتور إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط ٢/ ٦٠٠، مادة (عسجد).

(٢) (تُودي): فعل مضارع مشتق من الفعل الماضي (وُدِي)، من معنى (الدية)، كما يُشتق الفعل المضارع (تُفدي) من (فُدِي) من معنى (الفدية).

(٣) البيت غير مذكور في ديوان الشريف المرتضى، وقد نسب المَنّاوي في [فيض القدير شرح الجامع الصغير ١/ ٢٩٩] هذا البيت إلى القاضي عبد الوهاب المالكي، ونسبه الألوسي في [روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٦/ ١٣٤] إلى علم الدين السخاوي، ونسبه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في [الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٣/ ٦٣٠] إلى السيّد الشريف المرتضى.

وذكر الشهيد الأول في (القواعد والفوائد ١/ ١٤٢) أن بيت الشريف المرتضى هو: حراسةُ الدمِ أغلاها، وأرخَصها حراسةُ المالِ، فانظر حكمة الباري

اليد الأولى الغالية هي اليد الأمانة المحترمة، واليد الثانية الرخيصة هي اليد السارقة الخائنة الدنيئة!!

فالله - جلّ وعلا - في بعض الأوقات يريدك أن تسلّم، فيقول لك: هنا بين هذين الجبلين اسع، وسلّم، ولا تناقش.

خامساً: الشهادة للنبي بالعبودية والرسالة:

وأنت لا تقول في التشهد: (أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له) وتنتهي، بل تقول بعدها: (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) ﷺ.

وهنا حقيقة هامة أنبّه عليها في التشهد، فقولنا: (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) يتضمن كلمة (عبده) قبل كلمة (رسوله)؛ لأنّ المقام مقام عبودية، لأنّ المقام مقام تذكير بأنك عبد لله، فأنت تريد أن تشهد للنبي بالرسالة، وتريد أن تشهد للنبي بأنّه واسطة الفيض، لكن لا تنسَ مقام النبي: وهو أنّه (عبد) لله، هنا لا توجد رتب، أنت فقط جئت بلفظة (الرسول) حتى تشير إلى أنّك تتلقّى الوحي الإلهي عن طريقه، لكن لا تنس أن النبي الرسول - أيضاً - (عبد).

ولا تظنّ أنّها مذمّة، بل هذه قمة المدح، فيوم أراد الله - جلّ وعلا - أن يمتدح نبيّه محمداً ﷺ وهو الأعظم من جميع الأنبياء والرسل، والأكرم من جميع البشر، والأفضل من جميع الخلائق.. بأنّه أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السماء، وأوصله إلى العرش، وبلغه مقام قاب قوسين أو أدنى، وكشف له الحُجُب، وأراه من آياته الكبرى، ما الوصف الذي اختاره الله سبحانه ليناسب هذه المأثرة العظيمة الفذة الفريدة؟

يقول الباري - جلّ وعلا -: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

(١) سورة الإسراء، الآية ١.

لم يقل الله سبحانه: (أسرى بنيّه)، أو (أسرى برسوله)، أو (أسرى بحبيبه)، أو (أسرى بنحبيه)، أو (أسرى بمصطفاه)، وإنما قال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾؛ لأنّ النبي الأكرم محمدًا ﷺ وصل إلى المقام الشامخ الأرفع.. مقام العبودية، ويوم وصل النبي ﷺ إلى مقام العبودية الحقّة عرج الله به إلى عرشه، وأراه من آياته الكبرى، وأوصله مقام قاب قوسين أو أدنى، فكلّ ما وصله النبي ﷺ كان ثمرة كونه (العبد الأمثل) لله في الخليقة، وأرفع من بلغ وارتقى مقام العبودية الحقّة، وهذا الوصف ﴿بِعَبْدِهِ﴾ أرقى وأعظم وصف للنبي ﷺ.

وقد ذكر الله - جلّ وعلا - هذا الوصف مرّة أخرى على لسان الجنّ الذين استمعوا إلى القرآن الكريم، وآمنوا به، وقالوا: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾^(١).

وبهذا الوصف العظيم المبارك تغنّت أدعية أهل البيت ﷺ؛ إجلالاً وإكباراً له:

فقد كان أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - يقول إذا فرغ من نافلة الزوال:

«اللهمّ إنّي أتقرّب إليك بجودك وكرمك، وأتقرّب إليك بمحمد عبدك ورسولك، وأتقرّب إليك بملائكتك المقربين وأنبيائك المرسلين، وبك، اللهمّ أنت الغني عني، وبيّ الفاقة إليك، أنت الغني وأنا الفقير إليك، أقلتني عثرتي، وسترت عليّ ذنوبي، فاقض لي اليوم حاجتي، ولا تعذبني بقبيح ما تعلم مني، بل عفوك وجودك يسعني»^(٢).

ويقول الإمام السجّاد ﷺ في (دعاء يوم الجمعة):

«اللهمّ إنّي أشهدك وكفى بك شهيداً، وأشهد جميع ملائكتك وسكّان سَمَواتِكَ وَحَمَلَةَ عَرْشِكَ، وَمَنْ بَعَثَ مِنْ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَأَنْشَأَتْ مِنْ أَصْنَافٍ خَلَقْتَ: أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحَدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ وَلَا عَدِيلَ، وَلَا حُلْفَ لِقَوْلِكَ

(١) سورة الجنّ، الآية ١٩.

(٢) الكافي ٢ / ٥٤٥، (باب الدعاء في أدبار الصلوات)، ح ١.

وَلَا تَبْدِيلَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، أَدَّى مَا حَمَلْتَهُ إِلَى الْعِبَادِ، وَجَاهَدَ فِي
الله - عَزَّ وَجَلَّ - حَقَّ الْجِهَادِ، وَأَنَّهُ بَشَّرَ بِمَا هُوَ حَقٌّ مِنَ الثَّوَابِ، وَأَنْذَرَ بِمَا هُوَ صِدْقٌ
مِنَ الْعِقَابِ»^(١).

سادساً: الشهادة للآل بالولاية:

وبعد الشهادة للنبي محمد ﷺ بالعبودية والرسالة تشهد بالوسائط إلى الله، ولا
تقتصر عند واسطة النبوة، بل تتعدها إلى واسطة الإمامة، فتقول في التشهد: (اللهم
صلِّ على محمد وآل محمد).

بعدما تشهد للنبي ﷺ بالرسالة، وأنه المبعوث من قبل الله، وأنه الواسطة في
الوحي، والواسطة في الفيض، والواسطة في الرزق، والواسطة في التدبير، والواسطة
في كل شيء: «بكم فتح الله، وبكم يختم، وبكم ينزل الغيث، وبكم يمسك السماء أن
تقع على الأرض إلا بإذنه، وبكم ينفس الهمم، وبكم يكشف الضر»^(٢)، كل خير يحصل
بكم، وأنتم سبيل جريانه.

فبعد أن تخلص من التشهد للرسول تأتي لتثبت الولاية وتقول: (اللهم صلِّ على
محمد وآل محمد)، فلماذا هذا؟

هناك قضيتان رئيستان:

القضية الأولى: لا عبودية حقّة من دون محمد وآله:

نحن لا نتصور عبودية حقّة لله من دون المرور بالنبي محمد ﷺ وأهل بيته
الأطهار المعصومين.. لماذا؟

(١) الصحيفة السجّادية / ٧٧، (دعاء يوم الجمعة).

(٢) بحار الأنوار / ٩٩ - ١٣١ - ١٣٢، الباب ٨ (باب الزيارات الجامعة)، ح ٤ (الزيارة الجامعة
المروية عن الإمام علي الهادي عليه السلام).

للتعبّد، فالله هكذا قال، وهكذا أراد، والإيمان سلسلة متصلة متماسكة لا تنفكّ حلقاتها، والذي يؤمن بحلقة لا بدّ أن يؤمن بالحلقة الأخرى، ولا يصحّ إيمان عبد بحلقة دون أخرى:

أ. معرفة الله والإيمان به:

فمن دون معرفة الله والإيمان به، لا يكون إيمان، ولا عبودية حقّة.

يقول الله تعالى:

- ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

- ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

- ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾^(٣).

ب - الإيمان بالرسول الخاتم والرسل جميعاً:

وأن تؤمن بالله، من دون الإيمان بالنبى الأكرم محمد ﷺ؛ لا يكون إيمان، ولا عبودية حقّة.

وأن تؤمن بنبوة النبى الأكرم محمد ﷺ، وتكفر بنبوة الأنبياء من قبله؛ يؤدي - بالضرورة - إلى أن ذلك الإيمان وتلك العبادة لا ينفعانك.

وأن تؤمن بنبوة الأنبياء جميعاً، ولا تؤمن بنبوة النبى الأعظم محمد ﷺ؛ فذاك - أيضاً - لا ينفعك.

(١) سورة التغابن، الآية ١١.

(٢) سورة التغابن، الآية ٩.

(٣) سورة الطلاق، الآية ١١.

يقول الله تعالى:

- ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(١).

- ﴿أَمَنْ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ^(٢).

- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٤).

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا^(٥).

ج - الإيمان بأهل البيت وموالاتهم:

وأن تؤمن بالنبوات السابقة جميعاً، وبنوة النبي محمد ﷺ، وتكفر بامتداد النبي، وهم آله المعصومون الكرام، وولايتهم؛ كذلك لا ينفعك.

يقول الله تعالى:

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٦-١٣٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية ١.

(٤) سورة التغابن، الآية ١٢.

(٥) سورة النساء، الآية ٦٤-٦٥.

- ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١).

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٢).

شروط قبول الإيمان والعبادة في وصية الرسول لأبي ذر:

في بداية وصية الرسول الأكرم ﷺ للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري -رضوان الله عليه- ذكر الرسول ﷺ هذه الشروط الثلاثة لقبول الإيمان والعبادة مجتمعة، فقال:

أ- «واعلم أنّ أول عبادة الله: المعرفة به، فهو الأوّل قبل كلّ شيء، فلا شيء قبله، والفرد فلا ثاني له، والباقي لا إلى غاية، فاطر السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من شيء، وهو الله اللطيف الخبير، وهو على كلّ شيء قدير.

ب - ثمّ الإيمان بي والإقرار بأنّ الله تعالى أرسلني إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً.

ج - ثمّ حبّ أهل بيتي الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً.

واعلم - يا أبا ذرّ - أنّ الله - عزّ وجلّ - جعل أهل بيتي في أمّتي كسفينة نوح: مَنْ ركبها نجا، ومَنْ رغب عنها غرق، ومثل باب حِطّة في بني إسرائيل: مَنْ دخله كان آمناً»^(٣).

(١) سورة المائدة، الآية ٥٥.

(٢) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٣) بحار الأنوار ٧٤ / ٧٤، الباب ٤ (ما أوصى به رسول الله ﷺ إلى أبي ذرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ح ٣.

أهل البيت يرسّخون مبدأ الإمامة والولاية:

قبول الإيمان والعبادة والأعمال منوط بالإيمان بأهل بيت النبي وولايتهم؛ ولذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أكثرتم أو أقللتم، فوالله ما يُقبل إلا منكم»^(١).

وورد في (دعاء النذبة): «فكانوا هم السبيل إليك، والمسلك إلى رضوانك»^(٢)، فهذا هو الطريق الوحيد إلى الله.

وورد في (دعاء النذبة) - أيضًا - : «وسدّ الأبواب إلا بابه»^(٣).

كلّ الأبواب التي تؤدي إلى مسجد النبي صلّى الله عليه وآله تُغلق إلا باب علي، يعني ليس هناك باب يوصل إلى النبي غير علي، وليس هناك طريق إلى النبي غير طريق علي، أما أن تتخذ من فلان أو غيره طريقاً فلن ينفع، فالطريق المؤدي إلى مسجد النبي هو باب علي، والطريق المؤدي إلى شريعة النبي هو منهج علي: «أنا مدينة العلم، وعليّ بابها، فمن أراد العلم والحكمة فليأتها من بابها»^(٤).

قد تذهب من ألف باب وباب توصلك إلى (عبّادان)^(٥)، وتشطح بك في كلّ مكان، لكن.. لن توصلك إلى مدينة علم النبي صلّى الله عليه وآله.

إذا أعلنت هذا المبدأ تصل إلى مدينة رسول الله، وولاية رسول الله.

(١) بحار الأنوار ٨٢ / ١٦٥، الباب ٢٩ (باب فضل السجود وإطالته)، ح ١٥.

(٢) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٥، الباب ٧ (باب زيارة الحجّة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)، ذيل الحديث ١، (دعاء النذبة).

(٣) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٥، الباب ٧ (باب زيارة الحجّة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)، ذيل الحديث ١، (دعاء النذبة).

(٤) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٥، الباب ٧ (باب زيارة الحجّة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)، ذيل الحديث ١، (دعاء النذبة).

(٥) أي: توصلك إلى آخر الدنيا، والتعبير مستلّ من مثل مولّد يقول: «ليس وراء عبّادان قرية» [أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ٢ / ٢٥٧ (حرف اللام)].

ولكي نعلم إلى أي حدّ ركز أهل البيت عليه السلام على هذا المبدأ ننقل ثلاثة مقاطع، مقطع لأمير المؤمنين، ومقطعين من زيارتين مختلفتين واردتين عن إمامين مختلفين: في أولها يقول أمير المؤمنين عليه السلام لتلميذه المخلص الوفيّ كميل بن زياد النخعي: «يا كميل، لا تأخذ إلا عنا تكن منّا»^(١).

وفي ثانيها يعيد الإمام الصادق عليه السلام في زيارة الإمام الحسين عليه السلام مقطعاً بعينه ثلاث مرّات، فيقول: «مَنْ أراد الله بدأ بكم، مَنْ أراد الله بدأ بكم، مَنْ أراد الله بدأ بكم»^(٢).

وفي ثالثها يقول الإمام الهادي عليه السلام في (الزيارة الجامعة): «مَنْ والاكم فقد والى الله، ومَنْ عاداكم فقد عادى الله، ومَنْ أحبكم فقد أحبّ الله، ومَنْ أبغضكم فقد أبغض الله، ومَنْ اعتصم بكم فقد اعتصم بالله»^(٣)، إلى أن يقول: «بأبي أنتم وأمي ونفسي وأهلي ومالي، مَنْ أراد الله بدأ بكم، ومَنْ وحده قبل عنكم، ومَنْ قصده توجّه بكم»^(٤).

القضية الثانية: الإقرار بفضل محمد وآله:

القضية الأخرى في موضوع الشهادة للنبي صلّى الله عليه وآله، والشهادة للآل الكرام هي: الإقرار منّا بفضل هؤلاء، يعني ما هي قيمتنا لولا هؤلاء؟!، أليسوا هم وسائط الفيض الإلهي، وينابيع الجود والكرم؟!، أليسوا مبلغيّ الوحي وحفظة الرسالة؟!، أليسوا نقلّة التشريع الإلهي الصافي من معين النبوة إلينا؟!، أليسوا شفعاء الآخرة؟!.

ونحن إذا كانت بنا شمة خير في الدنيا فبواسطتهم، وإذا كنّا يوم القيامة من

(١) تحف العقول عن آل الرسول / ١٧١، من وصية لأمير المؤمنين عليه السلام لصاحبه كميل بن زياد النخعي.

(٢) بحار الأنوار ٩٨ / ١٥٣، الباب ١٨ (باب زيارات الحسين المطلقة)، ح ٣.

(٣) بحار الأنوار ٩٩ / ١٢٩، الباب ٨ (باب الزيارات الجامعة)، ح ٤ (الزيارة الجامعة).

(٤) بحار الأنوار ٩٩ / ١٣١، الباب ٨ (باب الزيارات الجامعة)، ح ٤ (الزيارة الجامعة).

أصحاب اليمين والداخلين إلى الجنة فبهم أيضًا، يعني أنك هنا في الدنيا لا خير فيك لولاهم، وهناك في الآخرة لن تحصل على خير لولاهم.

ونحن لا نطمع أن ندخل الجنة بأعمالنا، وليس هناك أحد يرجو أن يدخل الجنة بعمله، ولكن نرجو أن نكون «ممن يأخذ بحُجرتهم، ويمكث في ظلِّهم»^(١) يوم القيامة، ولا أظنَّ أنَّهم سيخذلوننا، أظنَّ أحد فيكم أنَّهم سيخذلوننا؟!!

أنا شخصيًا قلبي مفعم قناعة بأنَّ أهل البيت - صلوات الله وسلامه عليهم - أصحاب كرم واسع لا يُحدِّد، وفضل عميم لا يوصف، ولا أظنَّ أنَّهم سيخذلوننا بعد هذا العمر الذي قضيناه في ظلِّ عقيدتهم الصافية، وفي ظلِّ الاستمداد من تشريعاتهم الأصيلة، والاستئنان بسنتهم المباركة وهدْيهم الكريم، وفي ظلِّ الفرح والاستبشار لأفراحهم، والحزن والبكاء واللطم والعزاء لمصابهم، وبعد مكابدة مصائب الزمان وتجرُّع مرارة الدنيا بسبب موالاتهم، وكبير عليهم أن يخذلونا ويتركونا في ذلك اليوم وقد ذقنا المرارة هنا لأجلهم، نسأل الله شفاعتهم.

وقناعتي هذه ليست مسألة وجدانية اعتباطية، فنحن لا نمنَّ عليهم باتباعنا لهم، وإنَّما هي قناعة مؤسَّسة على رواياتهم الشريفة:

يقول أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام: «إنَّ للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعةنا ومحبوُّنا، فلا أزال واقفًا على الصراط أدعو وأقول: (ربِّ، سلِّم شيعتي ومحبيِّ وأنصاري ومَن توالاني في دار الدنيا)، فإذا النداء من بطنان العرش: (قد أجيبْتُ دعوتك، وشُفِّعت في شيعتك). ويشفع كلُّ رجل من شيعتي ومَن توالاني ونصرني وحارب مَن حاربني بفعل أو قول في سبعين ألفًا من جيرانه وأقربائه. وباب يدخل منه سائر المسلمين ممَّن يشهد أن لا إله إلا الله، ولم يكن في قلبه مقدار ذرَّة

(١) بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٩، الباب ٧ (باب زيارة الحجَّة بن الحسن - صلوات الله عليهما -)، ذيل الحديث ١، (دعاء الندبة).

من بغضنا أهل البيت»^(١).

ويقول الإمام الباقر عليه السلام في وصف شفاعة جدته الزهراء عليها السلام في ساحة المحشر:

«.. ثم ينادي المنادي - وهو جبرئيل، عليه السلام - : أين فاطمة بنت محمد؟، أين خديجة بنت خويلد؟، أين مريم بنت عمران؟، أين آسية بنت مزاحم؟، أين أم كلثوم أم يحيى بن زكريا؟، فيقمن، فيقول الله - تبارك وتعالى - : يا أهل الجمع، لمن الكرم اليوم؟، فيقول محمد وعلي والحسن والحسين: لله الواحد القهار، فيقول الله تعالى: يا أهل الجمع، إني قد جعلتُ الكرم لمحمد وعلي والحسن والحسين وفاطمة، يا أهل الجمع، طأطئوا الرؤوس، وغضّوا الأبصار؛ فإنّ هذه فاطمة تسير إلى الجنة، فيأتيها جبرئيل بناقة من نوق الجنة مدبّحة الجنين، خطامها من اللؤلؤ الرطب، عليها رحل من المرجان، فتناخ بين يديها، فتركبها، فيبعث الله مئة ألف ملك ليسيروا عن يمينها، ويبعث إليها مئة ألف ملك ليسيروا عن يسارها، ويبعث إليها مئة ألف ملك يحملونها على أجنحتهم حتى يصيروها على باب الجنة، فإذا صارت عند باب الجنة تلتفت، فيقول الله: يا بنت حبيبي، ما التفاتك وقد أمرتُ بك إلى جنتي؟، فتقول: يا ربّ، أحببتُ أن يُعرف قدري في مثل هذا اليوم، فيقول الله: يا بنت حبيبي، ارجعي فانظري من كان في قلبه حبّ لك أو لأحد من ذريتك خذي بيده فأدخله الجنة.

قال أبو جعفر [الباقر] عليه السلام: والله - يا جابر - إنّها ذلك اليوم لتلتقط شيعتها ومحبيها كما يلتقط الطير الحبّ الجيّد من الحبّ الرديء، فإذا صار شيعتها معها عند باب الجنة يلقي الله في قلوبهم أن يلتفتوا، فإذا التفتوا يقول الله: يا أحبائي، ما التفاتكم وقد شفعتُ فيكم فاطمة بنت حبيبي؟، فيقولون: يا ربّ، أحببنا أن يُعرف قدرنا في مثل هذا اليوم، فيقول الله: يا أحبائي، ارجعوا وانظروا من أحبكم لحبّ فاطمة، انظروا من أطعمكم لحبّ فاطمة، انظروا من كساكم لحبّ فاطمة، انظروا من سقاكم شربة في

(١) بحار الأنوار ٨ / ٣٩، الباب ٢١ (باب الشفاعة)، ح ١٩.

حَبَّ فاطمة، انظروا مَنْ رَدَّ عنكم غيبة في حَبِّ فاطمة، فخذوا بيده، وأدخلوه الجنة.

قال أبو جعفر عليه السلام: والله لا يبقى في الناس إلا شاكٌّ أو كافر أو منافق، فإذا صاروا بين الطبقات نادوا كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾^(١)، فيقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

قال أبو جعفر عليه السلام: هيهات هيهات، مُنعوا ما طلبوا ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٣) ^(٤).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إذا حشر الله الناس في صعيد واحد أجَّل الله أشياءنا أن يناقشهم في الحساب، فنقول: إلهنا، هؤلاء شيعتنا، فيقول الله تعالى: قد جعلتُ أمرهم إليكم، وقد شفَّعتكم فيهم، وغفرتُ لمسيئهم، أدخلوهم الجنة بغير حساب»^(٥).

ولابد - هنا - أن نشير إلى ملاحظة هامة جدًّا هي: أن هذه الروايات الشريفة ينبغي أن تجعل الأمل بالنجاة يشرق في قلوبنا، ويحدو ركبنا، وتجعلنا نبتهج بأنَّ المعصومين عليهم السلام معنا في الدنيا والآخرة، وأنَّهم كرام عند الله، وأنَّ الشفاعة لهم موجودة بفضل الله وكرمه ومنه، ولكن.. لا ينبغي أن تكون هذه الروايات دافعًا لنا نحو العصيان والذنوب واقتراف الآثام، والاتكال على الشفاعة وحدها دون القيام بالعمل الصالح؛ لأنَّ هناك روايات أخرى تشير إلى دخول بعض العاصين المذنبين من شيعتهم إلى النَّار، وأنَّ الشفاعة قد لا تدرِكهم إلا بعد مضي مئات الآلاف من السنين!!

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فاعملوا وأطيعوا، ولا تتكلوا، ولا تستصغروا عقوبة الله؛ فإنَّ من المسرفين من لا يلحقه شفاعتنا إلا بعد ثلاث مئة ألف سنة»^(٦).

(١) سورة الشعراء، الآية ١٠٠-١٠١.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١٠٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٢٨.

(٤) بحار الأنوار ٨ / ٥٢، الباب ٢١ (باب الشفاعة)، ح ٥٩.

(٥) بحار الأنوار ٨ / ٥٠، الباب ٢١ (باب الشفاعة)، ح ٥٦.

(٦) معاني الأخبار / ٢٨٨، باب (معنى الموت)، ح ٢.

سابعاً: الدعاء للأمة ولنبيها الأكرم:

ورد في الروايات التي قدّمناها في بداية بحثنا لموضوع (التشهد) أنّ التشهد ينتهي بهذا الدعاء المستحب:

- «وتقبل شفاعته في أمته، وارفع درجته»^(١).

- «وتقبل شفاعته في أمته، وارفع درجته»، ثمّ تحمد الله مرّتين أو ثلاثاً^(٢).

وهذه الخاتمة تحوي ثلاثة أمور:

أ. الدعاء لأمة النبي الأكرم ﷺ:

الخاتمة المستحبة للتشهد تطلب منّا التضرّع إلى الله الجواد الكريم الرحيم الحنان المنان أن يقبل شفاعته الرسول ﷺ في أمته، في ذلك اليوم العصيب الذي تشيب لهوله رؤوس الولدان: «وتقبل شفاعته في أمته».

هناك حيث ينادي الجميع: (ربّ، نفسي نفسي!!)، ما عدا شخص واحد، صاحب حنان نبوي أبوي دافئ دافق عميم غامر ينادي: (ربّ، أمّتي أمّتي!!)، هو نبينا الأكرم محمد ﷺ.

يقول إمامنا أبو جعفر الباقر عليه السلام: «قال النبي ﷺ:

أخبرني الروح الأمين أنّ الله لا إله غيره إذا وقف الخلائق، وجمع الأولين والآخرين أتي بجهنّم تُقاد بألف زمام، أخذ بكلّ زمام مئة ألف ملك من الغلاظ الشّداد، ولها هدة وتحطّم وزفير وشهيق، وإنّها لتزفر الزفرة، فلولاً أنّ الله - عزّ وجلّ

(١) تهذيب الأحكام ٢/ ٩٢، (باب كيفية الصلاة وصفتها، وشرح الإحدى وخمسين ركعة، وترتيبها، والقراءة فيها، والتسبيح في ركوعها وسجودها، والقنوت فيها، والمفروض من ذلك والمستحب)، ح ١١٢.

(٢) تهذيب الأحكام ٢/ ٩٩، (باب كيفية الصلاة وصفتها، وشرح الإحدى وخمسين ركعة، وترتيبها، والقراءة فيها، والتسبيح في ركوعها وسجودها، والقنوت فيها، والمفروض من ذلك والمستحب)، ح ١٤١.

- أخرها إلى الحساب لأهلكت الجميع، ثم يخرج منها عنق يحيط بالخلائق: البرّ منهم والفاجر، فما خلق الله عبداً من عباده: ملك ولا نبي إلا وينادي: (يا ربّ، نفسي نفسي)، وأنت تقول: (يا ربّ، أمتي أمتي)!!

ثم يوضع عليها صراط أدقّ من الشعر، وأحد من السيف، عليه ثلاث قناطر:

الأولى: عليها الأمانة والرحمة.

والثانية عليها الصلاة.

والثالثة عليها ربّ العالمين، لا إله غيره.

فيكفلون الممرّ عليها، فتحبسهم الرحمة والأمانة، فإن نجوا منها حبستهم الصلاة، فإن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين - جلّ ذكره -، وهو قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾^(١)، والناس على الصّراط: فمتعلّق تزلّ قدمه وتثبت قدمه، والملائكة حولها ينادون: (يا كريم يا حلیم، اعفُ واصفح، وعد بفضلك وسلّم)، والناس يتهافتون فيها كالفرّاش، فإذا نجا ناج برحمة الله - تبارك وتعالى - نظر إليها فقال: (الحمد لله الذي نجّاني منك بعد يأسٍ؛ بفضلِهِ ومنّه، إنّ ربّنا لغفور شكور)^(٢).

ب - الدعاء للنبي الأكرم ﷺ

ويجب علينا أن لا نكون أنانيين، نسأل الله لنا الشفاعة - بوصفنا أمة للنبي - وننسى الدعاء لنبيّنا الأكرم ﷺ، وكلّ ما لدينا من بركة ونعمة وخير في مجال التشريع وفي مجال التكوين معاً.. أمطرها الله علينا ببركته، والشفاعة نفسها التي سألنا الله نيلها هي من بركته؛ ولذلك يحثّنا التشهد أن نطلب لنبيّنا رفعة الدرجة والمنزلة عند الله: «وارفع درجته».

(١) سورة الفجر، الآية ١٤.

(٢) الكافي ٨ / ٣١٢، (باب أصحاب القائم ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً)، ح ٤٨٦.

ج - حمد الله:

وختام الذكر المستحب في التشهد: «تحمد الله مرّتين أو ثلاثاً»، تحمد الله أن جعلك من المؤمنين بقيومية الله في خلق الكون وإبقائه، ومن الحامدين لله، ومن الممّجّدين لله، المثّنين عليه، ومن الشاهدين لله بالوحدانية، ومن الشاهدين للرسول ﷺ بالرسالة، ومن الشاهدين لآله الكرام المعصومين بالفضل والعظمة.



الأدب الثالث عشر

بحول الله وقوته أقوم وأقعد

ما الذي أظهره فرعون؟! وهل نضمير مثله؟! وقفة تحليلية لمستويات التكبر على الله..

ورد في الأثر: «ما من نفس إلا وهي مضجرة ما أظهره فرعون من قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١)، ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره»^(٢).
ما الذي أظهره فرعون علانية؟
وهل يمكن أن نضمير - أنا أو أنت - ما أظهره فرعون؟!

مستويات التكبر على الله:

للتكبر على الله أشكال ومستويات، منها:

المستوى الأول: ادعاء الربوبية والألوهية:

الذي أظهره فرعون أمر صارخ صاعق هو: ادعاء الربوبية والألوهية!!
يقول الله - جلّ وعلا - عن فرعون:

(١) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٢) إحياء علوم الدين ١٢ / ٤٨، والمحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ٧ / ١٢٢، ومنهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١٠ / ١٦٨، وفيض القدير شرح الجامع الصغير ٢ / ٢٥.

- ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(١).

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٢).

وهذا الأمر ليس مقصوراً على فرعون وحده، فقد أظهره نمرود أيضاً:

﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ
فَأَتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

فالنمرود قال: كما أن الله يحيي ويميت، أنا - أيضاً - أحيي وأميت!!

المستوى الثاني: ادعاء الاستقلالية عن الله:

الذي أظهره فرعون، وأظهره نمرود - كادعاء الربوبية - قد أضمره أنا، وقد
تضمّره أنت، ليس بمعنى أن نضمّر هذه الألفاظ في أنفسنا، والمستوى نفسه، وأن
يعتقد الواحد منّا أنه ربّ أو إله من دون الله، ليس بالضرورة هذا، ولكن قد يكون ذلك
بمستوى آخر، وبشكل آخر محوّر؛ لأنّ فرعون - وهو فرعون - حين كانت تدهمه
داهمة عاتية كان يلجأ إلى الله، ويقرّ له بالعبودية والذلّة!!

وهذا ما رواه عبد الله بن عمر حين قال: «غار النيل على عهد فرعون، فأتاه أهل
مملكته فقالوا: أيّها الملك، أجز لنا النيل، قال: إنّي لم أرض عنكم، ثمّ ذهبوا فأتوه فقالوا:
أيّها الملك، تموت البهائم وهلك، ولئن لم تجر لنا النيل لتتخذن إلهاً غيرك؟، قال:
اخرجوا إلى الصعيد، فخرجوا، فتنحّى عنهم حيث لا يرونه، ولا يسمعون كلامه، فألصق
خده بالأرض، وأشار بالسبابة وقال: اللهم، إنّي خرجت إليك خروج العبد الذليل إلى
سيّده، وإنّي أعلم أنّك تعلم أنّه لا يقدر على إجرائه أحد غيرك، فأجره، قال: فجرى النيل

(١) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٢) سورة القصص، الآية ٣٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٨.

جرياً لم يجر مثله، فأتاهم، فقال لهم: إني قد أجريت لكم النيل، فخرّوا له سُجّداً^(١).
فرعون الذي كان ينادي: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾،
حين يرجع إلى نفسه ويؤوب؛ كان يدرك في واقعه وعمق وجدانه وقرارة نفسه أنه عبد
ذليل حقير عاجز غير قادر على شيء، وأنه ليس ربّاً ولا إلهاً.
وأنا وأنت - أيضاً - قد يجري معنا الموضوع نفسه، قد نضوّر في أنفسنا ربوبية..
ألوهية.. مولوية، لكن.. بأيّ معنى؟!

بمعنى أن نُخرج أنفسنا من دائرة العبودية إلى دائرة أخرى، وندّعي أننا مستقلّون
عن الله، وأننا نملك لأنفسنا الحول والقوة والقدرة، وأننا نفعل ونتصرّف في شؤوننا
بقوتنا الخاصة وقدرتنا الذاتية، لا بقوة الله وقدرته ومدده، فنحن الذين نرزق أنفسنا،
ونحن سبب الحركة والخير والبركة لكل أفعالنا، وليس الله!!

وهذا المستوى الذي هو أدنى رتبة من المستوى الأول حيث ادّعاء الربوبية
والألوهية علانية، هو الذي ظهر على سلوك قارون الذي كان يرى أن سبب النعمة
الضافية الموفورة عنده هو: علمه واقتداره الشخصي، وليس العطاء الإلهي والكرم
الربّاني، وراح يزمر: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(٢).

يقول القرآن الكريم في تصوير موقفه وتكبّره:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ
لَتَتَوَّاهُ بِالْعُصْبَةِ أُولِيَ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغَ فِيمَا
آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ
الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ
يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ
عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا

(١) علل الشرائع ١ / ٧٥-٧٦، الباب ٥٣ (العلة التي من أجلها أغرق الله - عزّ وجلّ - فرعون)، ح ١.

(٢) سورة القصص، الآية ٧٨.

لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَأَنَّ اللَّهَ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَأَنَّه لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾.

وبمجرد أن يخرج الإنسان نفسه من دائرته الحقيقية - وهي دائرة العبودية - يعني أنه ادعى مقامًا ليس له، يعني أنه ادعى مقام الربوبية؛ لأن الكون: إما عبد، وإما مولى، ولا شيء آخر، ليس هناك فاصلة، لا يوجد أحد في النصف بين دائرتي (الربوبية والمولوية) / و(دائرة العبودية)، والذي يخرج نفسه من دائرة العبودية يعني أنه يريد أن يلصق نفسه بدائرة الربوبية والمولوية!!

مجرد ادعاء أنني أملك لنفسي حولًا أو قوة، أو ضرًا أو نفعًا، أو فقرًا أو غنى، أو مرضًا أو شفاءً، أو موتًا أو حياة؛ يعني الخروج عن رسم العبودية؛ ولذا ثلاث مرات في الصلوات الرباعية، ومرتين في الصلوات الثلاثية، ومرة في الصلوات الثنائية يقر الإنسان ويقول عند نهوضه من الجلوس إلى القيام إلى الركعة التالية: (بحول الله وقوته أقوم وأقعد)، أو (بحول الله وقوته أقوم وأقعد، وأركع وأسجد) ^(٢)؛ ليذكر نفسه أنه لا

(١) سورة القصص، الآية ٧٦-٨٣.

(٢) عن رفاعة بن موسى قال: «سمعتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام يقول: كان علي عليه السلام إذا نهض من الركعتين الأوليين قال: (بحولك وقوتك أقوم وأقعد) [تهذيب الأحكام ٢/ ٨٨، باب كيفية الصلاة، وصفتها، وشرح الإحدى وخمسين ركعة، وترتيبها، والقراءة فيها، والتسبيح في ركوعها وسجودها، والقنوت فيها، والمفروض من ذلك والمسنون]، ح ٩٥. وروى محمد بن مسلم، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا جلست في الركعتين الأوليين، فتشهدت ثم قمت، فقل: بحول الله وقوته أقوم وأقعد» [وسائل الشيعة ٤/ ٩٦٦، الباب ١٣ (باب أنه يستحب أن يقال عند القيام من السجود ومن التشهد: (بحول الله وقوته أقوم وأقعد وأركع وأسجد)، أو يكبر)، ح ٣].

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إذا قمت من السجود قلت:

الأدب الثالث عشر: بحول الله وقوته أقوم وأقعد

يملك لها حولًا ولا قوة، وهذا يعني اعترافًا راسخًا منه بأنه لا يملك لنفسه حولًا ولا قوة مطلقًا؛ لأنَّ أبسط الأمور - وهو قيامه وقعوده وركوعه وسجوده - ينسب إليه حول الله وقوته، فيعترف أن لا حول ذاتي له ولا قوة، وأنَّ قيامه وقعوده وركوعه وسجوده إنما هي مستمدة من حول الله وقوته، فما بالك بالأمور الأخرى الأكبر كالنفع والضرر، والفقر والغنى، والشفاء والمرض، والموت والحياة؟!

إنَّ مبدأ الأولوية يقضي أن مَنْ لا يملك لنفسه (الأمر اليسير) كالقيام والقعود والركوع والسجود، لا يملك لنفسه (الأمر الخطير)، كالنفع والضرر، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحياة والموت!!

وإذا كنّا في (الأمر اليسير) بحاجة إلى حول الله وقوته، فنحن في (الأمر الخطير) أشدَّ حاجة!!

والقيام والقعود الواردان في هذا الذكر (بحول الله وقوته أقوم وأقعد)، أو بإضافة (وأركع وأسجد)، هي رمز لكل حركة، ولكل سكون من سكنات الإنسان وحركاته، فينسبها النسبة الحقيقية إلى مصدرها الحقيقي، وهو الله.

إذًا.. فالرسم العبودي الذي نمارسه في صلاتنا بقولنا عند القيام: (بحول الله وقوته أقوم وأقعد، وأركع وأسجد) يذكرنا بهذه الحقيقة العقدية العظمى: حقيقة أن لا حول ولا قوة إلا بالله، ليس فقط لا حول لك ولا قوة، بل.. ولا حول للآخرين ولا قوة - أيضًا - إلا بالله، يعني إذا كنت أنت لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًا، بطريق أولى أخوك وأبوك وعمك وخالك وصديقك - أيضًا - لا يملكون لك نفعًا ولا ضرًا؛ لأنَّ الإنسان الذي لا يملك نفعًا ولا ضرًا لنفسه، بطريق أولى غير قادر على أن يملك نفعًا وضرًا لغيره، فلو كانوا يملكون الضر والنفع لك لملكوه لأنفسهم قبلك، ولو كانوا

(اللهم ربّي بحولك وقوتك أقوم وأقعد)، وإن شئت قلت: (وأركع وأسجد) [تهذيب الأحكام ٢/ ٨٦، (باب كيفية الصلاة، وصفتها، وشرح الإحدى وخمسين ركعة، وترتيبها، والقراءة فيها، والتسبيح في ركوعها وسجودها، والقنوت فيها، والمفروض من ذلك والمسنون)، ح ٨٨].

قادرين على منحك ذلك لمنحوه لأنفسهم؛ لأنّ (فاقد الشيء لا يعطيه)، و(معطي الشيء ليس فاقداً له)!!

المستوى الثالث: الاستخفاف بحُرُمات الله:

نعني بـ (حُرُمات الله): تشريعاته وأحكامه، أي أوامره ونواهيه.

بعضنا قد يضمّر في نفسه الربوبية:

- لا بالمستوى الأول الفجّ الصريح، والادّعاء العلني المباشر للربوبية والألوهية بأن يقول كفرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، أو يقول كالنمرود: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

- ولا بالمستوى الثاني المكتنز بالغرور وعملاقة الذات، وادّعاء الاستقلالية عن الله في عالم الأسباب، بأن نقول كقارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

- وإنّما هو بمستوى ثالث مخاتل خفيّ، يمتطي صهوة الاستخفاف بحُرُمات الله، والسخرية من أحكامه وتشريعاته، وازدراءها والتندر بها، وأنّها غير مناسبة للعقل أو العلم أو المجتمع أو الزمان أو المكان!!

وهذا المستوى الثالث كان شائعاً لدى العرب قبيل انبثاق نور الإسلام، وصاحب مسيرة الرسالة المباركة، فكان عرب الجاهلية يسخرون من أحكام الدين:

- فمرة يتلاعبون بتحديد الأشهر الحرم وتوقيتها؛ ليخوضوا غمار الحروب متى شاؤوا: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

- وأخرى يغيّرون أحكام الله في الأنعام والذبائح، كما تهوى أنفسهم: ﴿وَجَعَلُوا

(١) سورة التوبة، الآية ٣٧.

لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١﴾.

- وثالثة يسخرون من تحويل الله القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام والكعبة المشرفة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

وهذا المستوى الثالث من التكبر على الله، وهو (الاستخفاف بحُرُمات الله)، كما شاع في الجاهلية قديماً فهو شائع لدينا اليوم، ومنه ما يردده البعض من وجود أحكام لا تناسب العقل والعلم والمجتمع والزمان والمكان - كما يقول -:

- فالصلاة تناسب زمن الفراغ المطبق الذي كان يرغب من يلوكة ويمضغه.. في ترجية الوقت بأيّ صارف ومضيّع، ولو بالسهر في ليالي الشتاء الطوال حول التنور والنار، والإصغاء لبطولات القبيلة وأمجادها الباذخة والخرافات والأساطير، وسماع حكايات (أبي زيد الهلالي) و(ألف ليلة وليلة)، لا في زمن تكاثف الالتزامات التي لا تترك مجالاً لتضييع الوقت في صلوات قاتلة لتمامك الجهد والعمل، فالصلاة تناسب مجتمع البداوة الأمي الذي ليس لديه ما يشغله، ولا تناسب مجتمع المدنية والتحضر والحداثة والتكنولوجيا والعولمة، الذي يحتاج فيه الإنسان لصبّ وقته في الركض الحثيث خلف المعلومة، وفي الاهتمام بالتحصيل والدراسة والعمل!!

- والصوم لا يناسب الزمان الذي نعيشه، حيث طول النهار والشمس المستعرة الغضوب واللهب الحارق والعمل المجهّد والدوام الطويل؛ إذ يصفع الصائم بضربات مرّحة تعبته وتجهده، وتقلل كفاءته، وإذا كان معلماً أو عاملاً في مصنع فسوف ينحسر عطاؤه، وتذوي قدرته الإنتاجية، كما أنّ الصوم لا يناسب المناطق الرحوية التي يمتدّ فيها النهار أو الليل إلى ثلاثة أشهر أو ستة، ولا يناسب المناطق شبه الرحوية التي

(١) سورة الأنعام، الآية ١٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٢.

يمتدّ النهار أو الليل في بعضها لأكثر من إحدى وعشرين ساعة، وعلى أسلم الفروض فالصوم إنّما يناسب المناطق المعتدلة المتوسطة المتعارفة الليل والنهار!!

- والخمس لا يناسب العقل القاضي بأنّ لكلّ إنسان حصاده وثمره عمله، وهو سرقة مبطّنة لجهود الآخرين وأموالهم، وتعليم سخيّف على الاستعطاء والاستئكال على الآخرين، والارتواء بالكسل والعيش على الآخرين، تمامًا كاللدودة الشريطية والعلق والطفيليات!!

- والحجّ مجموعة من الطقوس الجاهلية الوثنية البالية، المناسبة لأعراب أجلاف كانوا يُكبرونها، ويصعب اقتلاع شجرتها الراسخة من نفوسهم، فاضطر الدين - آنذاك - لمراعاتهم نفسيًا بعدم هدم جميع موروّثهم الديني، وإسباغ مسح الدين والعبادية عليها!!

وهذا يعني أنّ الحجّ كان يناسب أناسًا ومجتمعًا وزمانًا ومكانًا معينين، ولا يناسب غيرهم، فضلًا عن مخالفته لمعطيات العلم؛ فتكدّس هذا العدد الهائل والملايين الغفيرة من البشر الآتية من شتى أقطار الأرض في بقعة صغيرة وزمن واحد قصير يؤدي إلى انتشار الأمراض والعدوى، فضلًا عن التعرّض لضربات الشمس؛ نتيجة إقامة تلك الطقوس في صحراء لاهبة وشمس كالبركان، لا سيما في الوقوف بعرفة ومزدلفة وأعمال منى، فضلًا عمّا يجلبه التكدّس البشري من تدافع وزحام يؤدي إلى وفاة الكثيرين دهسًا تحت الأرجل أو بالاختناق!!

- والترفع عن مصافحة المرأة سلوك ذكوري متغطرس، وإحساس جنسي نزق يستحضر في المرأة شعورًا واحدًا أحدًا هو الجنس، حتى في السلام عليها، بخلاف التعامل الإنساني الحاني الدافق معها، القائم على (مبدأ المساواة بين الذكر والأنثى)، ذاك التعامل الودود الذي لا يجرّعها غصص الإهانة والدونية؛ فيسلّم عليها بوصفها صنفًا من النوع الإنساني، كما أنّ الذكر صنف آخر، بعيدًا عن روح الاستعلاء والأحاسيس المنحرفة المضخّمة لها جس الجنس!!

- وكثير من الأحكام الدينية للمرأة بدائية غير مناسبة للزمن: فعدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها، مأخوذ في سبب تشريعها استبراء الأرحام، ومعرفة الحمل، وهذا أمر تطوّر العلم فيه كثيرًا حتى صار التحليل الطبي اليوم يكشفه في ثوان، وتستطيع المرأة عبر (قياس معرفة الحمل)، المتوفر في جميع الصيدليات وبأسعار زهيدة، معرفة حملها من عدمه وهي في بيتها، دون الحاجة حتى إلى مستشفى وتحليل وطبيب، فلم العدة إذًا؟!

- والحجاب وستر المرأة شعرها ووجهها هو الآخر سلوك ذكوري استعلائي يحيل الكلفة والعناء دومًا على الحلقة الأضعف اجتماعيًا، وهي المرأة، القسم الرقيق والجميل من الإنسان؛ لأنّ مبرّر تشريعه هو: خوف فتنة الرجال، وما دام هذا الحكم منصبًا على باعث الافتتان، لا متلقيه، فلم لا نطلب من الأولاد والفتيان باذخي الوسامة والجمال - من باب (وحدة المناط) - أن يتحجّبوا ويسترّوا وجوههم عن الرجال؟!

- وأن تكون شهادة المرأة في القضاء والمنازعات نصف شهادة الرجل، أو أن تراث نصف ما يرث، أو تُقدّر ديته بنصف ديته (تنصيف الدية)، كلّه استعلاء ذكوري وهيمنة ذكورية، قد يناسب زمن الجاهلية حيث مكانة الذكر في القبيلة، ودوره في الحماية والحرب والعمل، لا في زمن الحداثة، وتساوي الجميع في الفرص والحقوق والواجبات، وعمل المرأة كتفًا بكتف إلى جانب الرجل، وتفوقها عليه في بعض الاستعدادات والقدرات والأعمال!!

إلى عشرات، بل مئات من الأمثلة الأخرى.

كيف فسّرت أعمال العباد؟!

وهنا لابدّ أن ننّه إلى الفاصل الحقيقي الذي يفصل بين الفكر الديني الحقّ وغيره، فالمسلمون في بداية نشأة الفكر الديني تورّطوا في دائرتين، فسّرت كلّ واحدة منهما أعمال العباد بنحو مناقض تمامًا لتفسير الأخرى، بينما كان المعصومون عليهم السلام يعلنون الإطار الدقيق والمفصلي للدائرة الثالثة:

الدائرة الأولى: الجبر:

وهذه الدائرة هي التي سلبت العبد كلّ حول وقوة، بمعنى أنّها نسبت العبد بما يفعل وبما يعمل إلى الله، وقالت: الله هو الذي خلق الناس وما يعملون ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، والإنسان لا يملك لنفسه شيئاً، وهو مجرد مكتسب ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢)، فالله هو الفاعل، وأنت مخلوق لله، وعملك - أيضاً - مخلوق لله، وما أنت إلا منفعل مكتسب متشبع قهراً بالفعل الذي خلقه الله فيك، وبالتالي: قولك.. حركتك.. فعلك؛ لا اختيار لك فيه؛ لأنّك لا تملك أيّ حول وقوة، وبالتالي اختيارك لطريق ما.. ليس مبنياً على إرادتك، وإنّما هو مبني على ما أَرَادَهُ اللهُ لك، والحديث الذي يُساق في هذا الاتجاه:

(١) سورة الصافات، الآية ٩٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨١.

«اعملوا؛ فكلُّ ميسِّرٍ لما خُلِقَ له»^(١).

إذا كان ميسِّرًا لك أن تكون من أصحاب الجنة فستعمل لكي تكون من أصحاب الجنة، وإذا كان غير ميسِّر لك أن تكون من أصحاب الجنة، ومكتوب عليك أن تكون من أصحاب النار؛ فسوف تعمل الأعمال التي تؤدي بك إلى النار!!

أنت ريشة في مهبِّ الريح، أنت مسلوب الإرادة، أنت مجرد مكتسب منفعل متأثر بالجبر والغلبة الإلهية، والناس ولدوا مجبرين ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾^(٢)، و«السعيد مَنْ سعد في بطن أمه، والشقيّ مَنْ شقي في بطن أمه»^(٣)، «السعيد مَنْ سعد بقضاء الله، والشقيّ مَنْ شقي بقضاء الله»^(٤).

(١) صحيح البخاري ٦ / ٨٦، سورة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾.

(٢) سورة هود، الآية ١٠٥.

(٣) جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير ٢ / ٦٨، باب (فصل في المحلّى بـ (أل) من حرف السين)، ح ٤٨٠٩، والحافظ سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق: معاذ طارق محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ٦ / ١٨٨، (باب مَنْ اسمه إبراهيم)، ح ٢٧٣٢، وكنز العمال ١ / ١٧٦، (الفصل السادس: في الإيمان والنذر)، ح ٤٩١. كما ورد في: التوحيد / ٣٥٦، الباب ٥٨ (باب السعادة والشقاوة)، ح ٣، وعواليء اللآلئ ١ / ٣٥، الفصل الرابع، ح ١٩، وبحار الأنوار ٥ / ٩، الباب ١ (باب نفي الظلم والجور عنه تعالى، وإبطال الجبر والتفويض، وإثبات الأمر بين الأمرين، وإثبات الاختيار والاستطاعة)، ح ١٣، والفيض الكاشاني، أنوار الحكمة / ١٢٢، والمولى محمد صالح المازندراني، شرح أصول الكافي ١ / ٢٣٢، وقد عقد الشيخ الكليني في كتابه (الكافي) ١ / ٢٠٣ - ٢٠٤، الباب ٥٠ بعنوان (السعادة والشقاء)، وذكر فيه ثلاثة أحاديث.

ويقول ابن شهر آشوب:

«قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ [سورة هود، الآية ١٠٨] أبى ذو الكلاع الحميري قتال عليّ عليه السلام، فوضع عمرو بن العاص: (أَنَّ السعيد مَنْ سعد في بطن أمه، والشقيّ مَنْ شقي في بطن أمه)، وانتحله إلى النبي عليه السلام، وقارنه بهذه الآية؛ فبايع ذو الكلاع معاوية؛ فانتشر ذلك في بني أمية وأتباعهم إلا عمر بن عبد العزيز فإنه لم يقبله» [ابن شهر آشوب، متشابه القرآن ومختلفه ١ / ١٧٩].

(٤) ابن أبي العزّ الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية / ٣٧٥، وحسن بن علي السقّاف، صحيح العقيدة الطحاوية / ٢٦٦.

ونصّ الحديث كاملاً: «عن ابن وهب، قال: «قال رجل لمحمد بن كعب القرظي: ما أبعد التوبة!!، قال: فتبسّم، قال: بل ما أحسن التوبة وأجملها!!، فقال الرجل: أرأيت إن قمّت من عندك فأتيْتُ المنبر فعاهدتُ الله عنده أن لا آتي الله بمعصية أبداً؟، قال: فمن أعظم ذنباً منك، أو أعظم جرماً منك إذا تأليت على الله أن لا ينفذ فيك أمره؟، ثم قال محمد بن كعب القرظي: قال رسول الله ﷺ ذات يوم - وهو على المنبر، بيده اليمنى كتاب - (هذا كتاب بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وأنسابهم، مجمل عليهم، لا يُزاد فيهم، ولا يُنقص منهم)، قال: ثم قبض يده اليمنى، ومدّ اليسرى، وقال: (هذا كتاب الله بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وأنسابهم، مجمل عليهم، لا يُزاد فيهم، ولا يُنقص منهم، وليعمل أهل السعادة بعمل أهل الشقاء حتى يُقال: كأنّهم هم هم هم، بل هم هم هم، ثم يستنفذهم الله - عزّ وجلّ - قبل الموت ولو بفوق ناقة حتى يسلك بهم طريق أهل السعادة، وليعمل أهل النار بعمل أهل السعادة حتى يُقال: كأنّهم هم، بل هم هم هم، ثم ليسكن بهم ولو بفوق ناقة طريق أهل الشقاوة، والشقي من شقي بقضاء الله، والسعيد من سعد بقضاء الله، والأعمال بالخواتيم)».

وفي (صحيح مسلم): «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: أن أحدكم يُجمّع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها» [صحيح مسلم، م ٤، ج ٨، كتاب القدر، ح ١].

وفي (كنز العمال)، عن علي قال: «صعد رسول الله ﷺ المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: كتاب كتب الله فيه أهل الجنة بأسمائهم وأنسابهم، فيُجمل عليهم، لا يُزاد فيهم، ولا يُنقص منهم إلى يوم القيامة. ثم قال: كتاب كتب الله فيه أهل النار بأسمائهم وأنسابهم، فيُجمل عليهم، لا يُزاد فيهم، ولا يُنقص منهم إلى يوم القيامة، صاحب الجنة مختوم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أيّ عمل، وصاحب النار مختوم له بعمل أهل النار، وإن عمل أيّ عمل، وقد يُسلك بأهل السعادة طريق الشقاء حتى يُقال: (ما أشبههم بهم، بل هم منهم)، وتدرّكهم السعادة فتستقذهم، وقد يُسلك بأهل الشقاء طريق السعادة حتى يُقال: (ما أشبههم بهم، بل هم منهم)، ويدركهم الشقاء فيستخرجهم، من كتبه الله سعيداً في أم الكتاب لم يخرج من الدنيا حتى يستعمله بعمل يسعده به قبل موته ولو بفوق ناقة، ومن كتبه الله في الكتاب شقيّاً لم يخرج من الدنيا حتى يستعمله بعمل يشقى به قبل موته ولو بفوق ناقة، والأعمال بخواتمها» [كنز العمال ٣٤٣/١، الفصل السابع: (في الإيمان بالقدر)، ح ١٥٥٣].

أنت في الحياة تمارس الدور الذي كُتِبَ لك (وجفّ القلم، وانطوت الصُّحف)!!
 هذا تفكير يؤمن به البعض، وينسبونه إلى الله ورسوله الأكرم ﷺ!!
 ومن الآيات التي يسوقونها دليلاً في نظرهم، إضافة إلى الآيات السابقة:
 - ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(١).
 - ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(٢).
 - ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).
 - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾^(٤).
 ومن الروايات التي يسوقونها:
 - ما يرويه أبو هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «يا أبا هريرة، جفّ القلم بما أنت لاقٍ، فاختصّ على ذلك أو ذرّ»^(٥).
 - وما ينقله عمر بن الخطاب أنّه «لما نزلت هذه الآية ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، سألتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: يا نبي الله، فعلى ما نعمل، على شيء قد فرغ منه، أم على شيء لم يُفرغ منه؟! قال: بل على شيء قد فرغ منه، وجرت به الأفلام، يا عمر.. ولكن كل ميسر لما خُلِقَ له»^(٦).
 وقد تبنى تيار الأشاعرة فكرة الجبر (نظرية الكسب)^(٧).

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(٢) سورة المدثر، الآية ٣٨.

(٣) سورة التكويد، الآية ٢٩.

(٤) سورة فاطر، الآية ٣.

(٥) صحيح البخاري ٦ / ١١٩ (كتاب النكاح).

(٦) سنن الترمذي ٤ / ٣٥٣، باب (ومن سورة هود)، ح ٥١١٢.

(٧) يقول الشيخ أبو الحسن الأشعري: «إنّه لا خالق إلا الله، وإنّ أعمال العبد مخلوقة لله، مقدّرة،

الدائرة الثانية: التفويض:

وجاء تفكير آخر سلب الله - جلّ ربّي وعلا - كلّ شيء؛ لكي يعطي العبد كلّ شيء، فقال: لا.. الأمر كلّ بيد العبد، كلّ أفعال العبد مملوكة له، وبالتالي الله - جلّ وعلا - لا يتدخل في أفعال العبد: نفياً ولا إثباتاً، لا يستطيع أن يلزم العبد على الفعل، ولا يستطيع أن يلزمه بالترك!!

وراح هؤلاء يوظفون الآيات القرآنية لصالح فكرهم العقدي، ومن ذلك:

- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وإنّ العباد لا يقدرّون أن يخلقوا شيئاً وهم يُخلَقون، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة / ٢٠].

وفي نصّ آخر يقول الشيخ أبو الحسن الأشعري، متحدّثاً عن عقيدة الأشاعرة: «وأقروا بأنّه لا خالق إلا الله، وأنّ سيئات العباد يخلقها الله، وأنّ أعمال العبد يخلقها الله - عزّ وجلّ - ، وأنّ العباد لا يقدرّون أن يخلقوا منها شيئاً» [الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد / ١ / ٣٢١].

ويقول ابن تيمية: «وَنَقُولُ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ قَالَ لَهُ: (كُنْ)؛ فَيَكُونُ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَأَنَّ الْأَشْيَاءَ تَكُونُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَهُ اللَّهُ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنِ اللَّهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ أَعْمَالَ عِبَادِ اللَّهِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ مَقْدُورَةٌ لَهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وَأَنَّ الْعِبَادَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَخْلُقُوا شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، كَمَا قَالَ: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾، وَكَمَا قَالَ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وَكَمَا قَالَ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾» [أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحرّاني (ابن تيمية)، الفتاوى الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا / ٦ / ٦٥٦].

(١) سورة البقرة، الآية ٧٤.

- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(١).
 - ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾^(٢).

- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾^(٣).

- ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٤).

وقد تبني تيار المعتزلة فكرة (التفويض)^(٥).

الدائرة الثالثة: لا جبر ولا تفويض، وإنما أمر بين أمرين..

لقد ابتليت الأمة على طول مئات من السنوات بمعركة شرسة بين تيار الأشاعرة الذي تبني الفكرة الأولى (الجبر)، وتيار المعتزلة الذي تبني الفكرة الثانية (التفويض)، وضاع في الوسط منهج أهل البيت - صلوات الله وسلامه عليهم - الذين قالوا: «لا

(١) سورة فصلت، الآية ٤٦.

(٢) سورة النجم، الآية ٣٩-٤١.

(٣) سورة الكهف، الآية ٢٩.

(٤) سورة الزمر، الآية ٧.

(٥) يقول السيّد الشريف علي بن محمد الحسيني الجرجاني في (المواقف في علم الكلام)، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميرة: «إنّ المعتزلة استدلوا بوجوه كثيرة، مرجعها إلى أمر واحد وهو: أنّه لولا استقلال العبد بالفعل على سبيل الاختيار لبطل التكليف، وبطل التأديب الذي ورد به الشرع، وارتفع المدح والذم؛ إذ ليس للفعل استناد إلى العبد أصلاً، ولم يبق للبعثة فائدة؛ لأنّ العباد ليسوا موجدين لأفعالهم، فمن أين لهم استحقاق الثواب والعقاب؟!» [المواقف في علم الكلام ٨/ ١٥٤].

الأدب الثالث عشر: بحول الله وقوته أقوم وأقعد

جبر ولا تفويض، وإنما أمرٌ بين أمرين^(١)، لا الجبر صحيح، ولا التفويض صحيح:
أ- لا أن العبد مسلوب الإرادة - كما ادّعت الأشاعرة -؛ لأن الله - بما ألزم به نفسه - لا يستطيع أن يعاقب الإنسان على فعل ليس للإنسان فيه اختيار، كنبض القلب والتنفس والنوم.

فإذا كان العبد ملزماً ومجبوراً، وسعاده وشقاوته قد كُتبت له سابقاً دون إرادة منه، فعلام يعذبه الله؟!، أو لا يقدر العبد أن يحتج على الله ويقول: أنا لم أكن أملك حولاً، ولم أكن أملك قوة، وما كان الأمر باختيار، وأنت الذي ألزمتني الفعل والترك؟!
فإذاً.. كون الإنسان لا يملك شيئاً غير صحيح..

ب- ولا أن الإنسان يملك كل شيء - كما ادّعت المعتزلة -؛ لأن الله الذي زوّد الإنسان بالقوة، ووهبه الاستطاعة، قادر في كل لحظة أن يسلب عنه هذا الحول والقوة والاستطاعة.

ج- وبالتالي تأتي الآية الشريفة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٢)، برهاناً على (الأمر بين الأمرين):

فهي في قوله - جلّ وعلا -: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ تسلب الرمي عن الإنسان، والخطاب فيها موجه للنبي ﷺ، وتقول له: (الرمي) ليس بحولك وقوتك، لا كما ادّعت المعتزلة أنك تملك الفعل، وفي قوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ تثبت الفعل للإنسان، لا كما تدّعي الأشاعرة أن الإنسان لا يملك شيئاً، فالآية تنفي وتثبت، ترسم الحالة الوسط، تنفي الرمي بمعنى استقلال العبد بالفعل، وتثبت الرمي، بمعنى أن للعبد شراكة، وأنه

(١) الكافي ١/ ١٦٠، (باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين)، ح ١٣، والرواية عن الإمام الصادق عليه السلام.
والرواية كاملة هي: عن محمد بن يحيى، عن حدثه، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «لا جبر ولا تفويض، ولكن.. أمرٌ بين أمرين، قال: قلت: وما أمرٌ بين أمرين؟ قال: مثل ذلك: رجل رأيته على معصية، فنهيته؛ فلم ينته، فتركته، ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية».

(٢) سورة الأنفال، الآية ١٧.

غير بعيد عن الفعل.

وهي تقوم بهذا النفي والإثبات ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾؛ لتذكّر العبد بحقيقة أساسية هي: أنّه في عين أنّه قادر على الفعل، ومختار في فعله، ومريد لفعله، في الوقت نفسه.. هذا لا يجعله إلهاً، كما صنعت المعتزلة من الإنسان إلهاً، فالآية تقول له: لا..، أنت في كلّ وقت من أوقاتك، وفي كلّ لحظة من لحظاتك، وفي كلّ آن من آناتك؛ أنت مرتبط بالمولى، مرتبط بمصدر القوة، مرتبط بمصدر الطاقة، محتاج إلى مصدر الحول، وفي لحظة من اللحظات قد يسلبك كلّ شيء، فتعود دون أية قدرة.

الله هو الذي وهبك الوجود، وهبك الحياة، وهبك العقل، وهبك الوعي، وهبك العلم، وهبك الاستطاعة والقوة والقدرة، وجعلها جميعاً تحت إراداتك واختيارك وتصرفك، فهو - سبحانه وتعالى - (الفاعل بالتسبيب).

وأنت - أيها الإنسان - قادر على وضعها في المكان الذي تريد، فأنت المتصرف المباشر بذلك، فأنت (الفاعل بالمباشرة).

وفي آية أخرى يقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١).

فالله - سبحانه وتعالى - هو الذي يعذبهم ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾، فهو (الفاعل المسبّب)، لكنّه يعذبهم بأيديكم وبواسطتكم ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾، أي جعلكم المباشر للفعل (الفاعل المباشر)، فالقوة الحقيقية من الله - جلّ وعلا -، والإنسان متصرف.

فالإنسان فاعل، لكنّه لا يفعل ذلك بالاستقلال والقوة الذاتية، وإنما بقوته المستمدّة من الله الذي وهبه ذلك ومنحه إياه.

ويظهر ذاك جلياً في الرواية التي نقلها علي بن إبراهيم القمي، عن محمد، عن

(١) سورة التوبة، الآية ١٤.

يونس، عن عِدَّة، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

«قال له رجل: جُعِلْتُ فداك، أجبر الله العباد على المعاصي؟

فقال: الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي، ثمَّ يعذبهم عليها!!

فقال له: جُعِلْتُ فداك، ففوّض الله إلى العباد؟

قال: فقال: لو فوّض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي!!

فقال له: جُعِلْتُ فداك، فبينهما منزلة؟!

قال: فقال: نعم... أوسع ما بين السماء والأرض»^(١).

كما يظهر ذلك جلياً في رواية سأل فيها الحسن بن علي الوشاء الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وفيها:

«سألته، فقلتُ له: الله فوّض الأمر إلى العباد؟

قال: الله أعزّ من ذلك!!

قلتُ: فأجبرهم على المعاصي؟

قال: الله أعدل وأحكم من ذلك!!

ثمَّ قال [الإمام الرضا]: قال الله - عزّ وجلّ -: (يا ابن آدم، أنا أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك منّي، عملتَ المعاصي؛ بقوتي التي جعلتها فيك)»^(٢).

(١) الكافي ١ / ١٦٠، (باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين)، ح ١١.

(٢) الكافي ١ / ١٦٠، (باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين)، ح ٣.

والتوحيد / ٣٦٢-٣٦٣، الباب ٥٩ (باب نفي الجبر والتفويض)، ح ١٠.

وفي رواية عن محمد بن عجلان قال: «قلتُ لأبي عبد الله [الصادق] عليه السلام: فوّض الله الأمر إلى العباد؟! فقال: الله أكرم من أن يفوّض إليهم، قلتُ: فأجبر الله العباد على أفعالهم؟، فقال: الله أعدل من أن يجبر عبداً على فعل ثمَّ يعذبه عليه» [التوحيد / ٣٦١، الباب ٥٩ (باب نفي الجبر والتفويض)، ح ٦].

فجملة: (عملت المعاصي؛ بقوتي التي جعلتها فيك) جملة موجزة مختزلة، لكنّها عميقة الغور، واسعة المعنى، مكثّفة الدلالة، بعيدة المدى، تبين أنّ الله - سبحانه وتعالى - هو المعطي المانع الذي أودع تلك القوة في الإنسان، ووهبها له، فالله هو (الفاعل بالتسيب)، والإنسان هو المتصرّف المباشر الذي قام بوضعها في المعصية، فهو (الفاعل بالمباشرة).

تنظير وتقريب:

ومن باب التنظير لمبحث (الأمر بين الأمرين)، والمثال التقريبي له، نقول:

الأمر - تمامًا - كشخص أشلّ اليد، يملك يدًا كهربائية، ولا يستطيع تحريكها والتصرّف فيها إلا إذا ساعده شخص آخر بإيصال سلكها بالكهرباء، وأمده بالتيار الكهربائي، بحيث لو رفع هذا يده عن التيار الكهربائي لانقطعت القوة في الحال، وساد الشلل المطبق، فلو قام صاحب اليد الكهربائية - بملء وعيه وإرادته واختياره - وقتل شخصًا، فالفعل - هنا - ينسب لهما:

- ينسب لموصل الكهرباء بوصفه (المسبّب).

- وينسب لصاحب اليد الكهربائية بوصفه (المباشر).

والمباشر - هنا - مسؤول عن فعله؛ لأنّه استخدم تلك القوة الموهوبة وهو يملك كامل شروط التكليف والاختيار!!

وفي مناظرة رائعة جمعت بين الإمام الصادق عليه السلام وأحد القائلين بالتفويض في الشام بطلب من عبد الملك بن مروان، وبمحضر جماعة كبيرة من الناس، وتعبّر الرواية عن المفوض بـ (القدري)، قال القدريّ لأبي عبد الله عليه السلام: سل عمّا شئت، فقال له: اقرأ سورة الحمد، قال: فقرأها، وقال الأموي وأنا معه: ما في سورة الحمد علينا؟!، إنّ الله وإنّا إليه راجعون!! قال: فجعل القدري يقرأ سورة الحمد حتى بلغ قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة، الآية ٥]، فقال له جعفر عليه السلام: قف، مَنْ تستعين؟!، وما حاجتك إلى المعونة إن كان الأمر إليك؟!، ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٥٨] [البرهان في تفسير القرآن ١ / ٢٥٠].

اللهم لا تكلني إلى حولي وقوتي!!

والقصص التي تبرأ أصحابها من حول الله وقوته، والتجؤوا إلى حولهم وقوتهم، فإذا بهم يفقدون كل شيء في لحظة خاطفة؛ تعطي معنى أن الحول والقوة التي لديهم إنما هما منحة إلهية، وفي لمح بصر يمكن أن يسلبها الله منهم، فيضحون هشيماً تذروه الرياح، وريشة في مهب العاصفة!!

ولذلك يلهج لسان أهل البيت عليه السلام بالدعاء والتضرع إلى الله أن لا يكلهم إلى حولهم وقوتهم، ويبقيهم تحت الظل الظليل الوارف لحوله وقوته - سبحانه وتعالى - كما في دعاء الإمام السجاد عليه السلام في يوم عرفة والذي يقول فيه: «ولا تكلني إلى حولي وقوتي دون حولك وقوتك»^(١).

أمير المؤمنين والبراءة من القدرية:

وبعد هذا الربط العقدي الوثيق بين قولنا: (بحول الله وقوته أقوم وأقعد وأركع وأسجد)، وبين البراءة من فكر الجبرية والمفوضة، والإقرار بفكر الأئمة في عقيدة (الأمر بين الأمرين)، لا نستغرب إذا وردت علينا رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «كان أمير المؤمنين عليه السلام يبرأ من القدرية في كل ركعة، ويقول: بحول الله أقوم وأقعد»^(٢).

هذا ما تعطينا إياه هذه المقولة التي نقولها في كل ركعة من الركعات نقوم منها إلى الركعة التالية بعدها.

(١) الصحيفة السجّادية الكاملة / ٢٢٢، (دعاؤه عليه السلام في يوم عرفة).

(٢) وسائل الشيعة ٤ / ٩٦٧، الباب ١٣ (باب أنه يُستحب أن يُقال عند القيام من السجود ومن التشهد: (بحول الله وقوته أقوم وأقعد وأركع وأسجد)، أو يكبر)، ح ٧.



الأدب الرابع عشر

التسبيحات الأربع..

معاني التسبيحات الأربع..

سوف نتحدّث هنا عمّا يذكره الإنسان المصلّي في الركعة الثالثة والرابعة من صلاته عوضاً عن الفاتحة، وهو التسبيحات الأربع: (سبحانَ الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).

ومن المعلوم أنّ المصلّي يستطيع اختيار أحد أمرين في ركعته الثالثة والرابعة: إما أن يختار الفاتحة، وإما أن يختار التسبيحات الأربع: مرّة واحدة وجوباً، وثلاث احتياطاً وجوبياً عند البعض، والأفضل عند البعض الآخر، وبعض الفقهاء يوجب بعد التسبيحات الأربع ثلاث مرّات: الاستغفار مرّة واحدة، وهو مستحب عند الباقيين.

فما الذي يريد التشريع أن يفهمنا إيّاه من خلال التسبيحات الأربع؟

هناك أربعة معاني رئيسية بعدد الأذكار الواردة في هذه التسبيحات:

المعنى الأول: التسبيح:

و(التسبيح) - في اللغة - يعني: التنزيه^(١).

(١) يقول ابن منظور في (لسان العرب): «والتسبيح: التنزيه، و(سبحانَ الله) معناه: تنزيهاً لله من الصاحبة والولد، وقيل: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف» [لسان العرب ٦ / ١٤٤، مادة (سبح)].

ويقول الفيروزآبادي في (القاموس المحيط): «و(سبحانَ الله): تنزيهاً له من الصاحبة والولد» [القاموس المحيط ١ / ٤٦٠، مادة: (سبح)].

وفي الروايات الشريفة أنّ (التسبيح) هو: التعظيم لله، والتنزيه له: يقول يزيد بن الأصمّ: «سأل رجلُ عمرَ بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، ما تفسير (سبحانَ الله)؟»، قال: إنّ في هذا الحائط رجلاً كان إذا سُئِلَ أنبأ، وإذا سُكِتَ ابتدأ، فدخل الرجل فإذا به هو علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: يا أبا الحسن، ما تفسير (سبحانَ الله)؟، قال: هو تعظيم جلال الله - عزَّ وجلَّ -، وتنزيهه عما قال فيه كلّ مشرك، فإذا قالها العبد صلّى عليه كلّ ملك»^(١).

ويقول هشام الجواليقي: «سألتُ أبا عبد الله [الصادق] عليه السلام عن قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾^(٢)، ماذا يعني به؟، قال: تنزيهه»^(٣).

فحين تسبّح الله تنزّهه عما لا يليق به، وهو أول فعل ينبغي عليك أن تفعله قبل أن تحمد الله وتهلّله، وتكبره، يعني قبل أن تدخل إلى محيط الحرم الإلهي نزّه هذا الحرم عن كلّ تصوّر أو شائبة أو تفكير قد يعلّق بهذا الذهن البسيط غير القادر على الاستيعاب، لماذا؟ لأنّ مشكلة الإنسان أنّه يريد أن يرسم تصوّراً إلى شيء لم يؤت أدوات المعرفة فيه.

هذا العقل البسيط، وهذا الإدراك البسيط هل هو قادر على أن يرسم تصوّراً للربّ

- (١) التوحيد/ ٣١٢، الباب ٤٥ (باب معنى (سبحانَ الله))، ح ١.
- (٢) وردت لفظة ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ في القرآن الكريم في خمسة مواضع، هي:
 - ١- ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية ٩١].
 - ٢- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة القصص، الآية ٦٨].
 - ٣- ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [سورة الصافات، الآية ١٥٨-١٥٩].
 - ٤- ﴿أَمْ لَهُمْ آلَةٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الطور، الآية ٤٣].
 - ٥- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة الحشر، الآية ٢٣].
- (٣) التوحيد/ ٣١٢، الباب ٤٥ (باب معنى (سبحانَ الله))، ح ٣.

الكون.. للخالق.. للإله!؟

إذا استطاع العقل أن يرسم تصوّرًا فقد رسم تصوّرًا لشيء لا يمكن أن يكون هو الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فالله - كما وصفه مولانا أمير المؤمنين، عليه السلام - : «لا يُدرك بوهم، ولا يُقدّر بفهم»^(١).

وورد أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الحمد لله الذي حارت الأوهام في وصفه، وذُهِلت العقول عن كنه عظمتة، حتى يرجع إلى ما امتدح بنفسه من عزّ وجوده وطوله»^(٢).

كما ورد في حوار الإمام الصادق عليه السلام مع الزنديق قال عليه السلام: «لا جسم ولا صورة، ولا يُحسّ ولا يُجسّ، ولا يُدرك بالحواس الخمس، لا تدركه الأوهام، ولا تنقصه الدهور، ولا يغيّره الزمان»^(٣).

وورد عن محمد بن عبد الله الخراساني - خادم الإمام الرضا، عليه السلام - قال: «قال بعض الزنادقة لأبي الحسن [الرضا] عليه السلام: لم احتجب الله؟، فقال أبو الحسن عليه السلام: إنّ الحجاب عن الخلق؛ لكثرة ذنوبهم، فأما هو فلا يخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار، قال: فلم لا تدركه حاسة البصر؟، قال: للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الأبصار، ثم هو أجلّ من أن تدركه الأبصار، أو يحيط به وهم، أو يضبطه عقل، قال: فحدّه لي، قال: إنّّه لا يُحدّد، قال: لم؟، قال: لأنّ كلّ محدودٍ متناهٍ إلى حدّ، فإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان، فهو غير محدود ولا متزائد ولا متجزّ ولا متوهم»^(٤).

(١) نهج البلاغة / ٢٦٢، الخطبة ١٨٢.

(٢) بحار الأنوار ٩٤ / ١٤٥، الباب ١ (باب أعمال أيام مطلق الشهر ولياليه وأدعيتها)، ح ٤، دعاء اليوم السابع من الشهر.

(٣) بحار الأنوار ٣ / ٢٩، الباب ٣ (باب إثبات الصانع، والاستدلال بعجائب صنعه على وجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته)، ح ٣.

(٤) بحار الأنوار ٣ / ١٥، الباب ٢ (باب علّة احتجاب الله - عزّ وجلّ - عن خلقه)، ح ١.

ومن دقة هذه الأحاديث: أنّها لا تقول: (كلّ ما أدركته بعقلك)، بل تقول: كلّ ما أدركته أو بلغته بوهمك فليس إلهاً، وقد ذكر فيها الأئمة الثلاثة: أمير المؤمنين، والصادق، والرّضا، المفهوم نفسه، فقالوا: (لا يُدرك بوهم)، (لا تدركه الأوهام)، (أو يحيط به وهم).

أي اشطح بخيالك ما شئت فوق المدرك العقلي، وجنّ في عالم الوهم والخيال، وابتكر الصور، فكلّ ما أدركته بهذا الخيال وبهذا الوهم فليس إلهاً؛ لأنّ الله أعلى وأجلّ وأسمى من أن نناله بهذه العقول البسيطة، بل.. وبخيالنا ووهمنا المجنّح أيضاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فأول عمل سجّح الله، أي نزّهه عن كلّ ما يمكن أن يخطر ببالك، وما يمكن أن يوسوسه إليك الشيطان؛ لأنّ هذا من ضمن الدوائر التي يشتغل إبليس فيها، فمن الدوائر التي يريد إبليس أن يوقعك في شركها دائرة التصوّر، وبالفعل هذا الشرك وقع فيه كثيرون، كثير من الفرق الإسلامية وقعت في شرك التجسيم والتشبيه:

١- التجسيم:

المجسّمة أثبتت للإله وجهًا، وعينًا، ويدًا، وساقًا، ورجلاً..، إلى آخره...، ولا أريد أن أخوض في تفاصيل، وأستغفر الله من هذا النقل أساسًا!!

ماذا نصنع؟!، نحن - في بعض الأوقات، من باب الأمانة العلمية - ننقل كفرًا، كما نقل القرآن الكريم أقوال الكفرة والمشرّكين، ولنا بالقرآن أسوة.

ماذا فعل مجسّمة الفرق الإسلامية بالآيات والروايات؟!

جاءوا إلى «ما ورد في التنزيل من الاستواء والوجه واليدين والجنب والمجيء والإتيان والفوقية وغير ذلك؛ فأجروها على ظاهرها، اعني ما يفهم عند الإطلاق على الأجسام، وكذلك ما ورد في الأخبار من الصورة وغيرها»^(١).

(١) أبو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل / ١٠٦.

وصوّروا الإله جالساً على كرسي، ويوم القيامة تضيّج النار من قلة من فيها، ولا تكتفي بمن يُلقى فيها، وتطلب المزيد، حتى يضع الله رجله فيها، فتقول: (قطّ... قطّ)، ونسبوا ذلك إلى رسول الله ﷺ:

فقد رووا عن أنس بن مالك قال: «قال النبي - صَلَّى الله عليه وسلم -: لا تزال جهنم تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾^(١)؛ حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه، فتقول: قطّ قطّ وعزّتك، ويؤزى بعضها إلى بعض»^(٢).

كما رووا أنّ رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربّنا - تبارك وتعالى - كلّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: مَنْ يدعوني فأستجيبَ له؟، مَنْ يسألني فأعطيه؟، مَنْ يستغفرني فأغفرَ له؟»^(٣).

ووصل الأمر أن قال قائلهم - وهو داود الجواربي -: «اعفوني عن الفرج واللحية، واسألوني عمّا وراء ذلك، وقال: إنّ معبوده جسم ولحم ودم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس ولسان وعينين وأذنين، ومع ذلك جسم لا كالأجسام، ولحم لا كاللحوم، ودم لا كالدماء، وكذلك سائر الصفات، وهو لا يشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يشبهه شيء، وحُكي عنه أنّه قال: هو أجوف من أعلاه إلى صدره،

(١) سورة ق، الآية ٣٠.

(٢) صحيح البخاري ٧ / ٢٢٥ (كتاب الإيمان والنذور)، وصحيح مسلم ٨ / ١٥١ (باب النار يدخلها الجبارون).

(٣) صحيح البخاري ٢ / ٦٦ (باب التهجد بالليل)، و٧ / ١٤٩ (كتاب الدعوات)، وأبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، سنن أبي داود ١ / ٢٩٦، الباب ٣١١ (باب أيّ الليل أفضل؟)، ح ٤٧٣٥، وسنن ابن ماجه ١ / ٤٣٥، الباب ١٨٢ (باب ما جاء في أيّ ساعات الليل أفضل؟)، ح ١٣٦٦. كما ورد في (سنن الترمذي) و(سنن ابن ماجه): عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله - تبارك وتعالى - ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب» [سنن الترمذي ٢ / ١٢١، الباب ٣٨ (باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان)، ح ٧٣٦، وسنن ابن ماجه ١ / ٤٤٤، الباب ١٩١ (باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان)، ح ١٣٨٩].

مصمّت ما سوى ذلك، وأنّ له وفرة سوداء، وله شعر ققط»^(١).

يعني لا أستطيع أن أثبت الفرج واللحية!!، أما الباقي فكلّه ممكن التثبيت، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، جلّ ربّي وعلا، سبحان الله.

٢- التشبيه:

وبينما زعم المجسّمة أنّ الإله جسم، وأجروا على فكرتهم شيئاً من الترقيع، فقالوا: هو «جسم لا كالأجسام»^(٢)، تخبّط المشبّهة في التّيه أكثر، فقالوا: هو جسم كالشّعر، ويُرَى، ويُلامس، ويُصافح، ويُعانق، ويُزار، ويزور!!

يقول الشهرستاني: «وأما مشبّهة الحشوية: فحكى الأشعري عن محمد بن عيسى أنّه حكى عن مضر وكهمس وأحمد الهجيمي أنّهم أجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة، وأنّ المسلمين المخلّصين يعانقونه في الدنيا والآخرة إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حدّ الإخلاص والاتحاد المحض، وحكى الكعبي عن بعضهم أنّه كان يجوّز الرؤية في دار الدنيا، وأن يزوره ويزورهم»^(٣).

وعلى التشبيه حملوا «ما ورد في الأخبار من الصورة وغيرها.. في قوله - عليه الصلاة والسلام -: (خُلِقَ آدم على صورة الرحمن)»^(٤)، و«خلق الله آدم على صورته: طوله ستون ذراعاً»^(٥).

(١) الملل والنحل / ١٠٥.

(٢) الملل والنحل / ١٠٥.

(٣) الملل والنحل / ١٠٥.

(٤) الملل والنحل / ١٠٦.

ونقل (كنز العمال / ١ / ٢٢٧، باب (الإكمال)، ح ١١٤٣، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه؛ فإنّ صورة الإنسان على صورة وجه الرحمن». (٥) صحيح البخاري / ٧ / ١٢٥، (كتاب الاستئذان). وصحيح مسلم / ٨ / ٣٢، (باب الوعيد الشديد لمن عذّب الناس بغير حق).

وزعموا أنّ الإله ينزل ليالي الجمعة على حمار، ويتفقّد عبيده، «وذهب بعضهم إلى أنّه تعالى ينزل في كلّ ليلة جمعة على شكل أمرّد حسن الوجه، راكبًا على حمار، حتى أنّ بعضهم ببغداد وضع على سطح داره معلقًا، وكان يضع كلّ ليلة جمعة فيه شعيرًا وتبنًا؛ لتجوز أن ينزل الله على حماره على ذلك السطح؛ فيشغل الحمار بالأكل، ويشغل الربّ بالنداء، ويقول: هل من تائب؟، هل من مستغفر يستغفر، وأنا أتوب عليه، وأغفر له؟»^(١).

التجسيم والتشبيه في الميزان:

نحن - بضرّس قاطع - نقول: إنّ (الإله) الذي صوّره المجسّمة والمشبّهة ليس (الله)!!، ونؤثّر التعبير عنه بلفظة (الإله)، وليس (الله)؛ لأنّه صنيعة التحريف والتدليس والوهم والخرافة!!

فالله - جلّ وعلا -:

- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢).

- ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٣).

- «وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته، وجلّ عن ملائمة كيفياته»^(٤).

ولذلك ورد أنّ إبراهيم بن محمود قال:

«قلتُ للرّضا عليه السلام: يا ابن رسول الله، ما تقول في الحديث الذي يرويه الناس عن رسول الله ﷺ أنّه قال: (إنّ الله - تبارك وتعالى - ينزل في كلّ ليلة جمعة إلى

(١) محمد طاهر القمّي الشيرازي، كتاب الأربعين / ٦٦٠، والفضل بن شاذان الأزدي، الإيضاح / ١٦، الهامش ١.

(٢) سورة الشورى، الآية ١١.

(٣) سورة الشورى، الآية ١٠٣.

(٤) بحار الأنوار / ٨٤ / ٣٣٩ (دعاء الصباح)، ومفاتيح الجنان / ١٢٢، (دعاء الصباح) لأمير المؤمنين عليه السلام.

سماء الدنيا؟)، فقال ﷺ: لعن الله المحرّفين الكلم عن مواضعه، والله ما قال رسول الله ﷺ ذلك، إنّما قال ﷺ: إنّ الله - تبارك وتعالى - يُنزل ملكًا إلى السماء الدنيا كلّ ليلة في الثلث الأخير، وليلة الجمعة في أول الليل، فيأمره فينادي: (هل من سائل فأعطيه؟، هل من تائب فأتوب عليه؟، هل من مستغفر فأغفر له؟، يا طالب الخير أقبل، ويا طالب الشرّ أقصر)، فلا يزال ينادي بهذا حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر عاد إلى محلّه من ملكوت السماء، حدّثني بذلك أبي، عن جدّي، عن آبائه، عن رسول الله ﷺ^(١).

ولكي لا تقع في هذا الشرك، لكي لا تتوهّم ما يصنعه إبليس وتحسبه حقيقة، قبل أن تدخل إلى محيط الحرم الإلهي: حامدًا مهللاً مكبرًا؛ سبح الله، أي نزهه، ثم ابدأ بالحمد.

المعنى الثاني: الحمد:

فبعد أن نزهت الله، وأبعدت كلّ وهم؛ صرتَ جديرًا بالحمد؛ لأنّه ليس كلّ أحد جديرًا بحمد الله والثناء عليه، ولولا أنّ الله - جلّ وعلا - أنزل قرآنًا فيه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)؛ ولولا أنّ الله قد أذن لنا بحمده، وعلمنا وأدبنا في كتابه، فقال: ﴿وَأَخِرْ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)؛ لما صحّ لنا أن نقول هذه اللفظة؛ لأنّنا لا نبليغ الثناء على الله، ولا نعرف كيف نشني عليه، وذاك ما أوضحته روايات عديدة:

- فمن أدعية الرسول ﷺ قوله: «اللهم إنّني لا أستطيع أن أبلغ في الثناء عليك

(١) مَنْ لا يحضره الفقيه ١/ ٢٨٧-٢٨٨، (باب وجوب الجمعة، ومن وضعت عنه الصلاة والخطبة فيها)، ح ١٢٤٠، ووسائل الشيعة ٥/ ٧٣، الباب ٤٤ (باب استحباب الإكثار من الدعاء والاستغفار والعبادة ليلة الجمعة)، ح ١.

(٢) وردت هذه العبارة في القرآن الكريم في العديد من الآيات منها: سورة الفاتحة، الآية ٢، وسورة الأنعام، الآية ٤٥، وسورة يونس، الآية ١٠، وسورة الزمر، الآية ٧٥، وسورة غافر، الآية ٦٥.

(٣) سورة يونس، الآية ١٠.

ولو حرصتُ، أنتَ كما أثّنتَ على نفسك»^(١)، «لا أبلغ مدحك والثناء عليك، أنتَ كما أثّنتَ على نفسك، أستغفرك وأتوب إليك»^(٢)، «لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثّنتَ على نفسك»^(٣).

(١) بحار الأنوار ١٦ / ٢٥٣، (باب مكارم أخلاق الرسول ﷺ، وسيرته، وسننه)، (في دعائه عند مضجعه).

(٢) بحار الأنوار ٢٢ / ٢٤٥، الباب ٤ (باب أحوال عائشة وحفصة)، ح ١٤.

(٣) بحار الأنوار ٦٨ / ٢٣، الباب ٦١ (باب الشكر)، ذيل الحديث ١.

وما لهج به رسول الله ﷺ من عدم إمكان البشر الثناء على الله مهما حرصوا، وأخذهم بالثناء الذي أثناه الله على نفسه، أمر دأب أهل البيت على تكراره في كلامهم وأدعيتهم: - فعن أحد الباقرين عليه السلام: «اللهم إني إليك فقير، ومن عذابك خائف مستجير، اللهم لا تبدّل اسمي، ولا تغيّر جسمي، ولا تجهد بلائي، ولا تشمت بي أعدائي، أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برحمتك من عذابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، جلّ ثناؤك، أنتَ كما أثّنتَ على نفسك، وفوق ما يقول القائلون» [بحار الأنوار ٩٤ / ٨٧-٨٨، الباب ٥٧ (باب فضل ليلة النصف من شعبان وأعمالها)، ح ١٣].

- ومن دعاء الإمام الصادق عليه السلام في يوم عرفة: «لك الآلاء والنعم، وأنتَ المحسن المجمل، لا تُبلغ مدحك، ولا الثناء عليك، أنتَ كما أثّنتَ على نفسك، سبحانك وبحمدك، تباركتُ أسماؤك، وجلّ ثناؤك، ما أعظم شأنك وأجلّ مكانك، وما أقربك من عبادك، وألطفك بخلقك، وأمنعك بقوتك، أنتَ أعزّ وأجلّ وأسمع وأبصر وأعلى وأكبر وأظهر وأشكر وأقدر وأعلم وأجبر وأكبر وأعظم وأقرب وأملك وأوسع وأمنع وأعطى وأحكم وأفضل وأحمد من أن تدرك العيان عظمتك، أو تصف الواصفون صفتك، أو يبلغوا غايتك» [بحار الأنوار ٩٥ / ٢٤١، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)، ح ٢].

كما ورد في تحقیقات العلماء:

- يقول العلامة المجلسي: «وليّ الحمد»، أي أولى وأحقّ بالحمد أو متولّي الحمد، بمعنى أنّ ما يحمّدك غيرك ليس بحمد تستحقّه، بل أنتَ كما أثّنتَ على نفسك، أو أنتَ تلهم العباد حمدك، وتوفّقهم لذلك» [بحار الأنوار ٨٣ / ٢٧٥، الباب ٤٥ (باب الأدعية والأذكار عند الصباح والمساء)، ذيل الحديث ٤٠].

- ويقول العلامة الطباطبائي: «وذلك أنّ الحمد توصيف، وقد نزه - سبحانه - نفسه عن وصف الواصفين من عباده حيث قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿﴾ [سورة الصافات، الآية ١٦٠-١٦١].

والكلام مطلق غير مقيد، ولم يرد في كلامه تعالى ما يؤدّن بحكاية الحمد عن غيره إلا ما

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لتلميذه البارّ المخلص كميل بن زياد النخعي - رضوان الله عليه - : «يا كميل، لو لم يظهر نبيّ، وكان في الأرض مؤمن تقيّ لكان في دعائه إلى الله مخطئاً أو مصيباً؟!، بل - والله - كان مخطئاً؛ حتى ينصّه الله

حكاه عن عدّة من أنبيائه المخلصين، قال تعالى في خطابه لنوح عليه السلام : ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية ٢٨].

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [سورة إبراهيم، الآية ٣٩].

وقال تعالى لنبیه محمد صلی الله علیه و آله في بضعة مواضع من كلامه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [سورة النمل، الآية ٩٣].

وقال تعالى حكاية عن داود وسليمان عليهما السلام : ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [سورة النمل، الآية ١٥]. وإلا ما حكاه عن أهل الجنة وهم المطهرون من غلّ الصدور ولغو القول والتأثيم كقوله: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة يونس، الآية ١٠].

وأما غير هذه الموارد فهو - تعالى - وإن حكى الحمد عن كثير من خلقه، بل عن جميعهم، كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [سورة الشورى، الآية ٥]، وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الرعد، الآية ١٣]، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء، الآية ٤٤].

إلا أنّه - سبحانه - شفع الحمد في جميعها بالتسبيح، بل جعل التسبيح هو الأصل في الحكاية، وجعل الحمد معه، وذلك أنّ غيره - تعالى - لا يحيط بجمال أفعاله وكمالها كما لا يحيطون بجمال صفاته وأسمائه التي منها جمال الأفعال، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [سورة طه، الآية ١١٠]، فما وصفوه به فقد أحاطوا به، وصار محدوداً بحدودهم، مقدّراً بقدر نيلهم منه، فلا يستقيم ما أثنوا به من ثناء إلا من بعد أن ينزهوه ويسبحوه عن ما حدّوه وقدروه بأفهامهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل، الآية ٧٤]، و أما المخلصون من عباده - تعالى - فقد جعل حمدهم حمده، ووصفهم وصفه، حيث جعلهم مخلصين له، فقد بان أنّ الذي يقتضيه أدب العبودية أن يحمد العبد ربّه بما حمد به نفسه، ولا يتعدّى عنه، كما في الحديث الذي رواه الفريقان عن النبي صلی الله علیه و آله : (لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.... الحديث).

فقوله في أول هذه السورة [سورة الفاتحة]: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [سورة الفاتحة، الآية ٢]، تأديب بأدب عبودي ما كان للعبد أن يقوله لولا أنّ الله تعالى قاله نيابة وتعليماً لما ينبغي الثناء به» [الميزان في تفسير القرآن ١ / ٢٠-٢١].

لذلك، ويؤهله له»^(١).

نحن ليس لدينا قابلية للوقوف للحمد، فمن نحن ومن نكون حتى ندخل محيط الحرم الإلهي؛ فنحمد الله، لولا إذنه وتعليمه؟!

والحقيقة أنّ مقام الحمد ليس مقامًا سهلاً، ولا يؤتاه كلّ أحد، فهذا - كذلك - شيء ينبغي أن لا ننساه، لماذا؟؛ لأنّ ديدن البشر التبرّم والشكوى وعدم الحمد حتى قال قائلهم:

كُلِّ مَنْ تَلْقَاهُ يَشْكُو دَهْرَهُ لَيْتَ شِعْرِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَمَنْ؟!^(٢)
ترى موظّف الدولة يتكلّم على موظّف الشركات العليا ويقول: فاز بها هؤلاء!!،
لديهم بيوت وراتب وسكن، وشهر عطلة، وغير ذلك!!

وموظّف الشركات العليا يصل بيته الساعة الرابعة عصرًا، وقد كره حياته وعيشته فيقول: ما فاز بها إلا موظّفو الدولة لا تصل الساعة إلى الثانية ظهرًا إلا وهم خارج مقرّ أعمالهم، متغذّون مع أهلهم، وآخذون قسطًا من الراحة والقيولة!!

وهكذا.. فالفقير متبرّم، والغني متبرّم، وإذا أمكن معرفة سبب تبرّم الفقير، فلا يمكن أن تعرف سبب تبرّم الغني، ربّما نعذر الفقير في بعض الأوقات لو تبرّم، لكنّ الغني على أيّ شيء يتبرّم؟!؛ لأنّ (المسكين!!) كان يُفترض أن يربح عشرة مليون؛ فربح تسعة!!، فتراه يتأفّف، ويضجّ قائلًا: (والله خسرنا، والسوق واقفة)، ماذا تعني (السوق واقفة)؟!، يعني كان يُفترض أن يربح عشرين ألف ريال في اليوم، لكنّ المسكين ربح تسعة عشر ألفًا فقط!!

الفقير كذلك بطبيعة الحال غير راضٍ عن وضعه، وعينه دائمًا على وضع الغني.

(١) تُحَفِّ العُقُولُ عَنْ آلِ الرَّسُولِ / ١٢٢، (وصيته ﷺ لكميل بن زياد مختصرة).

(٢) الدكتور إميل بديع يعقوب، معجم لآلئ الشعر: أجمل الأبيات وأشهرها / ٣٨٢.

والدكتور حسن نمر دندشي، معجم الأبيات الشهيرة / ٢٢٣.

وقد نسبته الدكتور إميل يعقوب، والدكتور حسن دندشي إلى المعرّي، ولم نعر عليه في دواوينه.

لا تكاد ترى واحداً في واقعه يقول: (الحمد لله رب العالمين).

ونقول: (في واقعه)؛ لأنّ كثيرين يقولون بألسنتهم: (الحمد لله رب العالمين) كلّ يوم مرّات ومرّات، ويكفي أنّهم يقولونها عند قراءة سورة الفاتحة في صلواتهم في الركعتين الأوليين من كلّ صلاة، أي يقولونها عشر مرّات في اليوم على الأقلّ، لكنّ واقعهم وحقيقتهم وقلوبهم لا يحمد الله فعلاً، ولا يعيش الرّضا على الله والحمد والثناء عليه، بل.. يصطخب ويلتظي في نار التبرّم والسخط على الله، والشكوى على حاله ومعيشته!!

علامَ نحمد الله؟

إنّ نعم الله كثيرة لا تُحصى، وهي تترى وتتابع كلّ حين: ﴿وَأَنَّا كُنتُم مِّنْ كُلِّ مَّاءٍ سَائِلُمُوهُ وَإِنْ تُعْذِرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(١)، وتحتاج منا إلى حمد وثناء، ومنها:

١- نعمة الوجود:

الحمد لله على نعمة الوجود أولاً، أنّ الإنسان موجود، فهذا الوجود بحدّ ذاته نعمة، عوارض الوجود شيء آخر، مجرّد الوجود نعمة، كما قال العرفاء: مجرّد أن يخرج الإنسان من كتم العدم إلى نور الوجود نعمة يُحمد الله عليها. ثمّ بعد الوجود يصبح الإنسان غنياً أو فقيراً، ذاك موضوع ثانٍ، كلّه - كذلك - يستحقّ الحمد.

لكن.. الحمد والثناء يكون على أصل الوجود أولاً.

٢- نعمة الإنسانية:

ثمّ الحمد لله على أن جعلك الله بشراً، ولم يجعلك جماداً، أو نباتاً، أو حيواناً، الحمد لله أن لم يجعلك ثوراً، ألا يستحقّ هذا الحمد والثناء؟!

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

٣- نعمة العقل:

ثمّ الحمد لله على أن رزقك الله عقلاً، ولم يجعلك مجنوناً، أليس العقل نعمة بالغة عظيمة؟!

٤- نعمة الولادة في ديار المسلمين:

ثمّ الحمد لله أن جعلك في بلاد المسلمين، ووهبك أن وُلدت في بلاد يقولون: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، تصوّر نفسك مولوداً في غابات الأمازون، كيف سيصير حالك؟!

أن تحمد الله أن أخرجك في ديار المسلمين، وهذا موجود في (دعاء عرفة)، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «فَلَمْ أَزَلْ ظَاعِناً مِنْ صُلْبٍ إِلَى رَحِمٍ فِي تَقَادُمِ الْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، لَمْ تُخْرِجْنِي لِإِرَافَتِكَ بِي، وَلُطْفِكَ لِي، وَإِحْسَانِكَ إِلَيَّ، فِي دَوْلَةِ أُمَّةِ الْكُفْرِ: الَّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَكَ، وَكَذَّبُوا رُسُلَكَ، لَكِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي رَأْفَةً مِنْكَ وَتَحَنُّناً عَلَيَّ لِلَّذِي سَبَقَ لِي مِنَ الْهُدَى الَّذِي لَهُ يَسَّرْتَنِي، وَفِيهِ أَنْشَأْتَنِي»^(١).

٥- نعمة الولاية:

ثمّ تحمد الله على النعمة الكبرى: نعمة الولاية، ولاية محمد وآل محمد.

٦- نعمة العيش في المجتمع الديني:

ثمّ تحمد الله الذي مَنَّ عليك بمجتمع ديني: فيه مسجد، وفيه ذكر لله، ألا يستحقّ هذا الحمد؟

(١) بحار الأنوار ٩٥ / ٢١٦-٢١٧، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)، ح ٣ (دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٢٨٨-٢٨٩.

البلاء والتزكية:

وبعد ما ذكرناه من أمثلة للنعم الإلهية الضافية في حياتنا، فإنَّ الغنى والفقر والصحة والمرض والابتلاءات كلّها تزكية لهذه النفس.

والمشكلة أنَّ الإنسان بقدر ما يكون مؤمناً يكون مبتلى: «أشدَّ الناس بلاءً: النبيون، ثمَّ الوصيّون، ثمَّ الأمثل فالأمثل»^(١)، و«لو كان المؤمن على رأس جبل لقيض الله - عزَّ وجلَّ - له مَنْ يؤذيه؛ ليؤجره على ذلك»^(٢).

فلا ينبغي منّا أن نلهج بالتبرّم والشكوى والتذمّر، هذا يتذمّر من حياته، وهذا يتذمّر من وضعه، وهذا يتذمّر من راتبه، وهذا يتذمّر من عياله، وهذا يتذمّر من ديونه، وهذا يتذمّر من الدين، وذاك يتذمّر من شيء آخر...، وتصبح حياة الواحد منّا سوداء معتمة ملؤها التأفّف والتحصّر، ومجالسنا بدلاً من أن تكون مجالس حمد؛ تكون مجالس شكوى.

وبدلاً من أن تكون المجالس مجالس شكر وحمد وثناء وتمجيد لله - جلَّ وعلا - تكون مجالس تبرّم، وسخط، وشكوى، إلى حدّ أنّ الأسئلة تحاصرُك من كلّ مكان فتقول: إذا... أين الإنسان الراضي في هذه الدنيا؟!، أين المرتاح؟!، أين السعيد؟!، أين المبتهج؟!، أين الممتلئ؟!

ومن باب الطريفة يقول أحدهم: دخلتُ على أحد العلماء يشتكي مرضاً، فقلتُ له: اشكر الله، قال: لستُ بشاكره، يقول: قلتُ له: لماذا؟، قال: القرآن يقول: ﴿لَئِنْ

(١) الكافي ٢ / ٢٥٥، الباب ٢٩٢ (باب شدّة ابتلاء المؤمن)، ح ٢٩، والرواية عن سماعة، عن الإمام الصادق عليه السلام، وأولها: «إنَّ في كتاب علي عليه السلام: أنَّ أشدَّ الناس بلاء النبيون...». وقال الإمام الباقر عليه السلام: «أشدَّ الناس بلاء الأنبياء، ثمَّ الأوصياء، ثمَّ الأمثال فالأمثال» [الكافي ٢ / ٢٥١، الباب ٢٩٢ (باب شدّة ابتلاء المؤمن)، ح ٤].

(٢) علل الشرائع ١ / ٦٠، الباب ٤٠ (باب العلة التي من أجلها يُبتلى النبيون والمؤمنون)، ح ٣، ووسائل الشيعة ٨ / ٤٨٦، الباب ٨٥ (باب استحباب الصبر على أذى الجار وغيره)، ح ١٠.

شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ^(١)، فأنا أخاف أن أقول: شكرًا لله، ويزيدني مرضًا؟!

نحن نتبرّم من مشاكل الدنيا، والمشكلة أنّ الدنيا ليست خاتمة المطاف:
ولو أنّا إذا متّنا تُركنا لكان الموت راحة كلّ حيٍّ
ولكنّا إذا متّنا بُعثنا ونسأل بعدها عن كلّ شيء^(٢)
وهناك في الآخرة لا ينفع تبرّم، ولا شكوى.

فالإنسان عليه منذ الدنيا أن يعود نفسه على الحمد، يعود نفسه على الثناء،
يعود نفسه على الشكر؛ حتى يكون قابلاً للرحمات الإلهية، قابلاً إلى أن يستمطر هذه
الرحمات، أما إذا كانت حياته تذرّ وشكوى، فكيف يريد من الله - جلّ وعلا - أن
يشمله برحمته، وهو يشكوه إلى غيره؟!، ويشكوه لمن؟!، لعبد من عبده!!
إنّ واقع الشكوى وواقع التذرّ هو الشكوى من الله، أو يحقّ للعبد أن يشكو
مولاه؟!، ولمن؟، لعبد مثله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، فضلاً عن أن يملك ذلك
للآخرين..

المعنى الثالث: التهليل:

بعد أن تسبّح الله وتحمده؛ تهلّله، وقد بيّنا فيما مضى أن واقع التهليل (لا إله إلا
الله) هو تكريس لدائرة العبودية في النفس، وتذكر أن لا أحد في هذا الكون قادر على
دفع ضرّ أو جلب نفع إلا الله - جلّ وعلا - الإله الواحد الأحد.

المعنى الرابع: التكبير:

وكما ابتدأت بالتزّيه، فسبّحت الله، تنتهي وتختتم بالتكبير، وبين دائرتي التسبيح
والتكبير يقع الحمد والتهليل.

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.

(٢) ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، جمع: سالم شمس الدين / ١٢٧.

لماذا نبدأ بالتسبيح، ونختم بالتكبير؟

هذه التسبيحات الأربع التي نقولها في صلواتنا في الركعتين الثالثة والرابعة، جاءت بهذا الترتيب: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).

ولعل هذا الترتيب لفقرات الذكر ينشئ في أذهاننا سؤالاً يقول:

لماذا هذا الترتيب؟

لماذا نبدأ بالتسبيح، ونختم بالتكبير؟

والجواب: إن ذاك يعني أن نبدأ - أولاً - بإبعاد الشوائب، وطرد الأوهام بقولنا: (سبحان الله)، ونختم بإكبار الله (الله أكبر)، وأن الله - جلّ وعلا - فوق كل قدرة، فوق كل تصوّر، ويبقى هذا التعبير قياساً فيه نظر، وفيه اشتباه!!

فالتكبير يأتي في الخاتمة؛ ليقول: إن الله أكبر من كل تصوّر تصوّره؛ ولذا عندما نسمع المؤذن يصدح: (الله أكبر)؛ يُستحب أن نقول: «كَبُرَتْ كِبِيرًا لَا يُقَاسُ»^(١)،

(١) يرى كثير من الفقهاء أنّه يُستحب لمن يسمع الأذان أن يحاكي المؤذن في فصول الأذان، ويقول كما قال المؤذن، وفي هذا يقول الشيخ يوسف البحراني: «يُستحب حكاية الأذان، بلا خلاف، كما ذكره في (المنتهى)، ويدلّ عليه جملة من الأخبار» [الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة ٧ / ٤٢٢، باب (الحكاية هي: الإتيان بما يأتي به المؤذن)].

ويقول السيّد محمد كاظم اليزدي: «يُستحب حكاية الأذان عند سماعه: سواء كان (أذان الإعلام) أو (أذان الإعظام)» [العروة الوثقى ١ / ٤٣٠، الفصل ١٦ (فصل في الأذان والإقامة)، المسألة الرابعة].

وفي رواية محمد بن مسلم، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سمع المؤذن يؤذن؛ قال عليه السلام مثل ما يقول في كل شيء» [الكافي ٣ / ٣٠٧، (باب بدء الأذان والإقامة وفضلهما وثوابهما)، ح ٢٩].

كما ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا كما يقول، ثم صلّوا عليّ، فمَنْ صَلَّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشرًا» [مستدرک الوسائل ٤ / ٦١، الباب ٣٤ (باب استحباب حكاية الأذان عند سماعه)، ح ١١].

وفي رواية عن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع

وتصبح عبارة مثل (الله أكبر من كل شيء) عبارة فيها نظر.

لا تقل: (الله أكبر من كل شيء)، فهذه النسبة وهذا القياس فيهما نظر:

- فالله أكبر من أن يُقاس.

- والله أكبر من أن يوصف.

- والله أكبر من أن تُدرك ذاته.

المؤذّن قال كما يقول، فإذا قال: (حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على خير العمل)، قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، فإذا انقضت الإقامة قال: (اللهم ربّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، أعط محمدًا سؤاله يوم القيامة، وبلغه الدرجة الوسيلة من الجنة، وتقبّل شفاعته في أمته) [مستدرك الوسائل ٤ / ٥٨، الباب ٣٤ (باب استحباب حكاية الأذان عند سماعه كما يقول المؤذّن، ولو على الخلاء، وما يُقال بعد الشهادتين)، ح ٥].

وفي رواية حريز بن عبد الله، عن محمد بن مسلم، قال: «قال لي [الإمام الباقر عليه السلام]: يا ابن مسلم، لا تدعن ذكر الله - عزّ وجلّ - على كلّ حال، فلو سمعت المنادي ينادي بالأذان وأنت على الخلاء، فاذكر الله - عزّ وجلّ -، وقل كما يقول» [علل الشرائع ١ / ٢٨٤، الباب ٢٠٢، باب (العلة التي من أجلها يجوز للمتغوّط أن يقول - وهو على الخلاء - كما يقول المؤذّن)، ح ٢، ومن لا يحضره الفقيه ١ / ٢٨٨، باب (من نسي الأذان والإقامة ودخل في الصلاة)، ح ٨٩٢].

ويرى بعض الفقهاء أنّه يُستحب لمن يسمع الأذان أن يحاكي فصوله، ويضيف أذكّارًا أخرى مخصوصة، وفي ذلك يقول السيّد محمد الشيرازي: «يُستحب لمن سمع الأذان أن يقول الكلمات التي قالها الإمام السجّاد عليه السلام عندما أذن المؤذّن في مجلس يزيد» [السيّد محمد مهدي الشيرازي، موسوعة الفقه ١٩ / ٧٩].

ويقول الخطيب الخوارزمي عن الكلمات التي قالها الإمام السجّاد عليه السلام في مجلس يزيد: «فلما قال المؤذّن: (الله أكبر)، قال علي بن الحسين: (كبّرت كبيرًا لا يُقاس، ولا يُدرك بالحواس، ولا شيء أكبر من الله)» [الخطيب الخوارزمي، مقتل الحسين عليه السلام، تحقيق: الشيخ محمد السماوي / ٧١، وجعفر عباس الحائري، بلاغة الإمام علي بن الحسين عليه السلام، تحقيق: جعفر عباس الحائري / ٩٩].



الأدب الخامس عشر

الاستغفار

لماذا استُحب الاستغفار بعد التسبيحات الأربع؟ وما دلالاته هنا؟

إذا أدرك الإنسان المعاني الأربعة التي ذكرها في تسبيحاته حين يقول: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، أي (التسبيح، والحمد، والتهليل، والتكبير)، يختمها بالاستغفار أيضاً، فلم يستغفر المصلّي هنا؟

استغفاره؛ لأنّه لم يسبح الله حقّ التسبيح، ولم يحمّد الله حقّ الحمد، ولم يهلل الله حقّ التهليل، ولم يكبر الله حقّ التكبير؛ لأنّك مهما قلت، ومهما سبّحت، ومهما حمدت، ومهما هللت، ومهما كبرت، تظلّ في دائرة البشر المحدودة، في دائرة العبودية المتناهية.

والعبد المتناهي لا يمكن أن يحيط باللامتناهي، فكيف يستطيع أن يسبّحه حقّ تسبيحه؟! وكيف يستطيع أن يحمّده حقّ حمده؟! لا يمكن أن يدرك أحد تمام نعم الله ليحمّده ويشكره عليها، والنعمة الواحدة من نعم الله السابعة الجزيلة إذا جزّأها الإنسان إلى حقيقتها فإنّه لا يستطيع أن يحصيها، ولا يمكن إحصاؤها أصلاً.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

ويقول الإمام الحسين في (دعاء عرفة): «سُبْحَانَكَ سُبْحَانَكَ، مِنْ مُبْدِيٍّ مُعِيدٍ،

(١) سورة النحل، الآية ١٨.

حميد مجيد، تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُكَ، وَعَظُمَتْ آلَاؤُكَ، فَأَيُّ نِعْمِكَ - يَا إِلَهِي - أَحْصِي عَدَدًا وَذِكْرًا؟!، أَمْ أَيُّ عَطَايَاكَ أَقْوَمُ بِهَا شُكْرًا؟!، وَهِيَ - يَا رَبِّ - أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصِيَهَا الْعَادُّونَ، أَوْ يُبْلَغَ عِلْمًا بِهَا الْحَافِظُونَ، ثُمَّ مَا صَرَفْتَ وَدَرَأْتَ عَنِّي - اللَّهُمَّ - مِنَ الضَّرِّ وَالضَّرَّاءِ، أَكْثَرَ مِمَّا ظَهَرَ لِي مِنَ الْعَافِيَةِ وَالسَّرَّاءِ»^(١).

ويواصل عليه السلام لسان ثنائه العبق، فيقول: «وَأَنَا أَشْهَدُ - يَا إِلَهِي - بِحَقِيقَةِ إِيْمَانِي، وَعَقْدِ عَزَمَاتِ يَقِينِي، وَخَالِصِ صَرِيحِ تَوْحِيدِي، وَبَاطِنِ مَكْنُونِ ضَمِيرِي، وَعَلَائِقِ مَجَارِي نُورِ بَصْرِي، وَأَسَارِيرِ صَفْحَةِ جَبِينِي، أَنْ لَوْ حَاوَلْتُ وَاجْتَهَدْتُ مَدَى الْأَعْصَارِ وَالْأَحْقَابِ لَوْ عُمِّرْتُهَا أَنْ أُؤَدِّيَ شُكْرَ وَاحِدَةٍ مِنْ أَنْعُمِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ذَلِكَ إِلَّا بِمَنَّكَ الْمُوجِبِ عَلَيَّ بِهِ شُكْرَكَ أَبَدًا جَدِيدًا، وَثَنَاءً طَارِفًا عَتِيدًا، أَجَلٌ وَلَوْ حَرَصْتُ أَنَا وَالْعَادُّونَ مِنْ أَنَاْمِكَ، أَنْ نُحْصِيَ مَدَى إِنْعَامِكَ، سَالِفِهِ وَآئِفِهِ مَا حَصَرْنَاهُ عَدَدًا، وَلَا أَحْصَيْنَاهُ أَمَدًا، هِيَئَاتِ آتَى ذَلِكَ وَأَنْتَ الْمُخْبِرُ فِي كِتَابِكَ النَّاطِقِ، وَالنَّبَأُ الصَّادِقِ: ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾؟!، صَدَقَ كِتَابُكَ اللَّهُمَّ وَإِنِّبَاؤُكَ، وَبَلَّغْتَ أَنْبِيَائُكَ وَرُسُلُكَ، مَا أَنْزَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ وَحْيِكَ، وَشَرَعْتَ لَهُمْ وَبِهِمْ مِنْ دِينِكَ»^(٢).

ويمضي عليه السلام في ثنائه العطر ليقول: «اللَّهُمَّ هَذَا ثَنَائِي عَلَيْكَ مُمَجِّدًا، وَإِخْلَاصِي بِذِكْرِكَ مُوَحِّدًا، وَإِفْرَارِي بِآلائِكَ مَعْدَّدًا، وَإِنْ كُنْتُ مُقَرًّا أَنِّي لَمْ أُحْصِهَا؛ لِكَثَرَتِهَا وَسُبُوغِهَا، وَتَظَاهُرِهَا وَتَقَادُّمِهَا، إِلَى حَادِثٍ مَا لَمْ تَزَلْ تَتَعَهَّدُنِي بِهِ مَعَهَا مُنْذُ خَلَقْتَنِي وَبَرَّأْتَنِي مِنْ أَوَّلِ الْعُمُرِ: مِنَ الْإِغْنَاءِ مِنَ الْفَقْرِ، وَكَشْفِ الضَّرِّ، وَتَسْيِيبِ الْيُسْرِ، وَدَفْعِ الْعُسْرِ، وَتَفْرِيجِ الْكَرْبِ، وَالْعَافِيَةِ فِي الْبَدَنِ، وَالسَّلَامَةِ فِي الدِّينِ، وَلَوْ رَفَدَنِي عَلَى قَدْرِ ذِكْرِ نِعْمَتِكَ جَمِيعُ الْعَالَمِينَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، مَا قَدَرْتُ وَلَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، تَقَدَّسَتْ وَتَعَالَيْتَ مِنْ رَبِّ كَرِيمٍ، عَظِيمٍ رَحِيمٍ، لَا تُحْصَى آلَاؤُكَ، وَلَا يُبْلَغُ ثَنَاؤُكَ، وَلَا

(١) بحار الأنوار ٩٥ / ٢١٧، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)، ح ٣

(دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٢) بحار الأنوار ٩٥ / ٢١٧ - ٢١٨، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)،

ح ٣ (دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٢٩٠.

تُكَافَأُ نِعْمَاؤُكَ»^(١).

وفضلاً عن عدم إمكانية إحصاء نعم الله الكثيرة السابغة فلن يستطيع لسان العبد هذا أن يحمد الله حقَّ حمده عليها؛ لأنَّ مجرد الحمد يستوجب حمداً، وذاك ما صدح به الإمام السَّجَّاد عليه السلام في (مناجاة الشاكرين) حين قال: «فألاؤك كثيرة قَصُر فهمي عن إدراكها، فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلِّمنا قلْتُ: (لك الحمد)؛ وجب عليَّ أن أقول: (لك الحمد)»^(٢).

فدائرة الحمد هذه لا تنتهي، وبمجرد قولك: (الحمد لله)؛ وجب عليك حمد آخر؛ لأنَّ الله مكنَّك من حمده، والحمد الثاني نعمة من الله تحتاج إلى حمد، وهكذا إلى ما لا نهاية؛ فترجع لكي تقول: (أستغفر الله ربِّي، وأتوب إليه)؛ وتتعرف بالعجز والتقصير؛ لأنَّك عاجز، فتثبت لنفسك العجز، وتذكر نفسك بدائرة العبودية.

والصلاة تذكرك للإنسان بهذه الدائرة: أن لا تضمّر ما أظهره فرعون، فأنت عبد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، واشعر في داخل نفسك بالعبودية والضعف والتقصير والعجز، والحاجة الدائمة وفي كلّ شيء من شؤونك إلى الله القدير.

(١) بحار الأنوار ٩٥ / ٢٢٢-٢٢٣، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)،

ح ٣ (دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٢٩٥.

(٢) الصحيفة السَّجَّادية الكاملة / ٣٠٨ (مناجاة الشاكرين).



الأدب السادس عشر

التسليم

معنى التسليم في ختام الصلاة

فيما مضى انتهى الحديث عن آداب الصلاة إلى ما يتعلّق بالأمر التي تسبق الصلاة، والأمر التي تتركب منها الصلاة، وانتهينا - ولله المنة والحمد - في الحديث.. إلى آداب التسليم.

ما معنى السلام في ختام الصلاة؟

في ختام صلاتنا نلهج بالسلام في ثلاث عبارات متوالية، ونقول:

١- السلام عليك أيها النبي، ورحمة الله وبركاته.

٢- السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين.

٣- السلام عليكم، ورحمة الله وبركاته.

فما معنى (السلام)؟!

يقول إمامنا الصادق عليه السلام في نصّ غني الدلائل:

«معنى السلام في دبر كلّ صلاة: الأمان:

١- أي مَنْ أَدَّى أمر الله وسُنَّة نبيّه، خالصاً لله، خاشعاً فيه، فله الأمان من بلاء الدنيا.

٢- وبراءة من عذاب الآخرة.

٣- و(السلام): اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه؛ ليستعملوا معناه

في المعاملات والأمانات والإنصافات، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم، وصحة معاشرتهم.

فإن أردت أن تضع السلام موضعه، وتؤدي معناه:

١- فاتق الله.

٢- وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ألا تدسها بظلمة المعاصي.

٣- ولتسلم منك حفظتُك ألا تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك؛ بسوء معاملتك معهم.

٤- ثم مع صديقك، ثم مع عدوك؛ فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه، فالأبعد أولى.

ومن لا يضع السلام مواضعه هذه: فلا سلام، ولا إسلام، ولا تسليم، وكان كاذباً في سلامه، وإن أفشاه في الخلق»^(١).

أبعاد السلام في الصلاة:

النص الثري السابق عن إمامنا الصادق عليه السلام يوضح أبعاداً كثيرة للسلام في الصلاة، منها:

١- الأمان الديني:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «معنى السلام في دبر كل صلاة: الأمان، أي من أدى أمر الله وسنة نبيه، خالصاً لله، خاشعاً فيه، فله الأمان من بلاء الدنيا».

فالسلام في ختام الصلاة يرخي على الإنسان ستائر الأمن الديني (الأمان من بلاء الدنيا)، فهو نتيجة وختام صلاة مزدانة باللجوء إلى الله، والتضرع، والاستغفار وغيرها، وملئة بالقيم المثلى الدافعة للأمن والسلام كالبعد عن الفحشاء والمنكر والبغي.

(١) بحار الأنوار ٨٢ / ٣٠٧-٣٠٨، الباب ٣٥ (باب التسليم وآدابه وأحكامه)، ح ١٢، وجامع السعادات ٣ / ٣٥٧.

٢. الأمان الأخروي:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «معنى السلام في دبر كل صلاة: الأمان، أي مَنْ أَدَّى أمر الله وسُنَّة نبيّه، خالصًا لله، خاشعًا فيه، فله الأمان من بلاء الدنيا، وبراءة من عذاب الآخرة».

أي يجب أن يعلم المصلّي أنّ هذه الصلاة سلام - أي أمان - لمصلّيها من عذاب جهنّم، وعليه أن يتنبه إلى هذا المعنى، ويُحضّره في ذهنه، وأن يتفكّر في صلاته قبل أن ينفث منها وينصرف عن مصلاه، عليه أن يتفكّر هل أنّ صلاته في واقعها أمان من نار جهنّم؟، يعني هل أقام الصلاة حقّ إقامتها، وأداها حقّ أدائها، وبالتالي تُعتبر بالنسبة إليه صكّ أمان وبراءة من النّار، أم أنّها صلاة لا يعلم منها سوى التكبير والتسليم، وما بينهما علمه عند ربّي؟، صلاة لا يحضر فيها قلب المصلّي إلّا لمم، أما في أغلب الوقت فقلبه متعلّق بالخلق، ويدّعي أنّه في سفر الحقّ، هذه الصلاة لا يمكن أن تكون أمانًا وبراءة من النّار، فعليه أن يتفكّر هل أنّ هذه الصلاة صاعدة مع صلوات المقرّبين، أو أنّ الملائكة - والعياذ بالله - يلفونها كما تُلفّ الخرقه، ويضرب بها وجه صاحبها!!، عليه أن يتأمّل بعمق، لا أن يصلّي ويقبض الباب، مذ سلّم السلام الواجب وانفث من صلاته هروا من مكانه كأنه ليس له مع الله حاجة!!

٣. الأمان الاجتماعي:

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «و(السلام): اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه؛ ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإنصافات، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم، وصحّة معاشرتهم».

فالصلاة تجلب للإنسان الأمن والسلام الاجتماعي مع الآخرين، لا كفاية سلام الإنسان الداخلي مع نفسه، ومع الله تعالى.

الصلاة تعلّم الإنسان خُلُق (السلام)، وتجعله يتحلّى بهذا الاسم الإلهي

الشريف، وهذه الصفة الإلهية العظيمة في سلوكه الاجتماعي مع الناس، فيستعمل السلام في المعاملات والأمانات والإنصاف وتصديق الصحبة مع الناس، وصحة المعاشرة والمخالطة.

كيف نضع سلام الصلاة في موضعه؟

يقول الإمام الصادق عليه السلام في نصّه الثري السابق:

«فإن أردت أن تضع السلام موضعه، وتؤدي معناه:

١- فاتق الله.

٢- وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ألا تدنسها بظلمة المعاصي.

٣- ولتسلم منك حفظك ألا تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك؛ بسوء معاملتك معهم.

٤- ثم مع صديقك، ثم مع عدوك؛ فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه،

فالأبعد أولى.

ومن لا يضع السلام مواضعه هذه: فلا سلام، ولا إسلام، ولا تسليم، وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاه في الخلق».

هذه العبارات المحلقة من الإمام الصادق عليه السلام تعلمنا كيف نضع سلام الصلاة في موضعه؟، وتضع بين أيدينا الأسباب التي تعطي لسلام الصلاة قيمته ومكانته، وهي:

١- التقوى:

إن أول أمر ينبغي أن نفعله حتى نضع سلام صلاتنا في موضعه هو: التحلي بلباس التقوى: «فإن أردت أن تضع السلام موضعه، وتؤدي معناه: فاتق الله».

التقوى تبني عند المؤمن (وقاية) تلج به ميادين الأمن والسلام، وتحميه من السقوط في مخاطر السخط وكل ما يفقده السلام والأمن مع ذاته وربّه والملائكة والناس.

٢. السلامة من المعاصي (السلام الداخلي مع الذات):

والأمر الثاني الذي ينبغي أن نقوم به حتى نضع سلام صلاتنا في موضعه هو: السلام الداخلي مع ذواتنا بعدم تدنيسها بأوساخ المعاصي وأقذارها: «وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ألا تدنسها بظلمة المعاصي».

ينبغي أن ينعكس السلام أمناً داخلياً على الإنسان، يستفيد منه دينه وقلبه وعقله؛ وذلك بالبعد عن المعاصي التي تعكر الأمن الداخلي للإنسان مع نفسه، وتجعله يكابد نار القلق.

إنّ المعصية تجرح سلام الإنسان مع ذاته، ومع الله، ومع الملائكة، ومع الناس؛ ولكي يكون الإنسان مسالماً فعلاً ينبغي أن يجتنب المعاصي والذنوب.

٣. السلام مع الحفظة الكاتبين:

والأمر الثالث الذي ينبغي أن نقوم به حتى نضع سلام صلاتنا في موضعه هو: السلامة مع الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين: «ولتسلم منك حفظتك ألا تبرمهم وتملّهم وتوحشهم منك؛ بسوء معاملتك معهم».

وهنا يفتح لنا النصّ المعصوم نافذة لدائرة السلام على عالم الغيب، عالم الملائكة؛ فلكي نحقق سلام الصلاة ينبغي أن لا نُبرم ونُسخط الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين، علينا، ونملّهم ونوحشهم منّا؛ بسوء معاملتنا معهم، وبخوضنا في لجة مستنقع المعاصي والآثام والذنوب التي هي - حقاً - ظلمات متكاثفة تسود قلب الإنسان وصحيفته بعد أن كانا أبيضين نيرين، وتطفئ وهج فطرته وصفائها البلّوري، وتحيله ظلمة مطبقة.

يقول إمامنا الباقر عليه السلام: «ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمالى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يُغطيّ البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً،

وهو قول الله - عز وجل -: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١)»^(٢).

هذا البرم والملل والوحشة التي تكابدها الملائكة الطاهرة منّا تأتي عبر الذنوب والمعاصي التي نقترفها، وتسود قلوبنا وصحيفة أعمالنا التي يكتبونها علينا، بخلاف ما لو كانت صحيفة أعمالنا نورا وضيئة بالصالحات، فإنّ الملائكة الحفظة الكاتبين سيعيشون معنا حياة الوئام والمحبة والأنس.

إذا.. ما يحقق رضا الملائكة وسعادتهم وأنسهم بنا هو: الطاعة، وما يجلب تبرّمهم ومللهم ووحشتهم منّا هو: المعصية.

وبعبارة ثانية: إنّ طريقة معاملتنا مع الملائكة هي السبب في وئامهم معنا، ومحبتهم لنا، وأنسهم بنا، وهي - كذلك - السبب في تبرّمهم ومللهم ووحشتهم منّا، فإن كانت معاملتنا لهم حسنة رضوا وسعدوا وأنسوا؛ وذاك بفعلنا الطاعات، واجتنابنا المعاصي، وإن كانت معاملتنا لهم سيئة تبرّموا وملّوا واستوحشوا؛ وذاك بتركنا الطاعات، واجترأنا المعاصي.

إنّ روايات أهل البيت عليهم السلام تكشف لنا عالماً ملكوتياً مذهلاً لا ندركه بحواسنا المحدودة، وتخبرنا أنّه عندما يهّم أحداً بفعل الذنب تصدر منه رائحة نتنة تتركم أنوف الملائكة، فتتأذى من فيحها البشع، وتهيم بوجهها فراراً وهرباً عنه، بل.. تبكي لها، وتنفّج منها!!

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «تعطروا بالاستغفار، لا تفضحكم روائح الذنوب»^(٣).

وفي الرواية عن عبد الله بن موسى بن جعفر الكاظم، عن أبيه الإمام موسى الكاظم عليه السلام، قال:

(١) سورة المطففين، الآية ١٤.

(٢) الكافي ٢/ ٢٧٣، (باب الذنوب)، ح ٢٠.

(٣) الشيخ الطوسي، الأمالي / ٣٧٢، المجلس الثالث عشر، ح ٥٢، ووسائل الشيعة ١١ / ٣٥٦، الباب ٨٥، (باب وجوب الاستغفار من الذنب، والمبادرة به قبل سبع ساعات)، ح ١٧، وبحار الأنوار ٦ / ٢٢، الباب ٢٠، (باب التوبة، وأنواعها، وشرائطها)، ح ١٨.

«سألتُه، عن المَلَكِين هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أن يفعلهُ، أو الحسنَةُ؟

فقال: ريح الكنيف وريح الطيب سواء؟!

قلتُ: لا..

قال: إنّ العبد إذا همّ بالحسنة خرج نفسه طيّبَ الريح، فقال صاحب اليمين لصاحب الشمال: قم؛ فإنّه قد همّ بالحسنة، فإذا فعلها كان لسانه قلمه، وريقه مداده، فأثبتها له. وإذا همّ بالسيئة خرج نفسه منتنَ الريح، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين: قف؛ فإنّه قد همّ بالسيئة، فإذا هو فعلها كان لسانه قلمه، وريقه مداده، وأثبتها عليه»^(١).

ومما يحكي وحشة الملائكة، ونفورها، وتأذيها البالغ من فعل الذنب، قول رسول الله ﷺ: «إذا كذب العبد تباعد عنه المَلَكُ ميلاً؛ من نتن ما جاء به»^(٢).

ومما نقله النبي ﷺ من عجائب رحلة المعراج أنّه قال: «لما عُرج بي إلى السماء

(١) الكافي ٢ / ٤٢٩ (باب مَنْ يَهْمُ بالحسنة أو السيئة)، ح ٣.

(٢) سنن الترمذي ٣ / ٢٣٥، الباب ٤٦ (باب ما جاء في الصدق والكذب)، ح ٢٠٣٩.

وقد ورد هذا الحديث النبوي الشريف بعدّة صيغ، منها:

١- «إنّ العبد إذا كذب تباعد منه المَلَكُ؛ من نتن ما جاء به» [مستدرک الوسائل ٩ / ٨٩، الباب ١٢٠ (باب تحريم الكذب)، ح ٢٧].

٢- «إذا كذب العبد تباعد عنه المَلَكُ ميلاً؛ من نتن ما جاء به» [سنن الترمذي ٣ / ٢٣٥، الباب ٤٦ (باب ما جاء في الصدق والكذب)، ح ٢٠٣٩، وهذا الحديث هو الموجود في المتن].

٣- «إذا كذب العبد كذبة تباعد منه المَلَكُ مسيرة ميل؛ من نتن ما جاء به» [المعجم الأوسط ٧ / ٢٤٥].

٤- «إذا كذب العبد كذبة تباعد عنه المَلَكُ ميلاً؛ من نتن ما جاء به» [الجامع الصغير ١ / ١٢٩، باب (حرف الهمزة)، ح ٨٤٠، وكنز العمال ٣ / ٦١٩، باب (حرف الكاف: الكذب)، ح ٨٢٠٢].

٥- «إذا كذب العبد الكذبة تباعد عنه المَلَكُ ثلاثين ميلاً؛ من نتن ما جاء به» [محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكيّة ٢ / ٢٥٦، الباب الثامن والخمسون ومئة (في معرفة مقام الرسالة وأسرارها)].

الرابعة، سمعتُ بكاءً، فقلتُ: يا جبرئيل، ما هذا؟، قال: هذا بكاء الكروبين على أهل الذنوب»^(١).

نعم.. إنه بكاء سادة الملائكة والمقربين منهم إلى الرحمن على أهل الذنوب.
فهل أدركنا كم تخلق الذنوب من أذى للملائكة!!؟

٤. السلام مع الناس:

والأمر الرابع الذي ينبغي أن نقوم به حتى نضع سلام صلاتنا في موضعه هو:
السلام مع جميع الناس: الصديق منهم، والعدو: «ثمَّ مع صديقك، ثمَّ مع عدوك؛ فإنَّ مَنْ لم يسلم منه مَنْ هو الأقرب إليه، فالأبعد أولى».

الصلاة تعلّم الإنسان أن يظلّ برداء السلام جميع الناس؛ فتكون حياته معهم حياة أمن وسلام واستقرار.

(١) مستدرّك الوسائل ١١ / ٢٤٠، الباب ١٥ (باب استحباب كثرة البكاء من خشية الله تعالى)، ح ١٣.



الأدب السابع عشر

التعقيب

التعقيب

التعقيب من جملة الآداب المهمة للصلاة، وهو في الجملة - بغض النظر عما يُعقَّب به ممَّا ستطرق إليه لاحقاً - أمر مطلوب.

أن يجلس المصلِّي في مصلاه بعد فراغه من الصلاة معقِّباً، داعياً، متأملاً، متفكراً في حال صلاته، في حدِّ ذاته أمر سام؛ لا أن يصلي الصلاة بأيَّة طريقة كانت، ولا يأتي حتى بسجدة شكر، ويهرب كما يهرب من عدوٍّ أو من ثقل باهظ!!

لاحظوا هذه الأحاديث:

١ - عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما عالج الناس شيئاً أشدَّ من التعقيب»^(١).

كأنَّ التعقيب فيه كلفة ومشقة على النفس؛ ولذا نجد في أغلب الأحيان أنَّ الإنسان يريد - فقط - أن يخلص من صلاته، يريد أن يسلم ويمضي في أمان الله، يعتقد أنه سلَّم فعلاً، وانتهى كلَّ شيء.

٢ - وفي الحديث عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله أن: «مَنْ أَدَّى لِلَّهِ مَكْتُوبَةً، فَلَهُ فِي إِثْرِهَا دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ»^(٢).

فهذا الحديث يثبت أنَّ مَنْ صَلَّى صلاة فريضة، له بعدها دعوة مستجابة، وكلمة

(١) وسائل الشيعة ٤ / ١٠١٤، الباب ١ (باب استحباب التعقيب، وتأكُّده بعد الصبح والعصر)، ح ٢.

(٢) وسائل الشيعة ٤ / ١٠١٥، الباب ١ (باب استحباب التعقيب، وتأكُّده بعد الصبح والعصر)، ح ١٠.

(في إثرها) يمكن قراءتها بشكليين: (في إثرها) أي بعدها، و(في أثرها) أي من نتائجها، فلماذا نضيع على أنفسنا دعوة مستجابة؟!

٣- وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاثة أوقات لا يُحجب فيها الدعاء عن الله تعالى: في إثر مكتوبة، وعند نزول المطر، وظهور معجزة لله في أرضه»^(١).

وكلمة (في إثر مكتوبة)، تعني بعد الصلاة.

٤- وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ صَلَّى صلاة فريضة، وعَقَّبَ إلى أخرى؛ فهو ضيف الله، وحقَّ على الله أن يكرم ضيفه»^(٢).

وقوله: «مَنْ صَلَّى صلاة فريضة، وعَقَّبَ إلى أخرى»، يعني جلس يعقِّب إلى الفريضة الثانية، لا أن يغادر صفوف الجماعة بين الفرضين، ويذهب ليستند على التكايا، ويتكلَّم مع أصحابه، والحمد لله أن المساجد ليس فيها جرائد، وإلا.. لُقِرَّت الجرائد بين الفرضين!!

بل تترقَّى الأحاديث إلى أشدَّ من ذلك:

٥- في الرواية عن النبي صلَّى الله عليه وآله أنه قال: «إذا فرغ العبد من الصلاة، ولم يسأل الله حاجته؛ يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي، فقد أدى فريضتي، ولم يسأل حاجته مني، كأنَّه قد استغنى عني، خذوا صلاته فاضربوا بها وجهه»^(٣).

لاحظوا شدة هذا الحديث!!

لم كلِّ هذا؟!

لأنَّ الصلاة أساساً طريق للتبذل، وطريق للطلب، وطريق لعرض الحاجات على الله،

(١) وسائل الشيعة ٤ / ١١١٦، الباب ٢٣ (باب استحباب الدعاء عند هبوب الرياح، وزوال الشمس، ونزول المطر، وقتل الشهيد، وقراءة القرآن، والأذان، وظهور الآيات، وعقيب الصلوات)، ح ٩.

(٢) وسائل الشيعة ٤ / ١٠١٥، الباب ١ (باب استحباب التعقيب، وتأكده بعد الصبح والعصر)، ح ٥.

(٣) بحار الأنوار ٨٢ / ٣٢٥، الباب ٣٦ (باب فضل التعقيب)، ح ١٨.

وطريق لإعلان الخضوع؛ لأنك بطلبك حوائجك من الله - جلّ وعلا - تعلن فقرك، تعلن حاجتك إلى الله، أي تقرّ أنّ الله هو الغني وأنت الفقير، فإذا كان الواحد منّا بمجرد أن أدى الصلاة انفتل، كان كأنه يستشعر غنى في نفسه، يستشعر أنّه ليس بحاجة إلى الله - جلّ وعلا -، بينما الصلاة هي عنوان ومظهر من عناوين ومظاهر فقر الإنسان وفاقته وحاجته إلى الله. هذا الإنسان الطاغى في مسيرته اليومية، المستكبر المتكبر، الذي ينسى أصله؛ يذكره الله - جلّ وعلا - بمبدئه وبمعاده وبحقيقته في هذه الصلاة، فيجعله يصلي ويتدلل ويخضع، فإذا خضع من تلقاء نفسه بعد الصلاة، يقربه الله إليه.

خضوع الإنسان بالصلاة تكليف لا بدّ منه، وترك الصلاة ليس مسألة كيفية متروكة له، لكن إذا صلّى وجلس في مصلاه معقّباً داعياً، فهذا إعلان طوعي منه للفقر والفاقة والمسكنة، إعلان اختياري للحاجة، وهذا مقرب من المقرّبات؛ ومن ثمّ كان الدعاء مطلوباً ومرغوباً، وكلّما طال الدعاء، وطالت أوقات الدعاء؛ كان الإنسان في قرب من الله، بغضّ النظر عن الاستجابة، فقضاء الحاجة ليس هو المطلوب، المطلوب من الدعاء أن يُقبل به الله العظيم بوجهه الكريم عليك، وإذا أحسست بهذا المعنى فليس مهمّاً الإجابة، وتحقّق ما تسأل.

في الرواية الواردة في (مصباح الشريعة) عن صادق أهل البيت عليه السلام يقول: «لَقَدْ دَعَوْتُ اللَّهَ مَرَّةً فَاسْتَجَابَ، وَنَسِيتُ الْحَاجَةَ؛ لِأَنَّ اسْتِجَابَتَهُ بِإِقْبَالِهِ عَلَيَّ عَبْدِهِ عِنْدَ دَعْوَتِهِ أَعْظَمُ وَأَجَلُ مِمَّا يُرِيدُ مِنْهُ الْعَبْدُ، وَلَوْ كَانَتِ الْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا الْأَبَدُ، وَلَكِنْ لَا يَعْقِلُ ذَلِكَ إِلَّا الْعَامِلُونَ الْمُحِبُّونَ الْعَابِدُونَ الْعَارِفُونَ، صَفْوَةُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»^(١).

أي أنّ الإمام الصادق عليه السلام يريد أن يقول: أنا في بعض الأوقات أدعو الله؛ فيستجيب لي حاجتي، لكنني لا أهتم بالحاجة، ولا أهتم بالاستجابة، وإنما أهتم بأنّ الله أقبل عليّ بوجهه الكريم.

(١) مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة / ١٣٢، وبحار الأنوار / ٩٠ / ٣٢٣، الباب ١٧ (باب آداب الدعاء والذكر)، ح ٣٦، ومستدرّك الوسائل / ٥ - ٢٧٢ - ٢٧٣، الباب ٦٢ (باب نوادر ما يتعلّق بأبواب الدعاء)، ح ١.

فاهتمامي ليس منصباً على إجابة دعوتي وتحققها، وإنما هو منصب على أن الله - جلّ وعلا - التفت إليّ - وهو الملتفت دائماً جلّ ربّي وعلا -، وشمّلني بعنايته الخاصة، واستجاب لي، هذا هو المطلوب.

التعقيب عند الأئمة والأولياء والصالحين:

ومن ثمّ تجد التعقيب عند أئمة أهل البيت - صلوات الله وسلامه عليهم -، والأولياء والصالحين.. قضية أساسية، مثلما الصلاة قضية أساسية:

١. الأئمة والاهتمام بالتعقيب:

اهتمّ أئمة أهل البيت عليهم السلام بالتعقيب اهتماماً بالغاً، وحرصوا عليه غاية الحرص؛ لأنهم يرون فيه فرصة سانحة للجلوس مع الله، والحديث معه، ورفع الحاجات إليه، وبثّ العشق والشوق والإنس له:

يقول عمير بن ميمون: «رأيتُ الحسن بن علي عليه السلام يقعد في مجلسه حين يصلي الفجر حتى تطلع الشمس، وسمعتُه يقول: (سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: مَنْ صَلَّى الفجر، ثمّ جلس في مجلسه يذكر الله حتى تطلع الشمس؛ ستره الله من النار، ستره الله من النار، ستره الله من النار)»^(١).

وفي حديث رجاء بن أبي الضحّاك في وصف صلاة الإمام الرضا عليه السلام قال: «كان الرضا عليه السلام إذا أصبح صَلَّى الغداة، فإذا سلّم جلس في مصلاه يسبح الله، ويحمده، ويكبره، ويهلّله، ويصلي على النبي صلى الله عليه وآله حتى تطلع الشمس»^(٢).

وهناك كثير من الروايات التي تصف أحوال الأئمة - صلوات الله وسلامه عليهم - بأنّهم يقضون فترة ما بين صلاتين في سجدة واحدة:

(١) وسائل الشيعة ٤/ ١٠٣٧، الباب ١٨ (باب استحباب الجلوس بعد الصبح حتى تطلع الشمس)، ح ٩.

(٢) وسائل الشيعة ٤/ ١٠٣٦، الباب ١٨ (باب استحباب الجلوس بعد الصبح حتى تطلع الشمس)، ح ٧.

يقول الإمام الصادق عليه السلام واصفًا أباه الإمام الباقر عليه السلام: «كان أبي يصلي في جوف النهار، فيسجد السجدة، فيطيل السجود حتى يُقال: إنه راقدا!!»^(١).

ومن الروايات الواردة في وصف عبادة الإمام الكاظم عليه السلام: «كانت لموسى بن جعفر بضع عشرة سنة، كل يوم سجدة بعد ابيضاض الشمس إلى وقت الزوال»^(٢).

وينقل أحمد بن عبد الله، عن أبيه قال: «دخلتُ على الفضل بن الربيع - وهو جالس على سطح -، فقال لي: أشرف على هذا البيت، وانظر ما ترى؟، فقلتُ: ثوبًا مطروحًا، فقال: انظر حسنًا، فتأملتُ، فقلتُ: رجل ساجد، فقال لي: تعرفه؟، هو موسى بن جعفر، أتفقده الليل والنهار، فلم أجده في وقت من الأوقات إلا على هذه الحالة، إنه يصلي الفجر، فيعقب إلى أن تطلع الشمس، ثم يسجد سجدة، فلا يزال ساجدًا حتى تزول الشمس، وقد وكل من يترصد أوقات الصلاة، فإذا أخبره وثب يصلي من غير تجديد وضوء، وهو دأبه، فإذا صلى العتمة أفطر، ثم يجدد الوضوء، ثم يسجد، فلا يزال يصلي في جوف الليل حتى يطلع الفجر»^(٣).

٢. أصحاب الأئمة والاهتمام بالتعقيب:

قد تقول: الأئمة لهم شأنهم الخاص، ولهم حالاتهم الفريدة، وعبادتهم الاستثنائية، واهتمامهم البالغ بالتعقيب، والتعقيب في السجود.. أمر عظيم ومذهل حقًا، ولكننا أناس عاديون لا نُقاس بهم!!

(١) وسائل الشيعة ٤ / ٩٨١، الباب ٢٣ (باب استحباب طول السجود بقدر الإمكان، والإكثار منه، والإكثار فيه من التسبيح والذكر)، ح ١٤.

(٢) بحار الأنوار ٤٨ / ١٠٧، الباب ٥ (باب عبادة الإمام الكاظم، وسيره، ومكارم أخلاقه)، ذيل الحديث ٩، والمصدر ٤٨ / ٢٢٠، الباب ٩ (باب أحوال الإمام الكاظم عليه السلام في الحبس إلى شهادته)، ح ٤٢.

(٣) بحار الأنوار ٤٨ / ١٠٧، الباب ٥ (باب عبادة الإمام الكاظم، وسيره، ومكارم أخلاقه)، ذيل الحديث ٩، ومثلها رواية أبي العباس الخريزي عن الثوباني في (بحار الأنوار ٤٨ / ٢٢٠، الباب ٩ (باب أحوال الإمام الكاظم عليه السلام في الحبس إلى شهادته)، ح ٢٤.

حسنًا.. هذا الاهتمام الكبير بالعبادة والتعقيب والسجود وارد -أيضًا- في أحوال بعض أصحاب الأئمة مثل: معروف بن خربوذ^(١)، وجميل بن درّاج^(٢)، ومحمد بن أبي عمير^(٣)،

(١) معروف بن خربوذ المكي:

روى عن الإمامين الباقرين: الباقر والصادق عليهما السلام، وهو من أصحاب الإجماع الذين أجمع الشيعة على تصحيح ما يصحّ عنهم وتصديقهم، والإقرار لهم بالفقه، وكان معروفًا بين العامة والخاصة، وذكره ابن جَبَّان في الثقات، له في البخاري حديثه عن أبي الفضل عن علي في العلم، واختلف في سنة وفاته عليه السلام فقيل: ٢٠٠هـ، وقيل: ٢٠١هـ، وقيل: ٢٠٤هـ. [الشيخ محمد حسن الطوسي، اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ (رجال الكشي) / ٢٨٣، الحاشية ٢].

يقول الفضل بن شاذان: «دخلتُ على محمد ابن أبي عمير - وهو ساجد -، فأطال السجود، فلما رفع رأسه، وذكر له طولُ سجوده، قال: كيف ولو رأيت جميل بن درّاج؟!، ثم حدّثه أنّه دخل على جميل بن درّاج، فوجده ساجدًا، فأطال السجود جدًّا، فلما رفع رأسه، قال له محمد بن أبي عمير: أطلت السجود، فقال: لو رأيتُ معروف بن خربوذ!!» [اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ (رجال الكشي) / ٣٢٥-٣٢٦، و٢٨٣].

(٢) جميل بن درّاج النخعي:

من أصحاب الإمامين: الصادق عليه السلام والكاظم عليه السلام، وأخذ عن زرارة، وهو من أصحاب الإجماع، وله كتاب، كان بقالًا، وعاش فقيرًا لا يحضر الجماعة في المسجد؛ لعدم وجود إزار لديه، كان ثقة وشيخًا من شيوخ الطائفة، ووجهًا من وجوهها، عمي في آخر عمره، له كتاب رواه عنه جماعات من الناس. وتوفي بعد سنة ١٨٣هـ في أيام الإمام الرضا عليه السلام [اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ (رجال الكشي) / ٣٢٥، وأبو العباس أحمد بن علي الأسدي النجاشي، رجال النجاشي / ١٢٦-١٢٧، والشيخ محمد بن الحسن الطوسي، الفهرست / ٩٤].

وقد ورد في الحاشية السابقة قول الفضل بن شاذان: «دخلتُ على محمد ابن أبي عمير - وهو ساجد -، فأطال السجود، فلما رفع رأسه، وذكر له طولُ سجوده، قال: كيف ولو رأيتُ جميل بن درّاج?!».

(٣) محمد بن زياد (أبي عمير) بن عيسى البرّاز الأزدي:

من أصحاب الإمامين: الكاظم عليه السلام والرضا عليهما السلام، ومن أصحاب الإجماع، كان وجهًا من وجوه الشيعة، جليل القدر، عظيم المنزلة عند الخاصة والعامة، وكان من أوثق الناس عند الطرفين وأنسكهم وأورعهم وأعبدتهم، حكى عنه الجاحظ في كتبه، وقد ذكره في المفاخرة بين العدنانية والقحطانية، وذكر أنّه كان أوحّد أهل زمانه في الأشياء كلّها، سُجن في عهد هارون الرشيد؛ لتشيّعهِ، أو ليلي القضاء، أو ليدلّ على مواضع الشيعة وأسمائهم وأصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، وضربه السندي بن شاهك مئة سوط أو مئة وعشرين، فصبر على البلاء، ولم

والحسن بن علي بن فضال^(١)، وعلي بن مهزيار^(٢)، فهذه السجديات الطويلة أمر مألوف لديهم.

ينالوا منه شيئاً، ثم افتدى نفسه بمئة وواحد وعشرين ألف درهم، وفي فترة سجنه التي دامت أربع سنين دفنت أخته كته، فتلفت، وقيل: وضعتها في غرفة، فسال عليها المطر؛ فهلكت، فصار يروي رواياته من حفظه ومما سلف له في أيدي الناس، ولهذا يسكن الأصحاب إلى مراسيله، ويعدّ الفقهاء مراسيله أسانيد، ويقولون: (مراسيل محمد بن أبي عمير أسانيد)، صنف كتباً كثيرة بلغت ٩٤ كتاباً، توفي في ٢١٧هـ / ٨٣٢م [اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ (رجال الكشي) / ٦٣٨-٦٣٠، والنجاشي / ٣٢٦-٣٢٧، والطوسي، الفهرست / ٢١٨-٢١٩]. ويقول الفضل بن شاذان: «دخلت العراق، فرأيت واحداً يعاتب صاحبه، ويقول له: أنت رجل عليك عيال، وتحتاج أن تكتسب عليهم، وما آمن أن تذهب عينك لطول سجودك، فلما أكثر عليه قال: أكثر عليّ ويحك، لو ذهبت عين أحد من السجود لذهبت عين ابن أبي عمير، ما ظنك برجل سجد سجدة الشكر بعد صلاة الفجر فما رفع رأسه إلا عند الزوال» [اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ (رجال الكشي) / ٦٣٠].

(١) الحسن بن علي بن فضال:

من أصحاب الإمامين: الكاظم والرضا عليه السلام، وهو - عند البعض - من أصحاب الإجماع، وله مجموعة من الكتب، كان جليل القدر، عظيم المنزلة، زاهداً ورعاً، ثقة في الحديث وفي الرواية، كان فطحيّاً يقول بإمامة عبد الله الأفتح بن الإمام جعفر الصادق بعد وفاة أبيه الصادق عليه السلام، ثم تاب ورجع، وقال بإمامة الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وعند احتضاره تشهد ثلاث مرات، في جميعها يقول بإمامة الكاظم عليه السلام بعد أبيه الإمام الصادق عليه السلام، وتوفي سنة ٢٢١هـ أو ٢٢٤هـ.

يقول الفضل بن شاذان: «كنت في قطعة الربيع في مسجد الزيتونة أقرأ على مقرئ يقال له إسماعيل بن عباد، فرأيت يوماً في المسجد نفرًا يتناجون، فقال أحدهم: إن بالجبل رجلاً يقال له ابن فضال أعبد من رأيت أو سمعت به، قال: وإنه ليخرج إلى الصحراء، فيسجد السجدة، فيجيء الطير فيقع عليه، فما يظن إلا أنه ثوب أو خرقة، وإن الوحش ليرعى حوله فما ينفر منه؛ لما قد أنست به» [اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ (رجال الكشي) / ٥٦٤، ورجال النجاشي / ٣٥-٣٦، والطوسي، الفهرست / ٩٧-٩٨].

(٢) علي بن مهزيار الأهوازي:

من أصحاب الإمامين: الرضا والجواد عليه السلام، واختصّ بالجواد، وكانت له عند الإمام الجواد مكانة عالية، وكان بينهما كتب أثنى عليه الإمام فيها وبجلّه وعظمه، ودعا له بالفردوس الأعلى، وصار وكيلاً له وللإمام الهادي من بعده في بعض النواحي، وله كتب مشهورة بلغت ثلاثة وثلاثين كتاباً، وكان جليل القدر، واسع الرواية، ثقة لا يُطعن عليه في اعتقاده وروايته، قيل: إنه توفي في ٢٥٠هـ [اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ (رجال الكشي) / ٥٩٢، والنجاشي /

٣. العرفاء والعلماء والاهتمام بالتعقيب:

الاهتمام بالعبادة والتعقيب والسجود ليس مقصوراً على المعصومين عليهم السلام، وأصحابهم - رضوان الله عليهم -، فالعرفاء والعلماء لهم اهتمامهم المشهود - أيضاً - بذلك..

يقول بعض العارفين: إنّ من المجربّات جدّاً في الوصول إلى الكمالات النفسية أن يقرأ الإنسان في سجدة واحدة ثلاثة آلاف مرّة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

وقول هذا العارف بأنّ هذا مجربّ هو عندنا ادعاء سهل يسير؛ وهو أمر لن يكذّبه أحد منّا؛ لأنّه لن يمتحنه أحد منّا، ولن يجربّه خلفه، ومن ثمّ فهو كلام لا ندري ما الذي سيحصل فيه!!

ويقول المرحوم السيّد عبد الأعلى السبزواري - قدّس الله نفسه الزكية -: أدركتُ في حرم أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه - أربعين مجتهداً يصلّون صلاة الليل كلّ ليلة، ويقرؤون في قنوت ركعة الوتر دعاء أبي حمزة الثمالي كاملاً!!

في قنوت واحد - هو قنوت ركعة الوتر - يُقرؤون دعاء أبي حمزة الثمالي كاملاً، الدعاء الذي نستقل نحن أن نقرأه مرّة واحدة في شهر رمضان بأكمله، هم يقرؤونه في قنوت واحد كلّ ليلة، لماذا؟؛ لأنّ الخلوة بالله لذة وأنس لا يعرف طعمه الفريد إلا مَنْ ذاقه!!، ولأنّ عنوان الدعاء عنوان مقرب، وإعلان لحالة الإنسان وفقره وفاقته، ومن ثمّ كان عنواناً مطلوباً، بغضّ النظر عن الحاجة، وبغضّ النظر عن استجابة الحاجة.

٢٥٣-٣٥٤، والطوسي، الفهرست / ١٥٢].

يقول يوسف بن السخت البصري عن علي بن مهزيار: «كان إذا طلعت الشمس سجد، وكان لا يرفع رأسه حتى يدعو لألف من إخوانه بمثل ما دعا لنفسه، وكان على جبهته مثل ركبة البعير» [اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ (رجال الكشي) / ٥٩٢].
(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

لماذا ندعو ولا يُستجاب لنا؟!

البعض يستشكل في عدم إجابة الله لدعائه، ويقول:

يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(١)، و﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢).

وها نحن ليل نهار: ندعو، ونبتهل، ونتضرّع، ونلهج، ونلجّ، ونلجّ، ونجار بالشكوى، ونكثر طرق الباب، ونديم مدّ يد الاستجداء، فلا يُستجاب لنا!!

لماذا ندعو ولا يُستجاب لنا؟!

أين وعده الذي وعده عباده؟!، وهل يخلف الله وعده؟!، أم يعجز عن تحقيقه؟! وللاجابة على هذا الاستشكال نقول:

هناك أسباب كثيرة تمنع استجابة دعاء البعض من الناس، ومنها:

أولاً: غياب شروط إجابة الدعاء:

يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ الدَّعَاءَ مِنْ قَلْبٍ لَاهٍ، فَإِذَا أَتَيْتَ بِمَا

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٦.

(٢) سورة غافر، الآية ٦٠.

ذكرتُ لك من شرائط الدعاء، وأخلصت سرّك لوجهه، فابشر بإحدى الثلاث....»^(١).
ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «احفظ أدب الدعاء، وانظر مَنْ تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو، وحقّ عظمة الله وكبريائه، وعاین بقلبك علمه بما في ضميرك، واطّلاعه على سرّك، وما يكنّ فيه من الحقّ والباطل»^(٢).

قبل أن تلوم الله في عدم إجابة دعائك، عليك أن تسأل نفسك: بأيّ رجل تسعى إلى مواطن الدعاء؟!، وأي يد ترفع؟!، وبأيّ لسان تدعو؟!، وبأيّ عين ترنو وتتطلع؟!، وبأيّ قلب تتوجّه؟!، وهذا كلّ مهم، ولو دعوت الله بقلب يخفق طهرًا، وبجوارح تشع نورًا؛ لأجابك؛ فالله وفي لا يخلف وعده، وغني كريم لا يعجزه تحقيق طلبك!!، وقريب يسمع المناجاة الخفية، ويحب من سألته: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

ثانيًا: الذنوب تقطع حبل إجابة الدعاء:

ومن أهمّ الأمور المؤثرة في إجابة الدعاء الالتزام بمحارم الله: بفعل أو امره، واجتناب نواهيه، أي فعل الطاعات، والبعد عن الذنوب والمعاصي.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في (دعاء كميل): «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تَحِسُّ الدُّعَاءَ،، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي الذُّنُوبَ الَّتِي تَقْطَعُ الرَّجَاءَ»^(٣)، «فَأَسْأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أَنْ لَا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعَائِي سُوءَ عَمَلِي وَفِعَالِي»^(٤).

- (١) مستدرک الوسائل ٥ / ٢٧٢، الباب ٦٢ (باب نوادر ما يتعلّق بأبواب الدعاء)، ح ١. وسيعود أستاذنا المرحوم الشيخ الشيب - قدس الله سرّه الشريف - إلى هذه الرواية، ويذكر تتمّتها عند حديثه عن النقطة الرابعة: (رابعًا: الإنسان يدعو بما لا صلاح له فيه).
- (٢) بحار الأنوار ٩٠ / ٣٢٢، الباب ١٧ (باب آداب الدعاء والذكر)، ح ٣٦.
- (٣) مصباح المتهجّد / ٨٤٤، (دعاء آخر، وهو دعاء الخضر عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٦٣، (دعاء كميل بن زياد رضي الله عنه).
- (٤) مصباح المتهجّد / ٨٤٥ (دعاء آخر، وهو دعاء الخضر عليه السلام)، ومفاتيح الجنان / ٦٤ (دعاء كميل بن زياد).

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ العبد يسأل الله الحاجة، فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب أو إلى وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً، فيقول الله - تبارك وتعالى - للملك: لا تقض حاجته، واحرمه إيَّاه؛ فإنَّه تعرَّض لسخطي، واستوجب الحرمان منِّي»^(١).

البعض يغوص في وحل الذنوب والخطايا والمعاصي حتى قمة الرأس، ويلهث خلفها حتى الثمالة، ثم يقول: (أنا أسأل الله وأدعوه، فلا يجيبني)!!
على أمثال هؤلاء أن يدركوا أنَّ الذنوب حاجب كثيف يمنع من وصول بحة دعائهم إلى العرش!!

عليهم أن يزكوا أنفسهم أولاً، ويتطهروا من رجس الذنوب ووسخ الآثام، ثم ينظروا هل يجيب الله دعاءهم أم لا؟!

وهذا الأمر - أي كون (الذنوب تقطع حبل إجابة الدعاء) - قد يكون داخلياً في النقطة الأولى (غياب شروط إجابة الدعاء)، لكن - لأهميته - أبرزته الروايات، ونحن - تبعاً لسفينة إبحارها - أحببنا التأكيد عليه مستقلاً.

ثالثاً: الإنسان لا يعرف أين مصلحته:

الإنسان لا يدري أين مصلحته، وقد يدعو بدعاء فيه هلاكه، فهل تريد أن يستجيب الله لك، وهو يعلم أنَّ مصلحتك في خلاف ذلك؟!، إنَّ الله الودود - بحكمته ورحمته ورأفته - يصنع ما هو صلاح لك، لا كل ما تدعوه به ولو كان فيه هلاكك!!

يقول تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٢).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «واعرف طرق نجاتك وهلاكك؛ كيلا تدعو الله بشيء منه هلاكك، وأنت تظنّ فيه نجاتك، قال الله - عزّ وجلّ -: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ

(١) وسائل الشيعة ١١ / ٢٣٩، الباب ٤٠ (باب وجوب اجتناب الخطايا والذنوب)، ح ١١.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١١.

بِالشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١﴾».

لو أن الله يستجيب لكل أم وأب في حق أولادهم لما بقي على قيد الحياة ولد!! فبعض الأمهات لا يكاد يمرّ بهنّ حال يشمئزن فيه من ولدهنّ إلا ورمينه فيه بدعاء ساحق ماحق، ألفاظه قاسية لا تُقال!!

الله العليم بالنوايا، والحكيم في الفعل، هل يستجيب هكذا أدعية؟!

إنّه - سبحانه وتعالى - يعلم أنّها جُمْلُ غضبٍ أنّي صاغها انفعال طارئ، ولا تمثّل إرادة جدية عند الداعي، والداعي نفسه لا يريد أن تُجاب، وليس من مصلحته أن تُجاب!! لأنّها مجرد تعبير عن غضب، وليست تعبيراً عن طلب فعلي.

وكما أن عدم إجابة دعوة الإنسان - رأساً - قد يكون الأصلح له، فإنّ تأخير إجابة دعوته قد يكون الأصلح له.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام:

«فألحم، ولا يقنطك إن أبطأت عنك الإجابة، فإنّ العطية على قدر المسألة، وربّما أخرت عنك الإجابة؛ ليكون أطول للمسألة، وأجزل للعطية، وربّما سألت الشيء فلم تؤتّه، وأوتيت خيراً منه عاجلاً وآجلاً، أو صُرف عنك لما هو خير لك، فلرُبّ أمر قد طلبته، فيه هلاك دينك لو أوتيته»^(٢).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ المؤمن ليدعو الله تعالى في حاجة، فيقول الله: أخرت حاجته؛ شوقاً إلى دعائه، فإذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى: (عبدى، دعوتني في كذا، فأخّرت إجابتك، وثوابك كذا، ودعوتني في كذا، فأخّرت إجابتك، وثوابك كذا). قال: فيتمنى المؤمن أنّه لم يُستجب له دعوة في الدنيا؛ لما يرى من حسن ثوابه»^(٣).

(١) بحار الأنوار ٩٠ / ٣٢٢، الباب ١٧ (باب آداب الدعاء والذكر)، ح ٣٦.

(٢) بحار الأنوار ٧٤ / ٢٢٤، الباب ٨ (باب وصية أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي عليه السلام)، ح ٢.

(٣) الكافي ٢ / ٤٩٠، (باب من أبطأت عليه الإجابة)، ح ٩.

وبحار الأنوار ٩٠ / ٣٧٨، باب (في قول علي عليه السلام: سبع مصائب عظام نعوذ بالله منها، وخيانة القلوب بثمان خصال)، ح ٢٢.

الله - جلّ وعلا - في بعض الأوقات يؤخّر الاستجابة، ويصرف الدعاء إلى شيء آخر، وقد سأل النبي موسى وأخوه هارون - عليهما السلام - ربّهما إهلاك فرعون، ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(١)، فقال الله - جلّ وعلا - : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، ثم أجابهما، وأغرق فرعون وملاؤه، وفي حديث الإمام الباقر (عليه السلام): «وكان بين أن قال الله - عزّ وجلّ - : ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، وبين أن عرفه الله الإجابة أربعون سنة»^(٣)!!

وفي رواية هشام بن سالم، عن الإمام الصادق (عليه السلام): «كان بين قول الله - عزّ وجلّ - : ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، وبين أخذ فرعون أربعون عامًا»^(٤).

هي دعوة مستجابة، لكن تأخر تنفيذها أربعين سنة، فربّما يدعو الإنسان بدعاء، لكنّ الله يؤخّر الاستجابة لتسعين سنة، فما الضير والضرر في ذلك؟!، إذا كان الصالح للإنسان أن يستجاب هذا الدعاء بعد تسعين سنة له أو لابنه أو حفيده، ما دام ذلك أفضل إليه، «ولعلّ الذي أبطأ عني هو خير لي؛ لعلّك بعاقبة الأمور»^(٥).

يجب أن لا ننسى قولنا في (دعاء عرفة): «وَحَرِّ لِي فِي قَضَائِكَ، وَبَارِكْ لِي فِي قَدْرِكَ، حَتَّى لَا أُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ، وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ»^(٦)، ونضع نصب أعيننا دومًا قولنا في (دعاء الافتتاح): «ولعلّ الذي أبطأ عني هو خير لي؛ لعلّك بعاقبة الأمور».

(١) سورة يونس، الآية ٨٨.

(٢) سورة يونس، الآية ٨٩.

(٣) بحار الأنوار ١٣ / ١٢٨، الباب ٣ (باب بعثة موسى وهارون (عليه السلام) إلى فرعون)، ح ٢٩.

(٤) بحار الأنوار ٩٠ / ٣٧٥، الباب ٢٤ (باب علّة الإبطاء في الإجابة)، ذيل الحديث ١٦.

(٥) مصباح المتهجّد / ٥٦٤، وبحار الأنوار ٩٤ / ٣٣٩، الباب ٣ (باب الدعاء عند دخول شهر رمضان وسائر أعماله)، ح ١.

(٦) بحار الأنوار ٩٥ / ٢١٩، الباب ٢ (باب أعمال خصوص يوم عرفة وليلتها وأدعيتها)، ح ٣ (دعاء عرفة للإمام الحسين (عليه السلام))، ومفاتيح الجنان / ٢٩١ (دعاء عرفة للإمام الحسين (عليه السلام)).

رابعاً: الإنسان يدعو بما لا صلاح له فيه:

قد يدعو الإنسان بما لا صلاح له فيه، فيدعو أن يصير غنياً، والله يعلم أن هذا لو أصبح غنياً لفسد، وجعله فقيراً خيراً له؛ لذلك فكلما يدعو بالغنى يزداد فقراً؛ لأنَّ الفقر أصلح له، والله - جلَّ وعلا - يعلم بما يصلح عبده؛ لذلك يقول الحديث القدسي: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُصْلِحُهُ الْفَقْرُ، وَلَوْ صَرَفْتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَهْلَكَ»^(١)، «وإنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ يَرِيدُ الْبَابَ مِنَ الْعِبَادَةِ فَأَكْفَهُ عَنْهُ؛ لئلا يدخله عُجْبٌ فيفسده، وإنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَمْ يَصْلَحْ إِيْمَانُهُ إِلَّا بِالْفَقْرِ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وإنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلَحْ إِيْمَانُهُ إِلَّا بِالْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وإنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلَحْ إِيْمَانُهُ إِلَّا بِالسَّقَمِ، وَلَوْ صَحَّحْتُ جِسْمَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وإنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلَحْ إِيْمَانُهُ إِلَّا بِالصَّحَّةِ، وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، أَنِّي أَدْبَرُ عِبَادِي بَعْلَمِي بِقُلُوبِهِمْ؛ فَإِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ»^(٢).

فمن منن الله عليه أن لا يستجيب دعاءه بالغنى، وقد ورد في الحديث الذي قدّمناه عن رسول الله ﷺ: «ما مِنْ مُسْلِمٍ دَعَا اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - دَعْوَةً لَيْسَ فِيهَا قِطِيعَةٌ رَحِمَ وَلَا إِثْمَ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ أَحَدَ خِصَالٍ ثَلَاثَةٍ:

- إما أَنْ يَعْجَلَ دَعْوَتَهُ.

- وإِذَا أَنْ يَدْخُرَ لَهُ.

- وإِذَا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا.

قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَنْ نُكْثِرُ، قَالَ: أَكْثَرُوا»^(٣).

وفي رواية أخرى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ مِنْ قَلْبٍ لَا إِيَّاهُ، فَإِذَا أَتَيْتَ بِمَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ شَرَائِطِ الدُّعَاءِ، وَأَخْلَصْتَ سِرَّكَ لَوَجْهِهِ، فَابْشُرْ بِأَحَدِي الثَّلَاثِ:

(١) الكافي ٢ / ٣٣٨، الباب ٣٣١ (باب مَنْ أَذَى الْمُسْلِمِينَ وَاحْتَقَرَهُمْ)، ح ٨.

(٢) علل الشرائع ١ / ١٢، الباب ٩ (علة خلق الخلق واختلاف أحوالهم)، ح ٧.

(٣) وسائل الشيعة ٤ / ١٠٨٦، الباب ٢ (باب استحباب الإكثار من الدعاء)، ح ٨.

- إما أن يُعَجَّلَ لك ما سألت.

- وإما يدَّخر لك ما هو أعظم منه.

- وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله إليك لهلك»^(١).

أي أنه في إثر الدعاء يقع أحد ثلاثة أمور، لا يخلو المورد من أحدها، على سبيل منع الخلو - كما يقولون في المنطق -، بمعنى أنه لا بد أن تقع واحدة من هذه الأمور، ولا يمكن أن يخلو المورد منها جميعًا.

فماذا تخسر لو دعوت؟! يمكن أن لا يُستجاب للحاجة التي أنت بصدددها، لكن يُدَّخَر لك الشيء إلى يوم آخر كيوم القيامة، أو يُصَرَفَ عنك هلاك وسوء قد استحقته. فالدعاء بالذات عُقِيب الفرائض أمر مطلوب ومرغوب؛ لأنه عنوان الخضوع الإرادي الطوعي، عنوان إبراز الحاجة الاختياري، ومن ثم جاءت هذه الأحاديث مؤكدة على أن المصلِّي.. عليه أن يعقَّب.

(١) مستدرَك الوسائل ٥ / ٢٧٢، الباب ٦٢ (باب نواذر ما يتعلَّق بأبواب الدعاء)، ح ١.

من التعقيبات المؤكدة

هناك مجموعة من التعقيبات المؤكدة عليها، نذكر منها:

التعقيب الأول: التكبير ثلاثاً:

وهذا التعقيب الذي ندأب جميعاً - بحمد الله - على المواظبة عليه، هذه التكريرات الثلاث بعد تسليم الصلاة من التعقيبات المهمة، والواردة في الآثار، فإتمامك للصلاة أن تعلن ثلاثاً أنّ (الله أكبر).

فقد روى المفصل بن عمرو قال: «قلت لأبي عبد الله [الصادق] عليه السلام: لأيّ علة يكبر المصلّي بعد التسليم ثلاثاً يرفع بها يديه؟، فقال: لأنّ النبي ﷺ لما فتح مكة صلّى بأصحابه الظهر عند الحجر الأسود، فلما سلّم رفع يديه، وكبر ثلاثاً»^(١).

ولعلّ هذه التكريرات الثلاث - فيما يفسرها العارفون - إشارة إلى أمور عميقة، منها:

١- استصغار العمل أمام عظمة الله:

فالعبد بتكبيره الله ثلاثاً يعلن أنّ هذه العبادة التي جرت منه هي لا شيء بالقياس إلى عظمة الله، فالله - جلّ وعلا - يستحقّ منه عبادة أكبر من هذه، وأفضل منها، وأنّ

(١) وسائل الشيعة ٤ / ١٠٣٠-١٠٣١، الباب ١٤ (باب استحباب رفع اليدين فوق الرأس عند الفراغ من الصلاة، والتكبير ثلاثاً، والدعاء بالمأثور)، ح ٢.

ما جرى على لسانه من تسييح وتحميد وتهليل وتكبير وغير ذلك فالله أكبر منه.

٢- استحضار توحيد الذات والصفات والأفعال:

ولعلّ تلك التكبيرات الثلاث إشارة إلى التوحيد بأقسامه الثلاثة، وأنّ الله أكبر من أن يكون له شريك في ذاته، وهذا (توحيد الذات)، وأنّ الله أكبر من أن يوصف (توحيد الأسماء والصفات)، وأنّ الله أكبر من أن يشاركه فاعل في فعله (توحيد الأفعال)، فهذه التكبيرات الثلاث تنزه الله - جلّ وعلا - وتكبره عن كلّ شريك: في ذاته، أو في صفاته، أو في أفعاله.

فالتكبيرة الأولى تنتمي إلى توحيد الذات، والثانية تنتمي إلى توحيد الأسماء والصفات، والثالثة تنتمي إلى توحيد الأفعال، وفي مقامات التوحيد الثلاثة ننزه الله عن كلّ شائبة ووهم ونقص، ونعلن أنّ (الله أكبر): أكبر من أن يكون له شريك، أكبر من أن يُقاس أو يوصف أو تُدرك ذاته، أكبر من أن يشاركه أحد في الفعل.

التعقيب الثاني: آية الكرسي:

لآية الكرسي مسمّيان: آية الكرسي على التدوين، وآية الكرسي على التنزيل، ولكلّ تحديد خاصّ.

- فآية الكرسي على التدوين هي خصوص الآية ٢٥٥ من سورة البقرة في القرآن الكريم.

- أما آية الكرسي على التنزيل، فهي الآيات الثلاث (٢٥٥-٢٥٦-٢٥٧) من سورة البقرة، يعني بإضافة الآيتين الشريفتين اللتين تتلوان قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.... وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(١).

هذه الآيات الثلاث تُسمّى (آية الكرسي على التنزيل)، أي أنّ آية الكرسي التي

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

نزلت بعنوان آية الكرسي هي الآيات الثلاث، وليست الآية الأولى فقط، يعني أنها في التنزيل إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

وعلى إثر هذا التفريق بين آية الكرسي في التدوين / وآية الكرسي في التنزيل؛ فإذا ورد الأمر بقراءة آية الكرسي في صلاة أو غيرها - كصلاة الهدية للميت (صلاة الوحشة) - فالمقصود قراءتها حسب الوارد في التنزيل.

لاحظوا هذا الحديث العظيم المذهل الذي رواه شيخنا الكليني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (الكافي) عن الإمام الصادق - صلوات الله وسلامه عليه - عن إنزال آيات عظيمة - منهنَّ آية الكرسي - من العرش إلى الأرض:

«لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - هذه الآيات أَنْ يَهْبِطْنَ؛ تَعَلَّقْنَ بِالْعَرْشِ، وَقَلْنَ: أَيُّ رَبِّ، إِلَى أَيْنَ تَهْبِطُنَا؟!، إِلَى أَهْلِ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ؟!، فَأَوْحَى اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَيْهِنَّ: اهْبِطْنَ، فَوَعَزَّتِي وَجَلَالِي لَا يَتْلُو كُنَّ أَحَدٌ مِّنْ آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشِيعَتُهُمْ فِي دَبْرِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَكْتُوبَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ بَعِيْنِي الْمَكْنُونَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ نَظْرَةً، أَقْضِي لَهُ فِي كُلِّ نَظْرَةٍ سَبْعِينَ حَاجَةً، وَقَبْلَتَهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَعَاصِي. وَهِيَ: أَمَّ الْكِتَابِ، وَ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾^(٢)، وآية الكرسي، وآية الْمُلْكِ^(٣)»^(٤).

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(٣) المقصود بـ (آية المُلْك): قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران، الآية ٢٦].

(٤) (الكافي ٢/ ٥٨٤، الباب ٤٦٨ (باب فضل القرآن)، ح ٢، ووسائل الشيعة ٤/ ١٠٤٢، الباب ٢٣ (باب استحباب قراءة الحمد وآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾، وآية الكرسي، وآية المُلْك.. بعد كل فريضة، وقراءة التوحيد عند الخوف، أو مئة آية)، ح ١.

فقوله: «لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - هذه الآيات»، يعني الآيات التي ذكرتها الرواية في خاتمتها، ومنها آية الكرسي.

وقول الآيات: «أي رب، إلى أين تهبطنا؟!»، كأنهن معترضات على إنزالهن إلى الأرض، إلى عالم الخطايا والذنوب، إلى عالم الملك والتصرم والزوال، بعدما كن يرفلن في طهر عالم الملكوت الأعلى متعلقات بسُّبُحات العرش!!

وقوله: «في دُبُر ما افترضت عليه من المكتوبة في كل يوم»، يوضح استحباب التعقيب بهن بعد صلاة الفريضة.

فهل تريد أعظم من هذا في حق هذه الآيات الشريفة؟!، فلا ينبغي أن يترك المصلي التعقيب بآية الكرسي.

التعقيب الثالث: تسبيحة الزهراء عليها السلام:

ثم نأتي إلى الإكسير الأعظم، والتعقيب الأكمل، والذكر الأتم، وهو تسبيح السيدة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها -، وقد ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما عبد الله بشيء من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة عليها السلام، ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله صلوات الله عليه وآله فاطمة عليها السلام»^(١).

أو ليس هذا نحلة وهدية من النبي الأعظم - صلوات الله عليه وآله - لابنته فاطمة الزهراء، ومنزلة فاطمة عند الرسول صلوات الله عليه وآله أكبر من أن يتحدث عنها أمثالنا؟!!

فإذا كانت فاطمة التي هي (أم أبيها)^(٢)، وصاحبة المنزلة العظيمة والقدر العالي؛ طلبت من النبي - وهو معدن الجود والكرم - نحلة وهدية، فنحله تسبيح الزهراء المعروف، فهل تعتقد أنت أن هناك شيئاً أعظم منه بخل به النبي عليها؟!!

(١) الكافي ٣ / ٣٤٣، (باب التعقيب بعد الصلاة والدعاء)، ح ١٤.

(٢) يقول الإمام الباقر عليه السلام: «إن فاطمة - عليها السلام - كانت تُكنى (أم أبيها)»، [بحار الأنوار ٤٣ / ١٩، الباب ٢ (باب أسماء سيّدة النساء فاطمة، وبعض فضائلها)، ح ١٩].

ومن ثمّ أكّدت الأحاديث الشريفة على هذا التسبيح تأكيداً شديداً في كلّ الأوقات، خصوصاً في موضعين: في عقب الصلاة، وقبل النوم.

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «تسبيح فاطمة - عليها السلام - في كلّ يوم، في دبر كلّ صلاة؛ أحبّ إليّ من صلاة ألف ركعة في كلّ يوم»^(١).

ويقول الإمام الصادق - صلوات الله وسلامه عليه - لأبي هارون المكفوف: «يا أبا هارون، إنّنا نأمر صبياننا بتسبيح فاطمة عليها السلام كما نأمرهم بالصلاة، فالزمه؛ فإنّه لم يلزمه عبداً فشقي»^(٢).

وكلمة (صبياننا) تعني أولادنا، وأنّ الأئمة عليهم السلام لشدة اهتمامهم بهذا التسبيح العظيم يعلّمون أولادهم عليه من لدن طراوة عودهم؛ حتى يشبوا عليه، ويعتادوا عليه، وتأتي جملة «كما نأمرهم بالصلاة»؛ لتؤكد عمق ذلك الاهتمام، فهو شبيه بالاهتمام بالصلاة الواجبة التي هي عمود الدين.

وبهذا فتسبيح الصديقة الزهراء عليها السلام هو أولى وأهمّ تعقيب.

وتسبيح الزهراء غنيّ عن التعريف، وهو ٣٤ مرّة (الله أكبر)، ثمّ ٣٣ مرّة (الحمد لله)، ثمّ ٣٣ مرّة (سبحان الله)، فتمّ ١٠٠ ذكر، وقد ورد عن أبي بصير، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «في تسبيح فاطمة - صليّ الله عليها - يبدأ بالتكبير أربعاً وثلاثين، ثمّ التحميد ثلاثاً وثلاثين، ثمّ التسبيح ثلاثاً وثلاثين»^(٣).

التعقيب الرابع: الصلاة على النبي محمد وآله:

وهو التعقيب الذي تعتبره الأحاديث حقّاً من حقوق الأئمة - صلوات الله وسلامه عليهم - في عنق المكلف:

(١) الكافي ٣ / ٣٤٣، (باب التعقيب بعد الصلاة والدعاء)، ح ١٥.

(٢) الكافي ٣ / ٣٤٣، (باب التعقيب بعد الصلاة والدعاء)، ح ١٣.

(٣) الكافي ٣ / ٣٤٣، (باب التعقيب بعد الصلاة والدعاء)، ح ٩.

فقد ورد في (دعاء شهر شعبان): «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صَلَاةً كَثِيرَةً تَكُونُ لَهُمْ رِضًا، وَلِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ أَدَاءً وَقَضَاءً، بِحَوْلٍ مِنْكَ وَقُوَّةٍ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ الطَّيِّبِينَ الْأَبْرَارِ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ أَوْجَبَتْ حُقُوقُهُمْ، وَفَرَضَتْ طَاعَتَهُمْ وَوَلَايَتَهُمْ»^(١).

والحق.. أن نفع الصلاة على محمد وآله ليس عائداً لهم - صلوات الله وسلامه عليهم - أولاً وبالذات، بل هو عائد عليك، فالمتنفع بالصلاة على النبي وآل النبي هو - بالدرجة الأولى - المصلي، لا المصلي عليه، أنت تتنفع، وترتفع بصلواتك، الصلاة تزكية لك، رفعة لك، نماء لك، وإلا.. فالنبي ﷺ الله يصلي عليه، وملائكة الله يصلون عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢).

ومن ثم فالنبي ﷺ، في المقام الأول، لا يحتاج لصلاتي عليه، ولا تنفعه صلاتي ولا صلاة غيري، لكن فائدتها الأولى تزكية لنفسك أنت أيها المصلي عليهم، رفعة لك أنت كمكلف؛ ولذلك ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «صلاتكم عليّ إجابة لدعائكم، وزكاة لأعمالكم»^(٣).

ومن حق الأئمة - الذين هم واسطة الفيض، وواسطة الجود، وواسطة التبليغ - عليك: أن تصلي عليهم..

وفي الرواية عن الصباح بن سيابة، عن الإمام الصادق عليه السلام: «ألا أعلمك شيئاً يقي الله به وجهك من حرّ جهنّم؟»، قال: قلت: بلى، قال: قل بعد الفجر: (اللهم صلّ

(١) مصباح المتجهد / ٨٢٨، الدعاء ٨٨٨، وبحار الأنوار ٨٧ / ٢٠، الباب ٥ (باب نوافل يوم الجمعة، وترتيبها، وكيفيتها، وأدعيتها)، الدعاء ٣، ومفاتيح الجنان / ٢٦١ (الأعمال العامة في شهر شعبان).

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

(٣) بحار الأنوار ٩١ / ٥٤، الباب ٢٩ (باب فضل الصلاة على النبي وآله - صلى الله عليه وسلم -)، ح ٢٢.

على محمد وآل محمد) مئة مرة، يقي الله بها وجهك من حرّ جهنّم»^(١).
بل.. ومن حقّ الأئمة أن تذكرهم الواحد تلو الآخر، وتعطر قلبك ولسانك
بأسمائهم العذبة الوضّاءة.

ونحن فيما مضى من الزمان الأول علّمنا آباؤنا - أول ما نتعلّم - أن نحفظ
أسماء الأئمة (الاثني عشر)، وتعداد أسمائهم بعد صلواتنا، حتى كنّا نعدّه جزءاً من
الصلاة، ولم نكن نفصله عن الصلاة، وما كان أحد منّا يمكن أن يصليّ من دون أن
يذكر الأئمة - صلوات الله وسلامه عليهم -، ولم نعرف أنّه ليس جزءاً من الصلاة إلا
فيما بعد، ذاك حالنا^(٢).

(١) وسائل الشيعة ٤ / ١٠٥١، الباب ٢٥ (باب نبذة مما يُستحب أن يُزاد في تعقيب الصبح)، ح ١٣.

(٢) وقد وردت في الروايات التي تتحدّث عن تلقين الميت، وسؤال الملائكة في القبر، ومنها:
١- ما رواه سالم بن مكرم، عن الإمام الصادق عليه السلام: «... ثمّ تُدخِل يدك اليمنى تحت منكبه
الأيمن [أي منكب الميت]، وتضع يدك اليسرى على منكبه الأيسر، وتحركه تحريكاً
شديداً، وتقول: يا فلان بن فلان، الله ربّك، ومحمد نبيك، والإسلام دينك، وعلي وليك
وإمامك - وتسمّي الأئمة (عليهم السلام) واحداً واحداً إلى آخرهم - أئمتك أئمة هدى
أبرار، ثمّ تعيد عليه التلقين مرّة أخرى، وإذا وضعت عليه اللين فقل: اللهم ارحم غربته،
وصل وحدته، وأنس وحشته، وآمن روعته، وأسكن إليه من رحمتك رحمة يستغني بها
عن رحمة من سواك، واحشره مع من كان يتولاه» (من لا يحضره الفقيه ١ / ١٢٢، (باب
الصلاة على الميت)، ح ٥٠٠).

٢- وما ورد في التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام:
«وإذا جاءه منكر ونكير قال أحدهما للآخر: هذا محمد وعلي والحسن والحسين وخيار
صحابتهم بحضرة صاحبنا.. فلتتضع لهما، فيأتيان فيسلّمان على محمد سلاماً مفرداً، ثمّ
يسلّمان على علي سلاماً مفرداً، ثمّ يسلّمان على الحسين سلاماً يجمعانهما فيه، ثمّ يسلّمان
على سائر من معنا من أصحابنا، ثمّ يقولون: قد علمنا - يا رسول الله - زيارتك في خاصّتك
لخادمك ومولاك، ولولا أنّ الله يريد إظهار فضله لمنّ بهذه الحضرة من الملائكة ومنّ يسمعنا
من ملائكته بعدهم لما سألناه، ولكنّ أمر الله لا بدّ من امتثاله، ثمّ يسألانه فيقولان: من ربّك؟،
وما دينك؟، ومن نبيك؟، ومن إمامك؟، وما قبلتك؟، ومن شيعتك؟، ومن إخوانك؟، فيقول:
الله ربّي، ومحمد نبيي، وعلي وصيّ محمد إمامي، والكعبة قبلتي، والمؤمنون الموالون

أما هذا الجيل الجديد فلا ندري هل يتعلّم ذلك أم لا؟!، فمن مساوئ نصف العلم هذا التضييع، من مساوئه: أن صرنا نفرّق بين المستحب والواجب؛ فنأخذ الواجب، ونترك المستحب!!، بينما كنّا - سابقاً - نظنّه كلّ واجباً، وبالتالي كنّا نأتي به لزاماً.

كانت الأحكام لدى علمائنا السابقين الأبرار اثنين فقط: مأمور به فيُفعل، ومنهي عنه فيُترك، أما نحن فصارت الأحكام عندنا خمسة: واجب، وحرام، ومستحب، ومكروه، ومباح، وصرنا نسعى للالتزام بالواجب والحرام منها فقط، ونستهتر بالمستحب والمكروه، ونعدّها معاً من الجائز المباح، فنترك المستحب، ونغوص في المكروه!!

لمحمد وعلي وآلهما وأوليائهما، المعادون لأعدائهما.. إخواني، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأنّ أخاه عليّاً وليّ الله، وأنّ من نصّبهم للإمامة من أطائب عترته وخيار ذريته خلفاء الأمة وولاة الحقّ والقوامون بالصدق، فيقولان: على هذا حييت، وعلى هذا متّ، وعلى هذا تُبعث إن شاء الله تعالى، وتكون مع من تتولاه في دار كرامة الله ومستقرّ رحمته.

قال رسول الله ﷺ: وإن كان لأوليائنا معادياً، ولأعدائنا موالياً، ولأضدادنا بألقابنا ملقّباً، فإذا جاءه ملك الموت لنزع روحه مثل الله - عزّ وجلّ - لذلك الفاجر سادته الذين اتخذهم أرباباً من دون الله، عليهم من أنواع العذاب ما يكاد نظره إليهم يهلكه، ولا يزال يصل إليه من حرّ عذابهم ما لا طاقة له به، فيقول له ملك الموت: يا أيّها الفاجر الكافر، تركت أولياء الله إلى أعدائه، فالיום لا يغنون عنك شيئاً، ولا تجد إلى مناص سبيلاً، فيردّ عليه من العذاب ما لو قسم أدناه على أهل الدنيا لأهلكهم، ثمّ إذا دُلّي في قبره رأى باباً من الجنّة مفتوحاً إلى قبره يرى منه خيراتها، فيقول له منكر ونكير: انظر إلى ما حرّمت من تلك الخيرات، ثمّ يُفتح له في قبره باب من النّار يدخل عليه منه من عذابها، فيقول: ربّ، لا تُقم الساعة، ربّ، لا تُقم الساعة [بحار الأنوار ٦/ ١٧٥-١٧٦، الباب ٧ (باب ما يعاين المؤمن والكافر عند الموت)، ح ١].

٣- وقال الإمام الرضا عليه السلام بعد موت علي بن أبي حمزة البطائني، أحد زعماء الواقفية الذين أنكروا إمامة الرضا عليه السلام؛ طمعاً في أموال الخمس والحقوق الشرعية التي كانت تحت أيديهم زمان وكالتهم عن الإمام الكاظم عليه السلام: «إنّه أقعد في قبره، فسئل عن الأئمة عليه السلام، فأخبر بأسمائهم حتى انتهى إليّ، فسئل، فوقف، فضرب على رأسه ضربة امتلأ قبره ناراً» [بحار الأنوار ٦/ ٢٤٢، الباب ٨ (باب البرزخ، والقبر وعذابه وسؤاله، وسائر ما يتعلّق بذلك)، ح ٦١].

وإذا سأل أحدنا شخصٌ وقال له: لم تترك المستحب؟!، أجابه: هو جائز، وأنا لم أترك الواجب!!، وإذا سأل أحدنا شخصٌ: لم تفعل المكروه؟!، أجابه: هو جائز، وأنا لم أفعل الحرام!!

هذه إشارة إجمالية إلى بعض التعقيبات المهمة:

- التكبير ثلاثاً بعد التسليم.

- وآية الكرسي.

- وتسبيح السيِّدة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها وآلها الطاهرين -.

- والصلاة على النبي محمد وآله.

وما شئتَ أنتِ مِنْ التعقيبات الأخرى فأتِ به، فعندك ساعة ونصف بعد صلاة الفجر، وساعات بعد صلاة الظهر والعصر، وساعات بعد صلاة المغرب والعشاء، فليكن عند الإنسان على الأقل ثوابت في صلاته، خمس دقائق أو عشر دقائق يدعها إلى التعقيب، لا يجعل الصلاة صلاة جفاء، يريد - فقط - أن يؤدي منها الفرض ويهرول مسرعاً عنها.



الفصل الثاني

منافيات الصلاة

أقسام منافيات الصلاة

بعد أن تمّ الحديث -بحمد الله وشكره- عن مقدّمات الصلاة وأفعالها وتعقيباتها، وإكمالاً للحديث عن آداب الصلاة؛ يأتي الحديث -هنا- عن (منافيات الصلاة).

و(المنافي) - في اصطلاح الفقهاء والعرفاء معاً - قسمان:

١ - منافي الصّحة.

٢ - منافي الكمال.

وهذا التقسيم - أي تقسيم منافي الصلاة إلى: منافي للصّحة، ومنافي للكمال - مشتقّ من أحاديث أهل البيت - صلوات الله وسلامه عليهم -:

أ- فحينما يقول الحديث الشريف: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»^(١)، فهو يعني (لا صلاة صحيحة) إلا بفاتحة الكتاب، فـ (لا / النافية) - هنا - تنفي صحّة الصلاة من دون فاتحة الكتاب، فالصلاة المتعمّد فيها ترك فاتحة الكتاب باطلة رأساً.

ب- أما حينما يقول الحديث الشريف الآخر: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»^(٢)، فالمنفي - هنا - ليس صحّة الصلاة، فصلاة جار المسجد في بيته

(١) مستدرّك الوسائل ٤ / ١٥٨، الباب ١ (باب وجوب قراءة الفاتحة في الثنائية، وفي الأوليين من غيرها)، ح ٥، والحديث عن النبي ﷺ.

(٢) مستدرّك الوسائل ٣ / ٣٥٦، الباب ٢ (باب كراهة تأخّر جيران المسجد عنه، وصلاتهم الفرائض

صحيحة، وإنّما المنفي كمال الصلاة، أي (لا صلاة كاملة) لجار المسجد إلا في المسجد، فصلاته في غير المسجد صحيحة، لكنّها ناقصة غير كاملة.

البحث الفقهي والبحث الأدبي:

وحديثنا - هنا - ليس حديثاً فقهياً عن منافيات الصّحة أو منافيات الكمال؛
لنتحدث عن المنافيات التشريعية للصّحة (مبطلات الصلاة): منْ تعمّد ترك واجب من
واجبات الصلاة، كالفاتحة والسورة والتشهُد، وفعل محرّم من محرّماتها، كالتصفيق
والالتفات إلى الخلف وقول (آمين)، وأثر هذا الفعل أو هذا الترك في بطلانها.

أو لنتحدث عن المنافيات التشريعية للكمال، كصلاة جاز المسجد في غير
المسجد.

فالبحث الفقهي عن منافيات الصّحة ومنافيات الكمال له محلّه، وحديثنا - هنا -
- إنّما هو حديث أخلاقي روحي أدبي عن آداب الصلاة، ومن ثمّ سنطرق منافيات
الصّحة ومنافيات الكمال من الوجهة الأخلاقية الأدبية فحسب..

المنافيات الأدبية للصلاة:

وفيما يلي سنقف - وقفة أخلاقية أدبية - على قسمي منافي الصلاة:

أولاً: منافي الصّحة.

ثانياً: منافي الكمال.



منافيات الصلاة

أولاً: منافي الصحة..

أولاً: منافي الصحة

ما المقصود بـ (منافي الصحة)؟

المقصود بـ (منافي الصحة): كلّ أمر يؤدي فعله إلى هدم الصلاة وبطلانها وفسادها، أي الأمور التي تسلب الصلاة صحتها.

فـ(منافي الصحة) هو: كلّ أمر يؤدي الإتيان به إلى بطلان الصلاة.

أيسر الرّياء شرك!!

هناك منافيات أدبية لصحة الصلاة إذا أتى بها الإنسان فصلاته باطلة، وأول هذه المنافيات في نظر العارفين: الرّياء، وقد ورد في الأثر عن أمير المؤمنين - صلوات الله وسلامه عليه - : «واعلموا أنّ يسير الرّياء شرك»^(١).

فما المقصود بالرّياء هنا؟

أقسام الرّياء:

يقسّم علماء الأخلاق الرّياء إلى قسمين: رياء محض، ورياء مشوب.

(١) نهج البلاغة / ١١٧، الخطبة ٨٦.

١- الرِّياءُ الخالصُ المحضُّ:

الرِّياءُ الخالصُ المحضُّ هو أن يكون دافع الإنسان للفعل الرِّياء فقط، وفعله من أساسه يعمل له لوجه البشر فحسب، فقيامه للصلاة، أو قراءته للقرآن، أو دفعه للصدقة، أو عمله للخير، فقط فقط لوجه البشر، حتى يراه الناس، ويرون أنه رجل يفعل الصالحات، وأنه نِعَمَ الإنسان؛ وبذلك يبرهن للناس - فحسب - أنه من عباد الله الصالحين، أما وجه الله فهو ليس حاضراً البتة، لا في عقله ولا في قلبه.

فهذا رياء خالص، رياء محض.

٢- الرِّياءُ الممزوجُ المشوبُ:

هناك رياء ممزوج مشوب، صاحبه لا يفعل العمل فيه خالصاً لوجه الناس، بل.. هو مستحضر وجه الله، يصلي قاصداً القربة لله، لكن.. يخلطها بقليل من غاية ذاتية شخصية، أو غاية غيرية لوجه الناس!!

ومن الأمثلة التي ذكرها الفقهاء للرِّياء الممزوج المشوب:

أ- مَنْ يتوضأ في الحرِّ، فيضمُّ إلى نية الوضوء التبرّد.

فهو يتوضأ ومن مقاصد وضوئه: أن يبرّد على وجهه وعلى نفسه، فهو يسبغ الوضوء لله، لكن.. داخلته غاية أخرى ليست وجه الله!!

ب- مَنْ يتمضمض في وضوء في شهر رمضان، فهو متمضمض على أساس الوضوء، لكنّه - إلى جانب ذلك - يريد النظافة، وطيب الرائحة، وإزالة جفاف الفم، وربما نجد واحداً من الناس هو بكلّ وضوئه لا يتمضمض، ويترك هذا المستحب، لكنّه حين رأى نفسه عطشان، وشعر بحرارة الظمأ تحرق فمه؛ قام يتمضمض للصلاة، وعدّل في وضوئه!!

ج- مَنْ يصوم، ويضمُّ إلى نية الصوم الرغبة في الصحة والحمية والتخفيف من الوزن والدهون.

د - مَنْ يتصدّق، ويضمُّ إلى نية الصدقة التخلص من إلحاح السائل، وتبرّمه.

هـ- مَنْ يعتق عبده، ويضمّ إلى نية العتق التخلّص من مؤونة العبد، أو من سوء خلقه وتدييره.

و- مَنْ يحجّ، ويضمّ إلى نية حجّه غرضاً نفسياً كالتخلّص من الشرور والهموم والأحزان، أو يضمّ إلى نية حجّه غرضاً ثقافياً كحضور محاضرات ودروس ونيل كتب فريدة، أو يضمّ إلى نية حجّه غرضاً اجتماعياً كلقاء العلماء والأصدقاء، أو يضمّ إلى نية حجّه غرضاً تجارياً كالقيام بعمل كسبي في الحجّ.

هذا رياء ممزوج، رياء مشوب.

الرياء المشوب حديث العارفين:

وحديثنا وحديث العارفين في كتب الأخلاق ليس عن الرياء الخالص المحض؛ لأنّ هذا الفعل المشين لا ينبغي الحديث عنه عند المؤمنين، فالحديث - هنا - ليس مع هذا القسم من المرائين الخالصين؛ لأنّ عملهم هذا لا يمكن تربيته بحال، ونسأل الله أن لا نكون من هؤلاء!!

إنّما حديثنا في العمل الممكن تربيته، أي في الرياء الممزوج المشوب، أي مع ذاك الذي يشتغل لوجه الله، ولكنّ شيئاً من عمله لوجه البشر؛ حتى نحاول في أنفسنا أن نعالج هكذا دافع، ونسعى أن نخرج أنفسنا من دائرة الفعل للبشر، ونقول لها: توجّهي لخالق الخلق توجّها تامّاً خالصاً صافياً، ودعي عنك الخلق.

تحذير أهل البيت عليه السلام من الرياء:

ولأنّ الرياء أمر شائن وخطير، بل يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه؛ أكّدت الأحاديث على أهمية الالتفات إليه، وهنا نقرأ مجموعة من الأحاديث:

١ - قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «ولا ترائي؛ فإنّ أيسر الرياء شرك بالله - عزّ وجلّ -»^(١).

(١) بحار الأنوار ٢/ ١٥٥، الباب ٢٠ باب (مَنْ حفظ أربعين حديثاً)، ح ٧.

وهذا الحديث الشريف: أولاً، ينهى عن الرياء، وثانياً، يخبر بالعلّة في ذلك، وهي أنّ «أيسر الرياء شرك بالله - عزّ وجلّ -»، وثالثاً، فإنّه يتكلم عن (أيسر) وأقلّ الرياء، ويعدّه (شركاً بالله - عزّ وجلّ -)؛ حتى نعرف وخامة الرياء، وأنّ أقلّ القليل منه عظيم كبير؛ لأنّه ينخر أهمّ مبدأ إلهي، وهو التوحيد؛ فالله - جلّ وعلا - يريد أن يكون العمل خالصاً لوجهه تعالى، بينما الرياء يطعن هذا الخلوّص بخنجر غدار مسموم، ويجعله مشوباً بغير الله.

٢- وعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يقول الله سبحانه: أنا خير شريك، ومن أشرك معي شريكاً في عمله فهو لشريكي دوني؛ لأنّي لا أقبل إلا ما خلّص لي»^(١).

٣- وفي رواية أبي الجارود عن الإمام أبي جعفر الباقر عَلَيْهِ السَّلَام قال: «سُئِلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تفسير قول الله - عزّ وجلّ -: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢)، فقال: مَنْ صَلَّى مراعاة الناس فهو مشرك - إلى أن قال: - وَمَنْ عَمَلَ عَمَلًا مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مراعاة الناس فهو مشرك، ولا يقبل الله عمل مرءٍ»^(٣).

٤- وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه عَلَيْهِ السَّلَام قال: «إنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه - سئل: فيمّ النجاة غدّاً؟، فقال: إنّما النجاة في ألا تخادعوا الله فيخدعكم؛ فإنّه من يخادع الله يخدعه، ويخلع منه الإيمان، ونفسه يخدع لو يشعر.

ف قيل له: فكيف يخادع الله؟، فقال: يعمل بما أمره الله - عزّ وجلّ - به، ثمّ يريد به غيره، فاتقوا الرياء؛ فإنّه شرك بالله - عزّ وجلّ -، إنّ المرأني يُدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، حبط عملك، وبطل أجرك، ولا خلاق لك اليوم، فالتمس أجرك ممن كنتَ تعمل له»^(٤).

(١) ابن فهد الحلّي، عدة الداعي ونجاح المساعي، تحقيق: أحمد الموحّدي القمّي / ٢٠٣، باب (في بيان معنى الرياء وخطراته).

(٢) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٣) وسائل الشيعة ١ / ٥٠، الباب ١١ (باب تحريم قصد الرياء والسمعة بالعبادة)، ح ١٣.

(٤) وسائل الشيعة ١ / ٥٠-٥١، الباب ١١ (باب تحريم قصد الرياء والسمعة بالعبادة)، ح ١٦، ووسائل الشيعة ١ / ٥١، الباب ١٢ (باب بطلان العبادة المقصود بها الرياء)، ح ١٦، وبحار

٥- وعن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ المَرَائِي يُنَادِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ بِأَرْبَعَةِ أَسْمَاءَ: يَا كَافِرُ، يَا فَاجِرُ، يَا خَاسِرُ، يَا غَادِرُ، ضَلَّ عَمَلُكَ، وَبَطَلَ أَجْرُكَ، فَلَا خَلَقَ لَكَ الْيَوْمَ عِنْدَ اللَّهِ، فَالْتَمَسْ أَجْرَكَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ، يَا مَخَادِعُ»^(١).

فأنت - أيها المرائي المخادع - لم تكن تعمل لوجه الله، فلماذا تأتي يوم القيامة لتطالب الله بالأجر؟!، بأي مناسبة؟!، اذهب لمن كنت تعمل من أجله، واطلب منه الأجر.

٦- وعنه ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَنَا أَغْنَى الْأَغْنِيَاءَ عَنِ الشَّرِكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا فَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَنَصِيبِي لَهُ، فَأَنَا لَا أَقْبَلُ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لِي»^(٢).

٧- وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ سَالِمٍ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ [الصادق] ع يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الْأَغْنِيَاءَ عَنِ الشَّرِيكِ، فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِيَ غَيْرِي فِي عَمَلٍ لَمْ أَقْبَلْهُ، إِلَّا مَا كَانَ لِي خَالِصًا»^(٣).

إذا أشركني أحد في عمل مع شخص آخر، فأنا تارك ذاك العمل لذلك الآخر، وأجعل العمل كله لذلك الآخر، فأنا لا أقبل إلا ما كان خالصاً لي.

٨- وعن الرسول الأكرم ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ:

فيقول الله - عز وجل - للقارئ: أَلَمْ أَعْلَمَكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟، فيقول: بلى يا رب، فيقول: مَا عَمَلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟، فيقول: يَا رَبِّ، قِمْتُ بِهِ فِي آثَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، فيقول الله: كَذَبْتَ، وتقول الملائكة: كَذَبْتَ، ويقول الله تعالى: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: (فُلَانٌ قَارِئٌ)، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

الأنوار ٦٩ / ٢٩٥، الباب ١١٦ (باب الرياء)، ح ١٩.

(١) الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ١ / ٣٠.

(٢) زين الدين بن أحمد العاملي (الشهيد الثاني)، رسائل الشهيد الثاني / ١٤٢.

(٣) وسائل الشيعة ١ / ٥٣-٥٤، الباب ١٢ (باب بطلان العبادة المقصود بها الرياء)، ح ١١.

ويؤتي بصاحب المال، فيقول الله تعالى: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك محتاجاً إلى أحد؟، فيقول: بلى.. يا رب، فقال: فما عملت فيما آتيتك؟!، فيقول: كنت أصل الأرحام وأتصدق، فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يُقال: (فلانٌ جوادٌ)، وقد قيل ذلك!!

ويؤتي بالذي قُتل في سبيل الله تعالى، فيقول الله تعالى: ما فعلت؟، فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلتُ حتى قُتلْتُ، فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يُقال: (فلانٌ شجاعٌ جريءٌ)، فقد قيل ذلك.

ثم قال رسول الله ﷺ: أولئك خلق الله تسعّر لهم نار جهنم^(١).

- فأنت - أيها القارئ - الذي كنت تطلب بقراءة القرآن وجه الناس، نلت ثوابك منهم حين قيل عنك: قارئ، وحين جُهّزت لك أفضل الترتيبات في محفل التلاوة، وحين راح الناس يتنادون من بين جنبات المجلس؛ احتفاء بصوتك: الله.. الله!!

- وأنت - يا مَنْ تصدّقت لوجه الناس -، ودفعت شيئاً من ذلك في الصناديق العائلية، وتطوير العائلة والأرحام، أو لمساعدة المجتمع، أو لمساعدة الفقراء والمساكين والأيتام والمحتاجين؛ نلت ثوابك في الدنيا منهم، ف قيل عنك: (جواد كريم)، فماذا تطلب في الآخرة من الله؟!

- وأنت - يا مَنْ تشحّطت بدمك في المعركة، وقُتلَ فيها، وبذل النفس أعلى مرحلة -، فعلت ذلك لتسلب ألباب الناس؛ ليقولوا عنك: (فلان شجاع جريء)، وقد قيل ذلك، فماذا تبغي من الله؟!

٩- وعنه ﷺ: «إن الله تعالى لا يقبل عملاً فيه مثقال ذرة من رياء»^(٢).

(١) مستدرک الوسائل ١ / ١١١، الباب ١٢ (باب بطلان العبادة المقصود بها الرّياء)، ح ٧، وبحار الأنوار ٦٩ / ٣٠٥، الباب ١١٦ (باب الرّياء)، ح ٥٢.

(٢) بحار الأنوار ٦٩ / ٣٠٤، الباب ١١٦ (باب الرّياء)، ذيل الحديث ٥.

١٠- وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «لو أن عبداً عمل عملاً يطلب به وجه الله والدار الآخرة، وأدخل فيه رضا أحد من الناس كان مشركاً»^(١).

١١- وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قَالَ الله - عَزَّ وَجَلَّ -: مَنْ عَمِلَ لِي وَلِغَيْرِي، فَهُوَ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ»^(٢).

١٢- وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ النَّارَ وَأَهْلَهَا يَعْبُونَ مِنْ أَهْلِ الرِّيَاءِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ تَعَجَّ النَّارُ؟!، قَالَ: مِنْ حَرِّ النَّارِ الَّتِي يُعَذَّبُونَ فِيهَا»^(٣).

يعني أن النار تضجّ وتعجّ من نار أهل الرياء، فالنار مراتب ودركات، والنار التي يُعَذَّب فيها أهل الرياء تعذب بقية النار!!

١٣- وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص: الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ -»^(٤).

المحافظة على العمل أصعب من العمل؛ لأن كثيراً من الناس يعملون الأعمال الصالحة، ثم يحرقونها بطلبهم الحمد عليها من غير الله، يعملون العمل، ثم يخبرون به الآخرين حتى يعجب بهم، ويشني عليهم، ويكبرون في عينه، فيقعون في هاوية الرياء المحبطة للعمل.

العارفون والكَمَل والحذر من فخاخ الرياء:

تلك كانت نبذة يسيرة من مجموع الأحاديث التي تركّز على خطر الرياء، ومن ثمّ تجد العارفين والكَمَل حذرين من تطرّق الرياء إلى أفعالهم جملة، ومنها الصلاة، والواحد منهم يجعل موضوع الإخلاص وموضوع وجه الله حاضراً في كلّ عمل، ولا يتبجّح بأعماله وأفعاله.

(١) وسائل الشيعة ١ / ٥٧، الباب ٧ (باب كراهة نية الشرّ)، ح ١١.

(٢) وسائل الشيعة ١ / ٤٩، الباب ١١ (باب تحريم قصد الرياء والسمعة بالعبادة)، ذيل الحديث ١١.

(٣) مستدرّك الوسائل ١ / ١٠٧، الباب ١١ (باب تحريم قصد الرياء والسمعة في العبادة)، ح ١٣.

(٤) وسائل الشيعة ١ / ٦٠، الباب ٨ (باب وجوب الإخلاص في العبادة والنية)، ح ٤.

ليسوا كشخص صَلَّى ليلة صلاة الليل، وفي اليوم التالي هو مزهو متبختر كالطاووس ينفش ريشه، من أول الصبح لا يرى أحداً إلا وقال: (صلاة الليل تعطش، والبارحة صليّنا صلاة الليل).

أو كشخص صام يوم اثنين أو يوم خميس، أو يوماً مستحباً آخر، وعند المغرب لا تراه إلا ممسكاً رأسه، وإذا سألته: ماذا بك؟، قال: واللّه صداع، الصوم صعب في هذه الأيام!!

يعني هو مصرّ أن يقول لك: أنا صائم!!

نماذج مشرقة:

وحتى لا يكون الكلام مجرد سرد نظري سنقف عند نماذج عملية لفقهائ كُمل، ونسبر حذرهم البالغ من شائبة الرياء:

سأجيبك فيما بعد!!

الملا عبد الله التوستري [الشوشتري] رَحِمَهُ اللهُ سأل الشيخ المقدّس أحمد الأردبيلي سؤالاً علمياً في محضر جماعة، فقال له المقدّس الأردبيلي: سأجيبك فيما بعد، وبعد ما انفضّ المجلس أخذ المقدّس الأردبيلي بيد الملا عبد الله التوستري، وخرجا إلى الصحراء، وأجابه على مسأّلته هناك، فسأل الملا التوستري المقدّس الأردبيلي: هذا الكلام كنتَ تستطيع أن تقوله هناك!!، فلماذا بعد ما انفضّ الجمع، جئتَ بي إلى الصحراء حتى تجيبي؟، فقال المقدّس: نحن الاثنان علماء في محضر الناس، وأخاف أن أجيبك، وتأخذك عزة، وتأخذني عزة، ونتجادل أمامهم، كلّ واحد منّا يريد أن يثبت وجهة نظره، فقط حتى لا ننكسر في شخصياتنا أمام الناس، فلا يعود سؤالك وجوابي لوجه الله، ولكن حين نأتي إلى الصحراء: أجيبك وتسالني، وهنا لا يوجد أحد نخشاه، ليس هنا إلا الله - جلّ وعلا -.

مَنْ مثلي والشيخ البهائي يصلي خلفي؟!

الحادثة السابقة التي تجاذب أطرافها الشيخ المقدّس أحمد الأردبيلي والملا عبد الله التوستري [الشوشتري] خطّت خطأً بليغاً في حياة الملا عبد الله التوستري، فصار من الخُلص الكمل، وبعد ثلاثين سنة من هذا الجهاد يدخل على الشيخ البهائي رَحْمَةُ اللهِ فِي بيته قبيل صلاة الظهر، فيقدّمه الشيخ البهائي لصلاة الجماعة، وما كاد التوستري أن يتقدّم حتى رأوه قد انفتل قبل أن يكبر تكبيرة الإحرام، وودّع الحاضرين، وخرج من البيت!!

وفي اليوم الثاني سأله بعض أصحابه: ما حدث لك حين قدّمك الشيخ البهائي للصلاة، فانفتلت، وخرجت من البيت مرّة واحدة؟!

فأجاب الملا عبد الله التوستري: حين قدّمني الشيخ البهائي، وبينما كنتُ أمشي للمحراب شعرت في نفسي بشيء من العُجب يدغدغ قلبي، وشعرت بنفسي تهتف داخلي: أنا صاحب مقام باذخ، وشأو رفيع!!، مَنْ مثلي والشيخ الأجل البهائي بعظمته وجلالة قدره ومكانته السامية في الدولة يصلي خلفي، ويقتدي بي؟!

فعلمتُ بانعدام نية الإخلاص لله من قلبي، وقلتُ: هذا الخاطر ليس خاطراً مخلصين، لا ينبغي لمن يحمل هذا الشعور المريض أن يكون إماماً للجماعة، فلم أصلي بكم جماعة إذأ؟!، فلا أخرج!!

هكذا كانوا يراقبون أنفسهم، ويدقّقون!!

وفرز الأمر بين الله والنفس، بين التواضع والعُجب، بين الإخلاص والرياء، بين الإلهي والذاتي، بين الرباني والشیطاني؛ ليس أمراً سهلاً، واتخاذ القرار الشجاع بعده وتنفيذه؛ فيه صعوبة بالغة جداً، خصوصاً حين يكون بمرأى ومسمع ومشهد من الناس.

ذاك الشيخ أعلم مني وأكفاً!!

كان السيّد حسين الكوهكمري من علماء النجف الأشرف، ومن تلامذة الشيخ صاحب الجواهر، وكان مجتهداً مشهوراً ومعروفاً، وكان على حسب المتعارف

يدرّس في ساعة معيّنة في أحد مساجد النجف، وفي أحد الأيام خرج لشغل لديه، ولم يبقَ إلا نصف ساعة على موعد الدرس، فقال: إذا رجعتُ إلى البيت فسيفوّت الوقت، فلاذهب إلى المسجد، وأنتظر الطلاب.

دخل إلى المسجد ينتظر الطلاب، فرأى في إحدى زوايا المسجد حلقة درس، وبها شيخ يدرّس بعض الطلاب؛ لأنّ المساجد في ذاك الزمان تستوعب مجموعة من حلقات الدرس: في هذه الزاوية درس، وفي الزاوية الأخرى درس، وفي الزاوية الثالثة درس، وفي هذه الساعة درس، وفي الساعة الأخرى درس آخر، وهكذا... فأخذ السيّد الكوهكمري ينظر ويستمتع جيّدًا إلى كلام ذلك الشيخ، فرأى شيخًا رث الثياب، وأوضاعه المادية ليست على ما يرام، لكنّه يتكلّم بمنطق علمي قوي، فأعجب بتدريسه، وأحسّ بأنّه محقّق كبير.

وفي ذاك الوقت كان هذا السيّد الكوهكمري من المرشحين لل مرجعية، وذلك الشيخ من المدرّسين الذين لتوهم بدؤوا بالتدريس، فكان معيّا في حقّه أن يجلس في حلقة درس ذاك الشيخ، لكنّ إتيانه إلى المسجد قبل نصف ساعة من موعد درسه؛ انتظارًا لطلابه؛ فتح له المجال ليستمتع إلى شرح ذاك الشيخ، ويستمتع بالمطالب الجميلة الدقيقة التي عرضها.

وفي اليوم الثاني تعمّد المجيء إلى المسجد باكراً، وجلس في جانب من المسجد يصغي باهتمام بالغ إلى درس الشيخ، ومرّ على هذه الحالة يومان وثلاثة وأكثر.

وبعد أيام من حضور الدرس تيقن السيّد الكوهكمري أنّ هذا الشيخ أفضل منه في التدريس، وظلّ ينازع نفسه، ويرى أنّ علمية هذا الإنسان متميّزة وعالية جدًّا، ولو أنّ طلابه حضروا درس هذا الشيخ لكانت استفادتهم أكثر.

وفي اليوم التالي وعندما جاء الطلاب، واجتمعوا حوله قال لهم: أريد اليوم أن أقول لكم مطلبًا جديدًا، إذا كنتم مقتنعين بي كمدرس، فأنا أرى أنّ هذا الشيخ أعلم

مَنِّي، وينبغي أن يكون هو محليّ في التدريس، فإما أن يأتي إلى هنا على منبري، وإما أن نمضي كلنا بحلقتنا لندرس عنده!!، إنني أرى أن هذا الشيخ الجالس في زاوية المسجد أكفأ مني في التدريس، فلنذهب سوياً إلى درسه!!

وفعلاً تنتقل الحلقة بكاملها إلى ذلك الشيخ، ومن ذلك اليوم يصبح السيّد الكوهكمري من حُصّار درس الشيخ، ومن الطلاب في حلقة، والشيخ الذي كان يدرّس في تلك الحلقة هو الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري - رضوان الله عليه -، لكن كان في أول طريقه نحو العظمة^(١).

لقد نجح السيّد الكوهكمري في اتخاذ القرار الشجاع، وتطبيقه، وإن كان على حساب شهرته ومرجعيته، ولكنّه الصدق والإخلاص مع الله، ومع الذات، ومع الآخرين..

كيف نميّز بين الرّياء والإخلاص؟!

فلننظر إلى هذه العظمة في نفوس هؤلاء، ولننظر كم تتطلّب من الجهد حتى يستطيع الواحد منهم أن يحسم هذا الأمر في نفسه، يحسم قرار الإخلاص، يقرّر أن يدع الرّياء جانباً، وأن يكون عمله خالصاً لوجه الله، والأهم من كلّ ذلك تشخيص موضع الرّياء، وأنّه هنا رياء أو غير رياء، وهنا إخلاص أو غير إخلاص؟!

المشكلة هنا تبدأ، من مزج الحقّ بالباطل، فمشكلة الإنسان - دائماً - ليست في تشخيص الباطل والإصرار عليه، ذلك شيء أمره أهون، لكن أن يؤخذ من هذا ضعف، ومن ذاك ضعف، ضعف من الحقّ، وضعف من الباطل، فيُمزجان، ممّا يخلق الحيرة على الناظر في تمييز الحقّ من الباطل، وأين هو الحقّ؟!، وأين يكمن الباطل؟!

يحتاج هذا إلى تبصّر وتفطن؛ لمعرفة الفعل الصحيح:

(١) أستاذ الفقهاء والمجتهدين وقدوة العلماء العاملين الشيخ الأنصاري: دراسة وتحقيق في سيرته الذاتية / ١٢٩-١٣٠.

- معرفة الموضع الذي يجيب فيه الإنسان أمام الجمع وعلى رؤوس الأشهاد، والموضع الذي يجيب فيه في الصحراء خفية، وبعيداً عن الناس!!
- الموضع الذي يصلي فيه بالناس جماعة، والموضع الذي ينسَلّ فيه كالملدوغ من عقرب، ويفرّ هائماً على وجهه من المجلس!!
- الموضع الذي يطرح فيه علميته وكفاءته المعرفية، والموضع الذي يسلم فيه زمام القيادة العلمية لغيره، ويتواضع معرفياً، ويتخلّى عن مقام الأستاذية، ويجلس جلسة التلميذ!!
- الموضع الذي لابدّ أن يظهر فيه العمل، والموضع الذي لابدّ أن يُستر فيه العمل!!
- الموضع الذي تُطبّق فيه صدقة العَلن والجهر؟، والموضع الذي تُطبّق فيه صدقة السرّ والخفاء؟!
- يقول الله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١).
- ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «صدقة العلانية تدفع سبعين نوعاً من البلاء، وصدقة السرّ تطفئ غضب الرب»^(٢).
- إنّ تمييز الحقّ من الباطل في صورة التشابك والمزج بحاجة إلى فطنة حاذقة وبصيرة نافذة، قد يستتبعها قرار عملي شجاع لا يصدر إلا من ذي إيمان عميق، ونفس صادقة، وإخلاص صافٍ، وإرادة صلبة.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧١.

(٢) بحار الأنوار ٩٣ / ١٧٩، الباب ٢١ (باب في أنواع الصدقة وأقسامها)، ح ٢٠.



منافيات الصلاة

ثانيًا: منافى الكمال..

ثانيًا: منافي الكمال..

ما المقصود بـ (منافي الكمال)؟

المقصود بـ (منافي الكمال): كلّ أمر يؤدي فعله إلى نقصان قيمة الصلاة وقدرها وثوابها، أي الأمور التي تسلب الصلاة كمالها.

فمنافي الكمال لا يؤدي إلى هدم الصلاة وبطلانها وفسادها، وإنّما يؤدي إلى نقصان قيمتها وثوابها.

وفي منافي الكمال يدخل كلّ ما ينافي الإخلاص من القسم الذي لا يُبطل الصلاة، ولكنه يُنقص قيمتها، كمزج نية الوضوء في الصيف والحرّ بالتبريد^(١)، ويدخل كلّ ما ينافي حضور الإنسان في صلاته، حضور قلبه في صلاته.

وقد أسهبنا الحديث عند حديثنا عن مقدّمات الصلاة عن موضوع (حضور القلب)، وقلنا: إنّ حضور القلب في الصلاة يشكّل عمود الصلاة، كما أنّ الصلاة تشكّل عمود الدين، فلو أردنا أن نربط المجموع ضمن حلقة وسلسلة واحدة فسوف نقول: أعمال الإنسان كلّها متوقّفة على صلاته: إنّ قبلت صلاته قبل عمله، وإن رُدّت صلاته - والعياذ بالله - رُدّ كلّ عمله، والصلاة في قبولها متوقّفة على حضور قلب

(١) عبارة: «من القسم الذي لا يُبطل الصلاة، ولكنه يُنقص قيمتها» قيد احترازي يُراد به: إخراج القسم الآخر من منافي الإخلاص، وهو القسم المؤدي لبطلان الصلاة، كمزج نية الصلاة بالرياء.

الإنسان، ومع حذف الوسائط فإن النتيجة ستكون: (كل الأعمال متوقفة على حضور القلب)، يعني حين يؤدي الصلاة ينبغي أن يصلي وهو ملتفت إلى الله واقف بين يدي ربه، وأن لا يكون بدنه حاضراً في المحراب، وذهنه كطائر يطير من غصن إلى غصن.

والمشكلة أن الإنسان لا يترك التركيز في حياته إلا في الصلاة، فهو يوم يشتغل بعمل ما.. يركّز، ويوم يقرأ له شيئاً.. يركّز، لكنّه حين يصلي يبعثر أوراق صلاته في مهبّ الريح، ويذروها في كل مكان، ولا يركّز في أي شيء منها!!

والبعض إذا رأيته يشاهد كرة القدم أو غيرها تحتاج أن تدافعه حتى يسمعك، فهو مندمج جداً معها، ومنشغل جداً بها، فهي مسيطرة على كامل شعوره ولبه، وهو مركّز عليها تركيزاً مهيباً، لكن قل له: أعطني ربع هذا التركيز للصلاة، فإنه لا يفعل!!

هو منذ أن يفتح صلاته بتكبيرة الإحرام، ويقول: (الله أكبر) تبدأ الأفكار المشتتة تتوالى عليه، وتتكاثر على ذهنه، فيشرق ويغرب، ولا توجد قضية في الكون إلا ويريد أن يناقشها ويحلّها في صلاته، إلى أن يقول: (السلام عليكم، ورحمة الله وبركاته)، ويختتم صلاته تلك بالتسليم، أما بين التكبير والسلام فلا يدري ماذا قال، فكيف تُقبل هكذا صلاة؟!

في الحديث: «هيهات، لا يُخدع الله عن جنته، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته»^(١).

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الصَّلَاةِ لِمَا يُقْبَلُ نِصْفُهَا وَثُلُثُهَا وَرُبُعُهَا وَخُمْسُهَا إِلَى الْعَشْرِ، وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يُلْفَ كَمَا يُلْفَ الثَوْبُ الْخَلْقُ، فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا، وَإِنَّمَا لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ مَا أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ بِقَلْبِكَ»^(٢).

وعن الفضيل بن يسار، عن الإمامين: أبي جعفر الباقر عليه السلام وأبي عبد الله

(١) نهج البلاغة / ١٨٧-١٨٨، الخطبة ١٢٩، وبحار الأنوار ١٠٠ / ١٠٨، الباب ٢ (باب الكيل والوزن)، ح ٨.

(٢) بحار الأنوار ٨١ / ٢٦٠، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٥٩، ومستدرک الوسائل ٣ / ٥٩، الباب ١٦ (باب تأكد استحباب المداومة على النوافل، والإقبال بالقلب على الصلاة)، ح ١٠.

الصادق عليه السلام أنهما قالَا: «إنَّما لك من صلاتك إلَّا ما أقبَلتَ عليه منها، فإنَّ أوْهمها كلُّها أوْ غفل عن أدائها لُفَّت، فَضُربَ بها وجه صاحبها»^(١).

أحد مراجعنا رحمته الله كان يصلي جماعة في حرم السيِّدة المعصومة في قم - رزقنا الله وإياكم زيارتها -، فكان بمجرد أن يقول: (السلام عليكم، ورحمة الله وبركاته) يركض إلى الباب، لا ينتظر تعقيبًا، ولا سلام المصلِّين عليه، فسألوه: سيِّدنا، ما حصل من أمر عجب حتى تركض هاربًا، وتفرَّ بجلدك؟!، فقال: أليست الملائكة الآن جالسين يلقون الصلاة حتى يسقطوها، أنا هارب حتى لا تسقط على رأسي!!

ومن تلك الآداب التي يذكرها العرفاء لكمال الصلاة: (الخشوع)، فالإنسان إذا لم يستحضره فصلاته صحيحة، بمعنى أنَّه - في الحكم التشريعي الفقهي التكليفي الديني - لا يجب عليه إعادتها ولا قضاؤها، ولكنَّها - في الحكم الواقعي والأخلاقي والأدبي - مجرد حركات وأقوال خاوية، مجرد تعب بدني عابث!!

أن يصلي الإنسان صلاة، أن يتعب نفسه، ثمَّ تُلفَّ في خرقة بالية، ويُضرب بها وجه صاحبها، يكشف عن وجود منافي الكمال هذا، ويعني أنَّ الإنسان كان يصلي دون إخلاص لله وتقرُّب إليه وحده، ودون حضور للقلب، ودون تفهِّم لما يقول، ودون تعظيم لمن يخاطب، ودون رهبة وخوف وخشوع وخضوع، ودون رجاء، ودون استحياء، ودون كلِّ ما طرحناه من آداب فيما مضى.

مقدار الآداب في الصلاة:

إذا استثنينا الأركان والواجبات في الصلاة فالباقي كلُّه آداب، فقَدانها ينافي كمال الصلاة.

وقد ذكر فقهاؤنا - رضوان الله عليهم - جملة من الأشياء التي عدَّوها مكروهة

(١) الكافي ٣/ ٣٦٣، (باب ما يُقبل من صلاة الساهي)، ح ٤، وتهذيب الأحكام ٢/ ٢٩٩، الباب ١٦ (باب أحكام السهو)، ح ٤، وبحار الأنوار ٨١/ ٢٦٠، الباب ١٦ (باب آداب الصلاة)، ح ٥٩.

في الصلاة؛ لأنها تشغل بال الإنسان، مثل أن يصلي الإنسان في مكان متضيق من جوه، أو يصلي وأمامه باب مفتوح، أو يصلي وأمامه شيء مفتوح كالكتاب، أو أمامه صورة، أو يصلي على مكان منقوش، أو أمامه نقش، أو يصلي وهو يدافع الأخبين (محصور)، أو يصلي وهو يعبث في لحيته أو أنفه أو عينيه، أو يعدل عباة، أو يفرق أصابعه، إلى غير هذه الحركات التي لا تنبئ عن خشوع وخضوع.

وفي حديث عليّ عليه السلام: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبْصَرَ رَجُلًا يَعْْبَثُ بِلِحْيَتِهِ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: (أَمَّا إِنَّهُ لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ)»^(١)؛ لأنَّ الخشوع.. صحيح أن مركزه القلب، إلا أنه ينعكس على جوارح الإنسان.

فهذه الأمور تنافي الخشوع، ومن ثم أفتي فقهاؤنا - رضوان الله عليهم - بكرهتها، وعدوها منافية للكمال، ليس حراماً فعلها، ولا تنافي صحة الصلاة، لكنها تنافي الكمال؛ لأنها تلهي الإنسان عن صلاته، ويكفي الإنسان وساوسه الداخلية، ويكفيه شيطانه، فما باله - زيادة على ذلك - يبحث له عن مشتتات إضافية، ويأتي لكي يصلي في جو مزعج، أو يصلي والتلفزيون أو الراديو يشتغل، أو يصلي والأطفال يدرعون المكان جيئة وذهاباً، ويزرعون الضجة والضوضاء في كل الأنحاء.

والمصلي قد يكون بعد لم يصل إلى مرحلة العارفين الكمل، حتى يكون الجو الصاخب غير مؤثر فيه، ولا ينال من حضور قلبه شيئاً؛ لذلك على المصلي أن يختلي بصلاته، ويكون المكان الذي يصلي فيه خالياً من مشردات الذهن ومعكرات الصفاء.

(١) مستدرک الوسائل ٥ / ٤١٧، الباب ١١ (باب كراهة العبث في الصلاة، وجواز تسوية الحصى في موضع السجود)، ح ٣، وبحار الأنوار ٨١ / ٢٢٨، الباب ١٦ (باب الصلاة)، وكذلك: ٨١ / ٢٦١، الباب ١٦ (باب الصلاة)، ذيل الحديث ٥٩.

المصادر والمراجع

الكتب المقدّسة:

- القرآن الكريم.
- التوراة.

الكتب:

(أ)

- الآخوند، الشيخ محمد كاظم الخراساني (ت ١٣٢٩هـ / ١٩١١م)، فوائد الأصول، تحقيق وتعليق: السيّد مهدي شمس الدين. ط ١. طهران / إيران: وزارة الإرشاد الإسلامي - مؤسسة الطبع والنشر، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- الآخوند، الشيخ محمد كاظم الخراساني، كفاية الأصول. تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث. ط ١. قم المشرفة / إيران: مطبعة مهر، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- الألوسي، السيّد محمود شهاب الدين أبو الثناء بن عبد الله بن محمود الحسيني (ت ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. تحقيق: علي عبد الباري عطية. ط ١. بيروت / لبنان: دار

- الكتب العلمية، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- الأبطحي، السيّد حسن. عالم عجائب الأرواح. ترجمة: ناصر النجفي. ط ١. السالمية/ الكويت: مكتبة الفقيه، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
- ابن إدريس الحلّي، أبو جعفر محمد بن منصور بن أحمد (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠١م). السرائر. تحقيق: لجنة التحقيق. ط ٢. قم المقدّسة/ إيران: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- الأزدي، الفضل بن شاذان بن الخليل (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٤م). الإيضاح. تحقيق: السيّد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث. ط ٢. طهران/ إيران: مؤسسة انتشارات وجاب دانشگاه طهران، ١٣٦٣هـ ش.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٣٢٤هـ / ٩٣٦م). الإبانة عن أصول الديانة. تحقيق: الشيخ حمّاد بن محمد الأنصاري. تقديم: الشيخ عبد العزيز بن باز. ط ١. المدينة المنورة/ السعودية: مطبوعات الجامعة الإسلامية، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ١. بيروت/ لبنان: المكتبة العصرية، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد المرواني الأموي القرشي (٣٥٦هـ / ٩٦٦م). الأغاني. د ط. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، د ت.
- أمين، الدكتور أحمد (ت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م). التكامل في الإسلام. ط ٢. بيروت/ لبنان، دار المعرفة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- الأمين، السيّد محسن (ت ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م). أعيان الشيعة. تحقيق: حسن الأمين، د ط. بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- أنيس، الدكتور إبراهيم، وآخرون. المعجم الوسيط. ط ٢. استانبول/ تركيا. المكتبة الإسلامية، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

(ب)

- البحراني، السيّد هاشم الحسيني (ت ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م). البرهان في تفسير القرآن. تقديم: الشيخ مهدي الآصفي. تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية / مؤسسة البعثة. ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة البعثة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- البحراني، الشيخ يوسف البحراني، صاحب الحقائق، (ت ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م). الحقائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة. تحقيق: محمد تقي الأيرواني، تصحيح: الدكتور يوسف البقاعي. ط ٣. بيروت / لبنان: دار الأضواء، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م). صحيح البخاري. د ط. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي، د ت.
- البيهقي، الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م). السنن الكبرى. ط ١. بيروت / لبنان: دار الفكر، د ت.

(ت)

- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة السلمي البوغي (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، سنن الترمذي (الجامع الصحيح). تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف. ط ٢. بيروت / لبنان: دار الفكر، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٤م.
- التنكابني، الميرزا محمد بن سليمان بن الطيّب (ت ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م). قصص العلماء. ترجمة: الشيخ مالك وهبي. ط ١. بيروت / لبنان: دار المحجّة البيضاء، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحرّاني (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م). الفتاوى الكبرى. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا. ط ١. بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

(ج)

- جبران، جبران خليل (ت ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م). موسوعة جبران خليل جبران (العربية). شرح: الدكتور درويش الجويدي. د. ط. بيروت / لبنان: الدار النموذجية، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الشريف الحسيني (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م). المواقف في علم الكلام. تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميرة. ط ١. بيروت / لبنان: دار الجيل، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- ابن أبي جمهور الأحسائي، محمد بن علي بن إبراهيم الهَجَرِيّ (ت بعد ٩٠١ أو ٩٠٩هـ / بعد ١٤٩٥ أو ١٥٠٣م). عوالي اللآلي العزيزية في الأحاديث الدينية. تحقيق: آغا مجتبی العراقي. تقديم: السيّد شهاب الدين المرعشي النجفي. ط ١. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- أبو جيب، الدكتور سعدي، القاموس الفقهي. ط ٢. دمشق / سوريا: دار الفكر، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(ح)

- الحائري، جعفر عباس. بلاغة الإمام علي بن الحسين عليه السلام. تحقيق: جعفر عباس الحائري. ط ١. قم المقدّسة / إيران: دار الحديث للطباعة والنشر، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.
- ابن حَبَّان، محمد بن حَبَّان بن أحمد بن حَبَّان التميمي (أبو حاتم البستي) (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م). صحيح ابن حَبَّان. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط ٢. بيروت / لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م). شرح نهج البلاغة. د. ط. بيروت / لبنان: دار مكتبة الحياة، د. ت.
- الحرّاني، الشيخ الحسن بن شعبة (ت القرن الرابع الهجري / العاشر

- (الميلادي)، تُحَفُّ العقول عن آل الرسول. ط ٥. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- الحرّ العاملي، الشيخ محمد بن الحسن بن علي (١١٠٤هـ / ١٦٩٢م). وسائل الشيعة إلى تحصيل الشريعة. تحقيق: عبد الله الرّبّاني الشيرازي. ط ٦. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- ابن الحسين، الإمام علي (ت ٩٥هـ / ٧١٢م). الصحيفة السجّادية الكاملة. تقديم: السيّد الشهيد محمد باقر الصدر. ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- الحلّي، السيّد حيدر بن سلمان بن داوود الحسيني (ت ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م). ديوان السيّد حيدر الحلّي. تحقيق: علي الخاقاني. ط ٤. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- الحلّي، ابن فهد (ت ٨٤١هـ / ١٤٣٧م). عدّة الداعي ونجاح المساعي. تحقيق: أحمد الموحّدي القمّي. ط ١. قم المقدّسة / إيران: مكتبة وجداني، د. ت.
- ابن حنبل، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م). مسند الإمام أحمد بن حنبل. ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة التاريخ العربي، ودار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- الحنبلي، شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني النابلسي (ت ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م). لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرّة المضوية في عقد الفرقة المرضية. ط ٢. دمشق: سورية: مؤسسة الخافقين ومكّبتها، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

(خ)

- الخطيب الخوارزمي، أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي (ت ٥٦٨هـ / ١١٧٢م). مقتل الحسين عليه السلام. تحقيق: الشيخ محمد السماوي. ط ١. قم

- المقدّسة/ إيران: دار أنوار الهدى، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الخميني، السيّد الإمام روح الله بن مصطفى الموسوي (ت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م). الآداب المعنوية للصلاة. تعريب: السيّد أحمد الفهري. ط ٣. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الخوئي، السيّد حبيب الله محمد بن هاشم الهاشمي الموسوي (ت ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م). منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة. تحقيق: السيّد إبراهيم الميانجي. ط ٤. قم المقدّسة/ إيران: منشورات دار الهجرة، دت.
- الخوئي، السيّد أبو القاسم الموسوي (ت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م). البيان في تفسير القرآن. ط ٦. بيروت/ لبنان: دار الزهراء (عليها السلام)، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- الخيّام، عمر بن إبراهيم (ت ٥١٥هـ/ ١١٢١م). رباعيّات عمر الخيّام، تعريب: أحمد الصافي النجفي. تقديم: أحمد الجندي. د ط. دمشق/ سورية: دار طلاس للدراسات والنشر والترجمة، دت.

(د)

- دستغيب، السيّد عبد الحسين (ت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م). الذنوب الكبيرة. ترجمة: صدر الدين القبانجي. ط ٣. بيروت/ لبنان: الدار الإسلامية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- دندشي، الدكتور حسن نمر. معجم الأبيات الشهيرة. ط ١. طرابلس/ لبنان: منشورات جروس برس، دت.

(را)

- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م). محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. تحقيق: الدكتور عمر الطّباع. ط ١. بيروت/ لبنان: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج (ت ٢٨٣هـ / ٨٩٦م). ديوان ابن الرومي. تحقيق: حسين نصّار. ط ١. القاهرة/ مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- الري شهري، الشيخ محمد محمدي. موسوعة العقائد الإسلامية. تحقيق: مركز بحوث دار الحديث. ط ١. قم المقدّسة/ إيران: دار الحديث للطباعة والنشر، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.

(س)

- السبحاني، الشيخ جعفر، الإلهيات. بقلم: الشيخ حسن العاملي. ط ١. بيروت/ لبنان: الدار الإسلامية، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- السبزواري، السيّد عبد الأعلى الموسوي (ت ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م). مهذب الأحكام في بيان الحلال والحرام. ط ٤. قم/ إيران: مؤسسة المنار، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- السبزواري، السيّد عبد الأعلى الموسوي. مواهب الرحمن في تفسير القرآن. د ط. بيروت/ لبنان: منشورات المؤسسة الفكرية للمطبوعات، د ت.
- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٩م). سنن أبي داود. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. د ط. د ب. د ت.
- سعيد، الدكتورة خالدة، وآخرون. الموسوعة العلمية المبسّطة: عجائب الكون وغرائب. ط ٣. بيروت/ لبنان: دار العودة، ١٤٢٩هـ / ١٩٩٩م.
- السقّاف، حسن علي. صحيح شرح العقيدة الطحاوية. ط ١. عمّان/ الأردن: دار الإمام النووي، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م). الجامع الصغير. ط ١. بيروت/ لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضير. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور. تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية. ط ١، القاهرة/ مصر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

(ش)

- الشاهرودي، الشيخ علي النمازي (ت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م). مستدرک سفينة البحار. تحقيق: الشيخ حسن علي النمازي. ط ١. قم/ إيران: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- الشراياني، الدكتور الشيخ مرتضى علي المحمدي. أستاذ الفقهاء والمجتهدين وقدوة العلماء العاملين الشيخ الأنصاري: دراسة وتحقيق في سيرته الذاتية. ط ١، بيروت/ لبنان: مؤسسة الوصي عليه السلام، ١٣٢٨هـ / ٢٠٠٧م.
- الشريف الرضي، محمد بن الحسين بن موسى العلوي الحسيني الموسوي (ت ٤٠٦هـ / ١٠١٥م). المجازات النبوية. شرح وتحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي. ط ٢. بيروت/ لبنان: دار الأضواء، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- ابن شهر آشوب، محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني (ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢م). متشابه القرآن ومختلفه. ط ١. طهران/ إيران. جايخانه شرکت سهامی طبع کتاب. د ت.
- ابن شهر آشوب، محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني. مناقب آل أبي طالب. تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف. ط ١. النجف الأشرف/ العراق: المكتبة الحيدرية، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م). الملل والنحل. تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل. د ط. بيروت/ لبنان: دار الفكر، د ت.

- الشهيد الأول، الشيخ شمس الدين محمد بن جمال الدين مكي بن محمد بن حامد العاملي النبطي الجزيني (ت ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م). القواعد والفوائد. ط ١. قم المقدسة / إيران: منشورات مكتبة المفيد، د.ت.
- الشهيد الثاني، زين الدين بن علي بن أحمد العاملي الجبعي (ت ٩٦٦هـ / ١٥٥٩م). رسائل الشهيد الثاني. ط ١. قم المقدسة / إيران: منشورات مكتبة بصيرتي، د.ت.
- الشهيد الثاني، زين الدين بن علي بن أحمد العاملي الجبعي. الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية. تصحيح وتعليق: السيّد محمد كلانتر. د.ط. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د.ت.
- الشيرازي، السيّد الشهيد حسن مهدي الحسيني (ت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م). كلمة الإمام الحسين عليه السلام. ط ١. بنيد القار / الكويت: ديوانية الإمام الشيرازي، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- الشيرازي، صدر الدين محمد بن إبراهيم / الملا صدرا (ت ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م). الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة. ط ٣. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- الشيرازي، محمد طاهر القمّي (ت ١٠٩٨هـ / ١٦٨٦م). كتاب الأربعين. تحقيق: السيّد مهدي الرّجائي، إيران: مطبعة أمير، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- الشيرازي، السيّد محمد مهدي الحسيني (ت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م). الموسوعة الفقهية: كتاب الصلاة، ط ٢، بيروت / لبنان: دار العلوم، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
- الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(ص)

- صاحب الجواهر، الشيخ محمد حسن بن محمد باقر الأصفهاني النجفي (ت ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م). جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام. ط ١. بيروت /

- لبنان: دار المرتضى العالمية، ودار المؤرخ العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- الصادق، الإمام جعفر بن محمد (ت ١٤٨هـ / ٧٦٥م). مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة (فارسي). ترجمة وشرح: حسن مصطفوي. د ط. طهران/ إيران: أنجمن إسلامي حكمت وفلسفة إيران، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- الصدر، السيد الشهيد محمد باقر (ت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م). بحوث إسلامية. ط ٤. بيروت/ لبنان: دار الزهراء عليها السلام، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ / ٩٩١م). الاعتقادات في دين الإمامية. تحقيق: عصام عبد السيد. ط ٢. بيروت/ لبنان: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. الأموال. تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية بمؤسسة البعثة. ط ١. قم/ إيران: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. التوحيد. ط ١. بيروت/ لبنان: دار الإرشاد الإسلامي، د ت.
- الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. الخصال. تحقيق: علي أكبر الغفاري. ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. علل الشرائع. تحقيق: السيد محمد صادق بحر العلوم. ط ١. النجف الأشرف/ العراق. منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م.
- الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. عيون أخبار الرضا. تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. كمال

- الدين وتمام النعمة. تصحيح وتقديم وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي، ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. معاني الأخبار. تحقيق: علي أكبر الغفاري. ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. مَنْ لَا يحضره الفقيه. تحقيق: محمد جعفر شمس الدين. د ط. بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- الصفار، محمد بن الحسن بن فروخ (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٢م). بصائر الدرجات. تحقيق وتعليق وتقديم: الحاج ميرزا حسن كوجه باغي. ط ١. طهران/ إيران: منشورات الأعلمي، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- صفوت، أحمد زكي (ت ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م). جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة. ط ٢. القاهرة/ مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.

(ض)

- الضحّاك، ابن أبي عاصم (ت ٢٨٧هـ / ٩٠٠م)، الآحاد والمثاني. تحقيق: الدكتور باسم فيصل أحمد الجوابرة. ط ١. الرياض/ السعودية: دار الدراية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

(ط)

- ابن أبي طالب، الإمام علي (ت ٤٠هـ / ٦٦١م). ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. جمع وشرح: سالم شمس الدين. ط ١. بيروت/ لبنان: صيدا وبيروت، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- ابن أبي طالب، الإمام علي. غرر الحكم ودرر الكلم. جمع: عبد الواحد بن

- محمد الأمدي التميمي (ت ٥٥٠هـ / ١١٥٥م). ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- ابن أبي طالب، الإمام علي. نهج البلاغة. جمع الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ / ١٠١٥م). ضبط: الدكتور صبحي الصالح. ط ١. بيروت / لبنان: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- ابن طاووس، السيّد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني (ت ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م). إقبال الأعمال. ط ٣. بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- ابن طاووس، السيّد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني. اللهوف في قتلى الطفوف. ط ١. قم المقدّسة / إيران: أنوار الهدى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- الطباطبائي، السيّد محمد حسين (ت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م). الميزان في تفسير القرآن. ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي (ت ٣٦٠هـ / ٩١٨م). المعجم الأوسط. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. القاهرة / مصر: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- الطبرسي، أحمد بن علي بن أبي طالب (ت حوالي ٦٢٠هـ / حوالي ١٢٢٢م). الاحتجاج. ط ٢. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.
- الطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م). مجمع البيان في تفسير القرآن. د ط. بيروت / لبنان: دار المعرفة للطباعة والنشر، د ت.
- الطبرسي، الشيخ ميرزا حسين النوري المازندراني (ت ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م).

- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل. ط ٥. بيروت / لبنان: دار الهداية، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- الطريحي، الشيخ فخر الدين بن محمد (ت ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م). مجمع البحرين. د ط. بيروت / لبنان: دار الهلال، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م). اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي). تصحيح وتعليق: مير داماد الاستربادي. تحقيق: السيّد مهدي الرّجائي، ط ١. قم المقدّسة / إيران: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، د ت.
- الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن بن علي. الاقتصاد. ط ١. طهران / إيران: منشورات مكتبة جامع جهل ستون، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن بن علي. الأمالي. تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية والتوزيع. ط ١. قم المقدّسة / إيران: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن بن علي. التبيان في تفسير القرآن. تحقيق وتعليق: أحمد حبيب قصير العاملي. ط ١. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن بن علي. تهذيب الأحكام. تحقيق: الشيخ محمد جعفر شمس الدين. د ط. بيروت / لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن بن علي. الفهرست. تحقيق: الشيخ جواد القيومي، ط ١. قم المقدّسة / إيران: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن بن علي. مصباح المتهجّد. ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة فقه الشيعة، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

(ع)

- العامري، لبيد بن أبي ربيعة (ت ٤١هـ / ٦٦١م). ديوان لبيد بن أبي ربيعة. شرح: علي بن عبد الله الطوسي. تقديم وفهرسة: الدكتور حنا نصر الحتي. ط ١. بيروت / لبنان: دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- ابن عربي، محيي الدين (ت ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م). الفتوحات المكيّة. د ط. بيروت / لبنان: دار صادر، د ت.
- ابن أبي العزّ الحنفي، صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العزّ الحنفي الدمشقي (ت ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م). شرح العقيدة الطحاوية. ط ٤. بيروت / لبنان: المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.
- العيّاشي، محمد بن مسعود (ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م). تفسير العيّاشي. تحقيق: الحاج السيّد هاشم الرسولي المحلاتي. د ط. طهران / إيران: المكتبة العلمية الإسلامية، د ت.

(غ)

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ / ١١١١م). إحياء علوم الدين. ط ١. بيروت / لبنان: دار الكتاب العربي، د ت.

(ف)

- فتح الله، الدكتور أحمد. معجم ألفاظ الفقه الجعفري. ط ١. الدمام / المملكة العربية السعودية: مطابع المدوخل، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- الفخر الرازي، محمد بن ضياء الدين عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري (ت ٦٠٤هـ / ١٢١٠م). تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب). ط ٣. بيروت / لبنان: دار الفكر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ / ١٤١٥م). القاموس

- المحيط. ط ١. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- الفيض الكاشاني، المولى محمد محسن بن المرتضى (ت ١٠٩١هـ / ١٦٨٠م). أنوار الحكمة. ط ١. بيروت / لبنان: دار الأميرة، ودار القارئ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- الفيض الكاشاني، المولى محمد محسن بن المرتضى. تفسير الصافي. تعليق: الشيخ حسين الأعلمي. د ط. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د ت.
- الفيض الكاشاني، المولى محمد محسن بن المرتضى. المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء. تحقيق: علي أكبر الغفاري. ط ٢. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(ق)

- القاضي التنوخي، المحسن بن علي بن أبي الفهم البصري (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م). الفرج بعد الشدة. ط ١. قم المقدسة / إيران: منشورات الشريف الرضي، د ت.
- القبانجي، السيد حسن. شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين. ط ٢. قم المقدسة / إيران: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- القبانجي، السيد حسن. مستند الإمام علي عليه السلام. تحقيق: الشيخ طاهر السلامي. ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- القمي، الشيخ عباس (ت ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م). مفاتيح الجنان. ط ١. بيروت / لبنان: دار الأضواء، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- القمي، علي بن إبراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧هـ / ٩٢٠م). تفسير القمي. تحقيق: السيد طيب الموسوي الجزائري. ط ١. بيروت / لبنان: دار السرور، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

- القمّي، الشيخ علي بن الحسين بن موسى بابويه (والد الشيخ الصدوق) (ت ٣٢٩هـ / ٩٤١م). فقه الرضا. تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث. مشهد المقدّسة / إيران: المؤتمر العالمي للإمام الرضا (عليه السلام)، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي الدمشقي (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م). الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة. ط ١. بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

(ك)

- الكفعمي، الشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي بن الحسن الحارثي العاملي (ت ٩٠٥هـ / ١٥٠٠م). البلد الأمين والدرع الحصين. د ط. طهران / إيران: مكتبة الصدوق، ١٣٨٣هـ / ١٩٩٣م.
- الكليني، الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ / ٩٤١م). أصول الكافي. تحقيق: محمد جعفر شمس الدين. د ط. بيروت / لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

(م)

- ابن ماجّة، محمد بن يزيد الربعي القزويني (ت ٢٧٣هـ / ٨٨٧م). سنن ابن ماجّة. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ط ١. بيروت / لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د ت.
- المازندراني، المولى محمد صالح (ت ١٠٨١هـ / ١٦٧٠م). شرح أصول الكافي. تحقيق: الميرزا أبو الحسن الشعراني. ضبط وتصحيح: السيّد علي عاشور. ط ١. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. الموسوعة العربية العالمية. ط ٢.

- الرياض / السعودية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين عبد الملك البرهان فوري (ت ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م). كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. ضبط وتفسير: الشيخ بكرى حيّاني. تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا. ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر بن محمد تقي (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م). بحار الأنوار. ط ٤. بيروت / لبنان: مؤسسة أهل البيت (عليه السلام)، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- المحقق الحلّي، الشيخ نجم الدين جعفر بن الحسن الهذلي (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م). شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام. شرح وتعليق: السيّد عبد الزهراء الحسيني. ط ٢. بيروت / لبنان: دار الزهراء، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- المرتضى الزبيدي، السيّد محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م). تاج العروس في شرح القاموس. تحقيق: علي شيري. د ط. بيروت / لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- المرعشي النجفي، السيّد شهاب الدين (ت ١٤١١هـ / ١٩٩١م). شرح إحقاق الحق. تحقيق: السيّد محمود المرعشي. ط ١. قم المقدّسة / إيران: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م). مروج الذهب ومعادن الجوهر. ط ٢. قم / إيران: دار الهجرة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- المظفر، الشيخ محمد رضا (ت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م). أصول الفقه. ط ٢. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- مغنية، الشيخ محمد جواد (ت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م). التفسير الكاشف. ط ٣. بيروت / لبنان: دار العلم للملايين، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

- المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام الحارثي العبكري البغدادي (ت ٤١٣هـ / ١٠٢٢م). الاختصاص. تحقيق: علي أكبر الغفاري، والسيد محمود الزرندي. ط ٢. بيروت / لبنان: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام الحارثي العبكري البغدادي. الأمالي. تحقيق: حسن الأستاذ ولي، وعلي أكبر الغفاري. ط ٢. بيروت / لبنان: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين الحدادي القاهري (ت ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م). فيض القدير شرح الجامع الصغير. تحقيق: أحمد عبد السلام. ط ١. بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الرويفعي الأفريقي (ت ٧١١هـ / ١٣١١م). لسان العرب. تنسيق: علي شيري. ط ١. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨هـ / ١١٢٤م). مجمع الأمثال. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. د ط. د ب. دن، د ت.

(ن)

- النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس الأسدي (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م). رجال النجاشي. ط ٥. قم المقدسة / إيران: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة المدرسين بقم المقدسة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- النراقي، الشيخ محمد مهدي (ت ١٢٠٩هـ / ١٧٩٤م). جامع السعادات. ط ٣. النجف الأشرف / العراق: مطبعة النجف، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
- النسائي، أحمد بن شعيب (٣٠٣هـ / ٩١٥م). سنن النسائي. ط ١. بيروت / لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٣٤٨هـ / ١٩٣٠م.

- النظام النيسابوري، العلامة نظام الدين الحسن بن محمد القمّي (بعد ٨٥٠هـ / بعد ١٤٤٦م). تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان. ضبط وتخرّيج: الشيخ زكريا عميرات. ط ١. بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب بن محمد القرشي التيمي البكري (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م). نهاية الإرب في فنون الأدب. ط ١. القاهرة / مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دت.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م). الجامع الصحيح (صحيح مسلم). د ط. بيروت / لبنان: دار المعرفة، دت.

(هـ)

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م). الفروق اللغوية. تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي. ط ١. قمّ المشرفة / إيران: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرفة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

(و)

- الواسطي، علي بن محمد الليثي (ت القرن السادس الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي). عيون الحكم والمواعظ. تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي. ط ١. قم / إيران: دار الحديث، دت.

(ي)

- اليزدي، السيّد محمد كاظم الطباطبائي (ت ١٣٣٧هـ / ١٩١٩م). العروة الوثقى. ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- يعقوب، الدكتور إميل بديع. معجم لآلئ الشعر: أجمل الأبيات وأشهرها. ط

١. بيروت / لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- يمانى، الدكتور محمد عبده. الأطباق الطائفة.. حقيقة أم خيال؟. ط ١. الرياض / السعودية: المطابع الأهلية، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

المجلات:

- آل موسى، علي علي. (السلطان والمجتمع: بحث فقهي في آلية التعامل)، مجلة البصائر. بيروت / لبنان: تصدر عن مركز الدراسات والبحوث الإسلامية في حوزة الإمام القائم عليه السلام. العدد ٢١، السنة التاسعة، خريف ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

الإنترنت:

- دون اسم كاتب. إسقاط نجمي، ويكيبيديا (الموسوعة الحرة)، الإنترنت، موقع: (ar.wikipedia.org/wiki).

المحتويات

الإهداء	٧
المقدمة	٩
الملاك والفقيه والفيلسوف سطور وفاء لأستاذنا الشيخ عبد اللطيف الشيب رحمته الله ..	١٣
لسان صدق في الآخرين	١٣
النأي الفجيع	١٤
الملاك الواله	١٦
عقد الجمان	١٦
الطلاسم والنقوش	١٨
نهر الأصفهاني	١٩
مصرع الكابوس	٢٢
المنعطف	٢٥
حتى لا نكون قطاع طريق!!	٢٧
طوافٌ يحلم بالارتواء	٢٨
بداية الشحوب	٢٩
يا صغيري، ما خابَ فيكَ الرجاءُ	٣٠

٣٣	الصوت والصدى
٣٥	وأقيم الحفل البهيج!!
٣٦	دوامات الجدل!!
٣٧	وحنيه - أبداً - لأول منزل
٣٨	البعد عن النبع
٣٩	رغبة جامحة
٣٩	متى تنجلي الغيوم؟
٤٠	وحلت الكارثة!!
٤٣	هذا الممداد
٤٧	في ظلال الكتاب
٤٧	١ - منهج القراءة
٤٧	٢ - عمق القراءة والمحتوى
٤٨	٣ - التوليد المذهل للأفكار
٤٨	٤ - الصلاة منطلق العلاج
٤٨	٥ - منهجية العرض

٥١ الفصل الأول: آداب صلاة المتقين

٥٣	حقيقة الصلاة الصفات الجوانحية التي تشكّل قوام الصلاة
٥٤	١ - المعنى الأخص
٥٤	٢ - المعنى الأعم
٥٤	أولاً: الإخلاص
٥٥	ثانياً: حضور القلب
٥٥	ثالثاً: التفهّم
٥٧	رابعاً: التعظيم
٦٠	خامساً: الهيبة

سادسًا: الرجاء	٦٦
سابعًا: الحياء	٦٩
الخلاصة	٧٣

الأدب الأول: الإخلاص لله والقربة، والخلو من شوائب الرياء ٧٥

رأس الفضائل ورئيسها	٧٧
حقيقة الإخلاص	٧٨
بالإخلاص تُقبل الأعمال	٨٠
الإخلاص أصعب من التهام الجمر!!	٨١
مراتب الإخلاص	٨٢
١- الإخلاص المطلق (إخلاص الصديقين)	٨٢
٢- الإخلاص الإضافي	٨٣
الفرق بين الطوائف الثلاث	٨٦
(الإخلاص) في دوحة النصوص الشريفة	٨٨
أولاً: القرآن الكريم	٨٨
ثانيًا: السنة المباركة	٨٩
كيف نحصل على الإخلاص؟	٩٢
١- العلم	٩٢
٢- اليقين	٩٣
٣- قوة الإيمان والدين	٩٣
٤- مجانبة المعاصي والأهواء	٩٣
٥- الزهد في الدنيا وما في أيدي الناس	٩٣
٦- العبادة الصادقة	٩٤
آفات الإخلاص	٩٤
١- الرياء الظاهر	٩٤
٢- تحسين العبادة في الملأ	٩٤

- ٣- تحسين العبادة في الخلوة؛ ليحسّنها في الملاء ٩٤
- ٤- انبثاق خاطر التخشع العبادي في العلن ٩٥
- الأدب الثاني: حضور القلب ٩٧
- حضور القلب ٩٩
- أولاً: ما المقصود بـ(القلب)؟ ١٠١
- كيف نسبر بحرًا لا نملك أدوات التجديف فيه؟! ١٠١
- متى خلقت الأرواح؟! ١٠٢
- ١- عالم الأرواح ١٠٢
- ٢- عالم الذرّ ١٠٤
- ٣- عالم التراب ١٠٥
- الروح في عوالمها الثلاثة ١٠٥
- الأرواح موجودة ١٠٦
- أثر انتقال الروح إلى البدن ١٠٧
- هل نستطيع أن نحيط بكنه (الروح)؟! ١١٢
- إلى أين تمضي الأرواح بعد انسلاخها من البدن؟ ١١٣
- من قدرات الروح ١١٥
- ثانياً: ما المقصود بـ(حضور القلب)؟ ١١٧
- الشیطان وتبديد حضور القلب ١١٩
- لصلاة المؤمن وزن خاصّ عند إبليس!! ١٢٠
- لماذا يستفرغ الشيطان كامل جهده للصلاة؟! ١٢٠
- لماذا خلق الله الخلق؟، ولماذا شرع الشرائع؟ ١٢٣
- لماذا خلق الله الخلق؟ ١٢٣
- ١- المعرفة (معرفة الله وصفاته) ١٢٤
- ٢- العبادة ١٢٥
- ٣- البلاء والامتحان ١٢٥

١٢٦	٤- الرحمة
١٢٧	الغاية الأولى والمتوسطة والأخيرة
١٢٧	الغاية النهائية للخلق هي الرحمة
١٢٨	ترتيب غايات الخلق
١٢٨	لماذا شرع الله الشرائع؟
١٣١	الهدف من هذا البحث
١٣١	١- معرفة غاية الله وغاية الشيطان
١٣٢	٢- بمَ تُنال العبادات؟
١٣٣	أنواع العبادة
١٣٣	أولاً: الأداء السطحي القشري؛ لإسقاط التكليف
١٣٤	ثانياً: الأداء المادي المصلحي؛ لنيل الثواب، واجتناب العقاب
	ثالثاً: الأداء الأخلاقي المعنوي؛ لأهلية الله للعبادة واستحقاقه لها، ولبلوغ العبد
١٣٥	مقام الشكر، والحب، والقرب والرضوان، والمقامات الشامخة
١٣٨	١- عبادة الأهلية والاستحقاق
١٣٨	٢- عبادة الشكر
١٤٠	٣- عبادة الحب
١٤١	٤- عبادة القرب والرضوان
١٤٦	الخلاصة
١٤٧	لماذا الحديث عن حضور القلب؟
١٤٧	ما هي آثار حضور القلب؟
١٤٧	١- توقف الأعمال عليه
١٥٣	٢- حصول الأثر من العبادة
١٦١	أسباب غياب القلب
١٦١	١- دور الشيطان
١٦١	٢- دور الإنسان
١٦٥	آثار الصلاة

أولاً: الآثار الدنيوية.....	١٦٥
١- النهي عن الفحشاء والمنكر.....	١٦٥
٢- المعراجية.....	١٦٦
٣- التقرب إلى الله.....	١٦٦
٤- الأمان.....	١٦٦
غايات الصلاة وحضور القلب.....	١٦٦
هل تتأتى غايات الصلاة من مجرد طقس شكلي؟!.....	١٦٨
الصلاة وفعل المنكرات!!.....	١٦٩
امتحان الذات.....	١٧٠
ثانياً: الآثار الأخروية.....	١٧٢
كيف يحضر القلب في الصلاة؟.....	١٧٥
١- استشعار حضور الرب.....	١٧٦
٢- استشعار نظر الله ومراقبته للعبد.....	١٧٧
٣- السيطرة على الخواطر.....	١٧٩
الأول: الخيال.....	١٨٠
الثاني: الخواطر الخارجية.....	١٨٣
الثالث: الخواطر الداخلية.....	١٨٦
الأدب الثالث: الطهارة.....	١٩١
الطهارة.....	١٩٣
معنى (الطهارة).....	١٩٣
أقسام الطهارة.....	١٩٤
فوائد الطهارة.....	١٩٥
١- النظافة.....	١٩٥
٢- إدراك العاقبة والمآل.....	٢٠٠
٣- المراقبة.....	٢٠١
الطهارات الثلاث.....	٢٠٣

٢٠٣	١- الوضوء.....
٢٠٤	٢- الغُسل.....
٢٠٥	٣- التيمّم.....
٢٠٦	المغزى المعنوي للتيمّم.....
٢٠٩	إحراز شرط الإيمان.....
٢١٣	مراتب الطهارة.....
٢١٤	مراتب الطهارة.....
٢١٤	المرتبة الأولى: تطهير البدن من الخبث والحَدَث والأدران.....
٢٢١	المرتبة الثانية: تطهير الجوارح من الآثام.....
٢٢٣	المرتبة الثالثة: تطهير القلب من الأمراض والموبقات.....
٢٢٤	المرتبة الرابعة: تطهير السرِّ عمّا سوى الله.....
٢٢٧	التخلية والتحلية.....
٢٢٩	الخاتمة.....
٢٣١	الأدب الرابع: الأذان.....
٢٣٥	النقطة الأولى: الأذان رمز لدعوة الله لعباده.....
٢٣٥	١- الأذان دعوة اختيارية لحضور الضيافة الإلهية.....
٢٣٨	٢- نداء الأذان رمز لهول القيامة.....
٢٤٢	صور من أهوال العالم الآخر.....
٢٤٦	آثار الأذان.....
٢٤٧	النقطة الثانية: الأذان إقرار بحقيقة أنّ الأمور من الله، وإلى الله.....
٢٤٨	النقطة الثالثة: ما ترمز إليه فصول الأذان.....
٢٤٩	إلّا مَ ترمز فصول الأذان؟.....
٢٤٩	أولاً: ما يرمز إليه قولنا: (الله أكبر).....
٢٤٩	التفسير الأول: الله أكبر من كلّ شيء.....
٢٥٢	ملاحظات على التفسير الأول.....

التفسير الثاني: الله أكبر من أن يُقاس	٢٥٥
التفسير الثالث: الله أكبر من أن يوصف	٢٥٧
التفسير الرابع: الله أكبر من أن تُدرك ذاته	٢٥٩
ثانيًا: ما يرمز إليه قولنا: (أشهد أن لا إله إلا الله)	٢٦٢
ثالثًا: معنى (أشهد أن محمدًا رسول الله)	٢٦٤
رابعًا: معنى (أشهد أن عليًا وليّ الله)	٢٦٦
خامسًا: معنى (حيّ على الصلاة)	٢٦٧
سادسًا: معنى (حيّ على الفلاح)	٢٦٧
سابعًا: معنى (حيّ على خير العمل)	٢٦٩
ثامنًا: الإقبال بالتكبير، والتهليل	٢٧٠
الأدب الخامس: القيام	٢٧٥
القيام	٢٧٧
النقطة الأولى: معنى (القيام)	٢٧٧
النقطة الثانية: موضوع الوقوف	٢٨٠
الأدب السادس: تكبيرة الإحرام	٢٨٧
تكبيرة الإحرام	٢٨٩
النقطة الأولى: معنى (تكبيرة الإحرام)	٢٨٩
النقطة الثانية: عدد التكبيرات	٢٩٠
الأدب السابع: الاستعاذة	٢٩٣
الاستعاذة	٢٩٥
النقطة الأولى: معنى الاستعاذة	٢٩٥
النقطة الثانية: حكم الاستعاذة	٢٩٦
النقطة الثالثة: موقع الاستعاذة	٢٩٨
النقطة الرابعة: شروط الاستعاذة	٢٩٨

النقطة الخامسة: صيغ الاستعاذة	٢٩٨
النقطة السادسة: لماذا نستعيز بالله من الشيطان الرجيم؟	٢٩٩
النقطة السابعة: إبليس الرجيم.. قوي أم ضعيف؟!	٣٠٠
النقطة الثامنة: شيطان واحد أم شياطين كُثر؟!	٣٠٠
النقطة التاسعة: ما طريقة إبليس في إغواء بني آدم؟	٣٠٢
النقطة العاشرة: الاستعاذة تؤهلنا لقراءة الفاتحة والقرآن المجيد.....	٣٠٣
الأدب الثامن: القراءة.....	٣٠٥
أنواع النَّاس في القراءة	٣٠٧
القسم الأول: أصحاب الجهل بالمعنى	٣٠٨
أ- الجهل باللفظ والمعنى	٣٠٨
ب- الجهل بالمعنى وحده	٣١٣
القسم الثاني: أصحاب النطق الصحيح واستحضار المعنى في النفس	٣١٥
القسم الثالث: أصحاب النطق الصحيح، وحضور المعنى في النفس	٣١٦
الأدب التاسع: أسرار سورة الفاتحة.....	٣١٩
﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	٣٢١
أعظم آية في كتاب الله	٣٢١
أثر البسملة في حياة الإنسان	٣٢٤
دلالة حذف متعلّق الباء في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾	٣٢٥
لمن يُعطى الاسم الأعظم؟!	٣٢٦
ويعفو عن كثير	٣٢٨
الإنسان واقعه الفقر والحاجة	٣٢٩
سعادة الإنسان في الاعتقاد بإرادة الله وتدييره	٣٣٢
لماذا دخلت الباء على (الاسم) بدلاً من لفظ الجلالة (الله)؟	٣٣٥
إنّ حواسنا مسيَّجة بأسوار	٣٣٥
معنى لفظ الجلالة (الله)	٣٣٧

- ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٣٣٩
- من مظاهر الرحمة الإلهية ٣٣٩
- ما معنى كون (الرحمن) و(الرحيم) صفتي مبالغة؟ ٣٤١
- لماذا اختار الله صفتي (الرحمن) و(الرحيم)؟ ٣٤١
- ١- الرحمة الرحمانية ٣٤١
- ٢- الرحمة الرحيمية ٣٤١
- الفرق بين (الرحمة الرحمانية) و(الرحمة الرحيمية) ٣٤٢
- ١- المجال ٣٤٢
- ٢- مكان التجلي ٣٤٢
- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٤٣
- متى نحمد الله؟ ٣٤٦
- لماذا يتلى الله المؤمنين؟! ٣٤٧
- متى تتم عملية تطهير العباد من رجس الذنب؟ ٣٤٩
- أولاً: في الدنيا ٣٤٩
- ثانياً: عند بليّة الموت ٣٥٢
- ثالثاً: في البرزخ (عذاب القبر) ٣٥٣
- رابعاً: في الآخرة ٣٥٤
- قبس من جذوة الروايات ٣٥٥
- الغاية من البحث ٣٥٧
- سعة رحمة الله ٣٥٨
- نفسية الناقم ونفسية المؤمن ٣٥٩
- معنى ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ٣٦١
- أولاً: المجموعة المتماثلة من الخلق ٣٦١
- ثانياً: المجموعة المتفقة في الزمان أو المكان ٣٦٢
- ثالثاً: الخلق كلّ ٣٦٢
- ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٣٦٥

﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾	٣٦٧
لماذا أبرزت الآية مالكية يوم الدين؟	٣٦٧
لِمَن الملك اليوم؟!	٣٦٨
مالك النهايات هو مالك البدايات	٣٦٩
لماذا يخشى الإنسان يوم الحساب؟!	٣٧٠
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٣٧٣
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾	٣٧٣
العبادة الظاهرة للشيطان والعبادة الخفية!!	٣٧٤
الشرك مسلك خطير وخفي!!	٣٧٥
تنبيه الله دائم، ولكن الغفلة تلفنا!!	٣٧٦
﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٣٧٩
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٣٨١
الهداية مراتب ودرجات	٣٨١
صراط الله واحد، وسبل الشيطان كثيرة	٣٨٢
لماذا الصراط المستقيم؟	٣٨٢
طريق الله الوحيد هو طريق الأئمة المعصومين	٣٨٣
﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾	٣٨٥
تحديد الصراط المستقيم	٣٨٥
الإنسان والطرق الثلاثة	٣٨٥
من هم الذين أنعم الله عليهم؟	٣٨٦
- النبيون والصديقون والشهداء والصالحون	٣٨٦
- الأنبياء	٣٨٦
- المؤمنون	٣٨٧
من هم المغضوب عليهم؟	٣٨٧
- المنافقون والمشركون	٣٨٧
- المشركون	٣٨٧

٣٨٧	- اليهود
٣٨٨	- القتلة
٣٨٨	من هم الضالون؟
٣٨٨	- الكفار والمشركون
٣٨٨	- القانطون
٣٨٩	- الذين يكفرون بعد إيمانهم
٣٨٩	- المكذبون
٣٩١	الأدب العاشر: الركوع
٣٩٣	صفات الله
٣٩٣	أقسام الصفات الإلهية
٣٩٣	المقصود من (صفات الذات) و(صفات الفعل)
٣٩٤	كيف نميز بين (صفات الذات) و(صفات الفعل)؟
٣٩٥	(الإرادة) من صفات الفعل
٣٩٥	١- الدليل النصي النقلي
٣٩٦	٢- الضابط القاعدي
٣٩٦	أقسام الإرادة الإلهية
٣٩٦	١- الإرادة التكوينية
٤٠١	٢- الإرادة التشريعية
٤٠٧	أسرار الركوع
٤٠٩	غايات الركوع
٤٠٩	أولاً: تنزيه الله
٤١٠	ثانياً: الإقرار بالربوبية
٤١٠	ثالثاً: الإقرار بعظمة الله
٤١٤	رابعاً: توجيه الحمد لله
٤١٥	الخلاصة

الأدب الحادي عشر: السجود ٤١٧

- ٤١٩ الجبر والاختيار
- ٤١٩ الإنسان مختار
- ٤٢١ المخلوقات لا تملك الاختيار ..
- ٤٢٤ الكبير الأسوأ والخضوع الأفضل
- ٤٢٧ غايات تشريع السجود
- ٤٢٧ أولاً: الخضوع لله
- ٤٢٩ أ- الإرادة في التكوين (الخضوع التكويني)
- ٤٣١ ب- الإرادة في التشريع (الخضوع التشريعي)
- ٤٣٢ الإنسان والسخط التكويني والتشريعي !!
- ٤٣٣ هناك مَنْ يقرّ بالمعصية، وهناك مَنْ يفلسف المعصية!!
- ٤٣٤ السجود إعلان للخضوع
- ٤٣٧ ثانياً: التذكير بالمبدأ والمعاد
- ٤٣٩ من أيّ شيء خلق الله الإنسان؟!
- ٤٤١ عالّمان مجهولان!!
- ٤٤٢ أثر وعي المبدأ والمعاد في حياة الإنسان
- ٤٤٦ ثالثاً: الفناء في الله - جلّ وعلا -

الأدب الثاني عشر: التشهد ٤٤٩

- ٤٥١ لِمَ كان التشهد بعد الاستواء من السجود؟
- ٤٥٣ أجزاء التشهد
- ٤٥٣ التشهد في لسان أهل البيت
- ٤٥٤ أجزاء التشهد
- ٤٥٤ أولاً: الشهادة لله بالقوامة
- ٤٥٦ ثانياً: تمجيد الله والثناء عليه
- ٤٥٧ ثالثاً: الشهادة لله بالوحدانية

- رابعًا: التسليم لإرادة الله ٤٦٠
- خامسًا: الشهادة للنبي بالعبودية والرسالة ٤٦٧
- سادسًا: الشهادة للآل بالولاية ٤٦٩
- سابعًا: الدعاء للأمة ولنبيها الأكرم ٤٧٨
- الأدب الثالث عشر: بحول الله وقوته أقوم وأقعد..... ٤٨١**
- ما الذي أظهره فرعون؟!، وهل نضمر مثله؟! وقفة تحليلية لمستويات التكبر على الله... ٤٨٣
- مستويات التكبر على الله ٤٨٣
- المستوى الأول: ادعاء الربوبية والألوهية..... ٤٨٣
- المستوى الثاني: ادعاء الاستقلالية عن الله ٤٨٤
- المستوى الثالث: الاستخفاف بحُرُمات الله ٤٨٨
- كيف فُسِّرَت أعمال العباد؟! ٤٩٣
- الدائرة الأولى: الجبر ٤٩٣
- الدائرة الثانية: التفويض ٤٩٧
- الدائرة الثالثة: لا جبر ولا تفويض، وإنما أمر بين أمرين..... ٤٩٨
- تنظير وتقريب ٥٠٢
- اللهم لا تكلني إلى حولي وقوتي!! ٥٠٣
- أمير المؤمنين والبراءة من القدرية ٥٠٣
- الأدب الرابع عشر: التسيحات الأربع .. ٥٠٥**
- معاني التسيحات الأربع..... ٥٠٧
- المعنى الأول: التسيح ٥٠٧
- ١- التجسيم ٥١٠
- ٢- التشبيه ٥١٢
- التجسيم والتشبيه في الميزان ٥١٣
- المعنى الثاني: الحمد ٥١٤
- علامَ نحمد الله؟ ٥١٨

البلاء والتزكية.....	٥٢٠
المعنى الثالث: التهليل	٥٢١
المعنى الرابع: التكبير.....	٥٢١
لماذا نبدأ بالتسبيح، ونختم بالتكبير؟	٥٢٢
الأدب الخامس عشر: الاستغفار.....	٥٢٥
لماذا استُحب الاستغفار بعد التسيبحات الأربع؟، وما دلالة هنا؟.....	٥٢٧
الأدب السادس عشر: التسليم	٥٣١
معنى التسليم في ختام الصلاة.....	٥٣٣
ما معنى السلام في ختام الصلاة؟.....	٥٣٣
أبعاد السلام في الصلاة.....	٥٣٤
١- الأمان الدنيوي.....	٥٣٤
٢- الأمان الأخروي	٥٣٥
٣- الأمان الاجتماعي	٥٣٥
كيف نضع سلام الصلاة في موضعه؟.....	٥٣٦
١- التقوى.....	٥٣٦
٢- السلامة من المعاصي (السلام الداخلي مع الذات).....	٥٣٧
٣- السلام مع الحفظة الكاتين	٥٣٧
٤- السلام مع الناس.....	٥٤٠
الأدب السابع عشر: التعقيب	٥٤١
التعقيب عند الأئمة والأولياء والصالحين	٥٤٦
١- الأئمة والاهتمام بالتعقيب	٥٤٦
٢- أصحاب الأئمة والاهتمام بالتعقيب.....	٥٤٧
٣- العرفاء والعلماء والاهتمام بالتعقيب	٥٥٠
لماذا ندعو ولا يُستجاب لنا؟!.....	٥٥١

- أولاً: غياب شروط إجابة الدعاء ٥٥١
- ثانياً: الذنوب تقطع حبل إجابة الدعاء ٥٥٢
- ثالثاً: الإنسان لا يعرف أين مصلحته ٥٥٣
- رابعاً: الإنسان يدعو بما لا صلاح له فيه ٥٥٦
- من التعقيبات المؤكدة ٥٥٩
- التعقيب الأول: التكبير ثلاثاً ٥٥٩
- ١- استصغار العمل أمام عظمة الله ٥٥٩
- ٢- استحضار توحيد الذات والصفات والأفعال ٥٦٠
- التعقيب الثاني: آية الكرسي ٥٦٠
- التعقيب الثالث: تسبيحة الزهراء عليها السلام ٥٦٢
- التعقيب الرابع: الصلاة على النبي محمد وآله ٥٦٣

الفصل الثاني: منافع الصلاة ٥٦٩

- أقسام منافع الصلاة ٥٧١
- البحث الفقهي والبحث الأدبي ٥٧٢
- المنافع الأدبية للصلاة ٥٧٢
- أولاً: منافي الصحة ٥٧٣
- ما المقصود بـ (منافي الصحة)؟ ٥٧٥
- أيسر الرياء شرك!! ٥٧٥
- أقسام الرياء ٥٧٥
- ١- الرياء الخالص المحض ٥٧٦
- ٢- الرياء الممزوج المشوب ٥٧٦
- تحذير أهل البيت عليهم السلام من الرياء ٥٧٧
- العارفون والكامل والحذر من فخاخ الرياء ٥٨١
- نماذج مشرقة ٥٨٢

٥٨٢	سأجيبك فيما بعد!!
٥٨٣	مَنْ مثلي والشيخ البهائي يصلّي خلفي؟!
٥٨٣	ذاك الشيخ أعلم منّي وأكفاً!!
٥٨٥	كيف نميّز بين الرّياء والإخلاص؟!
٥٨٧	ثانيًا: منافي الكمال..
٥٨٩	ما المقصود بـ (منافي الكمال)؟
٥٩١	مقدار الآداب في الصلاة
٥٩٣	المصادر والمراجع
٦١٣	المحتويات